مختصر الميزان

في تفسير القرآن

[illegible]

المجلد الثالث

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الميزان فی تفسير القران

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فی الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

مختصر المیزان فی تفسیر القرآن المجلد ۳

اشاره

سرشناسه : طباطبایی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادی : [المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پدیدآور : مختصر المیزان فی تفسیر القران/ [محمدحسین الطباطبایی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۶

شابک : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-X۱۵۰۰۰ریال:(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۸(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۶(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۴(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۲(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۹(ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : عربی

عنوان دیگر : المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۵۸۷۹

ص :۱

اشاره

ص :5

سوره یونس و هی مائه و تسع آیات

اشاره

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ اَلْحَکِیمِ (۱) أَ کٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
اَلنّٰاسَ وَ بَشِّرِ اَلَّذِینَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قٰالَ اَلْکٰافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِینٌ (۲) إِنَّ رَبَّکُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ
وَ اَلْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِیعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۳)
إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اَللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ
شَرٰابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِیمٌ بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ (۴) هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِیٰاءً وَ اَلْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِینَ
وَ اَلْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ ذٰلِکَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ یُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِی اِخْتِلاٰفِ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ
وَ اَلْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ (۶) إِنَّ اَلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا وَ رَضُوا بِالْحَیٰاةِ اَلدُّنْیٰا وَ اِطْمَأَنُّوا بِهٰا وَ اَلَّذِینَ هُمْ عَنْ آیٰاتِنٰا غٰافِلُونَ (۷)
أُولٰئِکَ مَأْوٰاهُمُ اَلنّٰارُ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۸) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُمْ بِإِیمٰانِهِمْ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهٰارُ
فِی جَنّٰاتِ اَلنَّعِیمِ (۹) دَعْوٰاهُمْ فِیهٰا سُبْحٰانَکَ اَللّٰهُمَّ وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۰)

ص: ۷

بيان:

قوله تعالى: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ الإشاره باللفظ الدال على البعد للدلاله على ارتفاع مكانه القرآن و علو مقامه فإنه كلام اللّه النازل من عنده و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

و الآيه-و معناها العلامه-و إن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعانى او الأعيان الخارجيه كما فى قوله: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ (الشعراء١٩٧/)و فى قوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء٩١/)و كذا ما هو من قبيل القول كما فى قوله ظاهرا: وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (النحل١٠١/)و نحو ذلك

ص :٨

لکن المراد بالآيات هاهنا هی أجزاء الکلام الإلهی قطعا فإن الکلام فی الوحی النازل علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم و هو کلام متلو مقرو بأی معنی من المعانی صورنا نزول الوحی.

فالمراد بالآيات أجزاء الکتاب الإلهی،و تتعين فی الجمله من جهه المقاطع التی تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم،و لذلک ربما وقع الخلاف فی عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء کالکوفيين و البصريين و غيرهم.

و المراد بالکتاب الحکيم هو الکتاب الذی استقرت فيه الحکمه،و ربما قيل:إن الحکيم من الفعيل بمعنی المفعول و المراد به المحکم غير القابل للانثلام و الفساد،و الکتاب الذی هذا شأنه -و قد وصفه تعالی فی الآيه التاليه بأنه من الوحی-هو القرآن المنزل علی النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالی: أَ كٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ الی آخر الآيه؛ الاستفهام للإنکار فهو إنکار لتعجبهم من إيحاء اللّه الی رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوه القرآنيه.

و قوله: أَنْ أَنْذِرِ النّٰاسَ الخ؛تفسير لما أوحاه اليه،و يتبين به أن الذی ألقاه اليه من الوحی هو بالنسبه الی عامه الناس إنذار و بالنسبه الی الذين آمنوا منهم خاصه تبشير فهو لا محاله يضر الناس علی بعض التقادير و هو تقدير الکفر و العصيان و ينفعهم علی تقدير الايمان و الطاعه.

و قد فسّر البشری الذی أمره أن يبشّر به المؤمنين بقوله: «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه کما يشير اليه قوله: فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (القمر/۵۵)فإن الايمان لما استتبع الزلفی و المنزله عند اللّه کان الصدق فی الايمان يستتبع الصدق فی المنزله التی يستتبعها فلهم منزله الصدق کما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم علی المنزله و المکانه من الکنايه و لما کان إشغال المکان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم فی المکان إن کان فی الماديات،و فی المکانه و المنزله إن کان فی

المعنويات ثم أضيفت القدم الى الصدق،و هو صدق صاحب القدم فى شأنه أى قدم منسوبه الى صدق صاحبها او قدم هى صادقه لصدق صاحبها فى شأنه.

و هناك معنى آخر و هو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما و للكذب قدما و قدم الصدق هى التى تثبت و لا تزول.

و قوله: قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ أى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و قرئ «إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ» أى القرآن و مآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالسحر من جهه القرآن الكريم.

و الجمله كالتعليل لقوله: «كَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً» يمثل به معنى تعجّبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعاده المألوفه فى سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتولّه اليه النفوس فقالوا:إنه لسحر مبين،و إن الجائى به لساحر مبين.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّهِ أَيّٰامٍ لما ذكر فى الآيه السابقه عجبهم من نزول الوحى و هو القرآن على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى فى بيان ما كذّبوا به من الجهتين أعنى من جهه أن ما كذّبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه،و من جهه أن القرآن الذى رموه بالسحر كتاب إلهى حق و ليس من السحر الباطل فى شىء.

فقوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الخ؛شروع فى بيان الجهه الاولى و هى أن ما يدعوكم اليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبعوه.

و المعنى:إن ربكم معاشر الناس هو اللّه الذى خلق هذا العالم المشهود كله سماواته و أرضه فى سته أيام ثم استوى على عرش قدرته و قام مقام التدبير الذى اليه ينتهى كل تدبير و إداره فشرع يدبر أمر العالم،و إذا انتهى اليه كل تدبير من دون الاستعانه بمعين او الاعتضاد بأعضاد

لم یکن لشیء من الأشیاء أن یتوسط فی تدبیر أمر من الامور-و هو الشفاعه-إلاّ من بعد إذنه تعالی فهو سبحانه هو السبب الأصلی الذی لا سبب بالأصاله دونه،و من دونه من الأسباب أسباب بتسبیبه و شفعاء من بعد إذنه.

و إذا کان کذلک کان اللّه تعالی هو ربکم الذی یدبر امرکم لا غیره مما اتخذتموها أربابا من دون اللّه و شفعاء عنده،و هو المراد بقوله: «ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ» أی هلا انتقلتم انتقالا فکریا الی ما یستنیر به أن اللّه هو ربکم لا رب غیره بالتأمل فی معنی الألوهیه و الخلقه و التدبیر.

و قد تقدم الکلام فی معنی العرش و الشفاعه و الإذن و غیر ذلک فی ذیل قوله: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ (الأعراف/۵۴)فی الجزء الثامن من الکتاب.

قوله تعالی: إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا تذکیر بالمعاد بعد التذکیر بالبدء،و قوله: وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا من قیام المفعول المطلق مقام فعله،و المعنی:وعده اللّه وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذی له أصل فی الواقع یطابق الخبر فکون وعده تعالی بالمعاد حقا معناه کون الخلقه الإلهیه بنحو لا تتم خلقه إلاّ برجوع الأشیاء-و من جملتها الإنسان-الیه تعالی و ذلک کالحجر الهابط من السماء فإنه یعد بحرکته السقوط علی الأرض فإن حرکته سنخ أمر لا یتم إلاّ بالاقتراب التدریجی من الأرض و السقوط و الاستقرار علیها،و الأشیاء علی حال کدح الی ربها حتی تلاقیه،قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّکَ کٰادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاٰقِیهِ (الانشقاق/۶)فافهم ذلک.

قوله تعالی: إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛تأکید لقوله: «إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً» و تفصیل لإجمال ما یتضمنه من معنی الرجوع و المعاد.

و يمكن أن يكون فى مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» الخ؛أشير به الى حجتين من الحجج المستعمله فى القرآن لإثبات المعاد:أما قوله: «إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فلأن الجارى من سنّه اللّه سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمده من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى الى اجل معدود.

و ليس انتهاؤه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمه الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمه فإن ما أفاضه اللّه عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها الى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودا منها الى عنده و قد كانت نزلت من عنده،و ما عند اللّه باق فلم يكن إلّا بسطا ثم قبضا فاللّه سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمه،و يعيدها اليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛فإن الحجه فيه أن العدل و القسط الإلهى-و هو من صفات فعله-يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته،و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر بإذن اللّه.

فلا يبقى إلّا أن يفرّق اللّه بينهما بعدله بعد إرجاعهما اليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به او يتألمون.

فالحجه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

«بِالْقِسْطِ» هذا،و قوله: «لِيَجْزِيَ» متعلق بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» على ظاهر التقدير.

و يمكن أن يكون قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛متعلقا بقوله: «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره الى حجه واحده و هى الحجه الثانيه المذكوره،و الأقرب من جهه اللفظ هو

الأخير.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً الی آخر الآیه؛ الضیاء-علی ما قیل-مصدر ضاء یضوء ضوء و ضیاء کعاذ یعوذ عوذا و عواذا،و ربما کان جمع ضوء کسیاط جمع سوط،و اللفظ-علی ما قیل-علی تقدیر مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضیاء القمر ذا نور.

و کذلک قوله: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ ای و قدّر القمر ذا منازل فی مسیره ینزل کل لیله منزلا من تلک المنازل غیر ما نزله فی اللیله السابقه فلا یزال یتباعد من الشمس حتی یوافیها من الجانب الآخر،و ذلک فی شهر قمریّ کامل فترتسم بذلک الشهور و ترتسم بالشهور السنون،و لذلک قال «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ» .

و قوله: یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ من المحتمل أن یراد به التفصیل بحسب التکوین الخارجی او بحسب البیان اللفظی،و لعل الأول اقرب الی سیاق الآیه.

قوله تعالی: إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ قال فی المجمع:الاختلاف ذهاب کل واحد من الشیئین فی جهه غیر جهه الآخر فاختلاف اللیل و النهار ذهاب احدهما فی جهه الضیاء و الآخر فی جهه الظلام،انتهی.و الظاهر أنه مأخوذ من الخلف،و الأصل فی معناه أخذ أحد الشیئین الآخر فی جهه خلفه ثم اتسع فاستعمل فی کل تغایر کائن بین شیئین.

یقال:اختلفه ای جعله خلفه،و اختلف الناس فی کذا ضد اتفقوا فیه،و اختلف الناس الیه ای ترددوا بالدخول علیه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف اللیل و النهار إما ورود کل منهما علی الأرض خلف الآخر و هو توالی اللیل و النهار الراسم للأسابیع و الشهور و السنین،و إما اختلاف کل من اللیل و النهار فی أغلب بقاع الارض المسکونه فاللیل و النهار یتساویان فی الاعتدال الربیعی ثم یأخذ النهار فی

الزيـاده فى المنـاطق الشـماليه فيزيـد النهـار كـل يوم على النهـار السابق عليه حتى يبلغ اول الصـيف فيأخـذ فى النقيصه حتى يبلغ الاعتدال الخريفى و هو اول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل فى الزياده على النهار الى اول الشتاء و هو منتهى طول الليالى ثم يعود راجعا الى التساوى حتى ينتهى الى الاعتدال الربيعى و هـو اول الربيـع هـذا فى المنـاطق الشـماليه و الأـمر فى المنـاطق الجنوبيه بالخلاـف منه فكلمـا زاد النهـار طولاـ فى احد الجانبين زاد الليل طولا فى الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول بالليل و النهار هو الـذى يدبّر أمر اهل الارض بتسـليط حراره الأشـعه ثم بسط برد الظلمه و نشـر الرياح و بعث النـاس للحركه المعاشـيه ثم جمعهم للسـكن و الراحه، قـال تعـالى: وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَ جَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً وَ جَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً (النبأ١١/).

و الاختلاف الثانى هو الذى يرسم الفصول الاربعه السنويه التى يدبّر بها أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى: وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلِينَ (حم السجده١٠/).

قوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ لاـ يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياهِ الـدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها الى آخر الآيتين.شـروع فى بيان ما يتفرع على الـدعوه السابقه المذكوره بقوله: «ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» من حيث عاقبه الأمر فى استجابته و ردّه و طاعته و معصيته.

فبـدأ سـبحانه بالكـافرين بهـذا الأـمر فقـال «إِنَّ الَّذِينَ لاـ يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياهِ الـدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ» فوصـفهم أولا بعـدم رجائهم لقاءه،و هو الرجوع الى اللّه بالبعث يوم القيامه،و قـد تقدم الكلام فى وجه تسـميته بلقاء اللّه فى مواضع من هذا الكتاب و منها ما فى تفسـير آيه الرؤيه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء، و بإنكاره يسـقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهى،و بسقوطها يبطل الوحى و النبوه و ما يتفرع عليه من الدين السماوى.

ص :۱۴

و بإنكار البعث و المعاد ينعطف همّ الانسان على الحياه الدنيا فان الانسان و كذا كل موجود ذى حياه له همّ فطرى ضرورى فى بقائه و طلب لسعاده تلك الحياه فان كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الاخرويه معا فهو،و إن لم يذعن إلاّ بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقت همّته الفطريه بها،و رضى بها و سكن بسببها عن طلب الآخره،و هو المراد بقوله: «وَ رَضُوا بِالْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» .

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله: «وَ رَضُوا بِالْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» من لوازم القول الأول أعنى قوله: «لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» و هو بمنزله المفسر بالنسبه اليه،و أن الباء فى قوله: «اطْمَأَنُّوا بِهَا» للسببيه اى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخر.

و قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فان نسيان الآخره و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات اللّه.

و قوله: أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ لبيان لجزائهم بالنار الخالده قبال أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ الى آخر الآيه،هذا بيان لعاقبه أمر المؤمنين و ما يثيبهم اللّه على استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم،و إما يهديهم الى ربهم لأن الكلام فى عاقبه أمر من يرجو لقاء اللّه،و قد قال تعالى: وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ (الرعد/٢٧).فإنما يهدى الإيمان بإذن اللّه الى اللّه سبحانه و كلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هى وسائل و مدارج تنتهى بالآخره اليه تعالى،قال تعالى: وَ أَنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ (النجم/٤٢).

و قد وصف المؤمنين بالإيمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدايتهم اليه الى الإيمان وحده فإن

الإيمان هو الذى يصعد بالعبد الى مقام القرب،و ليس للعمل الصالح إلاّ اعانه الإيمان و إسعاده فى عمله كما قال تعالى: يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ (المجادله۱۱/)حيث ذكر للرفع الإيمان و العلم و سكت عن العمل الصالح،و أوضحه منه فى الدلاله قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ» (فاطر۱۰/).

هذا فى الهدايه التى هى شأن الإيمان،و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل الطالح دخلا فى أنواع العذاب و قد ذكر تعالى فى المؤمنين قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهٰارُ فِي جَنّٰاتِ النَّعِيمِ» كما ذكر فى الكافرين قوله: «أُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ» .

و ليتنبه الباحث المتدبّر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم،و من نعيمها الأنهار التى تجرى من تحتهم فيها،و قد تقدّم فى تفسير قوله تعالى:

صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد۷/)و قوله: فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ الآيه(النساء۶۹/)أن النعيم بحقيقه معناه فى القرآن الكريم هو الولايه الإلهيه،و قد خص اللّه أولياءه المقرّبين بنوع من شراب الجنه اعتنى به فى حقهم كما قال: إِنَّ الْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً (الإنسان۶/)،و قال أيضا إِنَّ الْأَبْرٰارَ لَفِي نَعِيمٍ -الى أن قال- يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ -الى أن قال- عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (المطفّفين۲۸/)،و عليك بالتدبّر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لك بعض ما أودعه اللّه سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفه.

قوله تعالى: دَعْوٰاهُمْ فِيهٰا سُبْحٰانَكَ اللّٰهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ أول ما يكرم به اللّه سبحانه أولياءه-و هم الذين ليس فى قلوبهم إلاّ اللّه و لا مدبّر لأمرهم غيره-أنه يطهّر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلاّ اللّه فلا يتعلقون بشىء إلاّ اللّه و فى اللّه سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر اللّه سبحانه،و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هـذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شـريك فى الاسم او فى المعنى او نقص او عدم،و تسبيح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولا و فعلا و لسانا و جنانا،و ما دون ذلك فإن له شوبا من الشرك،و قد قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف١٠۶/).

و هؤلاء الـذين طهّر اللّه قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلّا إياه و هو سـبحانه الخير الذى لا شر معه قال: وَ اللّٰهُ خَيْرٌ (طه٧٣/).

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السـلام أحـدا إلّا بخير و سـلام اللهم إلّا أن يكون الـذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدّل الخير و السلام شرا و ضرا كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلّا خسارا.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١۴]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَلشَّرَّ اِسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ اَلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ اَلضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلاٰئِفَ فِي اَلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١۴)

ص: ١٧

بيان:

قوله تعالى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ الخ؛تعجيل الشىء الإتيان به بسرعه و عجله،و الاستعجال بالشىء طلب حصوله بسرعه و عجله، و العمه شده الحيره.

و معنى الآيه:و لو يعجّل اللّه للناس الشر و هو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقه الدين يتحيرون فى طغيانهم أشد التحيّر.

قوله تعالى: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً الى آخر الآيه.الضر بالضم ما يمس الانسان من الضرر فى نفسه،و قوله: «دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً» أى دعانا منبطحا لجنبه،الخ؛و الظاهر أن الترديد للتعميم أى دعانا على أى حال من أحواله فرض من انبطاح او قعود او قيام مصرّا على دعائه لا ينسانا فى حال،و يمكن أن يكون «لِجَنْبِهِ» الخ؛أحوالا ثلاثه من الانسان لا من فاعل دعانا و العامل فيه «مَسَّ» و المعنى اذا مسّ الانسان الضر و هو منبطح او قاعد او قائم دعانا فى تلك الحال و هذا معنى ما ورد فى بعض المرسلات «دَعانا لِجَنْبِهِ» العليل الذى لا يقدر أن يجلس «أَوْ قاعِداً» الذى لا يقدر أن يقوم «أَوْ قائِماً» الصحيح.

و قوله: مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كنايه عن النسيان و الغفله عما كان لا يكاد ينساه.

و المعنى:و إذا مسّ الانسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره و أصرّ على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذى مسّه نسينا و ترك ذكرنا و انجذبت نفسه الى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زيّن للمسرفين المفرطين فى التمتع بالزخارف الدنيويه أعمالهم فأورثهم نسيان جانب

الربوبیه و الاعراض عن ذکر اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ الی آخر الآیه؛قد ظهر معناه مما تقدم،و فی الآیه التفات فی قوله: «مِنْ قَبْلِکُمْ» من الغیبه الی الخطاب،و کأن النکته فیه التشدید فی الإنذار لأن الإنذار و التخویف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غیره.

ثم فی قوله: کَذٰلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ التفات آخر بتوجیه الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و النکته فیه أنه إخبار عن السنّه الإلهیه فی أخذ المجرمین،و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم یکفروا،و هذا بخلاف قوله:

«وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ...

وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ» فإنه خبر تاریخی لا ضیر فی تصدیقهم به.

قوله تعالی: ثُمَّ جَعَلْنٰاکُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ معناه ظاهر،و فیه بیان أن سنّه الامتحان و الابتلاء عامه جاریه.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۱۵ الی ۲۵]

اشاره

وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا بَیِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنَا اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۵) قُلْ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاکُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۱۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ اَلْمُجْرِمُونَ (۱۷) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ یَضُرُّهُمْ وَ لاٰ یَنْفَعُهُمْ وَ یَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اَللّٰهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اَللّٰهَ بِمٰا لاٰ یَعْلَمُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۱۸) وَ مٰا کٰانَ اَلنّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ فِیمٰا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۹) وَ یَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا اَلْغَیْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِینَ (۲۰) وَ إِذٰا أَذَقْنَا اَلنّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ إِذٰا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیٰاتِنٰا قُلِ اَللّٰهُ أَسْرَعُ مَکْراً إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ (۲۱) هُوَ اَلَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ حَتّٰی إِذٰا کُنْتُمْ فِی اَلْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ وَ فَرِحُوا بِهٰا جٰاءَتْهٰا رِیحٌ عٰاصِفٌ وَ جٰاءَهُمُ اَلْمَوْجُ مِنْ کُلِّ مَکٰانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ لَئِنْ أَنْجَیْتَنٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۲۲) فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ یَبْغُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ مَتٰاعَ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ فَنُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳) إِنَّمٰا مَثَلُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا کَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ اَلْأَرْضِ مِمّٰا یَأْکُلُ اَلنّٰاسُ وَ اَلْأَنْعٰامُ حَتّٰی إِذٰا أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ اِزَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهٰا أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَیْهٰا أَتٰاهٰا أَمْرُنٰا لَیْلاً أَوْ نَهٰاراً فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۴) وَ اَللّٰهُ یَدْعُوا إِلیٰ دٰارِ اَلسَّلاٰمِ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۵)

ص: ۱۹

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذا تُتْلی عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ هؤلاء المذكورون فی الآيه كانوا قوما و ثنيين يقدّسون الأصنام و يعبدونها،و من سننهم التوغل فی المظالم و الآثام و اقتراف المعاصی،و القرآن ينهی عن ذلک كله،و يدعو الی توحيد اللّه تعالی و رفض الشركاء،و عباده اللّه مع التنزه عن الظلم و الفسق و اتباع الشهوات.

و من المعلوم أن كتابا هذا شأنه اذا تليت آياته علی قوم ذلک شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوه المخالفه فلو قالوا:ائت بقرآن غير هذا دلّ علی انهم يقترحون قرآنا لا يشتمل علی ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوه الی رفض الشركاء و اتقاء الفحشاء و المنكر،و إن قالوا:بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته الی ما يوافقها حتی يقع منهم موقع القبول،و ذلک كالشاعر ينشد من شعره او القاصّ يقصّ القصه فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون:ائت بغيره او بدّله،و فی ذلک تنزل القرآن أنزل مراتب الكلام و هو لهو الحديث الذی إنما يلقی لتلهو به نفس سامعه و تنشط به عواطفه ثم

ص: ٢١

لا يستطيبه السامع فيقول:ائت بغير هذا او بدّله.

فبـذلک يظهر أن قولهم اذا تليت عليهم آيـات القرآن: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا» يريـدون به قرآنـا لاـ يشـتمل من المعـارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترک هذا و يؤتى بذاک،و قولهم:

«أَوْ بَـدِّلْهُ» أن يغيّر مـا فيه من المعارف المخالفه لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصـله فهـذا هو الفرق بين الإتيان بغيره و بين تبديله.

و فى قوله: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا التفات من الخطاب الى الغيبه،و الظاهر أن النکته فيه أن يکون توطئه الى إلقاء الأمر الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلم بقوله: «قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» الخ؛فان ذلک لا يتم إلاّ بصـرف الخطاب عنهم و توجيه اليه صـلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعـالى: قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَـدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِـي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ الى آخر الآيه التلقاء،بکسـر التاء مصـدر کاللقاء نظير التبيان و البيان و يستعمل ظرفا.

و اللّه سـبحانه على مـا أجـاب عن مقترحهم بقولهم: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَـدِّلْهُ» فى أثناء کلامه بقوله: «بَيِّنٰاتٍ» فإن الآيات إذا کانت بيّنات ظاهره الاسـتناد الى اللّه سـبحانه کشـفت کشـفا قطعيّا عما يريده اللّه سـبحانه منهم من رفض الأصنام و الاجتناب من کل ما لا يرتضـيه بما أوحى الى رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم من تفصيل دينه؛ردّ سؤالهم اليهم تفصيلا بتلقين نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحجه فى ذلک بقوله: «قُلْ مٰا يَكُونُ لِي» الى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ الخ؛جواب عن قولهم: أَوْ بَدِّلْهُ و معناه:قل لا أملک-و ليس لى بحق-أن أبدّله من عند نفسى لأنه ليس بکلامـى و إنمـا هو وحى إلهىّ أمرنى ربى أن أتّبعه و لاـ أتّبع غيره،و إنمـا لا أخالف أمر ربى لأنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم و هو يوم لقائه.

فقوله: مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ نفى الحق و سلب الخيره،و قوله: إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ

مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: مٰا يَكُونُ لِي و قوله: إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي الخ،فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: إِنْ أَتَّبِعُ الخ؛بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهى.

و فى قوله: إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ نوع محاذاه لما فى صدر الكلام من قوله: قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ الخ؛فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد و عدم رجائهم لقاء اللّه فقابلهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمر من ربه بقوله: «إِنِّي أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» فيؤول المعنى الى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء اللّه لكننى لا أشك فيه فلا يمكننى إجابتكم اليه لأنى أخاف عذاب يوم اللقاء،و هو يوم عظيم.

و فى تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائده الإنذار مضافا الى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسب.

قوله تعالى: قُلْ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ أدراكم به أى أعلمكم اللّه به،و العمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء،و إذا استعمل فى القسم كقولهم:لعمرى و لعمرك تعين الفتح.

و هذه الآيه تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم و هو قولهم: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا» و معناها على ما يساعد عليه السياق:أن الأمر فيه الى مشيّه اللّه لا-الى مشيّتى فإنما أنا رسول و لو شاء اللّه أن ينزّل قرآنا غير هذا و لم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم و لا أدراكم به فإنى مكثت فيكم عمرا من قبل نزول القرآن و عشت بينكم و عاشرتكم و عاشرتمونى و خالطتكم و خالطتمونى فوجدتمونى لا خبر عندى من وحى القرآن،و لو كان ذلك إلىّ و بيدى لبادرت اليه قبل ذلك،و بدت من ذلك آثار و لاحت لوائحه،فليس إلىّ من الأمر شىء،و إنما الأمر فى ذلك الى مشيّه اللّه و قد تعلّقت مشيّته بهذا القرآن لا غيره أ فلا تعقلون؟

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ استفهام إنكارى أى لا أحد أظلم و أشهد إجراما من هذين الفريقين:

المفترى على اللّه كذبا،و المكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمه من يتعلق به و اذا اختص بجنب اللّه كان أشد الظلم.

و ظاهر سياق الاحتجاج فى الآيتين أن هذه الآيه من تمامها و المعنى:لا أجيبكم الى ما اقترحتم علىّ من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إلىّ و لا لى حقّ فيه،و لو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس و أشدهم إجراما و لا يفلح المجرمون فإنى لو بدّلت القرآن و غيّرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على اللّه كذبا و لا أظلم منه،و لو تركت هذا القرآن و جئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات اللّه،و لا أظلم منه.

و ربما احتمل كون الاستفهام الإنكارى بشقّيه تعريضا للمشركين أى أنتم أظلم الناس بإثباتكم للّه شركاء و هو افتراء الكذب على اللّه و بتكذيبكم بنبوّتى و الآيات النازله علىّ و هو تكذيب بآيات اللّه و لا يفلح المجرمون.

قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّهِ الى آخر الآيه،الكلام:موجّه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه،و ذلك لمكان «مٰا» و كون السوره مكّيه من أوائل ما نزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام و يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها و بأربابها الى رب الأرباب و هو اللّه سبحانه،و يقولون:إننا على ما بنا من ألواث البشريه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه و هم أرباب الأصنام الذين فوّض اللّه اليهم أمر تدبير خلقه،و نتقرب اليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند

اللّه لتجلب الينا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه،و الشفاعه لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع فى الكلام قوله: مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطئهم فى مزعمتهم،و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّه نافعه فى الامور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبّادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند اللّه إن كان اللّه يرتضى شفاعتهم و هؤلاء اجسام ميته لا تشعر بشىء و لا تضرّ و لا تنفع شيئا.

و قد أمر اللّه سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعه-مضافا الى ما يلوّح اليه قوله: لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ -بقوله: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ و محصّله أن اللّه سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء فى شىء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم،و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره،و كيف يكون فى الوجود شىء لا يعلم به اللّه و هو يعلم ما فى السماوات و الأرض؟

فالاستفهام إنكارى،و نفى العلم بوجود الشفعاء كنايه عن نفى وجودها،و لعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعه مما يتقوّم بالعلم ذاته فإن الشفاعه إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعه عنده و هو لا يعلم.

و قوله: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ كلمه تنزيه،و هى من كلام اللّه و ليست مقوله قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فان ظرف المشركين بالنسبه اليه هو الخطاب دون الغيبه فلو كان من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لقيل:عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ النّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره۲۱۳/)أن الآیه تکشف عن نوعین من الاختلاف بین الناس.

أحدهما:الاختلاف من حیث المعاش و هو الذی یرجع الی الدعاوی و ینقسم به الناس الی مدّع و مدّعی علیه و ظالم و مظلوم و متعدّ و متعدّی علیه و آخذ بحقه و ضائع حقه،و هذا هو الذی رفعه اللّه سبحانه بوضع الدین و بعث النبیین و إنزال الکتاب معهم لیحکم بین الناس فیما اختلفوا فیه،و یعلّمهم معارف الدین و یواجههم بالإنذار و التبشیر.

و ثانیهما:الاختلاف فی نفس الدین و ما تضمنه الکتاب الإلهی من المعارف الحقه من الاصول و الفروع،و قد صرّح القرآن فی مواضع من آیاته أن هذا النوع من الاختلاف ینتهی الی علماء الکتاب بغیا بینهم،و لیس مما یقتضیه طباع الإنسان کالقسم الأول،و بذلک ینقسم الطریق الی طریقی الهدایه و الضلال فهدی اللّه الذین آمنوا لما اختلفوا فیه من الحق،و قد ذکر سبحانه فی مواضع من کلامه بعد ذکر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من اللّه سبق لحکم بینهم فیما اختلفوا فیه و لکن یؤخرهم الی أجل،قال تعالی وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشوری۱۴/)الی غیر ذلک من الآیات.

و سیاق الآیه السابقه أعنی قوله تعالی: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ الخ؛لا یناسب من الاختلافین المذکورین إلّا الاختلاف الثانی و هو الاختلاف فی نفس الدین لأنها تذکر رکوب الناس طریق الضلال بعبادتهم ما لا یضرّهم و لا ینفعهم و اتخاذهم شفعاء عند اللّه،و مقتضی ذلک أن یکون المراد من کون الناس سابقا أمه واحده کونهم علی دین واحد و هو دین التوحید ثم اختلفوا فتفرقوا فریقین موحّد و مشرک.

فذکر اللّه فیها أن اختلافهم کان یقضی أن یحکم اللّه بینهم باظهار الحق علی الباطل و فیه هلاک المبطلین و إنجاء المحقین لکن السابق من الکلمه الإلهیه منعت من القضاء بینهم،و الکلمه

هی قوله تعالی لما أهبط الإنسان الی الدنیا: وَ لَکَمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلی حِینٍ (البقره۳۶/).

قوله تعالی: وَ یَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ الآیه؛کقوله قبلها: «وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ» و قوله قبله: «وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا» تعد أمورا من مظالم المشرکین فی أقوالهم و أعمالهم ثم ترد علیها بحجج تلقنها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لیقیمها علیهم کما مرّ فی أول الآیات فقوله: «وَ یَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ» الخ؛عطف علی قول فی أول الآیات «وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا».

و فیها مع ذلک عود بعد عود الی إنکارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: «لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» و إن کان طلب آیه أخری غیر القرآن لکنهم إنما قالوه إزراء و تحقیرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عدّه آیه إلهیه و الدلیل علیه قوله تعالی: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلّهِ» و لم یقل «قل»کما قال فی سائر الآیات کأنه یقول:و یطلبون منک آیه أخری غیر مکتفین بالقرآن و لا راضین به فإذا لم یکتفوا به آیه فقل:إنما الآیات من الغیب المختص باللّه و لیست بیدی فانتظروا إنی معکم من المنتظرین.

فهذا هو المستفاد من الآیه و فیها دلاله علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان ینتظر آیه فاصله بین الحق و الباطل غیر القرآن قاضیه بینه و بین أمته،و سیجیء الوعد الصریح منه بهذه الآیه-التی یأمر بانتظارها هاهنا-فی قوله: وَ إِمّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ (یونس۴۶/)الی تمام عده آیات.

قوله تعالی: وَ إِذا أَذَقْنَا النّاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیاتِنا الی آخر الآیه؛مضمون الآیه و إن کان من المعانی العامه الجاریه فی أغلب الناس فی اکثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا یخلو عن أن یمسه سراء بعد ضراء بل قلما یتفق أن لا یتکرر فی حقه ذلک لکن الآیه من جهه السیاق المتقدم کأنها مسوقه للتعریض

للمشـركين و مكرهم فى آيات اللّه،و الـدليل عليه قوله: «قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء و الضـراء بعد ظهورها،و من مكرهم مكرهم فى القرآن الذى هو آيه إلهيه و رحمه أذاقهم اللّه إياها بعد ضـراء الجهاله العالقه بهم و شـمول ضنك العيش و الذّله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم يمكرون به فتاره يقولون «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ» و تاره يقولون «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

فالآـيه تبين لهم أن هـذا كله مكر يمكرونه فى آيـات اللّه،و تبين لهـم أن المكر بآيـات اللّه لاـ يعقب إلاّ السوء من غير أن ينفعهم شيئا فإن اللّه أسرع مكرا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات اللّه عين مكر اللّه بهم.

فمعنى الآيه «وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ» عبر عن الإصابه بالإذاقه للايماء الى التذاذهم بالرحمه و عنايه بالقله فإن الذوق يستعمل فى القليل من التغـذى «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ» و التعبير بـالرحمه فى موضع السـراء للإشـاره الى أنهـا من الرحمه الإلـهيه من غير أن يستوجبوا ذلک فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه،و يخضـعوا لما تـدعو اليه الآيه و هو توحيد ربهم و شـكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلک «إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيٰاتِنٰا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلاله الآيات كقولهم: «قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا الضَّرّٰاءُ وَ السَّرّٰاءُ» و الاعتذار بما لا يرتضيه اللّه كقولهم:

«لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» و قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا».

فأمر اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يجيبهم بقوله: «قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً» ثم علله بقوله: «إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ» فلنا عليكم شـهداء رقباء أرسـلناهم اليكم يكتبون اعمالكم و يحفظونها، و بمجرد ما عملتم عملا حفظ عليكم و تعيّن جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه.

و هنا شيء و هو أن الظاهر من قوله تعالى: هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا كُنّٰا

نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه/۲۹)على ما سيجىء من البيان فى تفسير الآيه ان شاء اللّه تعالى أن معنى كتابه الملائكه اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كمون الاستعدادات الى مرحله الفعليه الخارجيه و رسم نفس الاعمال فى صحيفه الكون و بذلك تنجلى عليّه كتابه الرسل لأعمالهم لكونه تعالى اسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقه المعنى على هذا:أنّا نحن نخرج اعمالكم التى تمكرون بها من داخل ذواتكم و نضعها فى الخارج فكيف يخفى علينا كونهم تريدون بنا المكر بذلك؟و هل المكر إلاّ صرف الغير عمّا يتصده بحيله و ستر عليه بل ذاك الذى تزعمونه مكرا بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرا و تقدمون على المكر بنا،و هذه المزعمه و الاقدام ضلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم،و سيأتى نظير هذا المعنى فى قوله: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ الآيه ۲۳ من السوره.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى الخطاب فى قوله: إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ على قراءه تمكرون بتاء الخطاب و هى القراءه المشهوره،و هو من عجيب الالتفات الواقع فى القرآن و لعل النكته فيه تمثيل معنى قوله: قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً فى العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً» اراد ان يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلّمهم و أوضح لهم السبب فى كونه اسرع مكرا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا الى غيبتهم و عاد الكلام الى حاله،و خوطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببقيه الخطاب «هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ» الخ؛و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِی الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ الى آخر الآيه؛الفلك السفينه و تستعمل مفردا و جمعا،و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ و الريح العاصف:الشديده الهبوب،و قوله: أُحِيطَ بِهِمْ كنايه عن الاشراف على الهلاك،و تقديره احاط بهم البلاء او الامواج،و الاشاره بقوله: «مِنْ هٰذِهِ» الى الشده.و معنى الآيه ظاهر.

و فیها من عجیب الالتفات الالتفات من الخطاب الی الغیبه فی قوله: وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ -الی قوله- بِغَیْرِ الْحَقِّ و لعل النکته فیه ارجاعهم الی الغیبه و توجیه الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و وصف اعجب جزء من هذه القصه الموصوفه له لیسمعه و یتعجب منه،و یکون فیه مع ذلک اعراض عن الامر بمخاطبتهم لأنهم لا یفقهون القول.

قوله تعالی: فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ اصل البغی هو الطلب و یکثر استعماله فی مورد الظلم لکونه طلبا لحق الغیر بالتعدی علیه و یقیّد حینئذ بغیر الحق،و لو کان بمعنی الظلم محضا لکان القید زائدا.

و الجمله من تتمه الآیه السابقه،و المجموع اعنی قوله: هُوَ الَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ -الی قوله- بِغَیْرِ الْحَقِّ بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه الی عموم قوله قبله: «وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ» الی آخر الآیه،او لخصوص قوله: قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَکْراً و علی ای حال فقوله: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ الخ؛مما یتوقف علیه تمام الغرض من الکلام فی الآیه السابقه و ان لم یکن من کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فافهم ذلک.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ مَتٰاعَ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ الی آخر الآیه؛فی الکلام التفات من الغیبه الی الخطاب فقوله: «یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ» الخ؛خطاب منه تعالی للناس بلا واسطه،و لیس من کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مما امره اللّه سبحانه ان یخاطب به الناس.

و الدلیل علی ذلک قوله تعالی: ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُکُمْ الی آخر الآیه؛فانه لا یصلح ان یکون من خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و النکته فی هذا الالتفات هی نظیر النکته التی قدّمنا ذکرها فی قوله تعالی فی اول الکلام:

«إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ» فکأنه سبحانه یفاجئهم بالاطلاع علیهم اثناء ما یخاطبهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هم یحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن نیّاتهم و مقاصدهم فی اعمالهم

فیشرف علیهم و یمثل بذلک کونه معهم فی جمیع احوالهم و احاطته بهم و یقول لهم:انا اقرب الیکم و الی اعمالکم منکم فما تعملونه من عمل تریدون به ان تبتغوا علینا و تمکروا بنا انما توجد بتقدیرنا و تجری بأیدینا فکیف یمکنکم ان تبغوا بها علینا؟بل هی بغی منکم علی انفسکم فانها تبعدکم منا و تکتب آثامها فی صحائف اعمالکم فبغیکم علی انفسکم و هو متاع الحیاه الدنیا تتمتعون به ایاما قلائل ثم الینا مرجعکم فنخبرکم و نوضح لکم هناک حقائق اعمالکم.

و قوله: مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا بالنصب فی قراءه حفص عن عاصم و التقدیر:تتمتعون متاع الحیاه الدنیا،و بالرفع فی قراءه غیره و هو خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر هو ای بغیکم و عملکم متاع الحیاه الدنیا.

و علی کلتا القراءتین فقوله: «مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا» الی آخر الآیه،تفصیل لإجمال قوله:

«إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ» فقوله: «مَتٰاعَ» الخ؛فی مقام التعلیل بالنسبه الی کون بغیهم علی انفسهم من قبیل تعلیل الاجمال بالتفصیل و بیانه به.

قوله تعالی: إِنَّمٰا مَثَلُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ السَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛لمّا ذکر سبحانه فی الآیه السابقه متاع الحیاه الدنیا مثّل له بهذا المثل یصف فیه من حقیقه امره ما یعتبر به المعتبرون،و هو من الاستعاده التمثیلیه و لیس من تشبیه المفرد بالمفرد من شیء و ان اوهم ذلک قوله: «كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ» ابتداء،و نظائره شائعه فی امثال القرآن،و الزخرف الزینه و البهجه،و قوله: «لَمْ تَغْنَ» من غنی فی المکان اذا اقام فیه فأطال المقام،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ يَدْعُوا إِلىٰ دٰارِ السَّلاٰمِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو الی ما یدعی الیه و جلب توجهه و هو اعم من النداء فان النداء یختص بباب اللفظ و الصوت،و الدعاء یکون باللفظ و الاشاره و غیرهما،

ص :۳۱

و النداء انما يكون بالجهر و لا يقيّد به الدعاء.

و الدعاء فى اللّه سبحانه تكوينى و هو ايجاد ما يريده لشىء كأنه يدعوه الى ما يريده،قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء۵۲/)اى يدعوكم الى الحياه الاخرويه فتستجيبون الى قبولها،و تشريعى و هو تكليف النامن بما يريده من دين بلسان آياته، و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنايته الى نفسه بنصب نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه،و لذا كانت العباده فى الحقيقه دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه فى مقام المملوكيه و الاتصال بمولاه بالتبعيه و الذله ليعطفه بمولويته و ربوبيته الى نفسه و هو الدعاء.

و الى ذلك يشير قوله تعالى: وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ (المؤمن ۶۰/)حيث عبّر اولا بالدعاء ثم بدّله ثانيا العباده.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشاره

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا اَلْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۶) وَ اَلَّذِينَ كَسَبُوا اَلسَّيِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَيِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ كَأَنَّمٰا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اَللَّيْلِ مُظْلِماً أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۷) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ (۲۹) هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰)

بیان:

قوله تعالی: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ وَ زِیٰادَةٌ وَ لاٰ یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ الخ؛الحسنی مؤنّث أحسن و المراد المثوبه الحسنی،و المراد بالزیاده الزیاده علی الاستحقاق بناء علی أن اللّه جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا للعامل فی مثل قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران۱۹۹/)ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أیضا حقا للعامل کما فی قوله: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا (الأنعام/ ۱۶۰)و عند ذلک کان مفاد قوله: «لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ» استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنی،و تکون الزیاده هی الزیاده علی مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظیر ما یفیده قوله: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (النساء۱۷۳/).

و لو کان المراد بالحسنی فی قوله: «لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ» العاقبه الحسنی،و لیس فیما یعقل فوق الحسنی شیء کان معنی قوله: «وَ زِیٰادَةٌ» الزیاده علی ما یعقله الإنسان من الفضل الإلهی کما یشیر الیه قوله: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ (الم السجده۱۷/) و ما فی قوله: لَهُمْ مٰا یَشٰاؤُنَ فِیهٰا وَ لَدَیْنٰا مَزِیدٌ (ق۳۵/)فإن من المعلوم أن کل أمر حسن یشاؤه الإنسان فالمزید علی ما یشاؤه أمر فوق ما یدرکه فافهم ذلک.

و الرهق بفتحتین اللحوق و الغشیان یقال:رهقه الدّین أی لحق به و غشیه،و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود،و فی توصیفهم بقوله: وَ لاٰ یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ

محاذاه لما فی الآیه التالیه من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر و هو سواد صوری و الذله و هی سواد معنوی.

و المعنی:للذین أحسنوا فی الدنیا المثوبه الحسنی و زیاده من فضل اللّه-أو العاقبه الحسنی و زیاده لا تخطر ببالهم-و لا یغشی وجوههم سواد من قتر و لا ذله،و أولئک أصحاب الجنه هم فیها خالدون.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّهٌ الی آخر الآیه؛جمله «جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا» مبتدأ لخبر محذوف و التقدیر:لهم جزاء سیّئه بمثلها من العذاب،و الجمله خبر للمبتدإ الذی هو قوله: «الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئٰاتِ» و المراد أن الذین کسبوا السیئات لا یجزون إلاّ مثل ما عملوه من العقوبات السیئه فجزاء فعله سیئه عقوبه سیئه.

و قوله: مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ أی ما لهم عاصم یعصمهم من اللّه أی من عذابه و فیه نفی لشرکائهم الذین یظنونهم شفعاء علی وجه ینفی کل عاصم مانع سواء کان شریکا شفیعا أو ضدا قویا ممانعا أو أی عاصم غیرهما.

و قوله: کَأَنَّمٰا أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً القطع جمع قطعه و مظلما حال من اللیل،و المراد کأن اللیل المظلم قسّم الی قطع فاغشیت وجوههم تلک القطع فاسودّت بالتمام،و المتبادر منه أن یغشی وجه کل من المشرکین بقطعه من تلک القطع لا کما فسّره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشیت تلک القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض.فلیس فی الکلام ما یدل علی ذلک.

و قوله: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ یدل علی دوام بقائهم فی النار للدلاله الصحابه و الخلود علیه کما أن نظیره فی أصحاب الجنه یدل علی نظیره.

قوله تعالی: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ

وَ شُرَكاؤُكُمْ الی آخر الآیه؛المراد حشر جمیع من سبق ذکره من المؤمنین و المشرکین و شرکائهم فإنه تعالی یذکر المشرکین و شرکاءهم فی هذه الآیه و ما یتلوها ثم یشیر الی الجمیع بقوله فی الآیه التالیه: «هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ».

و قوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکاؤُکُمْ أی الزموا مکانکم أنتم و لیلزم شرکاؤکم مکانهم و تفرع علی هذا الخطاب أن زیّلنا بینهم،و قطعنا الرابطه التی کانت تربطهم بشرکائهم و هی رابطه الوهم و الحسبان التی یتصلون بسببها بشرکائهم فانقطعوا عن شرکائهم و انقطع شرکاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع علیهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشرکاء و هم لیسوا بشرکاء.

قوله تعالی: فَکَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ الی آخر الآیه؛ظهر معناه بما مرّ من التقریر،و الفاء فی قوله: «فَکَفیٰ بِاللّٰهِ» یفید التعلیل کقولنا:اعبد اللّه فهو ربک،و هو شائع فی الکلام.

قوله تعالی: هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ الی آخر الآیه؛البلاء الاختبار، و الاشاره بقوله: «هُنالِکَ» الی الموقف الذی ذکره بقوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکاؤُکُمْ فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ.

فذلک الموقف موقف تختبر و تمتحن کل نفس ما أسلفت و قدّمت من الأعمال فتنکشف لها حقیقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عیان لا مجرد الذکر او البیان،و بمشاهده الحق من کل شیء عیانا ینکشف أن المولی الحقّ هو اللّه سبحانه،و تسقط و تنهدم جمیع الأوهام،و تضل جمیع الدعاوی التی یفتریها الانسان بأوهامه و أهوائه علی الحقّ.

فهذه الافتراءات و الدعاوی جمیعا إنما نشأت من حیث الروابط التی نضعها فی هذه الدنیا بین الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولویه التی نعطیها الأسباب و لا إله إلاّ اللّه و لا مولی حقا إلاّ هو سبحانه فإذا انجلت حقیقه الأمر،و انکشف غیم الوهم و انهتک حجاب الدعاوی

ص :35

ظهر أن لا مولی حقا إلّا هو سبحانه،و بطل جمیع الآلهه التی إنما أثبتها الافتراء من الانسان، و سقطت و حبطت جمیع الاعمال إلّا ما عبد به اللّه سبحانه عباده حقّ.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۳۱ الی ۳۶]

اشاره

قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَمَّنْ یَمْلِکُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ مَنْ یُخْرِجُ اَلْحَیَّ مِنَ اَلْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ اَلْمَیِّتَ مِنَ اَلْحَیِّ وَ مَنْ یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ فَسَیَقُولُونَ اَللّٰهُ فَقُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۳۱) فَذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمُ اَلْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ اَلْحَقِّ إِلاَّ اَلضَّلاٰلُ فَأَنّٰی تُصْرَفُونَ (۳۲) کَذٰلِکَ حَقَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ عَلَی اَلَّذِینَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۳۳) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکٰائِکُمْ مَنْ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ قُلِ اَللّٰهُ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکٰائِکُمْ مَنْ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ قُلِ اَللّٰهُ یَهْدِی لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ یَهِدِّی إِلاّٰ أَنْ یُهْدیٰ فَمٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ (۳۵) وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ اَلْحَقِّ شَیْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا یَفْعَلُونَ (۳۶)

ص: ۳۶

بیان:

قوله تعالی: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ الی آخر الآيه؛الرزق هو العطاء الجاری،و رزقه تعالی للعالم الانسانی من السماء هو نزول الامطار و الثلوج و نحوه،و من الارض هو بانباتها نباتها و تربیتها الحیوان و منهما یرتزق الانسان،و ببرکه هذه النعم الالهیه یبقی النوع الانسانی و المراد بملک السمع و الابصار کونه تعالی متصرفا فی الحواس الانسانیه التی بها ینتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفه التی اذن اللّه تعالی ان یتمتع بها فانما هو یشخص و یميّز ما یریده مما لا یریده باعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فیتحرک نحو ما یریده،و یتوقف او یفر مما یکرهه بها.

فالحواس هی التی تتم بها فائده الرزق الالهی،و انما خص السمع و البصر من بینها بالذکر لظهور آثارهما فی الأعمال الحیویه اکثر من غیرهما،و اللّه سبحانه هو الذی یملکها و یتصرف فیهما بالاعطاء و المنع و الزیاده و النقیصه.

و قوله: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ الحیاه بحسب النظر البادئ فی الانسان هی المبدأ الذی یظهر به العلم و القدره فی الشیء فیصدر اعماله عن العلم و القدره ما دامت الحیاه،و اذا بطلت بطل الصدور کذلک.

قوله تعالی: فَذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ الجمله الاولی نتیجه الحجه السابقه،و قد وصف الرب بالحق لیکون توضیحا لمفاد الحجه،و توطئه و تمهیدا لقوله بعده: «فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ» .

و قوله: اَلْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ أخذ بلازم الحجه السابقه لاستنتاج أنهم ضالون فی عباده الاصنام فانه اذا کانت ربوبیته تعالی حقه فان الهدی فی اتباعه و عبادته فان الهدی مع الحق لا غیر فلا یبقی عند غیره الذی هو الباطل إلا

الضلال.

فتقـدير الكلام:فما ذا بعـد الحق الـذى معه الهـدى إلاّ الباطل الـذى معه الضـلال فحذف من كل من الطرفين شـىء و أقيم الباقى مقـامه ايجازا،و قيل:فما ذا بعـد الحق إلاّ الضـلال،و لـذا قال بعضـهم:ان فى الآيه احتباكا-و هو من المحسـنات البـديعيه-و هو أن يكون هنـاک متقابلان فيحـذف من كل منهما شـىء يـدل عليه الآخر فان تقـدير الكلام:فما ذا بعـد الحق إلاّ الباطل؟ و ما ذا بعد الهدى إلاّ الضلال؟فحذف الباطل من الأول و الهدى من الثانى و بقى قوله:فما ذا بعد الحق إلاّ الضلال؟و الوجه هو الذى قدّمناه.

ثم تمم الآيه بقوله: فَأَنّى تُصْرَفُونَ اى الى متى تصرفون عن الحق الذى معه الهدى الى الضلال الذى مع الباطل.

قوله تعالى: كَذٰلِکَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّکَ عَلَى الَّذِينَ فَسَـقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ظاهر السـياق ان الكلمه التى تكلم اللّه سـبحانه بها على الفاسـقين هى انهم لا يؤمنون اى أنه سـبحانه قضى عليهم قضاء حتما و هو ان الفاسقين-و هم على فسقهم-لا يؤمنون و لا تنالهم الهدايه الالهيه الى الايمان،و قد قال تعالى: وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (المائده١٠٨/).

و على هذا فالاشاره بقوله: كَذٰلِکَ الى ما تحصل من الآيه السابقه:ان المشـركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فى الضلال اذ ليس بعد الحق إلاّ الضلال.

فمعنى قـوله: كَذٰلِکَ حَقَّتْ كَلِمَـهُ رَبِّکَ الـخ؛ان الكلمـه الالـهيه و القضـاء الحتمى الـذى قضـى بـه فى الفاسـقين-و هـو أنهم لا يؤمنون-هكـذا حقت و ثبتت فى الخارج و اخـذت مصداقها و هو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا فى الضـلال اى إنا لم نقض عدم هدى الفاسـقين و عدم إيمانهم ظلما و لا جزافا و انما قضـينا ذلک لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فى الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلک.

و فی الآیه دلاله علی ان الامور الضروریه و الاحکام و القوانین البیّنه التی تجری فی النظام المشهود کقولنا:لا واسطه بین الحق و الباطل و لا بین الهدی و الضلال لها نوع استناد الی القضاء الالهی،و لیست ثابته فی ملکه تعالی من تلقاء نفسها.

قوله تعالی: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکائِکُمْ مَنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ الی آخر الآیه؛تلقین للاحتجاج من جهه المبدإ و المعاد فان الذی یبدأ کل شیء ثم یعیده یستحق ان یعبده الانسان اتقاء من یوم لقائه لیأمن من ألیم عذابه و ینال عظیم ثوابه یوم المعاد.

و لما کان المشرکون-و هم المخاطبون بالحجه-غیر قائلین بالمعاد أمر تعالی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ان یتصدی جواب سؤاله بنفسه و قال «قُلِ اللّٰهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ» و الی متی تصرفون عن الحق.

قوله تعالی: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکائِکُمْ مَنْ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ قُلِ اللّٰهُ یَهْدِی لِلْحَقِّ الی آخر الآیه؛یهدی للحق و الی الحق بمعنی واحد فالهدایه تتعدی بکلتا الحرفین، و قد رود تعدیتها باللام فی مواضع کثیره من کلامه تعالی کقوله: أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ (الم السجده۲۶/)،و قوله: یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ (الإسراء۹/)الی غیر ذلک فما ذکره بعضهم من کون اللام فی قوله: «یَهْدِی لِلْحَقِّ» للتعلیل لیس بشیء.

لقّن سبحانه نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم هذه الحجه و هی ثالثه الحجج،و هی حجه عقلیه یعتمد علیها الخاصه من المؤمنین،و توضیحها ان من المرتکز فی الفطره الانسانیه و به یحکم عقله ان من الواجب علی الانسان ان یتّبع الحق حتی انه ان انحرف فی شیء من اعماله عن الحق و اتّبع غیره لغلط او شبهه او هوی فانما اتبعه لحسبانه ایاه حقا و التباس الأمر علیه،و لذا یعتذر عنه بما یحسبه حقا فالحق واجب الاتباع علی الاطلاق و من غیر قید او شرط.

و الهادی الی الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق،و من الواجب ترجیحه علی من لا

یهدی الیه او یهدی الی غیره لأن اتباع الهادی الی الحق اتباع لنفس الحق الذی معه وجوب اتباعه ضروری (۱).

و قوله فی ذیل الآیه: فَمٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ استفهام للتعجیب استغرابا لحکمهم باتباع شرکائهم مع حکم العقل الصریح بعدم جواز اتّباع من لا یهتدی و لا یهدی الی الحق.

قوله تعالی: وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً أغنی یغنی یتعدّی بمن و عن کلتیهما و قد جاء فی الکلام الإلهی بکل من الوجهین فعدیّ بمن کما فی الآیه،و بعن کما فی قوله: مٰا أَغْنیٰ عَنِّی مٰالِیَهْ (الحاقه/۲۹).

و إنما نسب اتّباع الظن الی أکثرهم لأن الأقل منهم و هم أئمه الضلال علی یقین من الحق،و لم یؤثروا علیه الباطل و یدعو الیه إلاّ بغیا کما قال تعالی: وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَیِّنٰاتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ (البقره/۲۱۳).و أما الأکثرون فإنما اتّبعوا آباءهم تقلیدا لهم لحسن ظنهم بهم.

و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا یَفْعَلُونَ تعلیل لقوله: «وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا» و المعنی أن اللّه علیم بما یأتونه من الأعمال یعلم أنها اتّباع للظن.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۳۷ الی ۴۵]

اشاره

وَ مٰا کٰانَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ أَنْ یُفْتَریٰ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰکِنْ تَصْدِیقَ اَلَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ تَفْصِیلَ اَلْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۳۷) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۳۸) بَلْ کَذَّبُوا بِمٰا لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا یَأْتِهِمْ تَأْوِیلُهُ کَذٰلِکَ کَذَّبَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلظّٰالِمِینَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِینَ (۴۰) وَ إِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ أَنْتُمْ بَرِیئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُونَ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْظُرُ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِی اَلْعُمْیَ وَ لَوْ کٰانُوا لاٰ یُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَظْلِمُ اَلنّٰاسَ شَیْئاً وَ لٰکِنَّ اَلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۴۴) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ کَأَنْ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَهً مِنَ اَلنَّهٰارِ یَتَعٰارَفُونَ بَیْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَللّٰهِ وَ مٰا کٰانُوا مُهْتَدِینَ (۴۵)

۱- ۱) .یونس ۳۱-۳۶:بحث فی احتجاج القرآن علی المشرکین و آلهتهم؛معنی الهدایه؛ان لیس من شرکاء المشرکین من یهدی الی الحق و ان اللّه سبحانه یهدی الی الحق.

بيان:

قوله تعالی: وَ مٰا کٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الی آخر الآیه؛ قد تقدمت الاشاره الی ان نفی صفه او معنی بنفی الکون یفید نفی الشأن و الاستعداد،و هو أبلغ

ص:۴۱

من نفيه نفسه ففرق بين قولنا:ما كان زيد ليقوم،و قولنا:لم قم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد و لا استعد له استعداد،و الثانى ينفى القيام عنه فحسب،و فى القرآن منه شىء كثير كقوله: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ (يونس٧۴/)، و قوله: مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الْإِيمَانُ (الشورى۵٣/)،و قوله: وَ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ (العنكبوت۴٠/).

فقوله: «وَ مَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل و هو أبلغ من نفى فعليته،و المعنى ليس من شأن هذا القرآن و لا فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون اللّه يفتريه على اللّه سبحانه.

و قوله: وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ اى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب و هو التوراه و الإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاهِ (الصف۶/)،و إنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح و كتاب ابراهيم عليهما السّلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زمانا اليه و هو التوراه و الانجيل موصوفا بأنه بين يديه.

و ربما قيل:إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث و النشور و الحساب و الجزاء،و ليس بشىء.

و قوله: وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ عطف على «تَصْدِيقَ» و المراد بالكتاب بدلاله من السياق جنس الكتاب السماوى النازل من عند اللّه سبحانه على انبيائه،و التفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجه بعضها فى بعض المنطويه جانب منها فى آخر بالإيضاح و الشرح.

و فيه دلاله على أن الدين الإلهى المنزل على أنبيائه عليهم السّلام واحد لا اختلاف فيه إلاّ بالإجمال و التفصيل،و القرآن يفصّل ما أجمله غيره كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ

ص :۴٢

(آل عمران١٩/).

و أن القرآن الكريم مفصّل لما أجمله الكتب السماويه السابقه مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ (المائده٤٨/).و قوله: لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ اى لا ريب فيه هو من رب العالمين،و الجمله الثانيه كالتعليل للولى.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ الى آخر الآيه،أم منقطعه و المعنى بل يقولون افتراه،و الضمير للقرآن،و اتصاف السوره بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل.

و المعنى قل للذين يقولون افتراه:إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون اللّه مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا و جاز او يؤتى بمثله و فى ذلك تحدّ ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طويله كانت او قصيره (١).

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ الى آخر الآيه؛الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم،و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذّبوا به حتى يضطرهم الى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: وَ لَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ يشير الى يوم القيامه كما يؤيده قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ

١- ١) .يونس ٣٧-٤٥:بحث فى تحدى القرآن.

قَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِی كُنّٰا نَعْمَلُ (الأعراف۵۳/).

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ قسّمهم قسمين من يؤمن بالقرآن و من لا يؤمن به ثم كنّى عمن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك ان الذين يكذّبون بما فی القرآن انما كذّبوا به لأنهم مفسدون.

فالآيه لبيان حالهم الذی هم عليه من ايمان البعض و كفر البعض و أن الكفر ناش من رذيله الإفساد.

قوله تعالى: وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ الى آخر الآيه؛تلقين للتبرّی على تقدير تكذيبهم له،و هو من مراتب الانتصار لحق ممن انتهض لاحيائه فالطريق هو حمل الناس عليه ان حملوا و إلاّ فالتبرّی منهم لئلا يحملوه على باطلهم.

و قوله: أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ تفسير لقوله: «لِی عَمَلِی وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ» .

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ الاستفهام للإنكار،و قوله: «وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ» قرينه على ان المراد بنفی السمع نفی ما يقارنه من تعقّل ما يدل عليه الكلام المسموع و هو المسمّى بسمع القلب.

و المعنى:و منهم الذين يستمعون اليك و هم صمّ لا سمع لقلوبهم،و لست انت قادرا على إسماعهم و لا سمع لهم.

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ الى آخر الآيه.الكلام فيها نظير الكلام فی سابقتها.

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ النّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ مسوق للاشاره الى ان ما ابتلى به هؤلاء المحرومون من السمع و البصر من جهه الصمم و العمى

من آثار ظلمهم انفسهم من غير ان يكون اللّه تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فانهم انما أوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ سٰاعَةً مِنَ النَّهٰارِ يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ الخ؛ظاهر الآيه ان يكون «يَوْمَ» ظرفا متعلقا بقوله: «قَدْ خَسِرَ» الخ؛و قوله: «كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ سٰاعَةً» الخ؛حالا من ضمير الجمع فى «يَحْشُرُهُمْ» و قوله: «يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ» حالا ثانيا مبينا للحال الاول.

و المعنى قد خسر الذين كذّبوا بلقاء اللّه فى يوم يحشرهم اليه حالكونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدّونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير ان ينكر بعضهم بعضا او ينساه.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۴۶ الى ۵۶]

اشاره

وَ إِمّٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ اَلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اَللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ مٰا يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴۸) قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ اَلْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِي اَلْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا اَلنَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۵۴) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶)

ص: ۴۵

بیان:

قوله تعالی: وَ إِمّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِیدٌ عَلی ما یَفْعَلُونَ إما نرینّک أصله:إن نرک،زید علیه ما و النون الثقیله للتأکید،و التردید بین الإراده و التوفّی للتسویه و استیعاب التقادیر،و المعنی الینا مرجعهم علی ای تقدیر،و لفظه ثم للتراخی بحسب ترتیب الکلام دون الزمان و الآیه مسوقه لتطییب نفس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لتکون کالتوطئه لحدیث قضاء العذاب الذی ستفصله الآیات التالیه لهذه الآیه.

و المعنی طب نفسا فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أریناک بعض ذاک او توفّیناک قبل أن نریک ذاک فإن أمرهم الینا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجبه للعذاب لا تغیب عنّا و لا ننساها.

ص :46

و الالتفات من قوله: «نُرِيَنَّكَ» الى قوله: «ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ» للدلاله على علّه الحكم فإن اللّه سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ قضاء إلهىّ منحلّ الى قضاءين أحدهما:أن لكل أمه من الامم رسولا يحمل رساله اللّه اليهم و يبلّغها إياهم،و ثانيهما:أنه اذا جاءهم و بلّغهم رسالته فاختلفوا من مصدّق له و مكذّب فإن اللّه يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم.هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله: «فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ» فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير:

فإذا جاء رسولهم اليهم و بلّغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق،و يدل على ذلك قوله: «قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه،و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب و الضرار أسبق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود،و هو القضاء بينهم فى الدنيا،و السائلون هم بعض المشركين من معاصرى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِی ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّهُ لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ» الخ؛فقول بعضهم:إن السؤال عن عذاب يوم القيامه او إن السائلين بعض المشركين من الامم السابقه لا يلتفت اليه.

قوله تعالى: قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِی ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّهُ لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ الى آخر الآيه؛لما كان قولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» فى معنى قولنا:أىّ وقت يفى ربك بما وعدك او يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرّنا؟فهلا عجّل لكم

ذلك-و ذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التاليه و هذا نظير قولهم: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ (الحجر/ ۷).

لقّن سبحانه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبدأهم فى الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرّا حتى يدفعه عنها و لا نفعا حتى يجلبه إليها و يستعجل ذلك إلاّ ما شاء اللّه أن يملكه من ضرّ و نفع فالأمر الى اللّه سبحانه جميعا،و اقتراحهم عليه بأن يعجّل لهم القضاء و العذاب من الجهل.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ الى آخر الآيتين،البيات و التبييت الإتيان ليلا و يغلب فى الشر كقصد العدو عدوه ليلا.

و لما كان قولهم: «مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» فى معنى استعجال آيه العذاب التى يلجئهم الى الإيمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع الى توبيخهم و ذمهم من الجهتين فوبّخهم أوّلا على استعجالهم بالعذاب،و هو عذاب فجائىّ من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقّنا لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ» و أخبرونى «إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً» ليلا-«أَوْ نَهٰاراً» فإنه عذاب لا يأتيكم إلاّ بغته إذ لستم تعلمون وقت نزوله «مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ» من العذاب «الْمُجْرِمُونَ» أى ما ذا يستعجلون منه و أنتم مجرمون لا يتخطاكم اذا أتاكم.

ففى قوله: «مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» التفات من الخطاب الى الغيبه و كأنّ النكته فيه رعايه حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر و ليكون تعرضا لملاك نزول العذاب عليهم و هو إجرامهم.

و وبّخهم ثانيا على تأخير إيمانهم الى حين لا ينفعهم الإيمان فيه و هو حين نزول العذاب فإنه آيه العذاب يلجئهم الى الإيمان على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكه،

ص :۴۸

و من جهه أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى أ ثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ العذاب «آمَنْتُمْ بِهِ» أى بالقرآن او بالدين أو باللّه «آلْآنَ» أى أ تؤمنون به فى هذا الآن و الوقت «وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ الأشبه أن تكون الآيه متصله بقوله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛فتكون الآيه الاولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم و إهلاكه إياهم،و الآيه الثانيه تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك:ذوقوا عذاب الخلد و هو عذاب الآخره و لا تجزون إلاّ أعمالكم التى كنتم تكسبونها و ذنوبكم التى تحملونها،و الخطاب تكوينى كنّى به عن شمول العذاب لهم و نيله إياهم،و على هذا المعنى فالآيتان «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ -الى قوله- تَسْتَعْجِلُونَ» واردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى: وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ الى آخر الآيه؛يستنبئونك أى يستخبرونك،و قوله: «أَ حَقٌّ هُوَ» بيان له، و الضمير على ما يفيده السياق راجع الى القضاء أو العذاب،و المآل واحد،و قد أمر سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته،و بعباره أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» إثبات لتحققه و قد أكد الكلام القسم و الجمله الاسميه و إن و اللام،و قوله: «وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِي الْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ الى آخر الآيه،إشاره الى شده العذاب و أهميه التخلص منه عندهم،و إسرار الندامه إخفاؤها

و کتمانها خشیه الشماته و نحوها،و الظاهر أنّ المراد بالقضاء و العذاب فی الآیه هو القضاء و العذاب الدنیویان لا غیر.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ الآیه و ما بعدها بیان برهانی علی حقّیّه ما ذکره من کونه حقا واقعا لا یمنع عنه مانع فإنّ کل شیء مما فی السماوات و الأرض اذا کان مملوکا للّه وحده لا شریک له کان کل تصرف مفروض فیها الیه تعالی،و لم یکن لغیره شیء من التصرف إلاّ بإذنه فإذا تصرف فی شیء کان مستندا الی إرادته فقط من غیر أن یستند الی مقتض آخر خارج یتصرف فی ذاته المقدسه فیحمله علی الفعل،أو یتقید بعدم مانع خارجی اذا وجد تصرف فیه سبحانه بمنعه عن الفعل،فهو تعالی یفعل ما یفعل عن نفسه من غیر أن یرتبط الی مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شیئا فعله من غیر ممدّ او عائق،و اذا وعد وعدا کان حقا لا مردّ له من غیر ان یتغیر عن وعده بصارف (۱).

قوله تعالی: هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ احتجاج علی ما تقدم فی الآیه السابقه من ملکه تعالی بالنسبه الی نوع الإنسان کأنه تعالی یقول:إن أمرکم جمیعا من حیاه و موت و رجوع الیه تعالی فکیف لا تکونون ملکا له.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۵۷ الی ۷۰]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَتْکُمْ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفٰاءٌ لِمٰا فِی اَلصُّدُورِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اَللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِکَ فَلْیَفْرَحُوا هُوَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ (۵۸) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اَللّٰهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ مٰا ظَنُّ اَلَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی اَلنّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَشْکُرُونَ (۶۰) وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ مٰا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّهٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِی اَلسَّمٰاءِ وَ لاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْبَرَ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۶۱) أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اَللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۲) اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ اَلْبُشْریٰ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ فِی اَلْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِیلَ لِکَلِمٰاتِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۶۴) وَ لاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِیعاً هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶۵) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا یَتَّبِعُ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ شُرَکٰاءَ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّٰ یَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۶۷) قٰالُوا اِتَّخَذَ اَللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ اَلْغَنِیُّ لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَ تَقُولُونَ عَلَی اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ اَلَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّٰهِ اَلْکَذِبَ لاٰ یُفْلِحُونَ (۶۹) مَتٰاعٌ فِی اَلدُّنْیٰا ثُمَّ إِلَیْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِیقُهُمُ اَلْعَذٰابَ اَلشَّدِیدَ بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

۱- ۱) .کلام فی ملکه تعالی لما فی السموات و الارض،حقیقه معنی ملکه و سلطانه.

بيان:

قوله تعالی: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ الی آخر الآيه؛ قال الراغب فی المفردات:الوعظ زجر مقترن بتخويف،و قال الخليل:هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب،و العظه و الموعظه الاسم،انتهی.و الصدر معروف و الناس لمّا وجدوا القلب فی الصدر و هم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدركه بقلبه و به يعقل الامور و يحب و يبغض و يريد و يكره و يشتاق و يرجو و يتمنی،عدّوا الصدر خزانه لما فی القلب من أسراره و الصفات الروحيه التی فی باطن الإنسان من فضائل و رذائل،و فی الفضائل صحه القلب و استقامته،و فی الرذائل سقمه و مرضه،و الرذيله داء يقال:شفيت صدری بكذا اذا ذهب به ما فی صدره من ضيق و حرج،و يقال:شفيت قلبی،فشفاء الصدور و شفاء ما فی الصدور كنايه عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحيه الخبيثه التی تجلب الی الإنسان الشقاء و تنغّص عيشته السعيده و تحرمه خير الدنيا و الآخره.

و الهدی هی الدلاله علی المطلوب بلطف علی ما ذكره الراغب،و قد تقدم فی ذيل قوله تعالی: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ (الأنعام/۱۲۵)فی الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

ص:۵۲

و الرحمه تـأثر خـاص فى القلب عن مشاهـده ضـر أو نقص فى الغير يبعث الراحم الى جبر كسـره و إتمام نقصه،و إذا نسـبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجه دون أصل التأثّر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيّته تعالى و إفاضته الوجود على خلقه.

و عطيته اذا نسبت الى مطلق خلقه كانت هى ما ينسب اليه تعالى من وجودهم و بقائهم و رزقهم الـذى يمـدّ به بقاؤهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه الـتى لا ـ تحصـى كثره و إن تعـدّوا نعمه اللّه لا ـ تحصوهـا،و اذا نسـبت الى المؤمنين خـاصه كـانت هى ما يختص بهم من سـعاده الحيـاه الانسانيه بمظاهرها المختلفه التى ينعم اللّه بها عليهم من المعارف الحقه الإلهيه،و الأخلاق الكريمه و الأعمال الصالحه،و الحياه الطيبه فى الدنيا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم اذا وصف القرآن بـأنه رحمه للمؤمنين كـان معناه أنه يغشـى المؤمنين أنواع الخيرات و البركات التى كنزها اللّه فيه لمن تحقق بحقائقهـا و تلبّس بمعانيهـا،قـال تعـالى: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً (الإسراء۸۲/).

قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ الفضل هو الزياده،و تسـمى العطيه فضـلا لأن المعطى إنمـا يعطى غالبـا مـا لا ـ يحتـاج اليه من المال ففى تسـميه ما يفيضه اللّه على عباده فضـلا إشاره الى غناه تعالى و عـدم حاجته فى إفاضته الى ما يفيضه و لا الى من يفيض عليه.

و ليس من البعيـد أن يكون المراد بالفضل ما يبسـطه اللّه من عطائه على عامه خلقه، و بالرحمه خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمه السـعاده الـدينيه اذا انضـمن الى النعمه العامه من حياه و رزق و سائر البركات العامه كان المجمع منهما أحق بالفرج و السرور و أحرى بالانبساط و الابتهاج.

و من الممكن أن يتأيـد ذلـك بقوله: «بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» حيث أدخلت باء السببيه على كل من الفضل و الرحمه،و هو مشـعر بكون كل واحد منهما سببا مستقلا و إن جمع بينهما ثانيا

ص :۵۳

بقوله: «فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» للدلاله على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

و يمكن ان يكون المراد بالفضل غير الرحمه و من الامور المذكوره فى الآيه السابقه اعطنى الموعظه و شفاء ما فى الصدر و الهدى،و المراد بالرحمه:الرحمه بمعناها المذكور فى الآيه السابقه و هى العطيّه الخاصه الإلهيه التى هى سعاده الحياه فى الدنيا و الآخره.

و المعنى على هذا:ان ما تفضل اللّه به عليهم من الموعظه و شفاء ما فى الصدور و الهدى،و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيّبه ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ (النور۲۱/)حيث نسب زكاتهم الى الفضل و الرحمه معا و استناد الزكاه الى الفضل بمعنى العطيه العامه بعيد عن الفهم،و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد فى الروايه من تفسير الآيه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و على عليه السّلام او بالقرآن و الاختصاص به و سيجىء ان شاء اللّه.

و قوله: فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ذكروا ان الفاء فى قوله: «فَلْيَفْرَحُوا» زائده كقول الشاعر:«فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعى»و الظرف اعنى قوله: «فَبِذٰلِكَ» بدل من قوله:

«بِفَضْلِ اللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» ،و متعلق بقوله: «فَلْيَفْرَحُوا» قدّم عليه لإفاده الحسر،و قوله: «هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله ان الآيه تفريع على مضمون الآيه السابقه فانه تعالى لمّا خاطب الناس امتنانا عليهم أن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما فى صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرّع عليه انه ينبغى لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذى امتنّ به عليهم من الفضل و الرحمه لا بالمال الذى يجمعونه فان ذلك-و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم-خير من المال الذى ليس إلاّ فتنه ربما اهلكتهم و اشقتهم.

قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً

وَ حَلاٰلاً الی آخر الآیه؛نسبه الرزق و هو ما یمد الانسان فی بقائه من الامور الأرضیه من مأكول و مشروب و ملبوس و غیرها الی الإنزال مبنی علی حقیقه یفیدها القرآن و هی ان الاشیاء لها خزائن عند اللّه تتنزل من هناك علی حسب ما قدّرها اللّه سبحانه،قال تعالی:

وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر۲۱/)و قال تعالی:

وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ (الذاریات۲۲/)و قال: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ (الزمر۶/)و قال: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ (الحدید۲۵/).

و اما ما قیل:ان التعبیر بالانزال انما هو لكون ارزاق العباد من المطر الذی ینزله اللّه من السماء،فوجه بسیط لا یطرد علی تقدیر صحته فی جمیع الموارد التی عبر فیها عن كینونتها بالإنزال كما فی الانعام و فی الحدید،و الرزق الذی تذكر الآیه ان اللّه انزله لهم فجعلوا منه حراما و حلالا هو الأنعام من الإبل و الغنم كالوصیله و السائبه و الحام و غیرها.

و اللام فی قوله: لَكُمْ للغایه و تفید معنی النفع ای انزل اللّه لأجلكم و لتنتفعوا به، و لیست للتعدیه فان الانزال انما یتعدی بعلی او الی،و من هنا افاد الكلام معنی الاباحه و الحل ای انزلها اللّه فأحلها،و هذا هو النكته فی تقدیم التحریم علی الاحلال فی قوله: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً» ای كان اللّه احله لكم بانزاله رزقا لكم تنتفعون به فی حیاتكم و بقائكم و لكنكم قسمتموه قسمین من عند انفسكم فحرّمته قسما و أحللتم آخر فالمعنی:قل لهم یا محمّد:اخبرونی عما انزل اللّه لكم و لأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمین و جعلتم بعضه حراما و بعضه حلالا ما هو السبب فی ذلك؟و من البیّن انه افتراء علی اللّه لا عن إذن منه تعالی.

و قوله: قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَی اللّٰهِ تَفْتَرُونَ سؤال عن سبب تقسیمهم الرزق الی حرام و حلال،و إذا كان من البیّن انه لیس ذلك عن اذن منه تعالی لعدم اتصالهم بربهم بوحی او رسول كان من المتعیّن انه افتراء فالاستفهام فی سیاق التردید كنایه عن اثبات

ص :۵۵

الافتراء لهم و توبیخ و ذم.

و الذی یقضـی به النظر الابتدائی ان التردید فی الآیه غیر حاصـر اذ کما یجوز ان یکون تقسیمهم رزق اللّه الی حرام و حلال عن اذن من اللّه او افتراء علیه تعـالی کـذلک یجوز ان یکون عن مصـلحه احرزوهـا او زعموها فی ذلک او عن هوی لهم فیه من غیر أن ینسبوه الی اللّه تعالی فیکون افتراء علیه.

و من وجه آخر التردید فی الآیه بین إذن اللّه و الافتراء علی اللّه یشـعر بأن الحکم إنما هو للّه فالحکم بکون بعض الرزق حراما و بعضه حلالاـ و هو دائر بینهم إمـا أن یکون من اللّه او افـتراء علیه،و من الممکن أن یمنع ذلـک فی بـادئ النظر فکـثیر من السـنن الدائره بین الناس کوّنتها طبیعه مجتمعهم او عادتهم القومیه و غیر ذلک.

لکن التـدبر فی کلاـمه تعالی و البحث العمیق یـدفع ذلک فإن القرآن یری أن الحکم یختص باللّه تعالی،و لیس لأحـد من خلقه أن یبادر الی تشریع حکم و وضعه فی المجتمع الانسانی،قال تعالی: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ (یوسف۴۰/).

و قـد أشـار تعـالی الی لمّ ذلـک فی قوله: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلـدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم۳۰/)فتبین به أن معنی کون الحکم للّه کونه معتمـدا علی الخلقه و الفطره منطبقا علیها غیر مخالف لما ینطق به الکون و الوجود.

و ذلـک أن اللّه سـبحانه لم یخلق الخلق عبثـا کما قال: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً (المؤمنون۱۱۵/)بـل خلقهم لأغراض إلهیه و غایات کمالیه یتوجهون إلیها بحسب جبلتهم و یسـیرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسـباب و الأدوات و هـداهم الیه من السبیل المیسّر لهم کما قال: أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی (طه۵۰/)،و قال: ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (عبس۲۰/).

قوله تعالی: وَ ما ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیامَهِ الی

آخر الآیه؛لما كان جواب الاستفهام المتقدم «آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ» معلوما من المورد،و هو أنه افتراء،استعظم و خامه عاقبته فإنه افتراء على اللّه سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البداهه فلا محاله له أثر سیئ،و لذلك قال تعالى إیعادا و تهدیدا «وَ مٰا ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ» .

و أما قوله: إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ یَشْكُرُونَ فهو شكوى و عتبى یشار به الى ما اعتاد علیه الناس من كفران اكثرهم لنعمه اللّه،و عدم شكرهم قبال عطیته و نعمته،و المراد بالفضل هاهنا هو العطیه الإلهیه فإن الكلام فی الرزق الذی أنزله اللّه لهم و هو الفضل،و تحریمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجوع ذیل الآیه الى صدرها یكون الافتراء على اللّه من مصادیق كفران نعمته،و المعنى أن اللّه ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذین یكفرون بنعمه اللّه و رزقه بتحریمه افتراء على اللّه الكذب یوم القیامه.

قوله تعالى: وَ مٰا تَكُونُ فِی شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ كُنّٰا عَلَیْكُمْ شُهُوداً الى آخر الآیه؛قال الراغب:الشأن الحال و الأمر الذی یتفق و یصلح،و لا یقال إلاّ فیما یعظم من الأحوال و الامور قال «كُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ». انتهى.

و قوله: وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ الظاهر أن الضمیر الى اللّه سبحانه و من الاولى للابتداء و النشوء و الثانیه للبیان،و المعنى:و لا تتلو شیئا هو القرآن ناشئا و نازلا من قبله تعالى،و الإفاضه فی الفعل الخوض فیه جمعا.

و قد وقع فی قوله: إِلاّٰ كُنّٰا عَلَیْكُمْ شُهُوداً التفات من الغیبه الى التكلم مع الغیر، و النكته فیه الإشاره الى كثره الشهود فإن للّه شهودا على أعمال الناس من الملائكه و الناس و اللّه من ورائهم محیط،و العظماء یتكلمون عنهم و عن غیرهم للدلاله على أن لهم أعوانا و خدمه.

و لیس ینبغی أن یغفل عن أن اصل الالتفات یبدأ من اول الآیه فإن الآیات السابقه کانت تخاطب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و تأخذ المشرکین علی الغیبه و تکلمهم بوساطته من غیر أن تواجهه بشیء من الخطاب یخص نفسه،و قد حوّلت هذه الآیه وجه الکلام الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بما یخص به نفسه فقالت«و ما تکون من شأن و لا تتلوا منه من قرآن»ثم جمعته و المشرکین و غیرهم جمیعا فی خطاب واحد فقالت «وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً» و ذلک بضمهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هم علی غیبتهم و بسط الخطاب علی الجمیع بنوع من التغلیب کما تقول لمخاطبک:

أنت و قومک تفعلون کذا و کذا.

و الدلیل علی أن هذا الخطاب بنحو الضم و التغلیب قوله بعده:«و لا یعزی عن ربک»الخ؛ فإن یکشف عن کون الخطاب معه صلّی اللّه علیه و آله و سلم جاریا علی ما کان.

و علی أی حال فالتحول المذکور فی خطاب الآیه للإشاره الی أن السلطنه و الإحاطه التامه الإلهیه واقعه علی الأعمال شهاده و علما علی أتمّ ما یکون من کل جهه من غیر أن یستثنی منه نبی و لا مؤمن و لا مشرک او یغفل عن عمل من الاعمال فلا یتوهمن احد أن اللّه یخفی علیه شیء من أمره فلا یحاسبه علیه یوم القیامه،و لیکن هذا هو ظنه بربه یوم القیامه و لیأخذ حذره.

و ذکر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله فی قوله قبلا: وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ فإنه احد شئونه صلّی اللّه علیه و آله و سلم للایماء الی أهمیه أمرها و مزید العنایه بها.

و فی الآیه اولا تشدید فی العظه علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و علی أمته،و ثانیا:أن الذی یتلوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من القرآن للناس من وحی اللّه و کلامه لا یطرقه تغییر و لا یدب فیه باطل لا فی تلقیه منا للّه و لا فی تلاوته للناس فالآیه قریبه المضمون من قوله: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ (الجن۲۸/).

و قوله: وَ مٰا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّةٍ الى آخر الآيه؛العزوب الغيبه و التباعد و الخفاء،و فيه إشاره الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبه و حفظه لها فى كتاب من غير زوال،و قد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام فى ذيل قوله: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَيْبِ (الأنعام۵۹/)فى الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ استئناف فى الكلام غير أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه الى الايمان بكتاب اللّه و الندب الى توحيد اللّه تعالى بمعناه الوسيع.

و للدلاله على أهميه المطلب افتتح بلفظه «أَلاٰ» التنبيهيه،و اللّه سبحانه يذكر فى هذه الآيه و الآيتين بعدها أولياءه و يعرّفهم و يصف آثار ولايتهم و ما يختصون به من الخصيصه.

فأولياء اللّه-على أى حال-هو المؤمنون فإن اللّه يعدّ نفسه وليا لهم فى حياتهم المعنويه حيث يقول: وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران۶۸/).

غير أن الآيه التاليه لهذه الآيه المفسره للكلمه تأبى أن تكون الولايه شامله لجميع المؤمنين و فيهم امثال الذين يقول اللّه سبحانه فيهم: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف۱۰۶/)

فإن قوله فى الآيه التاليه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ» يعرّفهم بالإيمان و التقوى مع الدلاله على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل «آمَنُوا» ثم قيل عطفا عليه «وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ» فدلّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم و من المعلوم أن الإيمان الابتدائى غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان او هو قبل التقوى و خاصه التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الإيمان مرتبه أخرى من مراتب الايمان غير المرتبه الاولى منه.فقد تقدم فى الجزء الأول من الكتاب آيه ۱۳۰ من البقره أن لكل من الإيمان و الإسلام و كذا الشرك و الكفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الاولى من الإسلام إجراء الشهادتين لسانا

و التسليم ظاهرا،و تليه المرتبه الاولى من الإيمان و هو الإذعان بمؤدّى الشهادتين قلبا إجمالا و إن لم يسر الى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق،و لذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات،قال تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف١٠۶/).

قوله تعالى: لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يبشّرهم اللّه تعالى بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: «لَهُمُ الْبُشْرىٰ» إنشاء للبشاره كان معناه وقوع ما بشّر به في الدنيا و في الآخره كلتاهما،و إن كان اخبارا بأن اللّه سيبشّرهم بشرى كانت البشاره واقعه في الدنيا و في الآخره،و أما المبشّر به فهل يقع في الآخره فقط او في الدنيا و الآخره معا؟الآيه ساكته عن ذلك.

و قد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى:

وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم۴٧/)و قوله: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن۵١/)و قوله: بُشْرٰاكُمُ الْيَوْمَ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ (الحديد١٢/)الى غير ذلك.

و قوله: لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ إشاره الى ان ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبديل اليه،و فيه تطييب لنفوسهم.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تأديب للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم بتعزيته و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه و الطعن في دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول في الآيه التاليه فكاد يحزن للّه فسلاه اللّه و طيّب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده و هو أن العزه للّه و أنه سميع لمقالهم عليهم بحاله و حالهم و إذ كان له تعالى كل العزه فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزه الوهميه فهذوا ما هذوا،و إذ كان سميعا عليما فلو

شاء لأخذهم بالنكال و إذ كان لا يأخذهم فإنما فی ذلک مصلحه الدعوه و خیر العاقبه.

و من هنا یظهر ان کلا من قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ» و قوله: «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» عله مستقله للنهی و لذا جیء بالفصل من غیر عطف.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ الی آخر الآیه فیه بیان مالکیته تعالی لکل من فی السماوات و الأرض التی بها یتم للإله معنی الربوبیه فإن الرب هو المالک المدبر لأمر مملوکه،و هذا الملک للّه وحده لا شریک له فما یدعون له من الشرکاء لیس لهم من معنی الشرکه إلّا ما فی ظن الداعین و فی خرصهم من المفهوم الذی لا مصداق له.

فالآیه تقیس شرکاءهم الیه تعالی و تحکم ان نسبتهم الیه تعالی نسبه الظن و الخرص الی الحقیقه و الحق،و الباقی ظاهر.

و قد قیل «مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و لم قل:ما فی السماوات و ما فی الأرض لأن الکلام فی ربوبیه العباد من ذوی الشعور و العقل و هم الملائکه و الثقلان.

قوله تعالی: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً الآیه؛الآیه تتمم البیان الذی أورد فی الآیه السابقه لاثبات ربوبیته تعالی و الربوبیه -کما تعلم-هی الملک و التدبیر،و قد ذکر ملکه تعالی فی الآیه السابقه،فبذکر تدبیر من تدابیره العامه فی هذه الآیه تصلح به عامه معیشه الناس و تستبقی به حیاتهم یتم له معنی الربوبیه.

و للاشاره الی هذا التدبیر ذکر مع اللیل سکنهم فیه،و مع النهار إبصارهم فیه الباعث لهم الی انواع الحرکات و التنقلات لکسب مواد الحیاه و اصلاح شئون المعاش فلیس یتم أمر الحیاه الانسانیه بالحرکه فقط او بالسکون فقط فدبّر اللّه سبحانه الأمر فی ذلک بظلمه اللیل الداعیه الی تجدید تجهیز القوی بعد ما لحقها من العی و التعب و النصب و الی الارتیاح و الانس بالأهل

و التمتع مما جمع و اکتسب بالنهار و الفراغ للعبودیه،و بضوء النهار الباعث الی الرؤیه فالاشتیاق فالطلب.

قوله تعالی: قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ الی آخر الآیه؛الاستیلاد بمعناه المعروف عند الناس هو ان یفصل الموجود الحی بعض اجزاء مادّته فیربیه بالحمل او البیض تربیه تدریجیه حتی یتکون فردا مثله،و الانسان من بینها خاصه ربما یطلب الولد لیکون عونا له علی نوائب الدهر و ذخرا لیوم الفاقه،و هذا المعنی بجمیع جهاته محال علیه تعالی فهو عزّ اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدریج فی فعله بریء عن المثل و الشبه مستغن عن غیره بذاته.

و قد نفی القرآن الولد عنه بالاحتجاج علیه من کل من الجهات المذکوره کما تعرّض لنفیه من جمیعها فی قوله: وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ بَدِیعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (البقره۱۱۷/) و قد مرّت الاشاره الی ذلک فی تفسیر الآیات فی الجزء الأول من الکتاب.

و اما الآیه التی نحن فیها فهی مسوقه للاحتجاج علی نفی الولد من الجهه الاخیره فحسب و هو ان الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلک انما یتصور فیمن کان بحسب طبعه محتاجا فقیرا،و اللّه سبحانه هو الغنی الذی لا یخالفه فقر فانه المالک لما فرض فی السماوات و الارض من شیء.

و قوله: إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ ای برهان «بِهٰذٰا» اثبات لکونهم انما قالوه جهلا من غیر دلیل فیکون محصل المعنی انه لا دلیل لکم علی ما قلتموه بل الدلیل علی خلافه و هو انه تعالی غنی علی الاطلاق،و الولد انما یطلبه من به فاقه و حاجه،و الکلام علی ما اصطلح علیه فی فن المناظره من قبیل المنع مع السند.

و قوله: أَ تَقُولُونَ عَلَی اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ توبیخ لهم فی قولهم ما لیس لهم به

علم،و هو مما يستقبحه العقل الانسانی و لا سيما فی ما يرجع الی رب العالمين عزّ اسمه.

قوله تعالی: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ تخويف و انذار بشؤم العاقبه،و فی الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكی اللّه اولا عنهم من طريق الغيبه قولهم: «اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً» ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا اليه و افتروا عليه فقال «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ» و انما خاطبهم متنكرا من غير ان يعرّفهم نفسه حيث قال «عَلَى اللّٰهِ» و لم يقل:علیّ او علينا صونا لعظمه مقامه ان يخالطهم معروفا ثم اعرض عنهم تنزها عن ساحه جهلهم و رجع الی خطاب رسوله قائلا «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ» لأنه إنذار و الإنذار شأنه.

قوله تعالی: مَتٰاعٌ فِي الدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذٰابَ الشَّدِيدَ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ خطاب للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر باللّه ليس بحذائه إلاّ متاع قليل فی الدنيا ثم الرجوع الی اللّه و العذاب الشديد الذی يذوقونه (1).

[سوره يونس (10): الآيات 71 الی 74]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقٰامِي وَ تَذْكِيرِي بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَعَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اُقْضُوا إِلَيَّ وَ لاٰ تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اَللّٰهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي اَلْفُلْكِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلاٰئِفَ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِ اَلْمُعْتَدِينَ (74)

1- 1) .بحث روائی فی فضل اللّه و رحمته:اولياء اللّه؛البشری للمتقين فی الحياه الدنيا و فی الآخره.

بیان:

قوله تعالی: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ الی آخر الآیه؛المقام مصدر میمی و اسم زمان و مکان من القیام،و المراد به الأول او الثالث أی قیامی بأمر الدعوه الی توحید اللّه او مکانتی و منزلتی و هی منزله الرساله،و الإجماع العزم و ربما یتعدی بعلی قال الراغب:و أجمعت کذا اکثر ما یقال فیما یکون جمعا یتوسل الیه بالفکره نحو فأجمعوا کیدکم و شرکاءکم.

و الغمه هی الکربه و الشده و فیه معنی التغطیه کأن الهم یغطی القلب،و منه الغمام للغیم سمی به لتغطیته وجه السماء،و القضاء الی الشیء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلک.

و معنی الآیه وَ اتْلُ یا محمّد «عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ» و خبره العظیم حیث واجه قومه و هو واحد یتکلم عن نفسه،و هو مرسل الی أهل الدنیا فتحدی علیهم بأن یفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا علی ذلک،و أتم الحجه علی مکذبیه فی ذلک «إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنْ کانَ کَبُرَ عَلَیْکُمْ مَقامِی» و نهضتی لأمر الدعوه الی التوحید او منزلتی من الرساله «وَ تَذْکِیرِی بِآیاتِ اللّهِ» و هو داعیکم لا محاله الی قتلی و إیقاع ما تقدرون علیه من الشر بی لإراحه أنفسکم منی «فَعَلَی اللّهِ تَوَکَّلْتُ» قبال ما یهددنی من تحرج صدورکم و ضیق نفوسکم علیّ بإرجاع أمری الیه و جعله

ص :۶۴

وكيلا يتصرف فى شئونى و من غير أن أشتغل بالتدبير «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم فى الشدائد،و اعزموا علىّ بما بدا لكم،و هذا أمر تعجيزى «ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» إن لم تكونوا اجتهدتم فى التوسل الى كل سبب فى دفعى «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» بدفعتى و قتلى «وَ لا تُنْظِرُونِ» و لا تمهلونى.

و فى الآيه تحديه عليه السّلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم،و إظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشركائهم و آلهتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ الى آخر الآيه؛تفريع على توكله بربه،و قوله: «فَما سَأَلْتُكُمْ» الخ؛بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتم و أعرضتم عن استجابه دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أتضرر فى إعراضكم شيئا لأنى إنما كنت أتضرر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجرا على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلاّ على اللّه.

و قوله: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى الذين يسلّمون الأمر اليه فيما أراده لهم و عليهم،و لا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهره حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به ايصال نفع او دفع شر.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ الى آخر الآيه؛الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الارض و الباقين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ الى آخر الآيه؛يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى عليهم السّلام.و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزه التى اقترحتها الامم على انبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين اممهم،و يؤيده قوله بعده: «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» الخ؛

ص :65

فإن السابق الى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن اللّه قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن فى وسعهم أن يؤمنوا ثانيا بما كذبوا به أولا.

و لازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجىء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثّوا دعوتهم فيهم و دعوهم الى توحيد اللّه فكذبوا به و بهم ثم اقترحوا عليهم آيه معجزه فجاءوهم بها فلم يؤمنوا.

و قد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآيه فى تفسير قوله: فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ (الأعراف/۱۰۱)فى الجزء الثامن من الكتاب،و بيّنا هناك أن فى الآيه إشاره الى عالم الذرّ غير أنه لا ينافى إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفا فليراجع.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۷۵ الى ۹۳]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ بِآيٰاتِنٰا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۷۵) فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا إِنَّ هٰذٰا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (۷۶) قٰالَ مُوسىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هٰذٰا وَ لاٰ يُفْلِحُ اَلسّٰاحِرُونَ (۷۷) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا وَ تَكُونَ لَكُمَا اَلْكِبْرِيٰاءُ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا نَحْنُ لَكُمٰا بِمُؤْمِنِينَ (۷۸) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ اِئْتُونِي بِكُلِّ سٰاحِرٍ عَلِيمٍ (۷۹) فَلَمّٰا جٰاءَ اَلسَّحَرَةُ قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا مٰا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمّٰا أَلْقَوْا قٰالَ مُوسىٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ إِنَّ اَللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ اَلْمُفْسِدِينَ (۸۱) وَ يُحِقُّ اَللّٰهُ اَلْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (۸۲) فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِينَ (۸۳) وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقٰالُوا عَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِكَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ (۸۶) وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءٰا لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اِجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ (۸۷) وَ قٰالَ مُوسىٰ رَبَّنٰا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوٰالاً فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا رَبَّنٰا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اِطْمِسْ عَلىٰ أَمْوٰالِهِمْ وَ اُشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُوا حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (۸۸) قٰالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمٰا فَاسْتَقِيمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِيلَ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (۸۹) وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِي إِسْرٰائِيلَ اَلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتّٰى إِذٰا أَدْرَكَهُ اَلْغَرَقُ قٰالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرٰائِيلَ وَ أَنَا مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ (۹۱) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلنّٰاسِ عَنْ آيٰاتِنٰا لَغٰافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ فَمَا اِخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۹۳)

بیان:

قوله تعالی: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسی وَ هارُونَ الخ؛أی ثم بعثنا من بعد نوح و الرسل الذین من بعده موسی و أخاه هارون بآیاتنا الی فرعون و الجماعه الذین یختصّون به من قومه و هم القبط فاستکبروا عن آیاتنا و کانوا مستمرین علی الاجرام.

قوله تعالی: فَلَمّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا الخ؛الظاهر أن المراد بالحق هو الآیه الحقه کالثعبان و الید البیضاء،و قد جعلهما اللّه آیه لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا و أکدوا القول:إن هذا-یشیرون الی الحق من الآیه-لسحر مبین واضح کونه سحرا،و انما سمّی الآیه حقّا قبال تسمیتهم إیاها سحرا.

قوله تعالی: قالَ مُوسی أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّا جاءَکُمْ أَ سِحْرٌ هذا الخ؛أی فلمّا سمع مقالتهم تلک و رمیهم الحق بأنه سحر مبین قال لهم منکرا لقولهم فی صوره الاستفهام:

«أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّا جاءَکُمْ» إنّه لسحر؟ثم کرّر الانکار مستفهما بقوله: «أَ سِحْرٌ هذا» ؟فمقول القول فی الجمله الاستفهامیه محذوف إیجازا لدلاله الاستفهام الثانی علیه،و قوله: «وَ لا یُفْلِحُ السّاحِرُونَ» یمکن أن یکون جمله حالیّه معلّله للإنکار الذی یدل علیه قوله: «أَ سِحْرٌ هذا» ،

و يمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرّئ به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنهم لا يفلحون.

قوله تعالى: قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا الخ؛اللفت هو الصرف عن الشىء،و المعنى:قال فرعون و ملأه لموسى معاتبين له «أَ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا» و تصرفنا «عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» يريدون سنّه قدمائهم و طريقتهم «وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ» يعنون الرئاسه و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمّون بذلك انّكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله الى إبطال طريقتنا المستقره فى الأرض،و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها فى الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمه فى المملكه.

و بعباره أخرى إنما جئتما لتبدّلا الدوله الفرعونيه المتعرقه فى القبط الى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكما و قيادتكما،و ما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكما و تبلغا غايتكما من هذه الدعوه المزوّره.

قوله تعالى: وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصّل فى سائر الآيات القاصّه للقصّه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا الخ؛اى لمّا جاءوا و واجهوا موسى و تهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال و العصى،و قد كانوا هيئوها ليلقوها فيظهروها فى صور الحيّات و الثعابين بسحرهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ما قاله عليه السّلام بيان لحقيقه من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره اللّه من الحق على يديه من صيروره العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الحبال و العصى و أظهروه فى صور الحيّات و الثعابين بسحرهم.

و الحقيقه التى بيّنهـا لهم أن الـذى جاءوا به سـحر و السـحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع فى صوره الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم،و إذا كان باطلا فى نفسه فان اللّه سـيبطله لأن السنّه الإلهيه جاريه على إقرار الحق و احقاقه فى التكوين و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و ان كانت للباطل جوله أحيانا.

و لذا علّل قوله: إِنَّ اللّهَ سَـيُبْطِلُهُ بقوله: «إِنَّ اللّهَ لا يُصْـلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» فان الصـلاح و الفساد شأنان متقابلان،و قد جرت السنّه الإلهيه أن يصلح ما هو صالح و يفسد ما هو فاسد أى ان يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح ان ينـاسب و يلاـئم سـائر الحقائق الكونيه فى نظامها الـذى تجرى هى عليه،و يمتزج بها و يخالطها فيصـلحه اللّه سـبحانه و يجريه على ما كان من طباعه،و أثر العمل الفاسد ان لا يناسب و لا يلائم سائر الحقائق الكونيه فيما تقتضيه بطباعها و تجرى عليه بجبلتها فهو امر استثنائى فى نفسه،و لو اصلحه اللّه فى فساده كان ذلك إفسادا للنظام الكونى.

فيعـارضه سائر الأسـباب الكونيه بما لها من القوى و الوسائل المؤثره،و تعيـده الى السـيره الصالحه إن أمكن و إلاّ أبطلته و أفنته و محته عن صحيفه الوجود البته.

قوله تعـالى: وَ يُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ لما كشف اللّه عن الحقيقه المتقـدمه فى جانب النفى بقوله: «إِنَّ اللّهَ لا يُصْـلِحُ عَمَـلَ الْمُفْسِـدِينَ» أبان عنه فى جانب الإثبات أيضا فى هـذه الآيه بقوله: «وَ يُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ» و قـد جمع تعالى بين معنيى النفى و الإثبات فى قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال/٨).

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات فى الآيه أقسام الأقضيه الإلهيه فى شئون الأشياء الكونيه الجاريه على الحق فإن قضـاء اللّه مـاض و سـنّته جـاريه أن يضـرب الحق و الباطـل فى نظـام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلائه، و ذلک قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَهٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً

وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد/١٧)،و سيجىء استيفاء البحث فيه فى ذيل الآيه إن شاء اللّه تعالى.

و الحاصل أن موسى عليه السّلام إنما ذكر هذه الحقيقه لهم ليوقفهم على سنّه إلهيه حقه غفلوا عنها، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل،و لذا بادروا الى الإيمان حين شاهدوا المعجزه،و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله اللّه سبحانه فى مواضع أخرى من كلامه.

و قوله: وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ و ذكر الإجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق،و لذلك نسب اللّه كراهه ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون فى قوله: «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و فى معناه قوله فى اول الآيات: «فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ».

قوله تعالى: فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ الى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير فى «قَوْمِهِ» راجع الى فرعون، و الذريه الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم فى الإيمان بموسى؛و قيل:الذريه بعض أولاد القبط؛و قيل:أريد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون،و قد ذكرا فى القرآن و جاريه و امرأه هى مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السّلام و المراد بالذريه جماعه من بنى إسرائيل تعلموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون؛و قيل:هم جميع بنى إسرائيل و كانوا ستمائه الف نسمه سمّاهم ذريه لضعفهم؛و قيل:ذريه آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد، و هذه الوجوه-كما ترى-لا دليل على شىء منها فى الآيات من جهه اللفظ.

و الذى يفيده السياق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا الى موسى و المراد

بالذريه من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسرائيل دون ملإهم الأقوياء و الشرفاء، و الاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، و العاده الجاريه فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء و الأقوياء بأى وسيله أمكنت الى حفظ مكانتهم الاجتماعيه و جاههم القومى،و يتقربوا الى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمه و مراءاه النصح و التجنب عما لا- يرتضيه فلم يكن فى وسع الملأ- من بنى اسرائيل أن يعلنوا موافقه موسى على بغيته،و يتظاهروا بالايمان به.

على أن قصص بنى اسرائيل فى القرآن أعدل شاهد على أن كثيرا من عتاه بنى اسرائيل و مستكبريهم لم يؤمنوا بموسى الى أواخر عهده و إن كانوا يتسلّمون له و يطيعونه فى عامه اوامره التى كان يصدرها لبذل المساعى فى سبيل نجاه بنى اسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم و حريه شعبهم و منافع اشخاصهم،فالإطاعه فى هذه الامور أمر و الإيمان باللّه و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و يستقيم على هذا معنى قوله: «وَ مَلاَئِهِمْ» بأن يكون الضمير الى الذريه و يفيد الكلام أن الذريه الضعفاء كانوا فى ايمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بنى اسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم انفسهم او تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه و يطيّبوا أنفسهم فلا يضيّقوا عليهم و ينقصوا من إيذائهم و التشديد عليهم.

و أما ما قيل:إن الضمير راجع الى فرعون لأنه ذو أصحاب او للذريه لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار اليه البته و خاصه أول الوجهين.

و قوله: أَنْ يَفْتِنَهُمْ اى يعذبهم ليعودوا الى ملته،و قوله: «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ» اى و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال فى الارض مسرف فى الأمر.

فالمعنى-و اللّه أعلم-فتفرع على قصه بعثهما و استكبار فرعون و ملئه أنه لم يؤمن بموسى إلاّ- ضعفاء من بنى اسرائيل و هم يخافون ملأهم و يخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم و كان

ينبغى لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عاليا فى الارض مسلطا عليهم و أنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحدّ فى الظلم و التعذيب.

و لو صحّ أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى و بلّغهم الرساله و هم القبط و بنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجه الى ما تقدم من تكلّفاتهم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ لما كان الايمان باللّه بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالا و أنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهى كل سبب،و هو المدبّر لكل أمر،يدعوه الى تسليم الأمر اليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل،و لازم ذلك إرجاع الأمر اليه و التوكل عليه،و قد أمرهم فى الآيه بالتوكل على اللّه،علّقه أولا على الشرط الذى هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذى هو الإسلام.

فالكلام فى تقدير:إن كنتم آمنتم باللّه و مسلّمين له فتوكلوا عليه.و قد فرّق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول«إن كنتم آمنتم و أسلمتم فتوكلوا»لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم،و أما الاسلام فهو من كمال الإيمان،و ليس من الواجب الضرورى ان يكون كل مؤمن مسلما بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجبا واقعا منهم،و الآخر مما ينبغى لهم أن يتحققوا به فالمعنى:يا قوم إن كنتم آمنتم باللّه-و قد آمنتم-و كنتم مسلمين له-و ينبغى أن تكونوا كذلك-فتوكلوا على اللّه؛ففى الكلام من لطيف الصنعه ما لا يخفى.

قوله تعالى: فَقٰالُوا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ الى آخر الآيتين،إنما توكلوا على اللّه لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: «رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً» الخ؛سؤال منهم نتيجه توكلهم و هو ان ينزع اللّه منهم لباس الضعف و الذلّه،و ينجيهم من القوم الكافرين.

ص:٧٣

أمـا الأـول فقـد اشـاروا اليه بقولهم: «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ» و ذلك أن الـذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضـعفاء المظلـومين هو مـا يشاهـدون فيهم من الضـعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضـعيف بمـا له من الضـعف فتنه للقوى الظـالم كمـا أن الأموال و الأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للانسان،قال تعالى: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن١٥/).

و الدنيا فتنه لطالبها فسؤالهم ربّهم أن لا يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسـلبهم الضـعف و الذّله بسـلب الغرض منه و هو سلب الشىء بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكايه عنهم فى الآيه الثانيه «وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً الـخ؛التبوّى أخـذ المسـكن و المنزل،و مصـر بلد فرعون،و القبله فى الأصل بناء نوع من المصـدر كجلسه أى الحاله التى يحصل بها التقابل بين الشـىء و غيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أى اجعلوا بيوتكم متقـابله يقابـل بعضـها بعضا و فى وجهه واحـده و كان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ و يتمكنوا من إقامه الصـلاه جماعه كما يدل عليه او يشعر به قوله بعده: «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ» لوقوعه بعده.

و أمـا قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فالسـياق يـدل على أن المراد به البشاره بإجابه ما سألوه فى دعائهم المـذكور آنفا «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً» الى آخر الآيتين.

و المعنى:و أوحينـا الى موسـى و أخيه أن اتّخـذا لقومكمـا مساكن من البيوت فى مصـر -و كأنهم لم يكونوا الى ذاك الحين إلّا كهيئه البـدويين يعيشون فى الفساطيط أو عيشه تشـبهها- و اجعلا أنتما و قومكما بيوتكم متقابله و فى جهه واحـده يتصل بـذلك بعضـكم ببعض و يتمشـى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع فى الصـلوات،و أقيموا الصـلاه و بشّر يا موسى أنت المؤمنين بأن اللّه سينجّيهم من فرعون و قومه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ مُوسیٰ رَبَّنٰا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَةً وَ أَمْوٰالاً الخ؛الزینه بناء نوع من الزین و هی الهیئه التی تجذب النفس الی الشیء،و النسبه بین الزینه و المال العموم من وجه فبعض الزینه لیس بمال یبذله بإزائه الثمن کحسن الوجه و اعتدال القامه،و بعض المال لبس بزینه کالأنعام و الأراضی،و بعض المال زینه کالحلی و التقابل الواقع بین الزینه و المال یعطی أن یکون المراد بالزینه جهه الزینه من غیر نظر الی المالیه کالحلی و الریاش و الأثاث و الأبنیه الفاخره و غیرها.

و قوله: رَبَّنٰا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ قیل اللام للعاقبه،و المعنی و عاقبه أمرهم أنهم یضلون عن سبیلک،و لا یجوز أن یکون لام الغرض لأنّا قد علمنا بالأدله الواضحه أن اللّه سبحانه لا یبعث الرسول لیأمر الخلق بالضلال و لا یرید أیضا منهم الضلال،و کذلک لا یؤتیهم المال لیضلوا.انتهی.

و هو حقّ لکن فی الإضلال الابتدائی المستحیل علیه تعالی،و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دلیل علی امتناعه علی اللّه سبحانه بل یثبته کلامه فی موارد کثیره، و قد کان فرعون و ملؤه مصرّین علی الاستکبار و الإفساد ملحّین علی الإجرام فلا مانع من أن یؤتیهم اللّه بذلک زینه و أموالا لیضلوا عن سبیله جزاء بما کسبوا.

و ربما قیل:إن اللام فی لِیُضِلُّوا للدعاء،و ربما قیل:إن الکلام بتقدیر لا أی لئلا یضلوا عن سبیلک،و السیاق لا یساعد علی شیء من الوجهین.

و الطمس-کما قیل-تغیّر الی الدثور و الدروس فمعنی «اطْمِسْ عَلیٰ أَمْوٰالِهِمْ» غیّرها الی الفناء و الزوال،و قوله: «وَ اشْدُدْ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ» من الشد المقابل للحل أی أقس قلوبهم و اربط علیها ربطا لا ینشرح للحق فلا یؤمنوا حتی یروا العذاب الألیم فهو الطبع علی القلوب،و قول بعضهم:إن المراد بالشد تثبیتهم علی المقام بمصر بعد الطمس علی أموالهم لیکون ذلک أشد علیهم و آلم،و کذا قول آخرین:إنه کنایه عن إماتتهم و إهلاکهم من الوجوه

البعیده.

فمعنی الآیه:و قال موسی-و کان ذلک بعد یأسه من إیمان فرعون و ملئه و یقینه بأنهم لا یدومون إلاّ علی الضلال و الإضلال کما یدل علیه سیاق کلامه فی دعائه-ربّنا إنک جازیت فرعون و ملأه علی کفرهم و عتوّهم جزاء السوء فآتیتهم زینه و أموالا فی الحیاه الدنیا ربّنا إراده منک لأن یضلوا من اتّبعهم عن سبیلک،و إرادتک لا تبطل و غرضک لا یلغو ربّنا أدم علی سخطک علیهم و اطمس علی أموالهم و غیّرها عن مجری النعمه الی مجری النقمه،و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا یؤمنوا حتی یقفوا موقفا لا ینفعهم الإیمان و هو زمان یرون فیه العذاب الإلهی.

و هذا الدعاء من موسی علیه السّلام علی فرعون و ملئه إنما هو بعد یأسه التام من إیمانهم،و علمه أنه لا یترقّب منهم فی الحیاه إلاّ أن یضلوا و یضلوا کدعاء نوح علی قومه فیما حکاه اللّه: رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبٰادَکَ وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّٰاراً (نوح۲۷/)،و حاشا ساحه الأنبیاء علیهم السّلام أن یتکلموا علی الخرص و المظنّه فی موقف یشافهون فیه رب العالمین جلت کبریاؤه و عز شأنه.

قوله تعالی: قٰالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمٰا فَاسْتَقِیمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ الخطاب-علی ما یدل علیه السیاق-لموسی و هارون و لم یحک الدعاء فی الآیه السابقه إلاّ عن موسی،و هذا یؤید ما ذکره المفسّرون:أنّ موسی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یدعو، و کان هارون یؤمّن له و آمین دعاء فقد کانا معا یدعوان و إن کان متن الدعاء لموسی علیه السّلام وحده.

و الاستقامه هو الثبات علی الأمر،و هو منهما علیهما السّلام الثبات علی الدعوه الی اللّه و علی إحیاء کلمه الحق،و المراد بالذین لا یعلمون الجهله من شعب إسرائیل و قد وصفهم موسی علیه السّلام بالجهل کما فی قوله: قٰالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف۱۳۸/).

ص :۷۶

و المعنى قالَ اللّه مخاطبا لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه،و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم «فَاسْتَقِيما» و اثبتا على ما أمرتما به من الدعوه الى اللّه و إحياء كلمه الحق «وَ لا تَتَّبِعانِّ» البتّه «سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» بإجابه ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم،و فيه نوع تلويح الى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنّتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجمله فالآيه تذكر إجابه دعوتهما المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للايمان و وعدهما بذلك،و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابه و كذا الآيه المخبره عن كيفيه إنجازه، و قد نقل فى المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه قال:و روى ذلك عن أبى عبد اللّه عليه السّلام،و رواه عنه عليه السّلام فى الاحتجاج و كذا فى الكافى و تفسير العياشى عن هشام بن سالم عنه عليه السّلام و فى تفسير القمى عن أبيه عن النوفى عن السكونى عنه عليه السّلام.

قوله تعالى: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً الى آخر الآيه،البغى و العدو كالعدوان الظلم و إدراك الشىء اللحوق به و التسلط عليه كما أن اتّباع الشىء طلب اللحوق به.

و قوله: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ أى آمنت بأنه.

و قد وصف اللّه بالذى آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزه البحر و الأمان من الغرق،و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصرّ عليه من المعصيه و هو الشرك باللّه و الاستكبار على اللّه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ آلآن بالمد أصله

ءالآن أی أ تؤمن باللّه الآن و هو حین أدرکک العذاب و لا إیمان و توبه حین غشیان العذاب و مجیء الموت من کل مکان،و قد عصیت قبل هذا و کنت من المفسدین،و أفنیت أیامک فی معصیته،و لم تقدم التوبه لوقتها فما ذا ینفعک الإیمان بعد فوت وقته و هذا هو الذی کان موسی و هارون سألاه ربهما ان یأخذه بعذاب ألیم و یسد سبیله الی الإیمان إلاّ حین یغشاه العذاب فلا ینفعه الإیمان و لا تغنی عنه التوبه شیئا.

قوله تعالی: فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَهً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النّٰاسِ عَنْ آیٰاتِنٰا لَغٰافِلُونَ التنجیه و الإنجاء تفعیل و إفعال من النجاه کالتخلیص و الإخلاص من الخلاص وزنا و معنی.

و تنجیته ببدنه تدل علی أن له اما آخر وراء البدن فقده بدنه بغشیان العذاب و هو النفس التی تسمی ایضا روحا،و هذه النفس المأخوذه هی التی یتوفاها اللّه و یأخذها حین موتها کما قال تعالی: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا (الزمر۴۲/)،و قال: قُلْ یَتَوَفّٰاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ (الم السجده۱۱/)،و هی التی یخبر عنها الانسان بقوله:«أنا»و هی التی بها تتحقق للإنسان إنسانیته،و هی التی تدرک و ترید و تفعل الأفعال الانسانیه بواسطه البدن بما له من القوی و الأعضاء المادیه،و لیس للبدن إلاّ أنه آله و أداه تعمل بها النفس أعمالها المادیه.

و لمکان الاتحاد الذی بینها و بین البدن یسمی باسمها البدن و إلاّ فأسماء الأشخاص فی الحقیقه لنفوسهم لا لأبدانهم،و ناهیک فی ذلک التغیّر المستمر الذی یعرض البدن مده الحیاه، و التبدل الطبیعی الذی یطرأ علیه حینا بعد حین حتی ربما تبدل البدن بجمیع أجزائه الی أجزاء أخر تترکب بدنا آخر فلو کان زید هو البدن الذی ولدته أمه یوم ولدته و الاسم له لکان غیره و هو ذو سبعین و ثمانین قطعا و الاسم لغیره حتما،و لم یثب و لم یعاقب الانسان و هو شائب علی ما عمله و هو شابّ لأن الطاعه و المعصیه لغیره.

فهـذه و أمثالهـا شواهـد قطعيه على أن إنسـانيه الانسان بنفسه دون بـدنه،و الأسـماء للنفوس لا للأبـدان يـدركها الانسان و يعرفها إجمالا و إن كان ربما أنكرها فی مقام التفصیل.

و بالجمله فالآيه: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ كالصـريح أو هو صـريح فی أن النفوس وراء الأبدان،و أن الأسـماء للنفوس دون الأبدان إلّا ما يطلق على الأبدان بعنايه الاتحاد.

فمعنی: نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ نخرج بدنک من اليم و ننجيه،و هو نوع من تنجيتک-لما بين النفس و البدن من الاتحاد القاضـی بكون العمـل الواقع على أحـدهما واقعـا بنحو على الآخر- لتكون لمن خلفـک آيه،و هـذا بوجه نظير قوله تعـالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ (طه/ ۵۵)فإن الذى يعاد الى الأرض هو جسد الانسان دون الانسان التام فليست نسبه الإعاده الى الانسان إلّا لما بين نفسه و بدنه من الاتحاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أی أسـكناهم مسـكن صـدق،و إنما يضاف الشـیء الى الصـدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فيه صـدقا من غير أن يكـذب فی شـیء من آثاره التی يعده بلسان دلالته الالتزاميه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الـذی سـيفی به واعـده،و يسر بالوفاء به موعوده،و يحق أن يطمع فيه و يرجى وقوعه.فإن لم يكن كـذلک فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب فی معناه و لوازم معناه.

و على هـذا فقوله: مُبَوَّأَ صِدْقٍ يـدل على أن اللّه سـبحانه بوّأهم مبوءا يوجـد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسـكن من مقاصـد السـكنی كطيب المـاء و الهواء و بركـات الأرض و وفور نعمها و الاسـتقرار فيها و غير ذلک،و هـذه هی نواحی بيت المقـدس و الشام التی أسكن اللّه بنی إسرائيل فيها و سماها الأرض المقدسه المباركه و قد قص القرآن دخولهم فيها.

و الآيه أعنی قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ -الى قوله- مِنَ الطَّيِّباتِ

مسوقه سوق الشكوى و العتبى،و يشهد به تذييلها بقوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ» و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ» الى آخر الآيه بيان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخذ النتيجه من القصه.

و المعنى:أنا أتممنا على بنى إسرائيل النعمه و بوأناهم مبوّء صدق و رزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مده طويله كانوا فيها فى إساره القبط فوحدنا شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرّقوا الكلمه و اختلفوا فى الحق،و لم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩۴ الى ١٠٣]

اشاره

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ فَسْئَلِ اَلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جٰاءَكَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِينَ (٩۴) وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (٩۵) إِنَّ اَلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٩۶) وَ لَوْ جٰاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ اَلْخِزْيِ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ اَلنّٰاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ يَجْعَلُ اَلرِّجْسَ عَلَى اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ اُنْظُرُوا مٰا ذٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا تُغْنِي اَلْآيٰاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنٰا نُنْجِ اَلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

ص: ٨٠

بیان:

قوله تعالی: فَإِنْ کُنْتَ فِی شَکٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الی آخر الآیه الشک الریب، و المراد بقوله: «مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ» المعارف الراجعه الی المبدإ و المعاد و السنّه الإلهیه فی القضاء علی الامم مما تقدّم فی السوره،و قوله: «یَقْرَؤُنَ الْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکَ» «یَقْرَؤُنَ» فعل مضارع استعمل فی الاستمرار «مِنْ قَبْلِکَ» حال من الکتاب عامله متعلّقه المقدّره و التقدیر منزلا من قبلک.کل ذلک علی ما یعطیه السیاق.

و المعنی «فَإِنْ کُنْتَ» أیها النبی«فی ریب»و شک «مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ» من المعارف الراجعه الی المبدإ و المعاد و ما قصصنا علیک اجمالا من قصص الأنبیاء الحاکیه لسنه اللّه الجاریه فی خلقه من الدعوه أولا ثم القضاء بالحق «فَسْئَلِ» اهل الکتاب «الَّذِینَ» لا یزالون «یَقْرَؤُنَ» جنس «الْکِتٰابَ» منزلا من السماء «مِنْ قَبْلِکَ» أقسم «لَقَدْ جٰاءَکَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِینَ» المتردّدین.

ص: ۸۱

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لا تحقّق شك منه فانّ هذا النوع من الخطاب كما يصحّ أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كذلك يصحّ أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بيّنه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الذى أخبر به المخبر ممّا تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فان فرض من المخاطب او السامع شكّ فى واحده منها كان له ان يأخذ بالاخرى.

و هذه طريقه شائعه فى عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم اليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجه على أمر من الامور ثم يقول:فان شككت فى ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجّه اخرى على ذلك و هى أنّ كذا كذا،و ذلك كنايه عن أنّ الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضروبه على ما لا يحتاج الى أزيد من واحد منها لكنّ الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيئول معنى الكلام الى أن هذه معارف بيّنها اللّه لك بحجج تضطر العقول الى قبولها و قصص تحكى سنّه اللّه فى خلقه و الآثار تدل عليها،بيّنها فى كتاب لا ريب فيه،فعلى ما بيّنه حجّه و هناك حجه أخرى و هى أنّ أهل الكتب السماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ و معاد،و هناك دين الهى بعث به رسله يدعون اليه،و لم يدعوا أمّه من الامم إلّا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذّب فأنزل اللّه آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه،و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بعض ما يختص به الإسلام من المعارف و ما غيّروه فى الكتب من الجزئيات،و من لطيف الإشاره أن اللّه سبحانه لم يذكر فى القصص المذكوره فى هذه السوره قصّه هود و صالح لعدم تعرّض التوراه الموجوده عندهم لقصّتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها

و ليس إلّا لمكان أن يستشهد فى هذه الآيه بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآيه فى القاء الحجّه على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم وزانها وزان قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِى إِسْرٰائِيلَ (الشعراء۱۹۷/)فى القاء الحجّ الى الناس.

على أنّ السوره من اوائل السور النازله بمكّه،و لم تشتد الخصومه يومئذ بين المسلمين و أهل الكتاب و خاصه اليهود اشتدادها بالمدينه،و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذى ركبوه بعد هجره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذى قالوا: مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام۹۱/).

فهذا ما يعطيه سياق الآيه من المعنى،و أظنك إن أمعنت فى تدبر الآيه و سائر الآيات التى تناسبها مما يخاطب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بحقيه ما نزل اليه من ربه،و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله،و ما يصف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه على بصيره من أمره،و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى،و أغناك عن التمحلات التى ارتكبوها فى تفسير الآيه بما لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ نهى عن الارتياب و الامتراء أولا ثم ترقى الى النهى عن التكذيب بآيات اللّه و هو العناد مع الحق استكبارا على اللّه فإن الآيه لا تكون آيه إلّا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنيا إلّا على العناد و اللجاج.

و قوله: فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ تفريع على التكذيب بآيات اللّه فهو نتيجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقيقه.و المعنى:و لا تكن من الخاسرين،و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه او ذهاب جميعه،و هو الإيمان باللّه و آياته الذى هو رأس مال الإنسان فى سعاده حياته فى الدنيا و الآخره على ما يستفاد من الآيه التاليه حيث يعلل خسرانهم أنهم لا يؤمنون.

قوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلَّ آيَهٍ الـخ؛تعليل للنهى السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشـأن فـإن اصل النظم بحسب المعنى المسـتفاد من السـياق أن يقال:لا تكونن من المكـذّبين لأن المكـذّبين لا يؤمنون فيكونون خاسـرين لأن رأس مال السـعاده هو الإيمان فوضع قوله: «الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّکَ» موضع«المكـذبين»للدلاله على سـبب الحكم و أن المكذّبين إنما يخسرون لأن كلمه اللّه سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال الى اللّه سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التى حقت على المكـذّبين بآيات اللّه هى قوله يوم شـرع الشـريعه العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً -الى قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (البقره۳۹/).

و هذا هو الذى يريده بقوله فى مقام بيان سـبب خسـران المكذّبين: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّکَ» و هم المكذّبون حقت عليهم كلمه العـذاب فهم «لا يُؤْمِنُونَ» و لـذلک كانوا خاسـرين لأنهم ضـيعوا رأس مال سـعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركـاته فى الـدنيا و الآخره،و إذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيـل لهم الى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه «حَتّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ» و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

قوله تعالى: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَهٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ الخ؛ظاهر السـياق أن لو لا للتحضـيض،و أن المراد بقوله: «آمَنَتْ» الإيمان الاختيارى الصـحيح كما يشـعر به قوله بعـده: «فَنَفَعَها إِيمانُها» و لوقوع التحضـيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجمله معنى اليأس المساوق للنفى فاستقام الاستثناء الذى فى قوله: «إِلاّ قَوْمَ يُونُسَ».

و المعنى:هلاّ كانت قريه-من هذه القرى التى جاءتهم رسلنا فكذبوهم-آمنت قبل نزول العذاب إيمانا اختياريا فنفعها إيمانها.لا و لم يؤمن إلاّ قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب

الخزى فى الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه الى حين آجالهم العاديه الطبيعيه.و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً اى لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه فى ذلك الى اللّه سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغى لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان، و الإيمان الذى نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك فى صوره الاستفهام الإنكارى «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» اى بعد ما بيّنا أن أمر المشيه الى اللّه و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البته لم يبق لك إلّا أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان،و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذى هذا نعته.

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ لما ذكر فى الآيه السابقه أن الأمر الى اللّه سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعا لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع فى إيمان الجميع زاد فى هذه الآيه فى بيان ذلك ما محصله أن الملک-بالکسر-للّه فله أصاله التصرف فى كل أمر لا يشاركه فى ذلك مشارک إلّا أن يأذن لبعض ما خلقه فى بعض التصرفات.

و الإيمان باللّه عن اختيار و الاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج فى تحققه الى سبب يخصه، و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف فى الكون بإيجاد مسببه إلّا عن إذن من اللّه سبحانه فى ذلك لكنّ اللّه سبحانه بجعل الرجس و الضلال على أهل العناد و الجحود لم يأذن فى إيمانهم،و لا رجاء فى سعادتهم.

و لو أنه تعالى أذن فى ذلک لأحد لأذن فى إيمان غير أولئک المكذبين فقوله: «وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ» حكم عام حقيقى ينيط تملک النفوس للايمان الى إذن اللّه،و قوله:

«وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ» الخ؛يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

و قد أريد فى الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك و الريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس فى المقام لما قوبل بالإيمان،و قد عرّف فى قوله تعالى: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأنعام١٢۵/).

و قد أريد ايضا بقوله: اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ أهل التكذيب بآيات اللّه من جهه أنهم ممن حقّت عليه كلمه العذاب فإنهم الذين طبع اللّه على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: وَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (التوبه٩٣/).

قوله تعالى: قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ اى من المخلوقات المختلفه المتشتّته التى كل واحد منها آيه من آيات اللّه تعالى تدعو الى الإيمان،و قوله: «وَ مٰا تُغْنِى الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ» ظاهره أن «مٰا» استفهاميه و الجمله مسوقه بداعى الإنكار و إظهار الأسف كقول الطبيب:بما ذا أعالج الموت؟أى إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا «قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ» الخ؛لكن أى تأثير للنذر فيهم او للآيات فيهم و هم لا يؤمنون اى عازمون مجمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذى على قلوبهم و ربما قيل:إن ما نافيه.

قوله تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ تفريع على ما فى الآيه السابقه من قوله: «وَ مٰا تُغْنِى الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ» اى اذا لم تغن الآيات و النذر عنهم شيئا و هم لا يؤمنون البته فهم لا ينتظرون إلاّ مثل ايام الذين خلوا من قبلهم،و إنما يحبسون نفوسهم لآيه العذاب الإلهى التى تفصل بينك و بينهم فتقضى عليهم لأنهم حقّت عليهم كلمه العذاب.

و لذا أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يبلّغهم ذلك بقوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» اى مثل ايام الذين خلوا من قبلكم يعنى يوم العذاب الذى يفصل بينى و بينكم فتؤمنون و لا ينفعكم إيمانكم «إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ».

و قد تبيّن بما مرّ أن الاستفهام فى الآيه إنكارى.

قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا الجمله تتمه صدر الآيه السابقه و قوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» الخ؛جمله معترضه و النظم الأصلى بحسب المعنى «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ» أى قومک هؤلاء «إِلاّ مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الذين كانت تحق عليهم كلمه العذاب فنرسل اليهم آيه العذاب «ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا».

و إنما اعترض بقوله: قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذى يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، و هو يتضمن انتظار النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم للقضاء بينه و بينهم،و أما تنجيته و تنجيه المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنون لا هو وحده،و لا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العذاب،و هو مع ذلک لا يتعلق به غرض فى المقام الذى سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين فافهم ذلک.

و أما قوله: كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ فمعناه كما كنا ننجى الرسل و الذين آمنوا فى الامم السابقه عند نزول العذاب كذلک ننجى المؤمنين بک من هذه الامه حقّ علينا ذلک حقا،فقوله: «حَقًّا عَلَيْنا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف،و اللام فى «الْمُؤْمِنِينَ» للعهد و المراد به مؤمنو هذه الامه،و هذا هو الوعد الجميل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين من هذه الامه بالإنجاء.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» أن فيه تلويحا الى أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يدرک هذا القضاء،و إنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر معهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مع أنه تعالى ذكر فى السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى فى كلامه: «فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ» او ما فى معناه.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۹]

اشاره

قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاٰ أَعْبُدُ اَلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اَللّٰهَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاٰ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۱۰۷) قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اِهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اِتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ اِصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ اَللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ (۱۰۹)

بیان:

قوله تعالی: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي الخ؛قد تقدم غیر مره أن الدین هو السنّه المعمول بها فی الحیاه لنیل سعادتها و فیه معنی الطاعه کما فی قوله تعالی:

وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ (النساء١۴۶/)و ربما استعمل بمعنى الجزاء.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أى فى طريقتى التى أسلكها و أثبت عليها و شك الانسان فى دين غيره و طريقته المعموله له إنما يكون فى ثباته عليه هل يستقر عليه و يستقيم؟و قد كان المشركون يطمعون فى دينه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته الى التوحيد و رفض الشرك بالآلهه.

فالمعنى:إن كنتم تشكون فيما أدين به و أدعو اليه هل أستقيم عليه؟أو شككتم فى دينى ما هو؟و لم تحصّلوا الأصل الذى يبتنى عليه فإنى أصرح لكم القول فيه و أبينه لكم و هو أنى لا أعبد آلهتكم و أعبد اللّه وحده.

و قد أخذ فى قوله: وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ له تعالى وصف توفّيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجه اليه فى دفع الضرر و جلب النفع،و التوفى أمر لا يشكون أنه سيصيبهم و أنه للّه وحده فمساس الحاجه الى الأمن من ضرره يوجب عباده اللّه سبحانه.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون فى الكلام تلويح الى تهديدهم فإن الآيات السابقه وعدتهم العذاب وعدا قطعيا،و وفاه المشركين ميعاد عذابهم،و يؤيد ذلك اتباع قوله:

وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ بقوله: أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذى ذكره اللّه فى الآيتين السابقتين على هذه الآيه «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ -الى قوله- نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ».

و المعنى:فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلهتكم و لكن أعبد اللّه الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عباده الآلهه.

قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً عطف على موضع قوله: «وَ أُمِرْتُ أَنْ» الخ؛فإنه فى معنى و كن من المؤمنين،و قد مر الكلام فى معنى إقامه الوجه للدين الحنيف غير

مره.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ نهی بعد نهی عن الشرک،و بیان أن الشرک یدخل الإنسان فی زمره الظالمین فیحق علیه ما أوعد اللّه به الظالمین فی کلامه.

و من لطیف التعبیر قوله حین ذکر الدعاء «مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ» و حین ذکر العباده «الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» فإن العباده بالطبع یعطی للمعبود شعورا و عقلا فناسب أن یعبر عنه بنحو «الَّذِينَ» المستعمل فی ذوی العلم و العقل،و الدعاء و إن کان کذلک لمساوقته العباده غیر أنه لما وصف المدعو بما لا ینفع و لا یضر،و ربما توهم أن ذوی العلم و العقل یصح أن تنفع و تضر،عبّر بلفظه«ما»لیلوّح الی أنها جماد لا یتخیل فی حقهم إراده نفع أو ضرر.

و فی التعبیر نفسه أعنی قوله: مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ إعطاء الحجه علی النهی عن الدعاء.

قوله تعالی: إِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ الخ؛الجمله حالیه و هی تتمه البیان فی الآیه السابقه،و المعنی:و لا تدع من دون اللّه ما لا نفع لک عنده و لا ضرر، و الحال أن ما مسّک اللّه به من ضر لا یکشفه غیره و ما أرادک به من خیر لا یرده غیره فلهو القاهر دون غیره یصیب بالخیر عباده بمشیئته و إرادته،و هو مع ذلک غفور رحیم یغفر ذنوب عباده و یرحمهم،و اتصافه بهذه الصفات الکریمه و کون غیره صفر الکف منها یقتضی تخصیص العباده و الدعوه به.

قوله تعالی: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و هو القرآن أو ما یشتمل علیه من الدعوه الحقه،و قوله: فَمَنِ اهْتَدىٰ الی آخر الآیه؛إعلام لهم بکونهم مختارین فیما ینتخبونه لأنفسهم من غیر أن یسلبوا الخیره ببیان حقیقه هی ان الحق-و قد جاءهم- من حکمه ان من اهتدی الیه فإنما یهتدی و نفعه عائد الیه،و من ضل عنه فإنما یضل

و ضرره على نفسه فلهم ان يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع او ضرر،و ليس هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم وكيلا لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآيه كنايه عن وجوب اهتدائهم الى الحق لان فيه نفعهم.

قوله تعالى: وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ اللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ أمر باتباع ما يوحى اليه و الصبر على ما يصيبه فى جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن،و وعد بأن اللّه سبحانه سيحكم بينه و بين القوم،و لا يحكم إلّا بما فيه قره عينه فالآيه تشتمل على أمره بالاستقامه فى الدعوه و تسليته فيما يصيبه،و وعده بأن العاقبه الحسنى له.

و قد اختتمت الآيه بحكمه تعالى،و هو الذى عليه يعتمد معظم آيات السوره فى بيانها.

و اللّه اعلم.

ص:٩١

سوره هود مکیه و هی مائه و ثلاث و عشرون آیه

اشاره

[سوره هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtالر كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اَللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

بیان:

قوله تعالی: الر كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ المقابله بین الاحکام و التفصیل الذی هو ایجاد الفصل بین أجزاء الشیء المتصل بعضها ببعض، و التفرقه بین الامور المندمجه کل منها فی آخر تدل علی أن المراد بالاحکام ربط بعض الشیء

ص: ۹۲

ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه الى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئا واحدا بسيطا غير ذى أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الكتاب اذا اتصف بالاحكام و التفصيل بهذا المعنى الذى مرّ فإنما يتصف بهما من جهه ما يشتمل عليه من المعنى و المضمون لا- من جهه ألفاظه او غير ذلك،و أن حال المعانى فى الاحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الاعيان فالمعانى المتكثره اذا رجعت الى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ فى الجميع و هو بعينه على إجماله هذه التفاصيل،و هى بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه.

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمه أوّلا ثم مفصله ثانيا معناه أن الآيات الكريمه القرآنيه على اختلاف مضامينها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع الى معنى واحد بسيط، و غرض فارد أصلى لا- تكثّر فيه و لا تشتت بحيث لا تروم آيه من الآيات الكريمه مقصدا من المقاصد و لا ترمى الى هدف إلّا و الغرض الأصلى هو الروح السارى فى جثمانه و الحقيقه المطلوبه منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرّق أبعاضه إلّا غرض واحد متوحّد إذا فصّل كان فى مورد أصلا دينيا و فى آخر أمرا خلقيا و فى ثالث حكما شرعيا و هكذا كلما تنزّل من الاصول الى فروعها و من الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ،و لا يخطى غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال،و هى بتحليلها و إرجاعها الى الروح السارى فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحه عزّه و كبريائه مثلا فى مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى و صفاته العليا،و فى مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمه من الرضا و التسليم و الشجاعه و العفّه و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيله،و فى مقام الأعمال

و الأفعال الإتيان بالأعمال الصالحه و الورع عن محارم اللّه.

و إن شئت فقل:إن التوحيد الخالص يوجب فى كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما يبيّنه الكتاب الإلهى من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص.

فقد تبيّن أن الآيه فى مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنيه الى أصل واحد هو بحيث اذا ركّب فى كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصيه ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنيه.

و قوله تعالى: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ الحكيم من اسمائه الحسنى الفعليه يدلّ على اتقان الصنع،و كذا الخبير من اسمائه الحسنى يدلّ على علمه بجزئيات احوال الامور الكائنه و مصالحها،و إسناد إحكام الآيات و تفصيلها الى كونه تعالى حكيما خبيرا لما بينهما من النسبه.

قوله تعالى: أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا الآيه؛و ما بعدها تفسير لمضمون الآيه «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» و إذ كانت الآيه تتضمن أنه كتاب من اللّه الى...له آيات محكمه ثم مفصله كانت العنايه فى تفسيرها متوجهه الى إيضاح هذه الجهات.

و من المعلوم ان هذا الكتاب الذى انزله اللّه تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس و يبلّغهم له وجه خطاب الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و وجه خطاب الى الناس بوساطته اما وجه خطابه الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو الذى يتلقاه الرسول من وحى اللّه فهو ان انذر و بشّر وادع الناس الى كذا و كذا،و هذا الوجه هو الذى عنى به فى اول سوره يونس حيث قال تعالى:

أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس۲/).

و اما وجه خطابه الى الناس و هو الذى يتلقاه الناس من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم فهو ما يلقيه الى

النـاس من المعنى فى ضـمن تلاوته كلام اللّه عليهم بعنوان الرسـاله أنى ادعوكم الى اللّه دعوه نـذير و بشـير،و هـذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله: «أَلّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ» الخ.

فالآيه من كلام اللّه تفسّر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكايه ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول اياهم بتلاوه كتاب اللّه عليهم،و ليس كلاما للرسول بطريق الحكـايه و لا بتقـدير القول و لا من الالتفات فى شـىء،و لا ان التقـدير:امركم بأن لا تعبـدوا او«فصّلت آيـاته لأن لا تعبـدوا إلاّ اللّه»بأن يكون قوله:«لا تعبـدوا»نفيا لا نهيا فإن قوله بعـد «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» معطوف على قوله: «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ» و هو يشـهد بأن«لا تعبـدوا» نهى لا نفى.على ان التقدير لا يصار اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقوله: أَلّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ دعوه الى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير اللّه من الآلهه المتخذه شركاء للّه،و قصر العباده فيه تعـالى،و قوله: «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» امر بطلب المغفره من اللّه و قـد اتخـذوه ربـا لهم برفض عباده غيره ثم امر بـالتوبه و الرجوع اليه بالأعمـال الصالحه،و يتحصّل من الجميع سـلوك الطريق الطبيعى الموصل الى القرب و الزلفى منه تعالى،و هو رفض الآلهه دون اللّه ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحه.

و قد جىء بأن التفسـيريه ثانيا فى قوله: «وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا» الخ؛لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشـير اليهما قوله: «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ» و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا،و قوله:

«وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الاولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا عليه أورد

ص :٩٥

النـذر و البشاره بعد ذكر التوحيد،و الوعد الجميل الذى يتضـمنه قوله: «يُمَتِّعْكُمْ» الخ؛بعد ذكر الاسـتغفار و التوبه فقال «أَلّاَ تَعْبُدُوا إِلاّـَ اللّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَـذِيرٌ وَ بَشِـيرٌ» فبيّن به أن النـذر و البشـرى كـائنين مـا كانـا يرجعان الى التوحيـد و يتعلقان به ثم قال «وَ أَنِ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَـناً» الخ؛فإن الآثار القيمه و النتائج الحسـنه المطلوبه إنما تترتب على الشـىء بعد ما تم فى نفسه و كمل بصـفاته و فروعه و نتائجه،و التوحيد و إن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقهـا و يتفرع عليها فروعها و أغصانها، «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْـلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِى السَّماءِ تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فى الآيه الايمان كما فى قوله تعالى: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمنون/٧)فيستقيم الجمع بين الاسـتغفار و التـوبه مـع عطـف التوبه عليه بثمّ، و المعنى اتركوا عبـاده الأصـنام بعـد هـذا و اطلبوا من ربكـم غفـران مـا قـدمتم من المعصيه ثم آمنوا بربكم.

و قيـل:إن المعنى اطلبـوا المغفره و اجعلوهـا غرضـكم ثم توصـلوا اليه بـالتوبه و هـو غير جيـد و من التكلف مـا ذكره بعضـهم أن المعنى:استغفروا من ذنوبكم الماضـيه ثم توبوا اليه كلمـا أذنبتم فى المسـتقبل و كـذا قول آخر:إن «ثُمَّ» فى الآيه بمعنى الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَـناً إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى الأجل المسـمى هو الوقت الـذى ينتهى اليه الحياه لا تتخطاه البته،فالمراد هو التمتيع فى الحيـاه الـدنيا بـل بالحيـاه الـدنيا لأن اللّه سـبحانه سـماها فى مواضع من كلامه متاعا،فالمتاع الحسن الى أجل مسـمى ليس إلّا الحياه الدنيا الحسنه.

فيؤول معنى قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً على تقدير كون «مَتاعاً» مفعولا

ص :٩۶

مطلقا الی نحو من قولنا:یمتعکم تمتیعا حسنا بالحیاه الحسنه الدنیویه،و متاع الحیاه إنما یکون حسنا إذا ساق الإنسان الی سعادته الممکنه له،و هداه الی أمانی الإنسانیه من التنعم بنعم الدنیا فی سعه و أمن و رفاهیه و عزه و شرافه فهذه الحیاه الحسنه تقابل المعیشه الضنک التی یشیر إلیها فی قوله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (طه۱۲۴/).

و قوله: وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ الفضل هو الزیاده و إذ نسب الفضل فی قوله: «كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» الی من عنده الفضل من الأفراد کان ذلک قرینه علی کون الضمیر فی «فَضْلَهُ» راجعا الی ذی الفضل دون اسم الجلاله کما احتمله بعضهم و الفضل و الزیاده من المعانی النسبیه التی إنما تتحقق بقیاس شیء الی شیء و إضافته الیه.

فالمعنی:و یعطی کل من زاد علی غیره بشیء من صفاته و أعماله و ما یقتضیه من الاختصاص بمزید الأجر و خصوص موهبه السعاده تلک الزیاده من غیر أن یبطل حقه او یغصب فضله او یملکه غیره کما یشاهد فی المجتمعات غیر الدینیه و إن کانت مدنیه راقیه فلم تزل البشریه منذ سکنت الأرض و کونت أنواع المجتمعات الهمجیه او الراقیه او ما هی أرقی تنقسم الی طائفتین مستعلیه مستکبره قاهره،و مستذله مستعبده مقهوره،و لیس یعدّل هذا الافراط و التفریط و لا یسوی هذا الاختلاف إلاّ دین التوحید.

و قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ أی فإن تتولوا،الخ؛ بالخطاب،و الدلیل علیه قوله: «عَلَيْكُمْ» و ما تقدم فی الآیتین من الخطابات المتعدده فلا یصغی الی قول من یأخذ قوله: «تَوَلَّوْا» جمعا مذکرا غائبا من الفعل الماضی فإنه ظاهر الفساد.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۵ الی ۱۶]

اشاره

أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ اَلصُّدُورِ (۵) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي اَلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اَللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۶) وَ هُوَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى اَلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ اَلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ اَلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا اَلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ اَلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلاَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا اَلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اَللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۲) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۳) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اَللَّهِ وَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴) مَنْ كَانَ يُرِيدُ اَلْحَيَاةَ اَلدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولَئِكَ اَلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ إِلاَّ اَلنَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶)

بيان:

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الى آخر الآيه؛ثنى الشىء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا اى عطفه و طواه و ردّ بعضه على بعض قال فى المجمع:اصل الثنى العطف تقول:ثنيته عن كذا اى عطفته،و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى،و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح،و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى.و قال ايضا:الاستخفاء طلب خفاء الشىء يقال:استخفى و تخفّى بمعنى،و كذلك استغشى و تغشّى،انتهى.

فالمراد بقوله: يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أنهم يميلون بصدورهم الى خلف و يطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب اى من استماعه حين تلاوته و هو كنايه عن استخفائهم من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجه.

و قوله: أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ الخ؛كأنهم كانوا يسترون رءوسهم

ص :۹۹

ایضا بثیابهم عند استخفائهم بثنی الصدور فذکر اللّه سبحانه ذلک و أخبر أنه تعالی یعلم عند ذلک ما یسرّون و ما یعلنون فما یغنیهم التخفی عن استماع القرآن و اللّه یعلم سرّهم و علانیتهم.

و قیل:إن المراد باستغشائهم ثیابهم هو الاستغشاء فی بیوتهم لیلا عند أخذ المضاجع للنوم،و هو أخفی ما یکون فیه الانسان و أخلی أحواله،و المعنی:أنهم یثنون صدورهم لیستخفوا من هذا الکتاب عند تلاوته علیهم،و اللّه یعلم سرّهم و علانیتهم فی أخفی ما یکونون علیه من الحال و هو حال تغشیهم بثیابهم للنوم،و لا یخلو الوجه من ظهور.

قوله تعالی: وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِی اَلْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ رِزْقُهٰا الی آخر الآیه، الدابّه علی ما فی کتب اللغه کل ما یدبّ و یتحرّک،و یکثر استعماله فی النوع الخاص منه، و قرینه المقام تقتضی کون المراد منه العموم لظهور أن الکلام مسوق لبیان سعه علمه تعالی، و لذلک عقّب به قوله: «أَلاٰ حِینَ یَسْتَغْشُونَ ثِیٰابَهُمْ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ».

و هذا المعنی أعنی کون ذکر وجوب رزق کل دابه علی اللّه لبیان سعه علمه لکل دابه فی جمیع احوالها یستوجب أن یکون قوله: وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا بمنزله عطف التفسیر لقوله: عَلَی اَللّٰهِ رِزْقُهٰا فیعود المعنی الی أن کل دابه من دواب الأرض علی اللّه أن یرزقها-و لن تبقی بغیر رزق-فهو تعالی علیم بها خبیر بحالها أینما کانت فإن کانت فی مستقر لا تخرج منه کالحوت فی الماء و کالصدف فیما وقعت و استقرت فیه من الأرض رزقها هناک و إن کانت خارجه من مستقرها و هی فی مستودع ستترکه الی مستقرّها کالطیر فی الهواء او کالمسافر الغارب عن وطنه او کالجنین فی الرحم رزقها هناک و بالجمله هو تعالی عالم بحال کل دابه فی الأرض و کیف لا و علیه تعالی رزقها و لا یصیب الرزق المرزوق إلاّ بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حلّ فیه من محل دائم او معجّل و مستقر او مستودع.

و أما قوله: عَلَی اَللّٰهِ رِزْقُهٰا فهو دال علی وجوب الرزق علیه تعالی و قد تکرر فی

القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصه به و أنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ (الملک۲۱/)،و قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِینُ (الذاریات۵۸/)و قال تعالی: وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (الذاریات۲۳/).

و لا ضیر فی أن یثبت علیه تعالی حق لغیره اذا کان تعالی هو الجاعل الموجب لذلک علی نفسه من غیر أن یداخل فیه غیره،و لذلک نظائر فی کلامه تعالی کما قال: کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ (الأنعام۱۲/)،و قال: وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (الروم۴۷/)الی غیر ذلک من الآیات.

و الاعتبار العقلی یؤید ذلک فإن الرزق هو ما یدیم به المخلوق الحی وجوده و إذ کان وجوده من فیض جوده تعالی فما یتوقف علیه من الرزق من قبله،و إذ لا شریک له تعالی فی إیجاده لا شریک له فی ما یتوقف علیه وجوده کالرزق.

و قد تقدم بعض الکلام فی معنی الکتاب المبین فی سوره الأنعام آیه:۵۹ و فی سوره یونس آیه:۶۱ فلیراجع.

قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ الکلام المستوفی فی توصیف خلق السماوات و الأرض علی ما یظهر من کلامه تعالی و یفسره ما ورد فی ذلک عن اهل العصمه علیهم السّلام موکول الی ما سیأتی من تفسیر سوره حم السجده إن شاء اللّٰه تعالی.

و إجمال القول الذی یظهر به معنی قوله: سِتَّهِ أَیّٰامٍ و قوله: وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ هو أن الظاهر أن ما یذکره تعالی من السماوات-بلفظ الجمع-و یقارنها بالأرض و یصف خلقها فی سته أیام طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا فکل ما علاک و أظلک فهو سماء علی ما قیل و العلو و السفل من المعانی الإضافیه.

فهی طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا و تحیط بها فإن الأرض کرویه الشکل علی ما یفیده قوله تعالی: یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً (الأعراف/۵۴).

و السماء الاولی هی التی تزیّنه مصابیح النجوم و الکواکب فهی الطبقه التی تتضمنها او هی فوقها و تتزین بها کالسقف یتزین بالقنادیل و المشاکی و أما ما فوق السماء الدنیا فلم یرد فی کلامه شیء من صفتها غیر ما فی قوله تعالی: سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (الملک/۳)،و قوله:

أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (نوح/۱۶)حیث یدل علی مطابقه بعضها بعضا.

و أما قوله: وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ فهو حال و المعنی و کان عرشه یوم خلقهن علی الماء و کون العرش علی الماء یومئذ کنایه عن أن ملکه تعالی کان مستقرا یومئذ علی هذا الماء الذی هو ماده الحیاه فعرش الملک مظهر ملکه،و استقراره علی محل هو استقرار ملکه علیه کما ان استواءه علی العرش احتواءه علی الملک و أخذه فی تدبیره.

قوله تعالی: لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً اللام للغایه و البلاء الامتحان و الاختبار،و قوله: «أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» بیان للاختبار و الامتحان فی صوره الاستفهام و المراد أنه تعالی خلق السماوات و الأرض علی ما خلق لغایه امتحانکم و تمییز المحسنین منکم من المسیئین (۱).

و أما ما فی الآیه من تعلیل خلق السماوات و الارض بقوله: «لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الکثیره فی القرآن فإنما هو و أمثاله من قبیل التعلیل بالفوائد المترتبه و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالی أن فعله لا یخلو من الحسن إذ قال: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده/۷)،فهو سبحانه هو الخیر لا شرّ فیه و هو الحسن لا قبح عنده و ما کان کذلک لم

۱- ۱) .هود ۵-۱۶:کلام فی غایه الخلقه.

يصدر عنه شرّ و لا قبيح البته.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى او الذى أمر به و إن استقبحه العقل،و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه او الذى نهى عنه و إن استحسنه العقل و استصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللّهَ لاٰ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ (الأعراف/ ۲۸).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ لما كان قوله: «لِيَبْلُوَكُمْ» الخ؛يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجه به الكفار ذكره صلّى اللّه عليه و آله و سلم للمعاد برميه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحه و بلاغه النظم سحرا،كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن او النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من حقائق المعارف التى لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا،و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب اللّه و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر الى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق الملزوم و إراده اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ (المؤمنون/۸۹).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُ الى آخر الآيه؛اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله:

«لَيَقُولُنَّ» باللام و النون و المعنى:و أقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزءين:ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحلّ

بنا.

و فى هذا إشاره أو دلاله على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و أن اللّه أخر ذلك تأخيرا رحمه لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم: «مٰا يَحْبِسُهُ» و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: «أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ» الخ.

و بهذا يتأيد أن السوره-سوره هود-نزلت بعد سوره يونس لمكان قوله تعالى فيها:

«وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» الى آخر الآيات.

و قوله: إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ الامه الحين و الوقت كما فى قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِي نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (يوسف/۴۵)أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالامه الجماعه فقد وعد اللّه سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئا و يمكّن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم.

و قوله: أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ بمنزله الجواب عن قولهم: «مٰا يَحْبِسُهُ» الواقع موقع الاستهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب،و محصله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقا لم يكن لحبسه سبب فإنا كافرون غير عادلين عن الكفر و لا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب اللّه عن ذلك بأنه سيأتيهم و لا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحيق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنٰاهٰا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ قال فى المجمع:الذوق تناول الشىء بالفم لإدراك الطعم،و سمى اللّه سبحانه إحلال اللذّات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل:أحلام نوم أو كظل

زائل و النزع قلع الشیء عن مکانه،و الیئوس فعول من یئس-صیغه مبالغه-و الیأس القطع بأن الشیء المتوقع لا یکون و نقیضه الرجاء.انتهی.

و قد وضعت الرحمه فی الآیه مکان النعمه لإشعار بأن النعم التی یؤتیها اللّه الإنسان عنوانها الرحمه و هی رفع حاجه الإنسان فیما یحتاج الیه من غیر استحقاق و إیجاب و المعنی:إنا إن آتینا الإنسان شیئا من النعم التی یتنعم بها ثم نزعناها یئس منها و اشتد یأسه حتی کأنه لا یری عودها الیه ثانیا ممکنا و کفر بنعمتنا کأنه یری تلک النعمه من حقه الثابت علینا و یرانا غیر مالکین لها فالإنسان مطبوع علی الیأس عما أخذ منه و الکفران،و قد أخذ فی الآیه لفظ الإنسان-و هو لفظ دال علی نوعه-للدلاله علی أن الذی یذکر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالی: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰاءَ بَعْدَ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّیِّئٰاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ قال فی المجمع:النعماء إنعام یظهر أثره علی صاحبه و الضرّاء مضرّه یظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عیناء مع ما فیهما من المبالغه،و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما یلتذ به و ضده الغمّ-الی أن قال:-و الفخور الذی یکثر فخره و هو التطاول بتعدید المناقب و هی صفه ذم اذا أطلقت لما فیها من التکبر علی من لا یجوز أن یتکبر علیه.انتهی.

و المراد بالسیئات بقرینه المقام المصائب و البلایا التی یسوء الإنسان نزولها علیه،و المعنی:

و لئن أصبناه بالنعمه بعد الضرّاء لیقولنّ ذهب الشدائد عنی،و هو کنایه عن الاعتقاد بأن هاتیک الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانیا.

و قوله: إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ بمنزله التعلیل لقوله: ذَهَبَ السَّیِّئٰاتُ عَنِّی فإنه یفرح و لا یزال علی ذلک لما ذاقه من النعماء بعد الضرّاء،و لو کان یری أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق علی بقائه و لا اعتماد علی دوامه.و أن الأمر لیس الیه بل الی غیره و من الجائز أن یعود الیه ما ترکه من السیئات لم یکن فرحا بذلک فإنه لا فرح فی أمر مستعار غیر

ذی قرار.

و انه لیفخر بما أوتی من النعماء علی غیره،و لا فخر إلاّ بکرامه أو منقبه یملکها الإنسان فهو یری ما عنده من النعمه أمرا بیده زمامه لیس لغیره أن یسلبه و ینزعه منه و یعید الیه ما ذهب عنه من السیئات و لذلک یفخر و یکثر من الفخر.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ ذکر سبحانه ما الإنسان مطبوع علیه عند الشده و البلاء من الیأس و الکفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر،و مغزی الکلام أنه مخلوق کلیل البصر قصیر النظر إنما یری ما یجده فی حاله الحاضره،و یذهل عما دون ذلک فإن زالت عنه نعمه لم یر لها عوده و أنها کانت من عند اللّه سبحانه،و له تعالی ان یعیدها الیه إن شاء حتی یصبر علی بلائه و یتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله،و إن عادت الیه نعمه بعد زوالها رأی أنه یملکها ففرح و فخر و لم یر للّه تعالی صنعا فی ذلک حتی یشکره علیها و یکف عن الفرح و عن التطاول علی غیره بالفخر.

استثنی سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله: «الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله: «أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ» و ذلک أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما یتمشی من الصابرین الذین یصبرون عند الضرّاء فلا یحملهم الجزع علی الیأس و الکفر،و یعملون الصالحات من الشکر بثنائه تعالی علی ما کشف الضرّاء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه فی ما یرضیه و یریح خلقه فلا یحملهم الاستغناء علی الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون یغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلک الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر کبیر.

و فی الآیه دلاله علی أن الصبر مع العمل الصالح لا ینفک عن الإیمان فإنها تعد هؤلاء الصابرین مغفره و أجرا کبیرا،و المغفره لا تنال المشرکین،قال تعالی: إِنَّ اللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ (النساء۱۱۶/).

و قد ورد الوعد بعين ما ذكر فى هذه الآيه أعنى المغفره و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (فاطر/٧)،و قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك/١٢).

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ الى آخر الآيه؛لما كانت رساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البينات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لانسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع،و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الانسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع الى ما يستبعده الطبع.

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هذا المقام و كان ما حكاه اللّه سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم اليهم من الحق الصريح و ما أنزل اليه من كلام اللّه تعالى مع ما يتلوه من البينات و الحجج ما لا ينبغى أن يذعن به لبعده طبعا بيّن تعالى لذلك وجها بعد وجه على سبيل الترجى فقال«و لعلك تارك بعض ما يوحى اليك»الخ؛ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ» الخ.

فكأنه قيل:من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و غير داعيهم اليه و لذلك جبّهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام اللّه بل هو افتراء افتريته على اللّه و لذلك لم يؤمنوا به.فإن كنت تركت بعض الوحى خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلاّ ما شاء اللّه،و ان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات،الخ.

و قوله: تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقه

متضـمنه لتبليغ الوحى فى الجمله أى لعلـك تركت بعض مـا أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشـاف حتى لاـ يجبّهوك بما جبّهوك به من الرد و الجحود،و ذلك أن القرآن بعضه يوضـح بعضا و شـطر منه يقرّب شـطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشـتمله على الدعاوى،و آيات الثواب و العقاب تقرّب الحق من القبول بالتطميع و التخويف،و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تليّن القلوب.

و قوله: وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ يَقُولُوا الخ؛قال فى المجمع:ضائق و ضـيق بمعنى واحد إلاّ أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين:أحدهما أنه عارض،و الآخر أنه أشكل بقوله:

«تٰارِکٌ» انتهى.

و الظـاهر أن ضـمير «بِهِ» راجع الى قوله: «بَعْضَ مٰا يُوحىٰ» و إن ذكر بعضـهم أن الضـمير راجع الى قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» الـخ؛أو الى اقتراحهم و هـذا أوفق بكون قوله: «أَنْ يَقُولُوا» الـخ؛بدلا من الضـمير فى «بِهِ» و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: «تٰارِکٌ» و التقدير:لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ نَـذِيرٌ جواب عن اقتراحهم بقوله:لو لاـ أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك،و قـد تكرر فى مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصـر فى بعضـها على ذكر مجىء الملك و زيد فى بعضـها عليه غيره كاقتراح الإتيان باللّه سـبحانه ليشـهد على الرسـاله و أن يكون له جنّه يأكل منها و أن ينزل من السـماء كتابا يقرءونه.و قـد أجاب اللّه سـبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلاّ الرساله فلبس بيـده و هو بشـر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوا به عليه إلاّ أن يشاء اللّه فى ذلك شيئا و يأذن فى إتيان آيه كما قال: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ (المؤمن/٧٨).

ثم عقب قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ بقوله: وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

ص :١٠٨

لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالمعجزات و محصّله:أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بشر مثلهم و لم يؤمر إلاّ بالإنذار و هو الرساله بإعلام الخطر،و القيام بالامور كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو الى اللّه سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيما ليس اليه.

و ذلك أن اللّه سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شىء فيما يجرى عليه من النظام فما من شىء إلاّ و هو تعالى المبدأ فى أمره و شأنه و المنتهى سواء الامور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم اليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم اليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شىء وكيل.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بمعونه من قوله: «إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أمرا ليس اليه و إنما هو الى اللّه تعالى.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ «أَمْ» متصله لكون قوله: «فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ» الخ؛فى معنى الاستفهام،و التقدير:

أ فأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفا من اقتراحهم المعجزه أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامى ثم لا يؤمنوا به و قيل:إن أم منقطعه و المعنى:بل يقولون افتراه.

و قوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ فى الكلام تحدّ ظاهر و الضمير راجع الى القرآن او الى السوره بما أنها قرآن و الفاء فى «فَأْتُوا» تفيد تفريع الامر على قوله:

«افْتَرٰاهُ» و فى الكلام حذف و إيصال رعايه للإيجاز،و التقدير:قل لهم:إن كان هذا القرآن مما افتريته على اللّه كان من عندى و كان من الجائز أن يأتى بمثله غيرى فإن كنتم صادقين فى دعواكم و مجدّين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا فى ذلك بدعوه كل من

تستطيعون من دون اللّه من اوثانكم الذين تزعمون انهم آلهه تتسرعون اليهم فى الحاجات و غيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الاسباب و الوسائل و لا يبقى أحد ممن يطمع فى تأثير إعانته و يرجى نفعه فى ذلك فلو كان من عندى لا من عند اللّه جاز أن تأتوا حينئذ بمثله.

و قد بان بهذا البيان ان التحدى بالقرآن فى الآيه الكريمه ليس من حيث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون اللّه سواء فى ذلك آلهتهم و غير آلهتهم و فيهم من لا يعرف الكلام العربى او جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدى عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقيه و الحجج و البراهين الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الكريمه و الشرائع الإلهيه و الأخبار الغيبيه و الفصاحه و البلاغه نظير ما فى قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (الإسراء/٨٨)،و قد تقدمت الإشاره الى ذلك فى الكلام على إعجاز القرآن فى الجزء الاول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إجابه الدعوه و استجابتها بمعنى.

و الظاهر من السياق ان الخطاب فى الآيه للمشركين،و أنه من تمام كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم الذى أمر بقوله تعالى: «قُلْ» أن يلقيه اليهم،و على هذا فضمير الجمع فى قوله: «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا» راجع الى الآلهه و كل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: «وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ».

و المعنى:فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم و من بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام و علماء اهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماويه و أخبار الأنبياء و الامم و الكهنه المستمدين من إلقاء شياطين الجن،

و جهابـذه العلم و الفهم من سـائر النـاس المتعمقين فی المعـارف الانسـانيه بأطرافهـا فاعلموا أنما أنزل هـذا القرآن بعلم اللّه و لم يختلق عن علمی أنـا و لاـ غيری ممن تزعمون أنه يعلمنی و يملی علی،و اعلموا أيضـا ان ما ادعوكم اليه من التوحيـد حق فإنه لو كان هناك إله من دون اللّه لنصركم علی ما دعوتموه اليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون للّه تعالی منقادون لأمره؟

فقوله تعالی: فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فی معنی قولنا:فإن لم تقدروا علی المعارضه بعد الاستعانه و الاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون اللّه،و ذلک أن الأسباب التی توجب قـدرتهم علی المعارضه هی ما عنـدهم من قدره البيان و قريحه البلاغه و هم يرون أن ذلـک مـن مـواهب آلهتهـم من دون اللّه و كـذا مـا عنـد آلهتهم ممـا لم يهبـوهم بعـد،و لهم أن يؤيـدوهم به إن شـاءوا علی زعمهم،و أيضا ما عنـد غير آلهتهم من المـدد،و اذا لم يستجبهم الـذين يـدعونهم فی معارضه القرآن فقد ارتفع جميع الأسـباب الموجبه لقـدرتهم و ارتفعت بـذلک قـدرتهم فعدم إجابته الشـركاء علی معارضه القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتی بما عند أنفسهم من القدره ففی الكلام كنايه.

و قوله: فَاعْلَمُوا أَنَّمـا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ الظاهر أن المراد بعلم اللّه هو العلم المختص به و هو الغيب الـذی لا سبيل لغيره تعالی اليه إلاّ بإذنه كما قال تعالی: لكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء/١٦۶)،و قال: ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْکَ (يوسف/١٠٢)،و قال: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلی غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ (الجن/٢٧)،و قال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِی كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (الواقعه/٨٠).

فالمعنی:فإن لم تقدروا علی معارضـته بأی سـبب ممد تعلقتم به من دون اللّه فتيقنوا أنه لم ينزل إلاّ عن سبب غيبی و أنه من أنباء الغيب الذی يختص به تعالی فهو الذی أنزله علی

و کلمنی به و أراد تفهیمی و تفهیمکم بما فیه من المعارف الحقه و ذخائر الهدایه.

و ذکر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل علی علم من اللّه بنزوله و شهاده منه له،و ذکر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من اللّه أنه لا یقبل المعارضه أو بعلم من اللّه بنظمه و ترتیبه و لا یعلم غیره ذلک،و هذه معان واهیه بعیده عن الفهم.

و الجمله أعنی قوله: أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ احدی النتیجتین المأخوذتین من عدم استجابه شرکائهم لهم.و النتیجه الأخری قوله: «وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» و لزوم هذه النتیجه من وجهین:أحدهما:أنهم اذا دعوا آلهتهم لما یهمهم من الأمور فلم فلم یجیبوهم کشف ذلک عن أنهم لیسوا بآلهه فلیس الإله إلاّ من یجیب المضطر اذا دعاه و خاصه اذا دعاه لما فیه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذی أتی به النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یقطع دابرهم و یمیت ذکرهم و یصرف الناس عن التوجه الیهم فإذا لم یجیبوا أولیاءهم اذا دعوهم لمعارضه کتاب هذا شأنه کان ذلک من اوضح الدلیل علی نفی ألوهیتهم.

و ثانیهما:أنه اذا صح ان القرآن حق نازل من عند اللّه صادق فیما یخبر به،و مما یخبر به أنه لیس مع اللّه إله آخر علم بذلک أنه لا إله إلاّ اللّه سبحانه.

و قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أی لما علمتم و اتضح لکم من جهه عدم استجابه شرکائهم من دون اللّه و عجزکم عن المعارضه فهل أنتم مسلّمون لما وقع علیه علمکم هذا من توحید اللّه سبحانه و کون هذا القرآن کتابا نازلا بعلمه؟و هو أمر بالإسلام فی صوره الاستفهام.هذا کله ما یقتضیه ظاهر الآیه.

و قیل:إن الخطاب فی قوله: فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ الخ؛للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم خوطب بلفظ الجمع تعظیما له و تفخیما لشأنه و ضمیر الجمع الغائب راجع الی المشرکین أی فإن لم یستجب المشرکون لما دعوتهم أیها النبی الیه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم اللّه و أن اللّه واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثره يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و اما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافا الى ان استناد الوحى الإلهى و التكليم الربانى اليه تعالى استناد ضرورى لا يقبل الشک حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم دلالته على كونه كلاما من اللّه دلاله ضروريه غير محتاجه الى حجه حتى يحتج عليه بعدم إجابه المشركين الى معارضه القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان و الجن و الملک و أى هاتف آخر فإنه يحتاج فى حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجى من حسن أو عقل،و قد تقدمت إشاره الى ذلک فى قصه زكريا من سوره آل عمران،و سيجىء البحث المستوفى عن ذلک فيما يناسبه من المورد إنشاء اللّه تعالى.

على أن خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمثل قوله:«و أنه لا إله إلاّ هو»،و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» لا يخلو عن بشاعه.على أن نفس الاستدلال ايضا غير تامّ كما سنبين.

و قيل:إن الخطاب فى الآيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين جميعا او للمؤمنين خاصه لأن المؤمنين يشاركونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الدعوه الدينيه و التحدّى بالقرآن الذى هو كتاب ربهم المنزل عليهم و المعنى:فإن لم يستجب المشركون لكم فى المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم اللّه و أن لا إله إلاّ هو فهل تسلمون أنتم للّه؟

و لما تفطّن بعضهم أن لا معنى لدعوه المؤمنين و هم مؤمنون باللّه وحده و بكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند اللّه و بأنه تعالى واحد لا شريک له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم اللّه و ازدادوا به ايمانا و يقينا و أنه لا إله إلاّ هو و لا يستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم و الإخلاص فيه؟

و فيه أنه تقييد للآيه من غير مقيّد و الحجه غير تامه و ذلک أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا عليها بدعوه آلهتهم و سائر من يطمعون فيه

من الجن و الإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر و تمّت بذلك الحجه عليهم،و أما عدم استجابه الكفار للمعارضه فليس يدل على كونه من عند اللّه لأنهم لم يأتمروا بما أمروا به بقوله: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ» إما لعلمهم بأنه كلام اللّه الحق و إنما كان قولهم: «افْتَرٰاهُ» قولا ناشئا عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به او شك فيه، او لأنهم كانوا آيسين من استجابه شركائهم للدعوه على المعارضه،او لأنهم كانوا هازلين فى قولهم ذلك يهذرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابه المشركين للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم او للمؤمنين او لهم جميعا لا يدلّ بنفسه على كون القرآن نازلا من عند اللّه إلاّ اذا كان عدم الاستجابه المذكوره بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضه و عدم استجابتهم لهم،و لم يتحقق من المشركين دعوه على هذه الصفه،و مجرد عدم استجابه المشركين انفسهم لا ينفع شيئا،و لا يبقى إلاّ أن يقال:إن معنى الآيه:فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون اللّه فلم يستجيبوا لهم و لم يستجب المشركون لكم أيها النبى و معاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه،الخ؛و هذا هو الذى أومأنا اليه آنفا أنه تقييد للآيه من غير مقيّد.

على أن فيه امرا للمؤمنين أن يهتدوا فى ايمانهم و يقينهم بأمر فرضيّ غير واقع و كلامه تعالى يجلّ عن ذلك،و لو أريدت الدلاله على أنهم غير قادرين على ذلك و إن دعوا شركاءهم الى المعارضه كان من حق الكلام أن يقال:فإن لم يستجيبوا لكم و لن يستجيبوا فاعلموا،الخ؛كما قيل كذلك فى نظيره قال تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّٰا نَزَّلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدٰاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكٰافِرِينَ (البقره/۲۴).

قوله تعالى: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمٰالَهُمْ فِيهٰا وَ هُمْ فِيهٰا لاٰ يُبْخَسُونَ التوفيه إيصال الحق الى صاحبه و إعطاؤه له بكماله،و البخس

نقص الأجر.

و فی الآیه تهدید لهؤلاء الذین لا یخضعون للحق لما جاءهم و لا یسلمون له إیثارا للحیاه الدنیا و نسیانا للآخره،و بیان لشیء من سنّه الاسباب القاضیه علیهم بالیأس من نعیم الحیاه الآخره.

و ذلک أن العمل کیفما کان فإنما یسمح للإنسان بالغایه التی ارادها به و عمله لأجلها،فإن کانت غایه دنیویه تصلح شئون الحیاه الدنیا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل-إن أعانته سائر الاسباب العامله-الی ما یرجوه بالعمل و أما الغایات الاخرویه فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتی تقع،و مجرد صلاحیه العمل لأن یقع فی طریق الآخره و ینفع فی الفوز بنعیمها کالبر و الإحسان و حسن الخلق لا یوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم یقصد به وجه اللّه و دار ثوابه.

و لذلک عقبه بقوله تعالی: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ إِلاَّ النّٰارُ وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِیهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» فأخبر أنهم اذا وردوا الحیاه الآخره وقعوا فی دار حقیقتها أنها نار تأکل جمیع أعمالهم فی الحیاه کما تأکل النار الحطب و تبیر و تهلک کل ما تطیب به نفوسهم من محاسن الوجود،و تحبط جمیع ما صنعوا فیها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال فی الدنیا،و لذلک سماها سبحانه فی موضع آخر بدار البوار أی الهلاک فقال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا (إبراهیم۲۹/)،و بذلک یظهر أن کلا من قوله: «وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِیهٰا» و قوله: «وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» یفسر قوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ إِلاَّ النّٰارُ» نوعا ما من التفسیر (۱).

ص: ۱۱۵

---

۱ – ۱) .هود ۵-۱۶:بحث روائی فی سیره المشرکین اذا مرّوا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؛ان رزق العباد علی اللّه؛السؤال من فضل اللّه؛القضاء بالرزق و الامر بطلبه؛نظر الائمه المعصومین صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی طلب الرزق؛بدء الخلقه؛الاعمال الصالحه.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۷ الى ۲۴]

اشاره

أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ اَلْأَحْزٰابِ
فَالنّٰارُ مَوْعِدُهُ فَلاٰ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً
أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ اَلْأَشْهٰادُ هٰؤُلاٰءِ اَلَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ أَلاٰ لَعْنَةُ اَللّٰهِ عَلَى اَلظّٰالِمِينَ (۱۸) اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ (۱۹) أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ
أَوْلِيٰاءَ يُضٰاعَفُ لَهُمُ اَلْعَذٰابُ مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ اَلسَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا
كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۲۲) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ أُولٰئِكَ
أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ اَلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمىٰ وَ اَلْأَصَمِّ وَ اَلْبَصِيرِ وَ اَلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلاً أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ (۲۴)

ص: ۱۱۶

بیان:

قوله تعالی: أَ فَمَنْ كانَ عَلی بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَةً الجمله تفریع علی ما مضی من الکلام الـذی هـو فی محـل الاحتجـاج علی کـون القرآن کتابـا منزلا مـن عنـد اللّه سـبحانه،و «مَنْ» مبتـدإ خـبره محـذوف و التقدیر:کغیره،أو ما یؤدی معناه،و الدلیل علیه قوله تلوا «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنّارُ مَوْعِدُهُ».

و الاستفهام إنکاری و المعنی:لیس من کان کذا و کذا کغیره ممن لیس کذلک و أنت علی هذه الصفات فلا تک فی مریه من القرآن.

و قوله: عَلی بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ البینه صفه مشبهه معناها الظاهره الواضحه غیر أن الامور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ینضم إلیها و یتعلق بها کالنور الذی هو بیّن ظاهر و یظهر به غیره،و لذلک کثر استعمال البینه فیما یتبین به غیره کالحجه و الآیه،و یقال للشاهد علی دعوی المدّعی بینه.

و الظاهر أن المراد بالبینه فی المقام هو هـذا المعنی الأخیر العام بقرینه قوله بعـد «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» و إن کان المراد به بحسب المورد هو النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فإن الکلام مسوق لیتفرّع علیه قوله: «فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» .

فالمراد بها البصیره الإلهیه التی اوتیها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لا نفس القرآن النازل علیه فإنه لا یحسن ظاهرا ان یتفرع علیه قوله: «فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» و هو ظاهر و لا ینافیه کون القرآن فی نفسه بیّنه من اللّه من جهه کونه آیه منه تعالی کما فی قوله: قُلْ إِنِّي عَلی بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ (الأنعام/۵۷)،فإن المقام غیر المقام.

و قوله تعالی: وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ المراد بالشهاده تأدیه الشهاده التی تفید صحه

الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقّيّه القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمّل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقّيّه القرآن و كان على بصيره إلهيه من امره فآمن به عن بصيرته و شهد بأنه حقّ منزل من عند اللّه تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهاده الموقن البصير على امر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرّد فإن الانسان اذا أذعن بأمر و تفرّد فيه ربما اوحشه التفرّد فيه اذا لم يؤيده احد فى القول به اما اذا قال به غيره من الناس و أيد نظره فى ذلك زالت عنه الوحشه و قوى قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف/١٠).

و على هذا فقوله: «يَتْلُوهُ» من التلو لا من التلاوه،و الضمير فيه راجع الى «مِنْ» او الى «بَيِّنَةٍ» باعتبار انه نور او دليل،و مآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينه يلى بيّنته كما يلى نفسه و الضمير فى قوله: «مِنْهُ» راجع الى «مِنْ» دون قوله: «رَبِّهِ» و عدم رجوعه الى البينه ظاهر و محصّل المعنى:من كان على بصيره إلهيه من امر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحه امره و استقامته.

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد فى روايات الفريقين ان المراد بالشاهد علىّ عليه السّلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الاراده الاستعماليه.

و قوله تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً الضمير راجع الى الموصول او الى البينه على حد ما ذكرناه فى ضمير «يَتْلُوهُ» و الجمله حال بعد حال اى أ فمن كان على بصيره إلهيه ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند اللّه و الحال ان معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيره و الحال أن هذا الذى هو على بينه سبقه كتاب موسى إماما و رحمه او قبل بينته التى منها القرآن او هى القرآن المشتمل على المعارف و الشرائع الهاديه الى الحق

ص :١١٨

کتاب موسی إماما فلیس هو او ما عنده من البینه ببدع من الأمر غیر مسوق بمثل و نظیر بل هناک طریق مسلوک من قبل یهدی الیه کتاب موسی.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزٰابِ فَالنّٰارُ مَوْعِدُهُ المشار الیهم بقوله: «أُولٰئِکَ» بناء علی ما تقدم من معنی صدر الآیه هم الذین کانوا علی بینه من ربهم المدلول علیهم بقوله: «أَ فَمَنْ کٰانَ» الخ،و أما إرجاع الإشاره الی المؤمنین لدلاله السیاق علیهم فبعید عن الفهم.

و کذا الضمیر فی قوله: «بِهِ» راجع الی القرآن من جهه أنه بینه منه تعالی او امر قامت علیه البینه،و أما إرجاعه الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فلا یلائم ما قررناه من معنی الآیه فإن فی صدر الآیه بیان حال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بنحو العموم حتی یتفرع علیه قوله: «فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ» کأنه قیل:إنک علی بینه کذا و معک شاهد و قبلک کتاب موسی،و من کان علی هذه الصفه یؤمن بما اوتی من کتاب اللّه،و لا یصح أن یقال:و من کان علی هذه الصفه یؤمن بک،و الکلام فی الضمیر فی «وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ» کالکلام فی ضمیر «یُؤْمِنُونَ بِهِ» .

و أمر الآیه فیما یحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرها عجیب فضرب بعضها فی بعض یرقی الی الوف من المحتملات بعضها صحیح و بعضها خلافه.

قوله تعالی: فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَهٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ المریه کجلسه النوع من الشک،و الجمله تفریع علی صدر الآیه،و المعنی أن من کان علی بینه من ربه فی امر و قد شهد علیه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ککتاب موسی لیس کغیره من الناس الغافلین المغفلین فهو یؤمن بما عنده من امر اللّه و لا یوحشه إعراض اکثر الناس عما عنده،و أنت کذلک فإنک علی بینه من ربک و یتلوک شاهد و من قبلک کتاب موسی إماما و رحمه و إذا کان کذلک فلا تک فی مریه من امر ما أنزل الیک من القرآن إنه محض الحق من جانب اللّه و لکن اکثر الناس لا یؤمنون.

ص: ۱۱۹

و قوله: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ تعليـل للنهى و قـد اكـد بأن و لام الجنس للـدلاله على توافر الأسـباب النافيه للمريه و هى قيام البينه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعـالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً الى آخر الآيه؛من الممكن أن يكون ذيلا للسياق السابق من حيث كان تطييبا لنفس النـبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيئـول المعنى الى أنـك إذ كنت على بينه من ربـك لست بظـالم فحاشـاك أن تكون مفتريا على اللّه الكذب لأن المفترى على اللّه كذبا من أظلم الظالمين،و لهم من وبال كذبهم كذا و كذا.

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على اللّه سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه او نسبه شيء اليه بغير الحق او بغير علم،و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم،و يعظم الظلم بعظم متعلقه حتى اذا انتهى الى ساحه العظمه و الكبرياء كان من أعظم الظلم.

و قوله تعـالى: أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ العرض إظهار الشـيء ليرى و يوقف عليه،و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربهم يوم القيامه بظهور آياته و وضوح الحق الصـريح من غير شاغل يشـغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سـمى بوجه آخر بروزا منهم للّه فقال: يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن١۶/)،و قال: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ (إبراهيم۴٨/)فقـال «أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ» أى يـأتى بهم الملائكه الموكّلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

و قوله: وَ يَقُولُ الْأَشْهٰادُ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ الأشـهاد جمع شـهيد كأشـراف جمع شـريف و قيل:جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب،و يؤيد الأول قوله تعالى:

فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ (النساء۴١/)و قوله: وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ (ق٢١/).

و قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهاده منهم عليهم بالافتراء على اللّه اى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهه شهاده الأشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلاّ الحق و لا مناص فيه عن الاعتراف و القبول كما قال تعالى: لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ۳۸/)و قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (آل عمران۳۰/).

قوله تعالى: أَلاٰ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ الخ؛تتمه قول الأشهاد،و الدليل عليه قوله تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كٰافِرُونَ (الأعراف/ ۴۵).

و هذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد و اللعن على الظالمين و تسجيل للعذاب،و ليس اللعن و الرحمه يوم القيامه كاللعن و الرحمه فى الدنيا كما فى قوله تعالى:

أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ (البقره۱۵۹/)و ذلك أن الدنيا دار عمل و يوم القيامه يوم جزاء فما فيه من لعنه او رحمه هو إيصال ما ادّخر لهم اليهم فلعن اللاعن احدا يوم القيامه طرده من رحمه اللّه الخاصه بالمؤمنين و تسجيل عذاب البعد عليه.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ الى آخر الآيه؛الاشاره الى المفترين على اللّه الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض انهم لم يكونوا معجزين للّه سبحانه فى حياتهم الارضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على اللّه الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا-لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره اللّه سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته،و لا لأنهم خرجوا من ولايه اللّه فدخلوا فى ولايه غيره و هم

الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم و كذا سائر الأسباب التى ركنوا إليها،و ذلك قوله: «وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ» .

و بالجمله لا قدرتهم غلبت قدره اللّه سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقه يدبرون امرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل اللّه سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و اعمالهم بما يجرهم الى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف/۵)،و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره/ ۲۶).

و قوله: يُضٰاعَفُ لَهُمُ الْعَذٰابُ ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا اللّه بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه اللّه فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى:

لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل/۲۵) و قال: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس/۱۲).

و قوله: مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ فى مقام التعليل و لذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إراده اللّه و لا لأن لهم اولياء من دون اللّه يستظهرون بهم على اللّه بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار و التبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فى قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف/۱۷۹)،و فى قوله:

وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام/۱۱۰)،و قوله: خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ (البقره/۷)،و آيات اخرى كثيره تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم و اعينهم و آذانهم غير انه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم:

وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِي أَصْحٰابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (الملك‌۱۱/)، و اعترافهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع ان ذلك مستند الى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على انهم انفسهم توسلوا الى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره‌۲۶/)و غيره.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ اما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقه-و ذلك بتمليك من اللّه تعالى-إلاّ نفسه و اذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيّعتها بالكفر و المعصيه فقد خسر فى هذه المعامله التى اقدم عليها نفسه فخسران النفس كنايه عن الهلاك،و أما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا و افتراء ليس له وجود فى الخارج من اوهامهم و مزاعمهم التى زيّنتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيويه و بانطواء بساط الحياه الدنيا يزول و ينمحى تلك الاوهام و يضلّ ما لاح و استقر فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون ان اللّه هو الحق المبين،و يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى: لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ عن الفراء:أن «لاٰ جَرَمَ» فى الاصل بمعنى لا بد و لا محاله ثم كثرت فحولت الى معنى القسم و صارت بمعنى«حقا» و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا.انتهى،و قد ذكروا أن «جَرَمَ» بفتحتين بمعنى القطع فلعلها كانت فى الأصل تستعمل فى نتائج الكلام كلفظه«لا محاله»و تفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى فى«لا محاله»فمعنى الآيه على هذا:حقا إنهم فى الآخره هم الأخسرون.

و وجه كونهم فى الآخره هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبه الى غيرهم من أهل المعاصى هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع فى نجاتهم من النار فى الآخره كما لا مطمع فى أن يفوزوا فى الدنيا و يسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد،قال

تعالى: اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأنعام١٢/).و قال تعالى فى هؤلاء المختوم على سمعهم و أبصارهم و قلوبهم: وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (يس/ ١٠).و قال أيضا فى سبب عدم إمكان إيمانهم: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ (الجاثيه/ ٢٣).

و ان فرض أنهم أخسر بالنسبه الى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم و صدهم عن سبيل اللّه حرموا سعاده الحياه التى يمهدها لهم الدين الحق فخسروا فى الدنيا كما خسروا فى الآخره لكنهم فى الآخره أخسر لكونها دائمه مخلده و أما الدنيا فليست إلاّ قليلا،قال تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ (الأحقاف٣۵/).

على أن الأعمال تشتدّ و تتضاعف فى الآخره بنتائجها كما قال تعالى: وَ مَنْ كٰانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلاً (الإسراء٧٢/)،و أحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآيه حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم فى الآخره قبال الدنيا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ الى آخر الآيه؛قال الراغب فى المفردات:الخبت المطمئن من الأرض و أخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات فى استعمال اللين و التواضع قال اللّه تعالى:

و أخبتوا الى ربهم،و قال:و بشر المخبتين أى المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته، و قوله:فتخبت له قلوبهم أى تلين و تخشع.انتهى.

فالمراد بإخباتهم الى اللّه اطمئنانهم اليه بحيث لا يتزلزل ما فى قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون و لا يرتابون كالأرض المطمئنه التى تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل ان الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما فى معنى الاطمئنان يتعدى بإلى دون اللام.

و تقییده تعالی الإیمان و العمل الصالح بالإخبات الیه یدل علی أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنین و هم المطمئنون منهم الی اللّه ممن هم علی بصیره من ربهم،و هو الذی أشرنا الیه فی صدر الآیات عند قوله: «أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ» الخ؛أن الآیات تقیس ما بین فریقین خاصین من الناس و هم أهل البصیره الإلهیه و من عمیت عین بصیرته.

قوله تعالی: مَثَلُ الْفَرِیقَیْنِ کَالْأَعْمیٰ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِیرِ وَ السَّمِیعِ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ المثل هو الوصف،و غلب فی المثل السائر و هو بیان معنی من المعانی الخفیه علی المستمع بأمر محسوس أو کالمحسوس یأنس به ذهنه و یتلقاه فهمه لینتقل به الی المعنی المعقول المقصود بیانه،و المراد بالفریقین من بین حالهما فی الآیات السابقه،و الباقی واضح.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۲۵ الی ۳۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲۵) أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ (۲۶) فَقٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا وَ مٰا نَرٰاکَ اِتَّبَعَکَ إِلاَّ اَلَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ اَلرَّأْیِ وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کٰاذِبِینَ (۲۷) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّیَتْ عَلَیْکُمْ أَ نُلْزِمُکُمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا کٰارِهُونَ (۲۸) وَ یٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِیَ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰکِنِّی أَرٰاکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ یٰا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اَللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۳۰) وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اَللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ اَلْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اَللّٰهُ خَیْراً اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ اَلظّٰالِمِینَ (۳۱) قٰالُوا یٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَکْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِینَ (۳۲ قٰالَ إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اَللّٰهُ إِنْ شٰاءَ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۳۳) وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ إِنْ کٰانَ اَللّٰهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ هُوَ رَبُّکُمْ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَیْتُهُ فَعَلَیَّ إِجْرٰامِی وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ (۳۵)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ القراءه المعروفه«إنی»بکسر الهمزه علی تقدیر القول و قرئ أنی بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدیر بأنی لکم نذیر مبین،و الجمله أعنی قوله: «إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ» علی أی حال بیان إجمالی لما أرسل به فإن جمیع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به الیهم إنذار مبین فهو نذیر مبین.

فکما أنه لو قال:ما سالقیه الیکم من القول إنذار مبین کان بیانا لجمیع ما أرسل به الیهم بأوجز کلمه کذا قوله:إنی لکم نذیر مبین بیان لذلک بالإجمال غیر أنه یزید علی سابقه ببیان

ص: ۱۲۶

سمه نفسه و هی أنه رسول من اللّه الیهم لینذرهم بعذاب اللّه،و لیس له من الأمر شیء أزید من أنه واسطه یحمل الرساله.

قوله تعالی: أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ .

بیان ثان لما ارسل به او بیان لقوله: «إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ» و مآل الوجهین واحد،و أن علی أی حال مفسره،و المعنی أن محصل رسالته النهی عن عباده غیر اللّه تعالی من طریق الإنذار و التخویف.

و الظاهر أن المراد بعذاب یوم ألیم عذاب الاستئصال دون عذاب یوم القیامه او الأعمّ من العذابین یدل علی ذلک قولهم له فیما سیحکیه اللّه تعالی عنهم «یٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَکْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ قٰالَ إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ» الآیه؛فإنه ظاهر فی عذاب الاستئصال.

فهو علیه السّلام کان یدعوهم الی رفض عباده الأوثان و یخوّفهم من یوم ینزل علیهم من اللّه عذاب ألیم ای مؤلم و نسبه الإیلام الی الیوم دون العذاب فی قوله: «عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ» من قبیل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم یندفع ما ربما قیل:إن تعذیب المشرکین مقطوع لا محتمل فما الوجه فی خوفه علیه السّلام من تعذیبهم المقطوع؟و الخوف إنما یستقیم فی محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجمله کان علیه السّلام یدعوهم الی توحید اللّه سبحانه بتخویفهم من العذاب،و إنما کان یخوّفهم لأنهم کانوا یعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح علیه السّلام بأن اللّه سبحانه هو الذی خلقهم و دبّر شئون حیاتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار علی ما یحکیه تعالی عنه علیه السّلام فی سوره نوح.

و إذ کان کذلک کان اللّه سبحانه هو ربهم لا رب سواه فلیخافوا عذابه و لیعبدوه وحده.

ص :۱۲۷

قوله تعالى: فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنٰا الى آخر الآيه؛الفاء فى صدر الآيه لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السّلام،و فيه إشاره الى انهم بادروه بالرد و الإنكار من دون ان يفكروا فى انفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم.

و المجيبون هم الملأ من قومه و الأشراف و الكبراء الذين كفروا به و لم يتعرضوا فى جوابهم لما ألقى اليهم من حجه التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفى رسالته و الاستكبار عن طاعته فإن قوله: «إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» الى آخر الآيتين؛كان مشتملا على دعوى الرساله و ملوّحا الى وجوب الاتباع و قد صرح به فيما حكى عنه فى موضع آخر،قال تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (نوح٣/).

و محصل ما نقله اللّه تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو فى الحقيقه حجتان منظومتان على طريق الاضراب و الترقى و لذلك أخر قولهم:

«بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ» .

و الحجه الاولى التى مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينه بطرق ثلاث هى قوله: «مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً» الخ؛و قوله: «وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ» الخ؛و قوله: «وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا» الخ.

و الحجه بجميع أجزائها مبنيه على إنكار ما وراء الحس كما سنبين و لذلك كرروا فيه قولهم:ما نراك و ما نرى.

فقوله: مٰا نَرٰاكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنٰا أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السّلام من الرساله، و قد تمسكوا فيه بالمماثله كما هو دأب سائر الامم مع أنبيائهم على ما حكاه اللّه تعالى فى كتابه و تقريره:أنك مثلنا فى البشريه و لو كنت رسولا الينا من عند اللّه لم تكن كذلك و لا نشاهد منك إلاّ أنك بشر مثلنا،و إذ كنت بشرا مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك.

و قوله: وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ قال فى

المفردات:الرذل-بفتح الراء-و الرذال-بكسرها-المرغوب عنه لرداءته قال تعالى «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ» و قال «إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ» و قال «قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» جمع الأرذل.

و قال فی المجمع:الرذل الخسیس الحقیر من کل شیء و الجمع ارذل ثم یجمع علی اراذل کقولک:کلب و اکلب و کالب،و یجوز ان یکون جمع الأرذل فیکون مثل اکابر جمع اکبر.

و قال:و الرأی الرؤیه من قوله: «یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ رَأْیَ الْعَیْنِ» أی رؤیه العین و الرأی ایضا ما یراه الإنسان فی الأمر و جمعه آراء.انتهی.

و قال فی المفردات:و قوله: «بٰادِیَ الرَّأْیِ» أی ما یبدأ من الرأی و هو الرأی الفطیر، و قرئ:بادی بغیر همزه أی الذی یظهر من الرأی و لم یتروّ فیه.انتهی.

و قوله: «بٰادِیَ الرَّأْیِ» یحتمل أن یکون قیدا لقوله: «هُمْ أَرٰاذِلُنٰا» أی کونهم أراذل و سفله فینا معلوم فی ظاهر الرأی و النظر او فی اول نظره.

و یحتمل کونه قیدا لقوله: اِتَّبَعَکَ أی اتبعوک فی ظاهر الرأی او فی اوله من غیر تعمّق و تفکر و لو تفکروا قلیلا و قلبوا أمرک ظهرا لبطن ما اتبعوک،و هذا الاحتمال لا یستغنی عن تکرار الفعل ثانیا و التقدیر:اتبعوک بادی الأمر و إلاّ اختلّ المعنی لو لم یتکرر و قیل:ما نراک اتبعک بادی الرأی إلاّ الّذین هم أراذلنا.و بالجمله معنی الآیه:أنا نشاهد أن متبعیک هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناک ساویناهم و دخلنا فی زمرتهم و هذا ینافی شرافتنا و یحط قدرنا فی المجتمع،و فی الکلام إیماء الی بطلان رسالته علیه السّلام بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو کان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولو القوه و الطول فلو استنکفوا عنه او اتبعه الأخساء و الضعفاء کالعبید و المساکین و الفقراء ممن لا حظ له من مال او جاه و لا مکانه له عند العامه فلا خیر فیه.

و قوله: وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوى يختصون بالتنعم به او شىء من الامور الغيبيه كعلم الغيب او التأيد بقوه ملكوتيه و ذلك لكون النكره-فضل-واقعه فى سياق النفى فتفيد العموم.

و قد أشركوا أتباع نوح عليه السّلام و المؤمنين به منهم فى دعوته إذ قالوا«و لا نرى لكم علينا» و لم يقولوا«و لا نرى لك»لأنهم كانوا يحثونهم و يرغبونهم فى اتباع ما اتبعوه من الطريقه.

و المعنى أن دعوتكم إيانا-و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياه الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوه-إنما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شىء من الفضل تفضلون به علينا من زينه الحياه الدنيا او علم من الغيب او قوه من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعا منا لكم و لا نرى شيئا من ذلك عندكم فأى موجب يوجب علينا اتباعكم؟

و إنما عممنا الفضل فى كلامه للفضل من حيث الجهات الماديه و غيره كعلم الغيب و القوه الملكوتيه خلافا لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادى كالمال و الكثره و غيرهما،لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكره فى سياق النفى.

مضافا الى أن ما يحاذى قولهم هذا من جواب نوح عليه السّلام يدل على ذلك و هو قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ» الخ؛على ما سيأتى.

و قوله تعالى: بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ إضراب فى الاحتجاج كما تقدمت الإشاره اليه فمحصله انا لا نرى معكم امرا يوجب اتباعنا لكم بل هناك امر يوجب عدم الاتباع و هو انا نظنكم كاذبين.

و معناه على ما يعطيه السياق-و اللّه اعلم-انه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحه دعوتكم و إنكم تلحون علينا بالسمع و الطاعه و انتم صفر الأيدى من مزايا الحياه من مال و جاه و هذه الحال تستدعى الظن بأنكم كاذبون فى دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من امانى الحياه بهذه الوسيله و بالجمله هذه اماره توجب عاده الظن بأنها اكذوبه يتوسل بها الى

اقتناء الأموال و القبض على ثروه الناس و الاستعلاء عليهم بالحكم و الرئاسه،و هذا كما حكى اللّه سبحانه عنهم فى مثل القصه إذ قال: فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ (المؤمنون٢۴/).و بهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم،و أن المراد بالكذب الكذب المخبرى دون الخبرى.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى الى آخر الآيه؛ بيان لما أجاب به نوح عليه السّلام عن حجتهم الى تمام اربع آيات،و التعميه الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحيه جهلكم و كراهتكم للحق.و قرئ:عميت بالتخفيف و البناء للفاعل أى خفيت عليكم تلك الرحمه.

لما كانت حجتهم مبنيه على الحس و نفى ما وراءه و قد استنتجوا منها اولا عدم الدليل على وجوب طاعته و اتّباعه ثم اضربوا عنه بالترقى الى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم اجابهم عليه السّلام بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته و ما يتبعه،و نفى ما حاولوا اثباته باتهامه و اتهام اتباعه بالكذب غير انه استعطفهم بخطاب يا قوم-بالإضافه الى ضمير التكلم-مره بعد مره ليجلبهم اليه فيقع نصحه موقع القبول منهم.

و قد ابدع الآيات الكريمه فى تقرير حجته عليه السّلام فى جوابهم فقطّعت حجتهم فصلا فصلا و أجابت عن كل فصل بوجهيه أعنى من جهه انتاجه أن لا دليل على اتّباعه عليه السّلام و أن الدليل على خلافه و ذلك قوله: «يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ» الخ؛و قوله: «وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛و قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰائِنُ اللّٰهِ» الخ؛ثم اخذت من كل حجه سابقه شيئا يجرى مجرى التلخيص فإضافته الى الحجه اللاحقه بادئه به فامتزجت الحجه بالحجه على ما لكل منها من الاستقلال و التمام.

فتمت الحجج ثلاثا كل واحده منها مبدوّه بالخطاب و هى قوله: «يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ» الخ؛و قوله: «يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» الخ؛و قوله: «وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى

مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ» الخ؛فتدبّر فيها.

فقوله: قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّی جواب عن قولهم:

«مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا» يريدون به أنه ليس معه إلاّ البشريه التی يماثلهم فيها و يماثلونه فبأی شیء يدّعی وجوب اتّباعهم له؟بل هو كاذب يريد بما يدّعيه من الرساله أن يصطادهم فيقتنص بذلك اموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفی رسالته و سندهم فی ذلک أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرساله و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فی دعوی الرساله و هو الآيه المعجزه الدالّه على صدق الرسول فی دعوی الرساله فإن الرساله نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاريه لا طريق الى العلم بتحققه إلاّ بوقوع امر غيبی آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فی دعواه الرساله،و لذلک اشار عليه السّلام بقوله:

«يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّی» الى أن معه بينه من اللّه و آيه معجزه تدل على صدقه فی دعواه.

و قوله: وَ آتٰانِی رَحْمَهً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ الظاهر انه عليه السّلام يشير به الى ما آتاه اللّه تعالى من الكتاب و العلم،و قد تكرر فی القرآن الكريم تسميه الكتاب و كذا تسميه العلم باللّه و آياته رحمه قال تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً (هود/١٧)، و قال: وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَهً (النحل/٨٩)،و قال:

فَوَجَدٰا عَبْداً مِنْ عِبٰادِنٰا آتَيْنٰاهُ رَحْمَهً مِنْ عِنْدِنٰا (الكهف/٦٥)و قال: رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً (آل عمران/٨).

و أما قوله: فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فالظاهر ان ضميره راجع الى الرحمه،و المراد أن ما عندی من العلم و المعرفه اخفاها عليكم جهلكم و كراهتكم للحق بعد ما ذكّرتكم به و بثثته فيكم.

ص :١٣٢

و قوله: أَ نُلْزِمُكَمُوهٰا وَ أَنْتُمْ لَهٰا كٰارِهُونَ الإلزام جعل الشیء مع الشیء بحیث لا یفارقه و لا ینفکّ منه،و المراد بإلزامهم الرحمه و هم لها کارهون إجبارهم علی الایمان باللّه و آیاته و التلبّس بما یستدعیه المعارف الالهیه من النور و البصیره.

و معنی الآیه-و اللّه اعلم-اخبرونی إن کانت عندی آیه معجزه تصدّق رسالتی مع کونی بشرا مثلکم و کانت عندی ما تحتاج الیه الرساله من کتاب و علم یهدیکم الی الحق لکن لم یلبث دون ان اخفاه علیکم عنادکم و استکبارکم أ یجب علینا عندئذ ان نجبرکم علیها؟ای عندی جمیع ما یحتاج الیه رسول من اللّه فی رسالته و قد أوقفتکم علیه لکنکم لا تؤمنون به طغیانا و استکبارا و لیس علیّ ان أجبرکم علیها،إذ لا إجبار فی دین اللّه سبحانه.

قوله تعالی: وَ یٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِیَ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ یرید به الجواب عما اتهموه به من الکذب و لازمه ان تکون دعوته طریقا الی جلب اموالهم و اخذ ما فی ایدیهم طمعا فیه فإنه إذا لم یسألهم شیئا من اموالهم لم یکن لهم ان یتهموه بذلک.

قوله تعالی: وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰکِنِّی أَرٰاکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ جواب عن قولهم: «وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ» و قد بدل لفظه الأراذل-و هی لفظه إرزاء و تحقیر-من قوله:الذین آمنوا تعظیما لأمر إیمانهم و إشاره الی ارتباطهم بربهم.

نفی فی جوابه ان یکون یطردهم و علل ذلک بقوله: «إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ» إیذانا بأن لهم یوما یرجعون فیه الی اللّه فیحاسبهم علی اعمالهم فیجازیهم علی ما عملوه من خیر او شر فحاسبهم علی ربهم و لیس لغیره من الأمر شیء،فلیس علی نوح علیه السّلام ان یحاسبهم فیجازیهم بشیء لکن القوم لجهالتهم یتوقعون علی الفقراء و المساکین و الضعفاء ان یطردوا من مجتمع الخیر و یسلبوا النعمه و الشرافه و الکرامه.

فظهر ان المراد بقوله: إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ الإیمان الی محاسبه اللّه سبحانه إیاهم

ص:١٣٣

يوم يرجعون فيه اليه فيلاقونه كما وقع فى نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مٰا عَلَيْكَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّٰالِمِينَ (الأنعام/۵۷).

قوله تعالى: وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ النصر مضمّن معنى المنع او الانجاء و نحوهما و المعنى من يمنعنى أو من ينجينى من عذاب اللّه إن طردتهم أ فلا تتذكرون أنه ظلم،و اللّه سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم و ينتقم منه، و العقل جازم بأن اللّه سبحانه لا يساوى بين الظالم و المظلوم،و لا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوءه و يشفى به غليل صدر المظلوم و اللّه عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى: وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ جواب عن قولهم:«و لا نرى لكم علينا من فضل»يرد عليهم قولهم بأنى لست أدّعى شيئا من الفضل الذى تتوقعون منى أن أدّعيه بما أنى أدّعى الرساله فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمه الإلهيه فيستقل بإغناء الفقير و شفاء العليل و إحياء الموتى و التصرف فى السماء و الأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء و كيف شاء.

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه الى نفسه،و يدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجمله يستكثر من الخيرات و يصان من المكاره.

و أن يرتفع عن درجه البشريه الى مقام الملكيه أى يكون ملكا منزّها من ألواث الطبيعه و مبرى من حوائج البشريه و نقائصها فلا يأكل و لا يشرب و لا ينكح و لا يقع فى تعب اكتساب الرزق و اقتناء لوازم الحياه و أمتعتها.

فهذه هى جهات الفضل التى تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها، و قد أخطأتم فليس للرسول إلاّ الرساله و إنى لست أدّعى شيئا من ذلك فلا أقول لكم عندى

خزائن اللّه و لاـ أعلم الغيب و لا أقول إنى ملك،و بالجمله لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعونه حتى تكذبونى بفقده،و إنما أقول إنى على بينه من ربى تصدق رسالتى و آتانى رحمه من عنده.

و المراد بقوله: خَزائِنُ اللّهِ جميع الذخائر و الكنوز الغيبيه التى ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه فى وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تتميم نقائصهم و تكميلها.

فهاتيک هى التى تزعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلکون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد حكاه اللّه تعالى إذ يقول: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِكَهِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَکَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِى السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّکَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً (الإسراء۹۳/).

و إنما قال: وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ و لم يقل:و لا أقول إنى أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به و لا يسمج بإظهاره لم يكن قول القائل:لاـ أقول إنى أعلم الغيب نافيا لوجوده عند القائل بل يحتاج الى أن يقال:لا أعلم الغيب ليفيد النفى بخلاف قوله:

وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللّهِ و قوله: وَ لا أَقُولُ إِنِّى مَلَکٌ ،و لم يكرر قوله: لَكُمْ لحصول الكفايه بالواحده.

و قد أمر اللّه سبحانه نبيه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح صلّى اللّه عليه و آله و سلم قومه ثم ذيّله بما يظهر به المراد إذ قال: قُلْ لاـ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللّهِ وَ لاـ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَکٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعام۵۰/).

انظر الی قوله: لاٰ أَقُولُ لَکَمْ الـخ؛ثم الی قوله: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ» ثم الی قوله: «قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ» الخ؛فهو ینفی أولا الفضل الـذی یتوقعه عامه الناس من نبیهم ثم یثبت للرسول الرساله فحسب ثم یبادل الی إثبات الفضل من جهه أخری غیر الجهه التی یتوقعها النـاس و هو أنه بصیر بإبصار اللّه تعالی و أن غیره بالنسبه الیه کالأعمی بالنسبه الی البصیر و هذا هو الموجب لاتباعهم له کما یتّبع الأعمی البصیر،و هو المجوّز له أن یدعوهم الی اتباعه (۱).

قوله تعالی: وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّٰهُ خَیْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِینَ قال فی المفردات:زریت علیه عبته و أزریت به قصدت به و کذلک ازدریت به و أصله افتعلت قال:تزدری أعینکم أی تستقلّهم تقدیره تزدریهم أعینکم أی تستقلّهم و تستهین بهم.انتهی.

و هذا الفصل من کلامه علیه السّلام إشاره الی ما کان یعتقده الملأ الـذین کفروا من قومه و بنوا علیه سنّه الاشرافیه و طریقه السیاده،و هو أنّ أفراد الإنسان تنقسم الی قسمین الأقویاء و الضعفاء،أمّا الأقویاء فهم أولو الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العدّه،و أمّا الضعفاء فهم الباقون.و الأقویاء هم الساده فی المجتمع الانسانی لهم النعمه و الکرامه، و لأجلهم انعقاد المجتمع،و غیرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحی منافعهم کالرعیّه بالنسبه الی کرسیّ الحکومه المستبدّه،و العبید بالنسبه الی الموالی، و الخدم و العمله بالنسبه الی المخدومین و النساء بالنسبه الی الرجال،و بالأخره کل ضعیف بالنسبه الی القوی المستعلی علیه.

و بالجمله کان معتقدهم أن الضعیف فی المجتمع إنسان منحطّ أو حیوان فی صوره إنسان

۱- ۱) .هود ۲۵-۳۵:کلام فی قدره الانبیاء و الاولیاء فلسفی و قرآنی.

إنما يرد داخل المجتمع و يشاركهم فی الحياه ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامه مطرود عن حظيره الشرافه آيس من الرحمه و العنايه.

فهذا هو الذی كانوا يرونه و كان هو المعتمد عليه فی مجتمعهم،و قد ردّ نوح عليه السّلام ذلك إليهم بقوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِی أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» .

ثمّ بيّن خطأهم فی معتقدهم بقوله: «اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ» أی إن أعينكم إنما تزدريهم و تستحقرهم و تستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم و هوانهم،و ليس هو الملاك فی إحراز الخير و نيل الكرامه بل الملاك فی ذلك و خاصّه الكرامات و المثوبات الإلهيه أمر النفس و تحلّيها بحليّ الفضيله و المنقبه المعنويه،و لا طريق لی و لا لكم الی العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلاّ للّه سبحانه فليس لی و لا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعاده.

ثم بيّن بقوله: «إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ» السبب فی تحاشيه عن هذا القول و معناه أنه قول بغير علم،و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغی أن يرومه الانسان فيدخل بذلك فی زمره الظالمين.

و هذا المعنى هو الذی يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامه خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ الْأَعْرٰافِ رِجٰالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ قٰالُوا مٰا أَغْنیٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ يَنٰالُهُمُ اللّٰهُ بِرَحْمَهٍ (الأعراف۴۹/).

و فی الكلام أعنی قول نوح عليه السّلام «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِی أَعْيُنُكُمْ» الخ؛تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرّمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيويه الاجتماعيه كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامه الدينيه و يقولون:إنهم لا يسعدون بدين و إنما يسعد به أشراف

المجتمع و أقوياؤهم،و فيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون.

و إنما عقّب نوح عليه السّلام قوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» و هو ينفى فيه جهات الامتياز التى كانوا يتوقعونها فى الرسول عن نفسه،بقوله: «وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْراً» الخ؛مع أنه راجع الى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به فى قولهم: «وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ» .

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتّباعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا و لا نرى لكم علينا من فضل أمّا أنت فليس معك ما يختصّ به الرسول من قدره ملكوتيه أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا منزّها من ألواث المادّه و الطبيعه، و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الانسانيه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه:أمّا أنا فلا أدّعى شيئا مما تتوقّعون من رسالتى فليست للرسول إلاّ الرساله و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم اللّه من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم،و ملاك الكرامه الدينيّه و الرحمه الإلهيّه زكاء النفس و سلامه القلب دون الظاهر الذى تزدريه أعينكم فلست أقول:لن يؤتيهم اللّه خيرا،فإنه ظلم يدخلنى فى زمره الظالمين.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَكْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ كلام القوه الى نوح عليه السّلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطال ما دعا إليه من الحق،و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم: «بِمٰا تَعِدُنٰا» ما أنذرهم به فى أوّل دعوته من عذاب يوم أليم.

و المعنى-و اللّه أعلم-يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب،و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل

يؤيسونه من أنفسهم فى الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعى الآيس من السمع و الطاعه و هو الشر الذى يهدّدهم به و يذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لمّا كان قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» الخ؛طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك اليه فإنما هو رسول، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضا-فى سياق قصر القلب-أن الإتيان بالعذاب ليس إلىّ بل إنما هو الى اللّه فهو الذى يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذى وعدتكموه بأمره فهو ربكم و اليه مرجع أمركم كلّه،و لا يرجع إلىّ من أمر التدبير شىء حتى أنّ وعدى إياكم بالعذاب و اقتراحكم علىّ بطلبه لا يؤثّر فى ساحه كبريائه شيئا فإن يشأ يأتكم به و إن لم يشأ فلا.

و من هنا يظهر أن قوله عليه السّلام: «إِنْ شَاءَ» من ألطف القيود فى هذا المقام أفيد به حق التنزيه و هو أن اللّه سبحانه لا يحكم فيه شىء و لا يقهره قاهر يفعل ما يشاء و لا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتى فى آخر السوره من الاستثناء فى قوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (هود/١٠٨).

و قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» تنزيه آخر للّه سبحانه و هو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزى الذى ألقوه اليه عليه السّلام فإن ظاهره أنهم لا يعبئون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: وَ لاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ الخ؛قال فى المفردات:النصح تحرى فعل او قول فيه صلاح صاحبه -قال-و هو من قولهم:نصحت له الود أى أخلصته و ناصح العسل خالصه او من قولهم:

نصحت الجلد خطته و الناصح الخياط و النصاح الخيط.

و قال أيضا:الغى جهل من اعتقاد فاسد،و ذلك أن الجهل قد يكون من الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا،و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد،و هذا النحو الثانى

يقال له غىّ قال تعالى: مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكَمْ وَ مٰا غَوىٰ ،و قال: وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الغَىِّ .

انتهى.

و على هـذا فالفرق بين الإغواء و الإضـلال أن الإضـلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد فى ذكر الضال،و الإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا.

و الإراده و المشيه كـالمترادفتين،و هى من اللّه سبحانه تسبيب الأسـباب المؤديه لوجود شـيء بالضـروره فكون الشـيء مرادا له تعالى أنه تمم أسباب وجوده و أكملها فهو كائن لا محاله،و أما اصل السببيه الجاريه فهى مراده بنفسها و لذا قيل:خلق اللّه الأشياء بالمشيه و المشيه بنفسها.

و بـالجمله قـوله: وَ لاٰ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى الـخ؛كأحـد شـقى الترديـد و الشـق الآخر قـوله: «وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» كـأنه عليه السّلام يقول:أمركم الى اللّه إن شاء أن يعـذبكم أتاكم بالعـذاب و لا يـدفع عـذابه و لا يقهر مشـيته شـيء فلا أنتم معجزوه،و لا نصـحى ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد اللّه أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمه العذاب،و قيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

و الإغواء كالإضـلال و إن لم يجز نسبته اليه تعالى اذا كان إغواء ابتدائيا لكنه جائز اذا كان بعنوان المجازاه كأن يعصى الإنسان و يستوجب به الغوايه فيمنعه اللّه أسباب التوفيق و يخليه و نفسه فيغوى و يضل عن سبيل الحق،قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره/۲۶).

و فى الكلام إشاره الى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهى كما يلوح اليه قوله تعالى: وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِيراً (الإسراء/۱۶)،و قال: وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (حم السجده/۲۵).

و قوله: هُوَ رَبُّكَمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل لقوله: «وَ لاٰ يَنْفَعُكَمْ نُصْحِى» الخ؛أو لقوله: «إِنَّمٰا يَأْتِيكَمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ -الى قوله- يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» جميعا و محصله أن أمر تدبير العباد الى الرب الذى اليه يرجع الامور،و اللّه سبحانه هو ربكم و إليه ترجعون فليس لى أن آتيكم بعذاب موعود،و ليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم و ليس لنصحى أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرٰامِى وَ أَنَا بَرِىءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ أصل الجرم-على ما ذكره الراغب فى مفرداته- قطع الثمره من الشجره و أجرم أى صار ذا جرم،و استعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم و فتحها بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصيه،و الآيه،واقعه موقع الاعتراض،و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته على وثنيه قومه و خاصه ما أورده اللّه تعالى فى هذه السوره من احتجاجه أشبه شىء بدعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و احتجاجه على وثنيه أمّته.

و إن شئت زياده تصديق فى ذلك فارجع الى سوره الأنعام-و هى فى الحقيقه سوره الاحتجاج-و قابل ما حكاه اللّه تعالى عن نوح فى هذه السوره ما أمر اللّه به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى تلك السوره بقوله: «قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ -الى أن قال- وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِيِّ- الى أن قال -قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّى عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» .

و لك أن تطبّق سائر ما ذكر من حججه عليه السّلام فى سوره نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج فى سوره الأنعام و فى هذه السوره فتشاهد صدق ما ادّعيناه.

و فى قوله: وَ أَنَا بَرِىءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلّمات كما فى قوله: «فَعَلَيَّ إِجْرٰامِى» من إثبات الجرم و ذلك أن الذى ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا عليه السّلام لم يحتج بهذه الحجج و هى حقّه،

لكنها من حيث إنها حجج عقليه قاطعه لا تقبل الكذب و هی تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا فی رفض ما يهديهم اليه من الإيمان و العمل الصالح فهم فی خروجهم عن مقتضی هذه الحجج مجرمون قطعا،و النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم مجرم لا قطعا بل علی تقدير أن يكون مفتريا و ليس بمفتر.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۳۶ الی ۴۹]

اشاره

وَ أُوحِيَ إِلیٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اِصْنَعِ اَلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِي فِي اَلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ اَلْفُلْكَ وَ كُلَّمٰا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ (۳۹) حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ اَلْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ (۴۰) وَ قٰالَ اِرْكَبُوا فِيهٰا بِسْمِ اَللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبٰالِ وَ نٰادیٰ نُوحٌ اِبْنَهُ وَ كٰانَ فِي مَعْزِلٍ يٰا بُنَيَّ اِرْكَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَكُنْ مَعَ اَلْكٰافِرِينَ (۴۲) قٰالَ سَآوِي إِلیٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ اَلْمٰاءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ اَلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ وَ حٰالَ بَيْنَهُمَا اَلْمَوْجُ فَكٰانَ مِنَ اَلْمُغْرَقِينَ (۴۳) وَ قِيلَ يٰا أَرْضُ اِبْلَعِي مٰاءَكِ وَ يٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ اَلْمٰاءُ وَ قُضِيَ اَلْأَمْرُ وَ اِسْتَوَتْ عَلَی اَلْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۴۴) وَ نٰادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقٰالَ رَبِّ إِنَّ اِبْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ اَلْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ اَلْحٰاكِمِينَ (۴۵) قٰالَ يٰا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ (۴۶) قٰالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۴۷) قِيلَ يٰا نُوحُ اِهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَكٰاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَيْبِ نُوحِيهٰا إِلَيْكَ مٰا كُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا فَاصْبِرْ إِنَّ اَلْعٰاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ أُوحِیَ إِلی نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ الابتئاس من البؤس و هو حزن مع استکانه.

و قوله: لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ إیئاس و إقناط له علیه السّلام من إیمان الکفار من قومه بعد ذلک،و لذلک فرّع علیه قوله: «فَلا تَبْتَئِسْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ» لأن الداعی الی أمر إنما یبتئس و یغتمّ من مخالفه المدعوین و تمردهم ما دام یرجو منهم الإیمان و الاستجابه لدعوته،و أما إذا یئس من إجابتهم فلا یهتم بهم و لا یتعب نفسه فی دعوتهم الی السمع و الطاعه و الإلحاح علیهم بالإقبال الیه و لو دعاهم بعدئذ فإنما یدعوهم لغرض آخر کإتمام الحجه و إبراز المعذره.

و علی هذا ففی قوله: فَلا تَبْتَئِسْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ تسلیه من اللّه لنحو علیه السّلام و تطییب لنفسه الشریفه من جهه ما فی الکلام من الإشاره الی حلول حین فصل القضاء بینه و بین قومه،و صیانه لنفسه من الوجد و الغم لما کان یشاهد من فعلهم به و بالمؤمنین به من قومهم من إیذائهم إیاهم فی دهر طویل(مما یقرب من ألف سنه)لبث فیه بینهم.

قوله تعالی: وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْیِنا وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ الفلک هی السفینه مفردها و جمعها واحد و الأعین جمع قله للعین و إنما جمع للدلاله علی کثره المراقبه و شدتها فإن الجمله کنایه عن المراقبه فی الصنع.

و ذکر الأیّن قرینه علی أن المراد بالوحی لیس هو هذا الوحی أعنی قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ» الخ؛حتی یکون وحیا للحکم بل وحی فی مقام العمل و هو تسدید و هدایه عملیه بتأییده بروح القدس الذی یشیر الیه أن افعل کذا و افعل کذا کما ذکره تعالی فی الأئمه من آل ابراهیم علیهم السّلام بقوله: وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاهِ وَ إِیتاءَ الزَّکاهِ وَ کانُوا لَنا

عابِدِينَ (الأنبياء۷۳/)و قد تقدمت الاشاره اليه فى المباحث السابقه و سيجىء ان شاء اللّه فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا اى لا تسألنى فى امرهم شيئا تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحكم حتم و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» فى محل التعليل لقوله: «وَ لا تُخاطِبْنِي» الخ؛او لمجموع قوله:

«وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» و يظهر ايضا أن قوله: «وَ لا تُخاطِبْنِي» الخ؛كنايه عن الشفاعه.

و المعنى:و اصنع السفينه تحت مراقبتنا الكامله و تعليمنا إياك و لا تسألنى صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضىّ عليهم الغرق قضاء حتم لا مردّ له.

قوله تعالى: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ قال فى المجمع:السخريه إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل،و منه التسخير لتذليل يكون استضعافا بالقهر،و الفرق بين السخريه و اللعب أن فى السخريه خديعه و استنقاصا و لا تكون إلاّ فى الحيوان و قد يكون اللعب بجماد،انتهى.

و قال الراغب فى المفردات:سخرت منه و استسخرته للهزء منه قال تعالى «إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» «بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ» و قيل:رجل سخره-بالضم فالفتح-لمن سخر و سخره-بالضم فالسكون-لمن يسخر منه،و السخريه -بالضم-و السخريه-بالكسر-لفعل الساخر،انتهى.

و قوله: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ حكايه الحال الماضيه يمثّل بها ما يجرى على نوح عليه السّلام من إيذاء قومه و قيام طائفه منهم بعد طائفه على إهانته و الاستهزاء به فى عمل السفينه و صبره عليه فى جنب الدعوه الإلهيه و إقامه الحجه عليهم من غير ان يفشل و ينثنى.

و قوله: كُلَّمٰا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ حال من فاعل يصنع و الملأ هاهنا الجماعه الذين يعبأ بهم،و فى الكلام دلاله على أنهم كانوا يأتونه و هو يصنع الفلك جماعه بعد جماعه بالمرور عليه ساخرين،و أنه عليه السّلام كان يصنعها فى مرأى منهم و ممرّ عام.

و قوله: قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمٰا تَسْخَرُونَ فى موضع الجواب لسؤال مقدّر كأن قائلا قال:فما ذا قال نوح عليه السّلام؟فقيل «قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و لذا فصل الكلام من غير عطف.

و لم يقل عليه السّلام:إن تسخروا منى فإنى أسخر منكم ليدفع به عن نفسه و عن عصابه المؤمنين به و كأنه كان يستمد من أهله و أتباعه فى ذلك و كانوا يشاركونه فى عمل السفينه و كانت السخريه تتناولهم جميعا فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحا و من معه فى عمل السفينه بسخريه نوح و رميه عليه السّلام بالخبل و الجنون فيشمل هزؤهم نوحا و من معه و إن كانوا لم يذكروا فى هزئهم إلاّ نوحا فقط.

على أن الطبع و العاده يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه ايضا كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشره بعضهم بعض و إن كانت سخريتهم من أتباعه سخريه منه فى الحقيقه لأنه هو الأصل الذى تقوم به الدعوه،و لذا قيل «سَخِرُوا مِنْهُ» و لم يقل:سخروا منه و من المؤمنين.

و السخريه و إن كانت قبيحه و من الجهل اذا كانت ابتدائيه لكنها جائزه اذا كانت مجازاه و بعنوان المقابله و خاصه اذا كانت تترتب عليها فائده عقلائيه كإنفاذ العزيمه و إتمام الحجه، قال تعالى: فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (التوبه/٧٩)،و يدل على اعتبار المجازاه و المقابله بالمثل فى الآيه قوله: «كَمٰا تَسْخَرُونَ» .

قوله تعالى: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ

ص :١۴۶

مُقِيمٌ السياق يقضى أن يكون قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تفريعا على الجمله الشرطيه السابقه «إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و تكون الجمله المتفرعه هو متن السخريه التى أتى بها نوح عليه السّلام،و يكون قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛متعلقا بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى:ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم:سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟و هذه سخريه بقول حق.

و قوله: مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ المراد به عذاب الاستئصال فى الدنيا و هو الغرق الذى أخزاهم و أذلهم،و المراد بقوله: «وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ» اى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق،هو عذاب النار فى الآخره،و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذى فى الدنيا و الثانى هو عذاب الآخره هو المقابله و تكرر العذاب-منكّرا-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامه.

و ربما أخذ بعضهم قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تاما من غير ذكر متعلق العلم و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ابتداء كلام من نوح عليه السّلام و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ الى آخر الآيه؛يقال:فار القدر يفور فورا و فورانا اذا غلا و اشتدّ غليانه،و فارت النار اذا اشتعلت و ارتفع لهيبها،و التنوّر تنّور الخبز،و هو مما اتفقت فيه اللغتان:العربيه و الفارسيه او الكلمه فارسيه فى الاصل.

و فوران التّنور نبع الماء و ارتفاعه منه،و قد ورد فى الروايات:أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور،و على هذا فاللام فى التّنور للعهد يشار بها الى تنور معهود فى الخطاب،و يحتمل اللفظ أن يكون كنايه عن اشتداد غضب اللّه تعالى فيكون من قبيل قولهم:«حمى الوطيس»اذا اشتدّ الحرب.

فقوله: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ أى كان الأمر على ذلك حتى اذا جاء

أمرنا أی تحقّق الأمر الربوبیّ و تعلّق بهم و فار الماء من التّنور أو اشتدّ غضب الربّ تعالی قلنا له کذا و کذا.

و فی التّنور أقوال أخر بعیده من الفهم کقول من قال:إن المراد به طلوع الفجر و کان عند ذلک أوّل ظهور الطوفان،و قول بعضهم:إن المراد به أعلی الأرض و أشرفها أی انفجر الماء من الأمکنه المرتفعه و نجود الارض،و قول آخرین:ان التنور وجه الأرض هذا.

و قوله: قُلْنَا احْمِلْ فِیهَا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ أی أمرنا نوحا علیه السّلام أن یحمل فی السفینه من کل جنس من أجناس الحیوان زوجین اثنین و هی الذکر و الانثی.

و قوله: وَ أَهْلَکَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ أی و احمل فیها أهلک و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم الاّ من سبق علیه قولنا و تقدّم علیه عهدنا أنّه هالک،و کان هذا المستثنی زوجته الخائنه التی یذکرها اللّه تعالی فی قوله:

ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً لِلَّذِینَ کَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ کٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَیْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَیْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا (التحریم/۱۰).و ابن نوح الذی یذکره اللّه تعالی فی الآیات التالیه و کان نوح علیه السّلام یری أن المستثنی هو امرأته فحسب حتی بیّن اللّه سبحانه أن ابنه لیس من أهله و أنه عمل غیر صالح فعند ذلک علم أنه من الذین ظلموا.

و قوله: وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِیلٌ أی و احمل فیها من آمن بک من قومک غیر اهلک لأن من آمن به من اهله أمر بحمله بقوله: «وَ أَهْلَکَ» و لم یؤمن به من القوم إلاّ قلیل.

فی قوله: وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ دون ان یقال:و ما آمن به تلویح الی أن المعنی:و ما آمن باللّه من نوح إلاّ قلیل،و ذلک انسب بالمقام و هو مقام ذکر من أنجاه اللّه من عذاب الغرق، و الملاک فیه هو الإیمان باللّه و الخضوع لربوبیّته،و کذا فی قوله: «إِلاّٰ قَلِیلٌ» دون أن یقال:إلاّ قلیل منهم بلوغا فی استقلالهم أن من آمن کان قلیلا فی نفسه لا بالقیاس الی القوم فقد کانوا

فی نهایه القلّه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ ارْکَبُوا فِیهٰا بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ قرئ مجراها بفتح المیم و هو مجری السفینه و سیرها،و مجراها بضم المیم و هو إجراء السفینه و سیاقها،و مرساها بضم المیم مصدر میمیّ مرادف الإرساء،و الإرساء الإثبات و الإیقاف،قال تعالی: وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا (النازعات۳۲/).

و قوله: وَ قٰالَ ارْکَبُوا فِیهٰا معطوف علی قوله فی الآیه السابقه: «جٰاءَ أَمْرُنٰا» أی حتی إذا قال نوح،الخ؛و خطابه لأهله و سائر المؤمنین أو لجمیع من فی السفینه.

و قوله: بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا تسمیه منه علیه السّلام یجلب به الخیر و البرکه لجری السفینه و إرسائها فإن فی تعلیق فعل من الأفعال أو أمر من الامور علی اسم اللّه تعالی و ربطه به صیانه له من الهلاک و الفساد و اتقاء من الضلال و الخسران لما أنه تعالی رفیع الدرجات منیع الجانب لا سبیل للدثور و الفناء و العیّ و العناء الیه فما تعلق به مصون لا محاله من تطرق عارض السوء.

فهو علیه السّلام یعلق جری السفینه و إرساءها باسم اللّه و هذان هما السببان الظاهران فی نجاه السفینه و من فیها من الغرق،و إنما ینجح هذان السببان لو شملت العنایه الإلهیه من رکبها و إنما تشمل للعنایه بشمول المغفره الإلهیه لخطایا رکابها و الرحمه الإلهیه لهم لینجوا من الغرق و یعیشوا علی رسلهم فی الأرض،و لذلک علل علیه السّلام تسمیته بقوله: «إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ» أی إنما أذکر اسم اللّه علی مجری سفینتی و مرساها لأنه ربی الغفور الرحیم،له أن یحفظ مجراها و مرساها من الاختلال و التخبط حتی ننجو بذلک من الغرق بمغفرته و رحمته.

و نوح علیه السّلام اول إنسان حکی اللّه سبحانه عنه التسمیه باسمه الکریم فیما أوحاه من کتابه فهو علیه السّلام اول فاتح فتح هذا الباب کما أنه اول من أقام الحجه علی التوحید،و أول من جاء

بکتاب و شریعه و أول من انتهض لتعدیل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنسانی.

و ما قدمناه من معنی قوله: «بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا» مبنی علی ما هو الظاهر من کون الجمله تسمیه من نوح علیه السّلام و المجری و المرسی مصدرین میمیین و ربما احتمل کونه تسمیه ممن مع نوح بأمره او کون مجراها و مرساها اسمین للزمان او المکان فیختلف المعنی.

قال فی الکشاف فی الآیه:یجوز أن یکون کلاما واحدا و کلامین:فالکلام الواحد أن یتصل باسم اللّه بارکبوا حالا من الواو بمعنی ارکبوا فیها مسمین اللّه او قائلین بسم اللّه وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجری و المرسی للوقت و اما لأنهما مصدر ان کالإجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف کقولهم:خفوق النجم و مقدم الحاج،و یجوز أن یراد مکانا الإجراء و الإرساء،و انتصابهما بما فی بسم اللّه من معنی الفعل او بما فیه من اراده القول.

و الکلامان أن یکون بسم اللّه مجراها و مرساها جمله من مبتدإ و خبر مقتضیه (۱)أی بسم اللّه اجراؤها و ارساؤها،یروی أنه کان اذا أراد أن تجری قال:بسم اللّه فجرت،و اذا أراد أن ترسوا قال:بسم اللّه فرست،و یجوز أن یقحم (۲)الاسم کقوله:ثم اسم السلام علیکما و یراد باللّه اجراؤها و ارساؤها.

قال:و قرئ مجراها و مرساها (۳)بفتح المیم من جری و رسی اما مصدرین او وقتین او مکانین،و قرأ مجاهد:مجراها و مرسیها بلفظ اسم الفاعل مجروری المحل صفتین للّه.

ص:۱۵۰

۱- ۱) .اقتضاب الکلام ارتجاله و المراد من کون الجمله مقتضیه کونها ابتدائیه ای کونها کلاما ابتدائیه من نوح مقطوعا عما قبله.
۲- ۲) .التقحیم إدخال الکلمه بین الکلمتین المتلازمتین المتصلتین کالمضاف و المضاف الیه و المراد کون الاسم معترضا بین «ثم»و«السلام»و کذا بین الباء و لفظ الجلاله فی قوله:بسم اللّه.
۳- ۳) .قراءه مرساها بفتح المیم من الشواذ منسوب الی ابن محیصن.

قوله تعالى: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبٰالِ الضمير للسفينه،و الموج اسم جنس كتمر او جمع موجه-على ما قيل-و هى قطعه عظيمه ترتفع عن جمله الماء و فى الآيه اشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل.

قوله تعالى: وَ نٰادىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كٰانَ فِي مَعْزِلٍ يٰا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَكُنْ مَعَ الْكٰافِرِينَ المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن ابيه و المؤمنين فى مكان لا يقرب منهم،و لذلك قال «وَ نٰادىٰ نُوحٌ ابْنَهُ» و لم يقل:و قال نوح لابنه.

و المعنى:و نادى نوح ابنه و كان ابنه فى مكان منعزل بعيد منهم و قال فى ندائه:يا بنىّ -بالتصغير و الإضافه دلاله على الإشفاق و الرحمه-اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم فى البلاء كما شاركتهم فى الصحبه و عدم ركوب السفينه،و لم يقل عليه السّلام:

و لا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن الاّ باللفظ،و لذلك دعاه الى الركوب.

قوله تعالى: قٰالَ سَآوِي إِلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمٰاءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ الخ؛قال الراغب:المأوى مصدر أوى يأوى أويّا و مأوى تقول:أوى الى كذا:انضم اليه يأوى أويا و مأوى و آواه غيره يؤويه ايواء،انتهى.

و المعنى:اقل ابن نوح مجيبا لأبيه رادّا لأمره:سأنضم الى جبل يعصمنى و يقينى من الماء فلا أغرق،قال نوح:لا عاصم اليوم-و هو يوم اشتد غضب اللّه و قضى بالغرق لأهل الأرض الاّ من التجأ منهم الى اللّه-من اللّه لا جبل و لا غيره،و حال بين نوح و ابنه الموج فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموج بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و فى الكلام اشاره الى ان ارضهم كانت ارضا جبليه لا مئونه زائده فى صعود الانسان الى

بعض جبال كانت هناك.

قوله: وَ قِيلَ يٰا أَرْضُ ابْلَعِي مٰاءَكِ وَ يٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمٰاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ البلع اجراء الشىء فى الحلق الى الجوف،و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله،و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها الى باطنها و هو كالنشف يقال:غاضت الارض الماء اى نقّصته.

و الجوديّ مطلق الجبل و الأرض الصلبه،و قيل:هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى الى ارمينيه و هى المسماه«آرارات».

و قوله: وَ قِيلَ يٰا أَرْضُ ابْلَعِي مٰاءَكِ وَ يٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِي نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرّح باسم قائله و هو اللّه عز اسمه للتعظيم،و الأمر تكوينى تحمله كلمه«كن»الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجّر من عيونها،و أن تكفّ السماء عن امطارها.

و فيه دلاله على أن الارض و السماء كانتا مشتركتين فى اطغاء الماء بأمر اللّه كما يبيّنه قوله تعالى: فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ السَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمٰاءُ عَلىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (القمر/١٢).

و قوله: وَ غِيضَ الْمٰاءُ اى نقص الماء و نشف عن ظاهر الارض و انكشف البسيط،و ذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات،و انتشاف ما على سائر البسيطه.

و قوله: وَ قُضِيَ الْأَمْرُ اى أنجز ما وعد لنوح عليه السّلام من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى يغرقهم و تطهّر الارض منهم اى كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم و اصداره كذلك يقال على امضائه و انفاذه و تحقيقه فى الخارج،غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و انفاذه واحد،و انما

الاختلاف بحسب التعبير.

و قوله: وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ اى استقرت السفينه على الجبل او على جبل الجودى المعهود،و هو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من امر الطوفان.

و قوله: وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ اى قال اللّه عزّ اسمه: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ اى ليبعدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته و طردهم عن دار كرامته،و الكلام فى ترك ذكر فاعل «قِيلَ» هاهنا كالكلام فيه فى «قِيلَ» السابق.

و الأمر أيضا فى قوله: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ كالأمرين السابقين يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي تكوينى فهو عين ما أنفذه اللّه فيهم من الغرق المؤدى الى خزيهم فى الدنيا و خسرانهم فى الآخره،و ان كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعى لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهى بالإيمان و العمل،و كونه جزاء لهم على استكبارهم و استعلائهم على اللّه عزّ و جل.

و للصفح عن ذكر الفواعل فى قوله: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ» الخ؛و قوله: «وَ قُضِيَ الْأَمْرُ» و قوله: «وَ قِيلَ بُعْداً» الخ؛فى الآيه وجه آخر مشترك و هو أن هذه الامور العظيمه الهائله المدهشه لن يقدر عليها إلاّ الواحد القاهر الذى لا شريك له فى أمره فلا يذهب الوهم الى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلاّ فعله ذكر أم لم يذكر.

و لمثل هذه النكته حذف فاعل «غِيضَ الْماءُ» و هو الأرض،و فاعل «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» و هو السفينه،و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح،و لا الناجون بأنهم نوح عليه السّلام و من معه فى السفينه فإن الآيه بلغت فى بلاغتها العجيبه من حيث سياق القصه مبلغا ليس فيه الاسماء تنزل امطارها،و ارض انفجرت بعيونها و انغمرت بالماء و سفينه تجرى فى امواجه،و امر مقضى،و قوم ظالمون هم قوم نوح و امر الهى يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض،و لو استقر شىء و استوى فإنما هى السفينه تستقر على الأرض

كما انه لو قيل:يا ارض ابلعى ماءك و يا سماء اقلعى و قيل:بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو اللّه عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضى عليهم بالعذاب،و لو قيل:قضى الأمر فإنما القاضى هو اللّه سبحانه،و الأمر هو ما وعده نوحا و نهاه ان يراجعه فى ذلك و هو انهم مغرقون،و لو قيل للسماء:اقلعى بعد ما قيل للأرض:ابلعى ماءك فإنما يراد اقلاعها و امساكها ماءها.

ففى الآيه الكريمه اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما بينها كما أن الآيه واقفه على موقف عجيب من بلاغه القرآن المعجزه يبهر العقول و يدهش الألباب و ان كانت الآيات القرآنيه كلها معجزه فى بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البيان فغاصوا لجىّ بحرها و اخرجوا ما استطاعوا نيله من لئاليها،و ما هو-و قد اعترفوا بذلك-الاّ كغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالى: وَ نادىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ دعاء نوح عليه السّلام لابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه و قد كان آخر عهده به يوم ركب السفينه فوجده فى معزل فناداه و امره بركوب السفينه فلم يأتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السّلام و هو يرى انه مؤمن باللّه من اهله و قد وعده اللّه بإنجاء اهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ نادىٰ نُوحٌ رَبَّهُ» و لم يقل:سأل او قال او دعا،و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذى اشتد به الضر و هاج به الوجد امر طبعى.و الدعاء اعنى نداء نوح عليه السّلام ربه فى ابنه و ان ذكر فى القصه بعد ذكر انجاز غرق القوم و ظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال ان يكون النداء بعد حيلوله الموج بينهما و على هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان انما هو لمكان العنايه ببيان جميع ما فى القصه من الهيئه الهائله فى محل واحد لتكميل

تمثيل الواقعه ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقيه.

و قد كان عليه السّلام رسولا احد الأنبياء أولى العزم عالما باللّه عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه فى العبوديه،و الظرف ظهرت فيه آيه الربوبيه و القهر الإلهى اكمل ظهورها فأغرقت الدنيا و اهلها،و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد،فأخذ نوح عليه السّلام يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ عليه السّلام-على ما يقتضيه ادب النبوه-على ان يسأل ما يريده من نجاه ابنه بالتصريح،بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر،و ابتدر بذكر ما وعده اللّه من نجاه اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه فى السفينه فقال له «احْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ» .

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السّلام مؤمنا لم يدعه البتّه الى ركوب السفينه فهو عليه السّلام الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤدّيا الى الكفر و انما هى معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال عليه السّلام «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» فذكر وعد ربّه و ضمّ اليه أنّ ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلاله«ربى»على الاسترحام،و دلاله الإضافه فى «ابْنِي» على الحجّه فى قوله: «مِنْ أَهْلِي» و دلاله التأكيد بأن و لام الجنس فى قوله: «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه عليه السّلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديّه فلا حكم إلاّ للّه بل سلّم الحكم الحقّ و القضاء الفصل الى اللّه سبحانه فقال «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰاكِمِينَ» .

فالمعنى:ربّ إنّ ابنى من أهلى،و انّ وعدك حقّ كل الحقّ،و انّ ذلك يدلّ على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحقّ اليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السّلام يستوضح ما هو حقيقه الأمر و لم يذكر نجاه ابنه و لا زاد على هذا الذى حكاه اللّه عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ الخ؛بيّن سبحانه لنوح عليه السّلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ» الخ؛و هو يستوجب به نجاه ابنه فقال تعالى «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فارتفع بذلك اثر حجّته.

و المراد بكونه ليس من اهله-و اللّه اعلم-أنّه ليس من اهله الذين وعده اللّه بنجاتهم لأنّ المراد بالأهل فى قوله: «وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الأهل الصالحون،و هو ليس بصالح و ان كان ابنه و من أهله بمعنى الاختصاص،و لذلك علّل قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» بقوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ» .

فإن قلت:لازم ذلك ان يكون امرأته الكافره من اهله لأنها انما خرجت من الحكم بالاستثناء و هى داخله موضوعا فى قوله: «وَ أَهْلَكَ» و يكون ابنه ليس من اهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد.

قلت:المراد بالأهل فى قوله: «وَ أَهْلَكَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» هم الأهل بمعنى الاختصاص و بالمستثنى-من سبق عليه القول-غير الصالحين و مصداقه امرأته و ابنه هذا، و اما الأهل الواقع فى قوله هذا: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فهم الصالحون من المختصّين به عليه السّلام طبقا لما وقع فى قوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» فإنه عليه السّلام لا يريد بالأهل فى قوله هذا غير الصالحين من اولى الاختصاص و إلاّ شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلك.

فهذا هو الظاهر من معنى الآيه،و يؤيده بعض ما ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام مما سيأتى

فی البحث الروائی التالی ان شاء اللّه.

و ذکروا فی تفسیر الآیه معان أخر.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ لما تبین لنوح علیه السّلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذی خاطب به ربه الی السؤال کان سائلا ما لیس له به علم و کان من الجاهلین و ان عنایه اللّه حالت بینه و بین الهلکه،شکر ربه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلک السؤال المخسر فقال «رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ» .

و الکلام فی الاستعاذه مما لم یقع بعد من الامور المهلکه و المعاصی الموبقه کالنهی عما لم یقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم الکلام فیه و قد امر اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالاستعاذه من الشیطان و هو معصوم لا سبیل للشیطان الیه،قال تعالی: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّٰاسِ -الی ان قال- مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ اَلَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ (الناس/۵)و قال:

وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ (المؤمنون/۹۸)و الوحی مصون عن مس الشیاطین کما قال تعالی: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ (الجن/۲۸).

و قوله: وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ کلام صورته صوره التوبه و حقیقته الشکر علی ما أنعم اللّه علیه من التعلیم و التأدیب.

أما صوره توبته فإن فی ذلک رجوعا الی ربه تعالی بالاستعاذه و لازمها طلب مغفره اللّه و رحمته ای ستره علی الإنسان ما فیه زلّته و هلاکته و شمول عنایته لحاله و قد تقدّم فی أواخر الجزء السادس من الکتاب بیان أن الذنب أعمّ من مخالفه الأمر التشریعی بل کل وبال و أثر سیئ یسوء الإنسان بوجه،و أن المغفره أعمّ من الستر علی المعصیه المعروفه عند المتشرعه بل کل ستر إلهی یسعد الإنسان و یجمع شمله.

و أما حقیقه الشکر فإن العنایه الإلهیه التی حالت بینه و بین السؤال الذی کان یوجب دخوله فی زمره الجاهلین و عصمته ببیان وجه الصواب کانت سترا إلهیا علی زلّه فی طریقه و رحمه و نعمه أنعم اللّه سبحانه بها علیه فقوله علیه السّلام: «وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ» أی إن لم تعذنی من الزّلات لخسرت،ثناء و شکر لصنعه الجمیل.

قوله تعالی: قِیلَ یٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَکٰاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ الخ؛السلام هو السلامه أو التحیه غیر ان ذکر مسّ العذاب فی آخر الآیه یؤید کون المراد به فی صدرها السلامه من العذاب و کذا تبدیل البرکه فی آخر الآیه الی التمتع یدل علی ان المراد بالبرکات لیس مطلق النعم و أمتعه الحیاه بل النعم من حیث تسوق الانسان الی الخیر و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله: قِیلَ -و لم ذکر القائل و هو اللّه سبحانه للتعظیم-یٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَکٰاتٍ عَلَیْکَ معناه-و اللّه أعلم-یا نوح انزل مع سلامه من العذاب-الطوفان-و نعم ذوات برکات و خیرات نازله منا علیک،أو انزل بتحیه و برکات نازله منا علیک.

و قوله: وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ معطوف علی قوله: «عَلَیْکَ» و تنکیر أمم یدل علی تبعیضهم لأن من الامم من یذکره تعالی بعد فی قوله: «وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ» .

و الخطاب أعنی قوله تعالی: یٰا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَکٰاتٍ عَلَیْکَ الی آخر الآیه بالنظر الی ظرف صدوره و لیس وقتئذ متنفّس علی وجه الأرض من انسان او حیوان و قد أغرقوا جمیعا و لم یبق منهم إلاّ جماعه قلیله فی السفینه و قد رست و استوت علی الجودیّ،و قد قضی أن ینزلوا الی الأرض فیعمروها و یعیشوا فیها الی حین.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الی یوم القیامه نظیر ما صدر من الخطاب الإلهی یوم أهبط آدم علیه السّلام من الجنه الی الارض و قد حکاه اللّه تعالی فی موضع بقوله: وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ -الی أن

قال- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكَمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره۳۹/) و فى موضع آخر بقوله: قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (الأعراف/ ۲۵).

و هـذا الخطاب خطاب ثان مشابه لـذاك الخطاب الأول موجّه الى نوح عليه السّلام و من معه من المؤمنين-و إليهم ينتهى نسـل البشر اليوم-متعلق بهم و بمن يلحق بهم من ذراريهم الى يوم القيامه،و هو يتضمن تقدير حياتهم الأرضيه و الإذن فى نزولهم إليها و استقرارهم فيها و إيوائهم إياها.

و قد قسّم اللّه هؤلاء المأذون لهم قسـمين فعبّر عن إذنه لطائفه منهم بالسـلام و البركات و هم نوح عليه السّلام و أمم ممن معه،و لطائفه أخرى بالتمتيع،و عقّب التمتيع بمس العـذاب لهم كما أن كلمتى السـلام و البركات لا تخلوان من بشـرى الخير و السـعاده بالنسبه الى ما تعلقتا به.

و قـوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنّا عَذَابٌ أَلِيمٌ كـأنه مبتـدأ لخبر محـذوف و التقـدير:و ممن معـك أمم او و هنـاك أمم سنمتعهم،الـخ؛و قـد أرجهم اللّه سبحانه من زمره المخـاطبين بخطاب الإذن فلم يقل:و متاع لامم آخرين سـيعذبون طردا لهم من موقف الكرامه،فأخبر أن هناك أمما آخرين سنمتعهم ثم نعذبهم و هم غير مأذون لهم فى التصرف فى أمتعه الحياه إذن كرامه و زلفى.

قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ أى هذه القصص أو هذه القصه من أنباء الغيب نوحيها اليك.

و قوله: مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أى كانت و هى على محوضه الصدق و الصـحه مجهوله لك و لقومك من قبل هـذا،و الـذى عنـد أهل الكتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سـيوافيك ما فى التوراه الحاضـره من قصـته عليه السّلام.

و قوله: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعٰاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ أمر منتزع عن تفصيل القصّه أی اذا علمت ما آل اليه أمر نوح عليه السّلام و قومه من هلاک قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين و قد ورّثهم اللّه الأرض على ما صبروا،و نصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبه للمتّقين،و هم الصابرون فی جنب اللّه سبحانه (۱)(۲)(۳)(۴).

[سوره هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۶۰]

اشاره

وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ (۵۰) يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى اَلَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يٰا قَوْمِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ اَلسَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قٰالُوا يٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَيِّنَةٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِكِي آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِكَ وَ مٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اِعْتَرٰاكَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ قٰالَ إِنِّي أُشْهِدُ اَللّٰهَ وَ اِشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اَللّٰهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ مٰا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰا إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُوداً وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اِتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

ص: ۱۶۰

۱- ۱) .هود ۳۶-۴۹:بحث روائی حول قصه نوح عليه السّلام.

۲- ۲) .هود ۳۶-۴۹:ابحاث حول قصه نوح فی فصول و هی ابحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه،الاشاره الى قصته،قصته عليه السّلام فی القرآن،بعثه و ارساله،دينه و شريعته عليه السّلام،اجتهاده عليه السّلام فی دعوته،لبثه فی قومه، صنعه عليه السّلام الفلک،نزول العذاب و مجیء الطوفان،قضاء الامر و نزوله و من معه الى الارض،قصه ابن نوح الغريق،خصائص نوح عليه السّلام،قصته عليه السّلام فی التوراه الحاضره،ما جاء فی امر الطوفان فی اخبار الامم و اساطيرهم،هل كانت نبوته عليه السّلام عامه للبشر؟،هل الطوفان كانت عامه لجميع الارض؟،انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها،العوامل المؤثره فی ازدياد المياه و غزاره عملها فی عهد الطوفان،عمره عليه السّلام الطويل، اين هو جبل الجودی؟.

۳- ۳) .هود ۳۶-۴۹:كلام فی عباده الاصنام فی فصول(الانسان و اطمئنانه الى الحس،الاقبال الى اللّه بالعباده،كيف نشأت الوثنيه؟،و بما ذا بدأت،اتخاذ الاصنام لأرباب الانواع و غيرهم،الوثنيه الصابئه،الوثنيه البرهميه، الوثنيه البوذيه،و ثنيه العرب،دفاع الاسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه،بناء سيره النبی على التوحيد و نفی الشركاء).

۴- ۴) .هود ۳۶-۴۹:كلام فی:التناسخ عند الوثنيين؛سريان هذه المحاذير الى سائر الاديان؛اصلاح الاسلام لهذه المفاسد.

بيان:

قوله تعالى: وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً كان أخاهم فى النسب لكونه منهم و أفراد القبيله يسمون إخوه لانتسابهم جميعا الى أب القبيله،و الجمله معطوفه على قوله تعالى سابقا: «نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ» و التقدير«و لقد أرسلنا الى عاد أخاهم هودا»و لعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول فى المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل «وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ» الخ؛و لم يقل:و هودا الى عاد مثلا كما قال «نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ» لأن دلاله الظرف أعنى «إِلىٰ عٰادٍ» على تقدير الإرسال أظهر و أوضح.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ الكلام وارد مورد الجواب كأن السامع لما سمع قوله: «وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً» قال:فما ذا قال لهم؟فقيل «قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ» الخ؛و لذا جىء بالفصل من غير عطف.

و قوله: اُعْبُدُوا اللّٰهَ فى مقام الحصر أى اعبدوه و لا تعبدوا غيره من آلهه اتخذتموها أربابا من دون اللّه تعبدونها لتكون لكم ضعفاء عند اللّه من غير أن تعبدوه تعالى.

و الدليل على الحصر المذكور قوله بعد: «مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ» حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهه يعبدونها افتراء على اللّه بالشركه و الشفاعه.

قوله تعالى: يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً الى آخر الآيه؛قال فى المجمع الفطر الشق عن أمر اللّه كما ينفطر الورق عن الشجر،و منه فطر اللّه الخلق لانه بمنزله ما شق منه فظهر.انتهى،و قال الراغب:أصل الفطر الشق طولا يقال:فطر فلان كذا فطرا و أفطر هو فطورا و انفطر انفطارا-الى أن قال-و فطر اللّه الخلق و هو ايجاد الشىء و إبداعه على هيئه مترشحه لفعل من الأفعال فقوله:فطره اللّه التى فطر الناس عليها إشاره منه تعالى الى ما فطر أى أبدع و ركز فى الناس من معرفته،و فطره اللّه هى ما ركز فيه من قوّته على معفره الايمان

ص:۱۶۲

و هو المشار اليه بقوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ. انتهى.

و الظاهر أن الفطر هو الايجاد عن عدم بحت،و الخصوصيه المفهومه من مثل قوله:

«فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها» إنما نشأت من بناء النوع الذى تشتمل عليه فطره و هى فعله،و على هذا فتفسير بعضهم الفطره بالخلقه بعيد من الصواب،و إنما الخلق هو إيجاد الصوره عن ماده على طريق جمع الأجزاء،قال تعالى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَهِ الطَّيْرِ (المائده/١١٠).

و الكلام مسوق لرفع التهمه و العبث و المعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجرا و جزاء حتى تهتمونى أنى أستدر به نفعا يعود إلىّ و إن أضرّ بكم،و لست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من اللّه الذى أوجدنى و أبدعنى أ فلا تعقلون عنى ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنى ناصح لكم فى دعوتى،و ما أريد إلاّ أن أحملكم على الحق.

قوله تعالى: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً الى آخر الآيه؛تقدم الكلام فى معنى قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فى صدر السوره.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً» فى موقع الجزاء لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» الخ؛ أى أن تستغفروه و تتوبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا،و المراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا و أظلّ فهو سماء،و قيل المطر و هو شائع فى الاستعمال،و المدرار مبالغه من الدرّ، و أصل الدرّ اللبن ثم استعير للمطر و لكل فائده و نفع فإرسال السماء مدرارا إرسال سحب تمطر أمطارا متتابعه نافعه تحيى بها الارض و ينبت الزرع و العشب،و تنضر بها الجنات و البساتين.

و قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّهً إِلى قُوَّتِكُمْ قيل المراد بها زياده قوه الايمان على قوه

الأبـدان و قـد كان القوم أولی قوه و شـده فی أبـدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت قوه الإیمان علی قوه أبدانهم،و قیل المراد بها قوه الأبدان کما قال نوح لقومه: اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کٰانَ غَفّٰاراً یُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرٰاراً وَ یُمْدِدْکُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِینَ (نوح١٢/)و لعل التعمیم اولی.

و قوله: «وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِینَ» بمنزله التفسیر لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ» أی إن عبادتکم لما اتخذتموه من الآلهه دون اللّه إجرام منکم و معصیه توجب نزول السخط الإلهی علیکم فاستغفروا اللّه من إجرامکم و ارجعوا الیه بالإیمان حتی یرحمکم بإرسال سحب هاطله ممطره و زیاده قوه الی قوتکم.

قوله تعالی: قٰالُوا یٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَیِّنَهٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِکِی آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِکَ وَ مٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ سألهم هود فی قوله: «یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ» الی آخر الآیات الثلاث؛أمرین هما أن یترکوا آلهتهم و یعودوا الی عباده اللّه وحده و أن یؤمنوا به و یطیعوه فیما ینصح لهم فردّوا علیه القول بما فی هذه الآیه إجمالا و تفصیلا:

أما إجمالا فبقولهم: «مٰا جِئْتَنٰا بِبَیِّنَهٍ» یعنون أن دعوتک خالیه عن الحجه و الآیه المعجزه و لا موجب للإصغاء الی ما هذا شأنه.

و أما تفصیلا فقد أجابوا عن دعوته إیاهم الی رفض الشرکاء بقولهم: «وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِکِی آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِکَ» و عن دعوته إیاهم الی الایمان و الطاعه بقولهم: «وَ مٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ» فأیسوه فی کلتا المسألتین.

ثم ذکروا له ما ارتأوا فیه من الرأی لییأس من إجابتهم بالمره فقالوا «إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ» و الاعتراء الاعتراض و الإصابه یقولون:إنما نعتقد فی أمرک أن بعض آلهتنا أصابک بسوء کالخبل و الجنون لشتمک إیاها و ذکرک لها بسوء فذهب بذلک عقلک فلا یعبأ بما تفوهت به فی صوره الدعوه.

قوله تعالی: قٰالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللّٰهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ مِنْ

دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ أجاب هود عليه السّلام عن قولهم باظهار البراءه من شركائهم من دون اللّه ثم التحدى عليهم بأن يكيدوا به جميعا و لا ينظروه.

فقوله: أَنِّى بَرِىءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ إنشاء و ليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبرى،و لا ينافى ذلك كونه بريئا من أول أمره فإن التبرز بالبراءه لا ينافى تحققها من قبل،و قوله: «فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» أمر و نهى تعجيزيان.

و إنما أجاب عليه السّلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه عليه السّلام بسوء مع تبرّزه بالبراءه،و لو كانت آلهه ذات علم و قدره لقهرته و انتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء و هذه حجه بينه على أنها ليست بآلهه و على أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه،ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل او تنكيل مع كونهم ذوى شده و قوه لا يعادلهم غيرهم فى الشده و البطش،و لو لا أنه نبى من عند اللّه صادق فى ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب او دفع.

فالحق أن قوله: إِنِّى أُشْهِدُ اللّٰهَ وَ اشْهَدُوا الى آخر الآيتين؛مشتمل على حجه عقليه على بطلان ألوهيه الشركاء،و على آيه معجزه لصحه رساله هود عليه السّلام.

و فى قوله: جَمِيعاً إشاره الى أن مراده تعجيزهم و تعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتم دلاله على كونه على الحق و كونهم على الباطل.

قوله تعالى: إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّى وَ رَبِّكُمْ الى آخر الآيه؛لما كان الأمر الذى فى صوره التعجيز صالحا لأن يكون بداعى إظهار عجز الخصم و عدم قدرته،و صالحا لأن يصدر بداعى أن الآمر لا يخاف الخصم و إن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويفه و إكراهه على الطاعه و حمله على ما يريد منه كقول السحره لفرعون: فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِى هٰذِهِ الْحَيٰاهَ الدُّنْيٰا (طه۷۲/).

و كان قوله: «فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنه لا

يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا،عقبه لـدفع هذا الاحتمال بقوله: «إِنِّی تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّكَمْ» فذكر أنه متوكل فی أمره علی اللّه الذی هو یدبّر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله: «مٰا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فذكر أنه ناجح فی توكله هذا فإن اللّه محیط بهم جمیعا قاهر لهم یحكم علی سنّه واحده و هی نصره الحق و إظهاره علی الباطل اذا تقابلا و تغالبا.

فتبرّیه من أصـنامهم و تعجیزهم علی ما هم علیه من الحال بقوله: «فَكِيدُونِی جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ» ثم لبثه بینهم فی عاقبه و سلامه لا یمسونه بسوء و لا یستطیعون أن ینالوه بشر آیه معجزه و حجه سماویه علی أنه رسول اللّه الیهم.

و قوله: «مٰا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِيَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» الدابه كل ما یدب فی الأرض من أصناف الحیوان،و الأخذ بالناصـیه كنـایه عن كمال السـلطه و نهایه القـدره،و كونه تعالی علی صـراط مسـتقیم هو كون سـنته فی الخلیقه واحـده ثابته غیر متغیره و هو تدبیر الامور علی منهاج العدل و الحكمه فهو یحق الحق و یبطل الباطل إذا تعارضا.

فـالمعنی إنی توكلت علی اللّه ربی و ربكم فی نجـاح حجتی التی ألقیتها الیكم و هو التبرز بالبراءه من آلهتكم و أنكم و آلهتكم لا تضـرّوننی شـیئا فـإنه المالـک ذو السـلطه علی و علیكم و علی كـل دابه،و سـنته العـادله ثابته غیر متغیره فسوف ینصـر دینه و یحفظنی من شركم.

و لم یقل«إن ربی و ربكم علی صراط مستقیم»علی وزان قوله: «عَلَى اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّكُمْ» فإنه فی مقام الدعاء لنفسه علی قومه یتوقع أن یحفظه اللّه من شـرهم،و هو یأخذه تعالی ربا بخلاف القوم فكان الأنسب أن یعده ربا لنفسه و یسـتمسک برابطه العبودیه التی بینه و بین ربه حتی ینجـح طلبته،و هـذا بخلاف مقام قوله: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّكُمْ» فانه یریـد هناک بیان عموم السـلطه و الاحاطه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و هذه الجمله من كلامه عليه السّلام ناظر الى قولهم فى آخر جدالهم: «إِنْ نَقُولُ إِلاّٰ اعْتَرٰاكَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ» الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به و دائمون على الجحد،و المعنى إن تتولوا و تعرضوا عن الإيمان بى و الإطاعه لأمرى فقد أبلغتكم رساله ربى تمت عليكم الحجه و لزمتكم البليه.

قوله تعالى: وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ هذا وعيد و إخبار بالتبعه التى يستتبعها إجرامهم،فإنه كان وعدهم ان يستغفروا اللّه و يتوبوا اليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا و يزيد قوه الى قوتهم،و نهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

و قوله: وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ اى يجعل قوما غيركم خلفاء فى الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفه منه فى الأرض كما قال تعالى: إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره/٣٠)،و قد كان عليه السّلام بيّن لهم أنهم خلفاء فى الارض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكايه عن قوله لقومه: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زٰادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً الآيه؛(الأعراف/٦٩).

و ظاهر السياق أن الجمله الخبريه معطوفه على أخرى مقدّره،و التقدير:و سيذهب بكم ربى و يستخلف قوما غيركم على حد قوله: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ (الأنعام/١٣٣).

و قوله: «وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً» ظاهر السياق أنه تتمه لما قبله اى لا تقدرون على إضراره بشىء من الفوت و غيره إن اراد أن يهلككم و لا أن تعذيبكم و إهلاككم يفوت منه شيئا مما يريده فإن ربى على كل شىء حفيظ لا يعزم عن علمه عازب و لا يفوت من قدرته فائت؛ و للمفسرين فى الآيه وجوه أخر بعيده عن الصواب أعرضنا عنها؟

قوله تعالی: وَ لَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ المراد بمجیء الأمر نزول العذاب و بوجه أدقّ صدور الأمر الإلهی الذی یستتبع القضاء الفاصل بین الرسول و بین قومه کما قال تعالی: وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (المؤمن۷۸/).

و قوله: بِرَحْمَةٍ مِنّا الظاهر أن المراد بها الرحمه الخاصه بالمؤمنین المستوجبه نصرهم فی دینهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهی و عذاب الاستئصال،قال تعالی: إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (المؤمن ۵۱/).

و قوله: وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ ظاهر السیاق أنه العذاب الذی شمل الکفار من القوم فیکون من قبیل عطف التفسیر بالنسبه الی ما قبله،و قیل:المراد به عذاب الآخره و لیس بشیء.

قوله تعالی: وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ الآیه؛و ما بعدها تلخیص بعد تلخیص لقصه عاد فأول التلخیصین قوله: «وَ تِلْكَ عادٌ -الی قوله- وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» یذکر فیه أنهم جحدوا بآیات ربهم من الحکمه و الموعظه و الآیه المعجزه التی أبانت لهم طریق الرشد و میّزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصیان الواحد منهم عصیان للجمیع فکلهم یدعون الی دین واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصیانه سائر رسل اللّه و هو ظاهر قوله فی موضع آخر: كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (الشعراء۱۲۴/).و یشعر به ایضا قوله: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ (الأحقاف۲۱/)،و من الممکن أن یکون لهم

رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود و نوح عليهما السّلام لم يذكروا فى الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و اتّبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو اليه، و الجبّار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق،فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعه الجبابره.

ثم ذكر اللّه وبال أمرهم بقوله: وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ اى و أتبعهم اللّه فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من الرحمه،و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقّبهم فلحق بهم،أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنّوا سنّه الإشراك و الكفر لمن بعدهم،قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس١٢/).

و قيل:المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم،و من أدرك آثارهم،و كل من بلّغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامه فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامه يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآيه: وَ اتَّبَعُوا بقوله: وَ أُتْبِعُوا لطف ظاهر.

قوله تعالى: أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ أى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا اليه لخص به التلخيص الاول فقوله: أَلاٰ إِنَّ عٰاداً الخ؛يحاذى به وصف حالهم المذكور فى قوله: «وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا» الخ؛و قوله: «أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ» الخ؛يحاذى به قوله: «وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً» الخ.

و يتأيد من هذه الجمله أن المراد باللعنه السابقه اللعنه الإلهيه دون لعن الناس، و الأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثه السابقه و خاصه الوجه الثانى دون

الوجه الثالث (۱).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۶۱ الی ۶۸]

اشاره

وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ یا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ اِسْتَعْمَرَکُمْ فِیها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ (۶۱) قالُوا یا صالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما یَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِی شَکٍّ مِمّا
تَدْعُونا إِلَیْهِ مُرِیبٍ (۶۲) قالَ یا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتانِی مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اَللّٰهِ إِنْ عَصَیْتُهُ فَما
تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ (۶۳) وَ یا قَوْمِ هٰذِهِ ناقَةُ اَللّٰهِ لَکُمْ آیَةً فَذَرُوها تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اَللّٰهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذابٌ قَرِیبٌ
(۶۴) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِی دارِکُمْ ثَلاثَةَ أَیّامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ (۶۵) فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّیْنا صالِحاً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنّا وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ اَلْقَوِیُّ اَلْعَزِیزُ (۶۶) وَ أَخَذَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ (۶۷) کَأَنْ
لَمْ یَغْنَوْا فِیها أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

ص: ۱۷۰

۱- ۱) .هود ۵۰-۶۰:کلام فی قصه هود(عاد قوم هود،شخصیه هود المعنویه).

بیان:

قوله تعالی: وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ تقدم الکلام فی نظیره الآیه فی قصه هود.

قوله تعالی: هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا الی آخر الآیه؛قال الراغب الإنشاء إیجاد الشیء و تربیته و أکثر ما یقال ذلک فی الحیوان قال «هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ». انتهی،و قال:العماره ضد الخراب یقال:عمر أرضه یعمرها عماره قال «وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ» یقال:عمرته فعمر فهو معمور قال «وَ عَمَرُوهٰا أَکْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا» «وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ» و أعمرته الأرض و استعمرته إذا فوّضت الیه العماره قال «وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا» انتهی،فالعماره تحویل الارض الی حال تصلح بها أن ینتفع من فوائدها المترقّبه منها کعماره الدار للسکنی و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحدیقه لاجتناء فاکهتها و التنزه فیها و الاستعمار هو طلب العماره بأن یطلب من الانسان أن یجعل الأرض عامره تصلح لأن ینتفع بما یطلب من فوائدها.

و علی ما مرّ یکون معنی قوله: هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا -و الکلام یفید الحصر-أنه تعالی هو الذی اوجد علی المواد الارضیه هذه الحقیقه المسماه بالإنسان ثم کمّلها بالتربیه شیئا فشیئا و أفطره علی ان یتصرف فی الأرض بتحویلها الی حال ینتفع بها فی حیاته،و یرفع بها ما یتنبّه له من الحاجه و النقیصه ای إنکم لا تفتقرون فی وجودکم و بقائکم إلا الیه تعالی و تقدّس.

فقول صالح:هو الذی أنشأکم من الأرض و استعمرکم فیها فی مقام التعلیل و حجه یستدل بها علی ما ألقاه الیهم من الدعوه بقوله: «یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ» و لذلک جیء بالفصل کأنه قیل له:لم نعبده وحده؟فقال:لأنه هو الذی أنشأکم من

الارض و استعمركم فيها.

و قد علّل قوله: فَاسْتَغْفِرُوهُ الخ؛بقوله: «إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ» لأنه استنتج من حجته المذكوره أنه تعالى يقوم بإيجاد الانسان و تربيته و تدبير أمر حياته،و أنه لا استقلال لشىء من الأسباب العمّاله فى الكون بل اللّه تعالى هو الذى يسوق هذا الى هنا،و يصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الانسان و بين حوائجه و جميع الأسباب العمّاله فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدركه فهم و لا يناله عباده و قربان،و إذا كان قريبا فهو مجيب،و إذا كان قريبا مجيبا و هو اللّه لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا اليه.

قوله تعالى: قَالُوا یَا صَالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا یَعْبُدُ آبَاؤُنَا الخ؛الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهه ذاته بل من جهه أفعاله و آثاره، و لا يرجى منها الخير و يرقب منه النفع،و قوله «قَدْ کُنْتَ فِینَا» دليل على كونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم: قَالُوا یَا صَالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الامه على صراط الترقى و التعالى لما كانت تشاهد فيك من امارات الرشد و الكمال لكنهم يئسوا منك و من رزانه رأيك اليوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

و قولهم: أَ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا یَعْبُدُ آبَاؤُنَا استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه،و الاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامه سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه،و استمرار إقامه السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت،و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و قوله: وَ إِنَّنَا لَفِی شَکٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَیْهِ مُرِیبٍ حجه ثانيه لهم فى رد دعوه

ص: ۱۷۲

صالح علیه السّلام،و حجتهم الاولی ما یتضمنه صدر الآیه و محصلها أن ما تدعو الیه من رفض عباده الأصنام بدعه منکره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنیان ملیتهم،و تمیت ذکرهم فعلینا أن نرده،و الثانیه أنک لم تأت بحجه بینه علی ما تدعو الیه تورث الیقین و تمیط الشک عنا فنحن فی شک مریب مما تدعونا الیه و لیس لنا أن نقبل ما تندب الیه علی شک منا فیه.

و الإرابه الاتهام و إساءه الظن یقال:رابنی منه کذا إذا أوجب فیه الشک و أرابنی کذا إرابه إذا حملک علی اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالی: قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی مِنْهُ رَحْمَهً الی آخر الآیه؛المراد بالبینه الآیه المعجزه و بالرحمه النبوه،و قد تقدم الکلام فی نظیر الآیه من قصه نوح علیه السّلام فی السوره.

و قوله: فَمَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اللّٰهِ إِنْ عَصَیْتُهُ جواب الشرط،و حاصل المعنی:

أخبرونی إن کنت مؤیدا بآیه معجزه تنبئ عن صحه دعوتی و أعطانی اللّه الرساله فأمرنی بتبلیغ رسالته فمن ینجنی من اللّه و یدفع عنی إن أطعتکم فیما تسألون و وافقتکم فیما تریدونه منی و هو ترک الدعوه.

ففی الکلام جواب عن کلتا حجتیهم و اعتذار عما لاموه علیه من الدعوه المبتدعه.

و قوله: فَمٰا تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ تفریع علی قوله السابق الذی ذکره فی مقام دحض الحجتین و الاعتذار عن مخالفتهم و القیام بدعوتهم الی خلاف سنتهم القومیه فالمعنی فما تزیدوننی فی حرصکم علی ترک الدعوه و الرجوع الیکم و اللحوق بکم غیر أن تخسرونی فما مخالفه الحق إلاّ خساره.

و قیل:المراد أنکم ما تزیدوننی فی قولکم:أ تنهانا أن نعبد ما یعبد آباؤنا؟غیر نسبتی إیاکم الی الخساره.و قیل:المعنی ما تزیدوننی إلاّ بصیره فی خسارتکم و الوجه الأول أوجه.

قوله تعالی: وَ یٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَهُ اللّٰهِ لَکُمْ آیَهً فَذَرُوهٰا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذٰابٌ قَرِیبٌ إضافه الناقه الی اللّه إضافه تشریف کبیت اللّه و کتاب اللّه.و کانت الناقه آیه معجزه له علیه السّلام تؤید نبوته،و قد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن اللّه،و قال لهم:إنها تأکل فی أرض اللّه محرره،و حذرهم أن یمسوها بسوء أی یصیبوها بضرب أو جرح أو قتل.و أخبرهم أنهم ان فعلوا ذلک أخذهم عذاب قریب معجل،و هذا معنی الآیه.

قوله تعالی: فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ عقر الناقه نحرها،و الدار هی المکان الذی یبنیه الانسان فیسکن فیه و یأوی الیه هو و أهله،و المراد بها فی الآیه المدینه سمیت دارا لأنها تجمع أهلها کما تجمع الدار أهلها،و قیل المراد بالدار الدنیا،و هو بعید.

و المراد بتمتعهم فی مدینتهم العیش و التنعم بالحیاه لأن الحیاه الدنیا متاع یتمتع به،او الالتذاذ بأنواع النعم التی هیئوها فیها من مناظر ذات بهجه و الأثاث و المأکول و المشروب و الاسترسال فی أهواء أنفسهم.

و قوله: ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ الإشاره الی قوله: تَمَتَّعُوا الخ؛و «وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ» بیان له.

قوله تعالی: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا صٰالِحاً الی آخر الآیه؛أما قوله:«و لما جاء أمرنا نجینا صالحا و الذین آمنوا معه برحمه منا»فقدم تقدم الکلام فی مثله فی قصه هود.

و أما قوله: وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ فمعطوف علی محذوف و التقدیر نجیناهم من العذاب و من خزی یومئذ،و الخزی العیب الذی تظهر فضیحته و یستحیی من إظهاره او أن التقدیر:نجیناهم من القوم و من خزی یومئذ علی حد قوله: وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ.

و قوله: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ فی موضع التعلیل لمضمون صدر الآیه و فیه التفات من التکلم بالغیر الی الغیبه،و قد تقدم نظیره فی آخر قصه هود فی قوله: «أَلاٰ إِنَّ عٰاداً کَفَرُوا رَبَّهُمْ» و الوجه فیه ذکر صفه الربوبیه لیدل به علی خروجهم من زی العبودیه و کفرهم بالربوبیه و کفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالی: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ یقال:جثم جثوما اذا وقع علی وجهه،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا غنی بالمکان أی أقام فیه،و الضمیر راجع الی الدیار.

قوله تعالی: أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ الجملتان تلخیص ما تقدم تفصیله من القصه فالجمله الاولی تلخی ما انتهی الیه أمر ثمود و دعوه صالح علیه السّلام، و الثانیه تلخیص ما جازاهم اللّه به،و قد تقدم نظیره الآیه فی آخر قصه هود (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۶۹ الی ۷۶]

اشاره

وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِیذٍ (۶۹) فَلَمّٰا رَأیٰ أَیْدِیَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلیٰ قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَهٌ فَضَحِکَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ (۷۱) قٰالَتْ یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِی شَیْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ (۷۲) قٰالُوا أَ تَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ رَحْمَتُ اَللّٰهِ وَ بَرَکٰاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ اَلْبَیْتِ إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ (۷۳) فَلَمّٰا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰاهِیمَ اَلرَّوْعُ وَ جٰاءَتْهُ اَلْبُشْریٰ یُجٰادِلُنٰا فِی قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوّٰاهٌ مُنِیبٌ (۷۵) یٰا إِبْرٰاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

ص: ۱۷۵

۱- ۱) .هود ۶۱-۶۸:بحث روائی حول قصه صالح و قومه.

۲- ۲) .هود ۶۱-۶۸:کلام فی قصه صالح فی فصول(ثمود قوم صالح علیه السّلام،بعثه صالح علیه السّلام،شخصیه صالح علیه السّلام).

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ الی آخر الآیه؛البشری هی البشاره،و العجل ولد البقره،و الحنیذ فعیل بمعنی المفعول أی المحنوذ و هو اللحم المشوی علی حجاره محماه بالنار کما أن القدید هو المشوی علی حجاره محماه بالشمس علی ما ذکره بعض اللغویین،و ذکر بعضهم أنه المشوی الذی یقطر ماء و سمنا،و قیل:هو مطلق المشوی،و قوله تعالی فی سوره الذاریات فی القصه: «فَرٰاغَ إِلىٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» لا یخلو من تأیید ما للمعنی الثانی.

و قوله: وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ معطوف علی قوله سابقا:

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ» قال فی المجمع:و إنما دخلت اللام لتأکید الخبر و معنی قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبیاء یتوقع قصه بعد قصه،و قد للتوقّع فجاءت لتؤذن أن السامع

ص: ۱۷۶

فی حال توقع.انتهی.

و الرسل هم الملائکه المرسلون الی إبراهیم للبشاره و الی لوط لإهلاک قومه و قد اختلفت کلمات المفسرین فی عددهم مع القطع بکونهم فوق الاثنین لدلاله لفظ الجمع -الرسل-علی ذلک،و فی بعض الروایات عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أنهم کانوا أربعه من الملائکه الکرام،و سیأتی نقلها إن شاء اللّه فی البحث الروائی.

و البشری التی جاءت بها الرسل إبراهیم علیه السّلام لم یذکر بلفظها فی القصه،و التی ذکرت فیها منها هی البشاره لامرأته،و إنما ذکرت بشاره إبراهیم نفسه فی غیر هذا المورد کسورتی الحجر و الذاریات،و لم یصرّح فیهما باسم من بشر به إبراهیم أ هو إسحاق أم إسماعیل علیهم السّلام أو أنهم بشروه بکلیهما؟و ظاهر سیاق القصه فی هذه السوره أنها البشاره بإسحاق،و سیأتی البحث المستوفی عن ذلک فی آخر القصه.

و قوله: قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ أی تسالموا هم و إبراهیم فقالوا:سلاما أی سلّمنا علیک سلاما،و قال إبراهیم:سلام أی علیکم سلام.

و السلام الواقع فی تحیه ابراهیم علیه السّلام نکره و وقوعه نکره فی مقام التحیه دلیل علی ان المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخیم و مزید التکریم و التقدیر:علیکم سلام زاک طیب أو ما فی معناه،و لذا ذکر بعض المفسرین:ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حیّاهم بأحسن من تحیتهم فبالغ فی إکرامهم ظنا منه أنهم ضیف.

و قوله: فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِیذٍ أی ما أبطأ فی أن قدّم الیهم عجلا مشویا یقطر ماء و سمنا و أسرع فی ذلک.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأیٰ أَیْدِیَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً عدم وصول ایدیهم الیه کنایه عن أنهم ما کانوا یمدون أیدیهم الی الطعام،و ذلک أماره العداوه و إضمار الشر،و نکرهم و أنکرهم بمعنی واحد و إنما کان أنکرهم لإنکاره ما شاهد

منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبى،قال الراغب:الوجس الصوت الخفى،و التوجس التسمع، و الإيجاس وجود ذلك النفس قال:و أوجس منهم خيفه،و الواجس قالوا:هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر.انتهى.

فالجمله من الكنايه كأن لطروق الخيفه-و هو النوع من الخوف-و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبى،و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمّنوه و طيبوا نفسه بقولهم:

«لاَ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ».

و معنى الآيه أن إبراهيم عليه السّلام لما قدم اليهم العجل المشوى رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل-و ذلك أماره الشر-استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطييبا لنفسه:لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكه الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه،و أنهم مرسلون لخطب جليل.

قوله تعالى: وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ ضحكت من الضحك بفتح الضاد اى حاضت،و يؤيده تفريع البشاره عليه فى قوله عقيبه:«فبشرناهم»الخ؛و يكون ضحكها أماره تقرّب البشرى الى القبول، و آيه تهيئ نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به،و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز،و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن ابراهيم عليه السّلام كان يكلمهم و يكلمونه فى امر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر الى ما يجرى بين الضيفان و بين ابراهيم و ما كان يخطر ببالها شىء دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و قوله: فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ إسحاق هو ابنها من

ابراهیم،و یعقوب هو ابن إسحاق علیهما السّلام فالمراد أن الملائکه بشروها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سیولد له یعقوب ولد بعد ولد.هذا علی قراءه یعقوب بالفتح و هو منزوع الخافض و قرئ برفع یعقوب و هو بیان لتتمه البشاره،و الاولی ارجح.

و کأن فی هذا التعبیر: وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ إشاره الی وجه تسمیه یعقوب علیه السّلام بهذا الاسم،و هو أنه کان یعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذکر فیها أنه وراءه،و یکون فیها تخطئه لما فی التوراه من السبب فی تسمیه یعقوب به.

قوله تعالی: قٰالَتْ یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِی شَیْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ الویل القبح و کل مساءه توجب التحسّر من هلکه او مصیبه او فجیعه او فضیحه،و نداؤه کنایه عن حضوره و حلوله یقال:یا ویلی أی حضرنی و حل بی ما فیه تحسّری،و یا ویلتا بزیاده التاء عند النداء مثل یا أبتا.

و العجوز الشیخه من النساء،و البعل زوج المرأه و الأصل فی معناه القائم بالأمر المستغنی عن الغیر یقال للنخل الذی یستغنی بماء السماء عن سقی الأنهار و العیون بعل، و یقال للصاحب و للرب:بعل.و منه بعلبک لأنه کان فیه هیکل بعض أصنامهم.

و العجیب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهده ما لا یعلم سببه،و لذا یکثر من الامور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها: «یٰا وَیْلَتیٰ أَ أَلِدُ» الخ؛ وارد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائکه تمثّل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقیم و شیخ هرم بالغین فی الکبر لا یعهد من مثلهما الاستیلاد فهو أمر عجیب علی ما فیه من العار و الشین عند الناس فیضحکون منهما و یهزءون بهما و ذلک فضیحه.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ تَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَتُ اللّٰهِ وَ بَرَکٰاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ الْبَیْتِ إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ المجد هو الکرم و المجید الکریم کثیر النوال و قد تقدم معنی بقیه مفردات الآیه.

ص:۱۷۹

و قولهم: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ استفهام إنكارى انكرت الملائكه تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب و استغراب الأمر،و الأمر المنسوب الى اللّه سبحانه و هو الذى يفعل ما يشاء و هو على كل شیء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمه و مواهب عاليه يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم الى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه اخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

و لهذا الذى ذكرنا قالت الملائكه لها فى إنكار ما رأوا من تعجبها أولا «أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ» فأضافوا الأمر الى اللّه لينقطع بذلك كل استعجاب و استغراب لأن ساحه الالوهيه لا يشق شیء عليها و هو الخالق لكل شیء.

و ثانيا رَحْمَتُ اللّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فنبهوها بذلك أن اللّه انزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت،و ألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين فى غير سنهما العادى المألوف لذلك.

و قوله: إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فى مقام التعليل لقوله: «رَحْمَتُ اللّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» اى إنه تعالى مصدر كل فعل محمود و منشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته و بركاته على كل من يشاء من عباده.

قوله تعالى: فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ الروع الخوف و الرعب و المجادله فى الأصل الإلحاح فى البحث و المساءله للغلبه فى الرأى،و المعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفه بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءا و لا يضمرون له شرّا.و جاءته البشرى بأن اللّه سيرزقه و زوجه إسحاق و من وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكه فى قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب.

فقوله: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ لحكايه الحال الماضيه او بتقدير فعل ماض قبله و تقديره:اخذ يجادلنا،الخ،لأن الأصل فى جواب لما ان يكون فعلا ماضيا.

و يظهر من الآيه ان الملائكه اخبروه اولا-بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشاره ثم جرى بينهم الكلام فى خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السّلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم،و العذاب نازل لا مرد له.

و الذى ذكره اللّه من مجادلته عليه السّلام الملائكه هو قوله فى موضع آخر: وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (العنكبوت۳۲/).

قوله تعالى: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ الحليم هو الذى لا يعاجل العقوبه و الانتقام،و الأوّاه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من السوء،و المنيب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع فى كل أمر الى اللّه.

و الآيه مسوقه لتعليل قوله فى الآيه السابقه: «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و فيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السّلام و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليما لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا و يستقيموا،و كان كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاك بهم مراجعا الى اللّه فى نجاتهم.لا أنه عليه السّلام كان يكره عذاب الظالمين و ينتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلك.

قوله تعالى: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ هذا حكايه قول الملائكه لإبراهيم عليه السّلام و بذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح فى صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمرا فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله.فقولهم: «يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا» أى انصرف عن هذا الجدال و لا تطمع فى نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

و قولهم: إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ أی بلغ أمره مبلغا لا یـدفع بـدافع و لا یتبـدّل بمبدل و یؤیده قوله فی الجمله التالیه: «وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ» فـإن ظـاهره المسـتقبل و لو کـان الأـمر صادرا لم یتخلف القضاء عن المقضـی البته و یؤیـده ایضا قوله فی ما سیأتی من آیات قصه قوم لوط: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا الخ؛آیه ۸۲ من السوره.

و قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ ای غیر مـدفوع عنهم بدافع فللّه الحکم لا معقب لحکمه،و الجمله بیان لما أمر به جیء بها تأکیـدا للجمله السابقه و المقام مقام التأکیـد،و لـذلک جیء فی الجمله الاولی بضـمیر الشأن و قـد المفید للتحقیق،و صدرت الجملتان معا بإن،و أضافوا الأمر الی رب إبراهیم علیه السّلام دون امر اللّه لیعینهم ذلک علی انقطاعه عن الجدال (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۷۷ الی ۸۳]

اشاره

وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا یَوْمٌ عَصِیبٌ (۷۷) وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَ مِنْ قَبْلُ کٰانُوا یَعْمَلُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ قٰالَ یٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ (۷۸) قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِیدُ (۷۹) قٰالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ (۸۰) قٰالُوا یٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّیْلِ وَ لاٰ یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ إِلاَّ اِمْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِیبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ اَلصُّبْحُ أَ لَیْسَ اَلصُّبْحُ بِقَرِیبٍ (۸۱) فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّیلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ وَ مٰا هِیَ مِنَ اَلظّٰالِمِینَ بِبَعِیدٍ (۸۳)

۱- ۱) .هود ۶۹-۷۶:بحث روائی فی اهلاک قوم لوط.

۲- ۲) .هود ۶۹-۷۶:کلام فی قصه البشری(حدیث ضیف ابراهیم علیه السّلام).

بیان:

قوله تعالی: وَ لَمّا جٰاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا یَوْمٌ عَصِیبٌ یقال:ساءه الأمر مساءه ای أوقع علیه السوء،و سیئ بالأمر بالبناء للمجهول ای أوقع علیه من ناحیته و بسببه.

و الذرع مقایسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم کانوا یقیسون بها، و یطلق علی نفس المقیاس ایضا،و یقال:ضاق بالأمر ذرعا و هو کنایه عن انسداد طریق الحیله و العجز عن الاهتداء الی مخلص ینجو به الانسان من النائبه کالذی یذرع ما لا ینطبق علیه ذرعه.

و العصیب فعیل بمعنی المفعول من العصب بمعنی الشدّ و الیوم العصیب هو الیوم الذی شدّ بالبلاء شدا لا یقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ینفکّ عن بعض.

و المعنی جاءت رسلنا لوطا و هم الملائکه النازلون بإبراهیم علیه السّلام ساء مجیئهم لوطا، و عجز عن الاحتیال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا علیه فی صور غلمان مرد صبیحی المنظر و کان قومه ذوی حرص شدید علی إتیان الفحشاء ما کان من المترقب أن یعرضوا

عنهم و يتركوهم على حالهم،و لذلک لم يملک لوط نفسه دون أن قال «هٰذٰا يَوْمٌ عَصِيبٌ» ای شديد ملتفّ بعض شره ببعض.

قوله تعالى: وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ قال الراغب:يقال:هرع و أهرع ساقه سوقا بعنف و تخويف،انتهى.و عن كتاب العين الإهراع السوق الحثيث،انتهى.

و قوله: وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ ای و من قبل ذلک كانوا يقترفون المعاصی و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلک لا ينصرفون عنه بصارف،و لا يحجبهم عن ذلک استحياء او استشناع،و لا ينزجرون بموعظه او ملامه او مذمه لأن العاده تسهّل كل صعب و تزيّن كل قبيح و وقيح.

و الجمله كالمعترضه بين قوله: وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ و قوله: قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی الخ؛و هی نافعه فی مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذی كان يهرعهم و يسوقهم الی لوط عليه السّلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات و صورا بذلک معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلک الی المجیء اليه و قصد السوء بأضيافه.

و أما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكه و استقرار العاده سلبوا سمع القبول و أن يزجرهم زاجر من عظه او نصيحه،و لذلک بدأ لوط فی تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم«اتقوا الله و لا تخزون فی ضيفی»الخ.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ الی آخر الآيه؛لما رآهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلک مجرد القول بعظه او إغلاظ فی الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجّحه لهم بأنهنّ أطهر لهم.

و إنما المراد بصيغه التفضيل-أطهر-مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب

بقذاره،و المراد هی طهاره محضا،و هو استعمال شائع،قال تعالی: مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه۱۱/)،و قال: وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ (النساء۱۲۸/).و تفيد معنی الأخذ بالمتيقن.

و تقييد قوله: هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی بقوله: هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ شاهد صدق علی أنه إنما عرض لهم مسّهن عن نكاح لا عن سفاح و حاشا مقام نبیّ اللّه عن ذلک،و ذلک لأن السفاح لا طهاره فيه أصلا و قد قال تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (الإسراء۳۲/)،و قال: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ (الأنعام۱۵۱/)، و قد تقدم فی تفسير هذه الآيه أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامه المشرّعه فی جميع الشرائع الإلهيه النازله علی أنبيائه.

و قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَيْفِی بيان للمطلوب،و قوله: «وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَيْفِی» عطف تفسيری لقوله: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ» فإنه عليه السّلام إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوی اللّه لا لهوی نفسه و عصبيه جاهليه منه،و لم يكن عنده فرق بين ضيفه و غيرهم فيما كان يردعهم،و قد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع و ألحّ علی ذلک سنين متماديه.

و إنما علق الردع علی معنی الضيافه و أضاف الضيف الی نفسه و ذكر الخزی الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلک رجاء أن يهيج صفه الفتوّه و الكرامه فيهم و لذلک عقب ذلک بالاستغاثه و الاستنصار بقوله: «أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» لعله يجد فيهم ذا رشد إنسانی فينتصر له و ينجيه و ضيوفه من أيدی اولئک الظالمين لكن القوم كانوا كما قال اللّه تعالی:

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (الحجر۷۲/)و لم يؤثر ذلک فيهم أثرا و لم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أيأسوه به من أی إلحاح فی ذلک.

قوله تعالی: قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا

نُرِيدُ هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفی أن یکون لهم فی بناته من حق و أنه یعلم ذلک و یعلم ما هو بغیتهم فی هذا الهجوم و ما ذا یریدون.

و قـد قیل فی معنی نفیهم الحق:إن معناه ما لنا فی بناته من حاجه و ما لیس للانسان فیه حاجه فکأنه لا حق له فیه ففی الکلام نوع استعاره.

و قیـل:إن المراد لیس لنا فی بناتک من حق لأنا لا نتزوجهن و من لم یتزوج بامرأه فلا حق له فیها فالمراد بنفی الحق نفی سـببه و هو الازدواج.

و قیل:المراد بالحق هو الحظ و النصیب دون الحق الشرعی او العرفی أی لا رغبه لنا فیهن لأنهن نساء و لا میل لنا الیهن.

و الـذی یجب الالتفات الیه أنهم لم یقولوا:ما لنا فی بناتک من حق بل قالوا «لَقَـدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ» فلم یجیبوا عنه بـذلک بـل بعلمه بـذلک و بین القولین فرق فالظـاهر أنهم ذکّروه بمـا کـان یعلم من السـنّه القومیه الجـاریه بینهم،و هو المنع من التعرض لنساء الناس و خاصه بالقهر و الغلبه او ترک إتیان النساء بالمرّه و استباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم،و قد کان لوط یردعهم عن سـنّتهم ذلـک إذ یقول لهم: إِنَّکُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجٰـالَ شَـهْوَهً مِنْ دُونِ النِّسٰـاءِ (الأعراف٨١/) أَ تَـأْتُونَ الـذُّکْرٰانَ مِنَ الْعٰالَمِینَ وَ تَـذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَکُمْ رَبُّکُمْ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ (الشـعراء١۶۶/) أَ إِنَّکُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجٰـالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِیلَ وَ تَأْتُونَ فِی نٰادِیکُمُ الْمُنْکَرَ (العنکبوت٢٩/)،و لا شک أن السنّه القومیه الجاریه علی فعل شیء یثبت حقا فیه،و الجاریه علی ترکه ینفی الحق.

و بـالجمله هم یلفتون نظره علیه السّـلام الی مـا یعلم من انتفـاء حقهم عن بنـاته بمـا هن نسـاء بحسب السـنّه القومیه و ما یعلم من إرادتهم فی الهجوم علی داره هذا و لعلّ هذا أحسن الوجوه،و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالی: قٰالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّهً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ یقال:أوی

الی كذا يأوی أويّا و مأوی أی انضم اليه،و آواه اليه يؤويه إيواء أی ضمه اليه.و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السّلام بالأمر بتقوی اللّه و تهييج فتوّتهم فی حفظ موقعه و رعايه حرمته فی عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار و الخزی،و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولی الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أيأسوه بقولهم: «لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ» لم يبق له إلاّ أن يظهر ما به من البث و الحزن فی صوره التمنی فتمنی أن يكون له منهم قوه يقوی به علی دفع عتاتهم الظالمين-و هو الرجل الرشيد الذی كان يسأل عنه فی استغاثته-او يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم اليهم فيدفعهم بهم.

فقوله: لَوْ أَنَّ لِی بِكُمْ قُوَّةً أی ليت لی قدره بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إلیّ يقوم بنصرتی فأدفعكم به،و قوله: «أَوْ آوِی إِلیٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» أی او كنت أنضم الی ركن شديد أی عشيره منيعه يمنعكم منی هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

قوله تعالی: قٰالُوا يٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ الی آخر الآيه؛ عدم وصولهم اليه كنايه عن عدم قدرتهم علی ما يريدون،و المعنی لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكه مخاطبين للوط:إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكه و عرفوه أنهم مرسلون من عند اللّه،و طيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه و لن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره اللّه تعالی فی موضع آخر من كلامه: وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنٰا أَعْيُنَهُمْ (القمر/۳۷)،فأذهب اللّه بأبصار الذين تابعوا علی الشر و ازدحموا علی بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

ص:۱۸۷

و قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ الإسراء و السرى بالضم السير بالليل فيكون قوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» نوع توضيح له،و الباء للمصاحبه او بمعنى فى.و القطع من الشيء طائفه منه و بعضه،و الالتفات افتعال من اللفت، قال الراغب:يقال:لفته عن كذا صرفه عنه،قال تعالى «قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا» أى تصرفنا، و منه التفت فلان اذا عدل عن قبله بوجهه،و امرأه لفوت تلفت من زوجها الى ولدها من غيره.انتهى.

و القول دستور من الملائكه للوط عليه السّلام إرشادا له الى النجاه من العذاب النازل بالقوم صبيحه ليلتهم هاتيک،و فيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ» .

و المعنى أنا مرسلون لعذاب القوم و هلاكهم فانج أنت بنفسک و أهلك و سيروا أنت و أهلك بقطع من هذا الليل و اخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب اللّه صبيحه ليلتهم هذه،و لا كثير وقت بينک و بين الصبح،و لا ينظر احدكم الى وراء.

و قوله: إِلاَّ امْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله:

«بِأَهْلِکَ» لا من قوله: «أَحَدٌ» و فى قوله: «إِنَّهُ مُصِيبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ» بيان السبب لاستثنائها، و قال تعالى فى غير هذا الموضع: إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰا إِنَّهٰا لَمِنَ الْغٰابِرِينَ (الحجر/٦٠).

و قوله: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ اى موعد هلاكهم الصبح و هو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق،كما قال تعالى فى موضع آخر فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر/٧٣).

و الجمله الاولى تعليل لقوله: «فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» و فيه نوع استعجال كما تقدّم،و يؤكده قوله: «أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» و من الجائز أن يكون لوط عليه السّلام يستعجلهم فى عذاب القوم فيجيبوه بقولهم: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أى إن من المقدّر أن يهلكوا بالصبح و ليس موعدا بعيدا او يكون الجمله الاولى استعجالا من الملائكه،

ص :١٨٨

و الثانيه تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون اليه،و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبٰارَهُمْ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (الحجر/٦۵)،و ظاهره أن الملائكه لم يذكروا له المقصد و أحالوا ذلك الى ما سيأتيه من الدلاله بالوحى الإلهى.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِيَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ضمائر التأنيث الثلاث راجعه الى أرض القوم او القريه او بلادهم المعلومه من السياق،و السجّيل على ما فى المجمع بمعنى السجّين و هو النار،و قال الراغب:السجّين حجر و طين مختلط،و أصله فيما قيل فارسى معرّب، انتهى.يشير الى ما قيل إن أصله سنككل،و قيل:إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك،و قيل:مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرّب المفيد معنى الحجر و الطين،و السجل بمعنى الكتاب ايضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسمّى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس،و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب،و التسويم جعل الشىء ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى:و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعذابهم و هو كلمه«كن» التى أشار إليها فى قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس/٨٣)،جعلنا عالى أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجيل منضود معلّمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و قوله تعالى: وَ مٰا هِيَ مِنَ الظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل

مکه او المشرکون من قوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الکلام مسوق للتهدید،و المعنی و لیست هذه الحجاره من ظالمی مکه ببعید او المعنی:لیست هذه القری المخسوفه من ظالمی قومک ببعید فإنه فی طریقهم بین مکه و الشام،کما قال تعالی فی موضع آخر: وَ إِنَّهٰا لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ (الحجر۷۶/)،و قال: وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الصافات۱۳۸/).

و یؤید العدول من سیاق التکلم الی الغیبه فی قوله: «مُسَوَّمَهً عِنْدَ رَبِّکَ» فکأنه تعالی عدل عن مثل قولنا:مسوّمه عندنا،الی هذا التعبیر لیتعرض لقومه صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالتهدید أو بإنهاء الحدیث الی حسّهم لیکون أقوی تأثیرا فی الحجاج علیهم.

و ربما احتمل أن المراد تهدید مطلق الظالمین و المراد انه لیست الحجاره ای إمطارها من عند اللّه تعالی من معشر الظالمین و منهم قوم لوط الظالمون ببعید،و یکون وجه الالتفات فی قوله: «عِنْدَ رَبِّکَ» ایضا التعریض لقوم النبی الظالمین المشرکین (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۸۴ الی ۹۵]

اشاره

وَ إِلیٰ مَدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُعَیْباً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ وَ لاٰ تَنْقُصُوا اَلْمِکْیٰالَ وَ اَلْمِیزٰانَ إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ وَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ مُحِیطٍ (۸۴) وَ یٰا قَوْمِ أَوْفُوا اَلْمِکْیٰالَ وَ اَلْمِیزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْیٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی اَلْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۸۵) بَقِیَّتُ اَللّٰهِ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ (۸۶) قٰالُوا یٰا شُعَیْبُ أَ صَلاٰتُکَ تَأْمُرُکَ أَنْ نَتْرُکَ مٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِی أَمْوٰالِنٰا مٰا نَشٰؤُا إِنَّکَ لَأَنْتَ اَلْحَلِیمُ اَلرَّشِیدُ (۸۷) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أُخٰالِفَکُمْ إِلیٰ مٰا أَنْهٰاکُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِیدُ إِلاَّ اَلْإِصْلاٰحَ مَا اِسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ (۸۸) وَ یٰا قَوْمِ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شِقٰاقِی أَنْ یُصِیبَکُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْکُمْ بِبَعِیدٍ (۸۹) وَ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی رَحِیمٌ وَدُودٌ (۹۰) قٰالُوا یٰا شُعَیْبُ مٰا نَفْقَهُ کَثِیراً مِمّٰا تَقُولُ وَ إِنّٰا لَنَرٰاکَ فِینٰا ضَعِیفاً وَ لَوْ لاٰ رَهْطُکَ لَرَجَمْنٰاکَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْنٰا بِعَزِیزٍ (۹۱) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَهْطِی أَعَزُّ عَلَیْکُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ اِتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَکُمْ ظِهْرِیًّا إِنَّ رَبِّی بِمٰا تَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۹۲) وَ یٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ وَ اِرْتَقِبُوا إِنِّی مَعَکُمْ رَقِیبٌ (۹۳) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا شُعَیْباً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ أَخَذَتِ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (۹۴) کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْیَنَ کَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

۱- ۱) .بحث روائی حول قصه لوط علیه السّلام و قومه.

۲- ۲) .هود ۷۷-۸۳:کلام فی قصه لوط و قومه فی فصول(قصته و قصه قومه فی القرآن،عاقبه امرهم،شخصیه لوط المعنویه،لوط و قومه فی التوراه).

بیان:

قوله تعالی: وَ إِلیٰ مَـدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُـعَیْباً الی آخر الآیه؛عطف علی ما تقـدمه من قصـص الأنبیاء و أممهم،و مـدین اسم مدینه کان یسـکنها قوم شـعیب ففی نسبه إرسال شعیب الی مدین و کان مرسلا الی أهله نوع من المجاز فی الإسناد کقولنا:جری المیزاب،و فی عدّ شعیب علیه السّلام أخا لهم دلاله علی أنه کان ینتسب الیهم.

و قوله: قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ تقدم تفسیره فی نظائره.

و قوله: «وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِکْیٰالَ وَ الْمِیزٰانَ» المکیال و المیزان اسـما آله بمعنی ما یکال به و ما یوزن به،و لا یوصـفان بالنقص و إنما یوصف بالنقص کالزیاده و المساواه المکیل و الموزون فنسبه النقص الی المکیال و المیزان من المجاز العقلی.

و فی تخصـیص نقص المکیـال و المیزان من بین معاصـیهم بالـذکر دلاـله علی شـیوعه بینهم و إقبالهم علیه و إفراطهم فیه بحیث ظهر فساده و بان سیئ أثره فأوجب ذلک شده اهتمام به من داعی الحق فدعاهم الی ترکه بتخصیصه بالذکر من بین المعاصی.

و قوله: إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ أی أشاهـدکم فی خیر،و هو مـا أنعم اللّٰه تعـالی علیکم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجه لکم الی نقص المکیال و المیزان، و اختلاس الیسـیر من اشیاء الناس طمعا فی ذلک من غیر سبیله المشروع و ظلما و عتوّا، و علی هذا فقوله: إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ تعلیل لقوله: وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِکْیٰالَ وَ الْمِیزٰانَ.

ص: ۱۹۲

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعنايه اللّه معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوّغ لأن تعبدوا الآلهه من دونه و تشركوا به غيره،و أن تفسدوا فى الأرض بنقص المكيال و الميزان،و على هذا يكون تعليلا لما تقدمه من الجملتين أعنى قوله: «اعْبُدُوا اللّهَ» الخ؛و قوله: «وَ لاٰ تَنْقُصُوا» الخ؛كما أن قوله: «وَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» كذلك.

فمحصل قوله: إِنِّی أَرٰاكُمْ الى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه اللّه:أحدهما:أنكم فى خير و لا حاجه لكم الى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها.و ثانيهما:ان وراء مخالفه امر اللّه يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيد أن يراد بقوله: «إِنِّی أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ» أنى أراكم برؤيه خير أى انظر اليكم نظر الناصح المشفق الذى لا يصاحب نظره إلاّ الخير و لا يريد بكم غير السعاده،و على هذا يكون قوله: «وَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» كعطف التفسير النسبه اليه.

و قوله: وَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ يشير به الى يوم القيامه او يوم نزول عذاب الاستئصال و معنى كون اليوم-هو يوم القضاء بالعذاب-محيطا أنه لا مخرج منه و لا مفر و لا ملاذ من دون اللّه فلا يدفع فيه ناصر و لا معين،و لا ينفع فيه توبه و لا شفاعه،و يئول معنى الإحاطه الى كون العذاب قطعيا لا مناص منه،و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ الخ؛الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخس النقص كرر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام أمر لا غنى لمجتمعهم عنه، و ذلك أنه دعاهم اولا الى الصلاح بالنهى عن نقص المكيال و الميزان،و عاد ثانيا فأمر بايفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخس الناس اشياءهم إشاره الى أن مجرد التحرز عن نقص

المکیال و المیزان لا یکفی فی إعطاء هذا الأمر حقه-و إنما نهی عنه اولا لتکون معرفه إجمالیه هی کالمقدمه لمعرفه التکلیف تفصیلا-بل یجب أن یوفی الکائل و الوازن مکیاله و میزانه و یعطیاهما حقهما و لا یبخسا و لا ینقصا الأشیاء المنسوبه الی الناس بالمعامله حتی یعلما انهما ادیا الی الناس اشیاءهم و ردا الیهم ما لهم علی ما هو علیه.

و قوله: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ قال الراغب:العیث و العثی یتقاربان نحو جذب و جبذ إلاّ ان العیث اکثر ما یقال فی الفساد الذی یدرک حسا و العثی فیما یدرک حکما یقال:عثی یعثی عثیا،و علی هذا «وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» و عثا یعثو عثوا.

انتهی.

و علی هذا فقوله: مُفْسِدِینَ حال من ضمیر «لاٰ تَعْثَوْا» لإفاده التأکید نظیر ما یفیده قولنا:لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله اعنی قوله: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ نهی مستأنف عن الفساد فی الارض من قتل او جرح او أی ظلم مالی او جاهی او عرضی لکن لا یبعد ان یستفاد من السیاق کون الجمله عطفا تفسیریا للنهی السابق فیکون نهیا تأکیدیا عن التطفیف و نقص المکیال و المیزان لأنه من الفساد فی الأرض.

قوله تعالی: بَقِیَّتُ اللّٰهِ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ البقیه بمعنی الباقی و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذی یبقی له بعد تمام المعامله فیضعه فی سبیل حوائجه،و ذلک ان المبادله و إن لم یوضع بالقصد الأول علی أساس الاسترباح،و إنما کان الواحد منهم یقتنی شیئا من متاع الحیاه،فإذا کان یزید علی ما یحتاج الیه بدّل الزائد المستغنی عنه من متاع آخر یحتاج الیه و لا یملکه ثم اخذت نفس التجاره و تبدیل الأمتعه من الأثمان حرفه یکتسب بها المال و یقتنی بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد او انواع شتی و عرضه علی أرباب الحاجه للمبادله،و أضاف الی

رأس ماله فيه شيئا من الربح بإزاء عمله فى الجمع و العرض و رضى بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادله عليهم فللتاجر فى تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته و يحوّل اليه ثروه يقتنيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذى هو بقيه إلهيه هداكم اللّه اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذى تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان و إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذى ساقه اللّه اليه من طريق حله،و أما غير ذلك مما لا يرتضيه اللّه و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له اليه.

و قوله: وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ اى و ما يرجع الى قدرتى شىء مما عندكم من نفس او عمل او طاعه او رزق و نعمه فإنما انا رسول ليس عليه إلاّ البلاغ،لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم او تسقطوا فى مهبط الهلكه من غير ان اقدر على جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (الأنعام۱۰۴/).

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ أَ صَلاٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا الى آخر الآيه؛ردّ منهم لحجه شعيب عليه،و هو من ألطف التركيب،و مغزى مرادهم أنّا فى حريه فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به فى اموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت او تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شىء مما تشاهد منا بما تصلّى و تتقرب الى ربك و أردت ان تأمر و تنهى فلا تتعدّ نفسك لأنك لا تملك إلاّ إياها.

و قد أدّوا مرادهم هذا فى صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه فى قالب الاستفهام الإنكارى و هو ان الذى تريده منا من ترك عباده الأصنام،و ترك ما شئنا من التصرف فى اموالنا هو الذى بعثتك اليه صلاتك و شوهته فى عينك فأمرتك به لما انها ملكتك لكنك اردت منا ما ارادته منك صلاتك و لست تملكنا انت و لا صلاتك لأننا احرار فى

شعورنا و إرادتنا لنا ان نختار ای دین شئنا و نتصرف فی اموالنا ای تصرف اردنا من غیر حجر و لا منع و لم ننتحل إلاّ دیننا الذی هو دین آبائنا و لم نتصرف إلاّ فی اموالنا و لا حجر علی ذی مال فی ماله.

فما معنی ان تأمرک إیاک صلاتک بشیء و نکون نحن الممتثلون لما امرتک به؟و بعباره أخری ما معنی ان تأمرک صلاتک بفعلنا القائم بنا دونک؟فهل هذا إلاّ سفها من الرأی؟و إنک لأنت الحلیم الرشید و الحلیم لا یعجل فی زجر من یراه مسیئا و انتقام من یراه مجرما حتی ینجلی له وجه الصواب،و الرشید لا یقدم علی امر فیه غیّ و ضلال فکیف اقدمت علی مثل هذا الأمر السفهی الذی لا صوره له إلاّ الجهاله و الغی؟

قوله تعالی: قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً الی آخر الآیه؛المراد بکونه علی بیّنه من ربه کونه علی آیه بیّنه و هی آیه النبوّه و المعجزه الداله علی صدق النبیّ فی دعوی النبوّه،و المراد بکونه رزق من اللّه رزقا حسنا أن اللّه آتاه من لدنه وحی النبوه المشتمل علی أصول المعارف و الشرائع،و قد مرّ توضیح نظیر هاتین الکلمتین فیما تقدّم.

و المعنی:أخبرونی إن کنت رسولا من اللّه الیکم و خصّنی بوحی المعارف و الشرائع و أیّدنی بآیه بیّنه یدلّ علی صدق دعوای فهل أنا سفیه فی رأیی؟و هل ما أدعوکم الیه دعوه سفهیه؟و هل فی ذلک تحکّم منی علیکم او سلب منی لحریتکم؟فإنما هو اللّه المالک لکل شیء و لستم أحرار بالنسبه الیه بل انتم عباده یأمرکم بما شاء،و له الحکم و الیه ترجعون.

و قوله: وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أُخٰالِفَکُمْ إِلیٰ مٰا أَنْهٰاکُمْ عَنْهُ تعدیه المخالفه بالی لتضمینه معنی ما یتعدی بها کالمیل و نحوه؟و التقدیر:أخالفکم مائلا الی ما أنهاکم عنه او أمیل الی ما أنهاکم عنه مخالفا لکم.

و الجمله جواب عن ما اتّهموه به أنه یرید أن یسلب عنهم الحریه فی أعمالهم

و یستعبدهم و یتحکم علیهم،و محصّله أنه لو کان مریدا ذلک لخالفهم فیما ینهاهم عنه،و هو لا یرید مخالفتهم فلا یرید ما اتّهموه به و إنما یرید الإصلاح ما استطاع (۱).

و قوله: وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ فی مقام الاستثناء من الاستطاعه فإنه علیه السّلام لما ذکر لهم انه یرید إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح علی مقدار ماله من الاستطاعه و فی ضوئها أثبت لنفسه استطاعه و قدره و لیست للعبد باستقلاله و حیال نفسه استطاعه دون اللّه سبحانه أتم ما فی کلامه من النقص و القصور بقوله:

«وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ» أی إن الذی یترشح من إرادتی باستطاعه منی من تدبیر أمور مجتمعکم و توفیق الأسباب بعضها ببعض الناتجه لسعادته إنما هو باللّه سبحانه لا غنی عنه و لا مخرج من إحاطته و لا استقلال فی امر دونه فهو الذی اعطانی ما هو عندی من الاستطاعه،و هو الذی یوفق الأسباب من طریق استطاعتی فاستطاعتی منه و توفیقی به (۲)(۳).

قوله تعالی: وَ یٰا قَوْمِ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شِقٰاقِی أَنْ یُصِیبَکُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ الجرم بالفتح فالسکون-علی ما ذکره الراغب-قطع الثمره عن الشجر و قد استعیر لکل اکتساب مکروه،و الشقاق المخالفه و المعاداه.و المعنی:احذروا أن یکتسب لکم مخالفتی و معاداتی بسبب ما أدعوکم الیه إصابه مصیبه مثل مصیبه قوم نوح و هی الغرق او قوم هود و هی الریح العقیم او قوم صالح و هی الصیحه و الرجفه.

و قوله: وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْکُمْ بِبَعِیدٍ ای لا فصل کثیرا بین زمانهم و زمانکم و قد کانت الفاصله الزمانیه بین القومین أقل من ثلاثه قرون،و قد کان لوط معاصرا لإبراهیم علیهما السّلام

ص: ۱۹۷

۱- ۱) .هود ۷۴-۹۵:کلام فی حکمه احکام اللّه.

۲- ۲) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی انه تعالی وکیل کل شیء.

۳- ۳) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی معنی حریه الانسان فی عمله.

و شعيب معاصرا لموسى عليهما السّلام.

و قيل:المراد به نفى البعد المكانىّ،و الإشاره الى أن بلادهم الخربه قريبه منكم لقرب مدين من سدوم و هو بالأرض المقدسه،فالمعنى:و ما كان قوم لوط منكم بعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقيه الظاهره.و السياق لا يساعد عليه و التقدير خلاف الأصل لا يصار اليه إلاّ بدليل.

قوله تعالى: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ قد تقدم الكلام فى معنى قوله: «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» اى استغفروا اللّه من ذنوبكم و ارجعوا اليه الإيمان به و برسوله إن اللّه ذو رحمه و مودّه يرحم المستغفرين التائبين و يحبّهم.

و قد قال أولا- «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» فأضاف الرب اليهم ثم قال فى مقام تعليله «إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ» و لعل الوجه فيه أنه ذكر فى مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من اللّه سبحانه صفه ربوبيته لأنها الصفه التى ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه،و أضاف ربوبيته اليهم بقوله: «رَبَّكُمْ» لتأكيد الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الارباب من دون اللّه.

و كان من حق الكلام ان يقول فى تعليله:إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلا ثناء على اللّه سبحانه،و قد أثبت سابقا انه رب القوم أضافه ثانيا الى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم و ربى رحيم ودود.

على ان فى هذه الإضافه معنى المعرفه و الخبره فتفيد تأييدا لصحه القول فإنه فى معنى انه تعالى رحيم ودود و كيف لا؟و هو ربى أعرفه بهذين الوصفين.

و الودود من أسماء اللّه تعالى،و هو فعول من الودّ بمعنى الحب إلاّ ان المستفاد من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذى له آثار و تبعات ظاهره كالالفه و المراوده و الإحسان،قال تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا

إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم۲۱/).

و اللّه سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوها (إبراهيم۳۴/)فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ وَ إِنّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً الى آخر الآيه؛الفقه أبلغ من الفهم و أقوى،و رهط الرجل عشيرته و قومه،و قيل:

إنه من الثلاثه الى السبعه او العشره و على هذا ففى قولهم:رهطك،إشاره الى قلتهم و هو ان امرهم،و الرجم هو الرمى بالحجاره.

لما حاجّهم شعيب عليه السّلام و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون ان يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجه فذكروا له:

أولا:ان كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له،و هذا كنايه عن أنه يتكلم بما لا فائده فيه.

ثم عقبه بقولهم: «وَ إِنّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» أى لا نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه،و السمع و القبول له فإنا لا نراك فينا إلاّ ضعيفا لا يعبأ بأمره و لا يلتفت الى قوله.

ثم هدّدوه بقولهم: «وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» اى و لو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعى جانبهم فيك،و فى تقليل العشيره إيماء الى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته،و إما كفّهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» تأكيدا لقولهم: «لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشرّ القتل،و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك.فمحصل قولهم إهانه شعيب و أنهم لا يعبئون به و لا بما قال،و إنما يراعون فى ترك

التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَكُمْ ظِهْرِيًّا الظهرى نسبه الى الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غيّر بالنسب و هو الشيء الذى وراء الظهر فيترك نسيا منسيّا يقال:اتخذه وراء ظهريّا اى نسيه و لم ذكره و لم يعتن به.

و هذا نقض من شعيب لقولهم: وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ اى كيف تعزّزون رهطى و تحترمون جانبهم،و لا تعززون اللّه سبحانه و لا تحترمون جانبه و إنى انا الذى أدعوكم اليه من جانبه؟فهل رهطى أعزّ عليكم من اللّه؟و قد جعلتموه نسيا منسيا و ليس لكم ذلك و ما كان لكم ان تفعلوه إن ربى بما تعملون محيط بما له من الإحاطه بكل شيء وجودا و علما و قدره.و فى الآيه طعن فى رأيهم بالسفه كما طعنوا فى الآيه السابقه فى رأيه بالهوان.

قوله تعالى: وَ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل.انتهى و هو فى الأصل.كما قيل-من مكن مكانه كضخم ضخامه إذا قوى على العمل كل القوه و يقال-تمكن من كذا أى أحاط به قوه.

و هذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بانه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق و لا اضطراب من كفرهم به و تمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوه و التمكن فلهم عملهم و له عمله فسوق يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذى يأخذه العذاب.و هو أو هو؟و يعلمون من هو كاذب؟فليرتقبوا و هو معهم رقيب لا يفارقهم.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْباً -الى قوله- جٰاثِمِينَ تقدم ما يتضح به معنى الآيه.

قوله تعالى: كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ غنى فى المكان إذا أقام فيه.و قوله: «أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ» الخ؛فيه لعنهم كما لعنت ثمود،و قد تقدم بعض

الکلام فیه فی القصص السابقه (۱).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۹۶ الی ۹۹]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ اَلنّٰارَ وَ بِئْسَ اَلْوِرْدُ اَلْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَهً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ بِئْسَ اَلرِّفْدُ اَلْمَرْفُودُ (۹۹)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ الباء فی قوله:

«بِآيٰاتِنٰا» للمصاحبه ای و لقد ارسلنا موسی مصحوبا لآیاتنا و ذلک أن الذین بعثهم اللّه من الأنبیاء و الرسل و أیدهم بالآیات المعجزه طائفتان منهم من أوتی الآیه المعجزه علی حسب ما اقترحه قومه کصالح علیه السّلام المؤید بآیه الناقه،و طائفه أیدوا بآیه من الآیات فی بدء بعثتهم کموسی و عیسی و محمّد علیهم السّلام،کما قال تعالی خطابا لموسی علیه السّلام: اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيٰاتِي (طه/۴۲)،و قال فی عیسی علیه السّلام: وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ الخ؛(آل عمران/۴۹)،و قال فی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلم: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ (الصف/۹)،و الهدی القرآن بدلیل قوله: ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً

ص: ۲۰۱

۱- ۱) .هود ۸۴-۹۵:کلام فی قصه شعیب و قومه فی القرآن فی فصول(هو علیه السّلام ثالث المرسل،شخصیته المعنویه،ذکره فی التوراه).

لِلْمُتَّقِينَ (البقره۲/)،و قال تعالى: وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أَنْزِلَ مَعَهُ (الأعراف۱۵۷/).

فموسى عليه السّلام مرسل مع آيات و سلطان مبين،و ظاهر أن المراد بهذه الآيات الامور الخارقه التى كانت تجرى على يده،و يدل على ذلك سياق قصصه عليه السّلام فى القرآن الكريم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحجه القاطعه التى يتسلط على العقول و الافهام فيعمّ الآيه المعجزه و الحجه العقليه،و على تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن اللّه سبحانه سلطه على الأوضاع الجاريه بينه و بين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذى ما ابتلى بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السّلام لكنّ اللّه تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه و جنوده و نجى بنى اسرائيل بيده،و يشعر بهذا المعنى قوله: قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغىٰ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرىٰ (طه۴۶/)،و قوله لموسى عليه السّلام: لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلىٰ (طه۶۸/).

و فى هذه الآيه و نظائرها دلاله واضحه على أن رساله موسى عليه السّلام ما كانت تختصّ بقومه من بنى اسرائيل بل كانت تعمّهم و غيرهم.

قوله تعالى: إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ نسبه رسالته الى فرعون و ملاه-و الملأ هم أشراف القوم و عظماؤهم الذين يملئون القلوب هيبه-دون جميع قومه لعلها للإشاره الى أن عامتهم لم يكونوا إلاّ أتباعا لا رأى لهم إلاّ ما رآه لهم عظماؤهم.

و قوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ الخ؛الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول و الفعل كما حكى اللّه عن فرعون فى قوله: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرىٰ وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن۲۹/)،فينطبق على السنّه و الطريقه التى كان يتخذها و يأمر

بها.و كأن الآيه محاذاه لقول فرعون هذا فكذّبه اللّه تعالى بقوله: «وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» .

و الرشـيد فعيل من الرشد خلاف الغىّ اى و ما أمر فرعون بذى رشد حتى يهدى الى الحق بل كان ذا غىّ و جهاله،و قيل:الرشـيد بمعنى المرشد.

و فى الجمله أعنى قوله: «وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» وضع الظـاهر موضع المضـمر و الأصـل «أمره»و لعل الفائـده فيه ما يفيـده اسـم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلك من الضمير البته.

قوله تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أى يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمه الضلال،قال تعالى: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّٰارِ (القصص/۴۱).

قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ تفريع على سابقه أى يقدمهم فيوردهم النار،و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع،و ربما قيل:تفريع على قوله: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أى اتبعوه فأوردهم الاتباع النار،و قـد اسـتدل لتأييـد هـذا المعنى بقوله: وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ (المؤمن/۴۶)حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبـل يوم القيامه هـذا،و لا يخفى ان الآيات ظاهره فى خلاف ما اسـتدل بها عليه لتعبيرها فى العـذاب قبل يوم القيامه بالعرض غدوّا و عشيّا،و فى يوم القيامه بالدخول فى أشد العذاب الذى سجل فيها أنه النار.

و قوله: وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ الورد هو الماء الـذى يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشـرب،قال الراغب فى المفردات:الورود أصـله قصـد المـاء ثم يسـتعمل فى غيره يقال:وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد و الماء مورود.و قـد أوردت الإبل الماء قال «وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود.انتهى.

و على هذا ففى الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التى يقصدها الإنسان فى الحياه لمساعيه المبذوله بالماء الذى يقصده العطشان فعذب السعاده التى يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده،و سعاده الإنسان الأخيره هى رضوان اللّه و الجنه و لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقه تبدلت غايتهم الى النار فكانت النار هو الورد الذى يردونه،و بئس الورد المورود،لأن الورد هو الذى يخمد لهيب الصدر و يروى الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل الى عذاب النار فبئس الورد المورود.

قوله تعالى: وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ أى هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعتهم لعنه من اللّه فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه،و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق،أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخره.

و قوله: وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ الرفد هو العطيه و الأصل فى معناه العون،و سميت العطيه رفدا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه،و المعنى و بئس الرفد رفدهم يوم القيامه و هو النار التى يسجرون فيها،و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر:

وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (القصص۴۲/).

و ربما أخذ «يَوْمَ الْقِيٰامَهِ» ظرفا فالآيه متعلقا بقوله: «أُتْبِعُوا» أو بقوله: «لَعْنَةً» نظير قوله: «فِي هٰذِهِ» ،و المعنى:و أتبعهم اللّه فى الدنيا و الآخره لعنه أو فأتبعهم اللّه لعنه الدنيا و الآخره ثم استؤنف فقيل:بئس الرفد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الاتباع باللعن.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۸]

اشاره

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْقُرىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمٰا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ اَلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذٰا أَخَذَ اَلْقُرىٰ وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ اَلْآخِرَهِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ اَلنّٰاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلاّٰ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴) يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا اَلَّذِينَ شَقُوا فَفِي اَلنّٰارِ لَهُمْ فِيهٰا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ اَلْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّٰالٌ لِمٰا يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي اَلْجَنَّهِ خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ اَلْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ عَطٰاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸)

بیان:

قوله تعالی: ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْقُریٰ نَقُصُّهُ عَلَیْکَ مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِیدٌ الإشاره الی ما تقدم من القصص،و من تبعیضیّه أی الذی قصصناه علیک هو بعض أخبار المدائن و البلاد أو أهلهم نقصه علیک.

و قوله: مِنْهٰا قٰائِمٌ وَ حَصِیدٌ الحصد قطع الزرع،شبّهها بالزرع یکون قائما و یکون حصیدا،و المعنی إن کان المراد بالقری نفسها أنّ من القری التی قصصنا أنباءها علیک ما هو

ص:۲۰۵

قائم لم تـذهب بقايا آثارها التى تـدلّ عليها بالمرّه كقرى قوم لوط حين نزول قصّـتهم فى القرآن كما قال: وَ لَقَدْ تَرَكْنٰا مِنْهٰا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (العنكبوت/۳۵)و قال:

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الصافات/۱۳۸)،و منها ما انمحت آثاره و انطمست أعلامه كقرى قوم نوح و عاد.

و إن كـان المراد بـالقرى أهلها فالمعنى أنّ من تلك الامم و الأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتّه كأمه نوح و صالـح،و منها من قطع اللّه دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلاّ أهل بيت لوط و لم يكن لوط منهم.

قوله تعالى: وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الى آخر الآيه؛أى ما ظلمناهم فى إنزال العذاب عليهم و إهلاكهم إثر شـركهم و فسوقهم و لكن ظلموا أنفسـهم حين أشـركوا و خرجوا عن زىّ العبوديّه،و كلمـا كـان عمـل و عقوبه عليه كان أحـدهما ظلما إمّا العمل و إما العقوبه عليه فإذا لم تكن العقوبه ظلما كان الظلم هو العمل استتبع العقوبه.

فمحصّـل القول أنّا عاقبناهم ظلمهم و لـذا عقبه بقوله: «فَمٰا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ» الـخ؛لأن محصّل النظم أخـذناهم فما أغنت عنهم آلهتهم،فالمفرّع عليه هو الذى يدل عليه قوله:

«وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ» الـخ؛و المعنى أخـذناهم فلم يكفهم فى ذلك آلهتهم التى كانوا يـدعونها من دون اللّه لتجلب اليهم الخير و تدفع عنهم الشرّ،و لم تغنهم شيئا لما جاء أمر ربّك و حكمه بأخذهم أو لمّا جاء عذاب ربّك.

و قوله: وَ مٰا زٰادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ التتبيب التدمير و الإهلاك من التبّ و أصـله القطع لأن عبادتهم الأصنام كان ذنبا مقتضيا لعذابهم و لمّا أحسّوا بالعـذاب و البؤس فالتجئوا الى الأصـنام و دعوها لكشـفه و دعاؤها ذنب آخر زاد ذلك فى تشديـد العذاب عليهم و تغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاك.

و نسبه التتبيب الى آلهتهم مجاز و هو منسوب فى الحقيقه الى دعائهم إيّاها،و هو عمل

قائم الحقيقه بالداعی لا بالمدعوّ.

قوله تعالی: وَ كَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذٰا أَخَذَ الْقُرىٰ وَ هِيَ ظٰالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ الإشاره الی ما تقدم من أنباء القری،و ذلک بعض مصادیق أخذه تعالی بالعقوبه قاس به مطلق أخذه القری فی أنّه ألیم شدید،و هذا من قبیل التشبیه الکلی ببعض مصادیقه فی الحکم للدلاله علی أن الحکم عام شامل لجمیع الأفراد و هو نوع من فنّ التشبیه شائع و قوله: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» بیان لوجه الشبه و هو الألم و الشدّه.

و المعنی کما أخذ اللّه سبحانه هؤلاء الامم الظالمه:قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعیب و قوم فرعون أخذا ألیما شدیدا،کذلک یأخذ سائر القری الظالمه إذا أخذها فلیعتبر بذلک المعتبرون.

قوله تعالی: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خٰافَ عَذٰابَ الْآخِرَةِ الی آخر الآیه؛ الإشاره الی ما أنبأه اللّه من قصص تلک القری الظالمه التی أخذها بظلمها أخذا ألیما شدیدا.

و أنبأ أن أخذه کذلک یکون،و فی ذلک آیه لمن خاف عذاب الحیاه الآخره،و علامه تدل علی أن اللّه سبحانه و تعالی سیأخذ فی الآخره المجرمین بإجرامهم،و إن أخذه سیکون ألیما شدیدا فیوجب اعتباره بذلک و تحرزه ممّا یستتبع سخط اللّه تعالی.

و قوله: ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ أی ذلک الیوم الذی یقع فیه عذاب الآخره یوم مجموع له الناس فالإشاره الی الیوم الذی یدل علیه ذکر عذاب الآخره،«و لذلک أتی بلفظ المذکر»کما قیل،و یمکن أن یکون تذکیر الإشاره لیطابق المبتدأ الخبر.

و وصف الیوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون ان یقال:سیجمع أو یجمع له الناس إنما هو للدلاله علی أن جمع الناس له من أوصافه المقضیه له التی تلزمه و لا تفارقه من غیر أن یحتاج الی الإخبار عنه بخبر.

فمشخّص هذا الیوم أن الناس مجموعون لأجله-و اللام للغایه-فللیوم شأن من الشأن

لاـ يتم إلاّـ بجمع النـاس بحيث لاـ يغـادر منهم أحـد و لاـ يتخلف عنه متخلف:و للنـاس شأن من الشأن يرتبط به كل واحـد منهم بالجميع،و يمتزج فيه الأول مع الآخر و الآخر مع الأول و يختلط فيه الكل بالبعض و البعض بالكلّ،و هو حساب أعمالهم من جهه الإيمان و الكفر و الطاعه و المعصيه،و بالجمله من حيث السعاده و الشقاوه.

و قوله: وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ كـالمتفرع بظاهره على الجمله السابقه «ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّٰاسُ» إذ الجمع يوجب المشاهـده غير أن اللفظ غير مقيـد بالناس و إطلاقه يشـعر بأنه مشـهود لكل من له أن يشـهد كالناس و الملائكه و الجن،و الآيات الكثيره الـداله على حشر الجن و الشياطين و حضور الملائكه هناك يؤيد إطلاق الشهاده كما ذكر.

قوله تعـالى: وَ مٰا نُؤَخِّرُهُ إِلاّٰ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى أن لـذلك اليوم أجلا قضـى اللّه أن لا يقع قبل حلول أجله و اللّه يحكم لا معقب لحكمه و لا رادّ لقضائه،و لا يؤخر اليوم إلاّ لأجل يعده فإذا تم العدد و حل الأجل حق القول و وقع اليوم.

قوله تعـالى: يَوْمَ يَأْتِ لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فاعل «يَأْتِ» ضـمير راجع الى الأجل السابق الـذكر أى يوم يأتى الأجل الـذى تؤخر القيامه اليه لا تتكلم نفس إلاّ بإذنه، قال تعالى: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ (العنكبوت۵/).

و ذكر بعضـهم كمـا فى المجمع أن المعنى يوم يـأتى القيـامه و الجزاء،و لاـزمه إرجـاع الضـمير الى القيامه و الجزاء لـدلاله سابق الكلام اليه بوجه،و هو تكلف لا حاجه اليه.

و ذكر آخرون-كما فى تفسير صاحب المنار-أن المعنى فى الوقت الذى يجىء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس النـاطقه إلاّـ بـإذن اللّه تعالى فالمراد باليوم فى الآيه مطلق الوقت أى غير المحـدود لأنه ظرف لليوم المحـدود الموصوف بما ذكر الذى هو فاعل يأتى.

و هو خطأ لاستلزامه ظرفيه اليوم لليوم لعود المعنى حقيقه الى قولنا:فى الوقت الـذى يجىء فيه ذلك الوقت المعيّن أو اليوم الذى يجىء فيه ذلك اليوم المعين،و التفرقه بين

الیومین یجعل أحدهما خاصا و معینا و الآخر عاما و مرسلا لا ینفع فی دفع محذور ظرفیه الشیء لنفسه و مظروفیه الزمان-و هو ظرف بذاته-لزمان آخر،و هو محال لا ینقلب ممکنا بتغییر اللفظ.

و ما ذکره من التفرقه بین الیومین بالاطلاق و التحدید مجرد تصویر لا تغنی شیئا فان الیوم الذی یأتی فیه ذلک الیوم الموصوف و ذلک الیوم الموصوف متساویان إطلاقا و تحدیدا و سعه و ضیقا،نعم ربما یؤخذ الزمان متحدا بما یقع فیه من الحوادث فیصیر حادثا من الحوادث و تلغی ظرفیته فیجعل مظروفا لزمان آخر کما یقال یوم الأضحی فی شهر ذی الحجه و یوم عاشوراء فی المحرم،قال تعالی: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ (الجاثیه۲۷/) فإن صحت هذه العنایه فی الآیه أمکن به أن یعود ضمیر یأتی الی الیوم.

و قوله: لاٰ تَکَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ أی لا تتکلم نفس ممن حضر إلاّ بإذن اللّه سبحانه،و حذف أحد التاءین المجتمعین فی المستقبل من باب التفعل شائع قیاسی.

و الباء فی قوله: بِإِذْنِهِ للمصاحبه فالاستثناء فی الحقیقه من الکلام لا من المتکلم کما فی قوله: لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ (النبأ۳۸/)و المعنی لا تتکلم نفس بشیء من الکلام إلاّ بالکلام الذی یصاحب إذنه لا کالدنیا یتکلم فیها الواحد منهم بما اختاره و أراده،أذن فیه اللّه إذن تشریع أم لم یأذن.

و قد ذکرت الصفه أعنی عدم تکلم نفس إلاّ بإذنه من خواص یوم القیامه المعرفه له، و لیست بمختصه به فإنه لا تتکلم أی نفس من النفوس و لا یحدث أی حادث من الحوادث دائما إلاّ بإذنه من غیر أن یختص ذلک بیوم القیامه (۱).

ص :۲۰۹

۱- ۱) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث فی زوال الستر و الحجاب و ظهور الحقائق یوم القیامه،معنی عدم تکلم الانسان یوم القیامه.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ قال فى المجمع:الزفير أول نهاق الحمار و الشهيق آخر نهاقه انتهى.و قال فى الكشاف:الزفير إخراج النفس و الشهيق رده انتهى.و قال الراغب فى المفردات،الزفير تردد النفس حتى ينتفخ الضلوع منه.و قال:الشهيق طول الزفير و هو رده و الزفير مده،قال تعالى «لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ» «سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً» و قال «سَمِعُوا لَها شَهِيقاً» و أصله من جبل شاهق أى متناهى الطول.انتهى.

و المعانى-كما ترى-متقاربه و كأن فى الكلام استعاره،و المراد أنهم يردون أنفاسهم الى صدورهم ثم يخرجونها فيمدونها برفع الصوت بالبكاء و الأنين من شده حر النار و عظم الكربه و المصيبه كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه.

و كان الظاهر من سياق قوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» أن يقال بعده:فأما الذى شقى ففى النار له فيها زفير و شهيق،الخ؛لكن السياق السابق عليه الذى افتتح به وصف يوم القيامه أعنى قوله: «ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» مبنى على الكثره و الجماعه، و مقتضاها المضى على هيئه الجمع:الذين شقوا و الذين سعدوا،و إما عبر بقوله:شقى و سعيد لما قيل قبله «لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ» فاختير المفرد المنكر ليفيد النفى بذلك الاستغراق و العموم فلما حصل الغرض بقوله: «لاٰ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» عاد السياق السابق المبنى على الكثره و الجماعه فقيل «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا» بلفظ الجمع الى آخر الآيات الثلاث.

قوله تعالى: خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّٰالٌ لِمٰا يُرِيدُ .بيان لمكث أهل النار فيها كما أن الآيه التاليه «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّهِ خٰالِدِينَ فِيهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّكَ عَطٰاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» بيان لمكث أهل الجنه فيها و تأييد لاستقرارهم فى مأواهم.

قال الراغب فی المفردات:الخلود هو تبری الشیء من اعتراض الفساد و بقاؤه علی الحاله التی هو علیها،و کل ما یتباطأ عنه التغییر و الفساد یصفه العرب بالخلود کقولهم للأثافی (1):خوالد و ذلک لطول مکثها لا لدوام بقائها یقال:خلد یخلد خلودا،قال تعالی «لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» و الخلد-بالفتح فالسکون-اسم للجزء الذی یبقی من الانسان علی حالته فلا یستحیل ما دام الانسان حیا استحاله سائر اجزائه،و أصل المخلد الذی یبقی مده طویله،و منه قیل:رجل مخلد لمن أبطأ عن الشیب،و دابه مخلده هی التی تبقی ثنایاها حتی تخرج رباعیتها ثم استعیر للمبقی دائما.

و الخلود فی الجنه بقاء الأشیاء علی الحاله التی علیها من غیر اعتراض الفساد علیها قال تعالی: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِیهٰا .

و قوله تعالی: یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ قیل:مبقون بحالتهم لا یعتریهم الفساد،و قیل:مقرطون بخلده،و الخلده ضرب من القرطه،و إخلاد الشیء جعله مبقی و الحکم علیه بکونه مبقی،و علی هذا قوله سبحانه: «وَ لٰکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ» أی رکن إلیها ظانا أنه یخلد فیها.انتهی.

و قوله: مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ نوع من التقیید یفید تأکید الخلود و المعنی دائمین فیها دوام السماوات و الأرض لکن الآیات القرآنیه ناصه علی أن السماوات و الأرض لا تدوم دوام الأبد و هی مع ذلک ناصه علی بقاء الجنه و النار بقاء لا الی فناء و زوال.

و من الآیات الناصه علی الأول قوله تعالی: مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی (الأحقاف۳/)،و قوله: یَوْمَ نَطْوِی السَّمٰاءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ

ص:۲۱۱

۱- ۱) .الأثافی،جمع الأثفیه بضم الهمزه و هی الحجر الذی توضع علیه القدر و هما أثفیتان.

كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنّا كُنّا فاعِلِينَ (الأنبياء۱۰۴/)،و قوله:

وَ السَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر۶۷/)،و قوله: إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (الواقعه۶/).

و منها في النص على الثاني قوله: جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (التغابن۹/)،و قوله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (الأحزاب۶۵/) (۱)(۲).

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۹]

اشاره

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى اَلْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ كُلاًّ لَمّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۲) وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ اَلنّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۱۱۳) وَ أَقِمِ اَلصَّلاةَ طَرَفَيِ اَلنَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اَللَّيْلِ إِنَّ اَلْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ اَلسَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذّاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اِصْبِرْ فَإِنَّ اَللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۱۱۵) فَلَوْ لا كانَ مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ اَلْفَسادِ فِي اَلْأَرْضِ إِلاّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اِتَّبَعَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ اَلْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (۱۱۷) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ اَلنّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ اَلْجِنَّةِ وَ اَلنّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹)

۱- ۱) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث حول الخلود فی الآخره.

۲- ۲) .هود ۱۰۰-۱۰۸:بحث روائی فی:السعاده و الشقاوه،الخلود فی الجنه و النار.

بیان:

قوله تعـالی: فَلاٰ تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِمّٰا یَعْبُدُ هٰؤُلاٰءِ مٰا یَعْبُدُونَ إِلاّٰ کَمٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُهُمْ الـخ؛تفریع لما تقـدم من تفصـیل قصـص الامم الماضـیه التی ظلموا أنفسـهم باتخـاذ الشـرکاء و الفسـاد فی الأرض فأخـذهم اللّه بالعـذاب،و المشار الیهم بقوله: «هٰؤُلاٰءِ» هم قوم النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم،و قوله: «مٰا یَعْبُدُونَ إِلاّٰ کَمٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُهُمْ» أی إنهم یعبدونها تقلیدا کآبائهم فالآخرون یسـلکون الطریق الذی سلکه الأولون من غیر حجه،و المراد بنصیبهم ما هو حظهم قبال شرکهم و فسقهم.

و قوله: غَیْرَ مَنْقُوصٍ حـال من النصـیب و فیه تأکیـد لقوله: «لَمُوَفُّوهُمْ» فـإن التوفیه تـأدیه حق الغیر بالتمـام و الکمـال،و فیه إیئـاس الکافرین من العفو الإلهی.

و معنی الآیه:فإذا سمعت قصص الأولین و أنهم کانوا یعبدون آلهه من دون اللّه و یکذبون

ص :۲۱۳

بآياته،و علمت سنه اللّه تعالی فیهم و أنها الهلاک فی الدنیا و المصیر الی النار الخالده فی الآخره لا تکن فی شک و مریه من عباده هؤلاء الذین هم قومک ما یعبدون إلاّ کعباده آبائهم علی التقلید من غیر حجه و لا بینه،و إنا سنعطیهم ما هو نصیبهم من جزاء أعمالهم من غیر أن ننقص من ذلک شیئا بشفاعه أو عفو کیفما کان.

و یمکن أن یکون المراد بآبائهم،الامم الماضیه الهالکه دون آباء العرب بعد إسماعیل مثلا و ذلک أن اللّه سماهم آباء لهم أولین کما فی قوله: أَ فَلَمْ یَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جٰاءَهُمْ مٰا لَمْ یَأْتِ آبٰاءَهُمُ الْأَوَّلِینَ (المؤمنون۶۸/)و هذا أنسب و أحسن و المعنی-علی هذا-فلا تکن فی شک من عباده قومک ما یعبد هؤلاء إلاّ کمثل عباده أولئک الامم الهالکه الذین هم آباؤهم،و لا شک أنا سنعطیهم حظهم من الجزاء کما فعلنا ذلک بآبائهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسَی الْکِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لاٰ کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ لما کانت هذه الآیات مسوقه للاعتبار بالقصص المذکوره فی السوره،و کانت القصص نفسها سردت لیتعظ بها القوم و یقضوا بالحق فی اتخاذهم شرکاء للّه سبحانه،و تکذیبهم بآیات اللّه و رمی القرآن بأنه افتراء علی اللّه تعالی.

تعرض فی هذه الآیات-المسوقه للاعتبار-لأمر اتخاذهم الآلهه و تکذیب القرآن فذکر تعالی أن عباده القوم للشرکاء کعباده أسلافهم من الامم الماضیه لها و سینالهم العذاب کما نال أسلافهم و أن اختلافهم فی کتاب اللّه کاختلاف أمه موسی علیه السّلام فیما آتاه اللّه من الکتاب و أن سیقضی بینهم فیما اختلفوا فیه،فقوله: «وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسَی الْکِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ» إشاره الی اختلاف الیهود فی التوراه بعد موسی.

و قوله: وَ لَوْ لاٰ کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ کرر سبحانه فی کتابه ذکر أن اختلاف الناس فی أمر الدنیا أمر فطروا علیها لکن اختلافهم فی أمر الدین لا منشأ له إلاّ

البغى بعد ما جاءهم العلم،قال تعالى: وَ مَا كانَ النّاسُ إِلاّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (يونس/ ١٩)،و قال: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (آل عمران١٩/)،و قال: كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (البقره٢١٣/).

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ الإرابه إلقاء الشک فی القلب،فتوصیف الشک بالمریب من قبیل قوله: «ظِلاًّ ظَلِيلاً» و «حِجاباً مَسْتُوراً» و «حِجْراً مَحْجُوراً» و غیر ذلک،و یفید تأکدا لمعنی الشک.

و الظاهر أن مرجع الضمیر فی قوله: «وَ إِنَّهُمْ» امه موسی و هم الیهود،و حق لهم أن یشکوا فیه فإن سند التوراه الحاضره ینتهی الی ما کتبه لهم رجل من کهنتهم یسمی عزراء عند ما أرادوا أن یرجعوا من بابل بعد انقضاء السبی الی الأرض المقدسه،و قد أحرقت التوراه قبل ذلک بسنین عند إحراق الهیکل فانتهاء سندها الی واحد یوجب الریب فیها طبعا و نظیرها الإنجیل من جهه سنده.

قوله تعالی: وَ إِنَّ کُلاًّ لَمّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ لفظه إن هی المشبهه بالفعل و اسمها قوله: «کُلًّا» منونا مقطوعا عن الإضافه و التقدیر کلهم أی المختلفین،و خبرها قوله: «لَيُوَفِّيَنَّهُمْ» و اللام و النون لتأکید الخبر،و قوله: «لَمّا» مؤلف من لام تدل علی القسم و ما مشدده تفصل بین اللامین،و تفید مع ذلک تأکیدا،و جواب القسم محذوف یدل علیه خبر إن.

و المعنی-و اللّه أعلم-و إن کل هؤلاء المختلفین أقسم لیوفینهم و یعطینهم ربک أعمالهم أی جزاءها إنه بما یعملون من أعمال الخیر و الشر خبیر.

و نقل فی روح المعانی عن أبی حیان عن ابن الحاجب أن «لَمّا» فی الآیه هی ما الجازمه

و حذف مدخولها شائع فی الاستعمال یقال:خرجت و لما،و سافرت و لما.ثم قال:و الاولی علی هذا أن یقدر:لما یوفوها أی و إن کلا منها لما یوفوا أعمالهم لیوفیّنهم ربک إیاها.و هذا وجه وجیه.

قوله تعالی: فَاسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ یقال:قام کذا و ثبت و رکز بمعنی واحد کما ذکره الراغب و غیره،و الظاهر أن الأصل المأخوذ به فی ذلک قیام الإنسان و ذلک أن الإنسان فی سائر حالاته و أوضاعه غیر القیام کالقعود و الانبطاح و الجثو و الاستلقاء و الانکباب لا یقوی علی جمیع ما یرومه من الأعمال کالقبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر ما الإنسان مهیمن علیه بالطبع لکنه إذا قام علی ساقه قیاما کان علی أعدل حالاته الذی یسلطه علی عامه أعماله من ثبات و حرکه و أخذ و رد و إعطاء و منع و جلب و دفع،و ثبت مهیمنا علی ما عنده من القوی و أفعالها،فقیام الإنسان یمثل شخصیته الإنسانیه بماله من الشئون.

ثم استعیر فی کل شیء لأعدل حالاته الذی یسلط معه علی آثاره و أعماله فقیام العمود أن یثبت علی طوله،و قیام الشجر أن یرکز علی ساقه متعرقا بأصله فی الأرض،و قیام الإناء المحتوی علی مائع أن یقف علی قاعدته فلا یهراق ما فیه و قیام العدل أن ینبسط علی الارض،و قیام السنه و القانون أن تجری فی البلاد.

و الإقامه جعل الشیء قائما أی جعله بحال یترتب علیه جمیع آثاره بحیث لا یفقد شیئا منها کإقامه العدل و إقامه السنه و إقامه الصلاه و إقامه الشهاده،و إقامه الحدود،و إقامه الدین و نحو ذلک.

و الاستقامه طلب القیام من الشیء و استدعاء ظهور عامه آثاره و منافعه فاستقامه الطریق اتصافه بما یقصد من الطریق کالاستواء و الوضوح و عدم إضلاله من رکبه،و استقامه الإنسان فی أمر أن یطلب من نفسه القیام به و إصلاحه بحیث لا یتطرق الیه فساد و لا نقص،

و یأتی تاما کاملا،قال تعالی: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحیٰ إِلَیَّ أَنَّمٰا إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِیمُوا إِلَیْهِ (حم السجده۶/)أی قوموا بحق توحیده فی الوهیته،و قال: إِنَّ الَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا (حم السجده۳۰/)أی ثبتوا علی ما قالوا فی جمیع شئون حیاتهم لا یرکنون فی عقائدهم و أخلاقهم و أعمالهم إلاّ الی ما یوافق التوحید و یلائمه أی یراعونه و یحفظونه فی عامه ما یواجههم فی باطنهم و ظاهرهم.و قال: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً (الروم۳۰/)فإن المراد بإقامه الوجه إقامه النفس من حیث تستقبل العمل و تواجهه،و إقامه الإنسان نفسه فی أمر هی استقامته فیه فافهم.

فقوله: فَاسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ أی کن ثابتا علی الدین موفیا حقه طبق ما أمرت بالاستقامه،و قد أمر به فی قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (یونس۱۰۵/)،و قوله: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِی فَطَرَ النّٰاسَ عَلَیْهٰا لاٰ تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (الروم۳۰/).

و قوله: وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ عطف علی الضمیر المستکن فی «فَاسْتَقِمْ» أی استقم أنت و من تاب معک أی استقیموا جمیعا و إنما أخرج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من بینهم و افرده بالذکر معه تشریفا لمقام النبوه،و علی ذلک تجری سنته تعالی فی کلامه کقوله تعالی: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره۲۸۵/)و قوله: یَوْمَ لاٰ یُخْزِی اللّٰهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم۸/).

علی أن الأمر الذی تقید به قوله: «فَاسْتَقِمْ» أعنی قوله: «کَمٰا أُمِرْتَ» یختص بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لا یشارکه فیه غیره فإن ما ذکر من مثل قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ» الخ؛ خاص به فلو قیل:فاستقیموا لم یصح تقییده بالأمر السابق.

و المراد بمن تاب مع النبی المؤمنون الذین رجعوا الی اللّه بالإیمان و إطلاق التوبه علی أصل الإیمان-و هو رجوع من الشرک- کثیر الورود فی القرآن کقوله تعالی: وَ یَسْتَغْفِرُونَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن/۷)الی غیر ذلک.

و قوله: وَ لا تَطْغَوْا أی لا تتجاوزوا حدکم الذی خطته لکم الفطره و الخلقه و هو العبودیه للّه وحده کما تجاوزه الذین قبلکم فأفضاهم الی الشرک و ساقهم الی الهلکه، و الظاهر أن الطغیان بهذا المعنی مأخوذ من طغی الماء إذا جاوز حده،ثم استعیر لهذا الأمر المعنوی الذی هو طغیان الإنسان فی حیاته لتشابه الأثر و هو الفساد.

و قوله: إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ تعلیل لمضمون ما تقدمه،و معنی الآیه اثبت علی دین التوحید و الزم طریق العبودیه من غیر تزلزل و تذبذب،و لیثبت الذین آمنوا معک،و لا تتعدوا الحد الذی حد لکم لأن اللّه بصیر بما تعملون فیؤاخذکم لو خالفتم أمره.

و فی الآیه الکریمه من لحن التشدید ما لا یخفی فلا یحس فیها بشیء من آثار الرحمه و أمارات الملاطفه و قد تقدمها من الآیات ما یتضمن من حدیث مؤاخذه الامم الماضیه و القرون الخالیه بأعمالهم و استغناء اللّه سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس و تطیر القلوب.

غیر ما فی قوله: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ من إفراد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالذکر و إخراجه من بین المؤمنین تشریفا لمقامه لکن ذلک یفید بلوغ التشدید فی حقه فإن تخصیصه قبلا بالذکر یوجب توجه هول الخطاب و روع التکلیم من مقام العزه و الکبریاء الیه وحده عدل ما یتوجه الی جمیع الامه الی یوم القیامه کما وقع نظیر التشدید فی قوله تعالی: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ (الإسراء/۷۵).

و لذلک ذکر أکثر المفسرین أن قوله علیه السّلام:«شیبتنی سوره هود»ناظر الی هذه الآیه، و سیوافیک الکلام فیه فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

قوله تعالی: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللّهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ قال فى الصحاح:ركن اليه كنصر،ركونا:مال و سكن،و الركن بالضم الجانب الأقوى.و الأمر العظيم و العز و المنعه انتهى و عن لسان العرب مثله،و عن المصباح أن الركون هو الاعتماد على الشىء.

و قال الراغب:ركن الشىء جانبه الذى يسكن اليه،و يستعار للقوه،قال تعالى: لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ و ركنت الى فلان أركن بالفتح و الصحيح أن يقال:

ركن يركن-كنصر-و ركن يركن-كعلم-قال تعالى «وَ لاٰ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و ناقه مركنه الضرع له أركان تعظمه و المركن الإجابه،و أركان العبادات جوانبها التى عليها مبناها،و بتركها بطلانها.انتهى و هذا قريب مما ذكره فى المصباح.

و الحق أنه الاعتماد على الشىء عن ميل اليه لا مجرد الاعتماد فحسب و لذلك عدى بإلى لا بعلى و ما ذكره أهل اللغه تفسير له بالأعم من معناه على ما هو دأبهم.

فالركون الى الذين ظلموا هو نوع اعتماد عليهم عن ميل اليهم إما فى نفس الدين كأن يذكر بعض حقائقه بحيث ينتفعون به أو يغمض عن بعض حقائقه التى يضرهم إفشاؤها، و إما فى حياه دينيه كأن يسمح لهم بنوع من المداخله فى إداره امور المجتمع الدينى بولايه الامور العامه أو الموده التى تفضى الى المخالطه و التأثير فى شئون المجتمع أو الفرد الحيويه.

و بالجمله الاقتراب فى أمر الدين أو الحياه الدينيه من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد و الاتكاء يخرج الدين أو الحياه الدينيه عن الاستقلال فى التأثير و يغيرهما عن الوجهه الخالصه،و لازم ذلك السلوك الى الحق من طريق الباطل أو إحياء حق بإحياء باطل و بالأخره إماته الحق لإحيائه.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا أنه تعالى جمع فى خطابه فى هذه الآيه الذى هو من تتمه الخطاب فى الآيه السابقه بين النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بين المؤمنين من أمته،و الشئون التى له و لامته

هی المعارف الدینیه و الأخلاق و السنن الإسلامیه فی تبلیغها و حفظها و إجرائها و الحیاه الاجتماعیه بما یطابقها،و ولایه امور المجتمع الإسلامی،و انتحال الفرد بالدین و استنانه بسنه الحیاه الدینیه فلیس للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و لا لامته أن یرکنوا فی شیء من ذلک الی الذین ظلموا.

علی أن من المعلوم أن هاتین الآیتین کالنتیجه المأخوذه من قصص القری الظالمه التی أخذهم اللّه بظلمهم و هما متفرعتان علیها ناظرتان إلیها،و لم یکن ظلم هؤلاء الامم الهالکه و فی شرکهم باللّه تعالی و عباده الأصنام فحسب بل کان مما ذمه اللّه من فعالهم اتباع الظالمین و الفساد فی الارض بعد إصلاحها و هو الاستنان بالسنن الظالمه التی یقیمها الولاه الجائرون،و یستن بها الناس و هم بذلک ظالمون.

و من المعلوم أیضا أن الآیتین مترتبتان فی غرضهما فالاولی تنهی عن أن یکونوا من اولئک الذین ظلموا،و الثانیه تنهی أن یقتربوا منهم و یمیلوا الیهم و یعتمدوا (1)فی حقهم علی باطلهم فقوله: «وَ لاٰ تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا» نهی عن المیل الیهم و الاعتماد علیهم و البناء علی باطلهم فی أمر أصل الدین و الحیاه الدینیه جمیعا.

و وقوع الآیتین موقع النتیجه المتفرعه علی ما تقدم من القصص المذکوره یفید أن المراد بالذین ظلموا فی الآیه لیس من تحقق منه الظلم تحققا ما و إلاّ لعم جمیع الناس إلاّ أهل العصمه و لم یبق للنهی حینئذ معنی،و لیس المراد بالذین ظلموا الظالمین أی المتلبسین بهذا الوصف المستمرین فی ظلمهم فإن لإفاده الفعل الدال علی مجرد التحقق معنی الصفه الداله علی التلبس و الاستمرار أسبابا لا یوجد فی المقام منها شیء و لا دلاله لشیء علی شیء جزافا.

۱- ۱) .ای أن یتوسلوا فی اجراء الحق بین أنفسهم بالوسیله الباطله التی عند اعداء الدین من الظالمین.

بل المراد بالذين ظلموا اناس حالهم فی الظلم حال اولئک الذین قصهم اللّه فی الآیات السابقه من الامم الهالکه،و کان الشأن فی قصتهم أنه تعالی أخذ الناس جمله واحده فی قبال الدعوه الإلهیه المتوجهه الیهم ثم قسمهم الی من قبلها منهم و الی من ردها ثم عبر عمّن قبلها بالذین آمنوا فی بضعه مواضع من القصص المذکوره و عمن ردها بالذین ظلموا و ما یقرب منه فی أکثر من عشر مواضع کقوله: وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا و قوله:

وَ أَخَذَتِ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ و قوله: وَ تِلْکَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ کُلِّ جَبّٰارٍ عَنِیدٍ و قوله: أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ و قوله: أَلاٰ بُعْداً لِمَدْیَنَ کَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ الی غیر ذلک (۱).

قوله تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ طَرَفَیِ النَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ إِنَّ الْحَسَنٰاتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئٰاتِ الخ؛طرفا النهار هو الصباح و المساء،و الزلف جمع زلفی کقرب جمع قربی لفظا و معنی علی ما قیل،و هو وصف ساد مسد موصوفه کالساعات و نحوها،و التقدیر و ساعات من اللیل أقرب من النهار.

و المعنی أقم الصلاه فی الصلاح و المساء و فی ساعات من اللیل هی أقرب من النهار، و ینطبق من الصلوات الخمس الیومیه علی صلاه الصبح و العصر و هی صلاه المساء و المغرب و العشاء الآخره،وقتهما زلف من اللیل کما قاله بعضهم،أو علی الصبح و المغرب و وقتهما طرفا النهار و العشاء الآخره و وقتها زلف من اللیل کما قاله آخرون،و قیل غیر ذلک.

لکن البحث لما کان فقیها کان المتبع فیه ما ورد عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل بیته علیهم السّلام من البیان،و سیجیء فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و قوله: إِنَّ الْحَسَنٰاتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئٰاتِ تعلیل لقوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ» و بیان أن

۱- ۱) .هود ۱۰۹-۱۱۹:بحث فی معنی الرکون الی الذین ظلموا.

الصلوات حسنات وارده على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصى و هى ما تعتريها من السيئات،و قد تقدم كلام فى هذا الباب فى مسأله الحبط فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و قوله: ذلِكَ ذِكْرى لِلذّاكِرِينَ أى هذا الذى ذكر و هو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعه قدره تذكار للمتلبسين بذكر اللّه تعالى من عباده.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ثم أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالصبر بعد ما أمره بالصلاه كما جمع بينهما فى قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ (البقره۴۵/)و ذلک أن كلا منهما فى بابه من أعظم الأركان أعنى الصلاه فى العبادات، و الصبر فى الأخلاق و قد قال تعالى فى الصلاه: وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت۴۵/)و قال فى الصبر: إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى۴۳/).

و اجتماعهما أحسن وسيله يستعان بها على النوائب و المكاره فالصبر يحفظ النفس عن القلق و الجزع و الانهزام،و الصلاه توجهها الى ناحيه الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكاره،و قد تقدم بيان فى ذلک فى تفسير الآيه ۴۵ من سوره البقره فى الجزء الأول من الكتاب.

و إطلاق الإمر بالصبر يعطى أن المراد به الأعم من الصبر على العباده و الصبر عن المعصيه و الصبر عند النائبه،و على هذا يكون أمرا بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر و النواهى أعنى قوله: «فَاسْتَقِمْ» «وَ لا تَطْغَوْا» «وَ لا تَرْكَنُوا» «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ» .

لكن إفراد الأمر و تخصيصه بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يفيد أنه صبر فى أمر يختص به و إلاّ قيل «وَ اصْبِرُوا» جريا على السياق،و هذا يؤيد قول من قال:إن المراد اصبر على أذى قومک فى طريق دعوتک الى اللّه سبحانه و ظلم الظالمين منهم،و أما قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ» فإنه ليس أمرا بما يخصه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الصلاه بل أمر بإقامته الصلاه بمن تبعه من المؤمنين جماعه فهو أمر لهم جميعا بالصلاه فافهم ذلک.

و قوله: فَإِنَّ اللّهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ تعليل للأمر بالصبر.

قوله تعالى: فَلَوْ لاٰ كٰانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسٰادِ فِي الْأَرْضِ الخ؛لو لا بمعنى هلا و ألا يفيد التعجيب و التوبيخ،و المعنى هلا كان من القرون التى كانت من قبلكم و قد أفنيناها بالعذاب و الهلاك اولو بقيه أى قوم باقون ينهون عن الفساد فى الأرض ليصلحوا بذلك فيها و يحفظوا امتهم من الاستئصال.

و قوله: إِلاّٰ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنٰا مِنْهُمْ استثناء من معنى النفى فى الجمله السابقه فإن المعنى:من العجب أنه لم يكن من القرون الماضيه مع ما رأوا من آيات اللّه و شاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد فى الأرض إلاّ قليلا ممن أنجينا من العذاب و الهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

و قوله: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كٰانُوا مُجْرِمِينَ بيان حال الباقى منهم بعد الاستثناء و هم أكثرهم و عرّفهم بأنهم الذين ظلموا و بين أنهم اتبعوا لذائذ الدنيا التى اترفوا فيها و كانوا مجرمين.

و قد تحصل بهذا الاستثناء و هذا الباقى الذى ذكر حالهم تقسيم الناس الى صنفين مختلفين:الناجون بإنجاء اللّه و المجرمون و لذلك عقبه بقوله: «وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» .

قوله تعالى: وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا مُصْلِحُونَ أى لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التى أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم و لا يظلم ربك أحدا فقوله: «بِظُلْمٍ» قيد توضيحى لا احترازى،و يفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحه لكونه من الظلم «وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» .

قوله تعالى: وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّٰاسَ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لاٰ يَزٰالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ -الى قوله- أَجْمَعِينَ الخلف خلاف القدام و هو الأصل فيما اشتق من

هـذه الماده من المشـتقات يقال:خلف أباه أى سـد مسـده لوقوعه بعـده،و أخلف وعـده أى لم يف به كأنه جعله خلفه،و مات و خلف ابنا أى تركه خلفه،و اسـتخلف فلانا أى طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العنايه كاستخلاف اللّه تعالى آدم و ذريته فى الأـرض،و خـالف فلاـن فلانا و تخالفا إذا تفرقا فى رأى أو عمل كأن كلا منهما يجعل الآخر خلفه،و تخلف عن أمره إذا أدبر و لم يـأتمر به،و اختلف القوم فى كـذا إذا خـالف بعضـهم بعضا فيه فجعله خلفه،و اختلف القوم الى فلان إذا دخلوا عليه واحدا بعد واحد،و اختلف فلان الى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحده بعد اخرى.

ثم الاختلاـف و يقـابله الاتفـاق من الاـمور التى لاـ يرتضـيها الطبع السـليم لما فيه من تشتيت القوى و تضـعيفها و آثار اخرى غير محموده من نزاع و مشـاجره و جـدال و قتال و شـقاق كل ذلك يـذهب بالأمن و السـلام غير أن نوعا منه لا مناص منه فى العالم الإنسـانى و هو الاختلاـف من حيث الطبـائع المنتهيه الى اختلاـف البنى فإن التركيبات البـدنيه مختلفه فى الأفراد و هو يؤدى الى اختلاـف الاسـتعدادات البـدنيه و الروحيه و بانضـمام اختلاـف الأـجواء و الظروف الى ذلـك يظهر اختلاف السـلائق و السـنن و الآداب و المقاصـد و الأعمال النوعيه و الشخصـيه فى المجتمعات الإنسانيه،و قد أوضـحت الأبحاث الاجتماعيه أن لو لا ذلك لم يعش المجتمع الإنسانى و لا طرفه عين (۱).

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ أى حقت كلمته تعالى و أخـذت مصـداقها منهم بما ظلموا و اختلفوا فى الحق من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم،و الكلمه هى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ.

و الآيه نظيره قوله: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

ص :۲۲۴

۱- ۱) .هود ۱۰۹-۱۱۹:بحث فى:اختلاف فى الطبائع،اختلاف فى الدين.

مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده/١٣)و الأصل فی هذه الکلمه ما ألقاه اللّه تعالی الی إبلیس لعنه اللّه إذ قال: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قٰالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/٥٨)و الآیات متحده المضمون یفسر بعضها بعضا (١).

[سوره هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

اشاره

وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ جٰاءَكَ فِي هٰذِهِ اَلْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ اِعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ (١٢١) وَ اِنْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلّٰهِ غَيْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ اَلْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

بيان:

قوله تعالی: وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ الی آخر الآیه أی و کل القصص نقص علیک تفصیلا أو إجمالاو قوله: «مِنْ أَنْبٰاءِ الرُّسُلِ» بیان لما اضیف الیه کل،و قوله: «مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ» عطف بیان للأنباء اشیر به الی فائده القصص بالنسبه الیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو تثبیت فؤاده و حسم ماده القلق و الاضطراب منه.

و المعنی نقص علیک أنباء الرسل لنثبت به فؤادک و نربط جأشک فی ما أنت علیه من

---

١ – ١) .هود ١٠٩–١١٩:بحث روائی حول معنی الرکون الی الذین ظلموا؛الصلوات الخمس الیومیه؛ان الحسنات یذهبن السیئات؛اهلاک القری؛الاختلاف فی الدین.

سلوک سبیل الدعوه الی الحق،و النهضه علی قطع منابت الفساد،و المحنه من أذی قومک.

ثم ذکر تعالی من فائده السوره ما یعمه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و قومه مؤمنین و کافرین فقال فیما یرجع الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من فائده نزول السوره «وَ جٰاءَکَ فِی هٰذِهِ الْحَقُّ» و الإشاره الی السوره أو الی الآیات النازله فیها أو الأنباء علی وجه،و مجیء الحق فیها هو ما بین اللّه تعالی فی ضمن القصص و قبلها و بعدها من حقائق المعارف فی المبدإ و المعاد و سنته تعالی الجاریه فی خلقه بإرسال الرسل و نشر الدعوه ثم إسعاد المؤمنین فی الدنیا بالنجاه،و فی الآخره بالجنه،و إشقاء الظالمین بالأخذ فی الدنیا و العذاب الخالد فی الآخره.

و قال فیما یرجع الی المؤمنین «وَ مَوْعِظَهٌ وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ» فإن فیما ذکر فیها من حقائق المعارف تذکره للمؤمنین یذکرون بها ما نسبوه من علوم الفطره فی المبدإ و المعاد و ما یرتبط بهما،و فیما ذکر فیها من القصص و العبر موعظه یتعظون بها.

قوله تعالی: وَ قُلْ لِلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ و هذا فیما یرجع الی غیر المؤمنین یأمر نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یختم الحجاج معهم و یقطع خصامهم بعد ما تلا القصص علیهم بهذه الجمل فیقول لهم:أما إذا لم تؤمنوا و لم تنقطعوا عن الشرک و الفساد بما ألقیت الیکم من التذکره و العبر و لم تصدقوا بما قصه اللّه من أنباء الامم و أخبر به من سنته الجاریه فیهم فاعملوا علی ما أنتم علیه من المکانه و المنزله،و بما تحسبونه خیرا لکم إنا عاملون،و انتظروا ما سیستقبلکم من عاقبه عملکم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النبإ الإلهی و کذبه.

و هذا قطع للخصام و نوع تهدید أورده اللّه فی القصص الماضیه قصه نوح و هود و صالح علیهم السّلام،و فی قصه شعیب علیه السّلام حاکیا عنه وَ یٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ مَنْ هُوَ کٰاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّی مَعَکُمْ رَقِیبٌ (آیه ۹۳ من السوره).

قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ لما كان أمره تعالی نبيه صلّی اللّه عليه و آله و سلم أن يأمرهم بالعمل بما تهوی أنفسهم و الانتظار،و إخبارهم بأنه و من آمن معه عاملون و منتظرون،فی معنی أمره و من تبعه بالعمل و الانتظار عقبه بهاتين الجملتين ليكون علی طيب من النفس و ثبات من القلب من أن الدائره ستكون له عليهم.

و المعنی فاعمل و انتظر أنت و من تبعك فغيب السماوات و الأرض الذی يتضمن عاقبه أمرك و أمرهم إنما يملكه ربك الذی هو اللّه سبحانه دون آلهتهم التی يشركون بها و دون الأسباب التی يتوكلون عليها حتی يديروا الدائره لأنفسهم و يحولوا العاقبه الی ما ينفعهم، و الی ربك الذی هو اللّه يرجع الأمر كله فيظهر من غيبه عاقبه الأمر علی ما شاءه و أخبر به، فالدائره لك عليهم،و هذا من عجيب البيان.

و من هنا يظهر وجه تبديل قوله: «رَبُّكَ» المكرر من هذه الآيات بلفظ الجلاله«الله»لأن فيه من الإشعار بالإحاطه بكل ما دق و جل ما ليس فی غيره،و المقام يقتضی الاعتماد و الالتجاء الی ملجإ لا يقهره قاهر و لا يغلب عليه غالب،و هو اللّه سبحانه و لذلك تری أنه يعود بعد انقضاء هذه الجمل الی ما كان يكرره من صفه الرب،و هو قوله: «وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ» .

قوله تعالی: فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ الظاهر أنه تفريع لقوله: «وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» أی إذا كان الأمر كله مرجوعا اليه تعالی فلا يملك غيره شيئا و لا يستقل بشیء فاعبده سبحانه و اتخذه وكيلا فی جميع الامور و لا تتوكل علی شیء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبيبه غير مستقله دونه،فمن الجهل الاعتماد علی شیء منها.و ما ربك بغافل عما تعملون فلا يجوز التساهل فی عبادته و التوكل عليه.

ص :۲۲۷

سوره یوسف مکیه و هی مائه و إحدی عشره آیه

اشاره

[سوره یوسف (۱۲): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۱) إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ أَحْسَنَ اَلْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ هٰذَا اَلْقُرْآنَ وَ إِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ اَلْغٰافِلِینَ (۳)

بیان:

غرض السوره بیان ولایه اللّه لعبده الذی أخلص إیمانه له تعالی إخلاصا و امتلأ بمحبته تعالی لا یبتغی له بدلا و لم یلو الی غیره تعالی من شیء،و أن اللّه تعالی یتولی هو أمره فیربیه أحسن تربیه فیورده مورد القرب و یسقیه فیرویه من مشرعه الزلفی فیخلصه لنفسه و یحییه حیاه إلهیه و إن کانت الأسباب الظاهره أجمعت علی هلاکه،و یرفعه و إن توفرت الحوادث علی ضعته،و یعزه و ان دعت النوائب و رزایا الدهر الی ذلته و حط قدره.

ص :۲۲۸

و قد بین تعالی ذلک بسرد قصه یوسف الصدیق علیه السّلام.و لم یرد فی سور القرآن الکریم تفصیل قصه من القصص باستقصائها من أولها الی آخرها غیر قصته علیه السّلام،و قد خصت السوره بها من غیر شرکه ما من غیرها.

فقد کان علیه السّلام عبدا مخلصا فی عبودیته فأخلصه اللّه لنفسه و أعزه بعزته و قد تجمعت الأسباب علی إذلاله وضعته فکلما ألقته فی إحدی المهالک أحیاه اللّه تعالی من نفس السبیل التی کانت تسوقه الی الهلاکه:حسده إخوته فألقوه فی غیابه الجب ثم شروه بثمن بخس دراهم معدوده فذهب به ذلک الی مصر و أدخله فی بیت الملک و العزه،راودته التی هو فی بیتها عن نفسه و اتهمته عند العزیز و لم تلبث دون أن اعترفت عند النسوه ببراءته ثم اتهمته و أدخلته السجن فکان ذلک سبب قربه عند الملک،و کان قمیصه الملطخ بالدم الذی جاءوا به الی أبیه یعقوب أول یوم هو السبب الوحید فی ذهاب بصره فصار قمیصه بعینه و قد أرسله بید إخوته من مصر الی أبیه آخر یوم هو السبب فی عود بصره الیه،و علی هذا القیاس.

و بالجمله کلما نازعه شیء من الأسباب المخالفه أو اعترضه فی طریق کماله جعل اللّه تعالی ذلک هو السبب فی رشد أمره و نجاح طلبته،و لم یزل سبحانه یحوله من حال الی حال حتی آتاه الحکم و الملک و اجتباه و علمه من تأویل الأحادیث و أتم نعمته علیه کما وعده أبوه.

و قد بدأ اللّه سبحانه قصته بذکر رؤیا رآها فی بادئ الأمر و هو صبی فی حجر أبیه و الرؤیا من المبشرات ثم حقق بشارته و أتم کلمته فیه بما خصه به من التربیه الإلهیه،و هذا هو شأنه تعالی فی أولیائه کما قال تعالی: أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْریٰ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِیلَ لِکَلِمٰاتِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (یونس/۶۴).

و فی قوله تعالی بعد ذکر رؤیا یوسف و تعبیر أبیه علیه السّلام لها: لَقَدْ کٰانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ

آیاتٌ لِلسّائِلِینَ إشعار بأنه کان هناک قوم سألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عما یرجع الی هذه القصه، و هو یؤید ما ورد أن قوما من الیهود بعثوا مشرکی مکه أن یسألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عن سبب انتقال بنی إسرائیل الی مصر و قد کان یعقوب علیه السّلام ساکنا فی أرض الشام فنزلت السوره.

و علی هذا فالغرض بیان قصته علیه السّلام و قصه آل یعقوب،و قد استخرج تعالی ببیانه ما هو الغرض العالی منها و هو طور ولایه اللّه لعباده المخلصین کما هو اللائح من مفتتح السوره و مختتمها،و السوره مکیه علی ما یدل علیه سیاق آیاتها،و ما ورد فی بعض الروایات عن ابن عباس أن أربعا من آیاتها مدنیه،و هی الآیات الثلاث التی فی أولها،و قوله: لَقَدْ کانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آیاتٌ لِلسّائِلِینَ مدفوع بما تشتمل علیه من السیاق الواحد.

قوله تعالی: الر تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ الاشاره بلفظ البعید للتعظیم و التفخیم،و الظاهر أن یکون المراد بالکتاب المبین هذا القرآن المتلو و هو مبین واضح فی نفسه و مبین موضح لغیره ما ضمنه اللّه تعالی من المعارف الإلهیه و حقائق المبدإ و المعاد.

و قد وصف الکتاب فی الآیه بالمبین لا کما فی قوله فی أول سوره یونس: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْحَکِیمِ لکون هذه السوره نازله فی شأن قصه آل یعقوب و بیانها،و من المحتمل أن یکون المراد بالکتاب المبین اللوح المحفوظ.

قوله تعالی: إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ الضمیر للکتاب بما أنه مشتمل علی الآیات الإلهیه و المعارف الحقیقیه،و إنزاله قرآنا عربیا هو إلباسه فی مرحله الإنزال لباس القراءه و العربیه،و جعله لفظا متلوا مطابقا لما یتداوله العرب من اللغه کما قال تعالی فی موضع آخر: إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ، وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف۴/).

و قوله: لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ من قبیل توسعه الخطاب و تعمیمه فان السوره مفتتحه بخطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم «تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ» ،و علی ذلک یجری بعد کما فی قوله: «نَحْنُ

نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ» الخ.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-إنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات فى مرحله النزول ملبسا بلباس اللفظ العربى محلى بحليته ليقع فى معرض التعقل منک و من قومک أو امتک، و لو لم يقلب فى وحيه فى قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومک ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بک لاختصاصک بوحيه و تعليمه.

و فى ذلک دلاله ما على أن الألفاظ الكتاب العزيز من جهه تعينها بالاستناد الى الوحى و كونها عربيه دخلا فى ضبط أسرار الآيات و حقائق المعارف،و لو أنه اوحى الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمعناه و كان اللفظ الحاكى له لفظه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما فى الأحاديث القدسيه مثلا أو ترجم الى لغه اخرى خفى بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس و لم تنله أيدى تعقلهم و فهمهم.

و عنايته تعالى فيما أوحى من كتاب باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر فى كلامه كيف؟ و قد قسمه الى المحكمات و المتشابهات و جعل المحكمات ام الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْکَ الْكِتٰابَ مِنْهُ آيٰاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ (آل عمران/٧)و قال تعالى أيضا: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسٰانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل/١٠٣).

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ هٰذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغٰافِلِينَ قال الراغب فى المفردات:القص تتبع الأثر يقال:قصصت أثره،و القصص الأثر قال:فارتدا على آثارهما قصصا،و قالت لاخته قصيه.قال:و القصص الأخبار المتتبعه قال تعالى: لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .فى قصصهم عبره، و قص عليه القصص،نقص عليک أحسن القصص.انتهى فالقصص هو القصه و أحسن القصص أحسن القصه و الحديث،و ربما قيل:إنه مصدر بمعنى الاقتصاص.

فإن كان اسم مصدر فقصه يوسف عليه السّلام أحسن قصه لأنها تصف إخلاص التوحيد فى العبوديه،و تمثل ولايه اللّه سبحانه لعبده و أنه يربيه بسلوكه فى صراط الحب و رفعه من حضيض الذله الى أوج المعزه،و أخذه من غيابه جبّ الإساره و مربط الرقيه و سجن النكال و النقمه الى عرش العزه و سرير الملك.

و إن كان مصدرا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذى اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصه الحب و الغرام بأعف ما يكون و أستر ما يمكن.

و المعنى-و اللّه أعلم-نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحينا هذا القرآن اليك و إنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصه من الغافلين عنها.

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۴ الى ۶]

اشاره

إِذْ قٰالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يٰا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سٰاجِدِينَ (۴) قٰالَ يٰا بُنَيَّ لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمٰا أَتَمَّهٰا عَلىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

بيان:

قوله تعالى: إِذْ قٰالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يٰا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سٰاجِدِينَ لم يذكر يعقوب عليه السّلام باسمه بل كنى عنه

ص: ۲۳۲

بالأب للدلاله على ما بينهما من صفه الرحمه و الرأفه و الشفقه كما يدل عليه ما فى الآيه التاليه «قٰالَ يٰا بُنَيَّ لاٰ تَقْصُصْ» الخ.

و قوله: رَأَيْتُ و رَأَيْتُهُمْ من الرؤيا و هى ما يشاهده النائم فى نومته أو الذى خمدت حواسه الظاهره بإغماء أو ما يشابهه،و يشهد به قوله فى الآيه التاليه: «لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ» و قوله فى آخر القصّه: «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰايَ» .

و تكرار ذكر الرؤيه لطول الفصل بين قوله: «رَأَيْتُ» و قوله: «لِي سٰاجِدِينَ» و من فائده التكرير الدلاله على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى.على أن ما حصل له من المشاهده نوعان مختلفان فمشاهده أشخاص الكواكب و الشمس و القمر مشاهده أمر صوريّ و مشاهده سجدتهم و خضوعهم و تعظيمهم له مشاهده أمر معنوى.

و قد عبر عن الكواكب و النيرين فى قوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي سٰاجِدِينَ» بما يختص بأولى العقل-ضمير الجمع المذكر و جمع المذكر السالم-للدلاله على أن سجدتهم كانت عن علم و إراده كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

قوله تعالى: قٰالَ يٰا بُنَيَّ لاٰ تَقْصُصْ رُؤْيٰاكَ عَلىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ذكر فى المفردات:أن الكيد ضرب من الاحتيال، و قد يكون مذموما و ممدوحا و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر و كذلك الاستدراج و المكر.

انتهى.و قد ذكروا أن الكيد يتعدّى بنفسه و باللام.

و الآيه تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السّلام سيتولى اللّه أمره و يرفع قدره،يسنده على أريكه الملك و عرش العزه،و يخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامه فأشفق على يوسف عليه السّلام و خاف من اخوته عليه و هم عصبه أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا-و هى ظاهره الانطباق على يعقوب عليه السّلام و زوجه و أحد عشر من ولده غير يوسف،و ظاهره الدلاله على انهم جميعا سيخضعون و يسجدون

ليوسف-حملهم الكبر و الأنفه أن يحسدوه فيكيدوا له كيدا ليحولوا بينه و بين ما تبشره به رؤياه.

و لذلك خاطب يوسف عليه السّلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: «يا بُنَيَّ» بلفظ التصغير، و نهاه عن اقصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له و ينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامه الإلهيه المقضيه فى حقه،و لم يقدم النهى على البشاره إلاّ لفرط حبه له و شده اهتمامه به و اعتنائه بشأنه،و ما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه و أنهم امتلئوا منه بغضا و حنقا.

و الدليل على بلوغ حسدهم و ظهور حنقهم و بغضهم قوله: «لا تَقْصُصْ رُؤْياکَ عَلىٰ إِخْوَتِکَ فَيَكِيدُوا لَکَ كَيْداً» فلم يقل:إنى أخاف أن يكيدوا،أو لا آمنهم عليک بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرّع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم و أكّد تحقق الكيد منهم بالمصدر-المفعول المطلق-اذ قال «فَيَكِيدُوا لَکَ كَيْداً» ثمّ أكد ذلک بقوله ثانيا فى مقام التعليل: «إِنَّ الشَّيْطٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» أى إن لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذى هو الحسد و يثيره و يهيجه ليؤثر أثره السيئ و هو الشيطان الذى هو عدو للإنسان مبين لا خله بينه و بينه أبدا يحمل الإنسان بوسوسته و تسويله على أن يخرج من صراط الاستقامه و السعاده الى سبيل عوج فيه شقاء دنياه و آخرته فيفسد ما بين الوالد و ولده و ينزع بين الشقيق و شقيقه و يفرق بين الصديق و صديقه ليضلهم عن الصراط.

فكأن المعنى:قال يعقوب ليوسف عليهما السّلام:يا بنىّ لا تقصص رؤياک على إخوتک فانهم يحسدونک و يغتاظون من أمرک فيكيدونک عندئذ بنزع و إغراء من الشيطان و قد تمكن من قلوبهم و لا يدعهم يعرضوا عن كيدک فإن الشيطان للإنسان عدوّ مبين.

قوله تعالى: وَ كَذٰلِکَ يَجْتَبِيکَ رَبُّکَ وَ يُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ الى آخر الآيه؛الاجتباء من الجبايه و هى الجمع يقال:جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه،و منه جبايه الخراج أى جمعه قال تعالى

يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ (القصص/۵۷)ففى معنى الاجتباء جمع أجزاء الشىء و حفظها من التفرّق و التشتت،و فيه سلوك و حركه من الجابى نحو المجبى فاجتباه اللّه سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته و يخصّه بمزيد كرامته فيجمع شمله و يحفظه من التفرق فى السبل المتفرّقه الشيطانيه المفرقه للإنسان و يركبه صراطه المستقيم و هو أن يتولّى أمره و يخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك فى يوسف عليه السّلام إذ قال إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ (الآيه ۲۴ من السوره).

و قوله: وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ التأويل هو ما ينتهى اليه الرؤيا من الأمر الذى تتعقبه،و هو الحقيقه التى تتمثل لصاحب الرؤيا فى رؤياه بصوره من الصور المناسبه لمداركه و مشاعره كما تمثل سجده أبوى يوسف و إخوته الأحد عشر فى صوره أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر و خرورها أمامه ساجده له،و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل فى تفسير قوله: فَيَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ الآيه، (آل عمران/۷)فى الجزء الثالث من الكتاب.

و الأحاديث جمع الحديث و ربما اريد به الرّؤى لأنها من حديث النفس فان نفس الانسان تصور له الامور فى المنام كما يصور المحدث لسماعه الامور فى اليقظه فالرؤيا حديث مثله و منه يظهر ما فى قول بعضهم:إن الرؤى سمّيت أحاديث باعتبار حكايتها و التحديث بها و هو كما ترى.

و قوله: وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ قال الراغب فى المفردات:

النعمه(بالكسر فالسكون)الحاله الحسنه،و بناء النعمه بناء الحاله التى يكون عليها الإنسان كالجلسه و الركبه،و النعمه(بالفتح فالسكون)التنعم و بناؤها بناء المرّه من الفعل كالضربه و الشتمه،و النعمه للجنس تقال للقليل و الكثير.

قال:و الإنعام إيصال الإحسان الى الغير،و لا يقال إلاّ إذا كان الموصل اليه من جنس

الناطقين فإنه لا يقال:أنعم فلان على فرسه،قال تعالى «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» و النعماء بإزاء الضرّاء.

قال:و النعيم النعمه الكثيره قال تعالى «فِی جَنّاتِ النَّعِيمِ» و قال تعالى «جَنّاتِ النَّعِيمِ» ، و تنعم تناول ما فيه النعمه و طيب العيش،يقال:نعمه تنعيما فتنعم أی لين عيش و خصب قال تعالى «فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ» و طعام ناعم و جاريه ناعمه.انتهى.

فقوله: وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ يريد أن اللّه أنعم عليكم بما تسعدون به فی حياتكم لكنه يتم ذلك فی حقك و فی حق آل يعقوب و هم يعقوب و زوجه و سائر بنيه كما كان رآه فی رؤياه.

و قد جعل يوسف عليه السّلام أصلا و آل يعقوب معطوفا عليه إذ قال «عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ» كما يدل عليه الرؤيا إذ رأى يوسف نفسه مسجودا له و رأى آل يعقوب فی هيئه الشمس معها القمر و أحد عشر كوكبا سجدا له.

و قد ذكر اللّه تعالى مما أتم به النعمه على يوسف عليه السّلام أنه آتاه الحكم و النبوه و الملك و العزه فی مصر مضافا الى أن جعله من المخلصين و علمه من تأويل الأحاديث،و مما أتم به النعمه على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليهما السّلام،و جاء به و بأهله جميعا من البدل و رزقهم الحضاره بنزول مصر.

و قوله: كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ أی نظير ما أتم النعمه من قبل على إبراهيم و إسحاق و هما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا و الآخره فقوله:

«مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «أَتَمَّها» و ربما احتمل كونه ظرفا مستقرا وصفا لقوله: «أَبَوَيْكَ» و التقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

و «إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ» بدل أو عطف بيان لقوله: «أَبَوَيْكَ» و فائده هذا السياق الإشعار بكون النعمه مستمره موروثه فی بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث اتمها اللّه على إبراهيم

و إسحاق و يعقوب و يوسف عليهم السّلام و سائر آل يعقوب.

و معنى الآيه:و كما رأيت فى رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره،و يعلمك من تأويل الأحاديث و هو ما يئول اليه الحوادث المصوره فى نوم أو يقظه و يتم نعمته هذه و هى الولايه الإلهيه بالنزول فى مصر و اجتماع الأهل و الملك و العزه عليك و على ابويك و إخوتك و إنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجرى عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك و ما يستحقونه من غضبه (۱).

[سوره یوسف (۱۲): الآيات ۷ الى ۲۱]

اشاره

لَقَدْ كٰانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيٰاتٌ لِلسّٰائِلِينَ (۷) إِذْ قٰالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبٰانٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۸) اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صٰالِحِينَ (۹) قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ اَلسَّيّٰارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ (۱۰) قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مٰا لَكَ لاٰ تَأْمَنّٰا عَلىٰ يُوسُفَ وَ إِنّٰا لَهُ لَنٰاصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنٰا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (۱۲) قٰالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخٰافُ أَنْ يَأْكُلَهُ اَلذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غٰافِلُونَ (۱۳) قٰالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ اَلذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّٰا إِذاً لَخٰاسِرُونَ (۱۴) فَلَمّٰا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيٰابَتِ اَلْجُبِّ وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذٰا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جٰاؤُ أَبٰاهُمْ عِشٰاءً يَبْكُونَ (۱۶) قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنٰا يُوسُفَ عِنْدَ مَتٰاعِنٰا فَأَكَلَهُ اَلذِّئْبُ وَ مٰا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنٰا وَ لَوْ كُنّٰا صٰادِقِينَ (۱۷) وَ جٰاؤُ عَلىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اَللّٰهُ اَلْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ (۱۸) وَ جٰاءَتْ سَيّٰارَةٌ فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كٰانُوا فِيهِ مِنَ اَلزّٰاهِدِينَ (۲۰) وَ قٰالَ اَلَّذِي اِشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوٰاهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ وَ اَللّٰهُ غٰالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۱)

۱- ۱) .یوسف ۱-۶:بحث حول سجده یعقوب علیه السّلام لیوسف علیه السّلام.

بیان:

قوله تعالی: لَقَدْ کانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آیاتٌ لِلسّائِلِینَ شروع فی

ص :۲۳۸

القصه و فيه التنبيه على أن القصه مشتمله على آيات إلهيه داله على توحيد اللّه سبحانه،و أنه هو الولى يلى امور عباده المخلصين حتى يرفعهم الى عرش العزه،و يثبتهم فى أريكه الكمال فهو تعالى الغالب على أمره يسوق الأسباب الى حيث يشاء لا الى حيث يشاء غيره و يستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

و فى قوله تعالى: لِلسّائِلِينَ دلاله على أنه كان هناك جماعه سألوا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن القصه أو عما يرجع بوجه الى القصه فانزلت فى هذه السوره.

قوله تعالى: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ إِنَّ أَبانا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ ذكر فى المجمع أن العصبه هى الجماعه التى يتعصب بعضها لبعض،و يقع على جماعه من عشره الى خمسه عشر،و قيل:ما بين العشره الى الأربعين، و لا واحد له من لفظه كالقوم و الرهط و النفر.انتهى.

و قوله: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف و أخاه الذى ذكروه معه،و كانت عدتهم عشره و هم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب و إداره مواشيه و أمواله كما يدل عليه قولهم: «وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ» .

و قولهم: «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ» بنسبته الى يوسف مع أنهم جميعا أبناء ليعقوب و إخوه فيما بينهم يشعر بأن يوسف و أخاه هذا كانا أخوين لام واحده و أخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط،و الروايات تذكر أن اسم أخى يوسف هذا«بنيامين»،و السياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشىء من أمر بيت يعقوب و تدبير مواشيه و أمواله.

و قولهم: وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ أى عشره أقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوه بعض،و هو حال عن الجمله السابقه يدل على حسدهم و حنقهم لهما و غيظهم على أبيهم يعقوب فى حبه لهما أكثر منهم،و هو بمنزله تمام التعليل لقولهم بعده: «إِنَّ أَبانا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» .

و قولهم: إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ قضاء منهم على أبيهم بالضلال و يعنون بالضلال الاعوجاج فى السليقه و فساد السيره دون الضلال فى الدين (۱).

قوله تعالى: اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ تتمه قول إخوه يوسف و الآيه تتضمن الفصل الثانى من مؤامرتهم فى مؤتمرهم الذى عقدوه فى أمر يوسف ليرسموا بذلك خطه تريح نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (الآيه ۱۰۲ من السوره).

و قد ذكر اللّه سبحانه متن مؤامرتهم فى هذه الآيات الثلاث «قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ -الى قوله- إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ» .

فأوردوا أولا ذكر مصيبتهم فى يوسف و أخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم الى أنفسهما و جذبا نفسه اليهما عن سائر الأولاد فصار يلتزمهما و لا يعبأ بغيرهما ما فعلوا،و هذه محنه حاله بهم توعدهم بخطر عظيم فى مستقبل الامر فيه سقوط شخصيتهم و خيبه مسعاهم و ذلتهم بعد العزه و ضعفهم بعد القوه،و هو انحراف من يعقوب فى سيرته و طريقته.

ثم تذاكروا ثانيا فى طريق التخلص من الرزيه بطرح كل منهم ما هيأه من الخطه و يراه من الرأى فأشار بعضهم الى لزوم قتل يوسف،و آخرون الى طرحه أرضا بعيده لا يستطيع معه العود الى أبيه و اللحوق بأهله فينسى بذلك اسمه و يمحو رسمه فيخلو وجه أبيهم لهم و ينبسط حبه و حبائه فيهم.

ثم اتفقوا على ما يقرب من الرأى الثانى و هو أن يلقوه فى قعر بئر ليلتقطه بعض السياره

۱- ۱) .يوسف ۷-۲۱:بحث فى معنى قول ابناء يعقوب «إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» عله حسد اخوان يوسف عليه؛ان يعقوب كان يحبّ يوسف و اخاه فى اللّه.

و يذهبوا به الى بعض البلاد النائيه البعيده فينقطع بذلك خبره و يعفى أثره.

فقوله تعالى: اُقْتُلُوا يُوسُفَ حكايه لأحد الرأيين منهم فى أمره،و فى ذكرهم يوسف وحده-و قد ذكروا فى مفتتح كلامهم فى المؤامره يوسف و أخاه معا «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينٰا مِنّٰا» -دليل على أنه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب و بلوغ عنايته و اهتمامه و إن كان أخوه أيضا محبو بالحب و الإكرام من بينهم و كيف لا؟و يوسف هو الذى رأى الرؤيا و بشر بأخص العنايات الإلهيه و الكرامات الغيبيه،و قد كان أكبرهما و الخطر المتوجه من قبله اليهم أقرب مما من قبل أخيه،و لعل فى ذكر الأخوين معا إشاره الى حب يعقوب لامهما الموجب لحبه بالطبع لهما و تهييج حسد الإخوه و غيظهم و حقدهم بالنسبه اليهما.

و قوله: أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً حكايه رأيهم الثانى فيه،و المعنى صيروه أو غربوه فى أرض لا يقدر معه على العود الى بيت أبيه فيكون كالمقتول ينقطع أثره و يستراح من خطره كإلقائه فى بئر أو تغريبه الى مكان ناء و نظير ذلك.

و الدليل عليه تنكير«أرض»و لفظ الطرح الذى يستعمل فى القاء الانسان المتاع أو الأناث الذى يستغنى عنه و لا ينتفع به للإعراض عنه.

و فى نسبه الرأيين بالترديد اليهم،دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضى عند أكثر الإخوه حتى قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف،الخ.

و قوله: يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أى افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم و هو كنايه عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذى يجلب الحب و العطف الى نفسه كأنهم و يوسف إذا اجتمعوا و أباهم حال يوسف بينه و بينهم و صرف وجهه الى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم و اختص حبه بهم و انحصر إقباله عليهم.

و قوله: وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صٰالِحِينَ أى و تكونوا من بعد يوسف أو من

بعد قتله أو نفيه-و المآل واحد-قوما صالحين بالتوبه من هذه المعصيه.

و فى هذا دليل على أنهم كانوا يرونه ذنبا و إثما،و كانوا يحترمون أمر الدين و يقدسونه لكن غلبهم الحسد و سولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب و ارتكاب المظلمه و آمنهم من عقوبه الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاقتراف من غير لزوم العقوبه الإلهيه و هو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.

و هذا من الجهل فإن التوبه التى شأنها هذا الشأن غير مقبوله البته فإن من يوطن نفسه من قبل على المعصيه ثم التوبه منها لا يقصد بتوبته الرجوع الى اللّه و الخضوع لمقامه حقيقه بل إنما يقصد المكر بربه فى دفع ما أوعده من العذاب و العقوبه مع المخالفه لأمره أو نهيه، فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه أولا:أن يذنب فيتوب فهى فى الحقيقه تتمه ما رامه أولا من نوع المعصيه و هو الذنب الذى تعقبه توبه و ليست رجوعا الى ربه بالندم على ما فعل.و قد تقدم البحث عن معنى التوبه فى تفسير قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَهٍ الآيه،(النساء١٧/)الجزء الرابع من الكتاب.

و قيل المراد بالصلاح فى الآيه صلاح الأمر من حيث سعاده الحياه الدنيا و انتظام الامور فيها و المعنى و تكونوا من بعده قوما صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

قوله تعالى: قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيّٰارَهِ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ الجب هو البئر التى لم يطو أى لم يبن داخلها بالحجاره،و إن بنى بها سميت البئر طويا،و الغيابه بفتح الغين المنهبط من الأرض الذى يغيب ما فيه من الأنظار و غيابه الجب قعره الذى لا يرى لما فيه من الظلمه.

و قد اختار هذا القائل الرأى الثانى المذكور فى الآيه السابقه الذى يشير اليه قوله: «أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً» إلاّ أنه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدى الى هلاكه كأن يلقى فى بئر و يترك فيها حتى يموت جوعا أو ما يشاكل ذلك،فما أبداه من الرأى يتضمن نفى يوسف

من الأرض من غير أن يتسبب الى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكا لذى رحم،و هو أن يلقى فى بعض الآبار التى على طريق الماره حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه و يسيروا به الى بلاد نائيه تعفو أثره و تقطع خبره،و السياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأى إذ لم يذكر رد منهم بالنسبه اليه و قد جرى عملهم عليه كما هو مذكور فى الآيات التاليه.

قوله تعالى: قالُوا يا أَبانا ما لَکَ لا تَأْمَنّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنّا لَهُ لَناصِحُونَ أصل «لا تَأْمَنّا» لا تأمننا ثم ادغم بالإدغام الكبير.

و الآيه تدل على ان الإخوه أجمعوا على قول القائل:لا تقتلوا يوسف و ألقوه فى غيابه الجب،و أجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف و يفعلوا به ما عزموا عليه و قد كان أبوهم لا يأمنهم على يوسف و لا يخليه و إياهم فكان من الواجب قبلا أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم و يجلّوا قلبه من كدر الشبهه و الارتياب حتى يتمكنوا من أخذه و الذهاب به.و لذلك جاءوا أباهم و خاطبوه بقولهم: «يا أَبانا -و فيه اثاره للعطف و الرحمه و إيثار للموده- ما لَکَ لا تَأْمَنّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنّا لَهُ لَناصِحُونَ» أى و الحال أنا لا نريد به إلاّ الخير و لا نبتغى إلاّ ما يرضيه و يسره.

ثم سألوه ما يريدونه و هو أن يرسله معهم الى مرتعهم الذى كانوا يخرجون اليه ماشيتهم و غنمهم ليرتع و يلعب هناك،و هم حافظون له فقالوا «أَرْسِلْهُ مَعَنا» الخ.

قوله: أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ الرتع هو توسع الحيوان فى الرعى و الانسان فى التنزه و أكل الفواكه و نحو ذلك.

و قولهم: «أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ» اقتراح لمسئولهم كما تقدمت الإشاره اليه و قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» اكدوه بوجوه التأكيد:إن و اللام و الجمله الاسميه على وزان قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَناصِحُونَ» كما يدل ان كل واحده من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب

لنفس أبيهم كأنهم قالوا:ما لک لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه ايانا معشر الإخوه كأن نقصده بسوء فإنا له لناصحون و إن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه مكروه و نحن مساهلون فى حفظه و مستهينون فى كلاءته فإنا له لحافظون.

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبعى:ذكروا أولا أنه فى أمن من ناحيتهم دائما ثم سألوا إن يرسله معهم غداه غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم،و بذلک يظهر ان قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَناصِحُونَ» تأمين له دائمى من ناحيه انفسهم،و قولهم: «وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ» تأمين له موقت من غيرهم.

قوله تعالى: قالَ إِنِّی لَيَحْزُنُنِی أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ هذا ما ذكر أبوهم جوابا لما سألوه،و لم ينف عن نفسه أنه لا يأمنهم عليه و إنما ذكر ما يأخذه من الحاله النفسانيه لو ذهبوا به فقال و قد أكد كلامه «إِنِّی لَيَحْزُنُنِی أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» و قد كشف عن المانع أنه نفسه التى يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفا فى الجواب معهم و لئلا يهيج ذلک عنادهم و لجاجهم و هو من لطائف النكت.

و اعتذر اليهم فى ذلک بقولهم: «وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ» و هو عذب موجه فإن الصحارى ذوات المراتع التى تأوى إليها المواشى و ترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعا من ذئاب او سباع تقصدها و تكمن فيها للافتراس و الاصطياد فمن الجائز أن يقبلوا على بعض شأنهم و يغفلوا عنه فيأكله الذئب.

قوله تعالى: قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَهٌ إِنّا إِذاً لَخاسِرُونَ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلاّ أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفله منهم فردوه رد منكر مستغرب،و ذكروا لتطيب نفسه انهم جماعه اقوياء متعاضدون ذووا بأس و شده،و اقسموا باللّه إن أكل الذئب إياه و هم عصبه يقضى بخسرانهم و لن يكونوا

خاسرين البته،و إنما أقسموا-كما يدل عليه لام القسم-ليطيبوا نفسه و يذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به،و هذا شائع فى الكلام«و فى الكلام وعد ضمنى منهم له أنهم لن يغفلوا»لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له و اخلفوه ما وعدوه،إذ قالوا «يا أَبانا إِنّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» الآيه.

قوله تعالى: فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيابَتِ الْجُبِّ قال الراغب:أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل اليه بالفكره نحو فأجمعوا أمركم و شركاءكم.قال:و يقال:أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه.انتهى.

و فى المجمع:أجمعوا أى عزموا جميعا أن يجعلوه فى غيابه الجب أى قعر البئر و اتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد الى الشىء لا يقال فيه إنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعى.انتهى.

و الآيه تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول و أرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم الى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما ازمعوا عليه من القائه فى غيابه الجب.

و جواب لما محذوف للدلاله على فجاعه الأمر و فظاعته،و هى صنعه شائعه فى الكلام ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيع يحترق به القلب و لا يطيقه السمع فيشرع فى بيان أسبابه و الاحوال التى تؤدى اليه فيجرى فى وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثه سكت سكوتا عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفه القتل بلغت من الفجاعه مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به و لا يطيق السامع أن يسمعه.

فكأن الذى يصف القصه-عزّ اسمه-لما قال «فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيابَتِ الْجُبِّ» سكت مليا و أمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى و أسفا لأن السمع لا يطيق وعى ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبى ابن الأنبياء و لم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبوه فيه و هم اخوته و هم يعلمون مبلغ حب أبيه النبى الكريم يعقوب له فيا قاتل اللّه

الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بأيدى إخوته،و يثكل أبا كريما مثل يعقوب بأيدى أبنائه،و يزين بغيا شنيعا كهذا فى اعين رجال ربوا فى حجر النبوه و نشئوا فى بيت الأنبياء.

و لما حصر الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه فى ذيل القصه فقال «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ» الخ.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ الضمير ليوسف و ظاهر الوحى أنه من وحى النبوه،و المراد بأمرهم هذا إلقاؤهم إياه فى غيابه الجب، و كذا الظاهر أن جمله «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: «وَ أَوْحَيْنا» الخ؛و متعلق «لا يَشْعُرُونَ» هو الأمر أى لا يشعرون بحقيقه أمرهم هذا أو الإيحاء أى و هم لا يشعرون بما أوحينا اليه.

و المعنى-و اللّه أعلم-و أوحينا الى يوسف أقسم لتخبرنهم بحقيقه أمرهم هذا و تأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفيا لشخصك و إنساء لاسمك و إطفاء لنورك و تذليلا لك و حطا لقدرك و هو فى الحقيقه تقريب لك الى أريكه العزه و عرش المملكه و إحياء لذكرك و إتمام لنورك و رفع لقدرك و هم لا يشعرون بهذه الحقيقه و ستنبئهم بذلك،و هو قوله لهم و قد اتّكأ على أريكه العزه و هم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَهٍ مُزْجاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ إذ قال هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ -الى أن قال- أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنا الخ.

انظر الى موضع قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ» فإنه إشاره الى أن هذا الذى تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقه ما فعلتم بيوسف،و قوله: «إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» فإنه يحاذى من هذه الآيه التى نحن فيها قوله: «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» .

قوله تعالى: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ العشاء آخر النهار،و قيل:من صلاه

المغرب الى العتمه،و إنما كانوا يبكون ليلبسوا الأمر على أبيهم فيصدقهم فيما يقولون و لا يكذبهم.

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ الى آخر الآيه؛قال الراغب فى المفردات:أصل السبق التقدم فى السير نحو«و السابقات سبقا»و الاستباق التسابق و قال «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» «وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ» انتهى،و قال الزمخشرى فى الكشاف:نستبق أى نتسابق،و الافتعال و التفاعل يشتركان كالانتضال و التناضل و الارتماء و الترامى و غير ذلك،و المعنى نتسابق فى العدو أو فى الرمى.انتهى.

و قوله: بِمُؤْمِنٍ لَنَا أى بمصدق لقولنا،و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ (العنكبوت/٢۶).

و المعنى-إنهم حينما جاءوا أباهم عشاء يبكون-قالوا لأبيهم:يا أبانا إنا معشر الإخوه ذهبنا الى البيداء نتسابق فى عدو أو رمى-و لعله كان فى عدو-فإن ذلك أبلغ فى إبعادهم من رحلهم و متاعهم و كان عنده يوسف على ما ذكروا-و تركنا يوسف عند رحلنا و متاعنا فأكله الذئب،و من خيبتنا و مسكنتنا أنك لست بمصدق لنا فيما نقوله و نخبر به و لو كنا صادقين فيه.

و قولهم: وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ كلام يأتى بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب و انسدت عليه طرق الحيله،للدلاله على أن كلامه غير موجه عند من يعتذر اليه و عذره غير مسموع و هو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر أن يخبر بالحق و يكشف عن الصدق و إن كان غير مصدق فيه،فهو كنايه عن الصدق فى المقال.

قوله تعالى: وَ جَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ الكذب بالفتح فالكسر مصدر أريد به الفاعل للمبالغه أى بدم كاذب بين الكذب.

و فی الآیه إشعار بأن القمیص و علیه دم-و قد نکر الدم للدلاله علی هو ان دلالته و ضعفها علی ما وصفوه-کان علی صفه تکشف عن کذبهم فی مقالهم فإن من افترسته السباع و أکلته لم تترک له قمیصا سالما غیر ممزق.هذا شأن الکذب لا یخلو الحدیث الکاذب و لا الاحدوثه الکاذبه من تناف بین أجزائه و تناقض بین أطرافه أو شواهد من أوضاع و أحوال خارجیه تحف به و تنادی بالصدق و تکشف القناع عن قبیح سریرته و باطنه و إن حسنت صورته (۱).

قوله تعالی: قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَ اللّٰهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلیٰ مٰا تَصِفُونَ هذا جواب یعقوب و قد فوجئ بنعی ابنه و حبیبه یوسف دخلوا علیه و لیس معهم یوسف و هم یبکون یخبرونه أن یوسف قد أکله الذئب و هذا قمیصه الملطخ بالدم،و قد کان یعلم بمبلغ حسدهم له و هم قد انتزعوه من یده بإلحاح و إصرار و جاءوا بقمیصه و علیه دم کذب ینادی بکذبهم فیما قالوه و أخبروا به.

فأضرب عن قولهم: «إِنّٰا ذَهَبْنٰا نَسْتَبِقُ» الخ؛بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً» و التسویل الوسوسه أی لیس الأمر علی ما تخبرون بل وسوست لکم أنفسکم فیه أمرا،و أبهم الأمر و لم یعنیه ثم أخبر أنه صابر فی ذلک من غیر أن یؤاخذهم و ینتقم منهم لنفسه انتقاما و إنما یکظم ما هجم نفسه کظما.

فقوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً تکذیب لما أخبروا به من أمر یوسف و بیان أنه علی علم من أن فقد یوسف لا یستند الی ما ذکروه من افتراس السبع و إنما یستند الی مکر مکروه و تسویل من أنفسهم لهم،و الکلام بمنزله التوطئه لما ذکره بعد من قوله:

«فَصَبْرٌ جَمِیلٌ» الی آخر الآیه.

ص :۲۴۸

۱- ۱) .یوسف ۷-۲۱:کلام فی ان الکذب لا یفلح.

و قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ مدح للصبر و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و التقدير:سأصبر على ما أصابنى فإن الصبر جميل و تنكير الصبر و حذف صفته و إبهامها للإشاره الى فخامه أمره و عظم شأنه أو مراره طعمه و صعوبه تحمله.

و قد فرّع قوله: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التى أحاطت به و أفرغت عليه هذه المصيبه هى بحيث لا يسع له معها إلاّ أن يملك سبيل الصبر،و ذلك أنه عليه السّلام فقد أحب الناس اليه يوسف و هو ذا يذكر له أنه صار أكله للذئب و هذا قميصه ملطخا بالدم و هو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به،و يرى أن لهم صنعا فى افتقاده و مكرا فى أمره و لا طريق له الى التحقيق فيما جرى على يوسف و التجسس مما آل اليه أمره و أين هو؟و ما حاله؟فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب و أعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبناؤه و هم عصبه أولو قوه و شده فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبه و وقوع المصيبه فبمن يقع فيهم؟و بما ذا يدفعهم عن نفسه؟فلا يسعه إلاّ الصبر.

فقوله: وَ اللّٰهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ -و هو من أعجب الكلام-بيان لتوكله على ربه يقول:إنى أعلم أن لكم فى الأمر مكرا و أن يوسف لم يأكله ذئب لكنى لا أركن فى كشف كذبكم و الحصول على يوسف بالأسباب الظاهره التى لا تغنى طائلا بغير إذن من اللّه و لا أتشحط بينها بل أضبط استقامه نفسى بالصبر و أوكل ربى أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه و صار أكله لذئب.

فظهر أن قوله: «وَ اللّٰهُ الْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا تَصِفُونَ» دعاء فى موقف التوكل و معناه:اللهم إنى توكلت عليك فى أمرى هذا فكن عونا لى على ما يصفه بنى هؤلاء،و الكلمه مبنيه على توحيد الفعل فإنها مسوقه سوق الحصر و معناها أن اللّه سبحانه هو المستعان لا مستعان لى غيره فإنه عليه السّلام كان يرى أن لا حكم حقا إلاّ حكم اللّه كما قال فيما سيأتى من كلامه «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» ،و لتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل:

ص :249

سأصبر و لم يقل:و اللّه أستعين على ما تصفون بل ترک نفسه و ذکر اسم ربه و أن الأمر منوط بحکمه الحق و هو من کمال توحيده و هو مستغرق فی وجده و أسفه و حزنه ليوسف غير أنه ما کان يحب يوسف و لا يتوله فيه و لا يجد لفقده إلاّ للّه و فی اللّه.

قوله تعالى: وَ جٰاءَتْ سَيّٰارَةٌ فَأَرْسَلُوا وٰارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضٰاعَةً وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ قال الراغب:الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فی غيره.انتهى،و قال:دلوت الدلو إذا أرسلتها،و أدليتها إذا أخرجتها.انتهى،و قيل بالعکس،و قال:الإسرار خلاف الإعلان.انتهى.

و قوله: قٰالَ يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعا على إدلاء الدلو للدلاله على أنه کان أمرا غير مترقب الوقوع فإن الذی يترقب وقوعه غير الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فکان مفاجئا لهم و لذا قال «قٰالَ يٰا بُشْرىٰ» و نداء البشرى کنداء الأسف و الويل و نظائرهما للدلاله على حضوره و جلاء ظهوره.

و قوله: وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ مفاده ذم عملهم و الإنابه عن کونه معصيه محفوظه عليهم سيؤاخذون بها،و يمکن أن يکون المراد به أن ذلک إنما کان بعلم من اللّه أراد بذلک أن يبلغ يوسف مبلغه الذی قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب و لم يسر بضاعه لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملک و العزه.

و المعنى الآيه:و جاءت جماعه ماره الى هناک فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه فی الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: «يٰا بُشْرىٰ هٰذٰا غُلاٰمٌ» -و قد تعلق يوسف بالحبل فخرج-فأخفوه بضاعه يقصد بها البيع و التجاره و الحال أن اللّه سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلک کان بعلمه تعالى و کان يسير يوسف هذا المسير ليستقر فی مستقر العزه و الملک و النبوه.

قوله تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرٰاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كٰانُوا فِيهِ مِنَ

اَلزّاهِدِينَ الثمن البخس هو الناقص عن حق القيمه،و دراهم معدوده أی قليله و الوجه فيه-علی ما قيل-أنهم كانوا إذا كثرت الدراهم أو الدنانير وزنوها و لا يعدون إلاّ القليله منها و المراد بالدراهم النقود الفضيه الدائره بينهم يومئذ،و الشراء هو البيع،و الزهد هو الرغبه عن الشیء أو هو كنايه عن الاتقاء.

و الظاهر من السياق أن ضميری الجمع فی قوله: «وَ شَرَوْهُ» «وَ كانُوا» للسياره و المعنی أن السياره الذين أخرجوه من الجب و أسروه بضاعه باعوه بثمن بخس ناقص و هی دراهم معدوده قليله و كانوا يتقون أن يظهر حقيقه الحال فينتزع هو من أيديهم.

قوله تعالی: وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِی مَثْواهُ عَسی أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً السياق يدل علی أن السياره حملوا يوسف معهم الی مصر و عرضوه هناك للبيع فاشتراه بعض أهل مصر و أدخله فی بيته.

و قد أعجبت الآيات فی ذكر هذا الذی اشتراه و تعريفه فذكر فيها اولا بمثل قوله تعالی:

وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ فأنبأت أنه كان رجلا من أهل مصر،و ثانيا بمثل قوله: وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَی الْبابِ فعرفته بأنه كان سيدا مصمودا اليه،و ثالثا بمثل قوله: وَ قالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِينَهِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ فأوضحت أنه كان عزيزا فی مصر يسلم له أهل المدينه العزه و المناعه،ثم أشارت الی أنه كان له سجن و هو من شئون مصدريه الامور و الرئاسه بين الناس،و علم بذلك أن يوسف كان ابتيع أول يوم لعزيز مصر و دخل بيت العزه.

و بالجمله لم يعرف الرجل كل مره فی كلامه تعالی إلاّ بمقدار ما يحتاج اليه موقف الحديث من القصه،و لم يكن لأول مره فی تعريفه حاجه الی أزيد من وصفه بأنه كان رجلا من أهل مصر و بها بيته فلذا اقتصر فی تعريفه بقوله: «وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ» .

و كيف كان،الآيه تنبئ علی إيجازها بأن السياره حملوا يوسف معهم و أدخلوه مصر و شروه من بعض أهلها فأدخله بيته و وصاه امرأته قائلا:اكرمی مثواه عسی أن ينفعنا أو

نتخذه ولدا.

فقوله: وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ أی العزیز «لاِمْرَأَتِهِ» و هی العزیزه «أَکْرِمِی مَثْوٰاهُ» أی تصدی بنفسک أمره و اجعلی له مقاما کریما عندک «عَسیٰ أَنْ یَنْفَعَنٰا» فی مقاصدنا العالیه و امورنا الهامه «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» بالتبنی.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ قال فی المفردات المکان عند أهل اللغه الموضع الحاوی للشیء قال و یقال:مکنته و مکنت له فتمکن،قال تعالی: وَ لَقَدْ مَکَّنّٰاکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَقَدْ مَکَّنّٰاهُمْ فِیمٰا إِنْ مَکَّنّٰاکُمْ فِیهِ أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ قال:قال الخلیل:المکان مفعل من الکون، و لکثرته فی الکلام أجری مجری فعال فقیل:تمکن و تمسکن مثل تمنزل.انتهی.فالمکان هو مقر الشیء من الأرض،و الإمکان و التمکین الإقرار و التقریر فی المحل،و ربما یطلق المکان المکانه لمستقر الشیء من الامور المعنویه کالمکانه فی العلم و عند الناس یقال:

أمکنته من الشیء فتمکن منه أی أقدرته فقدر علیه و هو من قبیل الکنایه.

و لعل المراد من تمکین یوسف فی الأرض إقراره فیه بما یقدر معه علی التمتع من مزایا الحیاه و التوسع فیها بعد ما حرّم علیه إخوته القرار علی وجه الأرض فألقوه فی غیابه الجب ثم شروه بثمن بخس لیسیر به الرکبان من أرض الی أرض و یتغرّب عن أرضه و مستقر أبیه.

و قد ذکر تعالی تمکینه لیوسف فی الأرض فی خلال قصته مرتین إحداهما بعد ذکر خروجه من غیابه الجب و تسییر السیاره إیاه الی مصر و بیعه من العزیز و هو قوله فی هذه الآیه: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ و ثانیتهما بعد ذکر خروجه من سجن العزیز و انتصابه علی خزائن أرض مصر حیث قال تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّٰا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ (الآیه ۵۶ من السوره)و العنایه فی الموضعین واحده.

ص :۲۵۲

و قوله: وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ الإشاره الى ما ذكره من إخراجه من الجب و بيعه و استقراره فى بيت العزيز فإن كان المراد من تمكينه فى الأرض هذا المقدار من التمكين الذى حصل به من دخوله فى بيت العزيز و استقراره فيه على أهنإ عيش بتوصيه العزيز فالتشبيه من قبيل تشبيه الشىء بنفسه ليدل به على غزاره الاوصاف المذكوره له و ليس من القسم المذموم من تشبيه الشىء بنفسه كقوله:

كأننا و الماء من حولنا

قوم جلوس حولهم ماء

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين فى الأرض كان يماثل هذا الذى وصفناه و أخبرنا عنه فهو يتضمن من الاوصاف الغزيره ما يتضمنه ما حدثناه فهو تلطف فى البيان بجعل الشىء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع الى غزاره أوصافه و أهميتها و تعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

و من هذا الباب قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى/۱۱)و قوله تعالى: لِمِثْلِ هٰذٰا فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ (الصافات/۶۱)و المراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به اللّه سبحانه لا يشبهه و لا يماثله شىء،و أن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنه و ماثلها فى صفاتها فليعمل العاملون لأجل الفوز به.

و إن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه فى الأرض فتشبيه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلى ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها حال هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلاله على أن الأجزاء الباقيه حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف فى الأرض يجرى على هذا النمط المذكور فى قصه خروجه من الجب و دخوله مصر و استقراره فى بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه و حرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه فى غيابه الجب و سلبوه نعمه التمتع فى وطنه فى الباديه و باعوه من السياره ليغربوه من أهله فجعل اللّه سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل

به الی التمکن و الاستقرار فی بیت العزیز بمصر علی أحسن حال ثم تعلقت به امرأه العزیز و راودته هی و نسوه مصر لیوردنه فی الصبوه و الفحشاء فصرف اللّه عنه کیدهن و جعل ذلک بعینه وسیله لظهور إخلاصه و صدقه فی ایمانه ثم بدا لهم أن یجعلوه فی السجن و یسلبوا عنه حریه معاشره الناس و المخالطه لهم فتسبب اللّه سبحانه بذلک بعینه الی تمکینه فی الأرض تمکینا یتبوّأ من الأرض حیث یشاء لا یمنعه مانع و لا یدفعه دافع.

و بالجمله الآیه علی هذا التقدیر من قبیل قوله تعالی: کَذٰلِکَ یُضِلُّ اللّٰهُ الْکٰافِرِینَ (المؤمن۷۴/)و قوله: کَذٰلِکَ یَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ (الرعد۱۷/)أی إن إضلاله تعالی للکافرین یجری دائما هذا المجری،و ضربه الأمثال أبدا علی هذا النحو من المثل المضروب و هو أنموذج ینبغی أن یقال الیه غیره.

و قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ بیان لغایه التمکین المذکور و اللام للغایه،و هو معطوف علی مقدر و التقدیر:مکنا له فی الأرض لنفعل به کذا و کذا و لنعلمه من تأویل الأحادیث و إنما حذف المعطوف علیه للدلاله علی أن هناک غایات أخر لا یسعها مقام التخاطب،و من هذا القبیل قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ نُرِی إِبْرٰاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (الأنعام۷۵/)و نظائره.

و قوله: وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن و هو ما یفعله فی الخلق مما یترکب منه نظام التدبیر قال تعالی: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ (یونس۳/)،و إنما أضیف الیه تعالی لأنه مالک کل أمر کما قال تعالی: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبٰارَکَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ (الأعراف۵۴/).

و المعنی أن کل شأن من شئون الصنع و الإیجاد من أمره تعالی و هو تعالی غالب علیه و هو مغلوب له مقهور دونه یطیعه فیما شاء،ینقاد له فیما أراد،لیس له أن یستکبر او یتمرد فیخرج من سلطانه کما لیس له أن یسبقه تعالی و یفوته،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ

(الطلاق/۳).

و بالجمله هو تعالى غالب على هـذه الأسـباب الفعاله بإذنه يحمل عليها ما يريده فليس لها إلاّ السـمع و الطاعه و لكن أكثر الناس لا يعلمون لحسـبانهم أن الأسباب الظاهره مستقله فى تأثيرها فعاله برءوسها فإذا ساقت الحوادث الى جانب لم يحولها عن وجهتها شىء و قد أخطئوا (۱).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۲۲ الى ۳۴]

اشاره

وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَ راوَدَتْهُ اَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ اَلْأَبْوابَ وَ قالَتْ
هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اَللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ اَلظّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأىٰ بُرْهانَ رَبِّهِ
كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ اَلسُّوءَ وَ اَلْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُخْلَصِينَ (٢۴) وَ اِسْتَبَقَا اَلْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى
اَلْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢۵) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها
إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ اَلْكاذِبِينَ (٢۶) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ اَلصّادِقِينَ (٢٧) فَلَمّا
رَأىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا وَ اِسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ
اَلْخاطِئِينَ (٢٩) وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي اَلْمَدِينَةِ اِمْرَأَتُ اَلْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمّا
سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قالَتِ اُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلّٰهِ ما هٰذا بَشَراً إِنْ هٰذا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قالَتْ فَذٰلِكُنَّ اَلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ اَلصّاغِرِينَ (٣٢) قالَ رَبِّ اَلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلاّ تَصْرِفْ
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ اَلْجاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (٣۴)

ص: ۲۵۵

۱- ۱) .یوسف ۷-۲۱:بحث روائى حول اطعام المساكين؛يوسف و اخوته؛انواع الانبياء.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ بلوغ الأشد أن یعمر الإنسان ما تشتد به قوی بدنه و تتقوی به أرکانه بذهاب آثار الصباوه،و یأخذ ذلک من ثمانیه شرّ من عمره الی سن الکهوله التی عندها یکمل العقل و یتم الرشد.

و الظاهر أن المراد به الانتهاء الی أول سن الشباب دون التوسط فیه أو الانتهاء الی آخره کالأربعین،و الدلیل علیه قوله تعالی فی موسی علیه السّلام: وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوی آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً (القصص/۱۴)حیث دل علی التوسط فیه بقوله: «اسْتَوی» ،و قوله: حَتّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَهً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الآیه؛(الأحقاف/۱۵)فلو کان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعین لم تکن حاجه الی تکرار قوله: «بَلَغَ» .

و قوله: آتَیْناهُ حُکْماً الحکم هو القول الفصل و إزاله الشک و الریب من الامور القابله للاختلاف-علی ما یتحصل من اللغه-و لازمه إصابه النظر فی عامه المعارف الإنسانیه الراجعه الی المبدأ و المعاد و الأخلاق النفسانیه و الشرائع و الآداب المرتبطه بالمجتمع البشری.

و بالنظر الی قوله علیه السّلام لصاحبیه فی السجن: إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ (الآیه ۴۰ من السوره)، و قوله بعد: قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ (الآیه ۴۱ من السوره)،یعلم أن هذا الحکم الذی أوتیه کان هو حکم اللّه فکان حکمه حکم اللّه،و هذا هو الذی سأله إبراهیم علیه السّلام من ربه إذ قال: رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ (الشعراء/۸۳).

و قوله: وَ عِلْماً و هذا العلم المذکور المنسوب الی إیتائه تعالی کیفما کان و أی مقدار کان علم لا یخالطه جهل کما أن الحکم المذکور معه حکم لا یخالطه هوی نفسانی و لا

تسویل شیطانی کیف؟و الذی آتاهما هو اللّه سبحانه و قد قال تعالی: وَ اللّهُ غالِبٌ عَلی أَمْرِهِ (الآیه ۲۱ من السوره)،و قال: إِنَّ اللّهَ بالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق۳/)فما آتاه من الحکم لا یخالطه تزلزل الریب و الشک،و ما یؤتیه من العلم لا یکون جهلا البته.

ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهیه لیست بأعمال جزافیه و لا لغوا أو عبثا منه تعالی فالنفوس التی تؤتی هذا الحکم و العلم لا تستوی هی و النفوس الخاطئه فی حکمها المنغمره فی جهلها،و قد قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لا یَخْرُجُ إِلاّ نَکِداً (الأعراف۵۸/)و الی ذلک الإشاره بقوله: «وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» حیث یدل علی أن هذا الحکم و العلم اللذین آتاهما اللّه إیاهما اللّه إیاه لم یکونا موهبتین ابتدائیتین لا مستدعی لهما أصلا بل هما من قبیل الجزاء جزاه اللّه بهما لکونه من المحسنین.

و لیس من البعید أن یستفاد من قوله: «وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» أن اللّه تعالی یجزی کل محسن-علی اختلاف صفات الإحسان-شیئا من الحکم و العلم یناسب موقعه فی الإحسان و قد قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ (الحدید۲۸/)و قال تعالی: أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّاسِ (الأنعام۱۲۲/).

و هذا العلم المذکور فی الآیه یتضمن ما وعد اللّه سبحانه تعلیمه لیوسف من تأویل الأحادیث فإنه واقع بین قوله تعالی فی الآیات السابقه: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ» و قوله حکایه عن یوسف فی قوله لصاحبیه فی السجن: «ذلِکُما مِمّا عَلَّمَنِی رَبِّی» فافهم ذلک.

قوله تعالی: وَ راوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَیْتَ لَکَ قالَ مَعاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظّالِمُونَ قال فی المفردات:الرود هو التردد فی طلب الشیء برفق و منه الرائد لطالب الکلاء،قال:و الإراده

منقوله من راد یرود إذا سعی فی طلب شیء،قال:و المراوده أن تنازع غیرک فی الإراده فترید غیر ما یرید أو ترود غیر ما یرود،و راودت فلانا عن کذا،قال تعالی: هِیَ رٰاوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی و قال: تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ أی تصرفه عن رأیه،و علی ذلک قوله: وَ لَقَدْ رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ انتهی.

و فی المجمع:المراوده المطالبه بأمر بالرفق و اللین لیعمل به و منه المرود لأنه یعمل به، و لا یقال فی المطالبه بدین:راوده،و أصله من راد یرود إذا طلب المرعی،و فی المثل:الرائد لا یکذب أهله،و التغلیق إطباق الباب بما یعسر فتحه،و إنما شدد ذلک لتکثیر الإغلاق أو للمبالغه فی الإیثاق،انتهی.

و هیت لک اسم فعل بمعنی هلم،و معاذ اللّه أی اعوذ باللّه معاذا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله.

و الآیه الکریمه «وَ رٰاوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهٰا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوٰابَ وَ قٰالَتْ هَیْتَ لَکَ قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» علی ما فیها من الإیجاز تنبئ عن إجمال قصه المراوده غیر أن التدبر فی القیود المأخوذه فیها و السیاق الذی هی واقعه فیه و سائر ما یلوح من أطراف قصته المورده فی السوره یجلی عن حقیقه الحال و یکشف القناع عن تفصیل ما خبئ من الأمر (1).

و قوله: قٰالَ مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ الی آخر الآیه؛جواب لیوسف یقابل به مسألتها بالعیاذ باللّه یقول:أعوذ باللّه معاذا مما تدعیننی الیه لأنه ربی الذی تولی أمری و أحسن مثوای و جعلنی بذلک سعیدا مفلحا و لو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح و خرجت به من تحت ولایته.

1- 1) .یوسف ۲۲-۳۴:کلام حول قصه یوسف(یوسف،امرأه العزیز،یوسف و امرأه العزیز).

و قـد راعى عليه السّلام فى كلامه هذا أدب العبوديه كله كما تقدم و قد أتى أولا بلفظه«الجلاله» ثم بصـفه الربوبيه ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير اللّه مله آبائه إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ التدبر البالغ فى أطراف القصه و إمعان النظر فيما محتف به الجهات و الأسـباب و الشـرائط العامله فيها يعطى أن نجاه يوسف منها لم تكن إلاّ أمرا خارقا للعاده و واقعه هى أشبه بالرؤيا منها باليقظه.

فقـد كـان يوسف عليه السّلام رجلا و من غريزه الرجـال الميل الى النساء،و كان شابا بالغا أشـده و ذلك أو ان غليان الشـهوه و ثوران الشـبق،و كان ذا جمال بديع يدهش العقول و يسـلب الألباب و الجمال و الملاحه يدعو الى الهوى و الترح،و كان مستغرقا فى النعمه و هنىء العيش محبورا بمثوى كريم و ذلـك من أقوى أسـباب التهوس و الإتراف،و كانت الملكه فتاه فائقه الجمال و كذلك تكون حرم الملوك و العظماء.

و كانت لا محاله متزينه بما يأخذ بمجامع كل قلب،و هى عزيزه مصر و هى عاشقه و آلهه تتوق إليها النفوس نفسها اليه،و كانت لهـا سوابق الإكرام و الإحسـان و الإنعـام ليوسف و ذلـك كله ممـا يقطع اللسان و يصـمت الإنسان،و قـد تعرضت له و دعته الى نفسـها و الصبر مع التعرض أصـعب،و قـد راودته هـذه الفتـانه و أتت فيها بما فى مقـدرتها من الغنـج و الـدلال،و قـد ألحت عليه فجذبته الى نفسها حتى قدت قميصه و الصبر معها أصعب و أشق،و كانت عزيزه لا يرد أمرها و لا يثنى رأيها،و هى ربته خصه بها العزيز،و كانا فى قصر زاه من قصور الملوك ذى المناظر الرائقه التى تبهر العيون و تدعو الى كل عيش هنىء.

و كانـا فى خلوه و قـد غلقت الأبواب و أرخت السـتور،و كان لا يأمن الشـر مع الامتناع، و كان فى أمن من ظهور الأمر و انهتاك الستر لأنهـا كـانت عزيزه بيـدها أسـباب الستر و التعميه، و لم تكن هـذه المخالطه فائته لمره بل كان مفتاحا لعيش هنىء طويل،و كان يمكن ليوسف

أن يجعل هذه المخالطه و المعاشقه وسيله يتوسل بها الى كثير من آمال الحياه و أمانيها كالملك و العزه و المال.

فهذه أسباب و أمور هائله لو توجهت الى جبل لهدته أو أقبلت على صخره صماء لأذابتها و لم يكن هناك مما يتوهم مانعا إلاّ الخوف من ظهور الأمر أو مناعه نسب يوسف أو قبح الخيانه للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان فى أمر منه.و لو كان بدأ من ذلك شىء لكان فى وسع العزيزه أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشىء و قلبت العقوبه ليوسف حتى سجن.

و أما مناعه النسب فلو كانت مانعه لمنعت إخوه يوسف عما هو أعظم من الزنا و أشد إثما فإنهم كانوا أبناء إبراهيم و إسحاق و يعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافه النسب من أن يهموا بقتله و يلقوه فى غيابت الجب و يبيعون من السياره بيع العبيد و يثكلوا فيه أباهم يعقوب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فبكى حتى ابيضت عيناه.

و أما قبح الخيانه و حرمتها فهو من القوانين الاجتماعيه و القوانين الاجتماعيه إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعه على تقدير المخالفه،و ذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطه القوه المجريه و الحكومه العادله،و أما لو أغفلت القوه المجريه أو فسقت فأهملت أو خفى الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشىء من هذه القوانين كما سنتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السّلام ما يدفع به عن نفسه و يظهر به على هذه الأسباب القويه التى كانت لها عليه إلاّ أصل التوحيد و هو الإيمان باللّه.و إن شئت فقل المحبه الإلهيه التى ملأت وجوده و شغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلا و لا موضع إصبع.فهذا هو ما يفيده التدبر فى القصه.و لنرجع الى متن الآيه.

ص :۲۶۱

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ لا ريب أن الآيه تشير الى وجه نجاه يوسف من هذه الغائله،و السياق يعطى أن المراد بصرف السوء و الفحشاء عنه إنجاؤه مما أريد منه و سئل بالمراوده و الخلوه،و إن المشار اليه بقوله: «كَذٰلِكَ» هو ما يشتمل عليه قوله: «أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ» .

فيئول معنى قوله: «كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ» الى آخر الآيه؛الى أنه عليه السّلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء و الفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤيه برهان ربه هى السبب الذى صرف اللّه سبحانه به السوء و الفحشاء عن يوسف عليه السّلام.

و لازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: «لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ» هو ارتكاب السوء و الفحشاء،و لازم ذلك أن يكون «لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ» الخ؛قيدا لقوله: «وَ هَمَّ بِها» و ذلك يقتضى أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد الى المعصيه و يكون حينئذ همه بها داخلا تحت الشرط،و المعنى أنه لو لا أن رأى برهان ربه لهم بها و أوشك أن يرتكب فإن «لَوْ لاٰ» ،و إن كانت ملحقه بأدوات الشرط و قد منع النحاه تقدم جزائها عليها قياسا على إن الشرطيه إلاّ أن قوله: «وَ هَمَّ بِها» ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» و هو فى معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا:و اللّه لأضربنه إن يضربنى و المعنى:و اللّه إن يضربنى أضربه.

و معنى الآيه:و اللّه لقد همت به و اللّه لو لا أن رأى برهان ربه لهمّ بها و أوشك أن يقع فى المعصيه،و إنما قلنا:أوشك أن يقع،و لم نقل:وقع لأن الهم-كما قيل-لا يستعمل إلاّ فيما كان مقرونا بالمانع كقوله تعالى: وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا (التوبه۷۴/)،و قوله: إِذْ هَمَّتْ طٰائِفَتٰانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاٰ (آل عمران۱۲۲/)،و قول صخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه

و قد حيل بين العير و النزوان

فلو لا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم و الاقتراب دون الارتكاب و الاقتراف،و قد أشار سبحانه الى ذلک بقوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ» و لم يقل:لنصرفه عن السوء و الفحشاء فتدبر فيه.

و من هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمّ بها و الميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشه و هی الزنا فهو عليه السّلام لم فعل و لم يكد،و لو لا ما أراه اللّه من البرهان لهمّ و كاد أن يفعل،و هذا المعنى هو الذی يؤيده ما قدمناه من الاعتبار و التأمل فی الأسباب و العوامل المجتمعه فی هذا الحين القاضيه لها عليه.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ اللام فيه للقسم،و المعنى و أقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه و لا يكون الهم إلاّ بأن تشفع الإراده بشیء من العمل.

و قوله: وَ هَمَّ بِهٰا لَوْ لاٰ أَنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ معطوف على مدخول لام القسم من الجمله السابقه،و المعنى أقسم لو لا رؤيته برهان ربه لهمّ بها و كاد أن يجيبها لما تريده منه.

و البرهان هو السلطان و يراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزه قال تعالى: فَذٰانِكَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ (القصص/٣٢)،و قال: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّكُمْ (النساء/١٧٤)،و قال: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (النمل/۶۴)و هو الحجه اليقينيه التی تجلى الحق و لا تدع ريبا لمرتاب.

و الذی رآه يوسف عليه السّلام من برهان ربه و إن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أی حال-كان سببا من أسباب اليقين لا يجامع الجهل و الضلال بتاتا،و يدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السّلام فيما يناجی ربه كما سيأتی: وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّی كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ (الآيه ٣٣ من السوره)،و يدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال و قبحها و مصلحتها و مفسدتها أن هذا النوع من العلم قد

يجامع الضلال و المعصيه و هو ظاهر،قال تعالى: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ (الجاثيه۲۳/)و قال: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل۱۴/).

فالبرهان الذى أراه به و هو الذى يريه اللّه عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف و اليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانيه طاعه لا تميل معها الى معصيه أصلا،و سنورد فيه بعض الكلام إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ اللام فى «لِنَصْرِفَ» للغايه أو التعليل و المآل واحد و «كَذٰلِكَ» متعلق بقوله: «لِنَصْرِفَ» و الإشاره الى ما ذكر من رؤيه برهان ربه،و السوء هو الذى يسوء صدوره من العبد بما هو عبد و هو مطلق المعصيه أو الهمّ بها،و الفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعه كالزنا،و قد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء و الفحشاء على الزنا و الهمّ به.

و المعنى:الغايه-أو السبب-فى أن رأى برهان ربه هى أن نصرف عنه الفحشاء و الهمّ بها.

و من لطيف الإشاره فى الآيه ما فى قوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ» حيث أخذ السوء و الفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفا عنهما،لما فى الثانى من الدلاله على أنه كان فيه ما يقتضى اقترافهما المحوج الى صرفه عن ذلك،و هو ينافى شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين و هم الذين أخلصهم اللّه لنفسه فلا يشاركه فيهم شىء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أى داع يدعو من دون اللّه سبحانه.

و قوله: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ فى مقام التعليل لقوله: «كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ» الخ؛و المعنى:عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين،و هم يعاملون هذه المعامله.

و يظهر من الآيه أن من شأن المخلصين من عباد اللّه أن يروا برهان ربهم،و أن اللّه سبحانه يصرف كل سوء و فحشاء عنهم فلا يقترفون معصيه و لا يهمون بها بما يريهم اللّه من برهانه،

ص :۲۶۴

و هذه هی العصمه الإلهیه.

و یظهر أیضا أن هذا البرهان سبب علمی یقینی لکن لا من العلوم المتعارفه المعهوده لنا (۱).

قوله تعالی: وَ اسْتَبَقَا الْبٰابَ وَ قَدَّتْ قَمِیصَهُ مِنْ دُبُرٍ الاستباق هو التسابق و قد تقدم،و القد و القط هو الشق إلاّ أن القد هو الشق طولا و القط هو الشق عرضا،و الدبر و القبل کالخلف و الأمام.

و السیاق یعطی أن استباقهما کان لغرضین مختلفین فکان یوسف علیه السّلام یرید أن یفتحه و یتخلص منها بالخروج من البیت،و امرأه العزیز کانت ترید أن تسبقه الیه فتمنعه من الفتح و الخروج لعلها تفوز بما تریده منه،و أن یوسف سبقها الی الباب فاجتذبته من قمیصه من الوراء فقدته و لم ینقدّ إلاّ لأنه کان فی حال الهرب مبتعدا منها و إلاّ لم ینشق طولا.

و قوله: وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبٰابِ الإلفاء الوجدان یقال:ألفیته کذا أی وجدت و المراد بسیدها زوجها.قیل:إنه جری علی عرف مصر و قد کانت النساء بمصر یلقین زوجهن بالسید،و هو مستمر الی هذا الزمان.

قوله تعالی: قٰالَتْ مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِکَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ یُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ لما ألفیا سیدها لدی الباب انقلب مجلس المراوده الی موقف التحقیق،و إنما أوجد هذا الموقف وجود العزیز لدی الباب و حضورهما و الهیئه هذه الهیئه عنده،و یتکفل ما جری فی هذا الموقف قوله: «وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبٰابِ» الی تمام خمس آیات.

فبدأت امرأه العزیز تشکو یوسف الیه و تسأله أن یجازیه فذکرت أنه أراد بها سوء و علیه أن یسجنه أو یعذبه عذابا ألیما لکنها لم تصرح بذلک و لا بشیء من أطراف الواقعه بل کنّت

ص: ۲۶۵

۱- ۱) .یوسف ۲۲-۳۴:بحث تفسیری و آراء المفسرین حول الآیه «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهٰا» ؛معنی هم یوسف بها.

و أتت بحكم عام عقلائی يتضمن مجازاه من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت «مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» فلم يصرح باسم يوسف و هو المريد،و لا باسم نفسها و هی الأهل،و لا باسم السوء و هو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا فی حضره العزيز و تقديسا لساحته.

و لم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن و العذاب الأليم لأن قلبها الواله اليه المليء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن فی الإبهام نوعا من الفرج إلاّ أن فی تعبيرها بقولها:

«بِأَهْلِكَ» نوعا من التحريض عليه و تهييجه على مؤاخذته و لم يكن ذلك إلاّ كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد و الأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمه فإن صرفه عن مؤاخذه يوسف عليه السّلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبه.

قوله تعالى: قٰالَ هِيَ رٰاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي لم يبدأ يوسف عليه السّلام بالقول أدبا مع العزيز و صونا لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم ير بدا دون أن يصرح بالحق فقال «هِيَ رٰاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» و فی الكلام دلاله على القصر و هی من قصر القلب أی لم اردها بالسوء بل هی التی أرادت ذلك فراودتنی عن نفسی.

و فی كلامه هذا-و هو خال عن أقسام التأكيد كالقسم و نحوه-دلاله على سكون نفسه عليه السّلام و طمأنينته و أنه لم يحتشم و لم يجزع و لم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء و لا يخافها و لا ما اتهمته و قد استعاذ بربه حين قال «مَعٰاذَ اللّٰهِ» .

قوله تعالى: وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكٰاذِبِينَ الى آخر الآيتين.لما كانت الشهاده فی معنى القول كان قوله: «إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ» الخ؛بمنزله مقول القول بالنسبه اليه فلا حاجه الى تقدير القول قبل قوله: «إِنْ كٰانَ قَمِيصُهُ» الخ؛و قد قيل:إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهاده عبر عنه بلفظ الشهاده.

و قد أشار هذا الشاهد الى دليل ينحل به العقده و يتضح طريق القضيه فتكلم فقال «إِنْ

كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ» فإن من البين أن أحدهما صادق فى دعواه و الآخر كاذب،و كون القدّ من قبل يدل على منازعتهما و مصارعتهما بالمواجهه فالقضاء لها عليه،و إن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت و هو من الصادقين فإن كون القدّ من دبر يدل على هربه منها و تعقيبها إياه و اجتذابها له الى نفسها فالقضاء له عليها.و هو ظاهر.

و أمّا من هذا الشاهد؟فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم:كان رجلا حكيما أشار للعزيز بما أشار كما عن الحسن و قتاده و عكرمه،و قيل:كان رجلا و هو ابن عم المرأه و كان جالسا من زوجها لدى الباب،و قيل:لم يكن من الإنس و لا الجن بل خلقا من خلق اللّه كما عن مجاهد،و رد بمنافاته الصريحه لقوله تعالى: «مِنْ أَهْلِها» .

و من طرق أهل البيت عليهم السّلام و بعض طرق أهل السنه أنه كان صبيا فى المهد من أهلها، و سيجىء فى البحث الروائى التالى إن شاء اللّه تعالى.

و الذى ينبغى أن ينظر فيه أن الذى أتى به هذا الشاهد بيان عقلى و دليل فكرى يؤدى الى نتيجه هى القاضيه لأحد هذين المتداعيين على الآخر،و مثل هذا لا يسمى شهاده عرفا فإنها هى البيان المعتمد على الحس أو ما فى حكمه و بالجمله القول الذى لا يعتمد على التفكير و التعقل كما فى قوله: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ (حم السجده/ ٢٠)،و قوله: قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ (المنافقون١/)فإن الحكم بصدق الرساله و إن كان فى نفسه مستندا الى التفكر و التعقل لكن المراد بالشهاده تأديه ما عنده من الحق المعلوم قطعا من غير ملاحظه كونه عن تفكر و تعقل كما فى موارد يعبر عنه فيها بالقول و نحوه.

فليس من البعيد أن يكون فى التعبير عن قول هذا القائل بمثل «وَ شَهِدَ شاهِدٌ» إشاره الى كون ذلك كلاما صدر عنه من غير ترو و فكر فيكون شهاده لعدم اعتماده على تفكر و تعقل لا قولا يعبر به عرفا عن البيان الذى يبتنى على ترو و تفكر،و بهذا يتأيد ما ورد من الروايه أنه

كان صبيا فی المهد فقد کان ذلک بنوع من الإعجاز أيد اللّه سبحانه به قول يوسف عليه السّلام.

قوله تعالی: فَلَمّٰا رَأیٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قٰالَ إِنَّهُ مِنْ کَيْدِکُنَّ إِنَّ کَيْدَکُنَّ عَظِيمٌ ،أی فلما رأی العزيز قميص يوسف و الحال أنه مقدود مشوق من خلف،قال إن الأمر من کيدکن معاشر النساء إن کيدکن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

و نسبه الکيد الی جماعه النساء مع کونه من امرأته الدلاله علی أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء،و کيدهن معهود معروف،و لذا استعظمه و قال ثانيا «إِنَّ کَيْدَکُنَّ عَظِيمٌ» و ذلک أن الرجال اوتوا من الميل و الانجذاب اليهن ما ليس يخفی و اوتين من أسباب الاستماله و الجلب ما فی وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال و يسخرن أرواحهم بجلوات فتانه و أطوار سحاره تسلب أحلامهم،و تصرفهم الی إرادتهن من حيث لا يشعرون و هو الکيد و إراده الإنسان بالسوء و مفاد الآيه أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضی ليوسف عليه السّلام علی امرأته.

قوله تعالی: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخٰاطِئِينَ من مقول قول العزيز أی إنه بعد ما قضی له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر و أمر امرأته أن تستغفر لذنبها و من خطيئتها.

فقوله: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا يشير الی ما وقع من الأمر و يعزم علی يوسف أن يعرض عنه و يفرضه کأن لم يکن فلا يحدث به و لا يذيعه،و لم يرد فی کلامه تعالی ما يدل علی أن يوسف عليه السّلام حدث به أحدا و هو الظن به عليه السّلام کما نری أنه لم يظهر حديث المراوده للعزيز حتی اتهمته بسوء القصد فذکر الحق عند ذلک لکن کيف يخفی حديث استمر عهدا ليس بالقصير،و قد استولی عليها الوله و سلب منها الغرام کل حلم و حزم،و لم تکن المراوده مره أو مرتين و الدليل علی ذلک ما سيأتی من قول النسوه «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرٰاوِدُ فَتٰاهٰا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهٰا حُبًّا» .

و قوله: وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخاطِئِینَ یقرر لها الذنب و یأمرها أن تستغفر ربها لذلک الذنب لأنها کانت بذلک من أهل الخطیئه،و لذلک قیل «مِنَ الْخاطِئِینَ» و لم قل من الخاطئات.

و هذا کله من کلام العزیز علی ما یعطیه السیاق لا من کلام الشاهد لأنه قضاء و حکم و القضاء العزیز لا للشاهد.

قوله تعالی: وَ قالَ نِسْوَهٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنّا لَنَراها فِی ضَلالٍ مُبِینٍ قصه نسوه مصر مع یوسف فی بیت العزیز تتضمنها الآیه الی تمام ست آیات.

و الذی یعطیه التدبر فیها بما ینضم إلیها من قرائن الأحوال و ما یستوجبه طبع القصه أنه لما کان من أمر یوسف و العزیزه ما کان،شاع الخبر فی المدینه تدریجا،و صارت النساء و هن سیدات المدینه یتحدثن به فی مجامعهن و محافلهن فیما بینهن و یعیرن بذلک عزیزه مصر و یعبنها أنها تولهت الی فتاها و افتتنت به و قد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، و ضلت به ضلالا مبینا.

و کان ذلک مکرا منهن بها علی ما فی طبع أکثر النساء من الحسد و العجب فإن المرأه تغلبه العواطف الرقیقه و الإحساسات اللطیفه و رکوز لطف الخلقه و جمال الطبیعه فیها مشعوفه القلب بالزینه و الجمال متعلقه الفؤاد برسوم الدلال،و یورث ذلک فیها و خاصه فی الفتیات إعجابا بالنفس و حسدا للغیر.

فقوله تعالی: وَ قالَ نِسْوَهٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها الخ؛النسوه اسم جمع للمرأه و تقییده بقوله:فی المدینه تفید أنهن کن من جهه العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن فی شیوع الفضیحه.

و امرأه العزیز هی التی کان یوسف فی بیتها و قد راودته عن نفسه و العزیز معناه معروف،

ص :۲۶۹

و قد كان يلقب به السيد الذى اشترى يوسف من السياره و كان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

و فى قوله: تُرٰاوِدُ دلاله على الاستمرار و هو أفحش المراوده،و الفتى الغلام الشاب و المرأه فتاه،و قد شاع تسميه العبد فتى و كأنه بهذه العنايه اضيف الى ضميرها فقيل «فَتٰاهٰا» .

و فى المفردات «شَغَفَهٰا حُبًّا» أى أصاب شغاف قلبها أى باطنه.عن الحسن،و قيل:

وسطه.عن أبى على،و هما يتقاربان انتهى.و شغاف القلب غلافه المحيط به.

و المعنى:و قال عده من نساء المدينه لا يخلو قولهن من أثر فيها و فى حقها:امرأه تستمر فى مراوده عبدها عن نفسه و لا يحرى بها ذلك لأنها مرأه و من القحه أن تراود المرأه الرجل بل ذاك-إن كان-من طبع الرجال و إنها امرأه العزيز فهى عزيزه مصر فمن الواجب الذى لا معدل عنه أن تراعى شرف بيتها و عزه زوجها و مكانه نفسها،و إن الذى علقت به عبدها و من الشنيع أن يتوله مثلها و هى عزيزه مصر بعبد عبرانى من جمله عبيده،و إنها أحبته و تعدت ذلك الى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت و استمرت على مراودته و ذلك أقبح و أشنع و أمعن فى الضلال.

و ذلك عقبن قوله: «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرٰاوِدُ» الخ؛بقولهن: «إِنّٰا لَنَرٰاهٰا فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» .

قوله تعالى: فَلَمّٰا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَهٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً قال فى المجمع:المكر هو القتل بالحيله على ما يراد من الطلبه.انتهى.و تسميه هذا القول منهن مكرا بامرأه العزيز لما فيه من فضاحتها و هتك سترها من ناحيه رقيباتها حسدا و بغيا،و إنما أرسلت اليهن لتريهن يوسف و تبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها و يعذرنها فى حبه.

و على هذا إنما سمى قولهن مكرا و نسب السمع اليه لأنه صدر منهن حسدا و بغيا لغايه

فضاحتها بين الناس.

و قوله: أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ معناه معلوم و هو كنايه عن الدعوه الى الحضور عندها.

و قوله: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً الإعتاد الإعداد و المراد به ما يتكأ عليه من نمرق أو كرسى كما كان معمولا فى بيوت العظماء.

و فسر المتكأ بالاترج و هو نوع من الفاكهه كما قرئ فى الشواذ «مُتْكاً» بالضم فالسكون و هو الاترج و قرئ «مُتَّكاً» بضم الميم و تشديد التاء من غير همز.

و قوله: وَ آتَتْ كُلَّ وٰاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً أى لقطع ما يرون أكله من الفاكهه كالاترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكوله بالقطع و قوله: «وَ قٰالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» أى أمرت يوسف أن يخرج عليهن و هن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهه و قطعها،و فى اللفظ دلاله على أنه عليه السّلام كان غائبا عنهن و كان فى مخدع هناك أو بيت آخر فى داخل بيت المأدبه الذى كن فيه فإنها قالت «اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» و لو كان فى خارج من البيت لقالت«ادخل عليهن».

و فى السياق دلاله على أن هذا التدبير كان مكرا منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عذلنها،و قد أصابت فى رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاه فأعتدت لهن متكأ و آتت كل واحده منهن سكينا،و أخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعه لهن ليغبن عن عقولهن،و يندهشن بذاك الجمال البديع و يأتين بما لا يأتى به ذو شعور البته و هو تقطيع الأيدى مكان الفواكه لا من الواحده و الثنتين منهن بل من الجميع.

قوله تعالى: فَلَمّٰا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَراً إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ مَلَكٌ كَرِيمٌ الإكبار الإعظام و هو كنايه عن اندهاشهن و غيبتهن عن شعورهن و إرادتهن بمفاجأه مشاهده ذاك الحسن الرائع طبقا للناموس الكونى العام و هو خضوع الصغير للكبير و قهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته و كبريائه لشعور

الإنسان قهر سائر ما فی ذهنه من المقاصد و الأفکار فأنساها و صار یتخبط فی أعماله.

و لـذلک لمـا رأینه قهرت رؤیته شعورهن فقطعن ایـدیهن تقطیعـا مکان الفاکهه التی کن یردن قطعها،و فی صـیغه التفعیل دلاله علی الکثره یقال:قتل القوم تقتیلا و موّتهم الجدب تمویتا.

و قوله: وَ قُلْنَ حاشَ لِلّهِ تنزیه للّه سبحانه فی أمر یوسف و هذا کقوله تعالی: ما یَکُونُ لَنا أَنْ نَتَکَلَّمَ بِهذا سُبْحانَکَ هذا بُهْتانٌ عَظِیمٌ (النور۱۶/)و هـو أدب الکلام عنـد الملیین إذا جری القول فی أمر فیه نوع تنزیه و تـبرئه لأحـد یبـدأ فینزه اللّه سـبحانه ثم یشـتغل بتنزیه من ارید تنزیهه فهن لما أردن تنزیه علیه السّلام بقولهن: «ما هذا بَشَراً» الخ؛بدأن بتنزیهه تعالی،ثم أخذن ینزهنه.

و قوله: ما هـذا بَشَراً إِنْ هـذا إِلاّ مَلَکٌ کَرِیمٌ نفی أن یکون یوسف علیه السّـلام بشـرا و إثبات أنه ملک کریم،و هـذا بناء علی ما یعتقـده الملیون و منهم الوثنیون أن الملائکه موجودات شـریفه هم مبـادئ کل خیر و سـعاده فی العالم منهم یترشـح کل حیاه و علم و حسن و بهاء و سـرور و سائر ما یتمنی و یؤمل من الامور ففیهم کل جمال صوری و معنوی، و إذا مثلوا تخیلوا فی حسن لا یقدر بقدر،و یتصوره أصحاب الأصنام فی صور إنسانیه حسنه بهیه.

و لعل هذا هو السـبب فی قولهن: «إِنْ هذا إِلاّ مَلَکٌ کَرِیمٌ» حیث لم یصفنه بما یدل علی حسن الوجه و جمال المنظر مع أن الذی فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه و اعتدال صورته بل سـمینه ملکا کریما لتکون فیه إشاره الی حسن صورته و سیرته معا،و جمال خلقه و خلقه و ظاهره و باطنه جمیعا.و اللّه أعلم.

و تقـدم قولهن هذا علی قول امرأه العزیز:«فذلکن الذی لمتننی فیه»یدل علی أنهن لم یفهمهن بهذا الکلام إعذار لامرأه العزیز فی حبها له و تیمها و غرامها به،و إنما کان ذلک اضطرارا

ص: ۲۷۲

منهن على الثناء عليه و إظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن و توله قلوبهن اليه فقد كان فيه فضاحتهن،و لم تقل امرأه العزيز«فذلكن الذى لمتنى فيه»إلاّ بعد ما فضحتهن فعلا و قولا بتقطيع الأيدى و تنزيه الحسن فلم يبق لهن إلاّ أن يصدقنها فيما تقول و يعذرنها فيما تفعل.

قوله تعالى: قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ الى آخر الآيه؛الكلام فى موضع دفع الدخل كأن قائلا يقول:فما ذا قالت امرأه العزيز لهن؟فقيل «قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ» .

و قد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن و فعلهن و أشارت الى شخص الذى لمنها فيه و وصفته بأنه الذى لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها و عزه زوجها و عفه نفسها فى حبه،و عذرا قبال لومهن إياها فى مراودته،و أقوى البيان أن يحال السامع الى العيان،و من هذا الباب قوله تعالى: أَ هٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ (الأنبياء/ ٣۶)،و قوله: رَبَّنَا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا (الأعراف٣٨/).

ثم اعترفت بالمراوده و ذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفه و طلب العصمه،و إنما استرسلت و أظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما تخفيه لما رأت موافقه القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن و نبهت يوسف أنها غير تاركته فلوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، و هذا معنى قولها: «وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» .

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقه و سياسته لو خالف فقالت «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» و قد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم و النون و اللام و نحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيمه جازمه،و عندها ما يجبره على ما أرادته و لو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحه،و الصغار و الهوان بعد الإكرام و الاحترام،و فى الكلام تجلد و نوع تعزز و تمنع بالنسبه اليهن و نوع تنبيه و تهديد بالنسبه الى يوسف عليه السّلام.

ص :٢٧٣

و هـذا التهديـد الذى يتضـمنه قولها: «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» أشد و أهول مما سألته زوجها يوم المراوده بقولها: «مٰا جَزٰاءُ مَنْ أَرٰادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّٰ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ» .

أما أولا:فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن و العذاب الاليم و جمع هاهنا بين الجزاءين و هو السجن و الكون من الصاغرين.

و أمـا ثانيا:فلانها هاهنا قامت بالتهديـد بنفسـها لا بأن تسأل زوجها،و كلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه و لا يرجع عما حزم به.و قد حققت أنها تملك قلب زوجها و تقدر أن تصرفه مما يريده الى ما تريده،و تقوى على التصرف فى أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: قٰالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلاّٰ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ قال الراغب فى المفردات:صبا فلان يصبو صبوا و صبوه إذا نزع و اشتاق و فعل فعل الصبيان،قال تعالى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجٰاهِلِينَ» انتهى.و فى المجمع:الصبوه لطافه الهوى.انتهى.

تفاوضت امرأه العزيز و النسوه فقالت و قلن و استرسلن فى بت ما فى ضـمائرهن و يوسف عليه السّلام واقف أمامهن يـدعونه و يراودونه عن نفسه لكن يوسف عليه السّلام لم يلتفت اليهن و لا كلمهن و لا بكلمه بـل رجع الى ربه الـذى ملـك قلبه بقلب لا مكان فيه إلاّ له و لا شغل لا إلاّ به «قٰالَ:رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّٰا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» الخ.

و قوله هـذا ليس بدعاء على نفسه بالسـجن و أن يصرف اللّه عنه ما يدعونه اليه بالقائه فى السـجن،و إنما هو بيان حال لربه و أنه عن تربيه إلهيه يرجح عـذاب السـجن فى جنب اللّه على لذه المعصيه و البعد منه،فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأه العزيز حين خلت به و راودته عن نفسه «مَعٰاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوٰايَ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ» ففى الكلامين معا تمنع و تعزز باللّه،و إنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأه العزيز و بالآخر ربه القوى العزيز و ليس شىء

من الکلامین دعاء البته.

و فی قوله: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ الخ؛نوع توطئه لقوله: «وَ إِلاّ تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ» الخ؛الذی هو دعاء فی صوره بیان الحال.

فمعنی الآیه:رب إنی لو خیرت بین السجن و بین ما یدعوننی الیه لاخترت السجن علی غیره و أسألک أن تصرف عنی کیدهن فإنک إن لا تصرف عنی کیدهن أنتزع و أمل الیهن و أکن من الجاهلین فإنی إنما أتوقی شرهن بعلمک الذی علمتنیه و تصرف به عنی کیدهن فإن أمسکت عن إفاضته علی صرت جاهلا و وقعت فی مهلکه الصبوه و الهوی.

قوله تعالی: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ کَیْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ أی استجاب اللّه مسألته فی صرف کیدهن عنه حین قال «وَ إِلاّ تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ» إنه هو السمیع بأقوال عباده العلیم بأحوالهم (۱)(۲).

[سوره یوسف (۱۲): الآیات ۳۵ الی ۴۲]

اشاره

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا اَلْآیاتِ لَیَسْجُنُنَّهُ حَتّی حِینٍ (۳۵) وَ دَخَلَ مَعَهُ اَلسِّجْنَ فَتَیانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّی أَرانِی أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ اَلْآخَرُ إِنِّی أَرانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبْزاً تَأْکُلُ اَلطَّیْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِیلِهِ إِنّا نَراکَ مِنَ اَلْمُحْسِنِینَ (۳۶) قالَ لا یَأْتِیکُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاّ نَبَّأْتُکُما بِتَأْوِیلِهِ قَبْلَ أَنْ یَأْتِیَکُما ذلِکُما مِمّا عَلَّمَنِی رَبِّی إِنِّی تَرَکْتُ مِلَّهَ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ کافِرُونَ (۳۷) وَ اِتَّبَعْتُ مِلَّهَ آبائِی إِبْراهِیمَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ ما کانَ لَنا أَنْ نُشْرِکَ بِاللّهِ مِنْ شَیْءٍ ذلِکَ مِنْ فَضْلِ اَللّهِ عَلَیْنا وَ عَلَی اَلنّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یَشْکُرُونَ (۳۸) یا صاحِبَیِ اَلسِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اَللّهُ اَلْواحِدُ اَلْقَهّارُ (۳۹) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ ما أَنْزَلَ اَللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ اَلْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِیّاهُ ذلِکَ اَلدِّینُ اَلْقَیِّمُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۴۰) یا صاحِبَیِ اَلسِّجْنِ أَمّا أَحَدُکُما فَیَسْقِی رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا اَلْآخَرُ فَیُصْلَبُ فَتَأْکُلُ اَلطَّیْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِیَ اَلْأَمْرُ اَلَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِی ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اُذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ فَأَنْساهُ اَلشَّیْطانُ ذِکْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِی اَلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِینَ (۴۲)

۱- ۱) .یوسف ۲۲-۳۴:ابحاث حول التقوی الدینی و درجاته فی فصول(القانون و الاخلاق الکریمه و التوحید،یحصل التقوی الدینی بأحد امور ثلاثه،کیف یورث الحب الاخلاص).

۲- ۲) .یوسف ۲۲-۳۴:بحث روائی حول قصه یوسف علیه السّلام؛معنی هم یوسف بها.

بیان:

قوله تعالی: ثُمَّ بَدٰا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا رَأَوُا الْآيٰاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتّٰى حِينٍ البداء هو ظهور رأی بعد ما لم یکن یقال؟بدا لی فی أمر کذا أی ظهر لی فیه رأی جدید، و الضمیر فی قوله: «لَهُمْ» الی العزیز و امرأته و من یتلوهما من أهل الاختصاص و أعوان الملک و العزه.

و المراد بالآیات الشواهد و الأدله الداله علی براءه یوسف علیه السّلام و طهاره ذیله مما اتهموه به

ص: ۲۷۶

كشهاده الصبى و قدّ القميص من خلفه و استباقهما الباب معا،و لعل منها تقطيع النسوه أيديهن برؤيته و استعصامه عن مراودتهن إياه عن نفسه و اعتراف امرأه العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

و قوله: لَيَسْجُنُنَّهُ اللام فيه للقسم أى أقسموا و عزموا ليسجننه البته،و هو تفسير للرأى الذى بدا لهم،و يتعلق به قوله: «حَتّٰى حِينٍ» و لا يخلو من معنى الانتظار بالنظر الى قطع حين عن الإضافه و المعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراوده الشائع فى المدينه و ينساه الناس.

و معنى الآيه:ثم ظهر للعزيز و من يتلوه من امرأته و سائر مشاوريه رأى جديد فى يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الداله على براءته و عصمته و هو أن يسجنوه حينا من الزمان حتى ينسى حديث المراوده الذى يجلب لهم العار و الشين و أقسموا على ذلك.

و يظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحه بيت العزيز و صونا لاسرته عن هوان التهمه و العار،و لعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينه العام و لا يخلوا الناس و خاصه النساء أن يفتتنوا به فإن الحسن الذى أوله امرأه العزيز و السيدات من شرفاء المدينه و فعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم فى المدينه بلوى.

لكن الذى يظهر من قوله فى السجن لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ النِّسْوَةِ اللاّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» الى آخر ما قال،ثم قول الملك لهن:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه،و قولهن:حاش للّه ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأه العزيز:الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين،كل ذلك يدل على أن المرأه ألبست الأمر بعد على زوجها و أرابته فى براءه يوسف عليه السّلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك فى ذلك،و لم يكن ذلك إلاّ عن سلطه تامه منها عليه و تمكن كامل من قلبه و رأيه.

و على هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمه الناس عن نفسها و تؤدب

يوسف لعله ينقاد لها و يرجع الى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوه بقولها: «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مٰا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصّٰاغِرِينَ» .

قوله تعالى: وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيٰانِ الى آخر الآيه؛الفتى العبد و سياق الآيات يدل على أنهما كانا عبدين من عبيد الملك،و قد وردت به الروايات كما سيأتى إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: قٰالَ أَحَدُهُمٰا إِنِّى أَرٰانِى أَعْصِرُ خَمْراً فصل قوله: «قٰالَ أَحَدُهُمٰا» للدلاله على الفصل بين حكايه الرؤيا و بين الدخول كما يشعر به ما فى السياق من قوله:

«أَرٰانِى» و خطابه له بصاحب السجن.

و قوله: أَرٰانِى لحكايه الحال الماضيه كما قيل،و قوله: «أَعْصِرُ خَمْراً» أى أعصر عنبا كما يعصر ليتخذ خمرا فقد سمى العنب خمرا باعتبار ما يؤول اليه.

و المعنى أصبح أحدهما و قال ليوسف عليه السّلام إنى رأيت فيما يرى النائم أنى أعصر عنبا للخمر.

و قوله: وَ قٰالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرٰانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ أى تنهشه و هى رؤيا أخرى ذكرها صاحبه.و قوله: «نَبِّئْنٰا بِتَأْوِيلِهِ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى قالا نبئنا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: «قٰالَ» «وَ قٰالَ» و هذا من لطائف تفنن القرآن،و الضمير فى قوله: «بِتَأْوِيلِهِ» راجع الى ما يراه المدلول عليه بالسياق، و فى قوله: «إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» تعليل لسؤالهما التأويل و «نَرٰاكَ» أى نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم،و إنما أقبلا عليه فى تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامه الناس أن المحسنين الأبرار ذووا قلوب طاهره و نفوس زاكيه فهم ينتقلون الى روابط الامور و جريان الحوادث انتقالا أحسن و أقرب الى الرشد من انتقال غيرهم.

و المعنى:قال أحدهما ليوسف:إنى رأيت فيما يرى النائم كذا و قال الآخر:إنى رأيت

كذا،و قالا له:أخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لأنا نعتقد أنك من المحسنين،و لا يخفى لهم أمثال هذه الامور الخفيه لزكاء نفوسهم و صفاء قلوبهم.

قوله تعالى: قَالَ لاٰ يَأْتِيكُمٰا طَعٰامٌ تُرْزَقٰانِهِ إِلاّٰ نَبَّأْتُكُمٰا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمٰا لما أقبل صاحبا السجن على يوسف عليه السّلام فى سؤاله عن تأويل رؤيا رأياها عن حسن ظن به من جهه ما كانا يشاهدان منه سيماء المحسنين اغتنم عليه السّلام الفرصه فى بث ما عنده من أسرار التوحيد و الدعوه الى ربه سبحانه الذى علمه ذلك فأخبرهما أنه عليم بذلك بتعليم من ربه خبير بتأويل الأحاديث و توسل بذلك الى الكشف عن سر التوحيد و نفى الشركاء ثم أول رؤياهما.

فقال أولا:لا يأتيكما طعام ترزقانه-و أنتما فى السجن-إلاّ نبأتكما بتأويله-أى بتأويل ذاكما الطعام و حقيقته و ما يؤول اليه أمره-فأنا خبير بذلك فليكن آيه لصدقى فيما أدعوكما اليه من دين التوحيد.

هذا على تقدير عود الضمير فى قوله: «بِتَأْوِيلِهِ» الى الطعام،و يكون عليه إظهارا منه عليه السّلام لآيه نبوته نظير قول المسيح عليه السّلام لبنى إسرائيل: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَهً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران۴۹/)،و يؤيد هذا المعنى بعض الروايات الوارده من طرق أهل البيت عليهم السّلام كما سيأتى فى بحث روائى إن شاء اللّه تعالى.

و أما على تقدير عود ضمير «بِتَأْوِيلِهِ» الى ما رأياه من الرؤيا فقوله: «لاٰ يَأْتِيكُمٰا طَعٰامٌ» الخ؛وعد منه لهما تأويل رؤياهما و وعد بتسريعه غير أن هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر الى السياق.

قوله تعالى: ذٰلِكُمٰا مِمّٰا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّهَ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كٰافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّهَ آبٰائِى إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ

بين عليه السّلام أن العلم و التنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادى الاكتسابى فى شىء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه ملة المشركين و اتباعه ملة آبائه إبراهيم و إسحاق و يعقوب أى رفضه دين الشرك و أخذه بدين التوحيد.

و المشركون من أهل الأوثان يعتقدون باللّه سبحانه و يثبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم فى الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذى يقدر له شركاء فى التأثير أو فى استحقاق العباده ليس هو اللّه و كذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد فى شيء،و لذلك نفى عليه السّلام عنهم الإيمان باللّه و بالآخره،و أكد كفرهم بالآخره بتكرار الضمير حيث قال «وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ» و ذلك لأن من لا يؤمن باللّه فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد اليه.

و هذا الذى يقصه اللّه سبحانه من قول يوسف عليه السّلام «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبٰائِي إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ» هو أول ما أنبأ فى مصر نسبه و أنه من أهل بيت إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنٰا وَ عَلَى النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَشْكُرُونَ أى لم يجعل اللّه سبحانه لنا أهل البيت سبيلا الى أن نشرك به شيئا و منعنا من ذلك،ذلك المنع من فضل اللّه و نعمته علينا أهل البيت و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به.

و أما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم الى أن يشركوا به فليس جعل إجبار و إلجاء بل جعل تأيد و تسديد حيث أنعم عليهم بالنبوه و الرساله و اللّه أعلم حيث يجعل الرساله فاعتصموا باللّه عن الشرك و دانوا بالتوحيد.

و أما أن ذلك من فضل اللّه عليهم و على الناس فلأنهم أيدوا بالحق و هو أفضل الفضل و الناس فى وسعهم أن يرجعوا اليهم فيفوزوا باتباعهم و يهتدوا بهداهم.

و أما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمه و هى النبوه و الرساله فلا

یعبئون بها و لا یتبعون أهلها أو لأنهم یکفرون بنعمه التوحید و یتخذون للّه سبحانه شرکاء من الملائکه و الجن و الإنس یعبدونهم من دون اللّه.

هذا ما ذکره أکثر المفسرین فی معنی الآیه.

و یبقی علیه شیء و هو أن التوحید و نفی الشرکاء لیس مما یرجع فیه الی بیان النبوه فإنه مما یستقل به العقل و تقضی به الفطره فلا معنی لعده فضلا علی الناس من جهه الاتباع بل هم و الأنبیاء فی أمر التوحید علی مستوی واحد و شرع سواء و لو کفروا بالتوحید فإنما کفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطره لا لعدم اتباع الأنبیاء (۱).

قوله تعالی: یَا صَاحِبَیِ السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ لفظه الخیر بحسب الوزن صفه من قولهم:خار یخار خیره إذا انتخب و اختار أحد شیئین یتردد بینهما من حیث الفعل أو من حیث الأخذ بوجه فالخبر منهما هو الذی یفضل علی الآخر فی صفه المطلوبیه فیتعین الأخذ به فخیر الفعلین هو المطلوب منهما الذی یتعین القیام به و خیر الشیئین هو المطلوب منهما من جهه الأخذ به کخیر المالین من جهه التمتع به و خیر الدارین من جهه سکناها و خیر الانسانین من جهه مصاحبته،و خیر الرأیین من جهه الأخذ به،و خیر الإلهین من جهه عبادته،و من هنا ذکر أهل الأدب أن الخیر فی الأصل «أخیر»أفعل تفضیل،و الحقیقه أنه صفه مشبهه تفید بحسب الماده ما یفیده أفعل التفضیل من الفضل فی القیاس.

و بما مر یتبین أن قوله علیه السّلام: «أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَیْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ» الخ؛مسوق لبیان الحجه علی تعینه تعالی للعباده إذا فرض تردد الأمر بینه و بین سائر الأرباب التی تدعی من دون اللّه لا لبیان أنه تعالی هو الحق الموجود دون غیره من الأرباب أو أنه تعالی هو

۱- ۱) .یوسف ۳۵-۴۲:کلام فی التوحید و نفی الشرکاء.

الإله الـذى تنتهى اليه الأشياء بدءا و عودا دونها أو غير ذلك فإنه الشىء إنما يسمى خيرا من جهه طلبه و تعيينه بالأخذ به بنحو فقوله عليه السّلام:أ هو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعين أحد الطرفين من جهه الأخذ به و الأخذ بالرب هو عبادته.

ثم إنه عليه السّلام سمى آلهتهم أربابا متفرقين لأنهم كانوا يعبدون الملائكه و هم عندهم صفات اللّه سبحانه أو تعينات ذاته المقدسه التى تستند إليها جهات الخير و السعاده فى العالم فيفرقون بين الصفات بتنظيمها طولا و عرضا و يعبدون كلا بما يخصه من الشأن فهناك إله العلم و إله القدره و إله السماء و إله الأرض و إله الحسن و إله الحب و إله الأمن و إله الخصب و غير ذلك،و يعبدون الجن و هم مبادئ الشر فى العالم كالموت و الفناء و الفقر و القبح و الألم و الغم و غير ذلك،و يعبدون أفراد كالكملين من الأولياء و الجبابره من السلاطين و الملوك و غيرهم،و هم جميعا متفرقون من حيث أعيانهم و من حيث أصنامهم و التماثيل المتخذه لهم المنصوبه للتوجه بها اليهم.

و قابل الأرباب المتفرقين بذكر اللّه عز اسمه و وصفه بالواحد القهار حيث قال «أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» فالكلمه تفيد بحسب المعنى خلاف ما يفيده قوله: «أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ» لضروره التقابل بين طرفى الترديد.

قوله تعالى: مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ أَسْمٰاءً سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ آبٰاؤُكُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ أَمَرَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ الخ؛ بدأ عليه السّلام بخطاب صاحبيه فى السجن أولا ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما و بين غيرهما من عبده الأوثان.

و نفى العباده إلاّ عن الأسماء كنايه عن أنه لا مسميات وراء هذه الأسماء فتقع العباده فى مقابل الأسماء كلفظه إله السماء و إله الأرض و إله البحر و إله البر و الأب و الام و ابن الإله و نظائر ذلك.

و قد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: «أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ» فإنه في معنى الحصر أی لم یضع هذه الأسامی أحد غيركم بل أنتم و آباؤكم وضعتموها،ثم أكده ثانيا بقوله: «مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» و السلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أی ما أنزل اللّه بهذه الأسماء أو بهذه التسميه من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها،و حينئذ كان يثبت لها الالوهيه أی المعبوديه فصحت عبادتكم لها.

و من الجائز أن يكون ضمير «بِهَا» عائدا الى العباده أی ما أنزل اللّه حجه على عبادتها بأن يثبت لها شفاعه و استقلالا فی التأثير حتى تصح عبادتها و التوجه إليها فإن الأمر الى اللّه على كل حال.و اليه أشار بقوله بعده: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» .

و هو أعنى قوله: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ مما لا ريب فيه البته إذ الحكم فی أمر ما لا يستقيم إلاّ ممن يملك تمام التصرف،و لا مالك للتصرف و التدبير فی امور العالم و تربيه العباد حقيقه إلاّ اللّه سبحانه فلا حكم بحقيقه المعنى إلاّ له.

و هو أعنى قوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» مفيد فيما قبله و ما بعده صالح لتعليلهما معا،أما فائدته فی قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» فقد ظهرت آنفا،و أما فائدته فی قوله بعد:

«أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه»فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» متضمن لجانب السلب،و حكمه تعالى نافذ فی الجانبين معا فكأنه لما قيل «مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» قيل«فما ذا حكم به فی أمر العباده»فقيل«أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه»و لذلك جیء بالفعل.

و معنى الآيه-و اللّه أعلم-ما تعبدون من دون اللّه إلاّ أسماء خاليه عن المسميات لم يضعها إلاّ أنتم و آباؤكم من غير أن ينزل اللّه سبحانه من عنده برهانا يدل على أن لها شفاعه عند اللّه أو شيئا من الاستقلال فی التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها،أو طمعا فی خيرها أو خوفا من شرها.

و أما قوله: ذٰلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ فيشـير به الى ما ذكره من توحيد اللّه و نفى الشـريك عنه،و القيم هو القـائم بالأمر القوى على تـدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل و المتضـعضع،و المعنى أن دين التوحيـد وحـده هو القوى على إداره المجتمع و سوقه الى منزل السـعاده،و الـدين المحكم غير المتزلزل الـذى فيه الرشـد من غير غى و الحقيه من غير بطلاـن،و لكن أكثر النـاس لانسـهم بـالحس و المحسوس و انهمـا كهم فى زخـارف الـدنيا الفانيه حرموا سـلامه القلب و اسـتقامه العقل لا يعلمون ذلك،و إنما يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا و هم عن الآخره معرضون.

أمـا أن التوحيـد دين فيه الرشـد و مطـابقه الواقع فيكفى فى بيـانه ما أقامه عليه السّـلام من البرهان، و أما أنه هو القوى على إداره المجتمع الإنسانى فلأن هذا النوع إنما يسـعد فى مسير حياته إذا بنى سنن حياته و أحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافى لا يعتمد على أصل ثابت (۱).

قوله تعـالى: يٰا صٰاحِبَىِ السِّجْنِ أَمّٰا أَحَدُكُمٰا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ معنى الآيه ظاهر،و قرينه المناسبه قاضيه بأن قوله: «أَمّٰا أَحَدُكُمٰا» الخ؛تأويل رؤيا من قال منهما «إِنِّى أَرٰانِى أَعْصِرُ خَمْراً» و قوله: «وَ أَمَّا الْآخَرُ» الخ؛تأويل لرؤيا الآخر.

و قوله: قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ لا يخلو من إشـعار بأن الصاحبين أو أحدكما كذب نفسه فى دعواه الرؤيا و لعله الثانى لما سمع تأويل رؤياه بالصلب و أكل الطير من رأسه،و يتأيد بهذا ما ورد من الروايه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الثانى من الصاحبين قال له:إنى كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا فقال عليه السّلام «قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ»

۱- ۱) .يوسف ۳۵-۴۲:برهان على توحيد العباده للّه تعالى.

أی إن التأویل الذی استفتیتما فیه مقضیّ مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالی: وَ قٰالَ لِلَّذِی ظَنَّ أَنَّهُ نٰاجٍ مِنْهُمَا اذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ فَأَنْسٰاهُ الشَّیْطٰانُ ذِکْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِی السِّجْنِ بِضْعَ سِنِینَ الضمائر فی قوله: «قٰالَ» و «ظَنَّ» و «فَلَبِثَ» راجعه الی یوسف أی قال یوسف للذی ظن هو أنه سینجو منهما:اذکرنی عند ربک بما یثیر رحمته لعله یخرجنی من السجن.

و إطلاق الظن علی اعتقاده مع تصریحه لهما بأنه من المقضیّ المقطوع به و تصریحه بأن ربه علّمه تأویل الأحادیث لعله من إطلاق الظن علی مطلق الاعتقاد و له نظائر فی القرآن کقوله تعالی: اَلَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ (البقره۴۶/).

و قوله: فَأَنْسٰاهُ الشَّیْطٰانُ ذِکْرَ رَبِّهِ الخ؛الضمیران راجعان الی«الذی»أی فأنسی الشیطان صاحبه الناجی أن یذکره لربه أو عند ربه فلبث یوسف فی السجن بضع سنین و البضع ما دون العشره فإضافه الذکر الی ربه من قبیل إضافه المصدر الی معموله المعدی الیه بالحرف أو الی المظروف بنوع من الملابسه.

و أما إرجاع الضمیرین الی یوسف حتی یفید أن الشیطان أنسی یوسف ذکر اللّه سبحانه فتعلق بذیل غیره فی نجاته من السجن فعوقب علی ذلک فلبث فی السجن بضع سنین کما ذکره بعضهم و ربما نسب الی الروایه.

فمما یخالف نص الکتاب فإن اللّه سبحانه نص علی کونه علیه السّلام من المخلصین و نص علی أن المخلصین لا سبیل للشیطان الیهم مضافا الی ما أثنی اللّه علیه فی هذه السوره.

و الإخلاص للّه لا یستوجب ترک التوسل بالأسباب فإن ذلک من أعظم الجهل لکونه طمعا فیما لا مطمع فیه بل إنما یوجب ترک الثقه بها و الاعتماد علیها و لیس فی قوله: «اذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ» ما یشعر بذلک البته.

علی أن قوله تعالی بعد آیتین: «وَ قٰالَ الَّذِی نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّهٍ» الخ؛قرینه صالحه

على أن الناسى هو الساقى دون يوسف.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ۴۳ الى ۵۷]

اشاره

وَ قٰالَ اَلْمَلِكُ إِنِّى أَرىٰ سَبْعَ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يٰابِسٰاتٍ يٰا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيٰاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيٰا تَعْبُرُونَ (۴۳) قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ اَلْأَحْلاٰمِ بِعٰالِمِينَ (۴۴) وَ قٰالَ اَلَّذِى نَجٰا مِنْهُمٰا وَ اِدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا اَلصِّدِّيقُ أَفْتِنٰا فِى سَبْعِ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاٰتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يٰابِسٰاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى اَلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قٰالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمٰا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تَأْكُلُونَ (۴۷) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدٰادٌ يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عٰامٌ فِيهِ يُغٰاثُ اَلنّٰاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹) وَ قٰالَ اَلْمَلِكُ اِئْتُونِى بِهِ فَلَمّٰا جٰاءَهُ اَلرَّسُولُ قٰالَ اِرْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ اَلنِّسْوَةِ اَللاّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قٰالَتِ اِمْرَأَةُ اَلْعَزِيزِ اَلْآنَ حَصْحَصَ اَلْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۵۱) ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِى كَيْدَ اَلْخٰائِنِينَ (۵۲) وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ اَلنَّفْسَ لَأَمّٰارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) وَ قٰالَ اَلْمَلِكُ اِئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمّٰا كَلَّمَهُ قٰالَ إِنَّكَ اَلْيَوْمَ لَدَيْنٰا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قٰالَ اِجْعَلْنِى عَلىٰ خَزٰائِنِ اَلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذٰلِكَ مَكَّنّٰا لِيُوسُفَ فِى اَلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَيْثُ يَشٰاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ اَلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

بیان:

قوله تعالی: وَ قٰالَ الْمَلِكُ إِنِّی أَرىٰ سَبْعَ بَقَرٰاتٍ سِمٰانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجٰافٌ الی آخر الآیه؛رؤیا للملک یخبر بها الملأ و الدلیل علیه قوله: «يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيٰايَ» و قوله: «إِنِّی أَرىٰ» حکایه حال ماضیه،و من المحتمل أنها کانت رؤیا متکرره کما یحتمل مثله فی قوله سابقا: «إِنِّی أَرٰانِی أَعْصِرُ خَمْراً» «إِنِّی أَرٰانِی أَحْمِلُ» الخ.

و السمان جمع سمینه و العجاف جمع عجفاء بمعنی المهزوله،قال فی المجمع:و لا یجمع فعلاء

ص: ۲۸۷

على فعال غير العجفاء على عجاف و القياس فى جمعه العجف بضم العين و سكون الجيم كالحمراء و الخضراء و البيضاء على حمر و خضر و بيض،و قال غيره:إن ذلك من قبيل الاتباع و الجمع القياسى عجف.

و الإفتاء إفعال من الفتوى و الفتيا،قال فى المجمع:الفتيا الجواب عن حكم المعنى و قد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا انتهى.

و قوله: تَعْبُرُونَ من العبر و هو بيان تأويل الرؤيا و قد يسمى تعبيرا،و هو على أى حال مأخوذ من عبور النهر و نحوه كأن العابر يعبر من الرؤيا الى ما وراءها من التأويل،و هو حقيقه الأمر التى تمثلت لصاحب الرؤيا فى صوره خاصه مألوفه له.

و معنى الآيه:و قال ملك مصر لملئه إنى أرى فى منامى سبع بقرات سمات يأكلهن سبع بقرات مهازيل و أرى سبع سنبلات خضر و سنبلات أخر يابسات يا أيها الملأ بينوا لى ما عندكم من حكم رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون.

قوله تعالى: قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ الأحلام جمع حلم بضمتين و قد يسكن وسطه هو ما يراه النائم فى منامه و كأن الأصل فى معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله اليه بالحس،و منه تسميه العقل حلما لأنه استقامه التفكر،و منه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى: وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ (النور/٥٩)أى زمان البلوغ،بلوغ العقل،و منه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأناءه ضد الطيش و هو ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب و عدم المعاجله فى العقوبه فإنه إنما يكون عن استقامه التفكر،و ذكر الراغب:أن الأصل فى معناه الحلم بكسر الحاء،و لا يخلو من تكلف.

و قال الراغب:الضغث قبضه ريحان أو حشيش أو قضبان و جمعه أضغاث،قال تعالى «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً» و به شبه الأحلام المختلفه التى لا تتبين حقائقها «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ» حزم أخلاط من الأحلام انتهى.

و تسميه الرؤيا الواحده بأضغاث الأحلام كأنه بعنايه دعوى كونها صورا متفرقه مختلطه مجتمعه من رؤى مختلفه لكل واحد منها تأويل على حده فإذا اجتمعت و اختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها،و الإنسان كثيرا ما ينتقل فى نومه واحده من رؤيا الى اخرى و منهما الى ثالثه و هكذا فإذا اختلطت أبعاضها كانت أضغاث أحلام و امتنع الوقوف على حقيقتها،و يدل على ما ذكرنا من العنايه التعبير بأضغاث أحلام بتنكير المضاف و المضاف اليه معا كما لا يخفى.

على أن الآيه أعنى قوله: «وَ قٰالَ الْمَلِكُ إِنِّی أَریٰ» الخ؛غير صريحه فى كونه رؤيا واحده و فى التوراه أنه رأى البقرات السمان و العجاف فى رؤيا و السنبلات الخضر و اليابسات فى رؤيا اخرى.

و قوله: وَ مٰا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلاٰمِ بِعٰالِمِينَ إن كان الألف و اللام العهد فالمعنى و ما نحن بتأويل هذه المنامات التى هى أضغاث أحلام بعالمين.و إن كان لغير العهد و الجمع المحلى باللام يفيد العموم فالمعنى و ما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين و إنما نعبر غير أضغاث الأحلام منها،و على أى حال لا تدافع بين عدهم رؤياه أضغاث أحلام و بين نفيهم العلم بتأويل الأحلام عن أنفسهم،و لو كان المراد بالأحلام الأحلام الصحيحه فحسب كان كل من شطرى كلامهم يغنى عن الآخر.

و معنى الآيه قالوا أى قال الملأ للملك:ما رأيته أضغاث أحلام و أخلاط من منامات مختلفه و ما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو و ما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين و إنما نعلم تأويل الرؤى الصالحه.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِی نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ الامه الجماعه التى تقصد لشأن و يغلب استعمالها فى الإنسان،و المراد بها هاهنا الجماعه من السنين و هى المده التى نسى فيها هذا القائل و هو ساقى الملك أن يذكر يوسف عند به

و قد سأله يوسف ذلک فأنساه الشيطان ذکر ربه فلبث يوسف فی السجن بضع سنين.

و المعنی:و قال الـذی نجا من السـجن يا صاحبی يوسف فيه و ادکر بعد جماعه من السـنين ما سأله يوسف فی السـجن حين أول رؤياه:أنا أنبئکم بتأويل ما رآه الملک فی منامه فأرسلونی الی يوسف فی السجن حتی أخبرکم بتأويل ذلک.

و خطـاب الجمع فی قوله: «أُنَبِّئُكُمْ» و قوله: «فَأَرْسِلُونِ» تشـريک لمن حضـر مع الملـک و هم الملأـ من أرکـان الـدوله و أعضاد المملکه الذين يلون أمور الناس،و الدليل عليه قوله الآتی:

«لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَی النّاسِ» کما سيأتی.

قوله تعالی: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ الی آخر الآيه؛فی الکلام حـذف و تقـدير إيجازا،و التقدير:فأرسـلوه فجاء الی يوسف فی السجن فقال:

يـا يوسف أيها الصـديق أفتنا فی رؤيا الملک و ذکر الرؤيا و ذکر أن الناس فی انتظار تأويله و هـذا الاسـلوب من لطائف أساليب القرآن الکريم.

و سـمی يوسف صـديقا و هو کثير الصدق المبالغ فيه لما کان رأی من صدقه فيما عبر به منامه و منام صاحبه فی السـجن و أمور أخری شاهدها من فعله و قوله فی السجن،و قد أمضی اللّه سبحانه کونه صديقا بنقله ذلک من غير رد.

و قد ذکر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال «أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ» لأن قوله: «أَفْتِنا» و هو سؤال الحکم الذی يؤدی اليه نظره،و کون المعهود فيما بينه و بين يوسف تأويل الرؤيا،و کذا ذيل الکلام يدل علی ذلک و يکشف عنه.

و قوله: لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَی النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعل الأول تعليل لقوله:

«أَفْتِنا» و لعل الثانی تعليل لقوله: «أَرْجِعُ» و المراد أفتنا فی أمر هـذه الرؤيا ففی إفتائک رجاء أن أرجع به الی الناس و أخبرهم بها و فی رجوعی اليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيره

و الجهاله.

و من هنا يظهر أن قوله: «أَرْجِعُ» فى معنى أرجع بذلك فمن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتى الى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ اليهم رجوع بمصاحبه ما ألقى اليه من التأويل فافهم ذلك.

و فى قوله أولا: «أَفْتِنا» و ثانيا «لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ» دلاله على أنه كان يستفتيه بالرساله عن الملك و الملأ و لم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحمله اليهم و لذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له و لغيره فقال «تَزْرَعُونَ» الخ.

و فى قوله: إِلَى النّاسِ إشعار أو دلاله على أن الناس كانوا فى انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم،و ليس إلّا أن الملأ كانوا هم أولياء أمور الناس و خيرتهم فى الأمر خيره الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك و اهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظره غالبا الى ما يهتم به الإنسان من شئون الحياه و الملوك إنما يهتمون بشئون الملكه و أمور الرغبه.

قوله تعالى: قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاّ قَلِيلاً مِمّا تَأْكُلُونَ قال الراغب:الدأب إدامه السير دأب فى السير دأبا قال تعالى:

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ و الدأب العاده المستمره دائما على حاله،قال تعالى:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ أى كعادتهم التى يستمرون عليها.انتهى و عليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعه متواليه مستمره،و قيل:هو من دأب بمعنى التعب أى تزرعون بجد و اجتهاد، و يمكن أن يكون حالا أى تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين فيه.

ذكروا أن «تَزْرَعُونَ» خبر فى معنى الإنشاء،و كثيرا ما يؤتى بالأمر فى صوره الخبر مبالغه فى وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ (الصف/١١)،و الدليل عليه قوله بعد: «فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ» ،قيل:

و إنما أمر بوضعه و تركه فى سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك و إن بقى مده من الزمان،و إذا ديس وصفى أسرع اليه الهلاك.

و المعنى:ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه فى سنبله لئلا يهلك و احفظوه كذلك إلاّ قليلا و هو ما تأكلون فى هذه السنين.

قوله تعالى: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدٰادٌ يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّٰ قَلِيلاً مِمّٰا تُحْصِنُونَ الشداد جمع شديد من الشده بمعنى الصعوبه لما فى سنى الجدب و المجاعه من الصعوبه و الحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر،و هذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله: «يَأْكُلْنَ مٰا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ» .

و عليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سباع ضاريه تكر على الناس لافتراسهم و أكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله و تنصرف عنهم.

و الإحصان الإحراز و الادخار،و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السنين الخصبه سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلاّ قليلا مما تحرزون و تدخرون.

قوله تعالى: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عٰامٌ فِيهِ يُغٰاثُ النّٰاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ يقال:غاثه اللّه و أغاثه أى نصره،و يغيثه بفتح الياء و ضمها أى بنصره و هو من الغوث بمعنى النصره و غاثهم اللّه يغيثهم من الغيث و هو المطر،فقوله: «فِيهِ يُغٰاثُ النّٰاسُ» إن كان من الغوث كان معناه:ينصرون فيه من قبل اللّه سبحانه بكشف الكربه و رفع الجدب و المجاعه و إنزال النعمه و البركه،و إن كان من الغيث كان معناه:يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم.

و هذا المعنى الثانى أنسب بالنظر الى قوله بعده: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» و لا يصغى الى قوله من يدعى:أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآيه إلاّ على قراءه «يَعْصِرُونَ» بالبناء للمجهول و معناه يمطرون.

و ما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثانى أنه لا ينطبق على مورد الآيه فإن خصب

مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها أثرا.

رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلّا بالمطر الذى يمده فى مجاريه من بلاد السودان.

على أن من الجائز أن يكون «يُغَاثُ» مأخوذا من الغيث بمعنى النبات،قال فى لسان العرب:و الغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى،و هذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر الى قوله: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» .

و قوله: وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ من العصر و هو إخراج ما فى الشىء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب و التمر للدبس و غيره و إخراج دهن الزيت و السمسم للائتدام و الاستصباح و غيرهما،و يمكن أن يراد بالعصر الحلب أى يحلبون ضروع أنعامهم كما فسره بعضهم به.

و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم-أو يمطرون أو ينصرون-و فيه يتخذون الأشربه و الأدهنه من الفواكه و البقول أو يحلبون ضروع أنعامهم.و فيه كنايه عن توفر النعمه عليهم و على أنعامهم و مواشيهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَهِ اللاّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فى الكلام حذف و إضمار إيجازا،و التقدير-على ما يدل عليه السياق و الاعتبار بطبيعه الأحوال- و جاء الرسول و هو الساقى فنبأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا و قال الملك بعد ما سمعه:

ائتونى به.

و ظاهر أن الذى أنبأهم به من جدب سبع سنين متواليه كان أمرا عظيما،و الذى أشار اليه من الرأى البين الصواب أعظم منه و أغرب عند الملك المهتم بأمر أمته المعتنى بشئون مملكته، و قد أفزعه ما سمع و أدهشه،و لذلک بإحضاره ليكلمه و يتبصره بما يقوله مزيد تبصر،و يشهد بهذا ما حكاه اللّه تعالى من تكليمه إياه بقوله:«فلما جاءه و كلمه»الخ.

و لم یکن أمره بإتیانه به إشخاصا له بل إطلاقا من السجن و إشخاصا للتکلیم،و لو کان إشخاصا و إحضارا لمسجون یعود الی السجن بعد التکلیم لم یکن لیوسف علیه السّلام أن یستنکف عن الحضور بل أجبر علیه إجبارا بل کان إحضارا عن عفو و إطلاق فوسعه أن یأتی الحضور و یسأله أن یقضی فیه بالحق،و کانت نتیجه هذا الإباء و السؤال أن یقول الملک ثانیا:ائتونی به أستخلصه لنفسی بعد ما قال أولا:ائتونی به.

و قد راعی علیه السّلام أدبا بارعا فی قوله للرسول: «ارْجِعْ إِلیٰ رَبِّکَ فَسْئَلْهُ مٰا بٰالُ النِّسْوَهِ اللاّٰتِی قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَّ» فلم یذکر امرأه العزیز بما یسوؤه و لیس یرید إلاّ أن یقضی بینه و بینها،و إنما أشار الی النسوه اللاتی راودنه،و لم یذکرهن أیضا بسوء إلاّ بأمر یظهر بالتحقیق فیه براءته و لا براءته من مراوده امرأه العزیز بل نزاهته من أی مراوده و فحشاء تنسب الیه فقد کان بلاؤه عظیما.

و لم یذکرهن بشیء من المکروه إلاّ ما فی قوله: «إِنَّ رَبِّی بِکَیْدِهِنَّ عَلِیمٌ» و لیس إلاّ نوعا من بث الشکوی لربه.

و ما ألطف قوله فی صدر الآیه و ذیلها حیث یقول للرسول: «ارْجِعْ إِلیٰ رَبِّکَ فَسْئَلْهُ» ثم یقول «إِنَّ رَبِّی بِکَیْدِهِنَّ عَلِیمٌ» و فیه نوع من تبلیغ الحق،و لیکن فیه تنبه لمن یزعم أن مراده من «رَبِّی» فیما قال لامرأه العزیز «إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوٰایَ» هو زوجها،و أنه یسمیه ربا لنفسه.

و ما ألطف قوله: «مٰا بٰالُ النِّسْوَهِ اللاّٰتِی قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَّ» و البال هو الأمر الذی یهتم به یقول:ما هو الأمر العظیم و الشأن الخطیر الذی أوقعهن فیما وقعن فیه،و لیس إلاّ هواهنّ فیه و و لهنّ فی حبه حتی أنساهن أنفسهن فقطعن الأیدی مکان الفاکهه تقطیعا فلیفکر الملک فی نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظیم جدا،و الکف عن معاشقتهن و الامتناع من إجابتهن بما یردنه وهن یفدینه بالأنفس و الأموال أعظم،و لم یکن المراوده بالمره و المرتین و لا الإلحاح و الإصرار یوما أو یومین و لن تتیسر المقاومه و الاستقامه تجاه ذلک إلاّ لمن صرف

اللّه عنه السوء و الفحشاء ببرهان من عنده.

قوله تعالى: قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ الآيه؛قال الراغب:الخطب الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب قال تعالى «فَمٰا خَطْبُكَ يٰا سٰامِرِيُّ» «فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» .انتهى.

و قال أيضا:حصحص الحق أى وضح و ذلك بانكشاف ما يظهره،و حص و حصحص نحو كف و كفكف و كب و كبكب،و حصه قطع منه إما بالمباشره و إما بالحكم-الى أن قال-و الحصه القطعه من الجمله،و يستعمل استعمال النصيب.انتهى.

و قوله: «قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ إِذْ رٰاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟» جواب عن سؤال مقدر على ما فى الكلام من حذف و إضمار إيجازا-كل ذلك يدل عليه السياق-و التقدير:كأن سائلا يسأل فيقول:فما الذى كان بعد ذلك؟و ما فعل الملك؟فقيل:رجع الرسول الى الملك و بلغه ما قاله يوسف و سأله من القضاء فأحضر النسوه و سألهن عما يهمّ من شأنهن فى مراودتهن ليوسف:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟قلن «حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا عَلِمْنٰا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» فنزهه عن كل سوء،و شهدن أنهن لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

و ذكرهن كلمه التنزيه «حٰاشَ لِلّٰهِ» نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مره «حٰاشَ لِلّٰهِ مٰا هٰذٰا بَشَراً» يدل على بلوغه عليه السّلام النهايه فى النزاهه و العفه فيما علمنه كما أن كان بالغا فى الحسن.

و الكلام فى فصل قوله: «قٰالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» نظير الكلام فى قوله: «قٰالَ مٰا خَطْبُكُنَّ» و قوله: «قُلْنَ حٰاشَ لِلّٰهِ» فعند ذلك تكلمت امرأه العزيز و هى الأصل فى هذه الفتنه و اعرفت بذنبها و صدّقت يوسف عليه السّلام فيما كان يدعيه من البراءه قالت:الآن حصحص و وضح الحق و هو أنه:أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين فنسبت المراوده الى نفسها و كذبت نفسها فى اتهامه بالمراوده،و لم تقنع بذلك بر برأته تبرئه كامله أنه لم يراود و لا أجابها فى مراودتها بالطاعه.

و اتضحت بـذلك براءته عليه السّلام من كل وجه،و فى قول النسوه و قول امرأه العزيز جهات من التأكيد بالغه فى ذلك كنفى السوء عنه بـالنكره فى سـياق النفى مع زياده من «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» مع كلمه التنزيه «حَاشَ لِلّهِ» فى قولهن،و اعترافها بالـذنب فى سـياق الحصر «أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» و شهادتها بصدقه مؤكده بإنّ و اللام و الجمله الاسميه «وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ» و غير ذلك فى قولها.و هذا ينفى عنه عليه السّلام كل سوء أعم من الفحشاء و المراوده لها و أى ميل و نزعه إليها و كذب و افتراء،بنزاهه من حسن اختياره.

قوله تعـالى: ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِـالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللّهَ لاٰ يَهْدِى كَيْدَ الْخٰائِنِينَ من كلام يوسف عليه السّلام على ما يـدل عليه السـياق،و كـأنه قـاله عن شـهاده النسوه على براءه سـاحته من كل سوء و اعتراف امرأه العزيز بالـذنب و شـهادتها بصـدقه و قضاء الملك ببراءته.

و حكـايه القول كثير النظير فى القرآن كقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِـاللّهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره/ ۲۸۵)أى قـالوا لاـ نفرق،الـخ؛و قـوله: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصافات/۱۶۶).

و على هـذا فالإشـاره بقوله: «ذٰلِكَ» الى إرجاع الرسول الى الملك و سؤاله القضاء، و الضـمير فى «لِيَعْلَمَ» و «لَمْ أَخُنْهُ» عائـد الى العزيز و المعنى إنما أرجعت الرسول الى الملك و سألته أن يحقق الأمر و يقضـى بالحق ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب بمراوده امرأته و ليعلم أن اللّه لا يهدى كيد الخائنين.

يذكر عليه السّلام لما فعله من الإرجاع و السؤال غايتين:

أحدهما:أن يعلم العزيز أنه لم يخنه و تطيب نفسه منه و يزول عنها و عن أمره أى شبهه و ريبه.

و الثانی:أن یعلم أن الخائن مطلقا لا ینال بخیانته غایته و أنه سیفتضح لا محاله سنه اللّه التی قد خلت فی عباده و لن تجد لسنه اللّه تبدیلا فإن الخیانه من الباطل،و الباطل لا یدوم و سیظهر الحق علیه ظهورا،و لو اهتدی الخائن الی بغیته لم تفتضح النسوه الآتی قطعن أیدیهن و أخذن بالمراوده و لا امرأه العزیز فیما فعلت و أصرت علیه فاللّه لا یهدی کید الخائنین.

و کان الغرض من الغایه الثانیه «وَ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی کَیْدَ الْخٰائِنِینَ» و تذکیره و تعلیمه للملک، الحصول علی لازم فائده الخبر و هو أن یعلم الملک أنه علیه السّلام عالم بذلک مذعن بحقیقته فإذا کان لم یخنه فی عرضه بالغیب و لا یخون فی شیء البته کان جدیرا بأن یؤتمن علی کل شیء نفسا کان أو عرضا أو مالا.

و بهذا الامتیاز البیّن یتهیأ لیوسف ما کان بباله أن یسأل الملک إیاه و هو قوله بعد أن أشخص عند الملک: «اجْعَلْنِی عَلیٰ خَزٰائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ» .

و الآیه ظاهره فی أن هذا الملک هو غیر عزیز مصر زوج المرأه الذی أشیر الیه بقوله:

«وَ أَلْفَیٰا سَیِّدَهٰا لَدَی الْبٰابِ» و قوله: «وَ قٰالَ الَّذِی اشْتَرٰاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَکْرِمِی مَثْوٰاهُ» .

و قد ذکر بعض المفسرین أن هذه الآیه و التی بعدها تتمه قول امرأه العزیز «الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رٰاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصّٰادِقِینَ» و سیأتی الکلام علیه.

قوله تعالی: وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّٰارَهٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّی إِنَّ رَبِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ تتمه کلام یوسف علیه السّلام و ذلک أن قوله: «أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ» کان لا یخلو من شائبه دعوی الحول و القوه و هو علیه السّلام من المخلصین المتوغلین فی التوحید الذین لا یرون لغیره تعالی حولا و لا قوه فبادر علیه السّلام الی نفی الحول و القوه عن نفسه و نسبه ما ظهر منه من عمل صالح أو صفه جمیله الی رحمه ربه،و تسویه نفسه بسائر النفوس التی هی بحسب الطبع مائله الی الأهواء أماره بالسوء فقال «وَ مٰا أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّٰارَهٌ بِالسُّوءِ إِلاّٰ مٰا رَحِمَ رَبِّی» فقوله هذا کقول شعیب علیه السّلام: إِنْ أُرِیدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ

بِاللّهِ (هود٨٨/).

فقوله: وَ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِی إشاره الی قوله: «أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ» و أنه لم قل هذا القول بداعی تنزیه نفسه و تزکیتها بل بداعی حکایه رحمه من ربه،و علل ذلک بقوله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ» أی إن النفس بطبعها تدعو الی مشتهیاتها من السیئات علی کثرتها و وفورها فمن الجهل أن تبرأ من المیل الی السوء،و إنما تکفّ عن أمرها بالسوء و دعوتها الی الشر برحمه من اللّه سبحانه تصرفها عن السوء و توفّقها لصالح العمل.

قوله تعالی: وَ قالَ الْمَلِکُ ائْتُونِی بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِی فَلَمّا کَلَّمَهُ قالَ إِنَّکَ الْیَوْمَ لَدَیْنا مَکِینٌ أَمِینٌ یقال:أستخلصه أی جعله خالصا،و المکین صاحب المکانه و المنزله،و فی قوله: «فَلَمّا کَلَّمَهُ» حذف للإیجاز و التقدیر:فلما أتی به الیه و کلمه قال إنک الیوم،الخ؛و فی تقیید الحکم بالیوم اشاره الی التعلیل،و المعنی إنک الیوم و قد ظهر من مکارم أخلاقک فی التجنب عن السوء و الفحشاء و الخیانه و الظلم،و الصبر علی مکروه و صغار فی سبیل طهاره نفسک،و اختصاصک بتأیید من ربک غیبی و علم بالأحادیث و الرأی و الحزم و الحکمه و العقل لدینا ذو مکانه و أمانه،و قد أطلق قوله: «مَکِینٌ أَمِینٌ» فأفاد بذلک عموم الحکم.

و المعنی:و قال الملک ائتونی بیوسف أجعله خالصا لنفسی و خاصه لی فلما أتی به الیه و کلمه قال له إنک الیوم و قد ظهر من کمالک ما ظهر لدینا ذو مکانه مطلقه و أمانه مطلقه یمکنک من کل ما ترید و یأتمنک علی جمیع شئون الملک و فی ذلک حکم صدارته.

قوله تعالی: قالَ اجْعَلْنِی عَلی خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ لما عهد الملک لیوسف إنک الیوم لدینا مکین أمین و أطلق القول سأله یوسف علیه السّلام أن ینصبه علی خزائن الأرض و یفوّض الیه أمرها،و المراد بالأرض أرض مصر.

و لم یسأله ما سأل إلاّ لیتقلد بنفسه إداره أمر المیره و أرزاق الناس الناس فیجمعها

و یـدخرها لسـنین السـبع الشـداد التی سیسـتقبل الناس و تنزل علیهم جدیها و مجاعتها و یقوم بنفسه لقسـمه الأرزاق بین الناس و إعطاء کل منهم ما یستحقه من المیره من غیر حیف.

و قـد علل سؤاله ذلک بقوله: «إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ» فإن هاتین الصـفتین هما اللازم وجودهما فیمن یتصـدی مقاما هو سائله و لا غنی عنهما له،و قد أجیب الی ما سأل و اشتغل بما کان یریده کل ذلک معلوم من سیاق الآیات و ما یتلوها.

قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ نُصِیبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ التمکین هو الإقدار و التبوّؤ أخذ المکان.

و الإشاره بقوله: «کَذٰلِکَ» الی ما ساقه من القصه بما انتهی الی نیله علیه السّلام عزه مصر،و هو حدیث السجن و قد کانت امرأه العزیز هـددته بالصـغار بالسـجن فجعله اللّه سـببا للعزه،و علی هـذا النمط کان یجری أمره علیه السّلام أکرمه أبوه فحسده إخوته فکـادوا به بإلقـائه فی غیابه الجب و بیعه من السیّاره لیـذلوه فأکرم اللّه مثواه فی بیت العزیز،و کادت به امرأه العزیز و نسوه مصر لیوردنه مورد الفجور فأبان اللّه عصمته ثم کادت به بالسجن لصغاره فتسبب اللّه بذلک لعزته.

و للإشاره الی أمر السجن و حبسه و سلبه حریه الاختلاط و العشره،قال تعالی «وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ یَتَبَوَّأُ مِنْهٰا حَیْثُ یَشٰاءُ» أی رفعنـا عنه حرج السـجن الـذی سلب منه إطلاق الإراده فصار مطلق المشـیه له أن یتبوّأ فی أی بقعه یشاء فهـذا الکلام بوجه یحاذی قوله تعالی السابق فیه حین دخل بیت العزیز و وصّاه امرأته: «وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحٰادِیثِ وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» .

و بهذه المقایسه یظهر أن قوله هاهنا: «نُصِیبُ بِرَحْمَتِنٰا مَنْ نَشٰاءُ» فی معنی قوله هناک: «وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» و أن المراد أن اللّه سبحانه إذا شاء أن یصـیب برحمته أحدا لم یغلب فی مشـیته و لا یسع لأی مانع مفروض أن یمنع من إصابته.و لو وسع لسـبب أن یبطل مشیه اللّه فی أحد

لوسع فی یوسف الذی تعاضدت الأسباب القاطعه و تظاهرت لخفضه فرفعه اللّه و لإذلاله فأعزه اللّه،إن الحکم إلاّ للّه.

و قوله: وَ لاٰ نُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ إشاره الی أن هذا التمکین أجر اوتیه یوسف علیه السّلام،و وعد جمیل للمحسنین جمیعا أن اللّه لا یضیع أجرهم.

قوله تعالی: وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ خَیْرٌ لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ أی لأولیاء اللّه من عباده فهو وعد جمیل اخروی لأولیائه تعالی خاصه و کان یوسف علیه السّلام منهم.

و الدلیل علی أنه لا یعم عامه المؤمنین الجمله الحالیه «وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ» الداله علی أن هذا الإیمان و هو حقیقه الإیمان لا محاله کان منهم مسبوقا بتقوی مستمر حقیقی و هذا التقوی لا یتحقق من غیر إیمان فهو إیمان بعد إیمان و تقوی و هو المساوق لولایه اللّه سبحانه قال تعالی أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْریٰ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ (یونس۶۴/) (۱).

[سوره یوسف (۱۲): الآیات ۵۸ الی ۶۲]

اشاره

وَ جٰاءَ إِخْوَهُ یُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَیْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ (۵۸) وَ لَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ قٰالَ اِئْتُونِی بِأَخٍ لَکُمْ مِنْ أَبِیکُمْ أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّی أُوفِی اَلْکَیْلَ وَ أَنَا خَیْرُ اَلْمُنْزِلِینَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ کَیْلَ لَکُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ (۶۰) قٰالُوا سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ (۶۱) وَ قٰالَ لِفِتْیٰانِهِ اِجْعَلُوا بِضٰاعَتَهُمْ فِی رِحٰالِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَهٰا إِذَا انْقَلَبُوا إِلیٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۶۲)

۱- ۱) .یوسف ۴۳-۵۷:بحث روائی حول رؤیا ملک مصر و انباء یوسف بتأویله.

بیان:

قوله تعالی: وَ جٰاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ فی الکلام حذف کثیر و إنما ترک الاقتصاص له لعدم تعلق غرض هام به،و إنما الغرض بیان لحوق أخی یوسف من أمه به و إشراکه معه فی النعمه و المنّ الإلهی ثم معرفتهم بیوسف و لحوق بیت یعقوب به فهو شطر مختار من قصته و ما جری علیه بعد عزه مصره.

و الذی جاء الیه من إخوته هم العصبه ما خلا أخیه من أمه فإن یعقوب علیه السّلام کان یأنس به و لا یخلی بینه و بینهم بعد ما کان من أمر یوسف ما کان،و الدلیل علی ذلک کله ما سیأتی من الآیات.

و کان بین دخولهم هذا علی أخیهم یوسف و بین انتصابه علی خزائن الأرض و تقلده عزه مصر بعد الخروج من السجن أکثر من سبع سنین فإنهم إنما جاءوا الیه فی بعض السنین المجدبه و قد خلت السبع السنون المخصبه،و لم یروه منذ سلموه الی السیاره یوم أخرج من الجب و هو صبی و قد مر علیه سنون فی بیت العزیز و لبث بضع سنین فی السجن و تولی أمر الخزائن منذ أکثر من سبع سنین،و هو الیوم فی زی عزیز مصر لا یظن به أنه رجل عبری من غیر القبط، و هذا کله صرفهم عن أن یظنوا به أنه أخوهم و یعرفوه لکنه عرفهم بکیاسته أو بفراسه النبوه کما قال تعالی «وَ جٰاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ»
.

قوله تعالی: وَ لَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ قٰالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ قال الراغب فی المفردات:الجهاز ما یعد من متاع و غیره،و التجهیز حمل ذلک أو بعثه.انتهی.فالمعنی و لما حملهم ما أعد لهم من الجهاز و الطعام الذی باعه منهم أمرهم بأن یأتوا الیه بأخ لهم من أبیهم و قال ائتونی،الخ.

و قوله: «أَ لاٰ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ- أی لا أبخس فیه و لا أظلمکم بالاتکاء علی قدرتی

ص:۳۰۱

و عزتی -وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» أكرم النازلين بی و أحسن مثواهم،و هذا تحريض لهم أن يعودوا اليه ثانيا و يأتوا اليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله فی الآيه التاليه: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ» تهديد لهم لئلا يعصوا أمره،و كما أن قولهم فی الآيه: «سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ» تقبل منهم لذلك فی الجمله و تطييب لنفس يوسف عليه السّلام.

ثم من المعلوم أن قوله عليه السّلام أوان خروجهم: «ائْتُونِی بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» مع ما فيه من التأكيد و التحريض و التهديد ليس من شأنه أن يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمه و توطئه تعمی عليهم و تصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريبهم فی أمره.و هو ظاهر.

و قد أورد المفسرون فی القصه من مفاوضته لهم و تكليمه إياهم أمورا كثيره لا دليل علی شیء منها من كلامه تعالی فی سياق القصه و لا أثر يطمأن اليه فی أمثال المقام.

و كلامه تعالی خال عن التعرض لذلك،و إنما الذی يستفاد منه أنه سألهم عن خطبهم فأخبروه و هم عشره أنهم إخوه و أن لهم أخا آخر بقی عند أبيهم لا يفارقه أبوه و لا يرضی أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به اليه فيراه.

قوله تعالی: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلاٰ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِی وَ لاٰ تَقْرَبُونِ الكيل بمعنی المكيل و هو الطعام،و لا تقربون أی لا تقربونی بدخول أرضی و الحضور عندی للامتيار و اشتراء الطعام.و معنی الآيه ظاهر،و هو تهديد منه لهم لو خالفوا عن أمره كما تقدم.

قوله تعالی: قٰالُوا سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ المراوده كما تقدم هی الرجوع فی أمر مره بعد مره بالإلحاح أو الاستخدام،ففی قولهم ليوسف عليه السّلام: «سَنُرٰاوِدُ عَنْهُ أَبٰاهُ» دليل علی أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يضن به و لا يرضی بمفارقته له و يأبی أن يبتعد منه لسفر أو أی غيبه،و فی قولهم: «أَبٰاهُ» و لم قولوا:أبانا تأييد لذلك.

و قولهم: وَ إِنّٰا لَفٰاعِلُونَ أی فاعلون للإتيان به أو للمراوده لحمله معهم و الإتيان به اليه،و معنی الآيه ظاهر،و فيه تقبل منهم لذلك فی الجمله و تطييب لنفس يوسف عليه السّلام

كما تقدم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ لِفِتْيٰانِهِ اجْعَلُوا بِضٰاعَتَهُمْ فِي رِحٰالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهٰا إِذَا انْقَلَبُوا إِلىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الفتيان جمع الفتى و هو الغلام،و قال الراغب:

البضاعه قطعه وافره من المال يقتنى للتجاره يقال:أبضع بضاعه و ابتضعها،قال تعالى «هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ إِلَيْنٰا» و قال تعالى «بِبِضٰاعَةٍ مُزْجٰاةٍ» و الأصل فى هذه الكلمه البضع-بفتح الباء-و هو جمله من اللحم ببضع أى يقطع-قال-و فلان بضعه منى أى جار مجرى بعض جسدى لقربه منى-قال-و البضع بالكسر المنقطع من العشره،و يقال ذلك لما بين الثلاث الى العشره و قيل:بل هو فوق الخمس و دون العشره.انتهى،و الرحال جمع رحل و هو الوعاء و الأثاث،و الانقلاب الرجوع.

و معنى الآيه:و قال يوسف عليه السّلام لغلمانه:اجعلوا مالهم و بضاعتهم التى قدموها ثمنا لما اشتروه من الطعام فى أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا و رجعوا الى أهلهم-و فتحوا الأوعيه-لعلهم يرجعون إلينا و يأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع فى قلوبهم و يطمعهم الى الرجوع و التمتع من الإكرام و الإحسان.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢]

اشاره

فَلَمّٰا رَجَعُوا إِلىٰ أَبِيهِمْ قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مُنِعَ مِنَّا اَلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا أَخٰانٰا نَكْتَلْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ (٦٣) قٰالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاّٰ كَمٰا أَمِنْتُكُمْ عَلىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّٰهُ خَيْرٌ حٰافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ اَلرّٰاحِمِينَ (٦۴) وَ لَمّٰا فَتَحُوا مَتٰاعَهُمْ وَجَدُوا بِضٰاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مٰا نَبْغِي هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ إِلَيْنٰا وَ نَمِيرُ أَهْلَنٰا وَ نَحْفَظُ أَخٰانٰا وَ نَزْدٰادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦۵) قٰالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اَللّٰهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاّٰ أَنْ يُحٰاطَ بِكُمْ فَلَمّٰا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قٰالَ اَللّٰهُ عَلىٰ مٰا نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶) وَ قٰالَ يٰا بَنِيَّ لاٰ تَدْخُلُوا مِنْ بٰابٍ وٰاحِدٍ وَ اُدْخُلُوا مِنْ أَبْوٰابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مٰا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمّٰا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ حٰاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضٰاهٰا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶۸) وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَخٰاهُ قٰالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ جَعَلَ اَلسِّقٰايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا اَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ (٧٠) قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مٰا ذٰا تَفْقِدُونَ (٧١) قٰالُوا نَفْقِدُ صُوٰاعَ اَلْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ (٧٣) قٰالُوا فَمٰا جَزٰاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كٰاذِبِينَ (٧۴) قٰالُوا جَزٰاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلظّٰالِمِينَ (٧۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعٰاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اِسْتَخْرَجَهٰا مِنْ وِعٰاءِ أَخِيهِ كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِي دِينِ اَلْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اَللّٰهُ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧۶) قٰالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ قٰالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَصِفُونَ (٧٧) قٰالُوا يٰا أَيُّهَا اَلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنٰا مَكٰانَهُ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قٰالَ مَعٰاذَ اَللّٰهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّٰ مَنْ وَجَدْنٰا مَتٰاعَنٰا عِنْدَهُ إِنّٰا إِذاً لَظٰالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اِسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قٰالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبٰاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اَللّٰهِ وَ مِنْ قَبْلُ مٰا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ اَلْأَرْضَ حَتّٰى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اَللّٰهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ (٨٠) اِرْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰا أَبٰانٰا إِنَّ اِبْنَكَ سَرَقَ وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا

عَلِمْنٰا وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ (٨١) وَ سْئَلِ اَلْقَرْيَهَ اَلَّتِى كُنّٰا فِيهٰا وَ اَلْعِيرَ اَلَّتِى أَقْبَلْنٰا فِيهٰا وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (٨٢)

ص :٣٠٣

بيان:

قوله تعالى: فَلَمّا رَجَعُوا إِلىٰ أَبِيهِمْ قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مُنِعَ مِنّٰا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنٰا أَخٰانٰا نَكْتَلْ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ الاكتيال أخذ الطعام كيلا إن كان مما يكال،قال الراغب:الكيل كيل الطعام يقال:كلت له الطعام إذا توليت له ذلك،و كلته الطعام إذا أعطيته كيلا،و اكتلت عليه إذا أخذت منه كيلا،قال تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ اَلَّذِينَ إِذَا اكْتٰالُوا عَلَى النّٰاسِ-يَسْتَوْفُونَ- وَ إِذٰا كٰالُوهُمْ.

و قوله: قٰالُوا يٰا أَبٰانٰا مُنِعَ مِنّٰا الْكَيْلُ أى لو لم نذهب بأخينا و لم يذهب معنا الى مصر،بدليل قوله: «فَأَرْسِلْ مَعَنٰا أَخٰانٰا» فهو إجمال ما جرى بينهم و بين عزيز مصر من أمره بمنعهم من الكيل إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم،يقصونه لأبيهم و يسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا و لا يحرموا.

و قولهم: أَخٰانٰا إظهار رأفه و إشفاق لتطييب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم: «وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ» بما فيه من التأكد البالغ.

قوله تعالى: قٰالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاّٰ كَمٰا أَمِنْتُكُمْ عَلىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّٰهُ خَيْرٌ حٰافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ قال فى المجمع:الأمن اطمئنان القلب الى سلامه الأمر يقال:أمنه يأمنه أمنا انتهى فقوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛أى هل اطمأن اليكم فى ابنى هذا إلاّ مثل ما اطمأننت اليكم فى أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان.

و محصله أنكم تتوقعون منى أن أثق فيه بكم و تطمئن نفسى اليكم كما وثقت بكم و اطمأننت

ص :٣٠۶

اليكم فى أخيه من قبل و تعدوننى بقولكم «وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ» أن تحفظوه كما وعدتم فى يوسف بقولكم «وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ» و قد أمنتكم بمثل هذا الأمن على يوسف فلم تغنوا عنى شيئا و جئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله و أمنى لكم على هذا الأخ مثل أمنى على أخيه من قبل أمن لمن لا يغنى أمنه و الاطمئنان اليه شيئا و لا بيده حفظ ما سلم اليه و ائتمن له.

و قوله: فَاللّٰهُ خَيْرٌ حٰافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ تفريع على سابق كلامه «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛و تفيد الاستنتاج أى إذا كان الاطمئنان اليكم فى أمره لغىّ لا أثر له و لا يغنى شيئا فخير الاطمئنان و الاتكال ما كان اطمئنانا الى اللّه سبحانه من حيث حفظه،و إذا تردد الأمر بين التوكل عليه و التفويض اليه و بين الاطمئنان الى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين.

و قوله: وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ فى موضع التعليل لقوله: «فَاللّٰهُ خَيْرٌ حٰافِظاً» أى إن غيره تعالى ربما أمن فى أمر و ائتمن عليه فى أمانه سلم له فلم يرحم المؤتمن وضيع الأمانه لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمه فى محل الرحمه و يترحم العاجز الضعيف الذى فوض اليه أمرا و توكل عليه،و من يتوكل على اللّه فهو حسبه.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا فَتَحُوا مَتٰاعَهُمْ وَجَدُوا بِضٰاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛البغى هو الطلب و يستعمل كثيرا فى الشر و منه البغى بمعنى الظلم و البغى بمعنى الزنا، و قال فى المجمع:الميره الأطعمه التى تحمل من بلد الى بلد و يقال:مرتهم أميرهم ميرا:إذا أتيتهم بالميره،و مثله:امترتهم امتيارا.انتهى.

و قوله: يٰا أَبٰانٰا مٰا نَبْغِي استفهام أى لما فتحوا متاعهم و وجدوا بضاعتهم ردت اليهم و كان ذلك دليلا على اكرم العزيز لهم و أنه غير قاصد بهم سوء و قد سلم اليهم الطعام و رد اليهم الثمن فكان ذهابهم الى مصر للامتيار خير سفر نفعا و درا راجعوا أباهم و قالوا:يا أبانا ما الذى نطلب من سفرنا الى مصر وراء هذا؟فقد اوفى لنا الكيل و رد الينا ما بذلناه من البضاعه

ثمنا.

فقولهم: یٰا أَبٰانٰا مٰا نَبْغِی هٰذِهِ بِضٰاعَتُنٰا رُدَّتْ إِلَیْنٰا أرادوا به تطییب نفس أبیهم لیرضی بذهاب أخیهم معهم لأنه فی أمن من العزیز و هم یحفظونه کما وعدوه و لذلک عقبوه بقولهم: «وَ نَمِیرُ أَهْلَنٰا وَ نَحْفَظُ أَخٰانٰا وَ نَزْدٰادُ کَیْلَ بَعِیرٍ ذٰلِکَ کَیْلٌ یَسِیرٌ» أی سهل.

و ربما قیل:إن «مٰا» فی قوله: «مٰا نَبْغِی» للنفی أی ما نطلب بما أخبرناک من العزیز و إکرامه لنا الکذب فهذه بضاعتنا ردت الینا،و کذا قیل:إن الیسیر بمعنی القلیل أی إن الذی جئنا به الیک من الکیل قلیل لا یقنعنا فنحتاج الی أن نضیف الیه کیل بعیر أخینا.

قوله تعالی: قٰالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَکُمْ حَتّٰی تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللّٰهِ لَتَأْتُنَّنِی بِهِ إِلاّٰ أَنْ یُحٰاطَ بِکُمْ فَلَمّٰا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قٰالَ اللّٰهُ عَلیٰ مٰا نَقُولُ وَکِیلٌ الموثق بکسر الثاء ما یوثق به و یعتمد علیه،و الموثق من اللّه هو أمر یوثق به و یرتبط مع ذلک باللّه و إیتاء موثق إلهی و إعطاؤه هو أن یسلط الإنسان علی أمر إلهی یوثق به کالعهد و الیمین بمنزله الرهینه،و المعاهد و المقسم بقوله عاهدت اللّه أن أفعل کذا أو باللّه لأفعلن کذا یراهن کرامه اللّه و حرمته فیضعها رهینه عند من یعاهده أو یقسم له،و لو لم یف بما قال خسر فی رهینته و هو مسئول عند اللّه لا محاله.

و الإحاطه من حاط بمعنی حفظ و منه الحائط للجدار الذی یدور حول المکان لیحفظه و اللّه سبحانه محیط بکل شیء أی مسلط علیه حافظ له من کل جهه لا یخرج و لا شیء من أجزائه من قدرته،و أحاط به البلاء و المصیبه أی نزل به علی نحو انسدت علیه جمیع طرق النجاه فلا مناص له منه،و منه قولهم:أحیط به أی هلک أو فسد أو انسدت علیه طرق النجاه و الخلاص قال تعالی: وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلیٰ مٰا أَنْفَقَ فِیهٰا (الکهف/۴۲)،و قال:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ (یونس/۲۲)و منه قوله فی الآیه:

«إِلاّٰ أَنْ یُحٰاطَ بِکُمْ» أی أن ینزل بکم من النازله ما یسلب منکم کل استطاعه و قدره فلا

يسعكم الإتيان به إلى.

و الوكاله نوع تسلط على أمر يعود الى الغير ليقوم به،و توكيل الإنسان غيره فى أمر تسليطه عليه ليقوم فى إصلاحه مقامه،و التوكل عليه اعتماده و الاطمئنان اليه فى أمر،و توكيله تعالى و التوكل عليه فى الامور ليس بعنايه أنه خالق كل شىء و مالكه و مدبره بل بعنايه أنه أذن فى نسبه الامور الى مصادرها و الأفعال الى فواعلها و ملكها إياها بنحو من التمليك و هى فاقده للأصاله و الاستقلال فى التأثير و اللّه سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمرا و توصل اليه بالأسباب العاديه التى بين يديه أن يرى اللّه سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر و ينفى الاستقلال و الأصاله عن نفسه و عن الأسباب التى استعملها فى طريق الوصول اليه فيتوكل عليه سبحانه.فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبه الامور الى نفسه أو الى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه و عن الأسباب و إرجاع الاستقلال و الأصاله اليه تعالى مع إبقاء أصل النسبه غير المستقله التى الى نفسه و الى الأسباب.

و لذلك نرى أن يعقوب عليه السّلام فيما تحكيه الآيات من توكله على اللّه لم بلغ الأسباب و لم يهملها بل تمسك بالأسباب العاديه فكلم أولا بنيه فى أخيهم ثم أخذ منهم موثقا من اللّه ثم توكل على اللّه و كذا فيما وصاهم فى الآيه الآتيه بدخولهم من أبواب متفرقه ثم توكله على ربه تعالى.

فاللّه سبحانه على كل شىء وكيل من جهه الامور التى لها نسبه إليها كما أنه ولى لها من جهه استقلاله بالقيام على الامور المنسوبه إليها و هى عاجزه عن القيام بها بحول و قوه،و أنه رب كل شىء من جهه أنه المالك المدبر لها.

و معنى الآيه «قٰالَ» يعقوب لبنيه «لَنْ أُرْسِلَهُ» أى أخاكم من ام يوسف «مَعَكُمْ حَتّٰى تُؤْتُونِ» و تعطونى «مَوْثِقاً مِنَ اللّٰهِ» أثق به و أعتمد عليه من عهد أو يمين «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ» و اللام للقسم و لما كان إيتاؤهم موثقا من اللّه إنما كان يمضى و يفيد فيما كان راجعا الى استطاعتهم

و قـدرتهم اسـتثنى فقال «إِلاّ أَنْ يُحاطَ بِكَمْ» و تسـلبوا الاسـتطاعه و القـدره «فَلَمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ» من اللّه «قالَ» يعقوب «اللّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيـلٌ» أى إنـا قاولنـا جميعا فقلت و قلتم و توسـلتم بـذلك الى هـذه الأسـباب العاديه للوصول الى غرض نبتغيه فليكن اللّه سبحانه وكيلا على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشىء فليأت به كما التزم و إن تخلف فليجازه اللّه و ينتصف منه.

قوله تعالى: وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَهٍ الى آخر الآيه؛هذه كلمه ألقاها يعقوب عليه السّـلام الى بنيه حين آتوه موثقا من اللّه و تجهزوا و استعدوا للرحيل،و من المعلوم من سياق القصه أنه خاف على بنيه و هم أحـد عشـر عصـبه-لا من أن يراهم عزيز مصـر مجتمعين صـفا واحدا لأنه كان من المعلوم أنه سيشخصـهم اليه فيصطفون عنده صفا واحدا و هم أحد عشر إخوه لأب واحد-بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أى نازله اخرى.

و قوله بعـده: «وَ ما أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» لا يخلو من دلاله أو إشـعار بأنه كان يخاف ذلك جدا فكأنه عليه السّـلام-و اللّه أعلم-أحس حينمـا تجهزوا للسـفر و اصـطفوا أمـامه للوداع إحسـاس إلهـام أن جمعهم و هم على هـذه الهيئه الحسـنه سيفرّق و ينقّص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالاجماع كذلك و حذّرهم عن الدخول من باب واحد و عزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقه رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقه بينهم و النقص فى عددهم.

ثم رجع الى إطلاق كلامه الظاهر فى كون هذا السـبب الذى ركن اليه فى دفع ما خطر بباله من المصـيبه سببا أصيلا مستقلا-و لا مؤثر فى الوجود بالحقيقه إلاّ اللّه سـبحانه-فقيـد كلامه بما يصـلحه فقال مخاطبا لهم «وَ ما أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ شَىْءٍ» ثم علله بقوله: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ» أى لست أرفع حاجتكم الى اللّه سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذى تتقون به نزول النازله

و تتوسلون به الى السلامه و العافيه و لا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيله فإن هذه الأسباب لا تغنى من اللّه شيئا و لا لها حكم دون اللّه سبحانه فليس الحكم مطلقا إلاّ للّه بل هذه أسباب ظاهريه إنما تؤثر إذا أراد اللّه لها أن تؤثر.

و لذلك عقب كلامه هذا بقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أى إن هذا سبب أمرتكم باتخاذه لدفع ما أخافه عليكم من البلاء و توكلت مع ذلك على اللّه فى أخذ هذا السبب و فى سائر الأسباب التى أخذتها فى امورى،و على هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوى يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإداره اموره و لا أن الأسباب العاديه باستقلالها تقوى على إيصاله الى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجئ فى اموره الى وكيل يصلح شأنه و يدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو اللّه سبحانه القاهر الذى لا يقهره شىء الغالب الذى لا يغلبه شىء يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ حٰاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضٰاهٰا الى آخر الآيه؛الذى يعطيه سياق الآيات السابقه و اللاحقه و التدبر فيها-و اللّه أعلم-أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقه كما أمرهم ابوهم حينما و دعوه للرحيل،و إنما اتخذ يعقوب عليه السّلام هذا الأمر وسيله لدفع ما تفرّسه من نزول مصيبه بهم تفرق جمعهم و تنقص من عددهم كما أشير اليه فى الآيه السابقه لكن اتخاذ هذه الوسيله و هى الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء و كان قضاء اللّه سبحانه ماضيا فيهم و أخذ العزيز أخاهم من أبيهم لحديث سرقت الصواع و انفصل منهم كبيرهم فبقى فى مصر و أدى ذلك الى تفرق جمعهم و نقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من اللّه من شىء.

لكن اللّه سبحانه قضى بذلك حاجه فى نفس يعقوب عليه السّلام فإنه جعل هذا السبب الذى تخلف

عن أمره و أدى الى تفرق جمعهم و نقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب الى يوسف عليهما السّلام فإن يوسف أخذ أخاه اليه و رجع سائر الإخوه إلاّ كبيرهم الى أبيهم ثم عادوا الى يوسف يسترحمونه و يتذللون لعزته فعرفهم نفسه و أشخص أباه و أهله الى مصر فاتصلوا به.

فقوله: مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ أى لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذى اتخذه وسيله لتخلصهم من هذه المصيبه النازله أن يغنى عنهم من اللّه شيئا البته و يدفع عنهم ما قضى اللّه أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أخذ منهم واحد و فارقهم و لزم أرض مصر آخر و هو كبيرهم.

و قوله: إِلاّٰ حٰاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضٰاهٰا قيل:إن «إِلاّٰ» بمعنى لكن أى لكن حاجه فى نفس يعقوب قضاها اللّه فرد اليه ولده الذى فقده و هو يوسف.

و لا يبعد أن يكون «إِلاّٰ» استثنائيه فإن قوله: «مٰا كٰانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ» فى معنى قولنا:لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا و لم يقض اللّه لهم جميعا به حاجه إلاّ حاجه فى نفس يعقوب،و قوله: «قَضٰاهٰا» استئناف و جواب سؤال كأن سائلا يسأل فيقول:ما ذا فعل بها؟فاجيب بقوله: «قَضٰاهٰا» .

و قوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ الضمير ليعقوب أى إن يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا إياه و ظاهر نسبه التعليم اليه تعالى أنه علم موهبى غير اكتسابى و قد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدى الى مثل هذه العنايه الإلهيه،و يؤيد ذلك أيضا قوله تعالى بعده: «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ» إذ لو كان من العلم الاكتسابى الذى يحكم بالأسباب الظاهريه و يتوصل اليه من الطرق العاديه المألوفه لعلمه الناس و اهتدوا اليه.

و الجمله «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ» الخ؛ثناء على يعقوب عليه السّلام،و العلم الموهبى لا يضل فى هدايته و لا يخطئ فى إصابته و الكلام كما يفيده السياق يشير الى ما تفرس له يعقوب عليه السّلام من البلاء و توسل به من الوسيله و حاجته فى يوسف فى نفسه لا ينساها و لا يزال يذكرها،فمن

هذه الجهات يعلم أن فی قوله: «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمٰا عَلَّمْنٰاهُ» الخ؛تصديقا ليعقوب عليه السّلام فيما قاله لبنيه و تصويبا لما اتخذه من الوسيله لحاجته بأمرهم بما أمر توكله على اللّه فقضى اللّه له حاجه فی نفسه.

قوله تعالى: وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَخٰاهُ قٰالَ إِنِّی أَنَا أَخُوكَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الإيواء اليه ضمه و تقريبه منه فی مجلسه و نحوه، و الابتئاس اجتلاب البؤس و الاغتمام و الحزن،و ضمير الجمع للإخوه.

و معنى الآيه «وَ لَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ» بعد دخولهم مصر «آوىٰ» و قرب «إِلَيْهِ أَخٰاهُ» الذی أمرهم أن يأتوا به اليه و كان أخا له من أبيه و أمه «قٰالَ» له «إِنِّی أَنَا أَخُوكَ» أی يوسف الذی فقدته منذ سنين-و الجمله خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر- «فَلاٰ تَبْتَئِسْ» و لا تغتم «بِمٰا كٰانُوا» أی الإخوه «يَعْمَلُونَ» من أنواع الأذى و المظالم التی حملهم عليها حسدهم لی و لك و نحن أخوان من ام أو لا تبتئس بما كان غلمانی يعملون فإنه كيد لحبسك عندی.

و ظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول اليه و سلاه على ما عمله الإخوه و طيب نفسه فلا يعبأ بقول بعضهم أن معنى قوله:إنی أنا أخوك:أنا أخوك مكان أخيك الهالك-و قد كان أخبره أنه كان له أخ من أمه هلك من قبل فبقی وحده لا أخ له من أمه-و لم يعترف يوسف له بالنسب و لكنه أراد أن يطيب نفسه.

و ذلك أنه ينافيه ما فی قوله: «إِنِّی أَنَا أَخُوكَ» من وجوه التأكيد و ذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف.على أنه ينافی أيضا ما سيأتی من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: «أَنَا يُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِی قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنٰا» فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فأعتز بعزته كما لا يخفى.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جَهَّزَهُمْ بِجَهٰازِهِمْ جَعَلَ السِّقٰايَةَ فِی رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ السقايه الظرف الذی يشرب فيه،و الرحل ما

یوضع علی البعیر للرکوب،و العیر القوم الـذین معهم أحمـال المیره و ذلـک اسم للرجـال و الجمـال الحـامله للمیره و إن کان قد یستعمل فی کل واحد من دون الآخر،ذکر ذلک الراغب فی مفرداته.

و معنی الآیه ظاهر و هـذه حیله احتالها یوسف علیه السّـلام لیأخـذ بها أخاه الیه کما قصه و فصـله اللّه تعالی و جعل ذلک مقدمه لتعریفهم نفسه فی حال التحق به أخوه و هما منعمان بنعمه اللّه مکرمان بکرامته.

و قـوله: ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَیَّتُهَا الْعِیرُ إِنَّکُمْ لَسٰارِقُونَ الخطـاب لإخوه یوسـف و فیهم أخـوه لامه،و من الجـائز توجیه الخطـاب الی الجماعه فی أمر یعود الی بعضـهم إذا کان لا یمتاز عن الآخرین،و فی القرآن منه شـیء کثیر،و هذا الأمر الذی سـمی سرقه و هو وجود السـقایه فی رحل البعیر کان قائما بواحـد منهم و هو أخو یوسف لامه لکن عـدم تعینه بعـد من بینهم کان مجوزا لخطابهم جمیعـا بـأنکم سارقون فإن معنی هـذا الخطاب فی مثل هـذا المقام أن السـقایه مفقوده و هی عنـد بعضـکم ممن لا یتعین إلاّ بعد الفحص و التفتیش.

و من المعلوم من السیاق أن أخا یوسف لامه کان عالما بهذا الکید مستحضرا منه و لذلک لم یتکلم من أول الأمر الی آخره و لا بکلمه و لا نفی عن نفسه السـرقه و لا اضـطرب کیف؟و قد عرّفه یوسف أنه أخاه و سـلاه و طیب نفسه فلیس إلاّ أن یوسف علیه السّـلام کان عرّفه ما هو غرضه من هذا الصـنع،و أنه إنما یرید بتسـمیته سارقا و إخراج السـقایه من رحله أن یقبض علیه و یأخذه الیه فتسـمیته سارقـا إنما کان اتهاما فی نظر الإخوه و أما بالنسـبه الیه و فی نظره فلم یکن تسـمیه جـدیه و تهمه حقیقه بل توصـیفا صوریا فحسب لمصلحه لازمه جازمه.

فنسبه السرقه الیهم-بالنظر الی هذه الجهات-لم تکن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا،علی أن القائل هو المؤذن الذی أذن بذلک.

قوله تعالی: قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَیْهِمْ مٰا ذٰا تَفْقِدُونَ الفقد-کما قیل-غیبه الشیء

عن الحس بحيث لا يعرف مكانه،و الضمير فى قوله: «قالُوا» للإخوه و هم العير،و قوله:

«مٰا ذٰا تَفْقِدُونَ» مقول القول و الضمير فى قوله: «عَلَيْهِمْ» ليوسف و فتيانه كما يدل عليه السياق.

و المعنى قال إخوه يوسف المقبلين ليوسف و فتيانه:ما ذا تفقدون؟و فى السياق دلاله على أن المنادى إنما ناداهم من ورائهم و قد أخذوا فى السير.

قوله تعالى: قٰالُوا نَفْقِدُ صُوٰاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ الصواع بالضم السقايه و قيل:إن الصواع هو الصاع الذى يكال به،و كان صواع الملك إناء يشرب فيه و يكال به و لذلك سمى تاره سقايه و اخرى صواعا،و يجوز فيه التذكير و التأنيث،و لذلك قال «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ» و قال «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهٰا» .

و الحمل ما يحمله الحامل من الأثقال،و قد ذكر الراغب أن الأثقال المحموله فى الظاهر كالشىء المحمول على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء،و الأثقال المحموله فى الباطن كالولد فى البطن و الماء فى السحاب و الثمره فى الشجره تختص باسم الحمل بفتح الحاء.

و قال فى المجمع:الزعيم و الكفيل و الضمين نظائر و الزعيم أيضا القائم بأمر القوم و هو الرئيس.

و لعل القائل «نَفْقِدُ صُوٰاعَ الْمَلِكِ» هو فتيان يوسف و القائل «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ» يوسف عليه السّلام نفسه لأنه هو الرئيس الذى قوم أمر الإعطاء و المنع و الضمانه و الكفاله و الحكم،و يعود معنى الكلام على هذا الى نحو من قولنا:أجاب عنهم يوسف و فتيانه أما فتيانه فقالوا:نفقد صواع الملك،و أما يوسف فقال:و لمن جاء به حمل بعير و أنا به زعيم،و هذه جعاله.

و ظاهر بعض المفسرين:أن قوله: «وَ لِمَنْ جٰاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ» تتمه قول المؤذن «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسٰارِقُونَ» و على هذا فقوله: «قٰالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ -الى قوله- صُوٰاعَ

الْمَلِكِ» معترض.

قوله تعالی: قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا کُنّٰا سٰارِقِینَ المراد بالأرض أرض مصر و هی التی جاؤها و معنی الآیه ظاهر.

و فی قولهم: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مٰا جِئْنٰا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ دلاله علی أنهم فتشوا و حقق فی أمرهم أول ما دخلوا مصر للمیره بأمر یوسف علیه السّلام بدعوی الخوف من أن یکونوا جواسیس و عیونا أو نازلین بها لأغراض فاسده اخری فسئلوا عن شأنهم و محلهم و نسبهم و أمثال ذلک،و به یتأید ما ورد فی بعض الروایات أن یوسف أظهر لهم أنه فی ریب من أمرهم فسألهم عن شأنهم و مکانهم و أهلهم و عند ذلک ذکروا أن لهم أبا شائخا و أخا من أبیهم فأمر بإتیانهم به،و سیأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء اللّه تعالی.

و قولهم: وَ مٰا کُنّٰا سٰارِقِینَ نفی أن یکونوا متصفین بهذه الصفه الرذیله من قبل أن یعهد منهم أهل البیت ذلک.

قوله تعالی: قٰالُوا فَمٰا جَزٰاؤُهُ إِنْ کُنْتُمْ کٰاذِبِینَ أی قال فتیان یوسف أو هو و فتیانه سائلین منهم عن الجزاء:ما جزاء السرق أو ما جزاء الذی سرق منکم إن کنتم کاذبین فی إنکارکم.

و الکلام فی قولهم: «إِنْ کُنْتُمْ کٰاذِبِینَ» فی نسبه الکذب الیهم یقرب من الکلام فی قولهم:

«إِنَّکُمْ لَسٰارِقُونَ» و قد تقدم.

قوله تعالی: قٰالُوا جَزٰاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِی رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰاؤُهُ کَذٰلِکَ نَجْزِی الظّٰالِمِینَ مرادهم أن جزاء السرق نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنی أن من سرق مالا یصیر عبدا لمن سرق ماله و هکذا کان حکمه فی سنه یعقوب علیه السّلام کما یدل علیه قولهم:

«کَذٰلِکَ نَجْزِی الظّٰالِمِینَ» أی هؤلاء الظالمین و هم السراق لکنهم عدلوا عنه الی قولهم: «جَزٰاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِی رَحْلِهِ فَهُوَ جَزٰاؤُهُ» للدلاله علی أن السرقه إنما یجازی بها نفس السارق لا رفقته

و صحبه و هم أحد عشر نسمه لا ينبغى أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقه إلّا السارق بعينه من غير أن يتعدى الى نفوس الآخرين و رحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ فيه تفريع على ما تقدم أى أخذ بالتفتيش و الفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم و ظروفهم قبل وعاء أخيه للتعميه عليهم حذرا من أن يتنبهوا و يتفطنوا أنه هو الذى وضعها فى رحل أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه و عند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها فى رحله.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ الى آخر الآيه؛الإشاره الى ما جرى من الأمر فى طريق أخذ يوسف عليه السّلام أخاه لامه من عصبه إخوته،و قد كان كيدا لأنه يوصل الى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا و يتفطنوا به و لو علموا لما رضوا به و لا مكنوه منه،و هذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من اللّه سبحانه أو وحى منه اليه علمه به طريق التوصل الى أخذ أخيه.و لذلك نسب اللّه سبحانه ذلك الى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال «كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ»
.

و ليس كل كيد بمنفى عنه تعالى،و إنما تتنزه ساحه قدسه عن الكيد الذى هو ظلم و نظيره المكر و الإضلال و الاستدراج و غيرها.

و قوله: مٰا كٰانَ لِيَأْخُذَ أَخٰاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ بيان للسبب الداعى الى الكيد،و هو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه اليه،و لم يكن فى دين الملك أى سنته الجاريه فى أرض مصر طريق يؤدى الى أخذه،و لا أن السرقه حكمها استعباد السارق و لذلك كادهم يوسف-بأمر من اللّه-بجعل السقايه فى رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرق عن عندهم أخذ السارق

و استعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم.

و على هذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلاّ فى حال يشاء اللّه ذلك و هو هذا الحال الذى رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

و من هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء و هو أشق،و كان ذلك متداولا فى كثير من السنن القوميه و سياسات الملوك.

و قوله: نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ امتنان على يوسف عليه السّلام بما رفعه اللّه على إخوته،و بيان لقوله: «كَذٰلِكَ كِدْنٰا لِيُوسُفَ» و كان امتنانا عليه.

و فى قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ بيان أن العلم من الامور التى لا يقب على حد ينتهى اليه بل كان ذى علم يمكن ان يفرض من هو أعلم منه.

و ينبغى أن يعلم ان ظاهر قوله: «ذِى عِلْمٍ» هو العلم الطارى على العالم الزائد على ذاته لما فى لفظه «ذِى» من الدلاله على المصاحبه و المقارنه فاللّه سبحانه و علمه الذى هو صفه ذاته عين ذاته،و هو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده أحدى غير محدود،خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

على ان الجمله «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ» إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض «فَوْقَ» و اللّه سبحانه لا فوق له و لا تحت له و لا وراء لوجوده و لا حد لذاته و لا نهايه.

و لا يبعد ان يكون قوله: «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ» إشاره الى كونه تعالى فوق كل ذى علم أن يكون المراد بعليم هو اللّه سبحانه أورد فى هيئه النكره صونا للسان عن تعريفه للتعظيم.

قوله تعالى: قٰالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ الى آخر الآيه؛ القائلون هم إخوه يوسف عليه السّلام لأبيه،و لذلك نسبوا يوسف الى أخيهم المتهم بالسرقه لأنهما كانا من أم واحده،و المعنى أنهم قالوا:إن يسرق هذا صواع الملك فليس ببعيد منه لأنه كان

ص :۳۱۸

له اخ و قد تحققت السرقه منه من قبل فهما يتوارثان ذلک من ناحيه امهما و نحن مفارقوهما فی الام.

و فی هذا نوع تبرئه لأنفسهم من السرقه لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفا «وَ مٰا كُنّٰا سٰارِقِينَ» لأنهم كانوا ينفقون به السرقه عن أبناء يعقوب جميعا و إلاّ لم يكن ينفعهم البته فقولهم: «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» يناقضه و هو ظاهر.على أنهم أظهروا بهذه الكلمه ما فی نفوسهم من الحسد ليوسف و اخيه-و لعلهم لم يشعروا به-و هذا يكشف عن أمور مؤسفه كثيره فيما بينهم.

و بهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» كما ان الظاهر ان قوله:

«أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» الى آخر الآيه كالبيان لقوله: «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» و كما أن قوله: «وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» عطف تفسير لقوله: «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِی نَفْسِهِ» .

و المعنى-و اللّه أعلم- «فَأَسَرَّهٰا» أی اخفى هذه الكلمه التی قالوها ای لم يتعرض لما نسبوا اليه من السرقه و لم ينفه و لم يبين حقيقه الحال بل «فَأَسَرَّهٰا يُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهٰا لَهُمْ» و كأن هناک قائلا يقول:كيف أسرها فی نفسه فاجيب أنه «قٰالَ:أَنْتُمْ شَرٌّ مَكٰاناً» و أسوأ حالا لما فی اقوالكم من التناقض و فی نفوسكم من غريزه الحسد الظاهره و اجترائكم على الكذب فی حضره العزيز بعد هذا الإكرام و الإحسان كله «وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا تَصِفُونَ» إنه قد سرق أخ له من قل فلم يكذبهم فی وصفهم و لم ينفه.

قوله تعالى: قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنٰا مَكٰانَهُ إِنّٰا نَرٰاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ سياق الآيات يدل على أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ و الاستعباد،و ذكروا أنهم أعطوا أباهم موثقا من اللّه أن يرجعوه اليه فلم يكن فی مقدرتهم أن يرجعوا الى أبيهم و لا يكون معهم،فعند ذلک عزموا أن يفدوه بواحد منهم إن قبل العزيز،و كلموا العزيز فی ذلک أن يأخذ أی من شاء منهم،و يخلی عن سبيل أخيهم المتهم

ليرجعوه اليه أبيه.

و معنى الآيه ظاهر،و فى اللفظ ترقيق و استرحام و إثاره لصفه الفتوه و الإحسان من العزيز.

قوله تعالى قَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّٰ مَنْ وَجَدْنٰا مَتٰاعَنٰا عِنْدَهُ إِنّٰا إِذاً لَظٰالِمُونَ رد منه عليه السّلام لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمّٰا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:

اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس ييأس و أيس يأيس لغه،و استفعل مثل استيأس و استأيس.قال:و يئس و استيأس بمعنى مثل سخر و استسخر و عجب و استعجب.

و النجى القوم يتناجون الواحد و الجمع فيه سواء قال سبحانه «وَ قَرَّبْنٰاهُ نَجِيًّا» و إنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به،و المناجاه المساره و أصله من النجوه هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد الى صاحبه فى خفيه،و النجوى يكون اسما مصدريا قال سبحانه «وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ» أى يتناجون،و قال فى المصدر «إِنَّمَا النَّجْوىٰ مِنَ الشَّيْطٰانِ» و جمع النجى أنجيه قال:

و برح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه.انتهى.

و الضمير فى قوله: «فَلَمّٰا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» ليوسف و يمكن أن يكون لأخيه و المعنى «فَلَمّٰا اسْتَيْأَسُوا» أى إخوه يوسف «مِنْهُ» أى من يوسف أن يخلى عن سبيل أخيه و لو بأخذ أحدهم بدلا منه «خَلَصُوا» و خرجوا من بين الناس الى فراغ «نَجِيًّا» يتناجون فى أمرهم أ يرجعون الى أبيهم و قد أخذ منهم موثقا من اللّه أن يعيدوا أخاهم اليه أم يقيمون هناك و لا فائده فى إقامتهم؟ ما ذا يصنعون؟

«قٰالَ كَبِيرُهُمْ» مخاطبا لسائرهم «أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبٰاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللّٰهِ» ألا ترجعوا من سفركم هذا اليه إلاّ بأخيكم، «وَ مِنْ قَبْلُ» هذه الواقعه «مٰا فَرَّطْتُمْ» أى تفريطكم و تقصيركم «فِي» أمر «يُوسُفَ» عهدتم أباكم أن تحفظوه و تردوه اليه سالما فألقيتموه فى الجب

ثم بعتموه من السياره ثم أخبرتم أباكم أنه أكله الذئب.

«فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ» أى فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أتنحى و لن أفارق أرض مصر «حَتّٰى يَأْذَنَ لِى أَبِى» برفعه اليد عن الموثق الذى واثقته به «أَوْ يَحْكُمَ اللّٰهُ لِى وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ» فيجعل لى طريقا الى النجاه من هذه المضيقه التى سدت لى كل باب و ذلك إما بخلاص أخى من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتى أو بغير ذلك من سبيل!!.

أما أنا فأختار البقاء هاهنا و أما أنتم فارجعوا الى أبيكم الى آخر ما ذكر فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: اِرْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يٰا أَبٰانٰا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا عَلِمْنٰا وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ قيل المراد بقوله: «وَ مٰا شَهِدْنٰا إِلاّٰ بِمٰا عَلِمْنٰا» أنا لم نشهد فى شهادتنا هذه «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» إلاّ بما علمنا من سرقته،و قيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقته و يسترق إلاّ بما علمنا من حكم المسأله،قيل و إنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب:ما يدرى الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته و يسترق؟و إنما علم ذلك بقولكم،و أقرب المعنيين الى السياق أولهما.

و قوله: وَ مٰا كُنّٰا لِلْغَيْبِ حٰافِظِينَ قيل أى لم نكن نعلم أن ابنك سيسرق فيؤخذ و يسترق و إنما كنا نعتمد على ظاهر الحال و لو كنا نعلم ذلك لما بادرنا الى تسفيره معنا و لا أقدمنا على الميثاق.

و الحق أن المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بما و معنى الآيه إن ابنك سرق و ما شهدنا فى جزاء السرقه إلاّ بما علمنا و ما كنا نعلم أنه سرق السقايه و أنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهاده فما كنا نظن به ذلك.

قوله تعالى: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنّٰا فِيهٰا وَ الْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنٰا فِيهٰا وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ أى و اسأل جميع من صاحبنا فى هذه السفره أو شاهد جريان حالنا عند العزيز التى لا يبقى لك أدنى ريب فى أنا لم نفرط فى أمره بل إنه سرق فاسترق.

فالمراد بالقريه التى كانوا فيها بلده مصر-على الظاهر-و بالعير التى أقبلوا فيها القافله التى كانوا فيها و كان رجالها يصاحبونهم فى الخروج الى مصر و الرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم،و لذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: «وَ إِنّا لَصادِقُونَ» أى فيما نخبرك من سرقته و استرقاقه لذلك،و نكلفك السؤال لإزاله الريب من نفسك.

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۹۲]

اشاره

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اَللّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَ اِبْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ اَلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قالُوا تَاللّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ اَلْهالِكِينَ (۸۵) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اَللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اَللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۶) يا بَنِيَّ اِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اَللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اَللّهِ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْكافِرُونَ (۸۷) فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا اَلْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا اَلضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا اَلْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اَللّهَ يَجْزِى اَلْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (۸۹) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِى قَدْ مَنَّ اَللّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اَللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ (۹۰) قالُوا تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اَللّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنّا لَخاطِئِينَ (۹۱) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اَللّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ اَلرّاحِمِينَ (۹۲)

ص: ۳۲۲

بيان:

قوله تعالی: قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِی بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فی المقام حذف كثير يدل عليه قوله:

«ارْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا» الی آخر الآيتين؛و التقدير و لما رجعوا الی أبيهم و قالوا ما وصاهم به كبيرهم قال أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمرا،الخ.

و قوله: قٰالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً حكايه ما أجابهم به يعقوب عليه السّلام و لم يقل عليه السّلام هذا القول تكذيبا لهم فيما أخبروه به و حاشاه أن يكذب خبرا يحتف بقرائن الصدق و تصاحبه شواهد يمكن اختباره بها،و لا رماهم بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» رميا بالمظنه بل ليس إلاّ أنه وجد بفراسه إلهيه أن هذه الواقعه ترتبط و تتفرع علی تسويل نفسانی منهم إجمالا و كذلك كان الأمر فإن الواقعه من أذناب واقعه يوسف و كانت واقعته من تسويل نفسانی منهم.

و من هنا يظهر أنه عليه السّلام لم ينسب الی تسويل أنفسهم عدم رجوع أخی يوسف فحسب بل عدم رجوعه و عدم رجوع كبيرهم الذی توقف بمصر و لم يرجع اليه،و يشهد لذلك قوله:

«عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً» فجمع فى ذلك بين يوسف و أخيه و كبير الإخوه فلم يـذكر أخا يوسف وحـده و لا يوسف و أخاه معا،فظاهر السياق أن ترجيه رجوع بنيه الثلاثه مبنى على صبره الجميل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمرا.

فالمعنى-و اللّه أعلم-أن هذه الواقعه مما سولت لكم أنفسكم كما قلت ذلك فى واقعه يوسف فصبر جميل قبال تسويل انفسكم عسى اللّه أن يأتينى بأبنائى الثلاثه جميعا.

و من هنا يظهر أن قولهم:إن المعنى:ما عندى ان الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم انفسكم أمرا فيما أظن،ليس فى محله.

و قوله: عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ترج مجرد لرجوعهم جميعا مع ما فيه من الإشاره الى أن يوسف حى لم يمت-على ما يراه-و ليس مشربا معنى الـدعاء،و لـو كـان فى معنى الـدعاء لم يختمه بقوله: «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» بـل بمثل قولنا:

إنه هو السميع العليم أو الرءوف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود فى الأدعيه المنقوله فى القرآن الكريم.

بـل هو رجاء لثمره الصبر فهو يقول:إن واقعه يوسف السابقه و هـذه الواقعه التى أخـذت منى ابنين آخرين إنما هما لأمر ما سولته لكم انفسكم فسأصبر صبرا و أرجو به ان يأتينى اللّه بأبنائى جميعا و يتم نعمته على آل يعقوب كما وعـدنيه إنه هو العليم بمورد الاجتباء و إتمام النعمه حكيم فى فعله يقـدر الامور على ما تقتضيه الحكمه البالغه فلا ينبغى للإنسان ان يضطرب عنـد البلايا و المحن بالطيش و الجزع و لا أن ييأس من روحه و رحمته.

و الاسـمان:العليم الحكيم همـا اللـذان ذكرهمـا يعقوب ليوسف عليه السّلام لأول مره أول رؤياه فقال «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ثم ذكرهما يوسف ليعقوب عليهما السّلام ثانيا حيث رفع ابويه على العرش و خرّوا له سجدا فقال «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰايَ -الى أن قال- وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» .

قوله تعالی: وَ تَوَلّی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا أَسَفیٰ عَلیٰ یُوسُفَ وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ کَظِیمٌ قال الراغب فی المفردات:الأسف الحزن و الغضب معا،و قد یقال لکل واحد منهما علی الانفراد و حقیقته ثوران دم القلب شهوه الانتقام فمتی کان ذلک علی من دونه انتشر فصار غضبا،و متی کان علی من فوقه انقبض فصار حزنا-الی ان قال-و قوله تعالی:

«فَلَمّٰا آسَفُونٰا انْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ» أی أغضبونا قال أبو عبد اللّه (۱)الرضا:إن اللّه لا یأسف کأسفنا و لکن له أولیاء یأسفون و یرضون فجعل رضاهم رضاه و غضبهم غضبه.قال:و علی ذلک قال:من أهان لی ولیا فقد بارزنی بالمحاربه.انتهی.

و قال:الکظم مخرج النفس یقال:أخذ بکظمه،و الکظوم احتباس النفس و یعبر به عن السکوت کقولهم:فلان لا یتنفس إذا وصف بالمبالغه فی السکوت،و کظم فلان حبس نفسه قال تعالی «إِذْ نٰادیٰ وَ هُوَ مَکْظُومٌ» و کظم الغیظ حبسه قال تعالی «وَ الْکٰاظِمِینَ الْغَیْظَ» ،و منه کظم البعیر إذا ترک الاجترار و کظم السقاء شده بعد ملئه مانعا لنفسه.انتهی.

و قوله: وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ مِنَ الْحُزْنِ ابیضاض العین أی سوادها هو العمی و بطلان الإبصار و ربما یجامع قلیل إبصار لکن قوله الآتی: اِذْهَبُوا بِقَمِیصِی هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلیٰ وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً (الآیه ۹۳ من السوره)یشهد بأنه کنایه عن ذهاب البصر.

و معنی الآیه «ثُمَّ تَوَلّی» و أعرض یعقوب علیه السّلام «عَنْهُمْ» أی عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله:بل سولت لکم أنفسکم أمرا «وَ قٰالَ یٰا أَسَفیٰ» و یا حزنی «عَلیٰ یُوسُفَ وَ ابْیَضَّتْ عَیْنٰاهُ» و ذهب بصره «مِنَ الْحُزْنِ» علی یوسف «فَهُوَ کَظِیمٌ» حابس غیظه متجرع حزنه لا یتعرض لبنیه بشیء.

قوله تعالی: قٰالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُا تَذْکُرُ یُوسُفَ حَتّٰی تَکُونَ حَرَضاً أَوْ تَکُونَ

۱- ۱) .کذا فی النسخه المنقوله عنها و الصحیح ابو الحسن.

مِنَ الْهالِكِينَ الحرض و الحارض المشرف على الهلاك و قيل:هو الـذى لا ميت فينسى و لا حى فيرجى،و المعنى الأول أنسب بالنظر الى مقابلته الهلاك،و الحرض لا يثنى و لا يجمع لأنه مصدر.

و المعنى:نقسم بـاللّه لاـ تزال تـذكر يوسف و تـديم ذكره منـذ سـنين لاـ تكف عنه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك،و ظاهر قولهم هـذا أنهم إنمـا قـالوه رقه بحـاله و رأفه به،و لعلهم إنمـا تفوهوا به تبرّما ببكائه و سأمه من طول نياحه ليوسف،و خاصه من جهه أنه كان يكـذبهم فى ما كانوا يـدعونه من أمر يوسف،و كان ظاهر بكائه و تأسفه أنه يشكوهم كما ربما يؤيـده قوله: «إِنَّما أَشْكُوا» الخ.

قوله تعـالى: قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال فى المجمع:البث الهم الـذى لا يقـدر صاحبه على كتمانه فيبثه أى يفرقه،و كل شىء فرقته فقد بثثته و منه قوله: «وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّهٍ» انتهى فهو من المصدر بمعنى المفعول أى المبثوث.

و الحصر الـذى فى قوله: «إِنَّما أَشْكُوا» الـخ؛من قصر القلب فيكون مفاده أنى لست أشكو بثى و حزنى اليكم معاشر ولـدى و أهلى،و لو كنت أشكوه اليكم لأـنقطع فى أقل زمان كما يجرى عليه دأب الناس فى بثهم و حزنهم عنـد المصائب،و إنما أشكو بثى و حزنى الى اللّه سبحانه،و لا يأخذه ملل و لا سأمه فيما يسأله عنه عباده و يبرمه أرباب الحوائج و يلحون عليه و أعلم من اللّه ما لا تعلمون فلست أيأس من روحه و لا أقنط من رحمته.

و فى قوله: وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ إشاره إجماليه الى علمه باللّه لا يستفاد منه إلاّ ما يساعد على فهمه المقام كما اشرنا اليه.

قوله تعـالى: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لاـ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ قال فى المجمع:

التحسس-بالحاء-طلب الشیء بالحاسه و التجسس-بالجیم-نظیره و فی الحدیث:لا تحسسوا و لا تجسسوا،و قیل إن معناهما واحد و نسق أحدهما علی الآخر لاختلاف اللفظین کقول الشاعر «متی أدن منه ینأ عنه و یبعد».

و قیل:التجسس بالجیم البحث عن عورات الناس،و بالحاء الاستماع لحدیث قوم و سئل ابن عباس عن الفرق بینهما؟قال:لا یبعد أحدهما عن الآخر:التحسس فی الخیر و التجسس فی الشر.انتهی.

و قوله: وَ لاٰ تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ الروح بالفتح فالسکون النفس أو النفس الطیب و یکنی به عن الحاله التی هی ضد التعب و هی الراحه و ذلک أن الشده التی فیها انقطاع الأسباب و انسداد طرق النجاه تتصور اختناقا و کظما للإنسان و بالمقابله الخروج الی فسحه الفرج و الظفر بالعافیه تنفسا و روحا لقولهم یفرج الهمّ و ینفس الکرب،فالروح المنسوب الیه تعالی هو الفرج بعد الشده بإذن اللّٰه و مشیته،و علی من یؤمن باللّٰه أن یعتقد أن اللّٰه یفعل ما یشاء و یحکم ما یرید لا قاهر لمشیته و لا معقب لحکمه،و لیس له أن ییأس من روح اللّٰه و یقنط من رحمته فإنه تحدید لقدرته و فی معنی الکفر باحاطته وسعه رحمته کما قال تعالی حاکیا عن لسان یعقوب علیه السّلام «إِنَّهُ لاٰ یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْکٰافِرُونَ» و قال حاکیا عن لسان إبراهیم علیه السّلام وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّٰالُّونَ (الحجر/۵۶)،و قد عد الیأس من روح اللّٰه فی الأخبار المأثوره من الکبائر الموبقه.

و معنی الآیه-ثم قال یعقوب لبنیه آمرا لهم- «یٰا بَنِیَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا» من یوسف و أخیه،الذی أخذ بمصر و ابحثوا عنهما لعلکم تظفرون بهما «وَ لاٰ تَیْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ» و الفرج الذی یرزقه اللّٰه بعد الشده «إِنَّهُ لاٰ یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْکٰافِرُونَ» الذین لا یؤمنون بأن اللّٰه یقدر أن یکشف کل غمه و ینفس عن کل کربه.

قوله تعالی: فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلَیْهِ قٰالُوا یٰا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ

وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ الخ؛البضاعه المزجاه المتاع القليل،و فى الكلام حذف و التقدير فساروا بنى يعقوب الى مصر و لما دخلوا على يوسف قالوا،الخ.

كانت لهم-على ما يدل عليه السياق-حاجتان الى العزيز و لا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب الى قضائهما و استجابته عليهم فيهما.

إحداهما:أن يبيع منهم الطعام و لا ثمن عندهم يفى بما يريدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب و سجل عليهم السرقه من قبل و هان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به فى الجيئه الاولى.

و ثانيتهما:أن يخلى عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسرقه،و قد استيأسوا منه بعد ما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخليه سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

و لذلك لما حضروا عند يوسف العزيز و كلموه و هم يريدون أخذ الطعام و إعتاق أخيهم أوقفوا أنفسهم موقف التذلل و الخضوع و بالغوا فى رقه الكلام استرحاما و استعطافا فذكروا أولا ما مسهم و أهلهم من الضر و سوء الحال ثم ذكروا قله ما أتوا به من البضاعه ثم سألوه إيفاء الكيل،و أما حديث أخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخليه سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم و إنما يتصدق بالمال و الطعام مال و أخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم: «إِنَّ اللّهَ يَجْزِی الْمُتَصَدِّقِینَ» و هو فى معنى الدعاء.

فمعنى الآيه «یا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ» و أحاط بنا جميعا المضيقه و سوء الحال «وَ جِئْنا» اليك «بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ» و متاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير أنه نهايه ما فى وسعنا «فَأَوْفِ لَنَا الْکَیْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَیْنا» و كأنهم يريدون به أخاهم أو إياه و الطعام «إِنَّ اللّهَ یَجْزِی الْمُتَصَدِّقِینَ» خيرا.

و قد بدءوا القول بخطاب «یا أَیُّهَا الْعَزِیزُ» و ختموه بما فى معنى الدعاء،و أتوا خلاله بذكر سوء حالهم و الاعتراف بقله بضاعتهم و سؤاله أن يتصدق عليهم و هو من أمر السؤال

و الموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلک لسوء سابقته،و هم عصبه قد اصطفوا أما عزیز مصر.

و عند ذلک تمت الکلمه الإلهیه أنه سیرفع یوسف و أخاه و یضع عنده سائر بنی یعقوب لظلمهم،و لذلک لم یلبث یوسف علیه السّلام دون أن أجابهم قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِیُوسُفَ وَ أَخِیهِ» و عرفهم نفسه،و قد کان یمکنه علیه السّلام أن یخبر أباه و أخوته مکانه و أنه بمصر طول هذه المده غیر القصیره لکن اللّه سبحانه شاء أن یوقف إخوته أمامه و معه أخوه المحسود متوقف المذله و المسکنه و هو متک علی أریکه العزه.

قوله تعالی: قٰالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِیُوسُفَ وَ أَخِیهِ إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ إنما یخاطب المخطئ المجرم بمثل هل علمت و أ تدری و أ رأیت و نحوها و هو عالم بما فعل لتذکیره جزاء عمله و وبال ذنبه لکنه علیه السّلام أعقب استفهامه بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ جٰاهِلُونَ» و فیه تلقین عذر.

فقوله: هَلْ عَلِمْتُمْ مٰا فَعَلْتُمْ بِیُوسُفَ وَ أَخِیهِ مجرد تذکیر لعملهم بهما من غیر توبیخ و مؤاخذه لیعرفهم من اللّه علیه و علی أخیه و هذا من عجیب فتوه یوسف علیه السّلام،و یا لها من فتوه.

قوله تعالی: قٰالُوا أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ یُوسُفُ قٰالَ أَنَا یُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِی قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَیْنٰا الی آخر الآیه تأکید الجمله المستفهم عنها للدلاله علی أن الشواهد القطعیه قامت علی تحقق مضمونها و إنما یستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

و قد قامت الشواهد عندهم علی کون العزیز هو أخاهم یوسف و لذلک سألوه بقولهم:

«أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ یُوسُفُ» مؤکدا بإن و اللام و ضمیر الفصل فأجابهم بقوله: «أَنَا یُوسُفُ وَ هٰذٰا أَخِی» و إنما ألحق أخاه بنفسه و لم یسألوا عنه و ما کانوا یجهلونه لیخبر عن من اللّه علیهما،و هما معا المحسودان و لذا قال «قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَیْنٰا» .

ثم أخبر عن سبب المن الإلهی بحسب ظاهر الأسباب فقال «إِنَّهُ مَنْ یَتَّقِ وَ یَصْبِرْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» و فيه دعوتهم الى الإحسان و بيان أنه يتحقق بالتقوى و الصبر.

قوله تعالى: قٰالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ إِنْ کُنّٰا لَخٰاطِئِينَ الإيثار هو الاختيار و التفضيل،و الخطأ ضد الصواب و الخاطئ و المخطئ من خطأ خطأ و أخطأ إخطاء بمعنى واحد،و معنى الآيه ظاهر و فيها اعترافهم بالخطإ و تفضيل اللّه يوسف عليهم.

قوله تعالى: قٰالَ لاٰ تَثْرِيبَ عَلَيْکُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَکُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ التثريب التوبيخ و المبالغه فى اللوم و تعديد الذنوب،و إنما قيّد نفى التثريب باليوم ليدل على مكانه صفحه و إغماضه عن الانتقام منهم و الظرف هذا الظرف هو عزيز مصر اوتى النبوه و الحكم و علم الأحاديث و معه أخوه و هم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئه و أن اللّه آثره عليهم بالرغم من قولهم أول يوم: «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبٰانٰا لَفِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» .

ثم دعا لهم و استغفر بقوله: «يَغْفِرُ اللّٰهُ لَکُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِينَ» و هذا دعاء و استغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعا و إن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتى: «قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّکَ لَفِي ضَلاٰلِکَ الْقَدِيمِ» و سيجىء إن شاء اللّه تعالى (۱).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۹۳ الى ۱۰۲]

اشاره

اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِينَ (۹۳) وَ لَمّٰا فَصَلَتِ اَلْعِيرُ قٰالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لاٰ أَنْ تُفَنِّدُونِ (۹۴) قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّکَ لَفِي ضَلاٰلِکَ اَلْقَدِيمِ (۹۵) فَلَمّٰا أَنْ جٰاءَ اَلْبَشِيرُ أَلْقٰاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۹۶) قٰالُوا يٰا أَبٰانَا اِسْتَغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا إِنّٰا کُنّٰا خٰاطِئِينَ (۹۷) قٰالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۹۸) فَلَمّٰا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قٰالَ اُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ آمِنِينَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى اَلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قٰالَ يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُؤْيٰايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ اَلسِّجْنِ وَ جٰاءَ بِکُمْ مِنَ اَلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ اَلشَّيْطٰانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَکِيمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ اَلْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ اَلْأَحٰادِيثِ فٰاطِرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ (۱۰۱) ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْکَ وَ مٰا کُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْکُرُونَ (۱۰۲)

۱- ۱) .يوسف ۸۳-۹۲:بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه فى مصر؛سيره يوسف فى مصر؛حزن يعقوب على يوسف و تغيير حالته من الحزن.

بیان:

قوله تعالی: اِذْهَبُوا بِقَمِیصِی هٰذا فَأَلْقُوهُ عَلیٰ وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ تتمه کلام یوسف علیه السّلام یأمر فیه إخوته أن یذهبوا بقمیصه الی أبیه فیلقوه علی وجهه لیشفی اللّه به عینیه و یأتی بصیرا بعد ما صار من کثره الحزن و البکاء ضریرا لا یبصر.

و هذا آخر العنایات البدیعه التی أظهرها اللّه سبحانه فی حق یوسف علیه السّلام علی ما یقصه فی هذه السوره مما غلب اللّه الاسباب فحولها الی خلاف الجهه التی کانت تجری إلیها حسده إخوته فاستذلوه و غربوه عن مستقره بالقائه فی الجب و بیعه من السیاره بثمن بخس فجعل اللّه سبحانه هذا السبب بعینه سببا لقراره فی بیت عزیز مصر فی أکرم مثوی ثم أقره فی أریکه عزه تضرع الیه أمامها إخوته بقولهم: «یٰا أَیُّهَا الْعَزِیزُ مَسَّنٰا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنٰا بِبِضٰاعَهٍ مُزْجٰاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْکَیْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَیْنٰا إِنَّ اللّٰهَ یَجْزِی الْمُتَصَدِّقِینَ» .

ثم أحبته امرأه العزیز و نسوه مصر فراودنه عن نفسه لیوردنه فی مهلکه الفجور فحفظه اللّه و جعل ذلک سببا لظهور براءه ساحته و کمال عفته،ثم استذلوه فسجنوه فجعله اللّه سببا لعزته و ملکه.

و جاء إخوته الی أبیه یوم ألقوه فی غیابه الجب بقمیصه الملطخ بالدم فأخبروه بموته کذبا فکان القمیص سببا لحزن أبیه و بکائه فی فراق ابنه حتی ابیضت عیناه و ذهب بصره فرد اللّه سبحانه به بصره الیه و بالجمله اجتمعت الأسباب علی خفضه و أراد اللّه سبحانه رفعه فکان ما أراده اللّه دون الذی توجهت الیه الأسباب و اللّه غالب علی أمره.

و قوله: وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ أمر منه بانتقال بیت یعقوب من یعقوب و أهله و بنیه و ذراریه جمیعا من البدو الی مصر و نزولهم بها.

قوله تعالی: وَ لَمّٰا فَصَلَتِ الْعِيرُ قٰالَ أَبُوهُمْ إِنِّی لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لاٰ أَنْ تُفَنِّدُونِ الفصل القطع و الانقطاع و التنفيد تفعيل من الفند بفتحتين و هو ضعف الرأی، و المعنی لما خرجت العير الحامله لقميص يوسف من مصر و انقطعت عنها قال أبوهم يعقوب لمن عنده من بنيه:إنی لأجد ريح يوسف لو لا أن ترمونی بضعف الرأی أی إنی لأحس بريحه و أری أن اللقاء قريب و من حقه أن تذعنوا بما أجده لو لا أن تخطئونی لكن من المحتمل أن تفندونی فلا تذعنوا بقولی.

قوله تعالی: قٰالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِی ضَلاٰلِكَ الْقَدِيمِ القديم مقابل الجديد و المراد به المتقدم وجودا،و هذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده،و هو من سيئ حظهم فی هذه القصه تفوّهوا بمثله فی بدء القصه إذ قالوا «إِنَّ أَبٰانٰا لَفِی ضَلاٰلٍ مُبِينٍ» و فی ختمها و هو قولهم هذا: «تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِی ضَلاٰلِكَ الْقَدِيمِ» .

و الظاهر أن مرادهم بالضلال هاهنا هو مرادهم بالضلال هناك و هو المبالغه فی حب يوسف و ذلك أنهم كانوا يرون أنهم أحق بالحب من يوسف و هم عصبه اليهم تدبير بيته و الدفاع عنه لكن أباهم قد ضل عن مستوی طريق الحكمه و قدم عليهم فی الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئا فأقبل بكله اليهما و نسيهم،ثم لما فقد يوسف جزع له و لم يزل يجزع و يبكی حتی ذهبت عيناه و تقوّس ظهره.

فهذا هو مرادهم من كونه فی ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال فی الدين حتی يصيروا بذلك كافرين:

أما أولا:فلأن ما ذكر من فصول كلامهم فی خلال القصه يشهد علی أنهم كانوا موحدين علی دين آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

و أما ثانيا:فلأن المقام هاهنا و كذا فی بدء القصه حين قالوا:إن أبانا لفی ضلال مبين لا مساس له بالضلال فی الدين حتی يحتمل رميهم أباهم فيه،و إنما يمس أمرا عمليا حيويا و هو

حب أب لبعض أولاده و تقديمه فى الكرامه على آخرين فهو المعنى بالضلال.

قوله تعالى: فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ البشير حامل البشاره و كان حامل القميص و قوله: «أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ» يشير عليه السّلام الى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف:

«إِنَّما أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اللّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: «يا أَبانَا» و يريدون بالذنوب ما فعلوه به فى أمر يوسف و أخيه،و أما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

قوله تعالى: قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أخر عليه السّلام الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى» و لعله إنما أخره ليتم له النعمه بلقاء يوسف و تطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم و فى بعض الأخبار:أنه أخره الى وقت يستجاب فيه الدعاء و سيجىء إن شاء اللّه.

قوله تعالى: فَلَمّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ فى الكلام حذف و التقدير فخرج يعقوب و آله من أرضهم و ساروا الى مصر و لما دخلوا«الخ».

و قوله: آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ فسروه بضمهما اليه،و قوله: «وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ» الخ؛ ظاهر فى أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما و ضمهما اليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراما و تأدبا و قد أبدع عليه السّلام فى قوله: «إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ» حيث أعطاهم الأمن و اصدر لهم حكمه على سنه الملوك و قيد ذلك بمشيه اللّه سبحانه للدلاله على أن المشيه الإنسانيه لا تؤثر أثرها كسائر الاسباب إلاّ إذا وافقت المشيه الإلهيه على ما هو مقتضى التوحيد الخالص، و ظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول و الاستقرار فى مصر إلاّ بجواز من ناحيه الملك،

و لذا أعطاهم الأمن فى مبتدإ الأمر.

و قد ذكر سبحانه «أَبَوَيْهِ» و المفسرون مختلفون فى أنهما كانا والديه أباه و أمه حقيقه أو أنهما يعقوب و زوجه خاله يوسف بالبناء على أن أمه ماتت و هو صغير،و لا يوجد فى كلامه تعالى ما يؤيد أحد المحتملين غير أن الظاهر من الأبوين هما الحقيقيان.

و معنى الآيه «فَلَمّا دَخَلُوا» أى أبواه و إخوته و أهلهم «عَلى يُوسُفَ» و ذلك فى خارج مصر «آوى» و ضم «إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ» لهم مؤمنا لهم «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ» .

قوله تعالى: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ الى آخر الآيه؛العرش هو السرير العالى و يكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك و يختص به،و الخرور السقوط على الارض و البدو الباديه فإن يعقوب كان يسكن الباديه.

و قوله: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ أى رفع يوسف أبويه على عرش الملك الذى كان يجلس عليه و مقتضى الاعتبار و ظاهر السياق أنهما رفعا على العرش بأمر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله: «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» فإن الظاهر أن السجده إنما وقعت لأول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت و اطمأن بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشيهم النور الإلهى المتلألئ من جماله البديع فلم يملكوا أنفسهم دون أن خرّوا له سجدا.

و قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له، و قول بعضهم:إن الضمير للّه سبحانه نظرا الى عدم جواز السجود لغير اللّه لا دليل عليه من جهه اللفظ،و قد وقع نظيره فى القرآن الكريم فى قصه آدم و الملائكه قال تعالى وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ (طه١١۶/).

و الدليل على أنها لم تكن منهم سجده عباده ليوسف أن بين هؤلاء الساجدين يعقوب عليه السّلام

و هو ممن نصّ القرآن الكريم على كونه مخلصا-بالفتح-للّه لا يشرك به شيئا،و يوسف عليه السّلام -و هو المسجود له-منهم بنص القرآن و هو القائل لصاحبيه فى السجن:ما كان لنا أن نشرك باللّه من شىء و لم يردعهم.

فليس إلاّ أنهم إنما أخذوا يوسف آيه اللّه فاتخذوه قبله فى سجدتهم و عبدوا اللّه بها لا غير كالكعبه التى تؤخذ قبله فيصلى إليها فيعبد بها اللّه دون الكعبه،و من المعلوم أن الآيه من حيث إنها آيه لا نفسيه لها أصلا فليس المعبود عندها إلاّ اللّه سبحانه و تعالى،و قد تكرر الكلام فى هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: قَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا الى آخر الآيه؛لما شاهد عليه السّلام سجده أبويه و إخوته الأحد عشر ذكر الرؤيا التى رأى فيها أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين و أخبر بها أباه و هو صغير فأوّلها له،فأشار الى سجودهم له و قال «يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا -أى الرؤيا- رَبِّى حَقًّا».

ثم أثنى على ربه شاكرا له فقال «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ» فذكر إحسان ربه به فى إخراجه من السجن و هو ضرّاء و بلاء دفعه اللّه عنه بتبديله سراء و نعمه من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيله لنيله العزه و الملك.

و لم يذكر إخراجه من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده و كان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرما و فتوه بل أشار الى ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به اليه من غير أن يتضمن طعنا فيهم و شنآنا فقال «وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى» و النزغ هو الدخول فى أمر لإفساده.

و المراد:و قد أحسن بى من بعد أن أفسد الشيطان بينى و بين إخوتى فكان من الأمر ما كان فأدّى ذلك الى فراق بينى و بينكم فساقنى ربى الى مصر فأقرّنى فى أرغد عيش و أرفع عزه و ملك ثم قرّب بيننا بنقلكم من الباديه إلىّ فى دار المدنيه و الحضاره.

ص :۳۳۶

يعنى أنه كانت نوائب نزلت بى إثر إفساد الشيطان بينى و بين إخوتى و مما أخصه بالذكر من بينها فراق بينى و بينكم ثم رزيه السجن فأحسن بى ربى و دفعها عنى واحده بعد أخرى و لم يكن من المحن و الحوادث العاديه بل رزايا صماء و عقودا لا تنحل لكن ربى نفذ فيها بلطفه و نفوذ قدرته فبدلها أسباب حياه و نعمه بعد ما كانت أسباب هلاك و شقاء و لهذه الثلاثه الأخيره عقب قوله: «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی» الخ؛بقوله: «إِنَّ رَبِّی لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ» .

فقوله: إِنَّ رَبِّی لَطِيفٌ لِمٰا يَشٰاءُ تعليل لإخراجه من السجن و مجيئهم من البدو، و يشير به الى ما خصه اللّه به من العنايه و المنه و أن البلايا التى أحاطت به لم تكن لتنحل عقدتها أو لتنحرف عن مجراها لكن اللّه لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشده عوامل رخاء و راحه و أسباب الذله و الرقيه وسائل عزه و ملك.

و اللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره و إحاطته تعالى بما لا سبيل الى الحضور فيه و الإحاطه به من باطن الأشياء و هو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ القدره و العلم قال تعالى:

أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملک۱۴/)و الأصل فى معناه الصغر و الدقه و النفوذ يقال:لطف الشىء بالضم يلطف لطافه إذا صغر و دق حتى نفذ فى المجارى و الثقب الصغار،و يكنى به عن الإرفاق و الملاءمه و الاسم اللطف.

و قوله: هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: «يٰا أَبَتِ هٰذٰا تَأْوِيلُ رُءْيٰایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهٰا رَبِّی حَقًّا» الخ؛و قد علل عليه السّلام الكلام و ختمه بهذين الاسمين محاذاه لأبيه حيث تكلم فى رؤياه و قال «وَ كَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ -الى أن قال- إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و ليس يبعد أن يفيد اللام فى قوله: «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» معنى العهد فيفيد تصديقه لقول أبيه عليه السّلام و المعنى:و هو ذاك العليم الحكيم الذى وصفته لى يوم أوّلت رؤياى.

قوله تعالى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِی مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحٰادِيثِ

الی آخر الآیه؛لما أثنی علیه السّلام علی ربه و عدّ ما دفع عنه من الشدائد و النوائب أراد أن یذکر ما خصه به من النعم المثبته و قد هاجت به المحبه الإلهیه و انقطع بها عن غیره تعالی فترک خطاب أبیه و انصرف عنه و عن غیره ملتفتا الی ربه و خاطب ربه عز اسمه فقال «رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ» .

و قوله: فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ إضراب و ترق فی الثناء،و رجوع منه علیه السّلام الی ذکر أصل الولایه الإلهیه بعد ما ذکر بعض مظاهرها الجلیه کاخراجه من السجن و المجیء بأهله من البدو و إیتائه من الملک و تعلیمه من تأویل الأحادیث فإن اللّه سبحانه رب فیما دق و جلّ معا،و لی فی الدنیا و الآخره جمیعا.

و ولایته تعالی أعنی کونه قائما کل شیء فی ذاته و صفاته و أفعاله منشأها إیجاده تعالی إیاها جمیعا و إظهاره لها من کتم العدم فهو فاطر السموات و الأرض و لذا یتوجه الیه تعالی قلوب أولیائه و المخلصین من عباده من طریق هذا الاسم الذی یفید وجوده تعالی لذاته و إیجاده لغیره قال تعالی: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّهِ شَکٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (إبراهیم١٠/).

و لذا بدأ به یوسف علیه السّلام و هو من المخلصین فی ذکر ولایته فقال «فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ» أی إنی تحت ولایتک التامه من غیر أن یکون لی صنع فی نفسی و استقلال فی ذاتی و صفاتی و أفعالی أو أملک لنفسی شیئا من نفع أو ضر أو موت أو حیاه أو نشور.

و قوله: تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ لما استغرق علیه السّلام فی مقام الذله قبال رب العزه و شهد بولایته له فی الدنیا و الآخره سأله سؤال المملوک المولی علیه أن یجعله کما یستدعیه ولایته علیه فی الدنیا و الآخره و هو الإسلام ما دام حیا فی الدنیا و الدخول فی

زمره الصالحين فى الآخره فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريده منه ما دام حيا و لا يظهر منه ما يكرهه و لا يرتضيه فيما يرجع اليه من الأعمال الاختياريه و أن يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه الساميه فيما لا يرجع الى العبد و اختياره،و هو سؤاله عليه السّلام الإسلام فى الدنيا و الدخول فى زمره الصالحين فى الآخره و هو الذى منحه اللّه سبحانه لجده إبراهيم عليه السّلام وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيٰا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ إِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قٰالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ (البقره۱۳۱/).

و هذا الإسلام الذى سأله عليه السّلام أقصى درجات الإسلام و أعلى مراتبه،و هو التسليم المحض للّه سبحانه،و هو أن لا يرى العبد لنفسه و لا-لآثار نفسه شيئا من الاستقلال حتى لا يشغله شىء من نفسه و لا صفاتها و لا أعمالها من ربه،و إذا نسب اليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

و مما تقدم ظهر أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً» سؤال منه لبقاء الإخلاص و استمرار الإسلام ما دام حيا و بعباره أخرى أن يعيش مسلما حتى يتوفاه اللّه فهو كنايه عن أن يثبته اللّه على الإسلام حتى يموت،و ليس يراد به أن يموت فى حال الإسلام و لو لم يكن قبل ذلك مسلما،و لا سؤالا للموت و هو مسلم حتى يكون المعنى أنى مسلم فتوفنى.

و يتبين بذلك فساد ما روى عن عده من قدماء المفسرين أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً» دعاء منه يسأل به الموت من اللّه سبحانه حتى قال بعضهم:لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من اللّه و لا تمناه إلّا يوسف عليه السّلام.

قوله تعالى: ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ الإشاره الى نبأ يوسف عليه السّلام،و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و ضمير الجمع لإخوه يوسف و الإجماع العزم و الإراده.

و قوله: وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ الخ؛حال من ضمير الخطاب من «إِلَيْكَ» و قوله: «نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ» الى آخر الآيه بيان لقوله: «ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ» و المعنى أن نبأ يوسف من

أنباء الغيب فإنا نوحيه اليك و الحال أنك ما كنت عند إخوه يوسف إذ عزموا على أمرهم و هم يمكرون فى أمر يوسف (۱)(۲)(۳).

[سوره يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۳ الى ۱۱۱]

اشاره

وَ مٰا أَكْثَرُ اَلنّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَهٍ فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ عَنْهٰا مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غٰاشِيَهٌ مِنْ عَذٰابِ اَللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ اَلسّٰاعَهُ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۱۰۷) قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اَللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اِتَّبَعَنِى وَ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۰۸) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ اَلْقُرىٰ أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدٰارُ اَلْآخِرَهِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اِتَّقَوْا أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۱۰۹) حَتّٰى إِذَا اِسْتَيْأَسَ اَلرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا فَنُجِّىَ مَنْ نَشٰاءُ وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُنٰا عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْمُجْرِمِينَ (۱۱۰) لَقَدْ كٰانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَهٌ لِأُولِى اَلْأَلْبٰابِ مٰا كٰانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ اَلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۱۱)

۱- ۱) .يوسف ۹۳-۱۰۲:بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه و يعقوب حين وجدوا يوسف.

۲- ۲) .يوسف ۹۳-۱۰۲:كلام فى قصه يوسف فى فصول(قصته فى القرآن،ما اثنى اللّه عليه و منزلته المعنويه،قصته فى التوراه الحاضره).

۳- ۳) .يوسف ۹۳-۱۰۲:كلام فى الرؤيا فى فصول(الاعتناء بشأنها،للرؤيا حقيقه،المنامات الحقه،فى القرآن ما يؤيد ذلك).

بيان:

قوله تعالى: وَ مٰا أَكْثَرُ النّٰاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أى ليس من شأن أكثر الناس لانكبابهم على الدنيا و انجذاب نفوسهم الى زينتها و سهوهم عما أودع فى فطرهم من العلم باللّه و آياته أن يؤمنوا به،و لو حرصت و أحببت إيمانهم،و الدليل على هذا المعنى الآيات التاليه.

قوله تعالى: وَ مٰا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ الواو حاليه أى ما هم بمؤمنين و الحال أنك ما تسألهم على إيمانهم أو على هذا القرآن الذى ننزله عليك و تتلوه عليهم من أجر حتى يصدهم الغرامه الماليه و إنفاق ما يحبونه من المال عن قبول دعوته و الإيمان به.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ بيان لشأن القرآن الواقعى و هو أنه ممحض فى أنه ذكر للعالمين يذكرون به ما أودع اللّه فى قلوب جماعات البشر من العلم به و بآياته فما هو إلاّ ذكر يذكرون به ما أنستهم الغفله و الإعراض و لبس من الأمتعه التى يكتسب بها الأموال أو ينال بها عزه أو جاه أو غير ذلك.

قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَهٍ فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا وَ هُمْ

ص :۳۴۱

عَنْهٰا مُعْرِضُونَ الواو حاليه و يحتمل الاستئناف و المرور على الشىء هو موافاته ثم تركه بموافاه ما وراءه فالمرور على الآيات السماويه و الأرضيه مشاهدتها واحده بعد أخرى.

و المعنى أن هناك آيات كثيره سماويه و أرضيه تدل بوجودها و النظام البديع الجارى فيها على توحيد بهم و هم يشاهدونها واحده بعد أخرى فتتكرر عليهم و الحال أنهم معرضون عنها لا يتنبهون.

و لو حمل قوله: «يَمُرُّونَ عَلَيْهٰا» على التصريح من دون الكنايه كان من الدليل على ما يبتنى عليه الهيئه الحديثه من حركه الأرض وضعا و انتقالا فإنا نحن المارون على الأجرام السماويه بحركه الأرض الانتقاليه و الوضعيه لا بالعكس على ما يخيل الينا فى ظاهر الحس.

قوله تعالى: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ الضمير فى «أَكْثَرُهُمْ» راجع الى الناس باعتبار إيمانهم أى أكثر الناس ليسوا بمؤمنين و إن لم تسألهم عليه أجرا و إن كانوا يمرون على الآيات السماويه و الأرضيه على كثرتها و الذين آمنوا منهم-و هم الأقلون-ما يؤمن أكثرهم باللّه إلاّ و هم متلبسون بالشرك.

و تلبس الإنسان بالإيمان و الشرك معا مع كونهما معنيين متقابلين لا يجتمعان فى محل واحد نظير تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضه و الأخلاق المتضاده إنما يكون من جهه كونها من المعانى التى تقبل فى نفسها القوه و الضعف فتختلف بالنسبه و الإضافه كالقرب و البعد فإن القرب و البعد المطلقين لا يجتمعان إلاّ أنهما إذا كانا نسبيين لا يمتنعان الاجتماع و التصادق كمكه فإنها قريبه بالنسبه الى المدينه بعيده بالنسبه الى الشام،و كذا هى بعيده من الشام إذا قيست الى المدينه قريبه منه إذا قيست الى بغداد.

و الإيمان باللّه و الشرك به و حقيقتهما تعلق القلب باللّه بالخضوع للحقيقه الواجبيه و تعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئا إلاّ بإذنه تعالى يختلفان بحسب النسبه و الإضافه فإن من الجائز أن يتعلق الإنسان مثلا بالحياه الدنيا الفانيه و زينتها الباطله و ينسى مع ذلك كل حق

و حقيقه،و من الجائز أن ينقطع عن كل ما يصد النفس و يشغلها عن اللّه سبحانه و يتوجه بكله اليه و يذكره و لا يغفل عنه فلا يركن فى ذاته و صفاته إلاّ اليه و لا يريد إلاّ ما يريده كالمخلصين من أوليائه تعالى.

و بين المنزلتين مراتب مختلفه بالقرب من أحد الجانبين و البعد منه و هى التى يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع،و من الدليل على ذلك الأخلاق و الصفات المتمكنه فى النفوس التى تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل،و الأعمال الصادره منها كذلك ترى من يدعى الإيمان باللّه يخاف و ترتعد فرائصه من أى نائبه أو مصيبه تهدده و هو يذكر أن لا قوه إلاّ باللّه، و يلتمس العزه و الجاه من غيره و هو يتلو قوله تعالى: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» و يقرع كل باب يبتغى الرزق و قد ضمنه اللّه،و يعصى اللّه و لا يستحيى و هو يرى أن ربه عليم بما فى نفسه سميع لما يقول بصير بما يعمل و لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء،و على هذا القياس.

فالمراد بالشرك فى الآيه بعض مراتبه الذى يجامع بعض مراتب الإيمان و هو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفى.

قوله تعالى: أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غٰاشِيَةٌ مِنْ عَذٰابِ اللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السّٰاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ الغاشيه صفه ساده مسد الموصوف المحذوف لدلاله كلمه العذاب عليه،و التقدير عقوبه غاشيه تغشاهم و تحيط بهم.

و البغته الفجأه.و قوله: «وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ» حال من ضمير الجمع أى تفاجئهم الساعه فى إتيانها و الحال أنهم لا يشعرون بإتيانها لعدم مسبوقيتها بعلامات تعين وقتها و تشخص قيامها و الاستفهام للتعجيب،و المعنى أن أمرهم فى إعراضهم عن آيات السماء و الأرض و عدم إخلاصهم الإيمان للّه و تماديهم فى الغفله عجيب أ فأمنوا عذابا من اللّه يغشاهم أو ساعه تفاجئهم و تبهتهم؟

قوله تعالى: قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى

وَ سُبْحانَ اللّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به و إخلاص التوحيد له عزيز المنال و هو الحق الصريح الذى تدل عليه آيات السماوات و الأرض أمر نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء الى هذا التوحيد على بصيره.

فقوله: هٰذِهِ سَبِيلِي إعلان لسبيله،و قوله: «أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ» بيان للسبيل،و قوله: «وَ سُبْحانَ اللّهِ» اعتراض للتنزيه،و قوله: «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تأكيد لمعنى الدعوه الى اللّه و بيان أن هذه الدعوه ليست دعوه اليه تعالى كيف كان بل دعوه على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه الى شرك أصلا.

و أما قوله: أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي فتوسعه و تعميم لحمل الدعوه و أن السبيل و إن كانت سبيل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مختصه به لكن حمل الدعوه و القيام به لا يختص به بل من اتبعه صلّى اللّه عليه و آله و سلم يقوم بها لنفسه.

لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذى يتراءى من لفظ «مَنِ اتَّبَعَنِي» فإن السبيل التى تعرفها الآيه هى الدعوه عن بصيره و يقين الى إيمان محض و توحيد خالص و انما يشاركه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فيها من كان مخلصا للّه فى دينه عالما بمقام ربه ذا بصيره و يقين و ليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت،و لا أن الاستواء على هذا المستوى مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم اللّه سبحانه فى الآيه السابقه من المشركين و ذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته،و كيف يدعو الى اللّه من كان غافلا عنه آمنا من مكره معرضا عن آياته و ذكره؟و قد وصف اللّه فى آيات كثيره أصحاب هذه النعوت بالضلال و العمى و الخسران و لا تجتمع هذه الخصال بالهدايه و الإرشاد البته.

قوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ الى آخر الآيه؛لما ذكر سبحانه حال الناس فى الإيمان به ثم حال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى دعوته إياهم عن رساله إلهيه من غير أن يسألهم فيها أجرا و يجر لنفسه نفعا بين أن ذلك ليس

ببدع من الأمر بل مما جرت عليه السنه الإلهيه فى الدعوه الدينيه فلم يكن الرسل الماضون ملائكه و إنما بعثوا من بين هؤلاء الناس و كانوا رجالا من أهل القرى يخالطون الناس و يعرفون عندهم أوحى اللّه اليهم و أرسلهم نحوهم يدعونهم اليه كما أن النبى كذلك،و من الممكن أن يسير هؤلاء المدعوون فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه الذين من قبلهم فبلادهم الخربه و مساكنهم الخاليه تفصح عما آل اليه أمرهم،و تنبئ عن عاقبه كفرهم و جحودهم و تكذيبهم لآيات اللّه.

فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لا يدعوهم إلاّ كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله،و ليس يدعوهم إلاّ الى ما فيه خيرهم و صلاح حالهم و هو أن يتقوا اللّه فيفلحوا و يفوزوا بسعاده خالده و نعيم مقيم فى دار باقيه و لدار الآخره خير للذين اتقوا أ فلا تعقلون.

فقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ تطبيق لدعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم على دعوه من قبله من الرسل.و لعل توصيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للدلاله على أنهم كانوا من أنفسهم يعيشون بينهم و معروفين عندهم بالمعاشره و المخالطه و لم يكونوا ملائكه و لا من غير أنفسهم،و يؤيد ذلك توصيفهم بأنهم كانوا رجالا فإن الرجال كانوا أقرب الى المعرفه من النساء ذوات الخدر.

و قوله: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إنذار لامه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بمثل ما أنذر به الامم الخاليه فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

و قوله: وَ لَدٰارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ بيان النصح و أن ما يدعون اليه و هو التقوى ليس وراءه الاّ ما فيه كل خيرهم و جماع سعادتهم.

قوله تعالى: حَتّٰى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جٰاءَهُمْ نَصْرُنٰا الى آخر الآيه ذكروا أن يئس و استيأس بمعنى،و لا يبعد أن يقال:إن الاستيئاس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئه الاستفعال و هو مما يعد يأسا عرفا و ليس باليأس

القاطع حقيقه.

و قوله: حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الخ؛متعلق الغايه بما يتحصل من الآيه السابقه و المعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالا أمثالك من أهل القرى و تلك قراهم البائده دعوهم فلم يستجيبوا و أنذروهم بعذاب اللّه فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من إيمان اولئك الناس، و ظن الناس أن الرسل قد كذبوا أى اخبروا بالعذاب كذبا جاء نصرنا فنجىء بذلك من نشاء و هم المؤمنون و لا يرد بأسنا أى شدتنا عن القوم المجرمين.

أما استيئاس الرسل من إيمان قومهم فكما أخبر فى قصه نوح: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ (هود٣٦/) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً (نوح٢٧/)و يوجد نظيره فى قصص هود و صالح و شعيب و موسى و عيسى عليهم السّلام.

و أما ظن اممهم أنهم قد كذبوا فكما اخبر عنه فى قصه نوح من قولهم: بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (هود٢٧/)،و كذا فى قصه هود و صالح و قوله: فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (الإسراء١٠١/).

و أما تنجيه المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/ ٤٧)و قد أخبر به فى هلاك بعض الامم أيضا كقوله: نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/ ٥٨) نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود٦٦/) نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود٩٤/)الى غير ذلك.

و أما أن بأس اللّه لا يرد عن المجرمين فمذكور فى آيات كثيره عموما و خصوصا كقوله:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (يونس٤٧/)، و قوله: وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (الرعد١١/)الى غير ذلك من الآيات.

هذا أحسن ما أوردوه فی الآیه من المعانی،و الدلیل علی کون الآیه بمضمونها غایه لما تتضمنه سابقتها کما قدمناه،و قد أوردوا لها معانی اخری لا یخلو شیء منها من السقم و الإضراب عنها اوجه.

قوله تعالی: لَقَدْ کٰانَ فِی قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ الی آخر الآیه؛قال الراغب اصل العبر تجاوز من حال الی حال فأما العبور فیختص بتجاوز الماء-الی أن قال- و الاعتبار و العبره بالحاله التی یتوصل بها من معرفه المشاهد الی ما لیس بمشاهد قال تعالی:

إن فی ذلک لعبره.انتهی.

و الضمیر فی قصصهم للأنبیاء و منهم یوسف صاحب القصه فی السوره،و احتمل رجوعه الی یوسف و إخوته و المعنی اقسم لقد کان فی قصص الأنبیاء أو یوسف و إخوته عبره لأصحاب العقول،ما کان القصص المذکور فی السوره حدیثا یفتری و لکن تصدیق الذی بین یدی القرآن،و هو التوراه المذکور فیه القصه یعنی توراه موسی علیه السّلام.

و قوله: وَ تَفْصِیلَ کُلِّ شَیْءٍ الخ؛أی بیانا و تمییزا لکل شیء مما یحتاج الیه الناس فی دینهم الذی علیهم بناء سعادتهم فی الدنیا و الآخره،و هدی الی السعاده و الفلاح و رحمه خاصه من اللّه سبحانه لقوم یؤمنون به فإنه رحمه من اللّه لهم یهتدون بهدایته الی صراط مستقیم (۱).

۱- ۱) .یوسف ۱۰۳-۱۱۱:بحث روائی فی:التوحید و الشرک؛التسبیح؛استیئاس الرسل و مجیء نصر اللّه.

سوره الرعد مکیه و هی ثلاث و أربعون آیه

اشاره

[سوره الرعد (۱۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gtالمر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ وَ اَلَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ اَلْحَقُّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱)
اَللّٰهُ اَلَّذِی رَفَعَ اَلسَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ
یُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ اَلَّذِی مَدَّ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِیهٰا رَوٰاسِیَ وَ أَنْهٰاراً وَ مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِیهٰا
زَوْجَیْنِ اِثْنَیْنِ یُغْشِی اَللَّیْلَ اَلنَّهٰارَ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۳) وَ فِی اَلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ
نَخِیلٌ صِنْوٰانٌ وَ غَیْرُ صِنْوٰانٍ یُسْقیٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهٰا عَلیٰ بَعْضٍ فِی اَلْأُکُلِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۴)

ص :۳۴۸

بیان:

غرض السوره بیان حقیه ما نزل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الکتاب و أنه آیه الرساله و أن قولهم:

«لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» و هم یعرّضون به للقرآن و لا یعدونه آیه کلام مردود الیهم و لا ینبغی للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یصغی الیه و لا لهم أن یتفوهوا به.

و یدل علی ذلک ابتداء السوره بمثل قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ» و اختتامها بقوله: «وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ» الآیه؛و تکرار حکایه قولهم:لو لا أنزل علیه آیه من ربه.

و محصل البیان علی خطاب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن هذا القرآن النازل علیک حق لا یخالطه باطل فإن الذی یشتمل علیه من کلمه الدعوه هو التوحید الذی تدل علیه آیات الکون من رفع السماوات و مد الأرض و تسخیر الشمس و القمر و سائر ما یجری علیه عجائب تدبیره و غرائب تقدیره تعالی.

و تدل علی حقیه دعوته أیضا أخبار الماضین و آثارهم جاءتهم الرسل بالبینات فکفروا و کذبوا فأخذهم اللّه بذنوبهم.فهذا ما یتضمنه هذا الکتاب و هو آیه داله علی رسالتک.

و قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ» تعریضا منهم للقرآن مردود الیهم اولا بأنک لست إلاّ منذرا و لیس لک من الأمر شیء حتی یقترح علیک بمثل هذه الکلمه و ثانیا أن الهدایه و الإضلال لیسا کما یزعمون فی وسع الآیات حتی یرجوا الهدایه من آیه یقترحونها و إنما ذلک الی اللّه سبحانه یضل من یشاء و یهدی من یشاء علی نظام حکیم و أما قولهم:لست مرسلا فیکفیک من الحجه شهاده اللّه فی کلامه علی رسالتک و دلاله ما فیه من المعارف الحقه علی ذلک.

و من الحقائق الباهره المذکوره فی هذه السوره ما یتضمنه قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً»

الآیه؛و قوله: «أَلاٰ بِذِکْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ،و قوله: «یَمْحُوا اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ وَ یُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتٰابِ» ،و قوله: «فَلِلّٰهِ الْمَکْرُ جَمِیعاً» .

و السوره مکیه کلها علی ما یدل علیه سیاق آیاتها و ما تشتمل علیه من المضامین،و نقل عن بعضهم أنها مکیه إلاّ آخر آیه منها فإنها نزلت بالمدینه فی عبد اللّه بن سلام،و عزی ذلک الی الکلبی و مقاتل،و یدفعه أنها مختتم السوره قوبل بها ما فی مفتتحها من قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ» .

و قیل:إن السوره مدنیه کلها إلاّ آیتین منها و هما قوله: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ» الآیه؛و الآیه التی بعدها،و نسب ذلک الی الحسن و عکرمه و قتاده،و یدفعه سیاق الآیات بما تشتمل علیه من المضامین فإنها لا تناسب ما کان یجری علیه الحال فی المدینه و بعد الهجره.

و قیل:إن المدنی منها قوله تعالی: «وَ لاٰ یَزٰالُ الَّذِینَ کَفَرُوا تُصِیبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَهٌ» الآیه؛ و الباقی مکی و کأن القائل اعتمد فی ذلک علی قبولها الانطباق علی أوائل حال الإسلام بعد الهجره الی الفتح و سیأتی فی بیان معنی الآیه ما یتضح به اندفاعه.

قوله تعالی: المر تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ الخ؛الحروف المصدره بها السوره هی مجموع الحروف التی صدرت بها سوره «الم» و سور «الر» کما أن المعارف المبینه فی السوره کأنها المجموع من المعارف المعنیه فی ذینک الصنفین من السور،و فی الرجاء أن نشرح القول فی ذلک فیما سیأتی إن شاء اللّه العزیز.

و قوله: تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ ظاهر سیاق الآیه و ما یتلوها من الآیات الثلاث علی ما بها من الاتصال و هی تعد الآیات الکونیه من رفع السماوات و مد الأرض و تسخیر الشمس و القمر و غیر ذلک الداله علی توحید اللّه سبحانه الذی یفصح عنه القرآن الکریم و تندب الیه الدعوه الحقه،و هی تذکر أن التدبر فی تفصیلها و التفکر فیها یورث الیقین بالمبدإ و المعاد و العلم،بأن الذی أنزل الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم حق.

ص:۳۵۰

فظاهر ذلک کله أن یکون المراد بالآیات المشار إلیها بقوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ» الموجودات الکونیه و الأشیاء الخارجیه المسخره فی النظام العام الإلهی،و المراد بالکتاب هو مجموع الکون الذی هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الکریم بما یشتمل علی الآیات الکونیه بنوع من العنایه و المجاز.

و علی هذا یکون فی الآیه إشاره الی نوعین من الدلاله و هما الدلاله الطبعیه التی تتلبس بها الآیات الکونیه من السماء و الأرض و ما بینهما،و الدلاله اللفظیه التی تتلبس بها الآیات القرآنیه المنزله من عنده تعالی الی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و یکون قوله: «وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یُؤْمِنُونَ» استدراکا متعلق بالجملتین معا أعنی بقوله: «تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ» و قوله: «وَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ» لا بالجمله الأخیره فحسب.

و المعنی-و اللّه أعلم-تلک الامور الکونیه-و قد أشیر بلفظ البعید دلاله علی ارتفاع مکانتها-آیات الکتاب العام الکونی داله علی أن اللّه سبحانه واحد لا شریک له فی ربوبیته و القرآن الذی أنزل الیک من ربک حق لیس بباطل-و اللام فی قوله: «الْحَقُّ» للحصر فتفید المحوضه-فتلک آیات قاطعه فی دلالتها و هذا حق فی نزوله و لکن أکثر الناس لا یؤمنون،لا بتلک الآیات العینیه و لا بهذا الحق النازل،و فی لحن الکلام شیء من اللوم و العتاب.

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ الی آخر الآیه؛قال الراغب فی المفردات:العمود ما تعتمد علیه الخیمه و جمعه عمد -بضمتین-و عمد-بفتحتین-قال:فی عمد ممده،و قرئ فی عمد،و قال:بغیر عمد ترونها انتهی.و قیل:إن العمد بفتحتین اسم جمع للعماد لا جمع.

و المراد بالآیه التذکیر بدلیل ربوبیته تعالی وحده لا شریک له و أن السماوات مرفوعه بغیر عمد تعتمد علیها تدرکها أبصارکم و هناک نظام جار و هناک شمس و قمر مسخران یجریان الی أجل مسمی،و لا بد ممن یقوم علی هذه الامور فیرفع السماء و ینظم النظام و یسخر الشمس

و القمر و يـدبر الأمر و يفصل هذه الآيات بعضـها عن بعض تفصـيلا فيه رجاء أن توقنوا بلقاء ربكم فاللّه سبحانه هو ذاك القائم بما ذكر من أمر رفع السماوات و تنظيم النظام و تسخير الشمس و القمر و تـدبير الأمر و تفصـيل الآيات فهو تعالى رب الكل لا رب غيره.

فقوله: اَلَّذِی رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا رفع السماوات هو فصلها من الأرض فصلا يتسلط به على الأرض بإلقاء أشعتها و إنزال أمطارها و صواعقها عليها و غير ذلک فهى مرفوعه على الأرض من غير عمد محسوسه للإنسان تعتمـد عليها فعلى الإنسان أن يتفطن أن لها رافعا حافظا لها أن تتحول من مكانها ممسكا لها أن تزول من مستقرها.

و قـوله: ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ تقـدم الكلام فى معنى العرش و الاستواء و التسخير فى تفسير سوره الأعراف الآيه ۵۴.

و قوله: کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی أى كل منهما يجرى الى أجل معين يقف عنـده و لا يتعـداه كذا قيل و من الجائز بل الراجح أن يكون الضمير المحذوف ضمير جمع راجعا الى الجميع و المعنى كل من السماوات و الشمس و القمر يجرى الى أجل مسمى فإن حكم الجرى و الحركه و عام مطرد فى جميع هذه الأجسام.

و قد تقدم الكلام فى معنى الأجل المسمى فى تفسير سوره الأنعام الآيه ۱ فراجع.

و قوله: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ التدبير هو الإتيان بالشىء عقيب الشىء و يراد به ترتيب الأشياء المتعدده المختلفه و نظمها بوضع كل شىء فى موضعه الخاص به بحيث يلحق بكل منها ما يقصـد به من الغرض و الفائـده و لا يختل الحال بتلاشى الأصل و تفاسـد الأجزاء و تزاحمها يقال:دبر أمر البيت أى نظم اموره و التصرفات العائده اليه بحيث أدى الى صلاح شأنه و تمتع أهله بالمطلوب من فوائده.

فتـدبير أمر العالم نظم أجزائه نظما جيدا متقنا بحيث يتوجه به كل شىء الى غايته المقصوده منه و هى آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به و منتهى ما ينساق اليه من الأجل المسمى،

و تدبير الكل إجراء النظام العام العالمى بحيث بتوجه الى غايته الكليه و هى الرجوع الى اللّه و ظهور الآخره بعد الدنيا.

و قوله: يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ظاهر السياق أن المراد بالآيات هى الآيات الكونيه فالمراد بتفصيلها هو تمييز بعضها من بعض و فتقها بعد رتقها، و هذا من سنته تعالى يفصل الأشياء و يميز كل شىء من كل شىء و يخرج من كل شىء ما هو كامن فيه مستخف فى باطنه فينفصل به النور من الظلمه و الحق من الباطل و الخير من الشر و الصالح من الطالح و المثيب من المجرم.

و لذا عقبه بقوله: «لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» فإن يوم اللقاء هو الساعه التى سماها اللّه بيوم الفصل و وعد فيه تمييز المتقين من المجرمين و الفجار قال: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (الدخان۴۰/)،و قال: وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس۵۹/)،و قال:

لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (الأنفال۳۷/).

و فى قوله: لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ و لم يقل:لعلكم بلقائه،وضع الظاهر موضع المضمر و الوجه فيه الإصرار على تثبيت الربوبيه و التأكيد له و الإشاره الى أن الذى خلق العالم و دبر أمره فصار ربا له هو رب لكم أيضا فلا رب إلاّ رب واحد لا شريك له.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً الى آخر الآيه؛الرواسى جمع راسيه من رسى إذا ثبت و قر،و المراد بها الجبال لثباتها فى مقرها،و الزوج خلاف الفرد و يطلق على مجموع الأمرين و على أحدهما فهما زوج و هما زوجان،و ربما يقيد الزوجان باثنين تأكيدا للدلاله على أن المراد هو اثنان لا أربعه كما فى الآيه.

و قوله: هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ أى بسطها بسطا صالحا لأن يعيش فيه الحيوان و ينبت فيه الزرع و الشجر،و الكلام فى نسبه مد الأرض اليه تعالى و كونه كالتوطئه و التمهيد لما

يلحق به من قوله: «وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْهٰاراً» الخ؛نظير الكلام فى قوله فى الآيه السابقه:

«اللّٰهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰاوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا» .

و قوله: وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْهٰاراً الضمير للأرض و الكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضا و الغرض-و اللّه أعلم-بيان تدبيره تعالى أمر سكنه الأرض من إنسان و حيوان فى حركته لطلب الرزق و سكونه للارتياح فقد مد اللّه سبحانه الأرض و لو لا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان و الحيوان و لو كانت ممدوده فحسب من غير ارتفاع و انخفاض فى سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع و البساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الرواسى و ادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء و شق من أطرافها أنهارا و فجر منها عيونا مطله على السهل تسقى الزروع و الجنان فيخرج به ثمرات مختلفه حلوه و مره صيفه و شتويه بريه و أهليه،و سلط على وجه الأرض الليل و النهار و هما عاملان قويان فى رشد الأثمار و الفواكه بتسليط الحراره و البروده المؤثرتين فى النضج و النمو و الانبساط و الانقباض،و تسليط الضوء و الظلمه النظامين لحركه الدواب و الإنسان و سعيهما فى طلب الرزق و سكونهما للنوم و الرقده.

فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسى و ذلك لشق الأنهار و ذلك لجعل الثمرات المزدوجه المختلفه و بالليل و النهار يتم المطلوب و فى ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له فى ربوبيته،و إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

و قوله: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِيهٰا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى و من جميع الثمرات الممكنه الكينونه جعل فى الأرض أنواعا متخالفه نوعا يخالف آخر كالصيفى و الشتوى و الحلو و غيره و الرطب و اليابس.

هذا هو المعروف فى تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا،نظير ما تأتى فيه التثنيه للتكرير كقوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ

كَرَّتَيْنِ (الملك۴/)أريد به الرجوع كره بعد كره و إن بلغ من الكثره ما بلغ (۱).

و قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى يلبس ظلمه الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئا،و ذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل و النهار غيره و تعقيب الليل النهار و النهار الليل،و لا قرينه تدل على ذلك.

ثم ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فإن التفكر فى النظام الجارى عليها الحاكم فيها القاضى باتصال بعضها ببعض و تلاؤم بعضها مع بعض المؤدى الى توجه المجموع و كل جزء من أجزائها الى غايات تخصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلى فى غايه الإتقان و الإحكام فيدل على أن لها ربا واحدا لا شريك له فى ربوبيته عليما لا يعتريه جهل قديرا لا يغلب فى قدرته ذا عنايه بكل شيء و خاصه بالإنسان يسوقه الى ما فيه سعادته الخالده.

قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَ جَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوٰانٌ وَ غَيْرُ صِنْوٰانٍ الى آخر الآيه؛قال الراغب:الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجره يقال:هما صنوا نخله و فلان صنو أبيه و التثنيه صنوان و جمعه صنوان قال تعالى:

صنوان و غير صنوان.انتهى،و قال:و الاكل لما يؤكل بضم الكاف و سكونه قال تعالى «أُكُلُهٰا دٰائِمٌ» و الأكله للمره و الأكله كاللقمه.انتهى.

و المعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها و يجريها على ما يشاء و كيف يشاء أن فى الأرض قطعا متجاورات متقاربه بعضها من بعض متشابهه فى طبع ترابها و فيها جنات من أعناب و العنب من الثمرات التى تختلف اختلافا عظيما فى الشكل و اللون و الطعم و المقدار و اللطافه و الجوده و غير ذلك،و فيها زرع مختلف فى

۱- ۱) .الرعد ۱-۴:بحث فى معنى «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» فى قوله تعالى: «وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِيهٰا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» .

جنسه و صنفه من القمح و الشعير و غير ذلک،و فيها نخيل صنوان أى أمثال نابته على أصل مشترک فيه و غير صنوان أى متفرقه تسقى الجميع من ماء واحد و نفضل بعضها على بعض بما فيه من المزيه المطلوبه فى شىء من صفاته.

[سوره الرعد (١٣): الآيات ۵ الى ۶]

اشاره

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنّا تُراباً أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولٰئِکَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولٰئِکَ اَلْأَغْلاٰلُ فِي أَعْنٰاقِهِمْ وَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّيِّئَهِ قَبْلَ اَلْحَسَنَهِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ اَلْمَثُلاٰتُ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ لِلنّٰاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۶)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:العجب و التعجب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس الغسل طوق تشد به اليد الى العنق انتهى.

أشار تعالى فى مفتتح كلامه الى حقيه ما أنزله الى نبيه من معارف الدين فى كتابه ملوحا الى أن آيات التكوين تهدى اليه و تدل عليه و أصولها التوحيد و الرساله و البعث ثم فصل القول فى دلاله الآيات التكوينيه على ذلک و استنتج من حجج ثلاث ذكرها توحيد الربوبيه و البعث بالتصريح،و يستلزم ذلک حقيه الرساله و الكتاب المنزل الذى هو آيتها،فلما اتضح ذلک و استنار تمهدت الطريق لذكر شبه الكفار فيما يرجع الى الاصول الثلاثه فأشار فى هذه الآيه الى

شبهتهم فی البعث و سیتعرض لشبههم و أقاویلهم فی الرساله و التوحید فی الآیات التالیه.

و شبهتهم فی ذلک قولهم: «أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» أورده بعنوان أنه عجب أحری به أن یتعجب منه لظهور بطلانه و فساده ظهورا لا مسوغ لإنسان سلیم العقل أن یرتاب فیه فلو تفوه به إنسان لکان من موارد العجب فقال: «وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» الخ.

و معنی الجمله علی ما یرشد الیه حذف متعلق «تَعْجَبْ» إن تحقق منک تعجب-و لا محاله یتحقق لأن الإنسان لا یخلو منه- فقولهم هذا عجیب یجب أن یتعلق به تعجبک،فالترکیب کنایه عن وجوب التعجب من قولهم هذا لکونه قولا ظاهر البطلان لا یمیل الیه ذو لب و حجی.

و قولهم: أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ مرادهم من التراب بقرینه السیاق ما یصیر الیه بدن الإنسان بعد الموت من صوره التراب و ینعدم عند ذلک الإنسان الذی هو الهیکل اللحمی الخاص المرکب من أعضاء خاصه المجهّز بقوی مادیه علی زعمهم و کیف یشمل الخلقه أمرا منعدما من أصله فیعود مخلوقا جدیدا؟.

و لشبهتهم هذه جهات مختلفه أجاب اللّه سبحانه فی کلامه عن کل واحده منها بما یناسبها و یحسم مادتها:

فمنها:استبعاد أن یستحیل التراب إنسانا سویا،و قد أجیب عنه بأن إمکان استحاله المواد الأرضیه منیا ثم المنی علقه ثم العلقه مضغه ثم المضغه بدن إنسان سوی و وقوع ذلک بعد إمکانه لا یدع ریبا فی جواز صیروره التراب ثانیا إنسانا سویا قال تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَهٍ مُخَلَّقَهٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَهٍ الآیه، (الحج/۵).

و منها:استبعاد إیجاد الشیء بعد عدمه.و أجیب بأنه مثل الخلق الاول فلیجز کما جاز قال

تعالی: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ (یس۷۹/).

و منها:أن الإنسان تنتفی ذاته بالموت فلا ذاته بالموت فلا ذات حتی تتلبس بالخلق الجدید و لا إنسان بعد الموت و الفوت إلاّ فی تصور المتصور دون الخارج بنحو.

و قد أجیب فی کلامه تعالی عنه ببیان أن الإنسان لیس هو البدن المرکب من عده أعضاء مادیه حتی ینعدم من أصله ببطلان الترکیب و انحلاله بل حقیقته روح علویه-و إن شئت قلت:نفس-متعلق بهذا المرکب المادی تستعمله فی أغراضه و مقاصده و بها حیاه البدن یبقی بها الإنسان محفوظ الشخصیه و إن تغیر بدنه و تبدل بمرور السنین و مضی العمر ثم الموت هو أن یأخذها اللّه من البدن و تقطع علقتها به ثم البعث هو أن یجدد اللّه خلق البدن و تعلیقها به و هو القیام للّه لفصل القضاء.

قال تعالی: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده۱۱/)یقول إنکم بالموت لا تضلون فی الأرض و لا تنعدمون بل الملک الموکل بالموت یأخذ الأمر الذی تدل علیه لفظه«کم»و«نا»و هی النفوس فتبقی فی قبضته و لا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون الی اللّه بلحوق أبدانکم الی نفوسکم و أنتم انتم.

فللإنسان حیاه باقیه غیر محدوده بما فی هذه الدنیا الفانیه و له عیشه فی دار اخری باقیه ببقاء اللّه و لا یتمتع فی حیاته الثانیه إلاّ بما یکتسبه فی حیاته الاولی من الإیمان باللّه و الأعمال الصالحه و یعده فی یومه لغده من مواد السعاده فإن اتبع الحق و آمن بآیات اللّه سعد فی أخراه بکرامه القرب و الزلفی و ملک لا یبلی،و إن أخلد الی الأرض و انکب علی الدنیا و أعرض عن الذکری بقی فی دار الشقاء و البوار و غل بأغلال الخیبه و الخسران فی مهبط اللعن و حضیض البعد و کان من أصحاب النار.

و إذا عرفت هذا الذی قدمناه و تأملته تأملا کافیا بأن لک أن قوله تعالی: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الی آخر الآیه؛لیس بمجرد تهدید بالعذاب لهؤلاء القائلین «أَ إِذٰا کُنّٰا تُرٰاباً أَ إِنّٰا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ» علی ما یتخیل فی بادئ النظر بل جواب بلازم القول.

توضیح ذلک أن لازم قولهم:إن الإنسان إذا مات و صار ترابا بطلت الإنسانیه و انعدمت الشخصیه أن یکون الإنسان صوره مادیه قائمه بهذا الهیکل البدنی المادی العائش بحیاه مادیه من غیر أن تکون له حیاه اخری خالده بعد الموت یبقی فیها ببقاء الرب تعالی و یسعد بقربه و یفوز عنده و بعباره اخری تکون حیاته محدوده بهذه الحیاه المادیه غیر أن تنبسط علی ما بعد الموت و تدوم أبدا،و هذا فی الحقیقه إنکار للعالم الربوبی إذ لا معنی لرب لا معاد الیه.

و لازم ذلک أن یقصر الإنسان همه فی المقاصد الدنیویه و الغایات المادیه من غیر أن یرتقی فهمه الی ما عند اللّه من النعیم المقیم و الملک العظیم فیسعی لقربه تعالی و یعمل فی یومه لغده کالمغلول الذی لا یستطیع حراکا و لا یقدر علی السعی لواجب أمره.

و لازم ذلک أن یثبت الإنسان فی شقاء لازم و عذاب دائم فإنه افسد استعداد السعاده و قطع الطریق و هذه اللوازم الثلاث هی التی أشار تعالی الیه بقوله: «أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا» الخ.

فقوله: أُولٰئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ إشاره الی اللازم الأول و هو إعراض منکری المعاد عن العالم الربوبی و الحیاه الباقیه و الستر علی ما عند اللّه من النعیم المقیم و الکفر به.

و قوله: وَ أُولٰئِکَ الْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ إشاره الی اللازم الثانی و هو الإخلاد الی الأرض و الرکون الی الهوی و التقید بقیود الجهل و أغلال الجحد و الإنکار،و قد مر فی تفسیر قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلاً الآیه،(البقره۲۶/)فی الجزء الأول من الکتاب کلام فی کون هذه التعبیرات القرآنیه حقائق او مجازات فراجع الیه.

و قوله: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ إشاره الی اللازم الثالث و هو مکثهم فی العذاب و الشقاء.

قوله تعالی: وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاٰتُ الی آخر الآیه؛قال فی المجمع:الاستعجال طلب التعجیل بالأمر و التعجیل تقدیم الأمر قبل وقته،و السیئه خصله تسوء النفس و نقیضها الحسنه و هی خصه تسر النفس، و المثلات العقوبات واحدها مثله بفتح المیم و ضم الثاء،و من قال فی الواحد:مثله بضم المیم و سکون الثاء قال فی الجمع:مثلات بضمتین نحو غرفه و غرفات،و قیل فی المجمع:مثلات و مثلات-أی بسکون الثاء و فتحها-انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:المثله نقمه تنزل بالإنسان فیجعل مثالا یرتدع به غیره و ذلک کالنکال و جمعه مثلات و مثلات-أی بضم المیم أو فتحها و ضم الثاء-و قد قرئ:من قبلهم المثلات،و المثلات بإسکان الثاء علی التخفیف نحو عضد و عضد.انتهی.

و قوله: وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ ضمیر الجمع للذین کفروا المذکورین فی الآیه السابقه،و المراد باستعجالهم بالسیئه قبل الحسنه سؤالهم نزول العذاب الیهم استهزاء بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قبل سؤال الرحمه و العافیه،و الدلیل علیه قوله: «وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاٰتُ» -و الجمله فی موضع الحال-فإن المراد به العقوبات النازله علی الأمم الماضین القاطعه لدابرهم.

و المعنی:یسألک الذین کفروا أن تنزل علیهم العقوبه الإلهیه قبل الرحمه و العافیه بعد ما سمعوک تنذرهم بعذاب اللّه استهزاء و هم علی علم بالعقوبات النازله قبلهم علی الامم الماضین الذین کفروا برسلهم و الآیه فی مقام التعجیب.

و قوله: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ لِلنّٰاسِ عَلیٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِیدُ الْعِقٰابِ استئناف أو فی موضع الحال،و یفید بیان السبب فی کون استعجالهم أمرا عجیبا أی إن ربک ذو رحمه واسعه تسع الناس فی جمیع أحوالهم حتی حال ظلمهم و ذو غضب شدید و قد سبقت رحمته غضبه فما بالهم یعرضون عن وسیع رحمته و مغفرته و یسألون شدید عقابه و هم

مستعجلون؟إن ذلک لعجیب.

[سوره الرعد (١٣): الآیات ٧ الی ١۶]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ (٧) اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثىٰ وَ مٰا تَغِيضُ اَلْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (٨) عٰالِمُ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَةِ اَلْكَبِيرُ اَلْمُتَعٰالِ (٩) سَوٰاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ اَلْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سٰارِبٌ بِالنَّهٰارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذٰا أَرٰادَ اَللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وٰالٍ (١١) هُوَ اَلَّذِي يُرِيكُمُ اَلْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ اَلسَّحٰابَ اَلثِّقٰالَ (١٢) وَ يُسَبِّحُ اَلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ اَلصَّوٰاعِقَ فَيُصِيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰاءُ وَ هُمْ يُجٰادِلُونَ فِي اَللّٰهِ وَ هُوَ شَدِيدُ اَلْمِحٰالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ اَلْحَقِّ وَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاّٰ كَبٰاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى اَلْمٰاءِ لِيَبْلُغَ فٰاهُ وَ مٰا هُوَ بِبٰالِغِهِ وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (١۴) وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصٰالِ (١۵) قُلْ مَنْ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلِ اَللّٰهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي اَلْأَعْمىٰ وَ اَلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي اَلظُّلُمٰاتُ وَ اَلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ اَلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (١۶)

بیان:

قوله تعالی: وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ الی آخر الآیه؛لیس المراد بهذه الآیه الآیه القاضیه بین الحق و الباطل المهلکه للامه و هی المذکوره فی الآیه السابقه بقوله: «وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ» بأن یکون تکرارا لها و ذلک لعدم إعانه السیاق علی ذلک،و لو أرید ذلک لکان من حق الکلام أن یقال:و یقولون لو لا «الخ».

بل المراد أنهم یقترحون علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم آیه أخری غیر القرآن تدل علی صدقه فی دعوی الرساله و کانوا یحقرون أمر القرآن الکریم و لا یعبئون به و یسألون آیه أخری معجزه کما أوتی موسی و عیسی و غیرهما علیهم السّلام فکان فی قولهم: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ» تعریض منهم للقرآن.

و أما قوله: إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ فإعطاء جواب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و فی

ص:۳۶۲

توجیه الخطاب الیه دونهم و عدم أمره أن یبلغ الجواب إیاهم تعریض لهم أنهم لا یستحقون جوابا لعدم فقههم به و فقدهم القدر اللازم من العقل و الفهم و ذلک أن اقتراحهم الآیه مبنی علی زعمهم-کما یدل علیه کثیر مما حکی عنهم القرآن فی هذا الباب علی أن من الواجب أن یکون للرسول قدره غیبیه مطلقه علی کل ما یرید فله أن یوجد ما أراد و علیه أن یوجد ما أرید منه.

و الحال أن الرسول لیس إلاّ بشرا مثلهم أرسله اللّه الیهم لینذرهم عذاب اللّه و یحذرهم أن یستکبروا عن عبادته و یفسدوا فی الأرض بناء علی السنه الإلهیه الجاریه فی خلقه أنه یهدی کل شیء الی کماله المطلوب و یدل عباده علی ما فیه صلاح معاشهم و معادهم.

فالرسول بما هو رسول بشر مثلهم لا یملک لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حیاه و لا نشورا و لیس علیه إلاّ تبلیغ رساله ربه و أما الآیات فأمرها الی اللّه ینزلها إن شاء و کیف شاء فاقتراحها علی الرسول جهل محض.

فالمعنی:أنهم یقترحون علیک آیه-و عندهم القرآن أفضل آیه-و لیس الیک شیء من ذلک و إنما أنت هاد تهدیهم من طریق الإنذار و قد جرت سنه اللّه فی عباده أن یبعث فی کل قوم هادیا یهدیهم.

و الآیه تدل علی أن الأرض لا تخلو من هاد یهدی الناس الی الحق إما نبی منذر و إما هاد غیره یهدی بأمر اللّه و قد مر بعض ما یتعلق بالمقام فی أبحاث النبوه فی الجزء الثانی و فی أبحاث الإمامه فی الجزء الأول من الکتاب.

قوله تعالی: اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ وَ مٰا تَغِیضُ الْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ قال فی المفردات:غاض الشیء و غاضه غیره نحو نقص و نقصه غیره قال تعالی «وَ غِیضَ الْمٰاءُ» «وَ مٰا تَغِیضُ الْأَرْحٰامُ» أی تفسده الأرحام فتجعله کالماء الذی تبتلعه الأرض و الغیضه المکان الذی یقف فیه الماء فیبتلعه و لیله غائضه أی

ص :۳۶۳

مظلمه انتهی.

و علی هذا فالأنسب أن تکون الامور الثلاثه المذکوره فی الآیه أعنی قوله: «مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ» و «مٰا تَغِیضُ الْأَرْحٰامُ» و «مٰا تَزْدٰادُ» إشاره الی ثلاثه من أعمال الأرحام فی أیام الحمل فما تحمله کل أنثی هو الجنین الذی تعیه و تحفظه و ما تغیضه الأرحام هو دم الحیض تنصب فیها فتصرفه الرحم فی غذاء الجنین،و ما تزداده هو الدم التی تدفعها الی خارج کدم النفاس و الدم أو الحمره التی تراها أیام الحمل أحیانا و هو الذی یظهر من بعض ما روی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام و ربما ینسب الی ابن عباس.

و قوله: وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ المقدار هو الحد الذی یحد به الشیء و یتعین و یمتاز به من غیره إذ لا ینفک الشیء الموجود عن تعین فی نفسه و امتیاز من غیره و لو لا ذلک لم یکن موجودا البته.

و هذا المعنی أعنی کون کل شیء مصاحبا لمقدار و قرینا لحد لا یتعداه حقیقه قرآنیه تکرر ذکرها فی کلامه تعالی کقوله: قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً (الطلاق/٣)،و قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/٢١)و غیر ذلک من الآیات.

فإذا کان الشیء محدودا بحد لا یتعداه و هو مضروب علیه ذلک الحد عند اللّه و بأمره و لن یخرج من عنده و إحاطته و لا یغیب عن علمه شیء کما قال: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (الحج/١٧)و قال: أَلاٰ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ (حم السجده/٥٤)،و قال: لاٰ یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّهٍ (السبأ/٣)فمن المحال أن لا یعلم تعالی ما تحمل کل أنثی و ما تغیض الأرحام و ما تزداد.

فذیل الآیه أعنی قوله: «وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ» تعلیل لصدرها أعنی قوله: «اللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثیٰ» الخ؛و الآیه و ما یتلوها کالتذلیل للآیه السابقه أن اللّه یعلم بکل شیء و یقدر

على كل شيء و يجيب الدعوه و يخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبيه فإليه أمر الآيات لا إليك و إنما أنت منذر.

قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ الغيب و الشهاده كما سمعت مرارا معنيان إضافيان فالشيء الواحد يمكن أن يكون غيبا بالنسبه الى شيء و شهاده بالنسبه الى آخر و ذلك أن الاشياء-كما تقدم-لا تخلو من حدود تلزمها و لا تنفك عنها فما كان من الاشياء داخلا فى حد الشيء غير خارج عنه فهو شهاده بالنسبه اليه مشهود لإدراكه و ما كان خارجا عن حد الشيء غير داخل فيه فهو غيب بالنسبه اليه غير مشهود لإدراكه.

و من هنا يظهر أن الغيب لا يعلم به إلاّ اللّه سبحانه أما أنه لا يصير معلوما لشيء فلأن العلم نوع إحاطه و لا معنى لإحاطه الشيء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبى عن إحاطته،و أما أنه تعالى يعلم الغيب فلأنه تعالى غير محدود الوجود بحد و هو بكل شيء محيط فلا يمتنع شيء عنه بحده فلا يكون غيبا بالنسبه اليه و الى فرض أنه غيب بالنسبه الى غيره.

فيرجع معنى علمه بالغيب و الشهاده بالحقيقه الى أنه لا غيب بالنسبه اليه بل الغيب و الشهاده اللذان يتحققان فيما بين الأشياء بقياس بعضها الى بعض هما معا شهادتان بالنسبه اليه تعالى،و يصير معنى قوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» أن الذى يمكن أن يعلم به أرباب العلم و هو الذى لا يخرج عن حد وجودهم و الذى لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيبا خارجا عن حد وجودهم هما معا معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء.

و قوله: اَلْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ اسمان من أسمائه تعالى الحسنى،و الكبر و يقابله الصغر من المعانى المتضايفه فإن الأجسام إذا قيس بعضها الى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر و زياده كان كبيرا و ما لم يكن كذلك كان صغيرا ثم توسعوا فاعتبروا ذلك فى غير الأجسام،و الذى يناسب ساحه قدسه تعالى من معنى الكبرياء أنه تعالى يملك كل كمال لشيء و يحيط به فهو تعالى كبير أى له كمال كل ذى كمال و زياده.

ص: ٣٦٥

و المتعال صفه من التعالى و هو المبالغه فى العلو كما يدل عليه قوله: تَعٰالىٰ عَمّٰا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (الإسراء/۴۳)فإن قوله: «عُلُوًّا كَبِيراً» مفعول مطلق لقوله: «تَعٰالىٰ» و موضوع فى محل قولنا:«تعاليا»فهو سبحانه على و متعال أما أنه على فلأنه علا كل شىء و تسلط عليه و العلو هو التسلط،و أما أنه متعال فلأن له غايه العلو لأن علوه كبير بالنسبه الى كل علو فهو العالى المتسلط على كل عال من جهه.

و من هنا تظهر النكته فى تعقيب قوله: «عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ» بقوله: «الْكَبِيرُ الْمُتَعٰالِ» لأن مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شىء متسلط عليه و لا يتسلط عليه و لا يغلبه شىء من جهه البته فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهاده و لا يتسلط عليه و لا يغلبه غيب حتى يعزى عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهاده فهو عالم الغيب و الشهاده لأنه كبير متعال.

قوله تعالى: سَوٰاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سٰارِبٌ بِالنَّهٰارِ السرب بفتحتين و السروب الذهاب فى حدور و سيلان الدمع و الذهاب فى مطلق الطريق يقال سرب سربا و سروبا نحو مر مرا و مرورا.كذا فى المفردات فالسارب هو الذاهب فى طريق المعلن بنفسه.

و الآيه كالتفريع على الآيه السابقه أى إذا كان اللّه سبحانه عالما بالغيب و الشهاده على سواء فسواء منكم من أسر القول و من جهر به أى بالقول و اللّه سبحانه يعلم بقولهما و يسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله،و سواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمه الليل و إرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين و من هو سارب بالنهار ذاهب فى طريقه متبرز غير مخل لنفسه فاللّه يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفى بالليل بمكيدته.

قوله تعالى: لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ الخ؛ظاهر السياق أن الضمائر الأربع «لَهُ» «يَدَيْهِ» «خَلْفِهِ» «يَحْفَظُونَهُ» مرجعها واحد و لا

مرجع يصلح لها جميعا إلاّ ـ ما فى الآيه السابقه أعنى الموصول فى قوله: «مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ» الخ؛ فهذا الإنسان الذى يعلم به اللّه سبحانه فى جميع أحواله هو الذى له معقبات من بين يديه و من خلفه.

و تعقيب الشىء إنما يكون بالمجىء بعده و الإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» إنما يتصور إذا كان سائرا فى طريق،ثم طاف عليه المعقبات حوله و قد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائرا هذا السير بقوله: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (الانشقاق/۶)و فى معناه سائر الآيات الداله على رجوعه الى ربه كقوله:

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس/۸۳) وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (العنكبوت/۲۱)فللإنسان و هو سائر الى ربه معقبات تراقبه من بين يديه و من خلفه.

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ» الخ؛يدل بالجمله على أن اللّه قضى قضاء حتم بنوع من التلازم بين النعم الموهوبه من عنده للإنسان و بين الحالات النفسيه الراجعه الى الإنسان الجاريه على استقامه الفطره فلو جرى قوم على استقامه الفطره و آمنوا باللّه و عملوا صالحا أعقبهم نعم الدنيا و الآخره كما قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا (الأعراف/۹۶)و الحال ثابته فيهم دائمه عليهم ما داموا على حالهم فى أنفسهم فإذا غيروا حالهم فى أنفسهم غير اللّه سبحانه حالهم الخارجيه بتغيير النعم نقما.

و أما قوله تعالى: وَ إِذا أَرادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ فإنما دخل فى الحديث لا بالقصد الأولى لكنه تعالى لما ذكر أن كل شىء عنده بمقدار و أن لكل إنسان معقبات يحفظونه بأمره من أمره و لا يدعونه يهلك أو يتغير أو يضطرب فى وجوده و النعم التى اوتيها، و هم على حالهم من اللّه لا يغيرها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم وجب أن يذكر أن هذا التغيير من السعاده الى الشقاء و من النعمه الى النقمه أيضا من الامور المحكمه المحتومه التى

لیس لمانع أن یمنع من تحققها،و إنما أمره الی اللّه لا حظ فیه لغیره،و بذلک یتم أن الناس لا مناص لهم من حکم اللّه فی جانبی الخیر و الشر و هم مأخوذ علیهم و فی قبضته.

فالمعنی:و إذا أراد اللّه بقوم سوء لا یرید ذلک إلاّ إذا غیروا ما بأنفسهم من سمات معبودیه و مقتضیات الفطره فلا مرد لذلک السوء من شقاء أو نقمه أو نکال.

ثم قوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وٰالٍ عطف تفسیری علی قوله: «إِذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلاٰ مَرَدَّ لَهُ» و یفید معنی التعلیل له فإنه إذا لم یکن لهم من وال یلی أمرهم إلاّ اللّه سبحانه لم یکن هناک أحد یرد ما أراد اللّه بهم من السوء.

فقد بان من جمیع ما تقدم أن معنی الآیه-علی ما یعطیه السیاق-و اللّه أعلم-أن لکل من الناس علی أی حال کان معقبات یعقبونه فی مسیره الی اللّه من بین یدیه و من خلفه أی فی حاضر حاله و ماضیه یحفظونه بأمر اللّه من أن یتغیر حاله بهلاک أو فساد أو شقاء بأمر آخر من اللّه،و هذا الأمر الآخر الذی یغیر الحال إنما یؤثر أثره إذا غیر قوم ما بأنفسهم فعند ذلک یغیر اللّه ما عندهم من نعمه و یرید بهم السوء و إذا أراد بقوم سوء فلا مرد له لأنهم لا والی لهم یلی أمرهم من دونه حتی یرد ما أراد اللّه بهم من سوء (۱).

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحٰابَ الثِّقٰالَ السحاب بفتح السین جمع سحابه بفتحها و لذلک وصف بالثقال.

و الإراء إظهار ما من شأنه أن یحس بالبصر للمبصر لیبصره أو جعل الإنسان علی صفه الرؤیه و الإبصار،و التقابل بین قوله: «یُرِیکُمُ» و قوله: «یُنْشِئُ» یؤید المعنی الأول.

و قوله: خَوْفاً وَ طَمَعاً مفعول له أی لتخافوا و تطمعوا،و یمکن أن یکون مصدرین بمعنی الفاعل حالین من ضمیر«کم»أی خائفین و طامعین.

۱- ۱) .الرعد ۷-۱۶:بحث فی التلازم بین شیوع الصلاح فی قوم و دوام النعمه علیهم.

و المعنى:هو الذى يظهر لعيونكم البرق ليظهر فيكم صفتا الخوف و الطمع كما أن المسافر يخافه و الحاضر يطمع فيه،و أهل البحر يخافونه و أهل البر يطمعون فيه و يخاف صاعقته و يطمع فى غيثه،و يخلق بإنشائه السحابات التى تثقل بالمياه التى تحملها،و فى ذكر آيه البرق بالإراءه و آيه السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

قوله تعالى: وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ الخ؛الصواعق جمع صاعقه و هو القطعه الناريه النازله من السماء عن برق و رعد،و الجدل المفاوضه و المنازعه فى القول على سبيل المغالبه،و أصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله،و المحال بكسر الميم مصدر ماحله يماحله اذا ماكره و قاواه ليتبين أيهما أشد و جادله لإظهار مساويه و معائبه فقوله: «وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ» معناه-و اللّه أعلم-أن الوثنيين-و اليهم وجه الكلام فى إلقاء هذه الحجج-يجادلون فى ربوبيته تعالى بتلفيق الحجه على ربوبيه أربابهم كالتمسك بدأب آبائهم و اللّه سبحانه شديد المماحله لأنه عليم بمساويهم و معائبهم قدير على إظهارها و فضاحتهم.

قوله تعالى: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ الى آخر الآيه؛الدعاء و الدعوه توجيه نظر المدعو الى الداعى و يتأتى غالبا بلفظ أو إشاره،و الاستجابه و الإجابه إقبال المدعو على الداعى عن دعائه،و أما اشتمال الدعاء على سؤال الحاجه و اشتمال الاستجابه على قضائها فذلك غايه متممه لمعنى الدعاء و الاستجابه غير داخله فى مفهوميهما.

نعم:الدعاء إنما يكون دعاء حقيقه إذا كان المدعو ذا نظر يمكن أن يوجه الى الداعى و ذا جده و قدره يمكنه بهما استجابه الدعاء و أما دعاء من لا يفقه أو يفقه و لا يملك ما ترفع به الحاجه فليس بحق الدعاء و إن كان فى صورته.

و لما كانت الآيه الكريمه قرر فيها التقابل بين قوله: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ» و بين قوله: «وَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الخ؛الذى يذكر أن دعاء غيره خال عن الاستجابه ثم يصف دعاء الكافرين بأنه فى ضلال علمنا بذلك أن المراد بقوله: «دَعْوَةُ الْحَقِّ» الدعوه الحقه غير الباطله و هى الدعوه التى يسمعها المدعو ثم يستجيبها البته،و هذا من صفاته تعالى و تقدس فإنه سميع الدعاء قريب مجيب و هو الغنى ذو الرحمه و قد قال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ (البقره/ ۱۱۶)و قال: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ۶۰/)فأطلق و لم يشترط فى الاستجابه إلاّ أن تتحقق هناك حقيقه الدعاء و أن يتعلق ذلك الدعاء به تعالى لا غير.

فلفظه دعوه الحق من إضافه الموصوف الى الصفه أو من الإضافه الحقيقيه بعنايه أن الحق و الباطل كأنهما يقتسمان الدعاء فقسم منه للحق و هو الذى لا يتخلف عن الاستجابه،و قسم منه للباطل و هو الذى لا يهتدى الى هدف الإجابه كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابه.

فهو تعالى لما ذكر فى الآيات السابقه أنه عليم بكل شىء و أن له القدره العجيبه ذكر فى هذه الآيه أن له حقيقه الدعاء و الاستجابه فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير،و قد ذكر ذلك فى الآيه بطريقى الإثبات و النفى أعنى إثبات حق الدعاء لنفسه و نفيه عن غيره.

و مثل من يدعو غير اللّه سبحانه مثل هذا الباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و ليس له من الدعاء إلاّ صورته الخاليه من المعنى و اسمه من غير مسمى فهؤلاء المدعوون من دون اللّه لا يستجيبون للذين يدعونهم بشىء و لا يقضون حاجتهم إلاّ كما يستجاب لباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و يقضى حاجته أى لا يحصل لهم إلاّ صوره الدعاء كما لا يحصل لذلك الباسط إلاّ صوره الطلب ببسط الكفين.

و من هنا يعلم أن هذا الاستثناء «إِلاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ» الخ؛لا ينتقض به عموم النفى فى المستثنى منه و لا يتضمن إلاّ صوره الاستثناء فهو يفيد تقويه الحكم فى جانب المستثنى منه فإن مفاده أن الذين يدعون من دون اللّه لا يستجاب لهم إلاّ كما يستجاب لباسط كفيه الى

الماء و لن يستجاب له،و بعباره أخرى لن ينالوا بدعائهم إلاّ أن لا ينالوا شيئا أى لن ينالوا شيئا البته.

و هذا من لطيف كلامه تعالى و يناظر من وجه قوله تعالى الآتى: «قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا» و آكد منه كما سيجىء إن شاء اللّه.

ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: «وَ مٰا دُعٰاءُ الْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ» مع ما فيه من الإشاره الى حقيقه أصيله أخرى و هى أنه لا غرض لدعاء إلاّ اللّه سبحانه فإنه العليم القدير و الغنى ذو الرحمه فلا طريق له إلاّ طريق التوجه اليه تعالى فمن دعا غيره و جعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض و الغايه و خرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق و سلوك ما لا يوصل الى المطلوب.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ السجود الخرور على الأرض بوضع الجبهه أو الذقن عليها قال تعالى وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً (يوسف١٠٠/)،و قال يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً (الإسراء١٠٧/).و الواحده منه سجده.

و الكره ما يأتى به الإنسان من الفعل بمشقه فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف و ما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها و الطوع يقابل الكره مطلقا.

و قال الراغب:الغدوه و الغداه من أول النهار،و قوبل فى القرآن الغدو بالآصال نحو قوله:

«بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ» و قوبل الغداه بالعشى قال «بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِيِّ» انتهى و الغدو جمع غداه كقنى و قناه و قال فى المجمع:الآصال جمع أصل-بضمتين-و أصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذى ينشأ منه و هو ما بين العصر الى مغرب الشمس.

انتهى.

و أما قوله: وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفه بها

فى السجود فإن الظل و إن كان عدميا من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلاّ أن له أثارا خارجيه و هو يزيد و ينقص فى طرفى النهار و يختلف اختلافا ظاهرا للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره يخضع فى وجوده و آثاره للّه و يسجد له.

و هى تسجد للّه سبحانه سجده طوع فى جميع الأحيان،و إنما خص الغدو و الآصال بالذكر لا لما قيل:إن المراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأييد إذ لو أريد سجودها الدائم لكان الأنسب به أن يقال:بأطراف النهار حتى يعم جميع ما قبل الظهر و ما بعده كما وقع فى قوله:

وَ مِنْ آنٰاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرٰافَ النَّهٰارِ لَعَلَّكَ تَرْضىٰ (طه ١٣٠/).

بل النكته فيه-و اللّه أعلم-أن الزياده و النقيصه دائمتان للأظلال فى الغداه و الأصيل فيمثلان للحس السقوط على الأرض و ذله السجود،و أما وقت الظهيره و أوساط النهار فربما انعدمت الأظلال فيها أو نقصت و كانت كالساكنه لا يظهر معنى السجده منها ذلك الظهور.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا الآيه بما تشتمل على أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالاحتجاج على المشركين بمنزله الفذلكه من الآيات السابقه.

و ذلك أن الآيات السابقه تبين بأوضح البيان أن تدبير السماوات و الأرض و ما فيهما من شىء الى اللّه سبحانه كما أن خلقها منه و أنه يملك ما يفتقر اليه الخلق و التدبير من العلم و القدره و الرحمه و أن كل من دونه مخلوق مدبر لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و ينتج ذلك أنه الرب دون غيره.

فأمر تعالى نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يسجل عليهم نتيجه بيانه السابق و يسألهم بعد تلاوه الآيات السابقه عليهم الكاشفه عن وجه الحق لهم بقوله: «مَنْ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» أى من هو الذى يملك السماوات و الأرض و ما فيهما و يدبر أمرها؟ثم أمره أن يجيب هو نفسه عن السؤال و يقول «اللّٰهُ» لأنهم و هم مشركون معاندون يمتنعون عن الإقرار بتوحيد الربوبيه و فى ذلك

تلويح الى أنهم لا يعقلون حجه و لا يفقهون حديثا.

ثم استنتج بمعونه هذه النتيجه نتيجه ثانيه بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان و هى أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابته بالحجج السابقه أنه هو المالك للنفع و الضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا فكيف لغيره؟فاتخاذ أرباب من دون اللّه أى فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد و يملكون لهم نفعا و ضرا فى الحقيقه فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

و هذا هو المراد بقوله مفرعا على السؤال السابق: «قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا» أى فكيف يملكون لغيرهم ذلك:أى إذا كان اللّه سبحانه هو رب السماوات و الأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آلهه من دونه قولا يكذبه نفسه و هو عدم ولايتهم فى عين ولايتهم و هو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء و أرباب لا ربوبيه لهم.

و بالتأمل فيما قدمناه أن الآيه بمنزله الفذلكه من سابق البيانات يعود مفاد الآيه الى مثل قولنا:إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات و الأرض إلاّ اللّه؟أ فاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعا و لا ضرا؟فالعدول عن التفريع الى أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله:قل كذا و قل كذا و تكراره مره بعد مره إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذاره الجهل و العناد و هذا من لطيف نظم القرآن.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰاتُ وَ النُّورُ مثلان ضربهما اللّه سبحانه بعد تمام الحجه و إتمامها عليهم و أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن و الكافر فالكافر بالحجه الحقه و الآيات البينات غير المسلم لها أعمى و المؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوى بينهما ببديهه عقله،و يبين بالثانى أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير و الإيمان بالحق نور كما أن المؤمن الآخذ به بصير و لا يستويان البته فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمه-كما

يدعون-أن يسلموا للحق و يرفضوا الباطل و يؤمنوا باللّه وحده.

قوله تعالى: أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ -الى قوله- وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ فى التعبير بقوله: «جَعَلُوا» و «عَلَيْهِمْ» دون أن يقال جعلتم و عليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم دون أن يؤمر بإلقائه اليهم.

ثم العود فى جواب هذا الاحتمال الذى يتضمنه قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» الى الأمر بإلقائه اليهم بقوله: «قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» دليل على أن السؤال إنما هو عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المطلوب من إلقاء توحيد الخالق اليهم هو الإلقاء الابتدائى لا الإلقاء بنحو الجواب،و ليس إلاّ لأنهم لا يقولون بخالق غير اللّه سبحانه كما قال تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ (لقمان/٢٥)، (الزمر/٣٨)و قد كرر تعالى نقل ذلك عنهم.

فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون للّه سبحانه شريكا فى الخلق و الإيجاد و إنما كانوا ينازعون الإسلام فى توحيد الربوبيه لا فى توحيد الالوهيه بمعنى الخلق و الإيجاد،و تسليمهم توحيد الخالق المبدع و قصر ذلك على اللّه يبطل قولهم بالشركاء فى الربوبيه و تتم الحجه عليهم لأن اختصاص الخلق و الإيجاد باللّه سبحانه ينفى استقلال الوجود و العلم و القدره عن غيره تعالى و لا ربوبيه مع انتفاء هذه النعوت الكماليه.

و لذلك لم يبق لهم فى القول بربوبيه شركائهم مع اللّه سبحانه إلاّ أن ينكروا توحده تعالى فى الخلق و الإيجاد و يثبتوا بعد الخلق و الإيجاد لآلهتهم و هم لا يفعلونه.و هذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

فكأنه تعالى إذ يقول «أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» يقول لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:هؤلاء تمت عليهم الحجه فى توحيد الربوبيه من جهه اختصاصه تعالى بالخلق و الايجاد فلم يبق لهم إلاّ أن يقولوا بشركه شركائهم فى الخلق و الايجاد فهل هم قائلون بأن

شركائهم خلقوا خلقا كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم إجمالا مع اللّه.

ثم أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يلقى اليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال «قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» و الجمله صدرها دعوى دليلها ذيلها أى أنه تعالى واحد فى خالقيته لا شريك له فيها،و كيف يكون له فيها شريك و له وحده يقهر كل عدد و كثره و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (يوسف/٣٩)بعض الكلام فى معنى كونه تعالى هو الواحد القهار،و تبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفه الأحديه.

و قد بان مما ذكرناه وجه تغيير السياق فى قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» و الإعراض عن سياق الخطاب السابق فتأمل فى ذلك و اعلم أن أكثر المفسرين اشتبه عليهم الحال فى الحجج التى تقيمها الآيات القرآنيه لإثبات ربوبيته تعالى و توحيده فيها و نفى الشريك عنه فخلطوا بينها و بين ما أقيمت لإثبات الصانع فتنبه لذلك (١).

[سوره الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ٢۶]

اشاره

أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ اَلسَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي اَلنّٰارِ اِبْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْحَقَّ وَ اَلْبٰاطِلَ فَأَمَّا اَلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ اَلنّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي اَلْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْأَمْثٰالَ (١٧) لِلَّذِينَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمُ اَلْحُسْنىٰ وَ اَلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ اَلْحِسٰابِ وَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ (١٨) أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اَلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (١٩) اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ وَ لاٰ يَنْقُضُونَ اَلْمِيثٰاقَ (٢٠) وَ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخٰافُونَ سُوءَ اَلْحِسٰابِ (٢١) وَ اَلَّذِينَ صَبَرُوا اِبْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ اَلسَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى اَلدّٰارِ (٢٢) جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ أَزْوٰاجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ (٢٣) سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى اَلدّٰارِ (٢۴) وَ اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مٰا أَمَرَ اَللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ اَللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ اَلدّٰارِ (٢۵) اَللّٰهُ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مَا اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا فِي اَلْآخِرَةِ إِلاّٰ مَتٰاعٌ (٢۶)

١- ١) .الرعد ٧-١۶:بحث روائى فى:قول اللّه تبارك و تعالى «إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ» ؛ان المنذر هو رسول اللّه و على عليه السّلام هو الهادى؛الغيب و الشهاده؛ان ليس من عبد الاّ و معه ملائكه يحفظونه.

بيان:

قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً الی آخر الآیه؛قال فی مجمع البیان:الوادی سفح الجبل العظیم المنخفض الذی یجتمع فیه ماء المطر،و منه اشتقاق الدیه لأنه جمع المال العظیم الذی یؤدی عن القتیل،و القدر اقتران الشیء بغیره من غیر زیاده و لا نقصان و الوزن یزید و ینقص فإذا کان مساویا فهو القدر،و قرء الحسن بقدرها بسکون الدال،و هما لغتان یقال:أعطی قدر شبر و قدر شبر،و المصدر بالتخفیف لا غیر.

قال:و الاحتمال رفع الشیء علی الظهر بقوه الحامل له،و یقال:علا صوته علی فلان فاحتمله و لم یغضبه،و الزبد و ضر الغلیان و هو خبث الغلیان و منه زبد القدر و زبد السیل.

و الجفاء ممدود مثل الغثاء و أصله الهمز یقال:جفأ الوادی جفاء قال أبو زید:یقال:جفأت الرجل إذا صرعته و أجفأت القدر بزبدها إذا ألقیت زبدها عنها،قال الفراء:کل شیء ینضم بعضه الی بعض فإنه یجیء علی فعال مثل الحطام و القماش و الغثاء و الجفاء.

و الإیقاد إلقاء الحطب فی النار استوقدت النار،و انقدت و توقدت،و المتاع ما تمتعت به، و المکث السکون فی المکان علی مرور الزمان یقال:مکث و مکث-بفتح الکاف و ضمها- و تمکث أی تلبث.انتهی.

و قال الراغب:الباطل نقیض الحق و هو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالی «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ» و قد یقال ذلک فی الاعتبار الی المقال و الفعال یقال:بطل بطولا و بطلا و بطلانا و أبطله غیره قال عزّ و جلّ «وَ بَطَلَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» و قال «لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ» .انتهی موضع الحاجه.

فبطلان الشیء هو أن یقدر للشیء نوع من الوجود ثم إذا طبق علی الخارج لم یثبت علی ما قدر و لم یطابقه الخارج و الحق بخلافه فالحق و الباطل یتصف بهما أولا الاعتقاد ثم غیره بعنایه

ما.

فالقول نحو السماء فوقنا و الأرض تحتنا بكون حقا لمطابقه الواقع إياه إذا فحص عنه و طبق عليه،و لقولنا:السماء تحتنا و الأرض فوقنا كان باطلا-لعدم ثباته فى الواقع على ما قدر له من الثبات،و الفعل يكون حقا إذا وقع على ما قدر له من الغايه أو الأمر كالأكل للشبع و السعى للرزق و شرب الدواء للصحه مثلا إذا أثره و بلغ غرضه،و يكون باطلا إذا لم يقع على ما قدر عليه من الغايه أو الأمر،و الشىء الموجود فى الخارج حق من جهه أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالى،و الشىء غير الموجود و قد اعتقد له الوجود باطل و كذا لو كان موجودا لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال و البقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهه عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له و إن كان حقا من جهه أصل الوجود قال:

ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل

و كل نعيم لا محاله زائل

و الآيه الكريمه من غرر الآيات القرآنيه تبحث عن طبيعه الحق و الباطل فتصف بدء تكونهما و كيفيه ظهورهما و الآثار الخاصه بكل منهما و سنه اللّه سبحانه الجاريه فى ذلك و لن تجد لسنه اللّه تحويلا و لن تجد لسنه اللّه تبديلا.

بين تعالى ذلك بمثل ضربه للناس،و ليس بمثلين كما قاله بعضهم و لا بثلاثه أمثال كما ذكره آخرون كما سنشير اليه إن شاء اللّه و إنما هو مثل واحد ينحل الى أمثال فقال تعالى «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً» و قوله: «أَنْزَلَ» فعل فاعله هو اللّه سبحانه لم يذكر لوضوحه،و تنكير «مٰاءً» للدلاله على النوع و هو الماء الخالص الصافى يعنى نفس الماء من غير أن يختلط بشىء أو يشوبه تغير،و تنكير «أَوْدِيَةٌ» للدلاله على اختلافها فى الكبر و الصغر و الطول و القصر و تغايرها فى السعه و الوعى،و نسبه السيلان الى الاوديه نسبه مجازيه نظير قولنا:جرى الميزاب و توصيف الزبد بالرابى لكونه طافيا يعلو

السيل دائما و هذا كله بدلاله السياق،و إنما مثل بالسيل لأن احتمال الزبد الرابى فيه أظهر.

و المعنى:أنزل اللّه سبحانه من السماء و هى جهه العلو ماء بالإمطار فسالت الأوديه الواقعه فى محل الامطار المختلفه بالسعه و الضيق و الكبر و الصغر بقدرها أى كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره و الصغير بقدره فاحتمل السيل الواقع فى كل واحد من الأوديه المختلفه زبدا طافيا عاليا و هو الظاهر على الحس يستر الماء سترا.

ثم قال تعالى وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ من نشويه و ما يوقدون عليه أنواع الفلزات و المواد الأرضيه القابله للإذابه المصوغه منها آلات الزينه و أمتعه الحياه التى يتمتع بها و المعنى و يخرج من الفلزات و المواد الأرضيه التى يوقدون عليها فى النار طلبا للزينه كالذهب و الفضه أو طلبا لمتاع كالحديد و غيره يتخذ منه الآلات و الأدوات،زبد مثل الزبد الذى يربو السيل يطفو على الماده المذابه و يعلوه.

ثم قال تعالى كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ أى يثبت اللّه الحق و الباطل نظير ما فعل فى السيل و زبده و ما يوقدون عليه فى النار و زبده.

فالمراد بالضرب-و اللّه أعلم-نوع من التثبيت من قبيل قولنا:ضربت الخيمه أى نصبتها و قوله:ضربت عليهم الذله و المسكنه أى أوقعت و أثبتت و ضرب بينهم بسور أى أوجد و بنى،و اضرب لهم طريقا فى البحر أى افتح و ثبت و الى هذا المعنى أيضا يعود ضرب المثل لأنه تثبيت و نصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله،و الجميع فى الحقيقه من قبيل إطلاق الملزوم و إراده اللازم فإن الضرب و هو إيقاع شىء على شىء بقوه و عنف لا ينفك عاده عن تثبيت أمر فى ما وقع عليه الضرب كثبوت الوتد فى الأرض بضرب المطرقه و حلول الألم فى جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب و هو الملزوم و أريد التثبيت و هو الأمر اللازم.

ص :۳۷۹

ثم قال تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ جمع بين الزبدين أعنى زبد السيل و زبد ما يوقدون عليه و قد كانا متفرقين فى الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصه و هو أنه يذهب جفاء،و لذا قدمنا آنفا أن الآيه تتضمن مثلا واحدا و إن انحل الى غير واحد من الأمثال.

و قد عدل عن ذكر الماء و غيره الى قوله: «وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ» للدلاله على خاصه يختص بها الحق و هو أن الناس ينتفعون به و هو الغايه المطلوبه لهم.

و المعنى:فأما الزبد الذى كان يطفو على السيل و يعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه فى النار فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا،و أما الماء الخالص أو العين الارضيه المصوغه و فيهما انتفاع الناس و تمتعهم فى معاشهم فيمكث فى الأرض ينتفع به الناس.

ثم قال تعالى كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ و ختم به القول أى إن الأمثال المضروبه للناس فى كلامه تعالى يشابه المثل المضروب فى هذه الآيه فى أنها تميز الحق من الباطل و تبين للناس ما ينفعهم فى معاشهم و معادهم.

و لا يبعد أن تكون الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الى ما ذكره من أمر نزول المطر و جريان الاوديه بسيولها المزبده و إيقاد المواد الأرضيه و خروج زبدها،أعنى أن تكون الإشاره الى نفس هذه الحوادث الخارجيه و التكونات العينيه لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونيه و الحوادث الواقعه فى عالم الشهاده أمثال مضروبه تهدى اولى النهى و البصيره الى ما فى عالم الغيب من الحقائق كما أن ما فى عالم الشهاده آيات داله على ما فى عالم الغيب على ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم،و لا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالا مضروبه أو آيات داله و هو ظاهر.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنىٰ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ الى آخر الآيه؛المهاد الفراش الذى يوطأ لصاحبه و المكان الممهد الموطأ و سميت جهنم لأنها

مهدت لاستقرارهم فيها لكفرهم و أعمالهم السيئه.

و الآيه و ما بعدها من الآيات التسعه متفرعه على المثل المضروب فى الآيه السابقه كما تقدمت الإشاره اليه يبين اللّه سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق و الإيمان به و الاستجابه لدعوته،و آثار الاعتقاد الباطل و الكفر به و عدم استجابه دعوته و يشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبه الإيمان و الكفر و أن العاقبه المحموده التى للإيمان لا يقوم مقامها شىء و لو كان ضعف ما فى الدنيا من نعمه.

و على هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبه الحسنى و ما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبه الحسنى أو الجنه و إن كان حقا بحسب المآل فإن عاقبه الإيمان و العمل الصالح المحموده هى المثوبه الإلهيه الحسنى و هى الجنه لكن المثوبه أو الجنه غير مقصوده فى المقام بما أنها مثوبه أو جنه بل بما أنها عاقبه أمرهم و ينتهى إليها سعيهم.

و يؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم فى الآيات التاليه بعد تعريفهم بصفاتهم المختصه بهم:

«أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدّٰارِ جَنّٰاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا» الآيه.

و على هذا أيضا فقوله: «لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ» موضوع موضع الغايه المحذوفه للدلاله على فخامه أمرها و بلوغها الغايه من حمل الهول و الدهشه و الشر و الشقوه بما لا يذكر.

و المعنى:و الذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر-أو يفوتهم أمر و هو نتيجه الاستجابه و عاقبتها الحسنى-من صفته أنه لو أن لهم ما فى الارض من نعمه تلتذ بها النفس الانسانيه و هو غايه ما يمكن لإنسان أن يأمله و يتمناه ثم أضيف اليه مثله و هو فوق منيه الإنسان و بعباره ملخصه لو كانوا يملكون غايه مناهم فى الحياه و ما فوق هذه الغايه رضوا أن يفتدوا بهذا الذى يملكونه فرضا عما يفوتهم من الحسنى،و فى بعض كلمات على عليه السّلام فى وصفه«غير موصوف ما نزل بهم».

ثم أخبر تعالی عن هذا الذی لا یوصف من عاقبه أمرهم فقال «أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ» و سوء الحساب الحساب الذی یسوؤهم و لا یسرهم فهو من إضافه الصفه الی الموصوف ثم ذم تعالی ذلک مشیرا الی سوء العاقبه بقوله: «وَ بِئْسَ الْمِهادُ» أی بئس المهاد مهادهم الذی مهد لهم و یستقرون فیه،و مجموع قوله: «أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ» الخ؛فی موضع التعلیل لما ذکر من الافتداء و التعلیل بالإشاره کثیر فی الکلام یقال:افعل بفلان کذا و کذا ذاک الذی من صفته کذا و کذا.

و معنی الآیه-و اللّه أعلم-للذین استجابوا لدعوه ربهم الحقه العاقبه الحسنی و الذین لم یستجیبوا له لهم من عاقبه الامر ما یرضون أن یفدوا للتخلص منه فوق ما یمکنهم أن یتمنوه لأن الذی یحل بهم من العاقبه السیئه یتضمن أو یقارن سوء الحساب و القرار فی و بئس المهاد مهادهم.

و قد وضع فی الآیه الاستجابه و عدم الاستجابه مکان الإیمان و الکفر لمناسبه المثل المضروب فی الآیه السابقه من نزول الماء من السماء و قبول الأودیه منه کل بقدره، و الاستجابه قبول الدعوه.

قوله تعالی: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ استفهام إنکاری و هو فی موضع التعلیل لما تضمنه الآیه السابقه، و بیان تفصیلی لعاقبه حال الفریقین من حیث استجابه دعوه الحق و عدمها.

و ملخص البیان:أن الحق یستقر فی قلوب هؤلاء الذین استجابوا لربهم فتصیر قلوبهم ألبابا و قلوبا حقیقیه لها آثارها و برکاتها و هو التذکر و التبصر،و من خواص هذه القلوب التی یعرف بها صاحبوها أن اولی الألباب یثبتون علی الوفاء بعهد اللّه المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا ینقضون میثاق ربهم،و یثبتون علی احترام ما وصلهم اللّه به و هی الرحم التی أجری اللّه الخلقه من طریقها فیصلونها و هم خاشعون خائفون،و یثبتون بالصبر عند المصائب و عن

المعصيه و على الطاعه،و يجرون بالتوجه الى ربهم و هو الصلاه،و إصلاح المجتمع و هو الإنفاق، و درء السيئات بالحسنات.

فهؤلاء لهم عاقبه الدار المحموده و هى الجنه يدخلونها و تنعكس اليهم فيها مثوبات أعمالهم الحسنه المذكوره فيصاحبون فيها الصالحين من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم كما وصلوا الرحم فى الدنيا،و الملائكه يدخلون عليهم من كل باب مسلمين عليهم بما صبروا كما فتحوا أبواب العبادات و الطاعات المختلفه فى الدنيا فهذا هو أثر الحق.

و قوله: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ الاستفهام فيه للإنكار-كما تقدم-و فيه نفى التساوى بين من استقر فى قلبه العلم بالحق و من جهل الحق و فى توصيف الجاهل بالحق بالأعمى إيماء الى أن العالم به يصير و قد سماه بالأعمى و البصير فى قوله آنفا: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ» الآيه،فالعلم بالحق بصيره و الجهل به عمى و التبصر يفيد التذكر و لذا عده من خواص اولى العلم بقوله: «إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ» .

و قوله: إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ فى مقام التعليل لما سبقه أعنى قوله: «أَ فَمَنْ يَعْلَمُ» الخ؛أى إنهما لا يستويان لأن لاولى العلم تذكر ليس لاولى العمى و الجهل،و قد وضع فى موضع اولى العلم اولو الألباب فدل على دعوى أخرى تفيد فائده التعليل كأنه قيل:لا يستويان لأن لأحد الفريقين تذكرا ليس للآخر،و إنما اختص التذكر بهم لأن لهم ألبابا و قلوبا و ليس ذلك لغيرهم.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَنْقُضُونَ الْمِيثٰاقَ ظاهر السياق أن الجمله الثانيه عطف تفسيرى على الجمله الاولى فالمراد بالميثاق الذى لا ينقضونه هو عهد اللّه الذى يوفون به،و المراد بهذا العهد و الميثاق بقرينه ما ذكر فى الآيه السابقه من تذكرهم هو ما عاهدوا به ربهم و واثقوه بلسان فطرتهم أن يوحدوه و يجروا على ما يقتضيه توحيده من الآثار فإن الانسان مفطور على توحيده تعالى و ما يهتف به توحيده،و هذا عهد عاهدته

الفطره و عقد عقدته.

و أما العهود و المواثيق المأخوذه بوسيله الأنبياء و الرسل على أمر من اللّه و الأحكام و الشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطرى فإن الدين فطرى.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ الخ؛الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعى النازل بشهاده ذيل الآيه «وَ يَخٰافُونَ سُوءَ الْحِسٰابِ» فإن الحساب على الأحكام النازله فى الشريعه ظاهرا و إن كانت مدركه بالفطره كقبح الظلم و حسن العدل فإن المستضعف الذى لم يبلغه الحكم الإلهى و لم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره،و قد تقدم فى أبحاثنا السابقه أن الحجه لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطرى لو لا انضمام طريق الوحى اليه قال تعالى: لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (النساء/ ۱۶۵).

و الآيه مطلقه فالمراد به كل صله أمر اللّه سبحانه بها و من أشهر مصاديقه صله الرحم التى أمر اللّه بها و أكد القول فى وجوبها،قال تعالى: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِى تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحٰامَ (النساء/۱).

و قد أكد القول فيه بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخٰافُونَ سُوءَ الْحِسٰابِ» فأشار الى أن فى ترك الصله مخالفه لأمر اللّه فليخش اللّه فى ذلك و عملا سيئا مكتوبا فى صحيفه العمل محفوظا على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيئ.

و الظاهر أن الفرق بين الخشيه و الخوف أن الخشيه تأثر القلب من إقبال الشر أو ما فى حكمه،و الخوف هو التأثر عملا بمعنى الإقدام على تهيئه ما يتقى به المحذور و إن لم يتأثر القلب و لذا قال سبحانه فى صفه أنبيائه: وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (الأحزاب/۳۹).فنفى عنهم الخشيه عن غيره و قد أثبت الخوف لهم عن غيره فى مواضع من كلامه كقوله: فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسىٰ (طه/۶۷)و قوله: وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً (الأنفال/۵۸).

و لعله اليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما أن الخشيه خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم.و لذا خص العلماء بها فى قوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ و كذا قول بعضهم:إن الخشيه أشد الخوف لأنها مأخوذه من قولهم:شجره خشيه أى يابسه.

و كذا قول بعضهم:إن الخوف يتعلق بالمكروه و بمنزله يقال:خفت المرض و خفت زيدا بخلاف الخشيه فإنها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال:خشيت اللّه.

و لو لا رجوعها الى ما قدمناه لكانت ظاهره النقض و ذكر بعضهم أن الفرق أغلبى لا كلى، و الآخرون أن لا فرق بينهما أصلا و هو مردود بما قدمناه من الآيات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَ أَنْفَقُوا الى آخر الآيه؛إطلاق الصبر يدل على اتصافهم بجميع شعبه و أقسامه و هى الصبر عند المصيبه و الصبر على الطاعه و الصبر عن المعصيه لكنه مع ذلك مقيد بقوله: «ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» أى طلبا لوجه ربهم فصفتهم التى يمدحون بها أن يكون صبرهم لوجه اللّه لأن الكلام فى صفاتهم التى تنشأ و تنمو فيهم من استجابتهم لربهم و علمهم بحقبه ما أنزل اليهم من ربهم لا كل صفه يمدحها الناس فيما بينهم و إن لم ترتبط بعبوديتهم و إيمانهم بربهم كالصبر عند الكريهه تمنعا و عجبا بالنفس أو طلبا لجميل الثناء و نحوه كما قيل:

و قولى كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدى أو تستريحى

و المراد بوجه الرب تعالى هو الجهه المنسوبه اليه تعالى من العمل و نحوه و هى الجهه التى عليها يظهر و يستقر العمل عنده تعالى أعنى المثوبه التى له عنده الباقيه ببقائه و قد قال تعالى:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران/۱۹۵)،و قال: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ (النحل/ ۹۶)،و قال: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ (القصص/۸۸).

و قوله: وَ أَقَامُوا الصَّلاَةَ أى جعلوها قائمه غير ساقطه بالإخلال بأجزائها و شرائطها أو بالاستهانه بأمرها،و عطف الصلاه و ما بعدها على الصبر من عطف الخاص على

العام اعتناء بشأنه و تعظيما لأمره.كما قيل.

و قوله: وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب و غيره،و الآيه مكيه لم ينزل وجوب الزكاه عند نزولها بعد،و تقييد الإنفاق بقوله:

«سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً» للدلاله على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار و منه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله اللّه بالحق أن يستوفى من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان فى إعلانه مظنه الرياء أو السمعه أو إهانه أو إذهاب ماء الوجه،و يعلن فيه فيما كان فى إعلانه تشويق الناس على البر و المعروف و دفع التهمه و نحو ذلك.

و قوله: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الدرء الدفع و المعنى إذا صادفوا سيئه جاءوا بحسنه تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئه،و هذا أعم من أن يكون ذلك فى سيئه صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنه جاءوا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبه الى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو فى سيئه أتى بها غيرهم بالنسبه اليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان اليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق و البشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا:سلاما أو أتى بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا بها.

فذلك كله من درء السيئه بالحسنه و لا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البته.

و قد اختلف التعبير فى هذه الصفات المذكوره لاولى الألباب«الذين يوفون،و لا ينقضون، و يصلون،و يخشون،و يخافون،و صبروا،و أقاموا،و أنفقوا،و يدرءون»فأتى فى بعضها-و هى سته-بلفظ المضارع،و فى بعضها-و هى ثلاثه-بلفظ الماضى.

و قد نقل عن بعضهم فى وجه ذلك أن التعبير فى قوله: «وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ» الخ؛بلفظ الماضى و فيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن فى الفصاحه لأن هذه الأفعال وقعت صله للموصول يعنى «وَ الَّذِينَ» و الموصول وصلته

فی معنی اسم الشرط مع الجمله الشرطیه،و الماضی و المضارع یستویان معنی فی الجمله الشرطیه نحو إن ضربت ضربت و إن تضرب أضرب فکذا فیما بمعناه.

و لذا قال النحویون:إذا وقع الماضی صله أو صفه لنکره عامه احتمل أن یراد به المضی و أن یراد به الاستقبال فمن الأول «الَّذِینَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ» و من الثانی «إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ» .

و فیه أن إلغاء خصوصیه زمان الفعل من المضی و الاستقبال فی الشرط و ما فی معناه لا یستوجب إلغاء لوازم الأزمنه کالتحقق فی الماضی و الجریان و الاستمرار و نحوهما فی المضارع فإن فی الماضی مثلا عنایه بالتحقق و إن کان ملغی الزمان فصحه السؤال عن نکته اختلاف التعبیر فی محله بعد.

و یستفاد من کلام بعض آخر فی وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمه أعنی الوفاء بالعهد و الصله و الخشیه و الخوف الاستصحاب و الاستمرار لکن الصبر لما کان مما یتوقف علی تحققه التلبس بتلک الأوصاف اعتنی بشأنه فعبر بلفظ الماضی الدال علی التحقق و کذا فی الصلاه و الإنفاق اعتناء بشأنهما.

و فیه أن بعض الصفات السابقه لا یقصر فی الأهمیه عن الصبر و الصلاه و الإنفاق کالوفاء بعهد اللّه الذی أرید به الإیمان باللّه بإجابه دعوه الفطره فلو کان الاعتناء بالشأن هو الوجه کان من الواجب أن یعبر عنه بلفظ الماضی کغیره من الصبر و الصلاه و الإنفاق.

و الذی أحسب-و اللّه أعلم-أن مجموع قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ صَبَرُوا ابْتِغٰاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَةً وَ یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَهِ السَّیِّئَهَ» مسوق لبیان معنی واحد و هو الإتیان بالعمل الصالح أعنی إتیان الواجبات و ترک المحرمات و تدارک ما یقع فیه من الخلل استثناء بالحسنه فالعمل الصالح هو المقصود بالاصاله و درء السیئه بالحسنه الذی هو تدارک الخلل الواقع فی العمل مقصود بالتبع کالمتمم للنقیصه.

فلو جرى الكلام على السياق السابق و قيل«و الذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم و يقامون الصلاه و ينفقون مما رزقناهم سرا و علانيه و يدرءون بالحسنه السيئه»فاتت هذه العنايه و بطل ما ذكر من حديث الأصاله و التبعيه لكن قيل «وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» فاخذ جميع الصبر المستقر أمرا واحدا مستمرا ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل «وَ يَدْرَؤُنَ» الخ؛ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبه اليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل،و كذا فى الصلاه و الإنفاق فافهمه.

و هذه العنايه بوجه نظيره العنايه فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ» الآيه؛حيث يدل على تفرع تنزل الملائكه على تحقق قولهم: «رَبُّنَا اللّهُ» و استقامتهم دون الاستمرار عليه.

و قوله: أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدّارِ أى عاقبتها المحموده فإنها هى العاقبه حقيقه لأن الشىء لا ينتهى بحسب ما جبله اللّه عليه إلاّ الى عاقبه تناسبه و تكون فيها سعادته،و أما العاقبه المذمومه السيئه ففيها بطلان عاقبه الشىء لخلل واقع فيه،و إنما تسمى عاقبه بنحو من التوسع،و لذلك أطلق فى الآيه عقبى الدار و أريدت بها العاقبه المحموده و قوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: «وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ» ،و من هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أى حياه الدار فالعاقبه عاقبتها.

قوله تعالى: جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيّاتِهِمْ العدن الاستقرار يقال:عدن بمكان كذا إذا استقر فيه و منه المعدن لمستقر الجواهر الأرضيه و جنات عدن أى جنات نوع من الاستقرار فيه خلود و سلام من كل جهه.

و جنات عدن«الخ»؛بدل أو عطف بيان من قوله: «عُقْبَى الدّارِ» أى عاقبه هذه الدار المحموده هى جنات العدن و الخلود فليست هذه الحياه الدنيا بحسب ما طبعها اللّه عليه إلاّ حياه واحده متصله أولها عناء و بلاء و آخرها رخاء نعيم و سلام،و هذا الوعد هو الذى يحكى وفاءه

ص: ٣٨٨

تعالی به حکایه عن أهل الجنه بقوله: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّهِ حَیْثُ نَشٰاءُ (الزمر/۷۴).

و الآیه-کما سمعت-تحاذی قوله: «یَصِلُونَ مٰا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ» و بیان لعاقبه هذا الحق الذی أخذوه و عملوا به و بشری لهم أنهم سیصاحبون الصالحین من أرحامهم و أهلیهم من الآباء و الامهات و الذراری و الاخوان و الاخوات و غیرهم و یشمل الجمیع قوله: «آبٰائِهِمْ وَ أَزْوٰاجِهِمْ وَ ذُرِّیّٰاتِهِمْ» لأن الامهات أزواج الآباء و الاخوان و الاخوات و الاعمام و الاخوال و أولادهم ذریات الآباء،و الآباء من الداخلین فمعهم أزواجهم و ذریاتهم ففی الآیه ایجاز لطیف.

قوله تعالی: وَ الْمَلاٰئِکَهُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ کُلِّ بٰابٍ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدّٰارِ و هذا عقبی أعمالهم الصالحه التی داموا علیها فی کل باب من أبواب الحیاه بالصبر علی الطاعه و عن المعصیه و عند المصیبه مع الخشیه و الخوف.

و قوله: «سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدّٰارِ» قول الملائکه و قد خاطبوهم بالأمن و السلام الخالد و عقبی محموده لا یعتریها ذم و سوء أبدا.

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِیثٰاقِهِ الی آخر الآیه؛بیان حال غیر المؤمنین بطریق المقابله و قد قوبل بقوله: «وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ» بقیه ما ذکر فی الآیات السابقه بعد الوفاء بعهد اللّه و الصله،من الأعمال الصالحه و فیه إیماء الی أن الأعمال الصالحه هی التی تضمن صلاح الأرض و عماره الدار علی نحو یؤدی الی سعاده النوع الإنسانی و رشد المجتمع البشری،و قد تقدم بیانه فی دلیل النبوه العامه.

و قد بین تعالی جزاء عملهم و عاقبه أمرهم بقوله: «أُولٰئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ» و اللعن الابعاد من الرحمه و الطرد من کل کرامه،و لیس ذلک إلاّ لانکبابهم علی الباطل و رفضهم الحق النازل من اللّه،و لیس للباطل إلاّ البوار.

قوله تعالى: اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ الى آخر الآيه؛بيان أن ما أوتى الفريقان من العاقبه المحموده و الجنه الخالده و من اللعنه و سوء الدار هو من الرزق الذى يرزقه اللّه من يشاء و كيف يشاء من غير حجر عليه أو إلزام.

و قد بين أن فعله تعالى يستمر على وفق ما جعله من نظام الحق و الباطل فالاعتقاد الحق و العمل به ينتهى الى الارتزاق بالجنه و السلام و الباطل من الاعتقاد و العمل به ينتهى الى اللعنه و سوء الدار و نكد العيش.

و قوله: وَ فَرِحُوا بِالْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ مَا الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا فِي الْآخِرَهِ إِلاّٰ مَتٰاعٌ يريد به-على ما يفيده السياق-أن الرزق هو رزق الاخرى لكنهم لميلهم الى ظاهر الحياه الدنيا و زينتها ركنوا إليها و فرحوا بها،و قد أخطئوا فإنها حياه غير مقصوده بنفسها و لا خالده فى بقائها بل مقصوده لغيرها الذى هو الحياه الآخره فهى بالنسبه الى الآخره متاع يتمتع به فى غيره و لغيره غير مطلوب لنفسه فالحياه الدنيا بالقياس الى الحياه الآخره إنما تكون من الحق إذا أخذت مقدمه لها يكتسب بها رزقها و أما إذا أخذت مطلوبه بالاستقلال فليست إلاّ من الباطل الذى يذهب جفاء و لا ينتفع به فى شىء،قال تعالى: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَهَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت۶۴/).

[سوره الرعد (۱۳): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَهٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اَللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ (۲۷) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اَللّٰهِ أَلاٰ بِذِكْرِ اَللّٰهِ تَطْمَئِنُّ اَلْقُلُوبُ (۲۸) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (۲۹) كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِي أُمَّهٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٰا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ اَلَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتٰابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ اَلْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ اَلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ اَلْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ اَلْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اَللّٰهُ لَهَدَى اَلنّٰاسَ جَمِيعاً وَ لاٰ يَزٰالُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَهٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُخْلِفُ اَلْمِيعٰادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ (۳۲) أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي اَلْأَرْضِ أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ اَلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذٰابٌ فِي اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ اَلْآخِرَهِ أَشَقُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ (۳۴) مَثَلُ اَلْجَنَّهِ اَلَّتِي وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ أُكُلُهٰا دٰائِمٌ وَ ظِلُّهٰا تِلْكَ عُقْبَى اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا وَ عُقْبَى اَلْكٰافِرِينَ اَلنّٰارُ (۳۵)

بیان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ عود الى قول الكفار «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و إنما ارادوا به أنه لو أنزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم آيه من ربه لاهتدوا به و استجابوا له و هم لا يعدون القرآن النازل اليه آيه.

و الدليل على إرادتهم هذا المعنى قوله بعده: «قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ» الخ؛و قوله بعد:

«وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ -الى قوله- بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» و قوله بعد: «وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» الى آخر الآيه.

فأجاب تعالى عن قولهم بقوله آمرا نبيه أن يلقيه اليهم: «قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ» فأفاد أن الأمر ليس الى الآيه حتى يهتدوا بنزولها و يضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال و الهدايه الى اللّه سبحانه يضل من يشاء و يهدى من يشاء.

و لما لم يؤمن أن يتوهموا منه أن الأمر يدور مدار مشيه جزافيه غير منتظمه أشار الى دفعه بتبديل قولنا:و يهدى اليه من يشاء من قوله: «وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنٰابَ» فبين أن الأمر الى مشيه اللّه تعالى جاريه على سنه دائمه و نظام متقن مستمر و ذلك أنه تعالى يشاء هدايه من أناب و رجع اليه و يضل من أعرض و لم ينب فمن تلبس بصفه الإنابه و الرجوع الى الحق و لم يتقيد بأغلال الأهواء هداه اللّه بهذه الدعوه الحقه و من كان دون ذلك ضل عن الطريق و إن كان مستقيما و لم تنفعه الآيات و إن كانت معجزه و ما تغن الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون.

و من هنا يظهر أن قوله: «إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ» الخ؛على تقدير:إن اللّه يضل بمشيته من لم ينب اليه و يهدى اليه بمشيته من أناب اليه.

و يظهر أيضا أن ضمير «إِلَيْهِ» فى «يَهْدِى إِلَيْهِ» راجع اليه تعالى و أن ما ذكره بعضهم أنه

ص: ۳۹۲

راجع الى القرآن.و آخرون أنه راجع الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم غير وجيه.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ أَلاٰ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الاطمئنان السكون و الاستقرار و الاطمئنان الى الشيء السكون اليه.

و ظاهر السياق أن صدر الآيه بيان لقوله فى ذيل الآيه السابقه: «مَنْ أَنٰابَ» فالإيمان و اطمئنان القلب بذكر اللّه هو الإنابه،و ذلك من العبد تهيؤ و استعداد يستعقب عطيه الهدايه الإلهيه كما أن الفسق و الزيغ فى باب الضلال تهيؤ و استعداد يستعقب الإضلال من اللّه كما قال:

وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ (البقره/۲۶)؛و قال: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ (الصف/۵).

و ليس الإيمان باللّه تعالى مثلا مجرد إدراك أنه حق فإن مجرد الإدراك ربما يجامع الاستكبار و الجحود كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (النمل/۱۴)مع أن الإيمان لا يجامع الجحود فليس الإيمان بشيء مجرد إدراك أنه حق مثلا بل مطاوعه و قبول خاصه من النفس بالنسبه الى ما أدركته يوجب تسليمها له و لما يقتضيه من الآثار و آيته مطاوعه سائر القوى و الجوارح و قبولها له كما طاوعته النفس و قبلته فترى المعتاد ببعض الأعمال المذمومه ربما يدرك وجه القبح أو المساءه فيه غير أنه لا يكف عنه لأن نفسه لا تؤمن به و لا تستسلم له و ربما طاوعته و سلمت له بعد ما أدركته و كفت عنه عند ذلك بلا مهل و هو الإيمان.

و هذا هو الذى يظهر من قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِى السَّمٰاءِ (الأنعام/۱۲۵)فالهدايه من اللّه سبحانه تستدعى من قلب العبد أو صدره و بالآخره من نفسه أمرا نسبته اليه نسبه القبول و المطاوعه الى الأمر المقبول المطاوع،و قد عبر عنه فى آيه الأنعام بشرح الصدر و توسعته،و فى الآيه المبحوث عنها بالإيمان و اطمئنان القلب و هو أن يرى الإنسان نفسه فى أمن من قبوله و مطاوعته و يسكن قلبه اليه و يستقر هو فى قلبه من غير أن يضطرب منه أو

ينقلع عنه.

و من ذلك يظهر أن قوله: «وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ» عطف تفسيرى على قوله: «آمَنُوا» فالإيمان باللّه يلازم اطمئنان القلب بذكر اللّه تعالى.

و لا ينافى ذلك ما فى قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (الأنفال/٢)فإن الوجل المذكور فيه حاله قلبيه متقدمه على الاطمئنان المذكور فى الآيه المبحوث عنها كما يرشد اليه قوله تعالى: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللّهِ ذلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ (الزمر/٢٣)و ذلك أن النعمه هى النازله من عنده سبحانه و أما النقمه أيا ما كانت فهى بالحقيقه امساك منه عن إفاضه النعمه و إنزال الرحمه و ليست فعلا ثبوتيا صادرا منه تعالى على ما يفيده قوله: ما يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/٢).

و إذا كان الخوف و الخشيه انما هو من شر متوقع و لا شر عنده سبحانه فحقيقه الخوف من اللّه هى خوف الإنسان من أعماله السيئه التى توجب إمساك الرحمه و انقطاع الخير المفاض من عنده،و النفس الإنسانيه إذا قرعت بذكر اللّه سبحانه التفتت أولا الى ما أحاطت به من سمات القصور و التقصير فأخذتها القشعريره فى الجلد و الوجل فى القلب ثم التفتت ثانيا الى ربه الذى هو غايه طلبه فطرته فسكنت اليه و اطمأنت بذكره.

و قال فى مجمع البيان:و قد وصف اللّه المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه الى ذكر اللّه،و وصفه فى موضع آخر بأنه إذا ذكر اللّه وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه و آلاءه التى لا تحصى و أياديه التى لا تجازى فيسكن اليه،و بالثانى أنه يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يوجل قلبه.انتهى،و هذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر فى الآيه بالقرآن الكريم و قد سماه اللّه تعالى ذكرا فى مواضع كثيره من كلامه كقوله: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ (الأنبياء/٥٠)و قوله:

إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (الحجر۹/)و غير ذلك.

لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظى و أعنى به مطلق انتقال الذهن و الخطور بالبال سواء كان بمشاهده آيه أو العثور على حجه أو استماع كلمه،و من الشاهد عليه قوله بعده: «أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فإنه كضرب القاعده يشمل كل ذكر سواء كان لفظيا أو غيره،و سواء كان قرآنا أو غيره.

و قوله: أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا اليه و يريحوا قلوبهم بذكره فإنه لا هم للإنسان فى حياته إلاّ الفوز بالسعاده و النعمه و لا خوف له إلاّ من أن تغتاله الشقوه و النقمه و اللّه سبحانه هو السبب الوحيد الذى بيده زمام الخير و اليه يرجع الأمر كله،و هو القاهر فوق عباده و الفعال لما يريد و هو ولى عباده المؤمنين به اللاجئين اليه فذكره للنفس الأسيره بيد الحوادث الطالبه لركن شديد يضمن له السعاده،المتحيره فى أمرها و هى لا تعلم أين تريد و لا أنى يراد بها؟كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه و تستريح منه نفسه،و الركون اليه و الاعتماد عليه و الاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق و هو يجد من نفسه نشاط الصحه و العافيه آنا بعد آن.

فكل قلب-على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم-يطمئن بذكر اللّه و يسكن به ما فيه من القلق و الاضطراب نعم إنما ذلك فى القلب الذى يستحق أن يسمى قلبا و هو القلب الباقى على بصيرته و رشده،و أما المنحرف عن أصله الذى لا يبصر و لا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينه و السكون قال تعالى: فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (الحج۴۶/)،و قال: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا (الأعراف۱۷۹/) و قال نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه۶۷/).

و فى لفظ الآيه ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعنى قوله: «بِذِكْرِ اللّٰهِ» عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشىء غير ذكر اللّه سبحانه،و ما قدمناه من الإيضاح ينور هذا

ص :۳۹۵

الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان و هو نفسه المدركه إلاّ نيل سعادته و الأمن من شقائه و هو فى ذلك متعلق بذيل الأسباب،و ما من سبب إلاّ و هو غالب فى جهه و مغلوب من اخرى إلاّ اللّه سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغنى ذو الرحمه فبذكره أى به سبحانه وحده تطمئن القلوب و لا يطمئن القلب الى شىء غيره إلاّ غفله عن حقيقه حاله و لو ذكر بها أخذته الرعده و القلق.

و مما قيل فى الآيه الكريمه أعنى قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ» الخ؛أنها استئناف،و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خبره قوله فى الآيه التاليه: «طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ» بدل من المبتدإ و قوله: «أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» اعتراض بين المبتدإ و خبره،و هو تكلف بعيد من السياق.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ طوبى على وزن فعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهى صفه لمحذوف و هو-على ما يستفاد من السياق-الحياه أو المعيشه و ذلك أن النعمه كائنه ما كانت إنما تغتبط و تهنأ إذا طابت للإنسان و لا تطيب إلاّ إذا اطمأن القلب اليه و سكن و لم يضطرب و لا يوجد ذلك إلاّ لمن آمن باللّه و عمل عملا صالحا فهو الذى يطمئن منه القلب و يطيب له العيش فإنه فى أمن من الشر و الخسران و سلام مما يستقبله و يدركه و قد أوى الى ركن لا ينهدم و استقر فى ولايه اللّه لا يوجه اليه ربه إلاّ ما فيه سعادته إن اعطى شيئا فهو خير له و إن منع فهو خير له.

و قد قال فى وصف طيب هذه الحياه: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (النحل/۹۷)و قال فى صفه من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر اللّه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ أَعْمىٰ (طه/۱۲۴)،و لعل وصف الحياه أو المعيشه فى الآيه التى نحن فيها بزياده الطيب تلميحا الى أنها نعمه لا تخلو من طيب على أى حال إلاّ أنها فيمن اطمأن قلبه

بذكر اللّه أكثر طيبا لخلوصها من شوائب المنغصات.

فقوله: طُوبىٰ لَهُمْ فى تقدير لهم حياه أو معيشه طوبى،فطوبى مبتدأ و «لَهُمْ» خبره و إنما قدم المبتدأ المنكر على الظرف لأن الكلام واقع موقع التهنئه و فى مثله يقدم ما به التهنئه استعجالا بذكر ما يسر السامع ذكره نظير قولهم فى البشاره:بشرى لك.

و بالجمله فى الآيه تهنئه الذين آمنوا و عملوا الصالحات-و هم الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر اللّه اطمئنانا مستمرا-بأطيب الحياه أو العيش و حسن المرجع،و بذلك يظهر اتصالها بما قبلها فإن طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٰا أُمَمٌ الى آخر الآيه؛ متاب مصدر ميمى للتوبه و هى الرجوع،و الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الى ما ذكره تعالى من سنته الجاريه من دعوه الامم الى دين التوحيد ثم إضلال من يشاء و هدايه من يشاء على وفق نظام الرجوع الى اللّه و الإيمان به و سكون القلب بذكره و عدم الرجوع اليه.

و المعنى:و أرسلناك فى امه قد خلت من قبلها امم إرسالا يماثل هذه السنه الجاريه و يجرى فى أمره على وفق هذا النظام لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك و تبلغهم ما يتضمنه هذا الكتاب و هم يكفرون،بالرحمن و إنما قيل:بالرحمن،دون أن يقال«بنا»على ما يقتضيه ظاهر السياق إيماء الى أنهم فى ردهم هذا الوحى الذى يتلوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم عليهم و هو القرآن و عدم اعتنائهم بأمره حيث يقولون مع نزوله «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» يكفرون برحمه إلهيه عامه تضمن لهم سعاده دنياهم و أخراهم لو أخذوه و عملوا به.

ثم أمر تعالى:أن يصرح لهم القول فى التوحيد فقال «قُلْ هُوَ رَبِّي لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتٰابِ» أى هو وحده ربى من غير شريك كما تقولون و لربوبيته لى وحده أتخذه القائم على جميع أمورى و بها،و أرجع اليه فى حوائجى و بذلك يظهر أن قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتٰابِ» من آثار الربوبيه المتفرعه عليها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنى هو وكيلى

و اليه أرجع.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبٰالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً المراد بتسيير الجبال قلعها من اصولها و إذهابها من مكان الى مكان و بتقطيع الأرض شقها و جعلها قطعه قطعه،و بتكليم الموتى إحياؤهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل اعلى حقيه الدار الآخره فإن هذا هو الذى كانوا يقترحونه.

فهذه امور عظيمه خارقه للعاده فرضت آثارا لقرآن فرضه اللّه سبحانه بقوله: «وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً» الخ؛و جزاء لو محذوف لدلاله الكلام عليه فإن الكلام معقب بقوله: «بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» و الآيات-كما عرفت-مسوقه لبيان أن أمر الهدايه ليس براجع الى الآيه التى يقترحونها بقوله:م «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» بل الأمر الى اللّه يضل من يشاء كما أضلهم و يهدى اليه من أناب.

و على هذا يجرى سياق الآيات كقوله تعالى بعد: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ ،و قوله: وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ الآيه؛و قوله: وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ الآيه؛الى غير ذلك،و على مثله جرى سياق الآيات السابقه.

فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا:ما كان لهم أن يهتدوا به إلاّ أن يشاء اللّه و المعنى و لو فرض أن قرآنا من شأنه أنه تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلاّ أن يشاء اللّه بل الأمر كله للّه ليس شىء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أنزلت آيه عظيمه هائله مدهشه أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر للّه جميعا و الهدايه راجعه الى مشيته.

قوله تعالى: أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّٰاسَ

ص :۳۹۸

جَمِيعاً تفريع على سابقه.

ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم و هى لغه هوازن و قيل لغه حى من النخع و أنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى:

أقول لهم بالشعب إذ يأسروننى

أ لم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

و قول رباح بن عدى:

أ لم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه

و إن كنت عن أرض العشيره نائيا

و محصل التفريع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئا حتى قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى،و أن الامر للّه جميعا فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن اللّه لم يشأ هدايه الذين كفروا و لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا الذين آمنوا و الذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا و لن يهتدوا.

و ذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف و هو القنوط غير أن قوله: «أَ فَلَمْ يَيْأَسِ» مضمن معنى العلم و المراد بيان لزوم علمهم بأن اللّه لم يشأ هدايتهم و لو شاء ذلك لهدى الناس جميعا و لزوم قنوطهم عن اهتدائهم و إيمانهم.

فتقدير الكلام بحسب الحقيقه:أ فلم يعلم الذين آمنوا أن اللّه لم يشأ هدايتهم و لو يشاء لهدى الناس جميعا أو لم ييأسوا من اهتدائهم و ايمانهم؟ثم ضمن اليأس معنى العلم و نسب اليه من متعلق العلم الجمله الشرطيه فقط أعنى قوله: «لَوْ يَشاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً» إيجازا و إيثارا للاختصار.

و ذكر بعضهم:أن قوله: «أَ فَلَمْ يَيْأَسِ» على ظاهر معناه من غير تضمين و قوله: «أَنْ لَوْ يَشاءُ اللّهُ» الخ؛متعلق بقوله: «آمَنُوا» بتقدير الباء و متعلق «يَيْأَسِ» محذوف و تقدير الكلام أ فلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا من إيمانهم و ذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر للّه جميعا و يؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعا و لو لم يشاء لم يهد فإذ لم

یهد و لم یؤمنوا فلیعلموا أنه لم یشأ و لیس فی مقدره سبب من الأسباب أن یهدیهم و یوفقهم للإیمان فلییأسوا من إیمانهم.

و هذه وجوه ثلاثه لعل أعد لها أوسطها و الآیه علی أی حال لا تخلو من إشاره الی أن المؤمنین کانوا یودون أن یؤمن الکفار و لعلهم لمودتهم ذلک لما سمعوا قول الکفار «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» طمعوا فی إیمانهم و رجوا منهم الاهتداء إن أنزل اللّه علیهم آیه أخری غیر القرآن فسألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یجیبهم علی ذلک فأیأسهم اللّه من إیمانهم فی هذه الآیات،و فی آیات أخری من کلامه مکیه و مدنیه کقوله فی سوره یس و هی مکیه: وَ سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (آیه ۱۰)،و قوله فی سوره البقره و هی مدنیه: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (آیه ۶).

قوله تعالی: وَ لاٰ یَزٰالُ الَّذِینَ کَفَرُوا تُصِیبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَهٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِیباً مِنْ دٰارِهِمْ حَتّٰی یَأْتِیَ وَعْدُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُخْلِفُ الْمِیعٰادَ سیاق الآیات یشهد أن المراد بقوله: «بِمٰا صَنَعُوا» کفرهم بالرحمن قبال الدعوه الحقه،و القارعه هی المصیبه تقرع الإنسان قرعا کأنها تؤذنه بأشد من نفسها و فی الآیه تهدید و وعید قطعی للذین کفروا بعذاب غیر مردود و ذکر علائم و أشراط له تقرعهم مره بعد مره حتی یأتیهم العذاب الموعود.

و المعنی:و لا یزال هؤلاء الذین کفروا بدعوتک الحقه تصیبهم بما صنعوا من الکفر بالرحمن مصیبه قارعه أو تحل تلک المصیبه القارعه قریبا من دارهم فلا یزالون کذلک حتی یأتی ما وعدهم اللّه من العذاب لأن اللّه لا یخلف میعاده و لا یبدل قوله.

و التأمل فی کون السوره مکیه علی ما یشهد به مضامین آیاتها ثم فی الحوادث الواقعه بعد البعثه و قبل الهجره و بعدها الی فتح مکه یعطی أن المراد بالذین کفروا هم کفار العرب من أهل مکه و غیرهم الذین ردوا أول الدعوه و بالغوا فی الجحود و العناد و الحوا علی الفتنه

و الفساد.

و المراد بالـذين تصـيبهم القـارعه من كـان فى خارج الحرم منهم تصـيبهم قوارع الحروب و شن الغارات،و بالـذين تحل القارعه قريبا من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث السوء قريبا من دارهم فتصـيبهم معرتها و تنالهم وحشتها و همها و سائر آثارها السيئه،و المراد بما وعدهم عذاب السيف الذى أخذهم فى غزوه بدر و غيرها.

و اعلم أن هـذا العـذاب الموعود للـذين كفروا فى هـذه الآيات غير العـذاب الموعود المتقـدم فى سوره يونس فى قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ -الى قوله ثانيا- وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (يونس۴۷/-۵۴) فإن الـذى فى سوره يونس وعيـد عام للامه،و الـذى فى هـذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا فى أول الدعوه النبـويه من قريش و غيرهم،و قـد تقـدم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (البقره۶/)فى الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» فى القرآن إذا أطلق إطلاقـا المعانـدون من مشـركى العرب فى أول الـدعوه كمـا أن المراد بالـذين آمنوا إذا اطلق كذلك السابقون الى الإيمان فى أول الدعوه.

قوله تعـالى: أَ فَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ القائم على شـىء هو المهيمن المتسـلط عليه و القائم بشـىء من الأـمر هو الـذى يـدبره نوعا من التـدبير و اللّه سـبحانه هو القائم على كل نفس بما كسـبت أما قيامه عليها فلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها،و أما قيامه بما كسبت فلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبه الحركه و السكون الى أعمال محفوظه عليهـا فى صـحائف الأعمـال ثم يحولها الى المثوبات و العقوبات فى الـدنيا و الآخره من قرب و بعـد و هـدى و ضـلال و نعمه و نقمه و جنه و نار.

و الآـيه متفرعه على مـا تقـدمها أى إذا كـان اللّه سـبحانه يهـدى من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب و يضل من يشاء فيجازيه بأشـد العقاب و له الأمر جميعا فهو قائم على كل نفس بما

كسبت و مهيمن مدبر لنظام الأعمال فهل يعدله غيره حتى يشاركه فى ألوهيته؟.

و من ذلك يظهر أن الخبر فى قوله: «أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ» الخ؛محذوف يدل عليه قوله: «وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكاءَ» و من سخيف القول ما نسب الى الضحاك أن المراد بقوله: «أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ» الملائكه لكونهم موكلين على الاعمال و المعنى أ فيكون الملائكه الموكلون على الأعمال بأمره شركاء له سبحانه؟و هو معنى بعيد من السياق غايته.

قوله تعالى: قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ لما ذكر سبحانه قوله: «وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكاءَ» عاد اليهم ببيان يبطل به قولهم ذلک مأخوذ من البيان السابق بوجه.

فأمر نبيه بأن يحاجهم بنوع من الحجاج عجيب فى بابه فقال «قُلْ سَمُّوهُمْ» أى صفوهم فإن صفات الأشياء هى التى تتعين بها شئونها و آثارها فلو كانت هذه الأصنام شركاء للّه شفعاء عنده وجب أن يكون لها من الصفات ما يسوى لها الطريق لهذا الشأن كما يقال فيه تعالى إنه حى عليم قدير خالق مالک مدبر فهو رب كل شىء لكن الأصنام إذا ذكرت فقيل:هبل أو اللات أو العزى لم يوجد لها من الصفات ما يظهر به أنها شريكه للّه شفيعه عنده.

ثم قال أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ و أم منقطعه أى بل أ تنبئونه بكذا و المعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له فى الحقيقه بما لا يعلم فلو كان له شريک فى الأرض لعلم به لأن الشريک فى التدبر يمتنع أن يخفى تأثيره فى التدبير على شريكه و اللّه سبحانه يدبر الأمر كله و لا يرى لغيره أثرا فى ذلک لا موافقا و لا مخالفا،و الدليل على أنه لا يرى لنفسه شريكا فى الأمر أنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت،و بعباره أخرى أن له الخلق و الأمر و هو على كل شىء شهيد بالبرهان الذى لا سبيل للشک اليه،و الآيه بالجمله كقوله فى موضع آخر: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ (يونس١٨/).

ثم قال أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أى بل أ تنبئونه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقه و هذا كقوله: إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ (النجم۲۳/).

و عن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من اللّه تسمى فيه الأصنام آلهه حقه و حاصل الآيه نفى الدليل العقلى و السمعى معا على الوهيتها و كونها شركاء للّه سبحانه و هو بعيد من اللفظ.

و وجه الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم فى عبادتهم الأصنام و جعلهم للّه شركاء مترددون بين محاذير ثلاثه إما أن يقولوا بشركتها من غير حجه إذ ليس لها من الاوصاف ما يعلم به أنها شركاء للّه،و إما أن يدعوا أن لها أوصافا كذلك هم يعلمونها و لا يعلم بها اللّه سبحانه،و إما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقه و هم يغرون اللّه بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قال الزمخشرى فى الكشاف:و هذا الاحتجاج و أساليبه العجيبه التى ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف و أنصف على نفسه انتهى كلامه.

قوله تعالى: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ إضراب عن الحجج المذكوره و لوازمها و المعنى دع هذه الحجج فإنهم لا يجعلون له شركاء لشىء من هذه الوجوه بل مكر زينه لهم الشيطان و صدهم بذلك عن سبيل اللّه تعالى و ذلك أنهم على علم بأنه لا حجه على شركتها و أن مجرد الدعوى لا ينفعهم لكنهم يريدون بترويج القول بالوهيتها و توجيه قلوب العامه إليها عرض الدنيا و زينتها،و دعوتک الى سبيل اللّه مانعه دون ذلک فهم فى تصلبهم فى عبادتها و دعوه الناس إليها و الحث على الأخذ بها يمكرون بک من وجه و بالناس من وجه آخر و قد زين لهم هذا المكر و هو السبب فى جعلهم إياها شركاء لا غير ذلک من حجه أو غيرها و صدوا بذلک عن السبيل.

فهم زین لهم المکر و صدوا به عن السبیل و الذی زین لهم و صدهم هو الشیطان بإغوائهم، و اضلوا و الذی اضلهم هو اللّه سبحانه بإمساک نعمه الهدی منهم و من یضلل اللّه فما له من هاد.

قوله تعالی: لَهُمْ عَذابٌ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ لَعَذابُ الْآخِرَهِ أَشَقُّ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ واقٍ أشق أفعل من المشقه و واق اسم فاعل من الوقایه بمعنی الحفظ.

و فی الآیه إیجاز القول فیما وعد اللّه الذین کفروا من العذاب فی الآیات السابقه،و فی قوله:

«وَ ما لَهُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ واقٍ» نفی الشفاعه و تأثیرها فی حقهم أصلا،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُکُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْکَ عُقْبَی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَی الْکافِرِینَ النّارُ المثل هو الوصف یمثل الشیء.

و فی قوله: «مَثَلُ الْجَنَّهِ» الخ؛بیان ما خص اللّه به المتقین من الوعد الجمیل مقابله لما أوعد به الذین کفروا و لیکون تمهیدا لما یختم به القول من الإشاره الی محصل سعی الفریقین فی مسیرهم الی ربهم و رجوعهم الیه،و قد قابل الذین کفروا بالمتقین إشاره الی أن الذین ینالون هذه العاقبه الحسنی هم الذین آمنوا و عملوا الصالحات دون المؤمنین من غیر عمل صالح فإنهم مؤمنون باللّه کافرون بآیاته (۱).

[سوره الرعد (۱۳): الآیات ۳۶ الی ۴۲]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ آتَیْناهُمُ اَلْکِتابَ یَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ مِنَ اَلْأَحْزابِ مَنْ یُنْکِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اَللّهَ وَ لا أُشْرِکَ بِهِ إِلَیْهِ أَدْعُوا وَ إِلَیْهِ مَآبِ (۳۶) وَ کَذلِکَ أَنْزَلْناهُ حُکْماً عَرَبِیًّا وَ لَئِنِ اِتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَکَ مِنَ اَلْعِلْمِ ما لَکَ مِنَ اَللّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا واقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّیَّهً وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّ بِإِذْنِ اَللّهِ لِکُلِّ أَجَلٍ کِتابٌ (۳۸) یَمْحُوا اَللّهُ ما یَشاءُ وَ یُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ اَلْکِتابِ (۳۹) وَ إِنْ ما نُرِیَنَّکَ بَعْضَ اَلَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِنَّما عَلَیْکَ اَلْبَلاغُ وَ عَلَیْنَا اَلْحِسابُ (۴۰) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّا نَأْتِی اَلْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اَللّهُ یَحْکُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ وَ هُوَ سَرِیعُ اَلْحِسابِ (۴۱) وَ قَدْ مَکَرَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ اَلْمَکْرُ جَمِیعاً یَعْلَمُ ما تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ وَ سَیَعْلَمُ اَلْکُفّارُ لِمَنْ عُقْبَی اَلدّارِ (۴۲)

۱- ۱) .الرعد ۲۷-۳۵:بحث روائی فی اطمئنان القلوب بذکر اللّه،شجره طوبی؛ان طوبی شجره اصلها فی دار علی علیه السّلام فی الجنه.

بیان:

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یَفْرَحُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ الی آخر الآیه؛الظاهر أن المراد بالذین أوتوا الکتاب الیهود و النصاری أو هم و المجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن و السوره مکیه و قد أثبت التاریخ أن الیهود ما کانوا یعاندون النبوه العربیه فی أوائل البعثه و قبلها ذاک العناد الذی ساقتهم الیه حوادث ما بعد الهجره و قد دخل جمع منهم فی الإسلام أوائل الهجره و شهدوا علی نبوه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کونه مبشرا به فی کتبهم کما قال تعالی: وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ (الأحقاف/۱۰).

ص: ۴۰۵

و أنه کان من النصاری یومئذ قوم علی الحق من غیر أن یعاندوا دعوه الإسلام کقوم من نصاری الحبشه علی ما نقل من قصه هجره الحبشه و جمع من غیرهم،و قد قال تعالی فی أمثالهم: اَلَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ یُؤْمِنُونَ (القصص۵۲/)و قال: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمَّهٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ (الأعراف۱۵۹/)و کذا کانت المجوس ینتظرون الفرج بظهور منج ینشر الحق و العدل و کانوا لا یعاندون الحق کما یعانده المشرکون.

فالظاهر أن یکونوا هم المعنیّون بالآیه و خاصه المحقون من النصاری و هم القائلون بکون المسیح بشرا رسولا کالنجاشی و أصحابه،و یؤیده ما فی ذیل الآیه من قوله: «قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَ لا أُشْرِکَ بِهِ إِلَیْهِ أَدْعُوا» فإنه أنسب أن یخاطب به النصاری.

و قوله: وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ یُنْکِرُ بَعْضَهُ اللام للعهد أی و من أحزاب أهل الکتاب من ینکر بعض ما أنزل الیک و هو ما دل منه علی التوحید و نفی التثلیث و سائر ما یخالف ما عند أهل الکتاب من المعارف و الأحکام المحرفه.

و قوله: قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَ لا أُشْرِکَ بِهِ دلیل علی أن المراد من البعض الذی ینکرونه ما یرجع الی التوحید فی العباده أو الطاعه و قد أمره اللّه أن یخاطبهم بالموافقه علیه بقوله: قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ (آل عمران۶۴/).

ثم تمم الکلام بقوله: إِلَیْهِ أَدْعُوا وَ إِلَیْهِ مَآبِ أی مرجعی فکان أول الکلام مفصحا عن بغیته فی نفسه و لغیره،و آخره عن سیرته أی أمرت لأعبد اللّه وحده فی عملی و دعوتی، و علی ذلک أسیر بین الناس فلا أدعو إلاّ الیه و لا أرجع فی أمر من اموری إلاّ الیه فذیل الآیه فی معنی قوله: قُلْ هذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّهِ عَلی بَصِیرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی وَ سُبْحانَ اللّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ (یوسف۱۰۸/).

و یمکن أن یکون المراد بقوله: «وَ إِلَیْهِ مَآبِ» المعاد و یفید حینئذ فائده التعلیل أی الیه أدعو

وحده لأن مآبی الیه وحده.

قوله تعالی: وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ وٰاقٍ الإشاره بقوله: «كَذٰلِكَ» الی الکتاب المذکور فی الآیه السابقه و هو جنس الکتاب النازل علی الأنبیاء الماضین کالتوراه و الإنجیل.

و المراد بالحکم هو القضاء و العزیمه فإن ذلک هو شأن الکتاب النازل من السماء المشتمل علی الشریعه کما قال: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره۲۱۲/)فالکتاب حکم إلهی بوجه و حاکم بین الناس بوجه فهذا هو المراد بالحکم دون الحکمه کما قیل.

و قوله: عَرَبِيًّا صفه لحکم و اشاره الی کون الکتاب بلسان عربی و هو لسانه صلّی اللّه علیه و آله و سلم سنه اللّه التی قد خلت فی عباده،قال تعالی: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ (إبراهیم۴/)و هذا-کما لا یخفی-من الشاهد علی أن المراد بالمذکورین فی الآیه السابقه الیهود و النصاری،و أن هذه الآیات متعرضه لشأنهم کما کانت الآیات السابقه علیها متعرضه لشأن المشرکین.

و علی هذا فالمراد بقوله: «وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ» الخ؛النهی عن اتباع أهواء أهل الکتاب،و قد ذکر فی القرآن من ذلک شیء کثیر،و عمده ذلک أنهم کانوا یقترحون علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم آیه غیر القرآن کما کان المشرکون یقترحونها،و کانوا یطمعون أن یتبعهم فیما عندهم من الأحکام لإحالتهم النسخ فی الأحکام،و هذان الأمران و لا سیما أولهما عمده ما تتعرض له هذه الآیات.

و المعنی:و کما أنزلنا علی الذین أوتوا الکتاب کتابهم أنزلنا هذا القرآن علیک بلسانک مشتملا علی حکم أو حاکما بین الناس و لئن اتبعت أهواء أهل الکتاب فتمنیت أن ینزل علیک

آیه غیر القرآن کما یقترحون أو داهنتهم و ملت الی اتباع بعض ما عندهم من الأحکام المنسوخه أو المحرفه أخذناک بالعقوبه و لیس لک ولی یلی أمرک من دون اللّه و لا واق یقیک منه فالخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و هو المراد به دون الامه کما ذکره بعضهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّیَّهً وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ لِکُلِّ أَجَلٍ کِتابٌ لما نهی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عن اتباع أهوائهم فیما اقترحوا علیه من إنزال آیه غیر القرآن ذکّره بحقیقه الحال التی تؤیسه من الطمع فی ذلک و یعزم علیه أن یتوکل علی اللّه و یرجع الیه الامور.

و هو أن سنه اللّه الجاریه فی الرسل أن یکونوا بشرا جارین علی السنه المألوفه بین الناس من غیر أن یتعدوها فیملکوا شیئا مما یختص بالغیب کأن یکونوا ذا قوه غیبیه فعاله لما تشاء قدیره علی کل ما أرادت أو أرید منها حتی تأتی بکل آیه شاءت إلاّ أن یأذن اللّه له فلیس للرسول و هو بشر کسائرهم من الأمر شیء بل للّه الأمر جمیعا.

فهو الذی ینزل الآیه إن شاء غیر أنه سبحانه إنما من الآیات إذا اقتضته الحکمه الإلهیه و لیست الأوقات مشترکه متساویه فی الحکم و المصالح و إلاّ لبطلت الحکمه و اختل نظام الخلیقه بل لکل وقت حکمه تناسبه و حکم یناسبه فلکل وقت آیه تخصه.

و هذا هو الذی تشیر الیه الآیه فقوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ رُسُلاً وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّیَّهً» إشاره الی السنه الجاریه فی الرسل من البشر العادیه،و قوله: «وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ» إشاره الی حرمانهم من القدره الغیبیه المستقله بکل ما أرادت إلاّ أن یمدهم الإذن الإلهی.

و قوله: لِکُلِّ أَجَلٍ أی وقت محدود «کِتابٌ» أی حکم مقضی مکتوب یخصه إشاره الی ما یلوّح الیه استثناء الإذن و سنه اللّه الجاریه فیه،و التقدیر فاللّه سبحانه هو الذی ینزل ما شاء و یأذن فیما شاء لکنه لا ینزل و لا یأذن فی کل آیه فی کل وقت فإن لکل وقت کتابا کتبه لا

يجرى فيه إلاّ ما فيه.

و مما تقدم يظهر ان ما ذكره بعضهم ان قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» من باب القلب و أصله:

لكل كتاب أجل أى إن لكل كتاب منزل من عند اللّه وقتا مخصوصا ينزل فيه و يعمل عليه فللتوراه وقت و للإنجيل وقت و للقرآن وقت.وجه لا يعبأ به.

قوله تعالى: يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ محو الشىء هو إذهاب رسمه و أثره يقال:محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط و الرسوم قال تعالى:

وَ يَمْحُ اللّٰهُ الْبٰاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (الشورى/٢۴)أى يذهب بآثار الباطل كما قال:

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً و قال: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً (أسرى/١٢)أى أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال:نسخت الشمس الظل أى ذهبت بأثره و رسمه.

و قد قوبل المحو فى الآيه بالإثبات و هو إقرار الشىء فى مستقره بحيث لا يتحرك و لا يضطرب يقال:أثبت الوتد فى الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك و لا يخرج من مركزه فالمحو هو إزاله الشىء بعد ثبوته برسمه و يكثر استعماله فى الكتاب.

و وقوع قوله: «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» بعد قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» و اتصاله به من جانب و بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» من جانب ظاهر فى أن المراد محو الكتب و إثباتها فى الأوقات و الآجال فالكتاب الذى أثبته اللّه فى الأجل الأول إن شاء محاه فى الأجل الثانى و أثبت كتابا آخر فلا يزال يمحى كتاب و يثبت كتاب آخر.

و إذا اعتبرنا ما فى الكتاب من آيه و كل شىء آيه صح أن يقال لا يزال يمحو آيه و يثبت آيه كما يشير اليه قوله: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهٰا أَوْ مِثْلِهٰا (البقره/١٠۶)، و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ الآيه؛(النحل/١٠١).

فقوله: يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ على ما فيه من الإطلاق يفيد فائده التعليل

لقوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ» و المعنى أن لكل وقت كتابا يخصه فيختلف فاختلاف الكتب باختلاف الأوقات و الآجال إنما ظهر من ناحيه اختلاف التصرف الإلهى بمشيته لا من جهه اختلافها فى أنفسها و من ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب فى نفسه لا يتغير عن وجهه بل اللّه سبحانه هو الذى يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب و محو كتاب و إثبات آخر.

و قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ أى أصله فإن الام هى الأصل الذى ينشأ منه الشىء و يرجع اليه،و هو دفع للدخل و إبانه الحقيقه الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو و الإثبات أى تغير الحكم المكتوب و القول المقضى به حينا بعد حين ربما أوهم أن الأمور و القضايا ليس لها عند اللّه سبحانه صوره ثابته و إنما يتبع حكمه العلل و العوامل الموجبه له من خارج كأحكامنا و قضايانا معاشر ذوى الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافى لا تعين له فى نفسه و لا مؤثر فى تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطه أن الذى له ملك -بكسر اللام-مطلق و سلطنه مطلقه له أن يريد ما يشاء و يفعل ما يريد على حريه مطلقه من رعايه أى قيد و شرط و سلوك أى نظام أولا نظام فى عمله فلا صوره ثابته لشىء من أفعاله و قضاياه عنده،و قد قال تعالى: مٰا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ (ق۲۹/)،و قال: وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (الرعد۸/)الى غير ذلك من الآيات.

فدفع هذا الدخل بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» أى أصل جنس الكتاب و الأمر الثابت الذى يرجع اليه هذه الكتب التى تمحى و تثبت بحسب الأوقات و الآجال و لو كان هو نفسه تقبل المحو و الإثبات لكان مثلها لا أصلا لها و لو لم يكن من أصله كان المحو و الإثبات فى أفعاله تعالى إما تابعا لامور خارجه تستوجب ذلك فكان تعالى مقهورا مغلوبا للعوامل و الأسباب الخارجيه مثلنا و اللّه يحكم لا معقب لحكمه.

و إما غير تابع لشىء أصلا و هو الجزاف الذى يختل به نظام الخلقه و التدبير العام الواحد يربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته،قال تعالى: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ

وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ (الدخان/۳۹).

فالملخص من مضمون الآيه أن للّه سبحانه فى كل وقت و أجل كتابا أى حكما و قضاء و أنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب و الأحكام و الأقضيه و يثبت ما يشاء أى يغير القضاء الثابت فى وقت فيضع فى الوقت الثانى مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبه الى كل وقت قضاء لا يتغير و لا يقبل المحو و الإثبات و هو الأصل الذى يرجع اليه الأقضيه الأخر و تنشأ منه فيمحو و يثبت على حسب ما يقتضيه هو.

و يتبين بالآيه أولا:أن حكم المحو و الاثبات عام لجميع الحوادث التى تداخله الآجال و الأوقات و هو جميع ما فى السماوات و الأرض و ما بينهما،قال تعالى مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى (الأحقاف/۳).

و ذلک لإطلاق قوله: «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» و اختصاص المورد بآيات النبوه لا يوجب تخصيص الآيه لأن المورد لا يخصص.

قوله تعالى: وَ إِنْ مٰا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِنَّمٰا عَلَيْکَ الْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسٰابُ «إما»هو إن الشرطيه و ما الزائده للتأكيد و الدليل عليه دخول نون التأكيد فى الفعل بعده.

و فى الآيه إيضاح لما للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من الوظيفه و هو الاشتغال بأمر الإنذار و التبليغ فحسب فلا ينبغى له أن يتبع أهواءهم فى نزول آيه عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغى له أن ينتظر نتيجه بلاغه أو حلول ما أوعدهم اللّه من العذاب بهم.

و فى الآيه دلاله على أن الحساب الإلهى يجرى فى الدنيا كما يجرى فى الآخره.

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَأْتِی الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا الخ؛كلام مسوق للعبره بعد ما قدم اليهم الوعيد بالهلاک،و منه يعلم أن إتيان الأرض و نقصها من أطرافها كنايه عن نقص أهلها بالإماته و الإهلاک فالآيه نظيره قوله: بَلْ مَتَّعْنٰا هٰؤُلاٰءِ

وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى طٰالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلاٰ يَرَوْنَ أَنّٰا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا أَ فَهُمُ الْغٰالِبُونَ (الأنبياء۴۴/).

و قول بعضهم إن المراد به أو لم ير أهل مكه أنا نأتى أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحده بعد واحده للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم و ننتقم منهم يدفعه أن السوره مكيه و تلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجره،على أن الآيات بوعيدها ناظره الى هلاكهم بغزوه بدر و غيرها لا الى فتح مكه.

و قوله: وَ اللّٰهُ يَحْكُمُ لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ يريد به أن الغلبه للّه سبحانه فإنه يحكم و ليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع و الرد و هو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهله حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «وَ اللّٰهُ يَحْكُمُ» الخ؛فى معنى قوله فى ذيل آيه سوره الأنبياء المتقدمه: «أَ فَهُمُ الْغٰالِبُونَ» .

قوله تعالى: وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً الى آخر الآيه؛ أى و قد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم و لم يقدروا على صدنا من أن نأتى الأرض فننقصها من أطرافها فاللّه سبحانه يملك المكر كله و يبطله و يرده الى أهله فليعتبروا.

و قوله: يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ فى مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به و أما إذا علم به فعنده بطلانه.

و قوله: وَ سَيَعْلَمُ الْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى الدّٰارِ قطع للحجاج بدعوى أن مسأله انتهاء الامور الى عواقبها من الامور الضروريه العينيه لا تتخلف عن الوقوع و سيشهدونها شهود عيان فلا حاجه الى الإطاله و الإطناب فى إعلامهم ذلك فسيعلمون (1).

۱- ۱) .الرعد ۳۶-۴۲:بحث روائى حول الآيه «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ» ؛أم الكتاب؛علم اللّه.

[سوره الرعد (١٣): آيه ۴٣]

اشاره

وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلْكِتٰابِ (۴٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً الخ؛بناء الكلام فى السوره على إنكارهم حقيه الكتاب و عدم عدهم إياه آيه إلهيه للرساله و لذا كانوا يقترحون آيه غيره كما حكاه اللّه تعالى فى خلال الآيات مره بعد مره و أجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يئسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرساله لعدم إذعانهم بما أنزل اللّه من آيه و عدم إجابتهم فيما اقترحوه من آيه فكانوا يقولون: «لَسْتَ مُرْسَلاً» .

فلقّن اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الحجه عليهم لرسالته بقوله: «قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» و هو حجه قاطعه و ليس بكلام خطابى و لا إحاله الى ما لا طريق الى حصول العلم به.

فقوله: قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ استشهاد باللّه سبحانه و هو ولى أمر الإرسال و إنما هى شهاده تأديه لا شهاده تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من آيات القرآن و كونه آيه معجزه من اللّه ضرورى،و كونه قولا و كلاما له سبحانه ضرورى و اشتماله على تصديق الرساله بدلاله المطابقه المعتمده على علم ضرورى أيضا ضرورى،و لا نعنى بشهاده التأديه إلاّ ذلك.

و من فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتى من الأدله و الحجج ما فيه غنى عن شهاده شاهد آخر ثم قال:و تسميه ذلك شهاده مع أنه فعل و هى قول من المجاز حيث إنه يغنى غناها بل هو أقوى منها.انتهى.فقد قصد المطلوب من غير طريقه.

و ذلک أن الأدله و الحجج الداله علی حقیه رسالته صلّی اللّه علیه و آله و سلم إما القرآن و هو الآیه المعجزه الخالده،و إما غیره من الخوارق و المعجزات و آیات السوره-کما تری-لا تجیب الکفار علی ما اقترحوه من هذا القسم الثانی و لا معنی حینئذ للاستشهاد بما لم یجابوا علیه،و أما القرآن فمن البین أن الاستناد الیه من جهه أنه معجزه تصدّق الرساله بدلالتها علیها أی کلام له تعالی یشهد بالرساله،و إذا کان کذلک فما معنی العدول عن کونه کلاما له تعالی یدل علی حقیه الرساله أی شهاده لفظیه منه تعالی علی ذلک بحقیقه معنی الشهاده الی کونه دلیلا فعلیا منه علیها سمی مجازا بالشهاده؟.

علی أن کون فعله تعالی أقوی دلاله علی ذلک من قوله ممنوع.

فقد تحصل أن معنی قوله: «اللّهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ» أن ما وقع فی القرآن من تصدیق الرساله شهاده إلهیه بذلک.

و أما جعل الشهاده شهاده تحمل ففیه إفساد المعنی من أصله و أی معنی لإرجاع أمر متنازع فیه الی علم اللّه و اتخاذ ذلک حجه علی الخصم و لا سبیل له الی ما فی علم اللّه فی أمره؟أ هو کما یقول أو فریه یفتریها علی اللّه؟.

و قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ أی و کفی بمن عنده علم الکتاب شهیدا بینی و بینکم،و قد ذکر بعضهم أن المراد بالکتاب اللوح المحفوظ و یتعین علی هذا أن یکون المراد بالموصول هو اللّه سبحانه فکأنه قیل:کفی باللّه الذی عنده علم الکتاب شهیدا«الخ».

و فیه أولا أنه خلاف ظاهر العطف،و ثانیا أنه من عطف الذات مع صفته الی نفس الذات و هو قبیح غیر جائز فی الفصیح و لذلک تری الزمخشری لما نقل فی الکشاف هذا القول عن الحسن بقوله:و عن الحسن:«لا و اللّه ما یعنی إلاّ اللّه»قال بعده:و المعنی کفی بالذی یستحق العباده و بالذی لا یعلم علم ما فی اللوح إلاّ هو شهیدا بینی و بینکم.انتهی.فاحتال الی تصحیحه بتبدیل لفظه الجلال«اللّه»من«الذی یستحق العباده»و تبدیل«من»من«الذی»

ليعود المعطوف و المعطوف عليه وصفين فيكون فى معنى عطف أحد وصفى الذات على الآخر و إناطه الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا- يوجب استقامه ذلك فى اللفظ الأول و إلاّ لبطلت أحكام الألفاظ.

على أن التأمل فيما تقدم فى معنى هذه الشهاده و أن المراد به تصديق القرآن لرساله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم يعطى أن وضع لفظه الجلاله فى هذا الموضع لا للتلميح الى معناه الوصفى بل لإسناده الشهاده الى الذات المقدسه المستجمعه لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» .

و ذكر آخرون:أن المراد بالكتاب التوراه و الإنجيل أو خصوص التوراه و المعنى و كفى بعلماء الكتاب شهداء بينى و بينكم لأنهم يعلمون بما بشر اللّه به الأنبياء فىّ و يقرءون نعتى فى الكتاب.

و فيه أن الذى أخذ فى الآيه هو الشهاده دون مجرد العلم،و السوره مكيه و لم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل و لا شهد للرساله بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد الى شهاده لم يقم بها أحد بعد.

و قيل:المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و تميم الدارى و الجارود و سلمان الفارسى،و قيل هو عبد اللّه بن سلام،و رد بأن السوره مكيه و هؤلاء إنما أسلموا بالمدينه.

و للقائلين بأنه عبد اللّه بن سلام جهد بليغ فى الدفاع عنه فقال بعضهم:إن مكيه السوره لا تنافى كون بعض آياته مدنيه فلم لا يجوز أن تكون هذه الآيه مدنيه مع كون السوره مكيه.

و فيه أولا:أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه.

على أن الجمهور نصوا على أنها مكيه كما نقل عن البحر.

ص :۴۱۵

و ثانيا:أن ذلك إنما هو فى بعض الآيات الموضوعه فى خلال آيات السور النازله و أما فى مثل هذه الآيه التى هى ختام ناظره الى ما افتتحت به السوره فلا إذ لا معنى لإرجاء بعض الكلام المرتبط الأجزاء الى أمد غير محدود.

و قال بعضهم:إن كون الآيه مكيه لا ينافى أن يكون الكلام إخبارا عما سيشهد به.

و فيه أن ذلك يوجب رداءه الحجه و سقوطها فأى معنى لأن يحتج على قوم يقولون «لَسْتَ مُرْسَلاً» فيقال:صدّقوا به اليوم لأن بعض علماء أهل الكتاب سوف يشهدون به.

و قال بعضهم:إن هذه الشهاده شهاده تحمّل لا يستلزم إيمان الشهيد حين الشهاده فيجوز أن تكون الآيه مكيه و المراد بها عبد اللّه بن سلام أو غيره من علماء اليهود و النصارى و إن لم يؤمنوا حين نزول الآيه.

و فيه أن المعنى حينئذ يعود الى الاحتجاج بعلم علماء أهل الكتاب و إن لم يعترفوا به و لم يؤمنوا،و لو كان كذلك لكان المتعين أن يستشهد بعلم الذين كفروا أنفسهم فإن الحجه كانت قد تمت عليهم بكون القرآن كلام اللّه و لا يكون ذلك إلاّ عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم الى غيرهم و هم مشتركون فى الكفر بالرساله و نفيها.على أنه تقدم أن الشهاده فى الآيه ليست إلاّ شهاده أداء دون التحمل.

و قال بعضهم:-و هو ابن تيميه و قد أغرب-إن الآيه مدنيه بالاتفاق.و هو كما ترى.

و ذكر بعضهم:أن المراد بالكتاب القرآن الكريم،و المعنى أن من تحمّل هذا الكتاب و تحقق بعلمه و اختص به فإنه يشهد على أنه من عند اللّه و أنى مرسل به فيعود مختتم السوره الى مفتتحها من قوله: «تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ» و ينعطف آخرها على أولها و على ما فى أواسطها من قوله: «أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» .

و هذا فى الحقيقه انتصار و تأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به و استهانه الذين كفروا

حیث قالوا: «لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ» مره بعد مره و: «لَسْتَ مُرْسَلاً» فلم یعبأ بأمره و لم یبالوا به و أجاب اللّه عن قولهم مره بعد مره و لم یتعرض لأمر القرآن و لم یذکر أنه أعظم آیه للرساله و کان من الواجب ذلک فقوله: «قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتٰابِ» استیفاء لهذا الغرض الواجب الذی لا یتم البیان دونه و هذا من أحسن الشواهد علی ما تقدم أن الآیه کسائر السوره مکیه.

و بهذا یتأید ما ذکره جمع و وردت به الروایات من طرق أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن الآیه نزلت فی علی علیه السّلام فلو انطبق قوله: «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتٰابِ» علی أحد ممن آمن بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم یومئذ لکان هو فقد کان أعلم الامه بکتاب اللّه و تکاثرت الروایات الصحیحه علی ذلک و لو لم یرد فیه إلاّ قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی حدیث (۱)الثقلین المتواتر من طرق الفریقین:«لن یفترقا حتی یردا علیّ الحوض»لکان فیه کفایه.

۱- ۱) .و هو الحدیث المعروف الذی رواه الفریقان عن جم غفیر من الصحابه عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم«انی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی لن یفترقا حتی یردا علی الحوض ما ان تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی أبدا».الحدیث.

سوره إبراهيم مكيه و هی اثنتان و خمسون آيه

اشاره

[سوره إبراهيم (۱۴): الآيات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gtالر كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ اَلنّٰاسَ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ (۱) اَللّٰهِ اَلَّذِی لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكٰافِرِينَ مِنْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ (۲) اَلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ اَلْحَيٰاةَ اَلدُّنْيٰا عَلَى اَلْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً أُولٰئِكَ فِی ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ (۳) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّٰامِ اَللّٰهِ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ (۵)

ص: ۴۱۸

بیان:

السوره الکریمه تصف القرآن النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من حیث إنه آیه رسالته یخرج به الناس من الظلمات إلی النور و یهدیهم إلی صراط اللّه سبحانه الذی هو عزیز حمید أی غالب غیر مغلوب و غنی غیر محتاج إلی الناس و جمیل فی فعله منعم علیهم،و إذا کان المنعم غالبا غنیا حمید الأفعال کان علی المنعم علیهم أن یجیبوا دعوته و یلبوا نداءه حتی یسعدوا بما أفاض علیهم من النعم،و أن یخافوا سخطه و شدید عذابه فإنه قوی غیر محتاج إلی أحد،له أن یستغنی عنهم فیذهب بهم و یأتی بآخرین کما فعل بالذین کفروا بنعمته من الامم الماضین فإن آیات السماوات و الأرض ناطقه بأن النعمه کلها له و هو رب العزه و ولی الحمد لا رب سواه.

و بهذا تختتم السوره إذ یقول عزّ من قائل: هٰذا بَلاٰغٌ لِلنّٰاسِ وَ لِیُنْذَرُوا بِهِ وَ لِیَعْلَمُوا أَنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ لِیَذَّکَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ .

و لعل ما ذکرنا هو مراد من قال:إن السوره مفتتحه ببیان الغرض من الرساله و الکتاب یشیر إلی قوله تعالی: لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

و السوره مکیه علی ما یدل علیه سیاق آیاتها،و نسب إلی ابن عباس و الحسن و قتاده أنها مکیه إلا آیتین منها نزلتا فی قتلی بدر من المشرکین: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ الْقَرٰارُ و سیأتی أن الآیتین غیر صریحتین و لا ظاهرتین فی ذلک.

قوله تعالی: الر کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أی هذا کتاب أنزلناه إلیک،فهو خبر لمبتدإ محذوف علی ما یعطیه السیاق و قیل غیر ذلک.

و قوله: لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ ظاهر السیاق عموم الناس لا

ص: ۴۱۹

خصوص قومه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لا خصوص المؤمنين منهم إذ لا دليل على التقييد من جهه اللفظ، و كلامه تعالى صريح فى عموم الرساله كقوله: لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (الفرقان/١)و قوله:

لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (الأنعام/١٩)،و قوله: قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (الأعراف/١٥٨)،و الآيات الصريحه فى دعوه اليهود و عامّه أهل الكتاب، و عمله صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى دعوتهم و قبول إيمان من آمن منهم كعبد اللّه بن سلام و سلمان و بلال و صهيب و غيرهم تؤيد ذلك.

على أن آخر السوره هذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ الآيه؛و قد قوبل به أولها يؤيّد أن المراد بالناس أعمّ من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل.

و قد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم لكون أحد الأسباب الظاهريه لذلك و إليه ينتهى إيمان المؤمنين بدعوته بلا واسطه أو بواسطه،و لا ينافيه قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ (القصص/٥۶)،فإن الآيه إنما تنفى أصالته صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الهدايه و استقلاله فيها من غير أن تنفى عنه مطلق الهدايه حتى ما يكون على نحو الوساطه و بإذن من اللّه تعالى،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى/۵۲)،و لذلك قيد سبحانه قوله: «لِتُخْرِجَ» بقوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» .

و المراد بالظلمات و النور و الضلال و الهدى،و قد تكرر فى كلامه تعالى اعتبار الهدى نورا و عدّ الضلال ظلمه و جمع الظلمات دون النور،لأن الهدى من الحق و الحق واحد لا تغاير بين أجزائه و مصاديقه و لا كثره بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى و الأهواء مختلفه متغاير بعضها مع بعض لا وحده بينها و لا اتحاد لأبعاضها و مصاديقها قال تعالى: وَ أَنَّ هذا صِراطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام/١۵٣).

و اللام فى قوله: لِتُخْرِجَ النّاسَ الخ؛لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآيه،و ليس بلام المعاقبه إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين،و المعلوم خلافه.

و أما ما اعترض عليه بعضهم أن التربيه الإلهيه بإخراج الناس من الظلمات إلى النور و إيصالهم إلى السعاده و الكمال مشروطه بالتهيؤ و الاستعداد مع كون الفيض عاما فالمقدار الممكن من هذه العاقبه على تقدير عمومه هو هذا المقدار.

ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبه خلاف ظاهر الآيه،فإن الذى ذكره لا يتمّ إلا بتقييد «النّاسَ» بالمستعدّين،لكن الذى يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعى معناه أن للحكم غايه مقصوده و هى المصلحه التى يستعقبها،فإن اللّه سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم و يهديهم الى الإيمان و العمل الصالح ليسعدهم بذلك و يدخلهم الجنه،و يرسل الرسل و ينزّل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم،و يريد بما يوجّهه اليهم من الأمر و النهى أن يطهّرهم و يذهب عنهم رجز الشيطان،و الآيات الدالّه على ذلك كثيره لا موجب لإيرادها و كذا الروايات و لعلها تزهو الالوف.

قوله تعالى: إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، اَللّٰهِ الَّذِى لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ العزه تقابل الذله،قال الراغب:العزه حاله مانعه للإنسان من أن يغلب من قولهم:أرض عزاز أى صلبه،قال تعالى: أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً و تعزّز اللحم اشتدّ و عزّ كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه،انتهى موضع الحاجه.

فعزه العزيز هى كونه بحيث يصعب نيله و الوصول إليه و منه عزيز القوم و هو الذى يقهر و لا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه و يقهر،و منه العزيز لما قل وجوده لصعوبه نيله،و منه العزيز بمعنى الشاق لأن الذى يشقّ على الإنسان يصعب حصوله،قال تعالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ (التوبه/١٢٨)،و منه قوله: وَ عَزَّنِى فِى الْخِطٰابِ (ص/٢٣)،أى غلبنى على ما فسر به.

و اللّه سبحانه عزيز لأنه الذات الذى لا يقهره شىء من جهه و هو يقهر كل شىء من كل جهه و لذلك انحصرت العزه فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه و بإذنه قال تعالى:

أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (النساء١٣٩/)،و قال: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً (فاطر ١٠/).

و الحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد و هو الثناء على الجميل الاختيارى،و إذ كان كل جمال ينتهى إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (سوره الحمد٢/)و من غريب القول ما عن الإمام الرازى على ما سننقله:أن الحميد معناه العالم الغنى.

و قوله: إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله: «إِلَى النُّورِ» يبيّن به ما يوصل إليه الكتاب الذى أنزله على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بيانا بعد بيان فتبّه أولا بأنه نور يميز الحق من الباطل و الخير من الشر و السعاده من الشقاوه،و ثانيا بأنه طريق واضح يجمع سالكيه فى متنه و ينتهى بهم جميعا إلى اللّه العزيز الحميد.

و الوجه فى ذكر الصفتين الكريمتين:العزيز الحميد أنهما مبدءان لما سيورد فى السوره من الكلام الموجه إليهم فإن عمده الكلام فى السوره هى تذكيرهم أن اللّه أنعم عليهم بربوبيته كل نعمه عظيمه،ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه و لا يكفروه و وعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنه،و إن كفروا انتقم منهم و أوردهم مورد الشقاء و العذاب،فليخافوا ربهم و ليحذروا مخالفه أمره و كفران نعمته لأن له كل العزه لا نمنع عن حلول سخطه بهم و نزول عذابه عليهم شىء،حميد لا يذم فى إثابته المؤمنين،و لا فى تعذيب الكافرين،كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التى لا تحصى.

فجلّ الكلام فى هذه السوره فيما يقتضيه الصفات الثلاث:توحّده تعالى بالربوبيه و عزته و كونه حميدا فى أفعاله فليخف من عزته المطلقه،و ليشكر و ليوثق بما وعد و ليتذكر من آيات ربوبيته.

و أما قوله: اَللّٰهِ الَّذِى لَهُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ فبيان للعزيز

الحميد،و المراد بما فی السماوات و الأرض کل ما فی الکون فیشمل نفس السماوات و الأرض کما یشمل ما فیهما،فهو تعالی یملک کل شیء من کل جهه بحقیقه معنی الملک.

و فیه إشاره الی الحجه فی کونه تعالی عزیزا حمیدا،فإنه تعالی و إن کان هو الذی یحق الحق بکلماته و هو الذی ینجح کل حجه فی دلالتها،لکنه جاری عباده فی کلامه علی ما فطرهم علیه،و ذلک أنه تعالی لما ملک کل خلق و أمر بحقیقه معنی الملک فهو المالک لکل قهر و غلبه فلا قهر إلا منه و لا غلبه إلا له،فهو تعالی عزیز و له أن یتصرف فی ما یشاء بما یشاء و لا یکون تصرّفه إلا محمودا غیر مذموم لأن التصرف إنما یکون مذموما إذا کان المتصرف لا یملکه إما عقلا أو شرعا أو عرفا،و أی تصرف نسبه الیه تعالی عقل أو شرع أو عرف فإنه یملکه،فهو تعالی حمید محمود الأفعال.

قوله تعالی: وَ وَیْلٌ لِلْکافِرِینَ مِنْ عَذابٍ شَدِیدٍ بیان لما تقتضیه صفه العزه من القهر لمن یردّ دعوته و یکفر بنعمته.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَسْتَحِبُّونَ الْحَیاهَ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَهِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً الخ؛قال الراغب فی المفردات:و قوله عزّ و جل: «إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَی الْإِیمانِ» أی إن آثروه علیه،و حقیقه الاستحباب أن یتحرّی الإنسان فی الشیء أن یحبه،و اقتضی تعدیته بعلی معنی الإیثار،و علی هذا قوله تعالی: وَ أَمّا ثَمُودُ فَهَدَیْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمی عَلَی الْهُدی ،انتهی.

و معنی استحباب الدنیا علی الآخره اختیار الدنیا و ترک الآخره رأسا،و یقابله اختیار الآخره علی الدنیا بمعنی أخذ الآخره غایه للسعی و جعل الدنیا مقدّمه لها یتوسل بها إلیها، و أما اختیار الآخره و ترک الدنیا من أصلها فإنه مضاف الی عدم إمکانه بحقیقه معنی الکلمه یوجب اختلال أمر الآخره،و ینجرّ الی ترکها بالآخره،فالحیاه الدنیا حیاه منقطعه و الحیاه الآخره حیاه دائمه یتوسل الی سعادتها من طریق الدنیا بالاکتساب،فمن اختار الآخره و أثبتها

لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدّميّتها،و من اختار الدنيا و جعلها غايه لزمه نفى الآخره من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غايه و إذ لم يجعل غايه انتفت،فليس بين يدى الإنسان إلا خصلتان:

اختيار الآخره على الدنيا بجعل الآخره غايه و إثبات الدنيا معها للمقدّميه،و اختيار الدنيا على الآخره بجعل الدنيا غايه و نفى الآخره من أصلها.

و قوله: وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً مفاده أنهم يكفّون أنفسهم عن الاستنان بسنه اللّه و التدين بدينه أو يصدون و يصرفون الناس عن الإيمان باللّه و اليوم الآخر و التشرّع بشريعته عنادا منهم للحق،و يطلبون سنه اللّه عوجا و منحرفه بالاستنان بغيرها من سنه اجتماعيه أيا ما كانت ثم سجل عليهم الضلال بقوله سبحانه: «ذٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ» .

قوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إلى آخر الآيه.اللسان هو اللغه،قال تعالى: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء/۱۹۵).

و الضمير فى «قَوْمِهِ» عائد إلى «رَسُولٍ» و فى «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» و المحصّل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبين لقومه،و من الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم ليفيد أن اللّه سبحانه كان يوحى إلى جميع الرسل بالعربيّه لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» فيفيد أنّ اللّه أنزل التوراه لموسى مثلا بالعربيه ليبين للعرب كما فى الكشّاف.

و المراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم و يخالطهم و يعاشرهم و ليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسبا لأنه سبحانه يصرح بمهاجره لوط عليه السّلام من كلده و هم سريانيه اللسان إلى المؤتفكات،و هم عبرانيون و سمّاهم قومه و أرسله إليهم ثم أنجاه و أهله إلا امرأته و هى منهم و أهلكهم قال تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّى مُهاجِرٌ إِلىٰ رَبِّى (العنكبوت/۲۶)و فى مواضع من كلامه تعالى «قَوْمِ

لُوطٍ» .

و أما من أرسل إلى أزيد من أمّه و هم أولو العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواما من غير أهل لسانهم ما حكاه اللّه من دعوه إبراهيم عليه السّلام عرب الحجاز إلى الحجّ، و دعوه موسى عليه السّلام فرعون و قومه إلى الإيمان و عموم دعوه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قد اشتمل القرآن على دعوه اليهود و النصارى و غيرهم و قبول إيمان من آمن منهم بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و كذا ما يستفاد من عموم دعوه نوح عليه السّلام.و على هذا فالمراد بقوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ بِلِسٰانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» -و اللّه أعلم-أن اللّه لم يبين إرسال الرسل و الدعوه الدينيه على أساس معجز خارق للعاده الجاريه و لا فوّض إلى رسله من الأمر شيئا بل أرسلهم باللسان العادى الذى كانوا يكالمون قومهم و يحاورونهم به ليبيّنوا لهم مقاصد الوحى فليس لهم إلا البيان،و أما ما وراء ذلك من الهدايه و الإضلال فإلى اللّه سبحانه لا يشاركه فى ذلك رسول و لا غيره.

فتعود الآيه كالبيان و الإيضاح لقوله تعالى قبل: «كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» و أنّ معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل اللّه لا أزيد من ذلك فيكون فى معنى قوله: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل/۴۴).

و أما قوله: فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ فإشاره إلى ما أومأنا اليه أن أمر الهدى و الضلال إلى اللّه لا يتحقق شىء منهما إلا عن مشيّه منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أنّ هذه المشيّه منه ليست جزافيه غير منتظمه بل لها نظم ثابت فمن اتّبع الحق و لم يعانده هداه اللّه،و من جاحده و اتّبع هواه أضله اللّه فهو إضلال مجازاه غير الإضلال الابتدائى المذموم.

و قد قدم سبحانه الإضلال على الهدايه إذ قال: «فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ» لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبنى على عزته المطلقه فكان من الواجب أن

يبين أن ضلال من يضلّ عن السبيل كهدى من اهتدى إليها إنما هو بمشيه منه تعالى و لم يغلب فى إرادته و لم يزاحم فى ملكه حتى لا ـ يخيّل الى كل مغفل من الناس أن اللّه يصف نفسه بالعزه المطلقه و أنه غالب غير مغلوب و قاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته و يأمرهم و ينهاهم فيعصون و لا يطيعون و هل هذا الا غلبه منهم و قهر و هو مغلوب مقهور؟

فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته أن يرسل رسولا بلسان قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم،و أمّا ضلال من ضلّ من الناس كهدى من اهتدى منهم فبمشيّه من اللّه و إذنه،و حاشاه أن يقهر فى سلطانه أو يتصرّف فى ملكه أحد بغير إذنه.

فضلال من ضلّ منهم دليل عزته فضلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، و لذلك ذيّل الكلام بقوله: «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو سبحانه عزيز لا يغلبه و لا يضرّه ضلال من ضل منهم،و لا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء من شاء جزافا و عبثا بل عن نظام متقن دائمى.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ إلى آخر الآيه؛إذ كان الكلام فى السوره مبنيا على الإنذار و التذكير بعزه اللّه سبحانه ناسب أن يذكر إرسال موسى بالآيات لهدايه قومه فإن قصه رسالته من أوضح مصاديق ظهور العزه الإلهيه من بين الرسل،و قد قال تعالى فيه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (المؤمن۲۳/)،و قال حاكيا عنه عليه السّلام: وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَى اللّٰهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (الدخان۱۹/).

فوزان الآيه أعنى قوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» ،من قوله: «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» وزان التنظير بداعى التأييد و تطييب النفس كما فى قوله: إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء۱۶۳/).

و قوله: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيّٰامِ اللّٰهِ لاـ شـك أن المراد بهـا أيـام خـاصه،و نسـبه أيـام خاصه إلى اللّه سـبحانه مع كون جميع الأيام و كل الأشـياء له تعـالى ليست إلاـ لظهور أمره تعالى فيها ظهورا لا يبقى معه لغيره ظهور،فهى الأزمنه و الظروف التى ظهرت أو سـيظهر فيها أمره تعالى و آيات وحدانيته و سـلطنته كيوم الموت الذى يظهر فيه سلطان الآخره و تسقط فيه الأسباب الدنيويه عن التأثير،و يوم القيامه الذى لا يملك فيه نفس لنفس شـيئا و الأمر يومئذ للّه، و كالأيام التى أهلك اللّه فيها قوم نوح و عاد و ثمود فإن هذه و أمثالها أيام ظهر فيها الغلبه و القهر و الإلهيان و أن العزه للّه جميعا.

و يمكن أن يكون منهـا أيـام ظهرت فيها النعم الإلهيه ظهورا ليس فيه لغيره تعالى صـنع كيوم خروج نوح عليه السّـلام و أصـحابه من السـفينه بسـلام من اللّه و بركات و يوم إنجاء إبراهيم من النار و غيرهما فإنها أيضا كسوابقها لا نسبه لها فى الحقيقه إلى غيره تعـالى فهى أيـام اللّه منسوبه إليه كمـا ينسب الأيـام إلى الامـم و الأقوام و منه أيام العرب كيوم ذى قار و يوم فجار و يوم بغاث و غير ذلك.

و تخصـيص بعضـهم الأيام بنعماء اللّه سـبحانه بالنظر إلى ما سيأتى من ذكر نعمه تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعـد مـا كان الكلام جاريا فى السوره على ما تقتضـيه عزّته تعالى،و من مقتضـى صـفه عزته الإنعام على العباد و الأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

ثم تمّم الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ أى كثير الصبر عند الضرّاء و كثير الشكر على النعماء.

[سوره إبراهيم (١۴): الآيات ۶ الى ١٨]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اَللّٰهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاٰ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اَللّٰهُ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوٰاهِهِمْ وَ قٰالُوا إِنّٰا كَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اَللّٰهِ شَكٌّ فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قٰالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ (١٠) قٰالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ مٰا كٰانَ لَنٰا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰانٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَكَّلَ عَلَى اَللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنٰا فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ اَلظّٰالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ (١۴) وَ اِسْتَفْتَحُوا وَ خٰابَ كُلُّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ (١۵) مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقىٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِيدٍ (١۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لاٰ يَكٰادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ اَلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ مٰا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرٰائِهِ عَذٰابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ كَرَمٰادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ اَلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عٰاصِفٍ لاٰ يَقْدِرُونَ مِمّٰا كَسَبُوا عَلىٰ شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ اَلضَّلاٰلُ اَلْبَعِيدُ (١٨)

بیان:

قوله تعالی: وَ إِذْ قَالَ مُوسیٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إلی آخر الآیه؛السوم علی ما ذکره الراغب بمعنی الذهاب فی ابتغاء الشیء فهو لفظ لمعنی یترکب من الذهاب و الابتغاء فکأنه فی الآیه بمعنی إذاقه العذاب،و الاستحیاء استبقاء الحیاه.

و المعنی و اذکر أیها الرسول لزیاده التثبت فی أن اللّٰه عزیز حمید إذ قال موسی لقومه و هم بنو إسرائیل:اذکروا نعمه اللّٰه علیکم یوم أنجاکم من آل فرعون و خاصه من القبط و الحال أنهم مستمرون علی إذاقتکم سوء العذاب و یکثرون ذبح الذکور من أولادکم و علی استبقاء حیاه نسائکم للاسترقاق،و فی ذلکم بلاء و محنه من ربکم عظیم.

قوله تعالی: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

ص: ۴۲۹

عَذٰابِی لَشَدِیدٌ قال فی المجمع:التأذّن الإعلام یقال:آذن و تأذّن و مثله أوعد و توعّد.

انتهی.

و قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ الخ؛معطوف علی قوله: «وَ إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِقَوْمِهِ» و موقع الآیه التالیه «وَ قٰالَ مُوسیٰ» الخ؛من هذه الآیه کموقع قوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسیٰ» الخ؛من قوله: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ فافهم ذلک فهو الأنسب بسیاق کلامه تعالی.

و من لطیف کرمه تعالی اللائح من الآیه-کما ذکره بعضهم-اشتمالها علی التصریح بالوعد و التعریض فی الوعید حیث قال: «لَأَزِیدَنَّکُمْ» و قال: «إِنَّ عَذٰابِی لَشَدِیدٌ» و لم یقل:

لاعذبنکم و ذلک من دأب الکرام فی وعدهم و وعیدهم غالبا.

و الآیه مطلقه لا دلیل علی اختصاص ما فیها من الوعد و الوعید بالدنیا و لا بالآخره، و تأثیر الإیمان و الکفر و التقوی و الفسق فی شئون الحیاه الدنیا و الآخره معا معلوم من القرآن.

و قد استدلّ بالآیه علی وجوب شکر المنعم،و الحق أن الآیه لا تدلّ علی أزید من أن الکافر علی خطر من کفره فإن اللّه سبحانه لم یصرّح بفعلیه العذاب علی کل کفر إذ قال: «وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِی لَشَدِیدٌ» و لم یقل:لاعذبنکم.

قوله تعالی: وَ قٰالَ مُوسیٰ إِنْ تَکْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً فَإِنَّ اللّٰهَ لَغَنِیٌّ حَمِیدٌ لما أمر تعال بشکر نعمه بذکر ما تأذن به من الزیاده علی الشکر و العذاب علی الکفر علی ما تقتضیه العزه المطلقه ذکر فی تأییده من کلام موسی علیه السّلام ما یجری مجری التنظیر فقال: «وَ قٰالَ مُوسیٰ» و الکلام جار علی هذا النمط الی تمام عشر آیات.

و أما أن اللّه غنی و إن کفر من فی الأرض جمیعا فإنه غنی بالذات عن کل شیء فلا ینتفع بشکر و لا یتضرر بکفر،و إنما یعود النفع و الضرر الی الإنسان فیما أتی به،و أما أنه حمید فلأن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال و الحسن و فعله تعالی حسن جمیل

من كل جهه فهو جميل ظاهر الجمال يمتنع خفاؤه و إخفاؤه،فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد.

على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء۴۴/)،فهو تعالى محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم يحمدوه، و له كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره.

قوله تعالى: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ إلى آخر الآيه؛من كلام موسى عليه السّلام يذكّر قومه من أيام اللّه فى الامم الماضين ممن فنيت أشخاصهم و خمدت أنفاسهم و عفت آثارهم و انقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقه حالهم تفصيلا إلا اللّه كقوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم.

و قوله: جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاءوهم بحجج بيّنه تبين الحق و تجليه من غير أى إبهام و ريب فمنعوهم أن يتفوّهوا بالحق و سدّوا عليهم طريق التكلم.

فالضميران فى «أَيْدِيَهُمْ» و «أَفْواهِهِمْ» للرسل،و ردّ أيديهم فى أفواههم كنايه عن إجبارهم على أن يسكتوا و يكفّوا عن التكلم بالحق كأنهم أخذوا بأيدى رسلهم و ردّوها فى أفواههم إيذانا بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام،و يؤيده قوله بعد: «وَ قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» فإن دعوى الشك و الريب قبال الحجه البيّنه و الحق الصريح الذى لا يبقى مجالا للشك لا تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمه الحق فيجبر قائلها على السكوت و الصمت.

و أما قوله: وَ قالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ فهو نحو بيان لقوله: «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ» و الجمله الاولى أعنى قولهم: «إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ» إنكار للشريعه الإلهيه التى هى متن الرساله،و الجمله الثانيه أعنى قولهم:

«وَ إِنّٰا لَفِی شَکٍّ» الخ؛إنکار لما جاءوا به من الحجج و البیّنات و إظهار ریب فیما کانوا یدعون الیه و هو توحید الربوبیه.

قوله تعالی: قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یَدْعُوکُمْ لِیَغْفِرَ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرَکُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی أصل الفطر علی ما ذکره الراغب الشقّ طولا یقال:فطرت الشیء فطرا أی شققته طولا،و أفطر الشیء فطورا و انفطر انفطارا أی قبل الفطر،و استعمل فی القرآن فیما انتسب إلیه تعالی بمعنی الإیجاد بنوع من العنایه کأنه تعالی شق العدم شقا فأظهر من بطنه الأشیاء فهی ظاهره ما أمسک هو تعالی علی شقی العدم موجوده ما کان ممسکا لها و لو ترک الإمساک لانعدمت و زالت کما قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ یُمْسِکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَکَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/ ۴۱).

و علی هذا فتفسیر الفطر بالخلق الذی هو جمع الأجزاء و الأبعاض کما وقع فی بعض العبارات لیس علی ما ینبغی،و یؤید ذلک أن الفطر لو کان بمعنی الخلق لکان البرهان الذی أشیر إلیه بقوله: «فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» مسوقا لإثبات وجود الخالق فکان أجنبیا عن المقام لأن الوثنیه لا تنکر وجود خالق للعالم و أنه هو اللّٰه عزّ اسمه لا غیر،و إنما ینکرون توحید الربوبیه و العباده و هو أن یکون اللّٰه سبحانه هو الربّ المعبود لا غیر،و البرهان علی کونه تعالی خالقا للسماوات و الأرض لا ینفع فیه شیئا.

و کیف کان فقوله: قٰالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ الخ؛کلام قوبل به قولهم:

وَ قٰالُوا إِنّٰا کَفَرْنٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنّٰا لَفِی شَکٍّ مِمّٰا تَدْعُونَنٰا إِلَیْهِ مُرِیبٍ و قد عرفت أن قولهم هذا یتضمن إنکارین:إنکارهم للرساله و تشککهم فی توحید الربوبیّه فکلام الرسل المورد جوابا منهم عن قولهم بالمقابله متضمن لجزءین.

فقولهم: أَ فِی اللّٰهِ شَکٌّ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ برهان علی توحید

الربوبيه إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشاره إلى برهان لم يكن حاجه إلى ذكر الوصف «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ففى ذكره دلاله على أنه مزيل كل شك و ريب عنه تعالى.

و ذلك أنا نرى فى أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذى هو مؤلف من أشياء كثيره كل واحد منها محدود فى نفسه متميز من غيره وجودا،و ليس وجوده و لا-وجود شيء من أجزائه من نفسه و قائما بذاته و إلا-لم يتغير و لم ينعدم فوجوده و وجود أجزائه و كذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات و الآثار من غيرها و لغيرها و هذا الغير هو الذى نسمّيه«الله»عز اسمه.

فهو تعالى الذى يوجد العالم و كل جزء من أجزائه و يحده و يميزه من غيره فهو فى نفسه موجود غير محدود و إلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثره لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثره.

و هو بوحدته يدبّر كل أمر كما أنه يوجده لأنه هو المالك لوجودها و الكل أمر يرجع إلى وجودها،و لا يشاركه غيره فى شيء لأن شيئا من الموجودات غيره لا يملك لنفسه و لا لغيره فهو تعالى ربّ كل شيء لا ربّ غيره،كما أنه موجد كل شيء لا موجد غيره.

و هذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطه يناله الإنسان الذى يذعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقه و واقعيه من غير أن يكون وهما مجردا كما يبديه السفسطه و الشك، و يثبت به توحد الالوهيه و الربوبيه،و لذلك تمسك به فى هذا المقام الذى هو مقام خصام الوثنيه.

و قوله: وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى أى لا يعاجلكم بالعقوبه و الهلاك و يؤخركم الى الأجل الذى لا يؤخر و قد سمّاه لكم و لا يبدّل القول لديه،و قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل أجلان:أجل موقوف معلّق،و أجل مسمى لا يؤخر.

و من الدليل على هذا الذى ذكرناه قول نوح لقومه فى هذا المقام على ما حكاه اللّه سبحانه:

وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ إِذٰا جٰاءَ لاٰ يُؤَخَّرُ (نوح۴/).

قوله تعالى: قٰالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ قد تقدم فى مباحث النبوّه فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيه المعجزه حجه عامه على نبوه النبى لا حجه عاميه و خاصه الوحى و النبوه التى هى نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعاده الجاريه بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدّعيها الإثبات،و لا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عاده آخر يدلّ على صحه هذا الاتصال الغيبى لأن حكم الأمثال واحد،و إذا جاز أن تخترق العاده بشىء جاز أن تخترق بما يماثله.

و الرسل عليهم السّلام لما احتجوا على كفار أممهم فى النبوه العامه بقولهم: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى» عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدّعونه من النبوه لأنفسهم معتذرين فى ذلك بقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» ،ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل و هو الآيه المعجزه بقولهم: «فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ» .

فالمعنى سلّمنا أن من مقتضى العنايه الإلهيه أن يدعونا الى المغفره و الرحمه،لكنّا لا نسلّم لكم أن هذه الدعوه قائمه بكم كما تدّعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشىء،و لو كان مجرد البشريه يوجب ذلك لكنّا وجدناه من أنفسنا و نحن بشر،فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه فأتونا بسلطان مبين أى ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا و يضطرّنا الى الإذعان بنبوّتكم و هو آيه معجزه غيبه تخرق العاده كما أن ما تدّعونه خارق مثلها.

و بهذا البيان يظهر أولا أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى،و قولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» سند المنع،و قولهم: «فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ» تصريح بطلب الدليل.

و ثانيا أن قولهم: «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونٰا عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا» من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع و سنده و معناه أنكم لما كنتم بشرا مثلنا لا فضل لكم علينا بشىء فلا وجه لأن نقبل

ص :۴۳۴

منکم ما لا نجده من أنفسنا و لا تعهده من أمثالنا،و الذی نعهده من أمثال هذه الامور أنها إنما تظهر عن أغراض و مطامع دنیویه مادیه فلیس إلا أنکم تریدون أن تصرفونا عن سنّتنا القومیه و طریقتنا المثلی.

قوله تعالی: قٰالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَمُنُّ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ إلی آخر الآیه جواب الرسل عمّا أوردوه علی رسالتهم بأنکم بشر مثلنا فلستم ذوی هویه ملکوتیه حتی تتصلوا بالغیب فإن کنتم صادقین فی دعواکم هذه القدره الغیبیه فأتونا بسلطان مبین.

و محصل الجواب أن کوننا بشرا مثلکم مسلم لکنه یوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولکم إن کونکم بشرا مثلنا یوجب أن لا تختصموا بخصیصه لا نجدها من أنفسنا و هی الوحی الرساله فجوابه:أن المماثله فی البشریه لا توجب المماثله فی جمیع الکمالات الصوریه و المعنویه الإنسانیه کما أن اعتدال الخلقه و جمال الهیئه و کذا رزانه العقل و إصابه الرأی و الفهم و الذکاء کمالات صوریه و معنویه توجد فی بعض أفراد الإنسان دون بعض،فمن الجائز أن ینعم اللّه بالوحی و الرساله علی بعض عباده دون بعض فإنّ اللّه یمن علی من یشاء منهم.

و أما قولکم فَأْتُونٰا بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ فإنه مبنی علی کون النبی ذا شخصیه ملکوتیه و قدره غیبیه فعاله لما تشاء،و لیس کذلک فما النبی إلا بشر مثلکم یوحی إلیه بالرساله و لیس له من الأمر شیء،و ما کان له أن یأتی بآیه من عنده إلا أن یشاء اللّه ذلک و یأذن فیه.

فقوله: إِنْ نَحْنُ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ تسلیم من الرسل لقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا» لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه،و قوله: «وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَمُنُّ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ» إشاره إلی مقدمه بانضمامها یستنتج المطلوب،و قوله: «وَ مٰا کٰانَ لَنٰا أَنْ نَأْتِیَکُمْ بِسُلْطٰانٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ» جواب منهم استنتجوه من کونهم بشرا مثلهم.

و تذییل هذا الکلام بقولهم: وَ عَلَی اللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ للإشاره الی ما

یجری مجری حجه ثانیه علی إرجاع الأمر کله-و منه أمر الآیه المعجزه-الی اللّه و هی حجه خاصه بالمؤمنین،و ملخصها أن الإیمان باللّه سبحانه یقتضی منهم أن یذعنوا بأن الإتیان بالآیه إنما هو الی اللّه لأن الحول و القوه له خاصه لا یملک غیره من ذلک شیئا إلا بإذنه.

و ذلک لأنه هو اللّه عز شأنه،فهو الذی یبدأ منه و ینتهی الیه و یقوم به کل شیء فهو رب کل شیء المالک لتدبیر أمره لا یملک شیء أمرا إلا بإذنه فهو وکیل کل شیء القائم بما یرجع الیه من الأمر،فعلی المؤمن ان یتخذ ربه وکیلا فی جمیع ما یرجع الیه حتی فی أعماله التی تنسب الیه لما أن القوه کلها له سبحانه و علی الرسول ان یذعن بأن لیس له الإتیان بآیه معجزه إلا بإذن اللّه.

و الآیه ظاهره فی أن الرسل علیهم السّلام لم یدّعوا امتناع إتیانهم بالآیه المعجزه المسماه سلطانا مبینا،و إنما ادّعوا امتناع أن یستقلوا بذلک من غیر حاجه فیه إلی إذن اللّه سبحانه،و احتجوا علی ذلک أولا،و ثانیا.

قوله تعالی: وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَکَّلَ عَلَی اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلیٰ مٰا آذَیْتُمُونٰا وَ عَلَی اللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ ما استفهامیه و الاستفهام للإنکار، و قوله: «وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا» حال من الضمیر فی «لَنٰا» و سبل الأنبیاء و الرسل الشرائع التی کانوا یدعون إلیها،قال تعالی: قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّٰهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ (یوسف/۱۰۸) و المعنی ما الذی نملکه من العذر فی أن لا نتوکل علی اللّه و الحال أنه تعالی هدانا سبلنا و لم یکن لنا صنع فی هذه النعمه و السعاده التی من بها علینا فإذا کان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذی هو کل الخیر،فمن الواجب أن نتوکل علیه فی سائر الامور.

و هذا فی الحقیقه حجه ثانیه علی وجوب التوکل علیه و إلقاء الزمام إلیه سلک فیها من طریق الآثار الداله علی وجوب التوکل علیه کما أن الحجه السابقه سلک فیها من النظر فی نفس المؤثر،و تقریر الحجه أن هدایته تعالی إیانا إلی سبلنا دلیل علی وجوب التوکل علیه لأنه لا یخون عباده و لا یرید بهم إلا الخیر و مع وجود الدلیل علی التوکل لا معنی لوجود دلیل علی

عدم التوكل يكون عذرا لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى.

فقوله تعالى: وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يجرى مجرى اللمّ،و قوله: «وَ مٰا لَنٰا أَلاّٰ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّٰهِ وَ قَدْ هَدٰانٰا سُبُلَنٰا» مجرى الإنّ فتدبر فى هذا البيان العذب و الاحتجاج السهل الممتنع الذى قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه فى أوجز لفظ.

و قوله: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلىٰ مٰا آذَيْتُمُونٰا من تفريع الصبر على ما بيّن من وجوب التوكل عليه أى إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه و نحن مؤمنون به و قد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيذائكم لنا فى سبيل الدعوه إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد و يفعل ما يشاء من غير أن نأوى فى ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول و القوه.

و قوله: وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ كلام مبنى على الترقى أى كل من تلبّس بالتوكل فعليه أن يتوكل على اللّه سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقه التوكل لا يكون إلا مؤمنا فإنه مذعن أن الأمر كله للّه فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر و ينتهى عما ينهى و يرضى بما يرضى به و يسخط عما سخط عنه و هذا هو الإيمان.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنٰا هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا فى مناظرتهم و خسروا فى محاجتهم،و الخطاب فى قولهم: «لَنُخْرِجَنَّكُمْ» الخ؛للرسل و الذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل فى ملتهم و يبقى أتباعهم على دين التوحيد.على أن اللّه سبحانه صرّح بذلك فى قصص بعضهم كقوله فى شعيب: قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يٰا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنٰا (الأعراف/۸۸).

و قوله: أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنٰا «عاد»من الأفعال الناقصه بمعنى الصيروره و هى الحيلوله من حال إلى حال سواء كان عليها سابقا أولا و من الدليل عليه-كما قيل-قوله: «فِى مِلَّتِنٰا» و لو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعيّن أن يقال:إلى ملتنا.

و من لطيف الصناعه فى الآيه دخول لام القسم و نون التأكيد على طرفى الترديد «لنخرجنكم أو لتعودن»مع أن أو للاستدراك و تفيد معنى الاستثناء و لا معنى لأن يقال:إلا أن تعودوا و اللّه فى ملتنا،إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان فى معنى الإعاده و عاد قوله:

«لَتَعُودُنَّ» طرف الترديد و صح دخول اللام و النون و آل المعنى إلى قولنا:و اللّه لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم فى ملتنا.

قوله تعالى: فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّٰالِمِينَ، وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى آخر الآيه؛ضمير الجميع الأول و الثانى للرسل و الثالث للذين كفروا بدلاله السياق،و التعبير عنهم بالظالمين للإشاره إلى سببيه ظلمهم للإهلاك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعليّه كما أن قوله: «ذٰلِكَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامِي وَ خٰافَ وَعِيدِ» مشعر بعليّه الخوف للإسكان.

و قوله: مَقٰامِي مصدر ميمى أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبه قيمومته تعالى للأمر كله،و المراد من وعيده تعالى ما أوعد به المخالفين عن أمره من العذاب.

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه اللّه القائم بأمر عباده و المراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه اللّه الذى حذّر عباده من مخالفه أمره بلسان أنبيائه و رسله فيعود على أى حال إلى التقوى و ينطبق على قول موسى لقومه: اِسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف/١٢٨)كما أشار إليه فى الكشاف.

و المعنى فأوحى رب الرسل إليهم-و قد أخذت صفه الربوبيه الخاصه بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمه و العنايه-و أقسم لنهلكن هؤلاء المهددين لكم بظلمهم و لنسكننكم هذه الأرض التى هددوكم بالإخراج منها و نورثكم إياها لصفه مخافتكم منى و من وعيدى و كذلك نفعل فنورث الأرض عبادنا المتقين.

ص :۴۳۸

قوله تعالی: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خٰابَ کُلُّ جَبّٰارٍ عَنِیدٍ الاستفتاح طلب الفتح و النصر.و الخیبه انقطاع الرجاء و الخسران و الهلاک،و العنید هو اللجوج و منه المعاند.

و الضمیر فی وَ اسْتَفْتَحُوا للرسل أی طلبوا النصر من اللّه لما انقطعت بهم الأسباب من کل جانب و بلغ بهم ظلم الظالمین و تکذیب المعاندین کقول نوح فیما حکاه اللّه: أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (القمر/١٠)،و یمکن رجوع الضمیر إلی الرسل و الکفار جمیعا فإن الکفار أیضا کانوا یصرون علی أن یأتیهم الرسل بما یقضی بینهم کقولهم: مَتیٰ هٰذَا الْفَتْحُ (الم السجده/٢٨) مَتیٰ هٰذَا الْوَعْدُ (یس/۴٨)،و علی هذا التقدیر یکون المعنی:

و استفتح الرسل و الکفار جمیعا،و کانت الخیبه للجبارین و هو عذاب الاستئصال.

قوله تعالی: مِنْ وَرٰائِهِ جَهَنَّمُ وَ یُسْقیٰ مِنْ مٰاءٍ صَدِیدٍ إلی آخر الآیتین؛ الصدید القیح السائل من الجرح،و هو بیان للماء الذی یسقونه فی جهنم.و التجرع تناول المشروب جرعه جرعه علی الاستمرار،و الإساغه إجراء الشراب فی الحلق یقال:ساغ الشراب و أسغته أنا کذا فی المجمع و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمٰالُهُمْ کَرَمٰادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عٰاصِفٍ إلی آخر الآیه،یوم عاصف شدید الریح تمثیل لأعمال الکفار من حیث تترتب نتائجها علیها و بیان أنها حبط باطله لا أثر لها من جهه السعاده فهو کقوله تعالی:

وَ قَدِمْنٰا إِلیٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰاءً مَنْثُوراً (الفرقان/٢٣)فأعمالهم کذرات من الرماد اشتدت به الریح فی یوم شدید الریح فنثرته و لم یبق منه شیئا هذا مثلهم من جهه أعمالهم.

و من هنا یظهر أن لا حاجه إلی تقدیر شیء فی الکلام و إرجاعه إلی مثل قولنا:مثل أعمال الذین کفروا الخ؛و الظاهر أن الآیه لیست من تمام کلام موسی بل هی کالنتیجه المحصله من

كلامه المنقول (۱).

[سوره إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۹ الی ۳۴]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۹) وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ بِعَزِيزٍ (۲۰) وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً فَقٰالَ اَلضُّعَفٰاءُ لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا مِنْ عَذٰابِ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ قٰالُوا لَوْ هَدٰانَا اَللّٰهُ لَهَدَيْنٰاكُمْ سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قٰالَ اَلشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ اَلْأَمْرُ إِنَّ اَللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ اَلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مٰا كٰانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مٰا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ (۲۳) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِي اَلسَّمٰاءِ (۲۴) تُؤْتِي أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا وَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ اَلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ اَلْأَرْضِ مٰا لَهٰا مِنْ قَرٰارٍ (۲۶) يُثَبِّتُ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ اَلثّٰابِتِ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ فِي اَلْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اَللّٰهُ اَلظّٰالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ (۲۷) أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ اَلْبَوٰارِ (۲۸) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ اَلْقَرٰارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى اَلنّٰارِ (۳۰) قُلْ لِعِبٰادِيَ اَلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ يُنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ بَيْعٌ فِيهِ وَ لاٰ خِلاٰلٌ (۳۱) اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي اَلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلْأَنْهٰارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ دٰائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ (۳۳) وَ آتٰاكُمْ مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ كَفّٰارٌ (۳۴)

ص: ۴۴۰

۱- ۱) .ابراهیم ۶-۱۸:بحث روائی فی الشکر و زیاده النعمه.

بیان:

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ المراد بالرؤیه هو العلم القاطع،فإنه لصالح لأن یتعلّق بکیفیه خلق السماوات و الأرض دون الرؤیه البصریه.

ثم الفعل الحق و یقابله الباطل هو الذی یکون لفاعله فیه غایه مطلوبه یسلک إلیه بذاته فمن المشهود أن کل واحد من الأنواع من أول تکونه متوجه إلی غایه مؤجله لا بغیه له دون أن یصل إلیها ثم البعض منها غایه للبعض ینتفع به فی طریق کینونته و یصلح به فی حدوثه و بقائه کالعناصر الارضیه التی ینتفع بها النبات،و النبات الذی ینتفع به الحیوان و هکذا قال تعالی:

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما لاعِبِینَ ما خَلَقْناهُما إِلاّ بِالْحَقِّ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (الدخان/۳۹).و قال: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلاً ذلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا (ص/۲۷).

فلا تزال الخلقه تقع مرحله بعد مرحله و تنال غایه بعد غایه حتی تتوقف فی غایه لا غایه بعدها،و ذلک رجوعها إلی اللّه سبحانه،قال تعالی: وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی (النجم/ ۴۲).

و بالجمله الفعل إنما یکون فعلا حقا إذا کان له أمر یقصده الفاعل بفعله و غایه یسلک بالفعل إلیها،و أما إذا کان فعلا لا یقصد به إلا نفسه من غیر أن یکون هناک غرض مطلوب فهو الفعل الباطل،و إذا کان الفعل الباطل ذا نظام و ترتیب فهو الذی یسمی لعبا کما یلعب الصبیان بإتیان حرکات منظمه مرتبه لا غایه لهم وراءها و لا أن لهم همّا إلا إیجاد ما تخیلوه من صوره الفعل لشوق نفسانی منهم إلی ذلک.

ص: ۴۴۲

و فعله تعالی ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات و الارض یخلف عالما باقیا بعد زواله،و لو لم یکن کذلک کان باطلا لا أثر له و لا خلف یخلفه،و کان العالم المشهود بما فیه من النظام البدیع لعبا منه سبحانه اتخذه لحاجه منه إلیه کالتنفس من کرب و سأمه و التفرج من همّ أو التخلص من وحشه وحده و نحو ذلک و هو سبحانه العزیز الحمید لا تمسّه حاجه و لا یذله فقر و فاقه.

و بما مرّ یظهر أن الباء فی قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و أن قول بعضهم:أن الباء للسببیّه أو الآله و أن المعنی کیف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق لیس علی ما ینبغی.

قوله تعالی: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ، وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ بِعَزِیزٍ أی بشاق صعب،و الخطاب لعامه البشر بجعل النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مثالا لهم یمثلون به لان الخطاب متوجه إلیه فی قوله قبل و بعد: «أَ لَمْ تَرَ» «وَ مٰا ذٰلِکَ» .

قوله تعالی: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِیعاً الی آخر الآیه؛البروز هو الخروج الی البراز بفتح الباء و هو الفضاء،یقال:برز الیه إذا خرج الیه بحث لا یحجبه عنه حاجب،و منه المبارزه و البراز کخروج المقاتل من الصف الی کفؤه من العدو.

و التبع بفتحتین جمع تابع کخدم و خادم،و قیل:اسم جمع،و قیل:مصدر جیء به للمبالغه، و الإغناء الإفاده و ضمّن معنی الدفع و لذا عدّی بعن کما قیل،و الجزع و الصبر متقابلان، و المحیص اسم مکان من حاص یحیص حیصا و حیوصا إذا زال عن المکروه کما فی المجمع فالمحیص هو المکان الذی یزول الیه الإنسان عن المکروه و الشده.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِیعاً أی ظهروا له تعالی ظهورا لا یحجبهم عنه حاجب و هذا بالنسبه الی أنفسهم حیث کانوا یتوهمون فی الدنیا أن ربهم فی غیبه عنهم و هم غائبون عنه،فإذا کان یوم القیامه زال کل ستر متوهم و شاهدوا أن لا حاجب هناک یحجبهم عنه،و أما هو تعالی فلا ساتر یستر عنه فی دنیا و لا آخره،قال تعالی: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی

الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمٰاءِ (آل عمران/۵).

و یمکن أن تکون الجمله کنایه عن خلوصهم لحساب الأعمال و تعلق المشیئه الإلهیه بانقطاع الأعمال و إنجاز الجزاء الموعود کما قال: سَنَفْرُغُ لَکُمْ أَیُّهَ الثَّقَلاٰنِ (الرحمن/ ۳۱).

و قوله: فَقٰالَ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا -إلی قوله- مِنْ شَیْءٍ تخاصم بین الکفار یوم القیامه-علی ما یعطیه السیاق-فالضعفاء هم المقلدون المطیعون لأولیائهم من الکفار،و المستکبرون هم أولیاؤهم المتبوعون أولو الطّول و القوه المستنکفون عن الإیمان باللّه و آیاته.

و المعنی فقال الضعفاء المقلدون للذین استکبروا منهم إنا کنا فی الدنیا لکم تابعین مطیعین من غیر أن نسألکم حجه علی ما تأمروننا به فهل أنتم مفیدون لنا الیوم تدفعون عنا شیئا من عذاب اللّه الذی قضی علینا.

و علی هذا فلفظه «مِنْ» فی قوله: «مِنْ عَذٰابِ اللّٰهِ» للبیان،و فی قوله: «مِنْ شَیْءٍ» زائده للتأکید کما فی قولنا:ما جاءنی من أحد،و النفی و الاستفهام متقاربان حکما و لا دلیل علی امتناع تقدم البیان علی المبین و خاصه مع اتصالهما و عدم الفصل بینهما.

و قوله: قٰالُوا لَوْ هَدٰانَا اللّٰهُ لَهَدَیْنٰاکُمْ ظاهر السیاق أن المراد بالهدایه هنا الهدایه الی طریق التخلص من العذاب و یمکن أن یکون المراد بها الهدایه الی الدین الحق فی الدنیا، و المآل واحد لما بین الدنیا و الآخره من التطابق،و لا یبرز فی الاخری إلا ما کان کامنا فی الاولی،قال تعالی حکایه عن أهل الجنه: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی هَدٰانٰا لِهٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لاٰ أَنْ هَدٰانَا اللّٰهُ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ (الأعراف/۴۳)،مزجوا الهدایتین بعضا ببعض کما هو ظاهر.

و قوله: سَوٰاءٌ عَلَیْنٰا أَ جَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِیصٍ سواء و الاستواء

و التساوى واحد،و سواء خبر لمبتدإ محذوف و الجمله الاستفهاميه بيان لذلك،و قوله: «مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ» بيان آخر للتساوى،و المعنى الأمران متساويان علينا و بالنسبه الينا و هما الجزع و الصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ الْأَمْرُ الى آخر الآيه فى المجمع الإصراخ الإغاثه بإجابه الصارخ و يقال:استصرخنى فلان فأصرخته أى استغاث بى فأغثته.انتهى.

و هذا كلام جامع يلقيه الشيطان يوم القيامه الى الظالمين يبيّن فيه موقعه منهم و يتبّئ أهل الجمع منهم بوجه الحق فى الرابطه التى كانت بينه و بينهم فى الدنيا و قد وعد اللّه سبحانه أنه سينبئهم يوم القيامه بما كانوا فيه يختلفون،و أن الحق سيظهر يوم القيامه عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس،فالملائكه يتبرّءون من شركهم و الجن و القرناء من الشياطين يطردونهم،و الأصنام و الآلهه التى اتخذوها أربابا من دون اللّه يكفرون بشركهم،و كبراؤهم و أئمه الضلال لا يستجيبون لهم،و المجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم و جرمهم،كل ذلك واقعه فى آيات كثيره غير خفيّه على المتتبع المتدبر فيها.

و الشيطان و إن كان بمعنى الشرير و ربما أطلق فى كلامه تعالى على كل شرير من الجن و الإنس كقوله: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/١١٢)، لكن المراد به فى الآيه الشيطان الذى هو مصدر كل غوايه و ضلال فى بنى آدم و هو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامه الظالمين من أهل الجمع و يعترف أنه كان يدعوهم الى الشرك،و قد نصّ القرآن على أن الذى له هذا الشأن هو إبليس و قد ادّعى هو ذلك و لم يردّ اللّه ذلك عليه كما فى قوله: قٰالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ -إلى أن قال- لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص/٨٥).

و أما ذريته و قبيله الذين يذكرهم القرآن بقوله: إِنَّهُ يَرٰاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ إِنّٰا جَعَلْنَا الشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰاءَ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (الأعراف/٢٧)،و قوله: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيٰاءَ (الكهف/۵۰)فولايه الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو فى بعض الأعمال دون بعض،و إما ولايه على نحو العونيه فهو العون،و الأصل الذى ينتهى اليه أمر الإضلال و الإغواء هو إبليس.

فهذا القائل: إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ الخ؛هو إبليس يريد بكلامه ردّ اللوم على فعل المعاصى اليهم و التبرّى من شركهم فقوله: «إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أى وعدكم اللّه وعدا حققه الوقوع و صدّقته المشاهده من البعث و الجمع و الحساب و فصل القضاء و الجنه و النار،و وعدتكم أنا أن لا بعث و لا حساب و لا جنه و لا نار و لم أف بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت.كذا ذكره المفسرون.

و على هذا فالموعود جميع ما يرجع الى المعاد إثباتا و نفيا أثبته اللّه سبحانه و نفاه إبليس، و إخلاف الوعد كنايه عن ظهور الكذب و عدم الوقوع من إطلاق الملزوم و إراده اللازم.

و من الممكن-بل هو الوجه-أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان و الشرك فى الدنيا و الآخره جميعا لأنهما متطابقتان فقد وعد اللّه أهل الإيمان حياه طيبه و عيشه سعيده،و أهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشه ضنكا و تحرّجا فى صدورهم و عذابا فى قلوبهم فى الدنيا، و وعد الجميع بعثا و حسابا و جنه و نارا فى الآخره.

و وعد إبليس أولياءه بالأهواء اللذيذه و الآمال الطويله و أنساهم الموت و صرفهم عن البعث و الحساب و خوّفهم الفقر و الذلّه و ملامه الناس،و كان مفتاحه فى جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم و تزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقله بالتأثير خالقه لآثارها و تصوير نفوسهم لهم فى صوره الاستقلال مهيمنه على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون اللّه و تسخير الأسباب فى سبيل الآمال و الأمانى.

و بالجمله وعدهم اللّه فيما يرجع الى الدنيا و الآخره بما و فى لهم فيه،و دعاهم إبليس من طريق الإغفال و التزيين الى الأوهام و الأمانى و هى بين ما لا يناله الإنسان قطعا و ما إذا ناله

ص :۴۴۶

وجده غير ما كان يظنه،فيتركه الى ما يظنه كما يريد هذا فى الدنيا و أما الآخره فينسيه شئونها كما تقدّم.

و قوله: وَ مٰا كٰانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی السلطان-كما ذكره الراغب-هو السلاطه و هو التمكن من القهر،و تسمى الحجه أيضا سلطانا لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج،و كثيرا ما يطلق و يراد به ذو السلطان كالملك و غيره.

و الظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطه الصوريه و المعنويه فالمعنى و ما كان فى الدنيا لى عليكم من تسلط لا من جهه أشخاصكم و أعيانكم فاجبركم على معصيه اللّه بسلب اختياركم و تحميل إرادتى عليكم،و لا من جهه عقولكم فاقيم لكم الحجه على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله و تطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

و الظاهر أيضا أن يكون الاستثناء فى قوله: «إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُکُمْ» منقطعا و المعنى لكن دعوتكم من غير أى سلطان فاستجبتم لى،و دعوته الناس إلى الشرك و المعصيه و إن كانت باذن اللّه لكنهما لم تكن تسليطا فإن الدعوه إلى فعل ليست تسلطا من الداعى على فعل المدعو و إن كان نوع تسلط على نفس الدعوه،و من الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ -إلى أن قال- وَ عِدْهُمْ وَ مٰا یَعِدُهُمُ الشَّیْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ وَکِیلاً (الإسراء/۶۵).

و قوله: مٰا أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ أى ما أنا بمغيثكم و منجيكم و ما أنتم بمغيثى و منجىّ فلا أنا شافع لكم و لا أنتم شافعون لى اليوم.

و قوله: إِنِّی کَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ أى انى تبرأت من اشراككم إياى فى الدنيا،و المراد بالاشراك فى الطاعه دون الاشراك فى العباده كما يظهر من قوله تعالى خطابا لأهل الجمع: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ وَ أَنِ

اعْبُدُونِی (یس ۶۱/).

و قوله: إِنَّ الظّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ من تمام کلام إبلیس علی ما یعطیه السیاق یسجّل علیهم العذاب الألیم لأنهم ظالمون ظلما لا یرجع إلا الی أنفسهم.

و ظاهر السیاق أن قوله: ما أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ کنایه عن انتفاء الرابطه بینه و بین تابعیه کما یشیر تعالی الیه فی مواضع اخری بمثل قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ ما کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام۹۴/)،و قوله: فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیّانا تَعْبُدُونَ (یونس۲۸/).

و فی الآیه دلاله واضحه علی أن للانسان سلطانا علی عمله هو الذی یوجب ارتباط الجزاء به و یسلبه عن غیره،و هو الذی یعید اللائمه الیه لا الی غیره،و أما کونه مستقلا بهذا السلطان فلا دلاله فیها علی ذلک البته،و قد تکلمنا فی ذلک فی الجزء الأول من الکتاب فی ذیل قوله:

وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ (البقره۲۶/).

قوله تعالی: وَ أُدْخِلَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ الخ؛بیان ما ینتهی الیه حال السعداء من المؤمنین،و فی قوله: «تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ» مقابله حالهم من انعکاس السلام و التحیه المبارکه من بعضهم الی بعض مع حال غیرهم المذکورین فی الآیتین السابقتین من الخصام و تجبیه بعضهم بعضا بالکفر و التبرّی و الإیاس.

قوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً کَلِمَهً طَیِّبَهً کَشَجَرَهٍ طَیِّبَهٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها ذکروا أن «کَلِمَهً» بدل اشتمال من «مَثَلاً» و «کَشَجَرَهٍ» صفه بعد صفه لقوله: «کَلِمَهً» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدیر هی کشجره،و قیل:إن «کَلِمَهً» مفعول أول متأخر لضرب و «مَثَلاً» مفعوله الثانی قدّم لدفع محذور الفصل بین «کَلِمَهً» و صفتها و هی «کَشَجَرَهٍ» و التقدیر ضرب اللّه کلمه طیبه کشجره طیبه الخ...مثلا.

ص :۴۴۸

و قيل «ضَرَبَ» متعدّ لواحد و «كَلِمَةً» منصوب بفعل مقدّر كجعل و اتخذ و التقدير ضرب اللّه مثلا جعل كلمه طيبه كشجره طيبه الخ؛و أظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجّه بكون «كَلِمَةً طَيِّبَةً» الخ؛عطف بيان لقوله: «ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً» من بيان الجمله للجمله،و يتعيّن حينئذ نصب «كَلِمَةً» بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثّل الكلمه بالشجره و شبّهها بها و هو معنى قولنا:اتخذ كلمه طيبه كشجره الخ.

و قوله: أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ أى مرتكز فى الأرض ضارب بعروقه فيها،و قوله:

وَ فَرْعُهٰا فِي السَّمٰاءِ أى ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها فى جهه العلو فكل ما علا و أظلّ سماء،

و قوله: تُؤْتِي أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا أى تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن اللّه،و هذا نهايه ما تفيده شجره من البركات.

و الذى يعطيه التدبر فى الآيات أن المراد بالكلمه الطيبه التى شبّهت بشجره طيبه من صفتها كذا و كذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد و هو كالنتيجه المأخوذه من التمثيل «يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ» الآيه و القول هى الكلمه و لا كل كلمه بما هى لفظ بل بما هى معتمده على اعتقاد و عزم يستقيم عليه الإنسان و لا يزيغ عنه عملا.

ثم ختم اللّه سبحانه الآيه بقوله: «وَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ليتذكر به المتذكر أن لا محيص لمريد السعاده عن التحقق بكلمه التوحيد و الاستقامه عليها.

قوله تعالى: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مٰا لَهٰا مِنْ قَرٰارٍ الاجتثاث الاقتلاع،يقال:جثه و اجتثته أى قلعته و اقتلعته،و الجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمه،و جثه الشىء شخصه الناتىء.كذا فى المفردات.

و الكلمه الخبيثه ما يقابل الكلمه الطيبه و لذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله فى الكلمه الطيبه و كذا اختلفوا فى المراد بالشجره الخبيثه فقيل:هى الحنظله،و قيل:

الکشوث و هو نبت یلتفّ علی الشوک و الشجر لا أصل له فی الأرض و لا ورق علیه،و قیل:

شجره الثوم،و قیل:شجره الشوک،و قیل:الطحلب،و قیل:الکمأه،و قیل:کل شجره لا تطیب لها ثمره.

و قد عرفت حال هذه الاختلافات فی الآیه السابقه،و عرفت أیضا ما یعطیه التدبر فی معنی الکلمه الطیبه و ما مثلت به و یجری ما یقابله فی الکلمه الخبیثه و ما مثلت به حرفا بحرف فإنما هی کلمه الشرک مثلت بشجره خبیثه مفروضه اقتلعت من فوق الأرض لیس لها أصل ثابت و ما لها من قرار،و إذ کانت خبیثه فلا أثر لها إلا الضرّ و الشرّ.

قوله تعالی: یُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ إلی آخر الآیه؛الظاهر أن «بِالْقَوْلِ» متعلق بقوله: «یُثَبِّتُ» لا بقوله: «آمَنُوا» ،و الباء للآله أو السببیه لا للتعدیه،و أن قوله: «فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ فِی الْآخِرَهِ» متعلق أیضا بقوله: «یُثَبِّتُ» لا بقوله: «الثّٰابِتِ» .

فیعود المعنی إلی أن الذین آمنوا إذا ثبتوا علی إیمانهم و استقاموا ثبتهم اللّه علیه فی الدنیا و الآخره،و لو لا تثبیته تعالی لهم لم ینفعهم الثبات من أنفسهم شیئا و لم یستفیدوا شیئا من فوائده فإلیه تعالی یرجع الأمر کله،فقوله تعالی: «یُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ» ،و فی باب الهدایه یوازن قوله: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف/۵)،فی باب الإضلال.

غیر أن بین البابین فرقا و هو أن الهدی یبتدئ من اللّه سبحانه و یترتب علیه اهتداء العبد، و الضلال یبتدئ من العبد بسوء اختیاره فیجازیه اللّه بالضلال علی الضلال،کما قال: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره/۲۶)و قد تکاثرت الآیات القرآنیه أن الهدایه من اللّه سبحانه لیس لغیره فیها صنع.

و توضیح المقام أن اللّه سبحانه خلق الإنسان علی فطره سلیمه رکز فیها معرفه ربوبیّته و ألهمها فجورها و تقواها،و هذه هدایه فطریه أولیّه ثم أیدها بالدعوه الدینیه التی قام بها أنبیاؤه و رسله.

ثم إن الإنسان لو جرى على سلامه فطرته و اشتقاق إلى المعرفه و العمل الصالح هداه اللّه فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى،و أما جريه على سلامه الفطره فلو سمّى اهتداء فإنما هو اهتداء متفرّع على السلامه الفطريه لو سمّيت هدايه.

و لو انحرف الإنسان عن صراط الفطره بسوء اختياره و جهل مقام ربه و أخلد إلى الأرض و اتّبع الهوى و عاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من اللّه-و حاشاه سبحانه- لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاه و تثبيته على ما هو عليه بقطع الرحمه منه و سلب التوفيق عنه و هذا إضلال مسبوق بضلاله من نفسه بسوء اختياره و إزاغه له عن زيغ منه.

و قوله: وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ أي يجرى تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك على ما تقتضيه مشيّته لا مانع له و لا دافع فلا حائل بين مشيته و فعله.

و يظهر من ذلك أن اللّه تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك و هو فاعلهما لا محاله فمن القضاء المحتوم سعاده المؤمن و شقاء الكافر و قد وردت به الروايه.

و وقوع لفظ الجلاله فى قوله: «وَ يُضِلُّ اللّٰهُ» و قوله: «وَ يَفْعَلُ اللّٰهُ» من وقوع الظاهر موقع المضمر و يدلّ على فخامه الأمر و مهابه الموقف كما قيل.

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ قال فى المجمع:الإحلال وضع الشىء فى محل إما بمجاوره إن كان من قبيل الأجسام أو بمداخله إن كان من قبيل الأعراض،و البوار الهلاك يقال:بار الشىء يبور بورا إذا هلك و رجل بور أي هالك و قوم بور أيضا.انتهى.

و قال الراغب:البوار فرط الكساد و لما كان فرط الكساد يؤدى الى الفساد كما قيل:كسد حتى فسد،عبّر بالبوار عن الهلاك يقال:بار الشيء يبور بورا و بؤرا قال عزّ و جل: تِجٰارَةً لَنْ تَبُورَ انتهى.

و الآيه تذكر حال أئمه الكفر و رؤساء الضلال فى ظلمهم و كفرانهم نعمه اللّه سبحانه التى

أحاطت بهم من كل جهه بدل أن يشكروها و يؤمنوا بربهم،و قد ذكر قبل كيفيه خلقه تعالى السماوات و الأرض على غنى منه و هى نعمه،ثم ذكر كلمه الحق التى يدعو إليها و ما لها من الآثار الثابته الطيبه و هى نعمه.

و الآيه مطلقه لا دليل على تقييدها بكفار مكه أو كفار قريش و إن كان الخطاب فيها للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و كان فى ذيلها مثل قوله: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّٰارِ» لظهور أن ذلك لا يوجب تقييدا فى الآيه مع إطلاق مضمونها و شمولها للطواغيت من الامم و ما صنعوا بأقوامهم.

فقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْراً يذكر حال أئمه الكفر و رؤساء الضلال من الامم السابقه و من هذه الامه و الدليل على اختصاصه بهم قوله: «وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ» المشعر بكونهم نافذى الكلمه مطاعين فى قومهم فهم الأئمه و الرؤساء.

و المراد بتبديلهم نعمه اللّه كفرا تبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرا ففى الجمله مضاف محذوف و التقدير:بدّلوا شكر نعمه اللّه كفرا،و يمكن أن يراد تبديل نفس النعمه كفرا بنوع من التجوّز،و نظير الآيه فى هذه العنايه قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (الواقعه/۸۲).

و ذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمه الضلال ضلّوا ثم أضلّوا و التبعه تبعه الضلال،و نظير الآيه فى هذا المعنى قوله فى فرعون: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ (هود/۹۸).

و المعنى أ لم تنظر الى الأئمه و الرؤساء من الامم السابقه و من أمتك الذين بدّلوا شكر نعمه اللّه كفرا و اتبعتهم قومهم فحلّوا و أحلّوا قومهم دار الهلاك و هو الشقاء و النار.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا وَ بِئْسَ الْقَرٰارُ بيان لدار البوار،و احتمال بعضهم أن يكون «جَهَنَّمَ» منصوبا بالاشتغال،و التقدير يصلون جهنم يصلونها و الجمله مستأنفه خال عن الوجه لأن النصب مرجوح و لا نكته تستوجب الاستئناف.

و من هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مـدنيه،و المراد بالذين كفروا هم عظماء مكه و صـناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و حاربوه ببدر فقتلوا و أحلّوا قومهم دار البوار.

و ذلـك أنـك عرفت من معنى الآـيه أنهـا مطلقه و لاـ موجب لتخصيصـها بقتلى بـدر من الكفار أصـلا،بل الآيه تشـمل كل إمام ضلاـل أحـلّ قومه دار البوار ممن تقـدّم و تـأخر،و المراد بإحلاـل دار البوار إقرارهم فى شـقاء النار و إن لـم يقتلوا و لا ماتوا و لا دخلوا النار بعد.

على أن ظاهر الآيه التاليه «وَ جَعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ» أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المـذكورين فى هـذه الآـيه و لازمه كون خطاب قل تمتعوا خطابا للباقين منهم و هم الـذين أسـلموا يوم الفتـح و هو إيعاد بشقاء قطعى منجّز من غير استثناء.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ الأنداد جمع ندّ و هو المثل و هم الآلهه الذين اتخذوهم آلهه من دون اللّه من الملائكه و الجن و الإنس.

و إنما جعلوها أندادا مع اعترافهم بأنهم مخلوقون للّه سبحانه من جهه أنهم سمّوهم آلهه و أربابا و نسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبـدوهم خوفـا و طمعـا مع أن الأمر و الخلق كله للّه و قـد اعترفت بـذلك فطرتهم و أيّـد اللّه ذلك بما ألهمه أنبياءه و رسـله من الآيات و الحجج الدالّه على وحدانيته.

فهم كـانوا على بصـيره من أمر التوحيـد لم يتخـذوا الأنـداد عن غفله أو خطأ بـل عمـدوا الى ذلـك ابتغاء عرض الحياه الـدنيا و ليسـتعبدوا النـاس و يسـتدرّوهم بإضـلالهم عن سبيل اللّه، و لـذلك علّل اتخاذهم الأنـداد بقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» ثم أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يوعدهم بالنار التى إليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها،فقال: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ» .

ص:۴۵۳

و کان من طبع الکلام أن یقال لهم:اتخذوا الأنداد أو أضلّوا عن سبیل اللّه فإن مصیرکم الی النار،لکن بدّل من قوله: «تَمَتَّعُوا» لیصرّح بغرضکم الفاسد الذی کانوا یخفونه لیکون أبلغ فی فضاحتهم.

قوله تعالی: قُلْ لِعِبٰادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا یُقِیمُوا الصَّلاٰةَ وَ یُنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ بَیْعٌ فِیهِ وَ لاٰ خِلاٰلٌ لما توعّدهم علی لسان رسوله بعذاب یوم القیامه لإضلالهم الناس عن سبیل اللّه،أمره أن یأمر عباده الذین آمنوا بالتزام سبیله من قبل أن یأتی یوم القیامه فلا یسعهم تدارک ما فات منهم من السعاده بشیء من الأسباب الدائره بینهم لذلک و هی ترجع الی أحد شیئین:إما المعارضه بإعطاء شیء و أخذ ما یعادله و هو البیع بالمعنی الأعمّ،و إما الخلّه و المحبه،و لا أثر من هذه الأسباب فی یوم محض للحساب و الجزاء فإن ذلک شأن یوم القیامه لا شأن له دون ذلک.

و من هنا یظهر أن قوله: یُقِیمُوا الصَّلاٰةَ وَ یُنْفِقُوا بیان لسبیل اللّه و قد اکتفی بهذین الرکنین اللذین بهما یلحق سائر الوظائف الشرعیه مما یصلح حیاه الإنسان الدنیویه فیما بینه و بین ربه و ما بینه و بین سائر أفراد نوعه.

و قوله: یُقِیمُوا الصَّلاٰةَ وَ یُنْفِقُوا الخ؛مجزومان لوقوعهما فی جواب الأمر و مقول القول محذوف لدلاله الفعلین علیه،و التقدیر:قل:أقیموا الصلاه و أنفقوا«الخ»یقیموا الصلاه و ینفقوا«الخ».

قوله تعالی: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ الخ؛لما ذکر سبحانه جعلهم للّه أندادا لإضلال الناس عن سبیل اللّه و أوعد علیه أورد فی هذه الآیه إلی تمام ثلاث آیات الحجه علی اختصاص الربوبیه بنفسه تعالی و تقدس من طریق اختصاص التدبیر العام به من نظم الخلقه و إنزال الماء و إخراج الرزق و تسخیر البحار-الفلک-و الأنهار و الشمس و القمر و اللیل و النهار.

و أشار فی آخر الآیات إلی أنها و ما لا تحصی من غیرها نعمه منه تعالی للإنسان لأن البیان فی هذه السوره-کما تقدمت الاشاره إلیه-یجری فی ضوء الاسمین:العزیز الحمید.

فقوله: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ الخ؛فی معنی قولنا:فهو الربّ وحده دون الذین جعلتموهم أندادا له.

و قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الخ؛المراد بالسماء جهه العلو و هو معناها اللغوی،و الماء النازل منها هو المطر النازل منها فإلیه ینتهی الماء فی الأرض الذی تعیش به ذوات الحیاه من النبات و الحیوان.

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْفُلْکَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْأَنْهٰارَ تسخیر الفلک للناس هو جعلها بحیث تنفعهم فی مقاصدهم و هی العبور بأنفسهم و أحمالهم و غیر ذلک من غیر أن ترسب فی الماء أو تمتنع عن الحرکه.

و أما قول بعضهم:تسخیرها لهم هو إقدارهم علی صنعتها و استعمالها بإلهامهم طریق ذلک بعید،فإن الظاهر من تسخیر شیء للانسان هو التصرف فیه بجعله موافقا لما یقصده من منافع نفسه دون التصرف فی الانسان نفسه بإلهام و نحوه.

و کان من طبع الکلام أن یقال:و سخر لکم البحر لتجری فیه الفلک بأمره و سخر لکم الأنهار غیر أنه عکس،و قیل:و سخر لکم الفلک لتجری فی البحر بأمره لکون الفلک من أوضح النعم البحریه و إن لم تنحصر فیها نعمه و لعل ذلک هو السبب فی العکس،لأن المقام مقام عدّ النعمه و النعمه فی الفلک أوضح و إن کانت فی البحر أعظم.

و إسناد جریها فی البحر إلی أمره تعالی مع کونه مستندا إلی الأسباب الطبیعیه العامله کالریح و البخار و سائر الأسباب،لکونه تعالی هو السبب المحیط الذی إلیه ینتهی کل سبب.

و قوله: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْأَنْهٰارَ و هی المیاه الجاریه فی مختلف أقطار الأرض و تسخیرها هو تدلیلها بحیث ینتفع بها الإنسان بالشرب و الغسل و إزاله الأوساخ و غیر ذلک

ص :۴۵۵

و یعیش بها الحیوان و النبات المسخّران له.

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دٰائِبَیْنِ وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهٰارَ قال الراغب:الدأب إدامه السیر دأب فی السیر دأبا،قال تعالی: «وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دٰائِبَیْنِ» و الدأب العاده المستمره دائما علی حاله،قال تعالی: «کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أی کعادتهم التی یستمرون علیها.انتهی،و معنی الآیه واضح.

قوله تعالی: وَ آتٰاکُمْ مِنْ کُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَظَلُومٌ کَفّٰارٌ السؤال هو الطلب و یفارقه أن السؤال إنما یکون ممن یعقل و الطلب أعمّ و إنما تتبّه الإنسان للسؤال من جهه الحاجه الداعیه الیه فأظهر له أن یرفع ما حلّت به من حاجه و کانت الوسیله العادیه الیه هی اللفظ فتوسل به الیه و ربما توسل الیه بإشاره أو کتابه و سمی سؤالا حقیقه من غیر تجوّز.

فبالجمله معنی الآیه أن اللّه تعالی أعطی النوع الإنسانی ما سأله فما من حاجه من حوائجه إلا رفع کلها أو بعضها حسب ما تقتضیه حکمته البالغه.

و قوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا قال الراغب:الإحصاء:التحصیل بالعدد یقال:أحصیت کذا و ذلک من لفظ الحصا و استعمال ذلک فیه من حیث إنهم کانوا یعتمدونه بالعدّ کاعتمادنا فیه علی الأصابع.انتهی.

و فی الجمله إشاره إلی خروج النعم عن طوق الإحصاء و لازمه کون حوائج الإنسان التی رفعها اللّه بنعمه غیر مقدور للانسان إحصاؤها.

و کیف یمکن إحصاء نعمه تعالی و عالم الوجود بجمیع أجزائه و ما یلحق بها من الأوصاف و الأحوال مرتبطه منتظمه نافع بعضها فی بعض متوقف بعضها علی بعض،فالجمیع نعمه بالنسبه الی الجمیع و هذا أمر لا یحیط به إحصاء.

و لعل ذلک هو السر فی إفراد النعمه فی قوله: «نِعْمَهَ اللّٰهِ» فإن الحق أن لیس هناک إلا النعمه

فلا حاجه الی تفخیمها بالجمع لیدلّ علی الکثره،و المراد بالنعمه جنس المنعم فیفید ما یفیده الجمع.

و قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفّارٌ أی کثیر الکفران یظلم نفسه فلا یشکر نعمه اللّه و یکفر بها فیؤدّیه ذلک الی البوار و الخسران،أو کثیر الظلم لنعم اللّه لا یشکرها و یکفر بها، الجمله استئناف بیانی یؤکد بها ما یستفاد من البیان السابق،فإن الواقف علی ما مرّ بیانه من حال نعمه تعالی و ما آتی الإنسان من کل ما سأله منها لا یرتاب فی أن الإنسان و هو غافل عنها طبعا ظالم لنفسه کافر بنعمه ربه (۱).

[سوره إبراهیم (۱۴): الآیات ۳۵ الی ۴۱]

اشاره

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا اَلْبَلَدَ آمِناً وَ اُجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ اَلْأَصْنامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ اَلنّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۶) رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ اَلْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا اَلصَّلاهَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ اَلنّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ اُرْزُقْهُمْ مِنَ اَلثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ (۳۷) رَبَّنا إِنَّکَ تَعْلَمُ ما نُخْفِی وَ ما نُعْلِنُ وَ ما یَخْفی عَلَی اَللّهِ مِنْ شَیْءٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لا فِی اَلسَّماءِ (۳۸) اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی اَلْکِبَرِ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ اَلدُّعاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ اَلصَّلاهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ اَلْحِسابُ (۴۱)

۱- ۱) .ابراهیم ۱۹-۳۴:بحث روائی فی کلمه طیبه و شجره طیبه و کلمه خبیثه و شجره خبیثه.

بیان:

قوله تعالى: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً أى و اذكر إذ قال إبراهيم و الإشاره إلى مكه شرّفها اللّه تعالى.

و قد حكى اللّه سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السّلام فى موضع آخر بقوله: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قٰالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (البقره/ ۱۲۶).

و من الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيين فى التعبير أعنى قوله: «اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً» و قوله: «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» أنهما دعاء ان دعا عليه السّلام بهما فى زمانين مختلفين،و أنه بعد ما أسكن إسماعيل و أمه أرض مكه و رجع إلى أرض فلسطين ثم عاد اليهما وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكانا ما سرّ بذلك فدعا عند ذلك مشيرا إلى مكانهم «رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً» فسأل ربه أن يجعل المكان بلدا و لم يكن به و أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات،ثم لما عاد اليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلدا فسأل ربه أن يجعل البلد آمنا.

و مما يؤيّد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهه ففى آيه البقره الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات و فى الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصه مع امور اخرى دعا بها لهم.

و على هذا يكون هذا الدعاء المحكى عن إبراهيم عليه السّلام فى هذه الآيات آخر ما أورده اللّه تعالى فى كتابه من كلام إبراهيم عليه السّلام و دعائه،و قد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل و أمه بها

و جاورتهما قبيله جرهم و بنى البيت الحرام و بنيت بلده مكه بأيدى القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.

و على تقدير أن يكون المحكيات دعاء واحدا يكون قوله: «رَبِّ اجْعَلْ» الخ؛تقديره:ربّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا و قد حذف فى إحدى الآيتين المشار اليه و فى الاخرى الموصوف اختصارا.

و المراد بالأمن الـذى سأله عليه السّلام الأمن التشريعى دون التكوينى-كما تقـدم فى تفسير آيه البقره-فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكه حكم الحرمه و الأمن،و هو-على خلاف ما ربما يتوهم-من أعظم النعم التى أنعم اللّه بها على عباده فإنا لو تأملنا هذا الحكم الإلهى الـذى شرعه إبراهيم عليه السّلام بإذن ربه أعنى حكم الحرمه و الأمن و أمعنا فيما يعتقـده الناس من تقديس هذا البيت العتيق و ما أحاط به من حرم اللّه الآمن و قـد ركز ذلك فى نفوسهم منذ أربعه آلاف سنه حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات و البركات الـدينيه و الـدنيويه عائـده إلى أهلها و إلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم و يتعلق قلبه بهم،و قـد ضبط التاريخ من ذلك شيئا كثيرا و ما لم يضبط أكثر فجعله تعالى مكه بلدا آمنا من النعم العظيمه التى أنعم اللّه بها على عباده.

قوله تعـالى: وَ اجْنُبْنِى وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النّاسِ -إلى قوله- غَفُورٌ رَحِيمٌ يقال:جنبه و أجنبه أى أبعده،و سؤاله عليه السّلام أن يجنبه اللّه و يعبده و بنيه من عباده الأصنام لواذ و التجاء إليه تعالى من الإضلال الذى نسبه إليهن فى قوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ» الخ.

و من المعلوم أن هـذا الإبعاد و الإجناب منه تعـالى كيفما كان و أيا ما كان تصرف ما و تأثير منه تعالى فى عبـده بنحو،غير أنه ليس بنحو يؤدى إلى الإلجاء و الاضطرار و لا ينجر إلى القهر و الإجبار بسلب صفه الاختيار منه إذ لا مزيه لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل اللّه.

فرجع بـالحقيقه إلى ما تقـدم فى قوله تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الآيه؛ أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب اليه تعالى أولا،ثم إلى العبد ثانيا بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداء و لو نسب إليه تعالى فإنما ينسب إذا كان على سبيل المجازاه،و قد أوضحنا ذلك.

فالاجتناب من عباده الأصـنام إنما يتحقق عن إجناب من اللّه رحمه منه لعبده و عنايه، و ليس فى الحقيقه إلا أمرا تلبّس و اتصف به العبـد غير أنه إنما بملكه بتمليك اللّه سـبحانه فهو المالك له بذاته و العبد يملكه بأمر منه و إذن كما أن العبد إنما يهتدى عن هدايه من اللّه،و ليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك للّه سبحانه لذاته و العبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه، و أبسط كلمه فى هذا المعنى ما وقع فى أخبار آل العصمه أن اللّه يوفق عبده لفعل الخير و ترك الشر هذا.

فتلخّص أن المراد بقوله عليه السّلام: «وَ اجْنُبْنِي» سؤال ما للّه سبحانه من الصنع فى ترك العبد عباده الأصنام،و بعباره أخرى هو يسأل ربه أن يحفظه و بنيه من عباده الأصـنام و يهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسـهم لذلك و أن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا و أن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه عليه السّلام.

و منه يعلم أن نتيجه الـدعاء لبعض المـدعوين لهم و إن كان بلفظ يسـتوعب الجميع،و هـذا البعض هم المسـتعدون لـذلك دون المعاندين و المستكبرين منهم و سنزيده بيانا.

ثم هو عليه السّلام يدعو بهذا الدعاء لنفسه و بنيه «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» و بنوه جميع من جاء من نسله بعده و هم بنو إسـماعيل و بنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطه كذلك يطلق على غيره،و يصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ (الحج/٧٨)و قد تكرر إطلاق بنى إسرائيل على اليهود فى نيف و أربعين موضعا من كلامه

تعالى.

فهو عليه السّلام يسأل البعد عن عباده الأصنام لنفسه و لجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذى تقدم،اللهم إلا أن يقال:إن قرائن الحال و المقال تدل على اختصاص الدعاه بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بنى إسحاق.

ثم عقب عليه السّلام دعاءه «وَ اجْنُبْنِى وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ»

بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النّاسِ» و هو فى مقام التعليل لدعائه،و قد أعاد النداء «رَبِّ» إثاره للرحمه الإلهيه،أى إنى إنما أسألك أن تبعدنى و بنى عن عبادتهن لأنهن أضللن كثيرا من الناس و نسبه الاضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذى بين الضلال و بينهن و إن لم يكن ارتباطا شعوريا و ليس من اللازم فى نسبه أى فعل أو أثر إلى شيء أن يقوم به قياما شعوريا و هو ظاهر.

ثم قوله عليه السّلام: فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَ مَنْ عَصانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تفريع على ما تقدم من كلامه أى إذا كان كثير من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهن و استعذت بك و عرضت نفسى و بنىّ عليك أن تجنبنا من عبادتهن افترقنا نحن و الناس طائفتين:الضالون عن طريق توحيدك و العارضون لأنفسهم على حفظك و إجنابك فمن تبعنى الخ.

و قد عبّر عليه السّلام فى تفريعه بقوله: فَمَنْ تَبِعَنِى و الاتّباع إنما يكون فى طريق-و قد لوّح إلى الطريق أيضا بقوله: «أَضْلَلْنَ» لأن الضلال إنما يكون عن الطريق-فمراده باتباعه التدين بدينه و السير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحدانيته تعالى بل سلوك طريقته المبنيه على توحيد اللّه سبحانه ليكون فى ذلك عرض النفس على رحمته تعالى و إجنابه من عباده الأصنام.

و من الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله فى ما يعادله من كلامه: «وَ مَنْ عَصانِى» فإنه نسب العصيان إلى نفسه و لم يقل:و من كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق و نحو ذلك كما لم يقل:فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك و ما أشبهه.

فمراده باتباعه سلوک طریقه و التدین بجمیع ما أتی به من الاعتقاد و العمل و بعصیانه ترک سیرته و ما أتی به من الشریعه اعتقادا و عملا- کأنه علیه السّلام یقول:من تبعنی و عمل بشریعتی و سار بسیرتی فانه ملحق بی و من أبنائی تنزیلا أسألک أن تجنبنی و إیاه أن نعبد الأصنام،و من عصانی بترک طریقتی کلها أو بعضها سواء کان من بنی أو غیرهم فلا ألحقه بنفسی و لا أسألک إجنابه و إبعاده بل أخلّی بینه و بین مغفرتک و رحمتک (۱).

قوله تعالی: رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوٰادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ -إلی آخر الآیه- مِنْ ذُرِّیَّتِی فی تأویل مفعول أَسْکَنْتُ أو سادّ مسدّه و «مِنْ» فیه للتبعیض و مراده علیه السّلام ببعض ذریته ابنه اسماعیل و من سیولد له من الأولاد دون إسماعیل وحده بدلیل قوله بعد: «رَبَّنٰا لِیُقِیمُوا الصَّلاٰهَ» .

و المراد بغیر ذی زرع غیر المزروع و هو آکد و أبلغ لأنه یدل-کما قیل-علی عدم صلاحیته لأن یزرع لکونه أرضا حجریه رملیه خالیه عن المواد الصالحه للزرع و هذا کقوله:«قرآنا غیر ذی عوج».

و نسبه البیت إلی اللّه سبحانه لأنه مبنی لغرض لا یصلح إلا له تعالی و هو عبادته،و کونه محرّما هو ما جعل اللّه له من الحرمه تشریعا،و الظرف أعنی قوله: «عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ» متعلق بقوله: «أَسْکَنْتُ» .

و هذه الجمله من دعائه علیه السّلام أعنی قوله: رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ -إلی قوله- اَلْمُحَرَّمِ من الشاهد علی ما قدّمناه من أنه علیه السّلام إنما دعا بهذا الدعاء فی أواخر عمره بعد ما بنی الکعبه و بنی الناس بلده مکه و عمروها،کما أن من الشاهد علیه أیضا قوله: «الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ» .

ص: ۴۶۲

۱- ۱) .ابراهیم ۳۵-۴۱:بحث فی قول ابراهیم علیه السّلام «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ» ؛الشرک الخفی.

و بـذلک ینـدفع ما ربما یستشـکل فیقال:کیف سـماه بیتا و قال:أسـکنت من ذریتی عنده و لم یبنه بعد؟کأن السائل یقدّر أنه إنما دعا به یوم أتی بإسماعیل و أمه إلی أرض مکه و کانت أرضا قفراء لا أنیس بها و لا نبت.

و لا حاجه إلی دفعه بأنه کان یعلم بما علمه اللّه أنه سـیبنی هناک بیتا للّه أو بأن البیت کان قبل ذلک و إنما خرّبه بعض الطوائف أو رفعه اللّه إلی السـماء فی الطوفان و لیت شـعری إذا اندفع بهما هذا الإشکال فکیف یندفع بهما ما یتوجه من الإشکال علی هذا التقدیر إلی ظاهر قوله:ربّ اجعل هذا البلد آمنا و ظاهر قوله: «وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ» .

و قوله: رَبَّنٰا لِیُقِیمُوا الصَّلاٰهَ بیان لغرضه من إسـکانهم هناک،و هو بانضـمام ما تقـدم من قوله: «بِوٰادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ» و ما یعقّبه من قوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النّٰاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرٰاتِ» یفیـد أنه علیه السّـلام إنما اختار وادیا غیر ذی زرع أعزل من أمتعه الحیاه من ماء عـذب و نبات ذی خضـره و شـجر ذی بهجه و هواء معتدل خالیا من السـکنه لیتمحضوا فی عباده اللّه من غیر أن یشغلهم شواغل الدنیا.

و قوله: فَاجْعَلْ أَفْئِدَهً مِنَ النّٰاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ الـخ؛من الهویّ بمعنی السـقوط أی تحنّ و تمیل الیهم بالمساکنه معهم أو بالحج إلی البیت فیأنسوا بهم،و ارزقهم من الثمرات،بالنقل الیهم تجاره لعلهم یشکرون.

قوله تعـالی: رَبَّنٰا إِنَّکَ تَعْلَمُ مٰا نُخْفِی وَ مٰا نُعْلِنُ إلی آخر الآیه معناه ظاهر، و قوله: «وَ مٰا یَخْفیٰ عَلَی اللّٰهِ مِنْ شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمٰاءِ» من تمـام کلام إبراهیم علیه السّـلام أو من کلامه تعالی،و علی الأول ففی قوله: «عَلَی اللّٰهِ» التفات وجهه الإشاره إلی عله الحکم کأنه قیل:إنک تعلم ما نخفی و ما نعلن لأنک اللّه الذی ما یخفی علیه شـیء فی الأرض و لا فی السـماء،و لا یبعد أن یستفاد من هذا التعلیل أن المراد بالسماء ما هو خفی علینا غائب عن حسّنا و الأرض خلافه فافهم ذلک.

ص:۴۶۳

قوله تعالی: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعٰاءِ کالجمله المعترضه بین فقرات دعائه دعاه إلی إیراده تذکّره فی ضمن ما أورده من الأدعیه عظیم نعمه اللّه علیه إذ وهب له ولدین صالحین مثلهما بعد ما انقطع عنه الأسباب العادیه المؤدیه إلی ظهور النسل،و أنه إنما وهبهما له باستجابه دعائه للولد فحمد اللّه علی ما وهبهما و أثنی علیه علی استجابه دعائه فی ذلک.

قوله تعالی: رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ الکلام فی استناد إقامته الصلاه إلی اللّه سبحانه نظیر الکلام فی استناد إجنابه أن یعبد الأصنام فإن لإقامه الصلاه نسبه الیه تعالی بالإذن و المشیه کما أن لها نسبه إلی العبد بالتصدی و العمل و قد مرّ الکلام فیه.

و هذه الفقره ثانی دعاء یشترک فیه هو علیه السّلام و ذریته و یعقّب فی الحقیقه قوله أولا:

«وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنٰامَ» کما یلحق به دعاؤه الثالث المشترک فیه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ» .

و قد أفرد نفسه فی جمیع الفقرات الثلاث عن غیره إذ قال: وَ اجْنُبْنِی رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ اِغْفِرْ لِی لأن مطلوبه لحوق ذریته به کما قال فی موضع آخر: وَ اجْعَلْ لِی لِسٰانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ (الشعراء۸۴/)و فی موضع آخر کما حکاه اللّه بقوله: وَ إِذِ ابْتَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی (البقره۱۲۴/).

و أما قوله فی الفقره الاولی: «وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ» و هاهنا «اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاٰهِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی» فقد تقدم أن المراد ببنیه بعضهم لا جمیعهم فتتطابق الفقرتان.

و من تطابق الفقرتین أنه أکد دعاءه فی هذه الفقره بقوله: «رَبَّنٰا وَ تَقَبَّلْ دُعٰاءِ» فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح و إصرار و تأکید کما أن التعلیل فی الفقره الاولی،بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ

كَثِيراً مِنَ النّاسِ» تأكيد فى الحقيقه لما فيها من الدعاء،بقوله: «وَ اجْنُبْنِى» الخ.

قوله تعالى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوٰالِدَىَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسٰابُ ختم عليه السّلام دعاءه-و هو آخر ما ذكر من دعائه فى القرآن الكريم كما تقدم-بطلب المغفره للمؤمنين يوم القيامه،و يشبه آخر ما دعا به نوح عليه السّلام مما ذكر فى القرآن: رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِوٰالِدَىَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ (نوح/٢٨).

و فى الآيه دليل على أنه عليه السّلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السّلام-كما ترى-يستغفر لوالديه و هو على الكبر و فى آخر عهده«و قد تبرأ من آزر فى أوائل عهده بعد ما استغفر له عن موعده وعده إياه قال تعالى: قٰالَ سَلاٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى (مريم/٤٧)،و قال:

وَ اغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الضّٰالِّينَ (الشعراء/٨٦)،و قال: وَ مٰا كٰانَ اسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهٰا إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه/١١۴)و قد تقدم تفصيل القول فى قصصه عليه السّلام فى سوره الأنعام فى الجزء السابع من الكتاب.

و من لطيف ما فى دعائه عليه السّلام اختلاف النداء المكرر الذى فيه بلفظ «رَبِّ» و «رَبَّنَا» و العنايه فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقه و الإمامه،و فيما أضيف إلى نفسه و غيره إلى المشتركات.

[سوره إبراهيم (١۴): الآيات ۴٢ الى ۵٢]

اشاره

وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اَللّٰهَ غٰافِلاً عَمّٰا يَعْمَلُ اَلظّٰالِمُونَ إِنَّمٰا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ اَلْأَبْصٰارُ (۴٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لاٰ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوٰاءٌ (۴٣) وَ أَنْذِرِ اَلنّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ اَلْعَذٰابُ فَيَقُولُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنٰا أَخِّرْنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ اَلرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مٰا لَكُمْ مِنْ زَوٰالٍ (۴۴)وَ سَكَنْتُمْ فِى مَسٰاكِنِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنٰا بِهِمْ وَ ضَرَبْنٰا لَكُمُ اَلْأَمْثٰالَ(۴۵) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اَللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كٰانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ اَلْجِبٰالُ (۴۶) فَلاٰ تَحْسَبَنَّ اَللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۴٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ اَلْأَرْضُ غَيْرَ اَلْأَرْضِ وَ اَلسَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ اَلْوٰاحِدِ اَلْقَهّٰارِ (۴٨) وَ تَرَى اَلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى اَلْأَصْفٰادِ (۴٩) سَرٰابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرٰانٍ وَ تَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ اَلنّٰارُ (۵٠) لِيَجْزِىَ اَللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۵١) هٰذٰا بَلاٰغٌ لِلنّٰاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (۵٢)

بيان:

قوله تعالى: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ الى آخر الآيتين؛

ص: ۴۶۶

يقال:شخص بصره أى سكن بحيث لا يطرف جفنه،و يقال:بعير مهطع إذا صوّب عنقه أى رفعه و هطع و أهطع بمعنى،و يقال:أقنع رأسه إذا رفعه،و قوله:لا يرتد اليهم طرفهم أى لا يقدرون على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه،و قوله:و أفئدتهم هواء أى قلوبهم خاليه عن التعقل و التدبير لشده الموقف أو أنها زائله.

و المعنى:و لا تحسبنّ اللّه و لا تظنّنه غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تمتعهم و إترافهم فى العيش و إفسادهم فى الأرض إما يمهلهم اللّه و يؤخر عقابهم الى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف و الحال أنهم مادّون لأعناقهم رافعون لرءوسهم لا يقدرون على ردّ طرفهم و قلوبهم مدهوشه خاليه عن كل تحيّل و تدبير من شده هول يوم القيامه و فى الآيه إنذار للظالمين و تعزيه لغيرهم.

قوله تعالى: وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذٰابُ الى آخر الآيه؛فى الآيه إنذار بعد إنذار و بين الإنذار فرق من جهتين:

إحداهما:أن الإنذار فى الآيتين السابقتين إنذار بما أعدّ اللّه من أهوال يوم القيامه و أليم العذاب فيه،و أما الذى فى هذه الآيه و ما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال فى الدنيا و من الدليل عليه قوله: «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنٰا أَخِّرْنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» الخ.

و الثانيه:أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعى لا صارف له عن أمه ظالمه و لا فرد ظالم من أمه و أما الإنذار الثانى فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمه ظالمه و أما الفرد فربما صرف عنه،و لذلك ترى أنه تعالى يقول أولا «وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ» ثم يقول «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» الخ؛و لم يقل:فيقولون أى الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنٰا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس/١٠٣)و إنما يصيب الامه الظالمه بحلول أجلهم و هو طائفه من ظالمى الامه لا جميع أفرادها.

و بالجمله فقوله: وَ أَنْذِرِ النّٰاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذٰابُ إنذار للناس بعذاب

الاستئصال الـذی یقطع دابر الظالمین منهم،و قـد تقـدم فی تفسـیر سوره یونس و غیره أن ذلک مکتوب علی الامم قضاء بینهم و بین رسولهم حتی هذه الامه المحمدیه و قد تکرر هذا الوعید منه تعالی فی عده مواضع من کلامه.

و هـذا هو الیوم الـذی یطهّر اللّه الأرض فیه من قـذاره الشـرک و الظلم و لا یعبـد علیها یومئذ إلا اللّه سـبحانه فإن الدعوه عامه و الامـه هم أهـل الأرض فإذا محی اللّه عنهم الشـرک لم یبق منهم إلا المؤمنون و یکون الـدین کله للّه،قال تعالی: وَ لَقَـدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ .

و قوله: فَیَقُولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلیٰ أَجَـلٍ قَرِیبٍ نُجِبْ دَعْوَتَـکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُـلَ المراد به الظـالمون من النـاس و هم الـذین یأخذهم العذاب المستأصل و لا یتخطاهم،و مرادهم بقولهم: «أَخِّرْنا إِلیٰ أَجَلٍ قَرِیبٍ» الاسـتمهال بمده قصیره تضاف الی عمرهم فی الدنیا حتی یتدارکوا فیه ما فوّتوه بظلمهم و الدلیل علیه قولهم: «نُجِبْ دَعْوَتَکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ» .

و التعبیر بالرسل بلفظ الجمع فی قولهم: «وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ» مع أن الآیه تصف حال ظالمی هـذه الامه ظاهرا و کان مقتضـی ذلک أن یقال:و نتبع الرسول إنما هو للـدلاله علی أن الملاک فی نزول هـذا العـذاب القضاء بین الرساله و بین منکریها من غیر اختصاص ذلک برسول دون رسول کما یفیده قوله: وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (یونس۴۷/).

و قوله: أَ وَ لَمْ تَکُونُوا أَقْسَـمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَکُمْ مِنْ زَوالٍ الإقسام تعلیق الحکم فی الکلام بأمر شریف من جهه شرافته لیدلّ به علی صـدقه إذ لو کـذب المتکلم و قد أقسم فی کلامه لأذهب بذلک شـرف المقسم به کقولنا:و اللّه إن کذا لکذا و لعمری إن الأمر علی کذا،و یعدّ القسم أقوی أسباب التأکید.و لا یبعد أن یکون الإقسام فی الآیه کنایه عن إیراد

الکلام فی صوره جازمه غیر قابله للتردید.

و الکلام علی تقدیر القول،و المعنی یقال لهم توبیخا و تبکیتا:أ لم تکونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لکم من زوال و أنکم بما عندکم من القوه و السطوه و وسائل الدفاع أمه خالده مسیطره علی الحوادث فما لکم تستمهلون الی أجل قریب.

قوله تعالی: وَ سَکَنْتُمْ فِی مَسٰاکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الی آخر الآیه؛ معطوف علی محل قوله: «أَقْسَمْتُمْ» فی الآیه السابقه،و المعنی:أ و لم تکونوا سکنتم فی مساکن الذین ظلموا أنفسهم من الامم السابقه،و ظهر لکم أن هذه الدعوه حقه و یتعقبها لو ردّت عذاب مستأصل،من جهتین:جهه المشاهده حیث تبیّن لکم کیف فعلنا باولئک الظالمین الذین سکنتم فی مساکنهم؟وجهه البیان حیث ضربنا لکم الأمثال و أنذرناکم عذابا مستأصلا یتعقبه إنکار الحق و ردّ الدعوه النبویه و یقطع دابر الظالمین.

قوله تعالی: وَ قَدْ مَکَرُوا مَکْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللّٰهِ مَکْرُهُمْ وَ إِنْ کٰانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبٰالُ حال من الضمیر فی «فَعَلْنٰا» فی الآیه السابقه أو من الضمیر فی «بِهِمْ» فیها أو من الضمیرین جمیعا علی ما قیل،و ضمائر الجمع راجعه الی «الَّذِینَ ظَلَمُوا» .

و المراد بکون مکرهم عند اللّه إحاطته تعالی به بعلمه و قدرته،و من المعلوم أن المکر إنما یکون مکرا إذا لم یحط به الممکور به و جهله،و أما إذا کان الممکور به عالما بما هیأه الماکر من المکر و قادرا علی دفعه لغی المکر أو عاد مکرا علی نفس الماکر کما قال تعالی: وَ مٰا یَمْکُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ (الأنعام۱۲۳/).

و قوله: وَ إِنْ کٰانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبٰالُ إن وصلیه-علی ما قیل-و اللام فی«لتزول»متعلق بمقدّر یدلّ علیه لفظ المکر کقولنا:یقتضی أو یوجب و ما أشبه ذلک، و التقدیر:اللّه محیط بمکرهم عالم به قادر علی دفعه إن کان مکرهم دون هذه الشده و إن کان علی هذه الشده.

و المعنى تبيّن لكم كيف فعلنا بهم و الحال أنهم مكروا ما فى وسعهم من المكر و اللّه محيط بمكرهم و إن كان مكرهم عظيما موجبا لزوال الجبال.

و ربما قيل:إن «إِنْ» نافيه و اللام هى الداخله على المنفى بالجبال الآيات و المعجزات كنايه و المعنى و ما كان مكرهم لتبطل به آيات اللّه و معجزاته التى هى كالجبال الراسيات التى لا تزول عن مكانها،و أيّد هذا المعنى بقراءه ابن مسعود«و ما كان مكرهم»و هو معنى بعيد.

و قرئ أيضا «لِتَزُولَ» بفتح اللام الاولى و ضم اللام الثانيه،و على هذا تكون «إِنْ» مخففه من المشدده و المعنى و التحقيق أن مكرهم كان من العظمه بحيث تزول منه الجبال.

قوله تعالى: فَلاٰ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذه الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم الى يوم القيامه أى إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبنّ اللّه مخلفا لما وعد رسله من نصرهم و مؤاخذه المتخلفين عن دعوتهم،و كيف يخلف وعده و هو عزيز ذو انتقام شديد و لازم عزته المطلقه أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأى بعروض حال ثانيه تقهره على خلاف ما بعثته اليه الحال الاولى التى أوجبت عليه الوعد و اللّه سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز و لا تقهره حال و لا شىء آخر و هو الواحد القهار.

و لازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه و استعلى عليه و ينتصف للمظلوم من الظالم.

و ذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التى سمى اللّه تعالى بها نفسه فى مواضع من كلامه و قارنه فى جميعها باسمه العزيز،قال تعالى: وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ (آل عمران۴/)، (المائده۹۵/)،و قال: أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقٰامٍ (الزمر۳۷/)،و قال فى الآيه المبحوث

عنها: إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقٰامٍ من ذلک یظهر أن «ذُو انتِقٰامٍ» من فروع اسم«العزیز» (۱).

قوله تعالی: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمٰاوٰاتُ وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ الظرف متعلق بقوله: «ذُو انتِقٰامٍ» و تخصیص انتقامه تعالی بیوم القیامه مع عمومه لجمیع الأوقات و الظروف إنما هو لکون الیوم أعلی مظاهر الانتقام الإلهی کما أن تخصیص بروزهم للّه بذلک الیوم کذلک،و علی هذا النسق جلّ الأوصاف المذکوره فی کلامه تعالی لیوم القیامه کقوله: اَلْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (الانفطار/۱۹)،و قوله: مٰا لَکُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ (المؤمن/۳۳)،الی غیر ذلک و قد تقدمت الإشاره الیه کرارا.

و الظاهر أن اللام فی الأرض للعهد فی الموضعین معا و کذا فی السماوات و السماوات معطوفه علی الأرض الاولی و المعنی تبدّل هذه الأرض غیر هذه الأرض و تبدل هذه السماوات غیر هذه السماوات.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ معنی بروزهم و ظهورهم للّه یومئذ-مع کون الأشیاء بارزه غیر خفیّه علیه دائما-سقوط جمیع العلل و الأسباب التی کانت تحجبهم عنه تعالی ما داموا فی الدنیا فلا یبقی یومئذ-علی ما یشاهدون-شیء من الأسباب یملکهم و یتولی أمرهم و یستقلّ بالتأثیر فیهم إلا اللّه سبحانه کما یدلّ علیه آیات کثیره فهم لا یلتفتون الی جانب و لا یتوجهون الی جهه فی ظاهرهم و باطنهم و حاضرهم و الماضی الغائب من أحوالهم و أعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهدا مهیمنا علیه محیطا به.

و الدلیل علی هذا الذی ذکرناه توصیفه تعالی بالواحد القهّار المشعر بنوع من الغلبه فبروزهم للّه یومئذ إنما هو ناشئ عن کونه تعالی هو الواحد الذی یقوم به وجود کل شیء و یقهر کل من دونه من مؤثر فلا یحول بینهم و بینه حائل فهم بارزون له بروزا مطلقا.

۱- ۱) .ابراهیم ۴۲-۵۲:کلام فی معنی الانتقام و نسبته الیه تعالی.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ المقرّنين من التقرين و هو جمع الشىء الى نظيره و الأصفاد جمع الصفد و هو الغلّ الذى يجمع اليد الى العنق أو هو مطلق السلسله يقرن بين المقيّدين،و السرابيل جمع السربال و هو القميص و القطران شىء أسود منتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون فيصير كالقميص عليهم،و الغشاوه بالفتح الستر و التغطيه يقال:غشى يغشى غشاوه أى ستره و غطّاه،و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ معنى الآيه واضح،و هى بظاهرها تدلّ على أن الذى تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنه أو سيئه و إن تبدّلت صورته،فهى من الآيات الدالّه على أن الذى يلحق بهم يوم القيامه هو نتيجه أعمالهم.

فالآيه تفسّر أولا معنى الجزاء فى يوم الجزاء،و ثانيا معنى انتقامه تعالى يومئذ و أنه ليس من قبيل عقوبه المجرم العاصى تشفيّا منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به و إن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه اليه.

و فى تعليل هذا الجزاء و هو فى يوم القيامه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» إيماء الى أن الجزاء واقع من غير فصل و مهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير،أو أن الحكم بالجزاء و كتابته واقع عند العمل و تحققه يوم القيامه و مآل الوجهين واحد فى الحقيقه.

قوله تعالى: هٰذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ البلاغ بمعنى التبليغ على ما ذكره الراغب أو بمعنى الكفايه على ما ذكره غيره.

و الآيه خاتمه السوره فالأنسب أن تكون الإشاره بهذا الى ما أورد فى السوره من البيان لا الى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم و لا الى ما ذكر من قوله تعالى: «وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غٰافِلاً عَمّٰا

يَعْمَلُ الظّالِمُونَ» الى آخر السوره؛كما ذكره آخرون.

و قوله: وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ الخ؛اللام فيه للغايه و هو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامه أمره و عظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الإلهيه على ما لا يطيقونه،و إنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته و هو الإنذار و العلم بوحدانيته تعالى و التذكّر، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلا و آجلا،و تتمّ عليهم الحجه بما ذكر فيها من آيات التوحيد،و يتذكّر المؤمنون منهم خاصه بما فيها من المعارف الإلهيه.

و بهذا يتطابق مختتم السوره و مفتتحها أعنى قوله فى أول السوره: «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» فقد تقدم أن مدلول الآيه أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالدعوه و التبليغ الى صراط اللّه بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات الى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوه و آمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر الى نور الإيمان بالفعل و إن لم يستجيبوا أنذروا و وقفوا على التوحيد الحق و خرجوا من الجهل الى العلم و هو نوع خروج من الظلمه الى النور و إن كان وبالا عليهم و خسارا ففى الدعوه-على أى حال-و إنذار للناس و إعلامهم أنما هو إله واحد و تذكر لاولى الألباب منهم خاصه و هم المؤمنون (۱).

ص: ۴۷۳

۱- ۱) .ابراهيم ۴۲-۵۲:بحث روائى فى يوم القيامه و تبديل الارض بغير الارض،و الجنّه و نعيمها.

سوره الحجر مکیه و هی تسع و تسعون آیه

اشاره

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱ الی ۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;الر تِلْکَ آیاتُ اَلْکِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِینٍ (۱) رُبَما یَوَدُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ کانُوا مُسْلِمِینَ (۲) ذَرْهُمْ
یَأْکُلُوا وَ یَتَمَتَّعُوا وَ یُلْهِهِمُ اَلْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۳) وَ ما أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّ وَ لَها کِتابٌ مَعْلُومٌ (۴) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجَلَها وَ ما
یَسْتَأْخِرُونَ (۵) وَ قالُوا یا أَیُّهَا اَلَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ اَلذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ ما تَأْتِینا بِالْمَلائِکَهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِینَ (۷) ما نُنَزِّلُ
اَلْمَلائِکَهَ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (۸) إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)

ص: ۴۷۴

بیان:

تشتمل السوره علی الکلام حول استهزاء الکفار بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و رمیه بالجنون و رمی القرآن الکریم بأنه من أهذار المجانین ففیها تعزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أمره بالصبر و الثبات و الصفح عنهم و تطییب لنفسه الشریفه و إنذار و تبشیر.

و هی مکیه علی ما تشهد به آیاتها،و نقل فی المجمع عن الحسن استثناء قوله: وَ لَقَدْ آتَیْنٰاکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی الآیه؛و قوله: کَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَی الْمُقْتَسِمِینَ اَلَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِینَ و سیأتی ما فیه.

و تشتمل السوره علی قوله تعالی: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ الخ؛و الآیه تقبل الانطباق علی ما ضبطه التاریخ أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم اکتتم فی أول البعثه ثلاث سنین أو أربعا أو خمسا لا یعلن دعوته لاشتداد الأمر علیه فکان لا یدعو إلا آحادا ممن یرجو منهم الایمان یدعوهم خفیه و یسرّ الیهم الدعوه حتی أذن له ربه فی ذلک و أمره أن یعلن دعوته.

و تؤیده الروایات المأثوره من طرق الشیعه و أهل السنه أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یکتتم فی أول بعثته سنین لا یظهر فیها دعوته لعامه الناس حتی أنزل اللّه تعالی علیه: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ إِنّٰا کَفَیْنٰاکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ فخرج الی الناس و أظهر الدعوه،و علیه فالسوره مکیه نازله فی أول الدعوه العلنیه.

و من غرر الآیات القرآنیه المشتمله علی حقائق جمه فی السوره قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ الآیه؛و قوله: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ.

قوله تعالی: الر تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِینٍ الإشاره الی الآیات الکریمه القرآنیه فالمراد بالکتاب القرآن،و تنکیر القرآن للدلاله علی عظم شأنه و فخامه أمره کما أن التعبیر بتلک و هی للإشاره الی البعید لذلک.

ص: ۴۷۵

و المعنی هذه الآیات العالیه منزله الرفیعه درجه التی نتنزلها الیک آیات الکتاب الإلهی و آیات قرآن عظیم الشأن فاصل بین الحق و الباطل علی خلاف ما یرمیها به الکفار بما یرمونک بالجنّه مستهزءین بکلام اللّه.

و من الممکن أن یراد بالکتاب اللوح المحفوظ فان القرآن منه و فیه،قال تعالی: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ فِی کِتٰابٍ مَکْنُونٍ (الواقعه۷۸/)،و قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج۲۲/)فیکون قوله: تِلْکَ آیٰاتُ الْکِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِینٍ کالملخص من قوله: وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف۴/).

قوله تعالی: رُبَمٰا یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ کٰانُوا مُسْلِمِینَ توطئه لما سیتعرض له من قولهم للنبی: یٰا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ یشیر به الی أنهم سیندمون علی ما هم علیه من الکفر و یتمنون الإسلام للّه و الإیمان بکتابه یوم لا سبیل لهم الی تحصیل ذلک.

فقوله: رُبَمٰا یَوَدُّ المراد به وداده التمنی لا مطلق الوداده و الحب،و الدلیل علی ذلک قوله فی بیان هذا الموده: لَوْ کٰانُوا مُسْلِمِینَ فإن لفظی «لَوْ» و «کٰانُوا» تدلان علی أن ودادتهم وداده تمنّ و أنهم یتمنون الاسلام بالنسبه الی ماضی حالهم مما فاتهم و لن یعود الیهم فلیس إلا الاسلام ما داموا فی الدنیا.

فالآیه تدلّ علی أن الذین کفروا سیندمون علی کفرهم و یتمنون أن لو کانوا مسلمین بعد انطواء بساط الحیاه الدنیا.

قوله تعالی: ذَرْهُمْ یَأْکُلُوا وَ یَتَمَتَّعُوا وَ یُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ الإلهاء الصرف و الاشتغال یقال:ألهاه کذا عن کذا أی شغله عنه و أنساه ذکره.

و قوله: ذَرْهُمْ یَأْکُلُوا وَ یَتَمَتَّعُوا وَ یُلْهِهِمُ الْأَمَلُ أمر برفع الید عنهم و ترکهم و ما هم فیه من الباطل،و هو کنایه عن النهی عن الجدال معهم و الاحتجاج علیهم لإثبات

ص :۴۷۶

هـذه الحقيقه و هی أنهم سـوف یـودّون الاسـلام و یتمنونه و لاـ سبیـل لهم الی تحصـیله و تـدارک مـا فـات منه،و قوله: «فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» فی موضع التعلیـل للأـمر أی ذرهم و لا تجادلهم و لا تحاجّهم فلا حاجه الی ذلک لأنهم سوف یعلمون ذلک فإن الحق ظاهر لا محاله.

و فی الآیه تعریض لهم أنهم لا غایه لهم فی حیاتهم إلا الأکل و التمتع بلـذات الماده و التلهّی بالآمال و الأمانی فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام و الحیوان العجم فمن الحریّ أن یترکوا و ما هم فیه،و لا یلقی الیهم الحجج الحقه المبنیه علی أساس العقل السلیم و المنطق الإنسانی.

قوله تعـالی: وَ مٰا أَهْلَکْنٰا مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ وَ لَهٰا کِتٰابٌ مَعْلُومٌ الی آخر الآیتین؛ تثبیت و توکیـد لقوله فی الآیه السابقه: «فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» علی مـا یعطیه السـیاق و المعنی دعهم فـإنهم لاـ یسـلمون فی هـذه الحیاه الـدنیا و إنما یودّون الإسـلام بعـد حلول أجلهم و نزول الهلاک بهم،و الناس لیسوا بـذوی خیره فی ذلک بل لکل أمه کتاب معلوم عند اللّه مکتوب فیه أجلهم لا یقدرون أن یسـتقدموه و لا یستأخروه ساعه.

و فی الآیتین دلاله علی أن الامه من الإنسان لها کتاب کما أن للفرد منه کتابا،قال تعالی:

وَ کُلَّ إِنْسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِی عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کِتٰاباً یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (الإسراء/ ١٣).

قوله تعالی: وَ قٰالُوا یٰا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ کلام خارج مخرج الاستهزاء،و لذلک خاطبوه صلّی اللّه علیه و آله و سـلم لا باسمه بل بوصف نزول الذکر علیه کما کان یدّعیه،و جاءوا بالفعل المجهول للدلاله علی أن منزله غیر معلوم عندهم و لا اعتماد و لا وثوق لهم بما یـدّعیه هو أن اللّه تعالی هو الـذی أنزله،و توصـیفه بالـذی نزّل علیه الـذکر و کذا تسـمیه النازل علیه ذکرا کل ذلک من الاستهزاء کما أن قولهم: «إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ» رمی و تکذیب.

قوله تعالی: لَوْ مٰا تَأْتِینٰا بِالْمَلاٰئِکَهِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ لو ما مثل هلاّ

للتحضيض أى هلاّ تأتينا بالملائكه إن كنت صادقا فى دعوى النبوّه ليشهدوا على صدق دعواك و ينذروا معك،فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه اللّه: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (الفرقان٧/).

و وجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكه و يظهروهم لهم اعتقادهم أن البشريه كينونه ماديه مغموره فى قذاره الشهوه و الغضب لا نسبه بينها و بين العالم السماوى الذى هو محض النورانيه و الطهاره فمن ادّعى نوعا من الاتصال بذاك العالم الروحانى فعليه أن يأتى ببعض أهله من الملائكه الكرام ليصدّقوه فى دعواه و يعينوه فى دعوته.

على أن الملائكه عند الوثنيين آلهه دون اللّه سبحانه فدعوتهم الى التوحيد معناه أن هؤلاء الآلهه فى معزل من الشفاعه و العباده بأمر من اللّه سبحانه و هو إله الآلهه و لا دليل على ذلك كاعترافهم به فلينزلوا و ليعترفوا و يصدّقوا،النبوه.

قوله تعالى: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ جواب عما اقترحوا على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن ياتيهم بالملائكه حتى يصدقوه و محصّل الجواب أن السنه الإلهيه جاريه على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم و أظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آيه سماويه خارقه للعاده نازله عن اقتراحهم،و من شأن الآيه المعجزه النازله عن اقتراح الناس ان يعقبها عذاب الاستئصال و الهلاك القطعى إن لم يؤمنوا بها،و هؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك.

و بالجمله لو أنزل اللّه الملائكه و الحال هذا الحال-هم يقترحون آيه فاصله تظهر الحق و تميط الباطل-لأنزلهم بالحق الفاصل المميز و ما كانوا إذا منظرين بل يهلكون و يقطع دابرهم، هذا محصّل ما ذكره بعضهم.

و يمكن أن يقرّر معنى الآيه باستمداد من التدبّر فى آيات أخر أن ظرف الحياه الماديه أعنى هذه النشأه الدنيويه ظرف يختلط فيه الحق و الباطل من غير ان يتمحّض الحق فى الظهور

ص :۴۷۸

بجميع خواصه و آثاره كما يشير اليه قوله تعالى: كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ (الرعد/١٧)،و قد تقدم تفصيل القول فى ذلك فما يظهر فيه شىء من الحق إلا و هو يحتمل شيئا من اللبس و الشك كما يصدقه استقراء الموارد التى صادفناها مدى أعمارنا،و من الشاهد عليه قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ (الأنعام/ ٩)،و الظرف ظرف الامتحان و الاختيار و لا اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل و اختلاط الخير و الشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقين و منشعب النجدين فيستدلّ على الخير و الشر بآثارهما و أماراتهما ثم يختار ما يستحقه من السعاده و الشقاوه.

قوله تعالى: إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ صدر الآيه مسوق سوق الحصر،و ظاهر السياق أن الحصر ناظر الى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهذار الجنون و أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم مجنون لا عبره بما صنع و لا حجر و من اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكه ليصدقوه فى دعوته و أن القرآن كتاب سماوى حق.

و المعنى-على هذا و اللّه أعلم-أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك و يبطلوه بعنادهم و شده بطشهم و تتكلف لحفظه ثم لا تقدر،و ليس نازلا من عند الملائكه حتى يفتقر الى نزولهم و تصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالا تدريجيا و إنا له لحافظون بما له من صفه الذكر بما لنا من العنايه الكامله به.

فهو ذكر حى خالد مصون من أن يموت و ينسى من أصله،مصون من الزياده عليه بما يبطل به كونه ذكرا،مصون من النقص كذلك،مصون من التغيير فى صورته و سياقه بحيث يتغير به صفه كونه ذكرا للّه مبيّنا لحقائق معارفه.

فالآيه تدل على كون كتاب اللّه محفوظا من التحريف بجميع أقسامه من جهه كونه ذكرا للّه

ص: ۴۷۹

سبحانه فهو ذکر حی خالد (۱).

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۱۰ الی ۱۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی شِیَعِ اَلْأَوَّلِینَ (۱۰) وَ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۱۱) کَذٰلِکَ نَسْلُکُهُ فِی قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِینَ (۱۲) لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّهُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بٰاباً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِیهِ یَعْرُجُونَ (۱۴) لَقٰالُوا إِنَّمٰا سُکِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵)

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ فِی شِیَعِ اَلْأَوَّلِینَ الی آخر الآیتین؛الشیع جمع شیعه و هی الفرقه المتفقه علی سنّه أو مذهب یتّبعونه،قال تعالی: مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کٰانُوا شِیَعاً کُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ (الروم۳۲/).

و قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا أی رسلا و قد حذف للاستغناء عنه فإن العنایه بأصل تحقق الإرسال من قبل من غیر نظر الی من أرسل بل بیان أن البشر الأولین کالآخرین جرت عادتهم علی أن لا یحترموا الرساله الإلهیه و یستهزءوا بمن أتی بها و یمضوا علی إجرامهم لتکون فی ذلک تعزیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فلا یضیق صدره بما قابلوه به من الإنکار و الاستهزاء کما سیعود الیه فی آخر السوره بقوله: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمٰا یَقُولُونَ الخ؛الآیه ۹۷ من السوره.

۱- ۱) .الحجر ۱-۹:کلام فی ان القرآن مصون عن التحریف فی فصول.

و المعنى:طب نفسا فنحن نزّلنا الذكر عليك و نحن نحفظه و لا يضيقنّ صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الامم الانسانيه أقسم لقد أرسلنا من قبلك فى فرق الأولين و شيعهم و حالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الى آخر الآيتين؛السلوك:

النفاذ و الإنفاذ يقال:سلك الطريق أى نفذ فيه و سلك الخيط فى الإبره أى أنفذه فيها و أدخله و ذكروا أن سلك و أسلك بمعنى.

و الضميران فى نَسْلُكُهُ و بِهِ للذكر المتقدم ذكره و هو القرآن الكريم و المعنى أن حال رسالتك و دعوتك بالذكر المنزل اليك تشبه حال الرساله من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد و الاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر و ننفذه فى قلوب هؤلاء المجرمين،و نبّأ به:

أنهم لا يؤمنون بالذكر و قد مضت طريقه الأولين و سنتهم فى أنهم يستهزءون بالحق و لا يتّبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله: فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

قوله تعالى: وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقٰالُوا إِنَّمٰا سُكِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا الخ؛العروج فى السماء الصعود إليها و التسكير الغشاوه.

و المراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسّر لهم به الدخول فى العالم العلوى الذى هو مأوى الملائكه و ليس كما يظنّ سقفا جرمانيا له باب ذو مصراعين يفتح و يغلق،و قد قال تعالى: فَفَتَحْنٰا أَبْوٰابَ السَّمٰاءِ بِمٰاءٍ مُنْهَمِرٍ (القمر/١١).

فالمعنى:و لو فتحنا عليهم بابا من السماء و يسّرنا لهم الدخول فى عالمها فداموا يعرجون فيه عروجا بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهده ما فيه من أسرار الغيب و ملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت امورا لا حقيقه لها بل نحن قوم مسحورون.

[سوره الحجر (١۵): الآيات ١۶ الى ٢۵]

اشاره

وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِي اَلسَّمٰاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ (١۶) وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاّٰ مَنِ اِسْتَرَقَ اَلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِينٌ (١٨) وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا اَلرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ وَ مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِينَ (٢٢) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ اَلْوٰارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا اَلْمُسْتَأْخِرِينَ (٢۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢۵)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِی السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَیَّنّاها لِلنّاظِرِینَ الی آخر الآیات الثلاث،البروج جمع برج و هو القصر سمیّت بها منازل الشمس و القمر من السماء بحسب الحسّ تشبیها لها بالقصور التی ینزلها الملوک.

و الضمیر فی قوله: وَ زَیَّنّاها للسماء کما فی قوله: وَ حَفِظْناها و تزیینها للناظرین هو ما نشاهده فی جوّها من البهجه و الجمال الذی یولّه الألباب بنجومها الزاهره و کواکبها اللامعه علی اختلاف أقدارها و تنوّع لمعاتها و قد کرّر سبحانه ذکر هذا التزیین الکاشف عن مزید عنایته به کقوله: وَ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ وَ حِفْظاً (حم السجده/

ص: ۴۸۲

۱۲)،و قوله: إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ، لاٰ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ إِلاّٰ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (الصافات۱۰/).

و استرق السمع أخذ الخبر المسموع فى خفيه كمن يصغى خفيه الى حديث قوم يسرونه فيما بينهم،و استراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطّلعوا على بعض ما يحدّث به الملائكه فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفا من آيات سوره الصافات.

و الشهاب هو الشعله الخارجه من النار و يطلق على ما يشاهد فى الجو من أجرام مضيئه كأن الواحد منها كوكب ينقضّ دفعه من جانب الى آخر فيسير سيرا سريعا ثم لا يلبث دون أن ينطفئ.

فظاهر معنى الآيات:و لقد جعلنا فى السماء-و هى جهه العلو-بروجا و قصورا هى منازل الشمس و القمر و زيناها أى السماء للناظرين بزينه النجوم و الكواكب و حفظناها أى السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطّلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استراق السمع من الشياطين بالاقتراب منه ليسمع ما يحدّث به الملائكه من أحاديث الغيب المتعلقه بمستقبل الحوادث و غيرها فإنه يتبعه شهاب مبين.

و سنتكلم إن شاء اللّه فى الشهب و معنى رمى الشياطين فيما سيأتى من تفسير سوره الصافات.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مدّ الارض بسطها طولا و عرضا و بذلك صلحت للزرع و السكنى و لو اغشيت جبالا شاهقه مضرّسه لفقدت كمال حياه الحيوان عليها.

و الرواسى صفه محذوفه الموصوف و التقدير و ألقينا فيها جبالا رواسى و هو جمع راسيه بمعنى الثابته إشاره الى ما وقع فى غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال: وَ أَلْقىٰ

فِي الْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكَمْ (النحل/۱۵).

و الموزون من الوزن و هو تقـدير الأجسام من جهه ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر و الـذراع و نحو ذلك و تقدير الحجم و تقدير الحراره و النور و القدره و غيرها،و فى كلامه تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوٰازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰامَهِ (الأنبياء/۴۷)،و هو توزين الأعمال و لا يتصف بثقل و خفه من نوع ما للأجسام الارضيه منهما.

و ربما يكنّى به عن كون الشـىء بحيث لا يزيد و لا ينقص عما يقتضـيه الطبع أو الحكمه كما يقال:كلامه موزون و قامته موزونه و أفعاله موزونه أى مستحسنه متناسبه الأجزاء لا تزيد و لا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمه.

و بالنظر الى اختلاف اعتباراته المـذكوره ذكر بعضـهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعـدنيات كالذهب و الفضه و سائر الفلزّات،و قال بعضهم:إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون،و قيل:إنه خلق كل أمر مقدّر معلوم.

و الذى يجب التنبه له التعبير بقوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ» دون أن يقال:من كل نبات موزون فهو يشـمل غير النبات مما يظهر و ينمو فى الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله:

«وَ أَنْبَتْنٰا» دون أن يقـال:أخرجنـا أو خلقنا و قـد جىء بمن و ظاهرها التبعيض فالمراد-و اللّه أعلم-إنبات كل أمر موزون ذى ثقل مـادى يمكن ان يزيـد و ينقص من الأجسـام النبـاتيه و الأرضـيه،و لا مانع على هـذا من أخـذ الموزون بكل من معنييه الحقيقى و الكنائى.

و المعنى:و الأرض بسـطناها و طرحنا فيها جبالا ثابته لتسكّنها من الميد و أنبتنا فيها من كل شىء موزون-ثقيل واقع تحت الجاذبه أو متناسب-مقدارا تقتضيه الحكمه.

قوله تعـالى: وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ المعايش جمع معيشه و هى ما به يعيش الحيوان و يـديم حياته من المأكول و المشروب و غيرهما و يأتى مصدرا

کالعیش و المعاش.

و قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِینَ معطوف علی الضمیر المجرور فی «لَکُمْ» علی ما ذهب الیه من النحاه الکوفیون و یونس و الأخفش من جواز العطف علی الضمیر المجرور من غیر إعاده الجارّ،و أما علی قول غیرهم فربما یعطف علی معایش و التقدیر و جعلنا لکم من لستم له برازقین کالعبید و الحیوان الأهلی،و ربما جعل «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر و التقدیر:

و من لستم له برازقین جعلنا له فیها معایش و هذا کله تکلف ظاهر.

و کیف کان،المراد بمن العبید و الدواب-علی ما قیل-أتی بلفظه من و هی لاولی العقل تغلیبا هذا،و لیس من البعید أن یکون المراد به کل ما عدا الإنسان من الحیوان و النبات و غیرهما فإنها تسأل الرزق کما یسأله العقلاء و من دأبه سبحانه فی کلامه أن یطلق الألفاظ المختصه بالعقلاء علی غیرهم إذا أضیف إلیها شیء من الآثار المختصه بهم کقوله تعالی فی الأصنام: فَسْئَلُوهُمْ إِنْ کٰانُوا یَنْطِقُونَ (الأنبیاء/۶۳)،و قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی (الشعراء/۷۷)،الی غیر ذلک من الآیات المتعرضه لحال الأصنام التی کانوا یعبدونها و لا یستقیم للمعبود إلا أن یکون عاقلا و کذا قوله: فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیٰا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قٰالَتٰا أَتَیْنٰا طٰائِعِینَ (حم السجده/۱۱)،و غیر ذلک.

و المعنی:و جعلنا لکم معشر البشر فی الأرض أشیاء تعیشون بها مما تدام به الحیاه و لغیرکم من أرباب الحیاه مثل ذلک.

قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ الخزائن جمع خزانه و هی مکان خزن المال و حفظه و ادّخاره،و القدر بفتحتین أو فتح فسکون مبلغ الشیء و کمیته المتعینه (۱).

ص :۴۸۵

۱- ۱) .الحجر ۱۶-۲۵:بحث فی معنی قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ» ؛الشیء؛الخزائن.

و الـذى یعطیه التدبر فی الآیه و ما یناظرها من الآیات الکریمه أنها من غرر کلامه تعالی تبیّن ما هو أدق مسـلکا و أبعد غورا مما فسّروها به و هو ظهور الأشیاء بالقدر و الأصل الذی لها قبل إحاطته بها و اشتماله علیها.

و ذلک أن ظاهر قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْ ءٍ» علی ما به من العموم بسبب وقوعه فی سیاق النفی مع تأکیده بمن،کل ما یصدق علیه أنه شیء من دون أن یخرج منه إلا ما یخرجه نفس السیاق و هو ما تدل علیه لفظه«نا»و«عند»و«خزائن»و ما عدی ذلک مما یری و لا یری مشمول للعام.

فشـخص زیـد مثلاـ و هو فرد إنسانی و نوع من الإنسان أیضا الموجود فی الخارج بأفراده من الشـیء و الآیه تثبت لـذلک خزائن عند اللّه سبحانه فلننظر ما معنی کون زید مثلا له خزائن عند اللّه؟

و الذی یسـهّل الأمر فیه أنه تعالی یعدّ هذا الشیء المذکور نازلا من عنده و النزول یستدعی علوا و سفلا و رفعه و خفضه و سماء و أرضا مثلا و لم ینزل زید المخلوق مثلا من مکان عال الی آخر سافل بشـهاده العیان فلیس المراد بإنزاله إلا خلقه لکنه ذو صفه یصـدق علیـه النزول بسـببها،و نظیر الآـیه قـوله تعـالی: وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِیَهَ أَزْوٰاجٍ (الزمر/ ۶)،و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ (الحدید/۲۵).

ثم قوله: وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ یقرن النزول و هو الخلقه بالقدر قرنا لازما غیر جائز الانفکاک لمکان الحصر،و الباء إما للسببیه أو الآـله أو المصـاحبه و المـآل واحـد فکینـونه زیـد و ظهـوره بـالوجود إنمـا هـو بمـاله مـن القـدر المعلـوم فوجـوده محـدود لا محـاله،کیف؟ و هو تعـالی بقول: إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْ ءٍ مُحِیطٌ (حم السـجده/۵۴)،و لـو لم یکن محـدودا لم یکن محاطـا له تعـالی فمن المحال أن یحاط بما لا حدّ له و لا نهایه.

و هذا القدر هو الذی بسببه یتعین الشیء و یتمیز من غیره ففی زید مثلا شیء به یتمیز من

عمرو و غيره من أفراد الانسان و يتميز من الفرس و البقر و الأرض و السماء و يجوز لنا به أن نقول:ليس هو بعمرو و لا بالفرس و البقر و الأرض و السماء و لو لا هذا الحد لكان هو هى و ارتفع التميز.

و كـذلک ما عنـده من القوى و الآثار و الأعمال محـدوده مقدّره فليس إبصاره مثلا إبصارا مطلقا فى كل حال و فى كل زمان و فى كـل مكـان و لكـل شـىء و بكـل عضو مثلا بل إبصار فى حال و زمان و مكان خاص و لشـىء خاص و بعضو خاص و على شرائـط خـاصه،و لو كـان إبصـارا مطلقـا لأحـاط بكـل إبصـار خـاص و كـان الجميع له و نظيره الكلاـم فى سائر ما يعود اليه من خصائص وجوده و توابعه فافهم ذلک.

و من هنا يظهر أن القدر خصوصـيه وجود الشـىء و كيفيه خلقته كما يسـتفاد أيضا من قوله تعالى: اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوّى و اَلَّذِى قَدَّرَ فَهَدىٰ (الأعلى/٣)،و قوله: اَلَّذِى أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ (طه/٥٠)فإن الآيه الاولى رتبت الهدايه و هى الدلاله على مقاصد الوجود على خلق الشـىء و تسويته و تقـديره،و الآيه الثانيه رتبتها على إعطائه ما يختصّ به من الخلق،و لازم ذلک-على ما يعطيه سياق الآيتين-كون قدر الشيء خصوصيه خلقه غير الخارجه عنه.

ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: «وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» و يفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما يتنزل الشـىء و لما يتمّ نزوله و يظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاده،و اليه يئول معنى قدر: وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ (الرعد/ ٨)،فإن ظاهر الآيه أن كل شـىء بماله من المقـدار حاضـر عنـده معلوم له فقوله هناک: «عِنْدَهُ بِمِقْدٰارٍ» فى معنى قوله هاهنا: «بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» و نظير ذلک قوله فى موضع آخر: قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (الطلاق/٣)،أى قدرا لا يتجاوزه معينا غير مبهم معلوما غير مجهول و بالجمله للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم و المشيه و إن كان مقارنا له غير منفک عنه فى

وجوده.

ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ» الخ؛للشیء عنده قبل نزوله الی هذه النشأه و استقراره فیها خزائن،و جعل القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله فالشیء و هو فی هذه الخزائن غیر مقدّر بقدر و لا محدود بحد و هو مع ذلک هو.

و قد جمع فی تعریف هذه الخزائن بین کونها فوق القدر الذی یلحق الشیء و بین کونها خزائن فوق الواحده و الاثنتین،و من المعلوم أن العدد لا یلحق إلا الشیء المحدود و أن هذه الخزائن لو لم تکن محدوده متمیزه بعضها من بعض کانت واحده البته.

و من هنا یتبین أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض و کل ما هو عال منها غیر محدود بحد ما هو دان غیر مقدّر بقدره و مجموعها غیر محدود بالحدّ الذی یلحق الشیء و هو فی هذه النشأه، و لا یبعد أن یکون التعبیر بالتنزیل الدال علی نوع من التدریج فی قوله: «وَ ما نُنَزِّلُهُ» إشاره الی کونه یطوی فی نزوله مرحله بعد مرحله و کلما ورد مرحله طرأه من القدر أمر جدید لم یکن قبل حتی إذا وقع فی الأخیره أحاط به القدر من کل جانب قال تعالی: هَلْ أَتیٰ عَلَی الْإِنْسانِ حِینٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ یَکُنْ شَیْئاً مَذْکُوراً (الدهر/۱)،فقد کان الإنسان و لکنه لم یکن شیئا مذکورا.

و هذه الخزائن جمیعا فوق عالمنا المشهود لأنه تعالی وصفها بأنها عنده و قد أخبرنا بقوله:

«ما عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللّٰهِ باقٍ» أن ما عنده ثابت لا یزول و لا یتغیر عما هو علیه فهذه الخزائن کائنه ما کانت أمور ثابته غیر زائله و لا متغیره،و الأشیاء فی هذه النشأه المادّیه المحسوسه متغیّره فانیه لا ثابته و لا باقیه فهذه الخزائن الإلهیه فوق عالمنا المشهود.

هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه الکریمه و هو و إن کان لا یخلو من دقه و غموض یعضل علی بادئ الفهم لکنک لو أمعنت فی التدبر و بذلت فی ذلک بعض جهدک استنار لک و وجدته من واضحات کلامه إن شاء اللّٰه تعالی و علی من لم یتیسر له قبوله أن یعتمد الوجه الثالث المتقدم

فهو أحسن الوجوه الثلاثه المتقدمه و اللّه ولی الهدایه و سنرجع الی بحث القدر فی کلام مستقل یختص به إن شاء اللّه فی موضع یناسبه.

قوله تعالی: وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَیْنٰاکُمُوهُ وَ مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِینَ اللواقح جمع لاقحه من اللقح بالفتح فالسکون یقال:لقح النخل لقحا أی وضع اللقاح-بفتح اللام-و هو طلع الذکور من النخل علی الإناث لتحمل بالتمر، و قد ثبت بالأبحاث الحدیثه فی علم النبات أن حکم الزوجیه جار فی عامه النبات و أن فیه ذکوریّه و أنوثیه و أن الریاح فی مهبها تحمل الذرات من نطفه الذکور فتلقح بها الإناث،و هو قوله تعالی: «وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَوٰاقِحَ» .

و قوله: فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَیْنٰاکُمُوهُ إشاره الی المطر النازل من السحاب و قد تسلم الأبحاث العلمیه الحدیثه أن الماء الموجود فی الکره الأرضیه من الأمطار النازله علیها من السماء علی خلاف ما کانت تعتقده القدماء أنه کره ناقصه محیطه بکره الأرض إحاطه ناقصه و هو عنصر من العناصر الأربعه.

و هذه الآیه التی تثبت بشطرها الأول «وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَوٰاقِحَ» مسأله الزوجیه و اللقاح فی النبات،و بشطرها الثانی «فَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَیْنٰاکُمُوهُ» أن المیاه الموجوده المدّخره فی الأرض تنتهی الی الأمطار،و قوله تعالی السابق: وَ أَنْبَتْنٰا فِیهٰا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْزُونٍ الظاهر فی أن للوزن دخلا خاصا فی الإنبات و الإنماء من نقود العلم التی سبق إلیها القرآن الکریم الأبحاث العلمیه و هی تتلو المعجزه أو هی هی.

قوله تعالی: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ نَحْنُ الْوٰارِثُونَ الکلام مسوق للحصر یرید بیان رجوع کل التدبیر الیه،و قد کان ما عدّه من النعم کالسماء ببروجها و الأرض برواسیها،و إنبات کل شیء موزون و جعل المعایش و إرسال اللواقح و إنزال الماء من السماء إنما یتم نظاما مبنیا علی الحکمه و العلم إذا انضم الیه الحیاه و الموت و الحشر،و کان

مما ربما یظن أن بعض الحیاه و الموت لیس الیه تعالی و لذا أکّد الکلام و أتی بالحصر دفعا لذلک.

ثم جاء بقوله: وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ أی الباقون بعد إماتتکم المتصرفون فیما خوّلناکموه من أمتعه الحیاه کأنه تعالی یقول الینا تدبیر أمرکم و نحن محیطون بکم نحییکم بعد ما لم تکونوا فنحن قبلکم،و نمیتکم و نرثکم فنحن بعدکم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِینَ مِنْکُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِینَ لما کانت الآیات السابقه التی تعدّ النعم الإلهیه و تصف التدبیر مسوقه لبیان وحدانیته تعالی فی ربوبیته،و کان لا ینفع الخلق و النظم من غیر انضمام علمه تعالی و خاصه بمن یحییه و یمیته عقّبها بهذه الآیه الداله علی علمه بمن استقدم منهم بالوجود و من استأخر أی المتقدمین من الناس و المتأخرین علی ما یفیده السیاق.

و قیل:المراد بالمستقدمین المستقدمون فی الخیر،و قیل:المستقدمون فی صفوف الحرب، و قیل:المستقدمون الی الصف الأول فی صلاه الجماعه و المستأخرون خلافهم،و هی أقوال ردیه.

قوله تعالی: وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَکِیمٌ عَلِیمٌ الکلام مسوق للحصر أی هو یحشرهم لا غیر فهو الرب.

و أورد علیه أنه فی مثل ذلک من الحصر یکون الفعل مسلّم الثبوت و النزاع إنما هو فی الفاعل،و هاهنا لیس کذلک فإن الخصم لا یسلّم الحشر من أصله هذا.

و قد ذهب علی هذا المعترض أن الآیه حوّلت الخطاب السابق للناس عنهم الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم التفاتا فقیل «وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ» و لم یقبل:إن ربکم هو یحشرکم، و النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم مسلّم للحشر.

و بذلک یظهر نکته الالتفات فی الآیه فی مورده تعالی من التکلم مع الغیر الی الغیبه،و فی

مورد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم من الغیبه الی الخطاب،و فی مورد الناس بالعکس.

و قد ختمت الآیه بقوله: إِنَّهُ حَکِیمٌ عَلِیمٌ لأن الحشر یتوقف علی الحکمه المقتضیه لحساب الأعمال و مجازاه المحسن بإحسانه و المسیء بإساءته،و علی العلم حتی لا یغادر منهم أحد.

[سوره الحجر (۱۵): الآیات ۲۶ الی ۴۸]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ اَلْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ اَلسَّمُوم (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (۲۹) فَسَجَدَ اَلْمَلائِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰) إِلاّ إِبْلِیسَ أَبی أَنْ یَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۱) قالَ یا إِبْلِیسُ ما لَکَ أَلاّ تَکُونَ مَعَ اَلسّاجِدِینَ (۳۲) قالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَیْکَ اَللَّعْنَهَ إِلی یَوْمِ اَلدِّینِ (۳۵) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (۳۷) إِلی یَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُوم (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۳۹) إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِینَ (۴۰) قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اِتَّبَعَکَ مِنَ اَلْغاوِینَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۳) لَها سَبْعَهُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ (۴۵) اُدْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِینَ (۴۶) وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلی سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ (۴۷) لا یَمَسُّهُمْ فِیها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِینَ (۴۸)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال الراغب فی المفردات:أصل الصلصال تردّد الصوت من الشیء الیابس و منه قیل:صلّ المسمار و سمّی الطین الجاف صلصالا،قال تعالی: «مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ» «مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» و الصلصله بقیه ماء سمیت بذلک لحکایه صوت تحرّکه فی المزاده و قیل:الصلصال المنتن من الطین من قولهم:صلّ اللحم.

ص: ۴۹۲

و قال:و الحمأ و الحمأه طين أسود منتن،و قال:و قوله:من حماء مسنون قيل:متغير و قوله:لم يتسنّه معناه لم يتغير و الهاء للاستراحه.انتهى.

و قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ الخ؛المراد به بدء خلقه الإنسان بدليل قوله:

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (الم السجده٨/)، فهو إخبار عن خلقه النوع و ظهوره فی الأرض فإن خلق أول من خلق منهم و منه خلق الباقی خلق الجمیع.

قال فی مجمع البیان:و أصل آدم کان من تراب و ذلک قوله: «خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ» ثم جعل التراب طینا و ذلک قوله: «وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ثم ترک ذلک الطین حتی تغیّر و استرخی و ذلک قوله: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» ثم ترک حتی جفّ و ذلک قوله: «مِنْ صَلْصٰالٍ» فهذه الأقوال لا تناقض فیها إذ هی أخبار عن حالاته المختلفه.انتهى.

قوله تعالی: وَ الْجَانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ السَّمُومِ قال الراغب:السموم الریح الحاره تؤثر تأثیر السمّ.انتهى.و أصل الجن الستر و هو معنی سار فی جمیع ما اشتق منه کالجن و المجنه و الجنه و الجنین و الجنان بالفتح و جن علیه اللیل و غیر ذلک.

و الجنّ طائفه من الموجودات مستوره بالطبع عن حواسنا ذات شعور و إراده تکرر فی القرآن الکریم ذکرهم و نسب الیهم أعمال عجیبه و حرکات سریعه کما فی قصص سلیمان علیه السّلام و هم مکلفون و یعیشون و یموتون و یحشرون تدل علی ذلک کله آیات کثیره متفرقه فی کلامه تعالی.

و أما الجانّ فهل هو الجن بعینه أو هو أبو الجن کما أن آدم علیه السّلام أبو البشر کما عن ابن عباس أو هو إبلیس نفسه کما عن الحسن أو الجان نسل إبلیس من الجن أو هو نوع من الجن کما ذکره الراغب؟أقوال مختلفه لا دلیل علی أکثرها.

و الذی یهدی الیه التدبر فی کلامه تعالی أنه قابل فی هاتین الآیتین الإنسان بالجان فجعلهما

نوعين اثنين لا يخلوان عن نوع من الارتباط فى خلقتهما،و نظير ذلك قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (الرحمن/۱۵).

و لا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلاله على أن إبليس كان جانّا و إلا لغى قوله:

«وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه فى إبليس: كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف/۵۰)،فأفاد أن هذا الجانّ المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجنّ ثم ترك سبحانه فى سائر كلامه ذكر الجانّ من أصله و لم يذكر إلا الجن حتى فى موارد يعمّ الكلام فيها إبليس و قبيله كقوله تعالى: شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/ ۱۱۲)،و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده/۲۵)،و قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ -الى أن قال- يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا (الرحمن/۳۳).

و ظاهر هذه الآيات من جهه المقابله الواقعه فيها بين الإنسان و الجان تاره و بين الإنس و الجن أخرى أن الجنّ و الجان واحد و إن اختلف التعبير.

و ظاهر المقابله بين قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ» الخ؛و قوله: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائى و بدء ظهر و النوع كخلق الإنسان من صلصال؛و هل كان استمرار الخلقه فى أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنه الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدئ خلقه من تراب ثم استمر بالنطفه؟كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهرا غير ما فى بعض كلامه من نسبه الذريه الى إبليس كما قال:

أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي (الكهف/۵۰)،و نسبه الموت اليهم كما فى قوله:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده/۲۵)،و المألوف من نوع فيه ذريه و موت هو التناسل و الكلام بعد فى هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

و قوله: خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مقطوع الإضافه أی من قبل خلق الانسان و القرینه هی المقابله بین الخلقین.

وعد مبدأ خلق الجان فی الآیه هو نار السموم لا ینافی ما فی سوره الرحمن من عده مارجا من نار أی لهیبا مختلطا بدخان فإن الآیتین تلخصان أن مبدأ خلقه ریح سموم اشتعلت فکانت مارج نار.

فمعنی الآیتین:أقسم لقد بدأنا خلق النوع الانسانی من طین قد جفّ بعد أن کان سائلا متغیرا منتنا،و نوع الجان بدأنا خلقه من ریح حارّه حاده اشتعلت فصارت نارا.

قوله تعالی: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:البشره ظاهر الجلد و الأدمه باطنه کذا قال عامه الادباء-الی أن قال-و عبر عن الانسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحیوانات التی علیها الصوف أو الشعر أو الوبر،و استوی فی لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنی فقال تعالی: أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ و خص فی القرآن فی کل موضع اعتبر من الانسان جثته و ظاهره بلفظ البشر نحو «وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمٰاءِ بَشَراً» انتهی موضع الحاجه.

و قوله: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً بإضمار فعل و التقدیر:و اذکر إذ قال ربک،و فی الکلام التفات من التکلم مع الغیر الی الغیبه و کأن العنایه فیه مثل العنایه التی مرّت فی قوله: وَ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ یَحْشُرُهُمْ فإن هذه الآیات أیضا تکشف عن نبأ ینتهی الی الحشر و السعاده و الشقاوه الخالدتین.

علی أن التکلم مع الغیر فی السابق «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا» من قبیل تکلم العظماء عنهم و عن خدمهم و أعوانهم تعظیما أی بأخذه تعالی ملائکته الکرام معه فی الأمر و هذه العنایه مما لا یستقیم فی مثل المقام الذی یخاطب فیه الملائکه فی إخبارهم بإرادته خلق آدم علیه السّلام و أمرهم بالسجود له إذا سوّاه و نفخ فیه من روحه فافهم ذلک و معنی الآیه ظاهر.

ص :۴۹۵

قوله تعالی: فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ التسويه جعل الشیء مستويا قيّما على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغی أن يكون عليه فتسويه الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه فی موضع الذی ينبغی أن يكون فيه و على الحال التی ينبغی أن يكون عليها.

و لا يبعد أن يستفاد من قوله:«إنی خالق-فإذا سوّيته»أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدريج الزمانی فكان أولا الخلق و هو جمع الأجزاء ثم التسويه و هو تنظيم الأجزاء و وضع كل جزء فی موضعه الذی يليق به و على الحال التی تليق به ثم النفخ،و لا ينافيه ما فی قوله تعالی: خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/۵۹)،فإن قوله: «ثُمَّ قٰالَ لَهُ» الخ؛ناظر الی كينونه الروح و هو النفس الانسانيه دون البدن كما عبّر عنه فی موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدريج بقوله: ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/ ۱۴).

و قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ إدخال الهواء فی داخل الأجسام بفم أو غيره و يكنّی به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس فی شیء،و يعنی به فی الآيه إيجاده تعالی الروح الانسانی بما له من الرابطه و التعلق بالبدن،و ليس بداخل فيه دخول الهواء فی الجسم المنفوخ فيه كما يشير اليه قوله سبحانه: ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظٰاماً فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ (المؤمنون/۱۴)،و قوله تعالی: قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده/ ۱۱).

فالآيه الاولی-كما تری-تبين أن الروح الانسانی هو البدن منشأ خلقا آخر و البدن على حاله من غير أن يزاد فيه شیء،و الآيه الثانيه تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن و البدن على حاله من غير أن ينقص منه شیء.

فالروح أمر موجود فی نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به و له استقلال عن البدن إذا انقطع تعلقه به و فارقه و قد تقدم بعض ما يتعلق من الکلام بهذا المقام فی تفسير قوله تعالی: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتٌ (البقره۱۵۴/)فی الجزء الأول من الکتاب.

و نرجو أن نستوفی هذا البحث فی ذيل قوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» الآيه ۸۵ من سوره الإسراء إن شاء اللّه.

و إضافه الروح اليه تعالی فی قوله: «مِنْ رُوحِی» للتکرمه و التشريف من الإضافه اللاميه المفيده للملک،و قوله: «فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ» أی اسجدوا،و لا يبعد أن يفهم منه أن خرّوا علی الأرض ساجدين له فيفيد التأکيد فی الخضوع من الملائکه لهذا المخلوق الجديد کما قيل.

و معنی الآيه فإذا عدّلت ترکيبه و أتممت صنع بدنه و أوجدت الروح الکريم المنسوب إلیّ الذی أربط بينه و بين بدنه فقعوا و خرّوا علی الأرض ساجدين له.

قوله تعالی: فَسَجَدَ الْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبیٰ أَنْ يَکُونَ مَعَ السّٰاجِدِينَ لفظه أجمعون تأکيد بعد تأکيد لتشديده،و المراد أن الملائکه سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد و قد استثنی من ذلک إبليس و لم يکن منهم لقوله تعالی: کٰانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الکهف۵۰/)،و أما قول من قال:إن طائفه من الملائکه کانوا يسمعون الجن و کان إبليس منهم أو أن الجن بمعنی الستر فيعم الملائکه و غيرهم فمما لا يصغی اليه،و قد تقدم فی تفسير سوره الأعراف کلام فی معنی شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم کونه من الملائکه،و معنی الآيتين ظاهر.

قوله تعالی: قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا لَکَ أَلاّٰ تَکُونَ مَعَ السّٰاجِدِينَ «مٰا لَکَ» مبتدأ و خبر أی ما الذی هو کائن لک؟و قوله: «أَلاّٰ تَکُونَ» من قبيل نزع الخافض و التقدير فی أن لا تکون مع الساجدين و هم الملائکه،و محصّل المعنی:ما بالک لم تسجد؟

قوله تعالی: قٰالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ فی التعبیر بقوله: «لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ» دون أن یقول:لا أسجد أو لست أسجد دلاله علی أن الإباء عن السجده مقتضی ذاته و کان هو المترقب منه لو اطّلع علی جوهره فتفید الآیه بالکنایه ما یفیده قوله فی موضع آخر: أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (ص/۷۶)بالتصریح.

و قد تقدم کلام فی معنی السجود لآدم و أمر الملائکه و إبلیس بذلک و ائتمارهم و تمرده عنه، نافع فی هذا الباب فی تفسیر سورتی البقره و الأعراف من هذا الکتاب.

قول تعالی فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ، وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ الرجیم فعیل بمعنی المفعول من الرجم و هو الطرد و شاع استعماله فی الطرد بالحجاره و الحصاه، و اللعن هو الطرد و الإبعاد من الرحمه.

و من هنا یظهر أن قوله: وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ الخ؛بمنزله البیان لقوله: «فَإِنَّکَ رَجِیمٌ» فإن الرجم کان سببا لخروجه من بین الملائکه من السماء أو من المنزله الإلهیه و بالجمله من مقام القرب و هو مستوی الرحمه الخاصه الإلهیه فینطبق علی الابعاد من الرحمه و هو اللعن.

و قد نسب سبحانه هذه اللعنه المجعوله علی إبلیس فی موضع آخر الی نفسه فقال: وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ (ص/۵۸)،و قیّدها فی الآیتین جمیعا بقوله: «إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ» .

أما جعل مطلق اللعنه علیه فی قوله: «عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ» فلأن اللعن یلحق المعصیه و ما من معصیه إلا و لإبلیس فیه صنع بالإغواء و الوسوسه فهو الأصل الذی یرجع الیه کل معصیه و ما یلحقها من لعن حتی فی عین ما یعود الی أشخاص العصاه من اللعن و الوبال،و تذکّر فی ذلک ما تقدم فی ذیل قوله تعالی: لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلیٰ بَعْضٍ فَیَرْکُمَهُ جَمِیعاً فَیَجْعَلَهُ فِی جَهَنَّمَ (الأنفال/۳۷)فی الجزء التاسع من الکتاب.

علی أنه لعنه اللّه أول فاتح فتح باب معصیه اللّه و عصاه فی أمره فالیه یعود وبال هذا الطریق بسالکیه ما سلکوا فیه.

و أما جعل لعنته خاصه علیه فی قوله:«علیه لعنتی»فلأن الإبعاد من الرحمه بالحقیقه إنما یؤثر أثره إذا کان منه تعالی إذ لا یملک أحد من رحمته إعطاء و منعا إلا بإذنه فالیه یعود حقیقه الإعطاء و المنع.

علی أن اللعن من غیره تعالی بالحقیقه دعاء علیه بالإبعاد من الرحمه و أما نفس الإبعاد الذی هو نتیجه الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالی و حقیقته المبالغه فی منع الرحمه.

و قال فی المجمع:و قال بعض المحققین:إنما قال سبحانه هنا: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ» بالألف و اللام،و قال فی سوره ص: لَعْنَتِی بالإضافه لأن هناک یقول «لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ» مضافا، فقال: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی» علی المطابقه،و قال هنا: «مٰا لَکَ أَلاّٰ تَکُونَ مَعَ السّٰاجِدِینَ» و ساق الآیه علی اللام فی قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ» و قوله: «وَ الْجَانَّ» فأتی باللام أیضا فی قوله:

«وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ» انتهی و قال أیضا فی الآیه بیان أنه لا یؤمن قط.

و أما تقیید اللعنه بقوله: إِلیٰ یَوْمِ الدِّینِ فلأن اللعنه هی عنوان الإثم و الوبال العائد الی النفس من المعصیه و المعصیه محدوده بیوم القیامه فالیوم عمل و لا جزاء و غدا جزاء و لا عمل،و إن شئت فقل:هذه الدار دار کتابه الأعمال و حفظها و یوم القیامه دار الحساب و الجزاء.

قوله تعالی: قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ الانظار هو الامهال و قد صدّر کلامه بقوله: «رَبِّ» و هو یخاصمه و قد عصاه و استکبر علیه تعالی لأنه فی مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالی بما یثیر به الرحمه الإلهیه المطلقه و هو الالتجاء الیه بربوبیته له لیستجیب له و هو مغضوب علیه.

و قد صدّر مسألته بفاء التفریع فی قوله: «فَأَنْظِرْنِی» و ذکر فیه بعثه عامه البشر من غیر أن یخص بالذکر آدم أباهم الذی ابتلی بالرجم و اللعن من أجل الإباء عن السجود له و ذلک کله مبنی علی ما تقدم فی تفسیر آیات القصه فی سوره الأعراف أن المأمور به کان هو السجود

لعامه البشر و كان آدم عليه السّلام كالقنبله المنصوبه للسجود يمثل به النوع الانسانی.

و توضيحه أنه قد تقدم فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ (الأعراف١١/)أنهم إنما أمروا بالسجده لنوع الانسان لا لشخص آدم عليه السّلام و لم يكن هذه السجده تشريفا اجتماعيا من غير غايه حقيقيه بل كانت خضوعا بحسب الخلقه فهم بحسب ما أريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقته،أی إنهم مسخرون لأجله عاملون فی سبيل سعاده حياته أی إن للانسان منزله من القرب و مرحله من كمال السعاده تفوق ما للملائكه من ذلك.

فسجودهم جميعا له دليل أنهم جميعا مسخرون فی سبيل كماله من السعاده عاملون لأجل فوزه و فلاحه كملائكه الحياه و ملائكه الموت و ملائكه الأرزاق و ملائكه الوحی و المعقبات و الحفظه و الكتبه و غيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنيه فالملائكه أسباب إلهيه و أعوان للانسان فی سبيل سعادته و كماله.

و من هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجده استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان و العمل فی سبيل سعادته و إعانته علی كماله المطلوب علی خلاف ما ظهر من الملائكه فهو بإبائه عن السجده خرج من جمع الملائكه كما يفيده قوله تعالی: «مٰا لَكَ أَلاّٰ تَكُونَ مَعَ السّٰاجِدِينَ» و أظهر الخصومه لنوع الانسان و البراءه منهم ما حيوا و عاشوا أو خالدا مؤبدا.

و يؤيده جعله تعالی اللعنه المطلقه عليه من يوم أبی الی يوم الدين و هو مده مكث النوع الانسانی فی هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك و لما يدّع إبليس أنه سيغويهم و لم يقل بعد «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» مشعر بأن إباءه عن السجده نوع خصومه و عداوه منه لهذا النوع آخذا من آدم الی آخر من سيولد و يعيش من ذريته.

فكأنه عليه اللعنه فهم من قوله تعالی: «وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَهَ إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ» أنّ له شأنا مع

النوع الانسانى الى يوم القيامه و أن لشقائهم و فساد أعمالهم ارتباطا به من حيث امتنع عن السجود و لذلك سأل النظره الى يوم يبعثون مفرّعا ذلك على اللعنه المجعوله عليه فقال: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» و لم يقل:ربّ أنظرنى الى يوم يبعثون و لم يقل:أنظرنى الى يوم يموت آدم أو أنظرنى ما دام حيا يعيش بل ذكر آدم و بنيه جميعا و طلب النظره الى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنه الى يوم الدين فلما أجيب الى ما سأل أبدى ما فى كمون ذاته و قال:لاغوينهم أجمعين.

قوله تعالى: قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ جواب منه سبحانه لإبليس و فيه إجابه و ردّ أما الإجابه فبالنسبه الى أصل الإنظار الذى سأله و أما الردّ فبالنسبه الى القيد و هو أن يكون الإنظار الى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر الى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره الى يوم يبعثون بل الى يوم هو غيره و لا محاله هو قبل يوم البعث.

و ظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعيّن فى العلم الإلهى نظير قوله: وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر/۲۱)،و قوله: أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (الصافات/۴۱)فهو معلوم عند اللّه قطعا و أما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ،و قول بعضهم:أنه سبحانه أبهم اليوم و لم يبيّن فهو معلوم للّه غير معلوم لإبليس لأن فى بيانه إغراء بالمعصيه كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبه الينا غير إبهام ما ألقى الى إبليس من القول بالنسبه اليه على أن إغراء إبليس بالمعصيه و هو الأصل لكل معصيه مفروضه لا يخلو عن إشكال فافهمه.

على أن قول إبليس ثانيا «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» شاهد على أنه سيبقى الى آخر ما يعيش الإنسان فى الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: «إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أنه آخر عمر البشر العائشين فى الأرض الجائز له إغواؤهم.

ص:۵۰۱

و نسب الى ابن عباس و مال اليه الجمهور أن اليوم هو آخر أيام التكليف و هو النفخه الاولى يوم يموت الخلائق و كأنه مبنى على أن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه،و هو مده عمر الإنسان فى الدنيا،و ينتهى ذلك الى النفخه الاولى التى بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذى أنظره اللّه اليه،و بينه و بين النفخه الثانيه التى فيها يبعثون أربعمائه سنه أو اربعون سنه على اختلاف الروايات،و هى ما به التفاوت بين ما سأله إبليس و بين ما أجاب اليه اللّه سبحانه.

و هذا وجه حسن لو لا ـ ما فيه من قولهم:إن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه فإنها مقدمه لا بيّنه و لا مبيّنه و ذلك أن تعويل القوم فى ذلك على أن المستفاد من الآيات و الأخبار كون كل كفر و فسوق موجود فى النوع الإنسانى مستندا الى إغواء إبليس و وسوسته كما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (يس ۶۰/)و قوله: وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ الخ؛الى غير ذلك من الآيات.و مقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقيا،و التكليف باق ما بقى الإنسان و هو المطلوب.

و فيه أن كون المعصيه الإنسانيه مستنده بالجمله الى إغواء إبليس مستفاده من الآيات و الروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضى بقاء إبليس ما دامت المعصيه و الغوايه باقيه لا بقاءه ما دام التكليف باقيا،و لا دليل على الملازمه بين المعصيه و التكليف وجودا.

بل الحجه قائمه من العقل و النقل على أن غايه الانسان النوعيه و هى السعاده ستعمّ النوع و يتخلص المجتمع الانسانى الى الخير و الصلاح و لا يعبد على الأرض يومئذ إلا اللّه سبحانه، و ينطوى وقتئذ بساط الكفر و الفسوق،و يصفو العيش و يرتفع أمراض القلوب و وساوس الصدور،و قد تقدم تفصيل ذلك فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى و فى قصص نوح فى الجزء العاشر من الكتاب.قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِی النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (الروم۴۱/)،و قال: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ (الأنبیاء۱۰۵/).

و من ذلک یظهر أن الذی استندوا الیه من الحجّه إنما یدل علی کون یوم الوقت المعلوم الذی جعله اللّه غایه إنظار إبلیس هو یوم یصلح اللّه سبحانه المجتمع الإنسانی فینقطع دابر الفساد و لا یعبد یومئذ إلا اللّه لا یوم یموت الخلائق بالنفخه الاولی.

قوله تعالی: قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ، إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ الباء فی قوله: «بِما أَغْوَیْتَنِی» للسببیّه و«ما» مصدریه أی أتسبب بإغوائک إیّای الی التزیین لهم و ألقی الیهم ما استقر فیّ من الغوایه کما قالوا یوم القیامه علی ما حکی اللّه: أَغْوَیْناهُمْ کَما غَوَیْنا (القصص۶۳/).

و قول بعضهم:إن الباء للقسم أی أقسم بإغوائک لازیننّ؛من أردإ القول فلم یعهد فی کتاب و لا سنّه أن یقسم بمثل الإغواء و الإضلال و لیس فیه شیء مفهوم من التعظیم اللازم فی القسم.

و قد نسب لعنه اللّه فی قوله: بِما أَغْوَیْتَنِی الی اللّه سبحانه أنه أغواه و لم یردّه اللّه سبحانه الیه و لا أجاب عنه و لیس مراده به غوایته إذ عصی أمر السجده و لم یسجد لآدم علیه السّلام و الدلیل علی ذلک أن لا رابطه بین معصیته فی نفسه و بین معصیه الانسان لربه حتی یکون معصیته سبب معصیتهم و یتسبب هو بها الی إغوائهم.

و إنما یرید به ما یفیده قوله تعالی: «وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَهَ إِلی یَوْمِ الدِّینِ» من استقرار اللعنه المطلقه فیه و هی الابعاد من الرحمه و الإضلال عن طریق السعاده و هی إغواء له إثر الغوایه التی أبداها من نفسه و أتی بها من عنده فیکون من إضلاله تعالی مجازاه لا إضلالا ابتدائیا و هو جائز غیر ممتنع علیه تعالی،و لذلک لم یرده کما قال تعالی: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ (البقره۲۶/)،و قد بیّنا ذلک فی ذیل الآیه و مواضع اخری من هذا

الکتاب.

و عند هذا یستقیم معنی السببیّه أعنی إغواؤه الناس بسبب الإغواء الذی مسّه و استقر فیه فإن البعد من الرحمه و البون من السعاده لما کان لازما لنفسه بلزوم اللعنه الإلهیه له کان کلما اقترب من قلب إنسان بالوسوسه و التسویل أو استولی علی نفس من النفوس و هو بعید من الرحمه و السعاده أوجب ذلک بعد من اقترب منه أو تسلط علیه،و هو إغواؤه بإلقاء أثر الغوایه التی عنده الیه و هو ظاهر.

و قوله: لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أی لازیننّ لهم الباطل أو لازیننّ لهم المعاصی علی ما قیل و المعنی الأول أجمع و المفعول محذوف علی أی حال،و الظاهر أن المفعول معرض عنه و الفعل مستعمل استعمال اللازم،و الغرض بیان أصل التزیین کنایه عن الغرور یقال:زیّن له کذا و کذا أی حمله علیه غرورا،و ضمیر«هم»لآدم و ذریته علی ما یدلّ علیه السیاق، و المراد بالتزیین لهم فی الأرض غرورهم فی هذه الحیاه الأرضیه و هی الحیاه الدنیا و هو السبب القریب للإغواء فیکون عطف قوله: «وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» علیه من عطف المسبب علی السبب المترتب علیه.

و الآیه تشعر بل تدل علی ما قدمناه فی تفسیر آیات جنه آدم فی الجزء الأول من الکتاب أن معصیه آدم بالأکل من الشجره المنهیّه عن وسوسه إبلیس لم تکن معصیه لأمر مولوی بل مخالفه لأمر إرشادی لا یوجب نقضا فی عصمته فإنه یعرف الأرض فی الآیه ظرفا لتزیینه و إغوائه فما کان غروره لآدم و زوجته فی الجنه إلا لیخرجهما منها و ینزلهما الی الأرض فیتناسلا فیها فیغویهما و بنیهما عن الحق و یضلهم عن الصراط قال تعالی: يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا (الأعراف/۲۷).

و قوله: إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ استثنی من عموم الإغواء طائفه خاصه من البشر و هم المخلصون-بفتح اللام علی القراءه المشهوره-و السیاق یشهد أنهم الذین

اخلصوا للّه و ما أخلصهم إلا اللّه سبحانه،و قد قدمنا فی الکلام علی الإخلاص فی تفسیر سوره یوسف أن المخلصین هم الذین أخلصهم اللّه لنفسه بعد ما أخلصوا أنفسهم للّه فلیس لغیره سبحانه فیهم شرکه و لا فی قلوبهم محلّ فلا یشتغلون بغیره تعالی فما ألقاه الیهم الشیطان من حبائله و تزییناته عاد ذکرا للّه مقرّبا الیه.

و من هنا یترجح أن الاستثناء إنما هو الإغواء فقط لا منه و من التزیین بمعنی أنه لعنه اللّه یزین للکل لکن لا یغوی إلا غیر المخلصین.

و یستفاد من استثناء العباد أولا ثم تفسیره بالمخلصین أن حق العبودیه إنما هو بأن یخلص اللّه العبد لنفسه أی أن لا یملکه إلا هو و یرجع الی أن لا یری الإنسان لنفسه ملکا و أنه لا یملک نفسه و لا شیئا من صفات نفسه و آثارها و أعمالها و أن الملک-بکسر المیم و ضمها-للّه وحده.

قوله تعالی: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ ظاهر الکلام علی ما یعطیه السیاق أنه کنایه علی أن الأمر الیه تعالی لا غنی فیه عنه بوجه کما أن کون طریق السفینه علی البحر یقضی علی راکبیها بأن لا مفرّ لهم مما یستدعیه العبور علی الماء من العدّه و الوسیله و کذا کون طریق القافله علی الجبل یحوجهم الی ما یتهیّأ به لعبور قلله الشاهقه و مسالکه الصعبه فکونه صراطا علیه تعالی بالاستقامه هو أنه أمر متوقف من کل جهه الی حکمه و قضائه تعالی فإنه اللّه الذی منه یبدأ کل شیء و الیه ینتهی فلا یتحقق أمر إلا و هو ربه القیّوم علیه.

و ظاهر السیاق أیضا أن الإشاره بقوله: «هَذَا صِرَاطٌ» الخ؛الی قول إبلیس «لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاَّ عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» لما أظهر بقوله هذا أنه سینتقم منهم و یبسط سلطته بالتزیین و الإغواء علیهم جمیعا فلا یخلص منهم إلا القلیل کأنه یشیر الی أنه سیستقلّ بما عزم علیه و یعلو بإرادته علی اللّه سبحانه فیما أراد من خلقهم و استخلافهم و استعبادهم کما حکاه اللّه تعالی من قوله فی موضع آخر من قوله: وَ لاَ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شَاکِرِینَ (الأعراف/۱۷).

فمعنى الآيه أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين و استثنيت منهم من استثنيت و أظهرت نسبته الى قوّتك و مشيئتك زاعما فيه أنك مستقل به،أمر لا يملكه إلا أنا و لا يحكم فيه غيرى و لا يصدر إلا عن قضائى فإن أغويت فبإذنى أغويت و إن منعت فبمشيئتى منعت فليس اليك من الأمر شيء و لا من الملك إلا ما ملّكتك و لا من القدره إلا ما أقدرتك،و الذى أقضيه لك من السلطان أن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك،الخ.

قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ هذا هو القضاء الذى أشار سبحانه اليه فى الآيه السابقه فى أمر الإغواء و ذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع و لا نصيب.

و محصّله أن آدم و بنيه كلهم عباده لا كما قاله إبليس حيث قصر عباده على المخلصين منهم إذ قال: «إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» و لم يجعل سبحانه له عليهم-أى على العباد-سلطانا حتى يستقل بأمرهم فيغويهم،و إنما جعل له السلطان على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و ولّوه أمرهم و ألقوا اليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان.

فإذا أمعنت فى الآيه وجدتها تردّ على إبليس قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» من ثلاث جهات أصليه:

إحداها:أنه حصر عباده فى المخلصين منهم و نفى عنهم سلطان نفسه و عمّم سلطانه على الباقين و اللّه سبحانه عمّم عباده على الجميع و قصر سلطان إبليس على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و نفى سلطانه على الباقين.

و الثانيه:أنه لعنه اللّه ادّعى لنفسه الاستقلال فى إغوائهم كما يظهر من قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ» فى سياق المخاصمه و التقريع بالانتقام و اللّه سبحانه يردّ عليه بأنه منه مزعمه باطله و إنما هو عن قضاء من اللّه و سلطان بتسليطه و إنما ملّكه إغواء من اتبعه و كان غاويا فى نفسه و بسوء اختياره.

ص :۵۰۶

فلم يأت إبليس بشىء من نفسه و لم يفسد أمرا على ربه لا- فى إغوائه أهل الغوايه فإنه بقضاء من اللّه سبحانه أن يستقر لأهل الغوايه غيّهم بسببه-و قد اعترف لعنه اللّه بذلك بعض الاعتراف بقوله: «رَبِّ بِمٰا أَغْوَيْتَنِی» -و لا فى استثنائه المخلصين فإنه أيضا بقضاء من اللّه نافذ فلا حكم إلا للّه.

و هذا الذى تفيده الآيه الكريمه أعنى تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم فى أنفسهم غاوون و تخليص المخلصين و هم مخلصون فی أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من اللّه، مبنى على أصل عظيم يفيده التوحيد القرآنى المفاد بأمثال قوله تعالى: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (يوسف۶۷/)،و قوله: وَ هُوَ اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولیٰ وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُ الْحُكْمُ (القصص۷۰/)،و قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران۶۰/)،و قوله: وَ یُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ (يونس۸۲/)،و غير ذلک من الآيات الدالّه على أن كل حكم إيجابى أو سلبى فهو مملوک للّه نافذ بقضائه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ الظاهر أن «مَوْعِدٌ» اسم مكان و المراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم اللّه من العذاب.

و هذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته و رجوع الأمر كله اليه كأنه تعالى يقول له ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لک من نفسک و لم تعجزنا بل نحن سلّطناک عليهم لاتباعهم لک على أنّا سنجازيهم بعذاب جهنم.

و لكون الكلام مسوقا لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم و لم يذكر معهم إبليس و لا جزاءه بخلاف قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص۸۵/)و قوله:

فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُكُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (الإسراء۶۳/)،لأن المقام غير المقام.

قوله تعالى: لَهٰا سَبْعَهُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ لم يبين سبحانه فى شىء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أ هى كأبواب الحيطان مداخل تهدى

الجميع الى عرصه واحده أم هى طبقات و دركات تختلف فى نوع العذاب و شدته؟و كثيرا ما يسمى فى الامور المختلفه الأنواع كل نوع بابا كما يقال:أبواب الخير و أبواب الشر و أبواب الرحمه،قال تعالى: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام/۴۴)،و ربما سمى أسباب الشيء و طرق الوصول اليه أبوابا كأبواب الرزق لأنواع المكاسب و المعاملات.

و ليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثانى من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها -الى أن قال- قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها (الزمر/۷۲)،و قوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ (النساء/۱۴۵)،الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيّده قوله: لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب،و هذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقه دون الباب بمعنى المدخل و أما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

و على هذا فكون جهنم لها سبعه أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعا الى سبعه أنواع ثم انقسام كل نوع أقساما حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه،و ذلك يستدعى انقسام المعاصى الموجبه للدخول فيها سبعه أقسام،و كذا انقسام الطرق المؤديه و الأسباب الداعيه الى تلك المعاصى ذاك الانقسام،و بذلك يتأيّد ما ورد من الروايات فى هذه المعانى كما سيوافيك إن شاء اللّه.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ، اُدْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ أى إنهم مستقرون فى جنّات و عيون يقال لهم:ادخلوها بسلام لا يوصف و لا يكتنه نعته فى حال كونكم آمنين من كل شرّ و ضرّ.

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن اتّبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به فى حق المتقين من الجنه،و قد ورد تفسير التقوى فى كلامه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بالورع عن محارم اللّه،و قد تكرر فى كلامه

تعالى بشراهم بالجنه فيكون المتقون أعم من المخلصين.

فالحق أن الآيه إنما تشمل الذين استقرت فيهم ملكه التقوى و هو الورع عن محارم اللّه فاولئك هم المقضى عليهم بالسعاده و الجنه قضاء لازما،نعم المستفاد من الكتاب و السنه أن أهل التوحيد و هم من حضر الموقف بشهاده أن لا إله إلا اللّه لا يخلدون فى النار و يدخلون الجنه لا محاله،و هذا غير دلاله آيه المتقين على ذلك.

قوله تعالى: وَ نَزَعْنا مٰا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ الى آخر الآيتين.الغل الحقد،و قيل هو ما فى الصدر من حقد و حسد مما يبعث الإنسان الى إضرار الغير،و السرر جمع سرير و النصب هو التعب و العى الوارد من خارج.

يصف تعالى فى الآيتين حال المتقين فى سعادتهم بدخول الجنه،اختص بالذكر هذه الامور من بين نعم الجنه على كثرتها فإن العنايه باقتضاء من المقام متعلقه ببيان أنهم فى سلام و أمن مما ابتلى به الغاوون من بطلان السعاده و ذهاب السياده و الكرامه فذكر أنهم فى أمن من قبل أنفسهم لأن اللّه نزع ما فى صدورهم من غل فلا يهم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين و لتقابلهم معنى سيأتى فى البحث الروائى إن شاء اللّه تعالى،و أنهم فى أمن من ناحيه الأسباب و العوامل الخارجه فلا يمسهم نصب أصلا،و أنهم فى أمن و سلام من ناحيه ربهم فما هم من الجنه بمخرجين أبدا فلهم السعاده و الكرامه من كل جهه،و لا يغشاهم و لا يمسهم شقاء و وهن من جهه أصلا لا من ناحيه أنفسهم و لا من ناحيه سائر ما خلق اللّه و لا من ناحيه ربهم (۱)(۲).

ص:۵۰۹

۱- ۱) .الحجر ۲۶-۴۸:كلام فى الاقضيه التى صدرت عن مصدر العزه فى بدء خلق الانسان.

۲- ۲) .الحجر ۲۶-۴۸:بحث روائى فى:الروح التى نفخ اللّه فى آدم؛لم اضاف اللّه الروح الى نفسه؟؛زمان موت ابليس؛ ابواب جهنم.

[سوره الحجر (۱۵): الآيات ۴۹ الی ۸۴]

اشاره

نَبِّئْ عِبادِی أَنِّی أَنَا اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذابِی هُوَ اَلْعَذابُ اَلْأَلِیمُ (۵۰) وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا
سَلاماً قالَ إِنّا مِنْکُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ عَلِیمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلی أَنْ مَسَّنِیَ اَلْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ
(۵۴) قالُوا بَشَّرْناکَ بِالْحَقِّ فَلا تَکُنْ مِنَ اَلْقانِطِینَ (۵۵) قالَ وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ اَلضّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُکُمْ أَیُّهَا
اَلْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ (۵۸) إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۹) إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ اَلْغابِرِینَ
(۶۰) فَلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ اَلْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناکَ بِما کانُوا فِیهِ یَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَیْناکَ بِالْحَقِّ
وَ إِنّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّیْلِ وَ اِتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ وَ اُمْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ
ذلِکَ اَلْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ اَلْمَدِینَهِ یَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَیْفِی فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ
اِتَّقُوا اَللّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَکَ عَنِ اَلْعالَمِینَ (۷۰) قالَ هؤُلاءِ بَناتِی إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ (۷۱) لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی
سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ اَلصَّیْحَهُ مُشْرِقِینَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِیَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ حِجارَهً مِنْ سِجِّیلٍ (۷۴) إِنَّ فِی ذلِکَ
لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ (۷۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ (۷۶) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَهً لِلْمُؤْمِنِینَ (۷۷) وَ إِنْ کانَ أَصْحابُ اَلْأَیْکَهِ لَظالِمِینَ (۷۸)
فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِینٍ (۷۹) وَ لَقَدْ کَذَّبَ أَصْحابُ اَلْحِجْرِ اَلْمُرْسَلِینَ (۸۰) وَ آتَیْناهُمْ آیاتِنا فَکانُوا عَنْها مُعْرِضِینَ (۸۱) وَ
کانُوا یَنْحِتُونَ مِنَ اَلْجِبالِ بُیُوتاً آمِنِینَ (۸۲) فَأَخَذَتْهُمُ اَلصَّیْحَهُ مُصْبِحِینَ (۸۳) فَما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ (۸۴)

ص :۵۱۰

بيان:

قوله تعالى: نَبِّئْ عِبَادِی أَنِّی أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذَابِی هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ المراد بقوله: «عِبَادِی» على ما يفيده سياق الآيات مطلق العباد و لا يعبأ بما ذكره بعضهم:أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون.

و تأكيد الجملتين بالاسميه و إنّ و ضمير الفصل و اللام فی الخبر يدل على أن الصفات المذكوره فيها أعنی المغفره و الرحمه و ألم العذاب بالغه فی معناها النهايه بحيث لا تقدّر بقدر و لا يقاس بها غيرها،فما من مغفره أو رحمه إلا و يمكن أن يفرض لها مانع يمنع من إرسالها أو مقدّر يقدّرها و يحدّها،لكنه سبحانه يحكم لا معقّب لحكمه و لا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته و رحمته شیء و لا يحدّهما أمر إلا أن يشاء ذلك هو جلّ و عزّ،فليس لأحد ان ييأس من مغفرته أو يقنط من روحه و رحمته استنادا الى مانع يمنع أو رادع يردع إلا ان يخافه تعالى نفسه كما قال:

لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ (الزمر/۵۴).

و ليس لأحد أن يحقّر عذابه أو يؤمّل عجزه أو يأمن مكره و اللّه غالب على أمره و لا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون.

قوله تعالى: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الضيف معروف و يطلق على المفرد و الجمع و ربما يجمع على أضياف و ضيوف و ضيفان لكن الأفصح-كما قيل-أن لا يثنّى و لا يجمع لكونه مصدرا فی الأصل.

و المراد بالضيف الملائكه المكرمون الذين أرسلوا لبشاره إبراهيم بالولد و لهلاك قوم لوط سمّاهم ضيفا لأنهم دخلوا عليه فی صوره الضيف.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا لاَ

تَوْجَلْ إِنّٰا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ عَلِيمٍ ضمير الجمع فی«دخلوا و قالوا»فی الموضعين للملائکه فقولهم: «سَلاٰماً» تحيه و تقديره نسلم عليک سلاما و قول إبراهيم عليه السّلام «إِنّٰا مِنْکُمْ وَجِلُونَ» أی خائفون و الوجل:الخوف.

و إنما قال لهم إبراهيم ذلک بعد ما استقر بهم المجلس و قدّم اليهم عجلا حنيذا فلم يأکلوا منه فلما رأی أيديهم لا تصل اليه نکرهم و أوجس منهم خيفه کما فی سوره هود فالقصه مذکوره علی نحو التلخيص.

و قولهم: لاٰ تَوْجَلْ تسکين لوجله و تأمين له و تطييب لنفسه بأنهم رسل ربه و قد دخلوا عليه ليبشّروه بغلام عليم أی بولد يکون غلاما و عليما،و لعل المراد کونه عليما بتعليم اللّه و وحيه فيقرب من قوله فی موضع آخر: وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا (الصافات١١٢/).

قوله تعالی: قٰالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلیٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ تلقی إبراهيم عليه السّلام البشری و هو شيخ کبير هرم لا عقب له من زوجه و قد أيأسته العاده الجاريه عن الولد و ابن کان يجلّ أن يقنط من رحمه اللّه و نفوذ قدرته،و لذا تعجب من قولهم و استفهمهم کيف يبشّرونه بالولد و حاله هذه الحال؟و زوجه عجوز عقيم کما وقع فی موضع آخر من کلامه تعالی.

فقوله: قٰالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلیٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْکِبَرُ الکبر کنايه عن الشيخوخه و مسّه هو نيله منه ما نال بإفناء شبابه و إذهاب قواه،و المعنی إنی لأتعجب من بشارتکم إيای و الحال أنی شيخ هرم فنی شبابی و فقدت قوی بدنی،و العاده تستدعی أن لا يولد لمن هذا شأنه ولد.

و قوله: فَبِمَ تُبَشِّرُونَ تفريع علی قوله: «مَسَّنِيَ الْکِبَرُ» و هو استفهام عمّا بشّروه به کأنه يشکّ فی کون بشارتهم بشری بالولد مع تصريحهم بذلک لا استبعاد ذلک فيسأل ما هو الذی تبشّرون به؟فإن الذی يدل عليه ظاهر کلامکم أمر عجيب،و هذا شائع فی الکلام يقول

ص:۵۱۳

الرجل إذا أخبر بما يستبعده أو لا يصدقه:ما تقول؟و ما تريد؟و ما ذا تصنع؟.

قوله تعالى: قَالُوا بَشَّرْنَاکَ بِالْحَقِّ -الی قوله- إِلاَّ الضّالُّونَ الباء فی «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أی إن بشارتنا ملازمه للحق غیر منفکه منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتکون من القانطین من رحمه اللّه،و هذا جواب للملائکه و قد قابلهم إبراهیم علیه السّلام علی نحو التکنیه فقال:

«وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ» و الاستفهام إنکاری أی إن القنوط من رحمه اللّه مما یختص بالضالین و لست أنا بضال فلیس سؤالی سؤال قانط مستبعد.

قوله تعالی: قالَ فَما خَطْبُکُمْ أَیُّهَا الْمُرْسَلُونَ الخطب الأمر الجلیل الشأن العظیم،و فی خطابهم بالمرسلین دلاله علی أنهم ذکروا له ذلک قبلا،و معنی الآیه ظاهر.

قوله تعالی: قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ -الی قوله- لَمِنَ الْغابِرِینَ قال فی المفردات:الغابر الماکث بعد مضیّ من هو معه قال تعالی: «إِلاّ عَجُوزاً فِی الْغابِرِینَ» یعنی فیمن طال أعمارهم،و قیل:فیمن بقی و لم یسر مع لوط،و قیل:فیمن بقی بعد فی العذاب، و فی آخر «إِلاَّ امْرَأَتَکَ کانَتْ مِنَ الْغابِرِینَ» و فی آخر «قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِینَ» -الی أن قال- و الغبار ما یبقی من التراب المثار و جعل علی بناء الدخان و العثار و نحوهما من البقایا.انتهی و لعله من هنا ما ربما یسمی الماضی و المستقبل معا غابرا أما الماضی فبعنایه أنه بقی فیما مضی و لم یتعد الی الزمان الحاضر و أما المستقبل فبعنایه أنه باق لم یفن بعد کالماضی.

و الآیات جواب الملائکه لسؤال إبراهیم «قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا» من عند اللّه سبحانه «إِلی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ» نکروهم و لم یسموهم صونا للسان عن التصریح باسمهم تنفرا منه و مستقبل الکلام یعینهم ثم استثنوا و قالوا: «إِلاّ آلَ لُوطٍ» و هم لوط و خاصته و ظهر به أن القوم قومه «إِنّا لَمُنَجُّوهُمْ» أی مخلصوهم من العذاب «أَجْمَعِینَ» و ظاهر السیاق کون الاستثناء منقطعا.

ثم استثنوا امرأه لوط من آله للدلاله علی أن النجاه لا تشملها و أن العذاب سیأخذها و یهلکها فقالوا: «إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِینَ» أی الباقین من القوم بعد خروج آل لوط

من قريتهم.

و قد تقدم تفصيل القول فى ضيف إبراهيم عليه السّلام فى سوره هود فى الجزء العاشر من الكتاب و عقدنا هناك بحثا مستقلا فيه.

قوله تعالى: فَلَمّٰا جٰاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ إنما قال لهم لوط عليه السّلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان و كان يشقه ما يراه منهم و شأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم فى سوره هود،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قٰالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ بِمٰا كٰانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَ أَتَيْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ الامتراء من المريه و هو الشكّ،و المراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذى كان ينذرهم به لوط و هم يشكون فيه،و المراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق فى أمر القوم لا معدل عنه كما وقع فى موضع آخر من قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود/ ۷۶)،و قيل:المراد«و أتيناك بالعذاب الذى لا شك فيه»و ما ذكرناه هو الوجه.

و فى آيات القصه تقديم و تأخير لا بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر فى موضع المقدم و بالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصه فى غير محله الذى يقتضيه الترتيب الطبعى و تعيّنه له سنّه الاقتصاص لنكته توجب ذلك.

و ترتيب القصه بحسب أجزائها على ما ذكرها اللّه سبحانه فى سوره هود و غيرها و الاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله: «فَلَمّٰا جٰاءَ آلَ لُوطٍ» الى تمام آيتين قبل سائر الآيات.ثم قوله: «وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ» الى تمام ستّ آيات.ثم قوله: «قٰالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ» الى تمام أربع آيات.ثم قوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَهُ مُشْرِقِينَ» الى آخر الآيات.

و حقيقه هذا التقديم و التأخير أن للقصه فصولا أربعه و قد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول و الثانى أعنى أن قوله: «وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ» الى آخره أخّر فى الذكر ليتصل آخره و هو قوله: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» بأول الفصل الأخير «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَهُ

مُشْرِقِينَ» و ذلک لیتمثل به الغرض فی الاستشهاد بالقصه و ینجلی أوضح الانجلاء و هو نزول عذاب هائل کعذابهم فی حال سکره منهم و أمن منه لا یخطر ببالهم شیء من ذلک و ذلک أبلغ فی الدهشه و أوقع فی الحسره یزید فی العذاب ألما علی ألم.

و نظیر هذا فی التلویح بهذه النکته ما فی آخر قصه أصحاب الحجر الآتیه من اتصال قوله:

«وَ کانُوا یَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً آمِنِینَ» بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَهُ مُصْبِحِینَ» کل ذلک لیجلّی معنی قوله تعالی فی صدر المقال: «وَ أَنَّ عَذابِی هُوَ الْعَذابُ الْأَلِیمُ» فافهم ذلک.

قوله تعالی: فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ الی آخر الآیه؛الإسراء هو السیر باللیل،فقوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ» یؤکده و قطع اللیل شطر مقطوع منه،و المراد باتباعه أدبارهم هو أن یسیر وراءهم فلا یترک أحدا یتخلّف عن السیر و یحملهم علی السیر الحثیث کما یشعر به قوله: «وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ» .

و المعنی:و إذ جئناک بعذاب غیر مردود و أمر من اللّه ماض یجب علیک أن تستر بأهلک لیلا و تأخذ أنت وراءهم لئلا یتخلفوا عن السیر و لا یساهلوا فیه و لا یلتفت أحد منکم الی ورائه و امضوا حیث تؤمرون،و فیه دلاله علی أنه کانت أمامهم هدایه إلهیه تهدیهم و قائد یقودهم.

قوله تعالی: وَ قَضَیْنا إِلَیْهِ ذلِکَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ القضاء مضمّن معنی الوحی و لذا عدّی بإلی-کما قیل-و المراد بالأمر أمر العذاب کما یفسره قوله: «أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِینَ» و الإشاره الیه بلفظه «ذلِکَ» للدلاله علی عظم خطره و هول أمره.

و المعنی:و قضینا أمرنا العظیم فی عذابهم موحیا ذلک الی لوط و هو أن دابر هؤلاء و أثرهم الذی من شأنه أن یبقی بعدهم من نسل و بناء و عمل مقطوع حال کونهم مصبحین أو التقدیر أوحینا الیه قاضیا،الخ.

ص :516

قوله تعالی: وَ جٰاءَ أَهْلُ الْمَدِينَهِ يَسْتَبْشِرُونَ -الی قوله- إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ يدلّ نسبه المجیء الی أهل المدينه علی كونهم جماعه عظيمه يصحّ عدّهم أهل المدينه لكثرتهم.

فالمعنی «وَ جٰاءَ» الی لوط «أَهْلُ الْمَدِينَهِ» جمع كثير منهم يريدون أضيافه و هم «يَسْتَبْشِرُونَ» لولعهم بالفحشاء و خاصه بالداخلين فی بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعا عن أضيافه «قٰالَ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ ضَيْفِی فَلاٰ تَفْضَحُونِ» بالعمل الشنيع بهم «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ قٰالُوا» المهاجمون من أهل المدينه:أ لم نقطع عذرک فی إيوائهم «أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعٰالَمِينَ» أن تؤويهم و تشفع فيهم و تدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السّلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن-كما تقدم بيانه فی سوره هود- «قٰالَ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ» .

قوله تعالی: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ -الی قوله- مِنْ سِجِّيلٍ قال فی المفردات:العماره ضدّ الخراب.قال:و العمر اسم لمده عماره البدن بالحياه فهو دون البقاء فإذا قيل:طال عمره فمعناه عماره بدنه بروحه،و إذا قيل:بقاؤه فليس يقتضی ذلک فإن البقاء ضد الفناء،و لفضل البقاء علی العمر وصف اللّه به و قلّما وصف بالعمر قال:و العمر -بالضم-و العمر-بالفتح-واحد لكن خصّ القسم بالعمر-بالفتح-دون العمر-بالضم- نحو «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِی سَكْرَتِهِمْ» ،انتهی.

و الخطاب فی لَعَمْرُكَ للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم فهو قسم ببقائه و قول بعضهم:إنه خطاب من الملائكه للوط عليه السّلام و قسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات.

و العمه هو التردد علی حيره و السجّيل حجاره العذاب و قد تقدم تفصيل القول فی معناه فی تفسير سوره هود.

و المعنی أقسم بحياتک و بقائک يا محمد إنهم لفی سكرتهم و هی غفلتهم بانغمارهم فی

الفحشاء و المنکر یترددون متحیرین «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَةُ» و هی الصوت الهائل «مُشْرِقِینَ» أی حال کونهم داخلین فی إشراق الصبح فجعلنا عالی بلادهم سافلها و فوقها تحتها و أمطرنا و أنزلنا من السماء علیهم حجاره من سجّیل.

قوله تعالی: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ -الی قوله- لِلْمُؤْمِنِینَ الآیه العلامه و المراد بالآیات أولا العلامات الدالّه علی وقوع الحادثه من بقایا الآثار و بالآیه ثانیا العلامه الدالّه للمؤمنین علی حقّیه الإنذار و الدعوه الإلهیه،و التوسّم التفرّس و الانتقال من سیماء الأشیاء علی حقیقه حالها.

و المعنی:أن فی ذلک أی فیما جری من الأمر علی قوم لوط و فی بلادهم لعلامات من بقایا الآثار للمتفرّسین و إن تلک العلامات لبسبیل للعابرین مقیم لم تعف و لم تنمح بالکلیه بعد،إن فی ذلک لآیه للمؤمنین تدلّ علی حقیّه الإنذار و الدعوه و قد تبیّن بذلک وجه إیراد الآیات جمعا و مفردا فی الموضعین.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰانَ أَصْحٰابُ الْأَیْکَهِ لَظٰالِمِینَ -الی- فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِینٍ الأیکه واحده الأیک و هو الشجر الملتف بعضه ببعض فقد کانوا-کما قیل-فی غیضه أی بقعه کثیفه الأشجار.

و هؤلاء-کما ذکروا-هم قوم شعیب علیه السّلام أو طائفه من قومه کانوا یسکنون الغیضه، و یؤیده قوله تعالی ذیلا: «وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِینٍ» أی مکانا قوم لوط و أصحاب الأیکه لفی طریق واضح فإن الذی علی طریق المدینه الی الشام هی بلاد قوم لوط و قوم شعیب الخربه أهلکهم اللّه بکفرهم و تکذیبهم لدعوه شعیب علیه السّلام و قد تقدمت قصتهم فی سوره هود.و قوله:

«فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ» الضمیر لأصحاب الأیکه و قیل:لهم و لقوم لوط.و معنی الآیتین ظاهر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ کَذَّبَ أَصْحٰابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِینَ -الی قوله- مٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح،و الحجر اسم بلده کانوا یسکنونها و عدّهم

مکذبين لجميع المرسلين و هم إنما كذبوا صالحا المرسل اليهم إنما هو لكون دعوه الرسل دعوه واحده،و المكذّب لواحد منهم مكذّب للجميع.

و قوله: وَ آتَيْنٰاهُمْ آيٰاتِنٰا فَكٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ إن كان المراد بالآيات المعجزات و الخوارق-كما هو الظاهر-فالمراد بها الناقه و شربها و ما ظهر لهم بعد عقرها الى أن أهلكوا،و قد تقدمت القصه فى سوره هود،و إن كان المراد بها المعارف الإلهيه التى بلّغها صالح عليه السّلام و نشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقّه و الآيه المعجزه فالأمر واضح.

و قوله: وَ كٰانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً آمِنِينَ أى كانوا يسكنون الغيران و الكهوف المنحوته من الحجاره آمنين من الحوادث الأرضيه و السماويه بزعمهم.

و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ أى صيحه العذاب التى كان فيها هلاكهم، و قد تقدّمت الإشاره الى مناسبه اجتماع الأمن مع الصيحه فى الآيتين لقوله فى صدر الآيات:

«وَ أَنَّ عَذٰابِي هُوَ الْعَذٰابُ الْأَلِيمُ» .

و قوله: فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ أى من الأعمال لتأمين سعادتهم فى الحياه.

[سوره الحجر (١۵): الآيات ٨۵ الى ٩٩]

اشاره

وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ اَلسّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ اَلصَّفْحَ اَلْجَمِيلَ (٨۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِيمُ (٨۶) وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعاً مِنَ اَلْمَثٰانِي وَ اَلْقُرْآنَ اَلْعَظِيمَ (٨٧) لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اِخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا اَلنَّذِيرُ اَلْمُبِينُ (٨٩) كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى اَلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) اَلَّذِينَ جَعَلُوا اَلْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِكِينَ (٩۴) إِنّٰا كَفَيْنٰاكَ اَلْمُسْتَهْزِئِينَ (٩۵) اَلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ اَلسّٰاجِدِينَ (٩٨) وَ اُعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ اَلْيَقِينُ (٩٩)

بیان:

قوله تعالى: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ الباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أى إن خلقها جميعا لا ينفكک عن الحق و يلازمه فللخلق غايه سيرجع إليها قال تعالى: إِنَّ إِلىٰ رَبِّكَ الرُّجْعىٰ (العلق/٨)،و لو لا ذلک لكان لعبا باطلا قال تعالى: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لاٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ (الدخان/٣٩)،و قال: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً (ص/٢٧)،و من الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلام بقوله: «وَ إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ» و هو ظاهر.

ص: ۵۲۰

قوله تعالى: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ قال فى المفردات:صفح الشىء عرضه و جانبه كصفحه الوجه و صفحه السيف و صفحه الحجر و الصفح ترك التثريب و هو أبلغ من العفو و لذلك قال: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ» و قد يعفو الإنسان و لا يصفح قال تعالى: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً .

و صفحت عنه أوليته صفحه جميله معرضا عن ذنبه،أو لقيت صفحته متجافيا عنه أو تجاوزت الصفحه التى أثبت فيها ذنبه من الكتاب الى غيرها من قولك تصفحت الكتاب، و قوله: «إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» فأمر له عليه السّلام أن يخفف كفر من كفر كما قال:

«وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ» و المصافحه الإفضاء بصفحه اليد.انتهى.

و سيأتى ما فى الروايه من تفسير على عليه السّلام الصفح بالعفو من غير عتاب.

و قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ تفريع على سابقه أى إذا كانت الخلقه بالحق و هناك يوم فيه يحاسبون و يجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب و الاستهزاء و اعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشه و جدال فإن ربك الذى خلقك و خلقهم هو عليم بحالك و حالهم و وراءهم يوم لا يفوتونه.

و من هنا يظهر أن قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» .

و هذه الآيات الحافّه لقوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و تطييب لنفسه ليأخذ قوله: «فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» موقعه فقد عرفت فى أول السوره أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوه و عرفت أيضا بالتدبّر فى الآيات السابقه أنها مسروده ليتخلص بها الى تسليته صلّى اللّه عليه و آله و سلم عما لقى من قومه من الإيذاء و الإهانه و الاستهزاء و يتخلص من ذلك الى الأمر المطلوب.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنٰاکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ السبع المثانی هی سوره الحمد علی ما فسّر فی عدّه من الروایات المأثوره عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل البیت علیهم السّلام فلا یصغی الی ما ذکره بعضهم:أنها السبع الطوال،و ما ذکره بعض آخر أنها الحوامیم السبع،و ما قیل:إنها سبع صحف من الصحف النازله علی الأنبیاء،فلا دلیل علی شیء منها من لفظ الکتاب و لا من جهه السنّه.

و قد کثر اختلافهم فی قوله: مِنَ الْمَثٰانِی من جهه کون مِنَ للتبعیض او للتبیین و فی کیفیه اشتقاق لفظه المثانی و وجه تسمیتها بالمثانی.

و الذی ینبغی أن یقال-و اللّه أعلم-إن «مِنَ» للتبعیض فإنه سبحانه سمّی جمیع آیات کتابه مثانی إذ قال: کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (الزمر/ ۲۳)و آیات سوره الحمد من جملتها فهی بعض المثانی لا کلها.

و الظاهر أن المثانی جمع مثنیه اسم مفعول من الثنی بمعنی اللوی و العطف و الإعاده قال تعالی: یَثْنُونَ صُدُورَهُمْ (هود/۵)،و سمیت الآیات القرآنیه مثانی لأن بعضها یوضح حال البعض و یلوی و ینعطف علیه کما یشعر به قوله: «کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ» حیث جمع بین کون الکتاب متشابها یشبه بعض آیاته بعضا و بین کون آیاته مثانی،و فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی صفه القرآن«یصدّق بعضه بعضا»و عن علی علیه السّلام فیه«ینطق بعضه ببعض و یشهد بعضه علی بعض»او هی جمع مثنی بمعنی التکریر و الإعاده کنایه عن بیان بعض الآیات ببعض.

و فی قوله: سَبْعاً مِنَ الْمَثٰانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ من تعظیم أمر الفاتحه و القرآن ما لا یخفی أما القرآن فلتوصیفه من ساحه العظمه و الکبریاء بالعظیم،و أما الفاتحه فلمکان التعبیر عنه بالنکره غیر الموصوفه «سَبْعاً» و فیه من الدلاله علی عظمه قدرها و جلاله شأنها ما لا یخفی و قد قوبل بها القرآن العظیم و هی بعضه.

و الآیه-کما تبیّن-فی مقام الامتنان و هی مع ذلک لوقوعها فی سیاق الدعوه الی الصفح

و الإعراض تفيد أن فى هذه الموهبه العظمى المتضـمنه لحقائق المعارف الإلهيه الهاديه الى كل كمال و سعاده بإذن اللّه عدّه أن تحملك على الصفح الجميل و الاشتغال بربك و التوغل فى طاعته.

قوله تعالى: لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ -الى قوله- اَلْمُبِينُ الآيتان؛فى مقام بيان الصـفح الجميل الذى تقدم الأمر به،و لذلك جیء بالكلام فى صوره الاستئناف.

و المـذكور فيهما أربعه دساتير:منفيان و مثبتان فقوله: لاٰ تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ مدّ العينين الى ما متّعوا به من زهره الحيـاه الـدنيا كنـايه عن التعـدى عن قصـر النظر على مـا آتاه اللّه من نعمه،و المراد بالأزواج الأزواج من الرجال و النساء أو الأصـناف من النـاس كالوثنيين و اليهود و النصارى و المجوس،و المعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهره و الباطنه الى ما متّعنا به أزواجا قليله أو أصنافا من الكفار.

و ربما أخذ بعضهم قوله: لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ كنايه عن إطاله النظر و إدامته،و أنت تعلم أن الغرض على أى حال النهى عن الرغبه و الميل و التعلق القلبى بما فى أيـديهم من أمتعه الحياه كالمال و الشوكه و الصـيت و الذى يكنّى به عن ذلك هو النهى عن أصـل النظر اليه لا عن إطالته و إدامته،و يشهد به ما سننقله من آيه الكهف.

و قوله: وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى من جهه تماديهم فى التكذيب و الاستهزاء و إصرارهم على أن لا يؤمنوا بك.

و قوله: وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ قالوا:هو كنايه عن التواضع و لين الجانب،و الأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم اليه أفراخه بسط جناحه عليها ثم خفضه لها، هذا.

و قوله: وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أى لا دعوى لى إلاّ أنى نذير أنذركم بعذاب

اللّه سبحانه مبين أبين لكم ما تحتاجونه الى بيانه،و ليس لى وراء ذلك من الأمر شىء.

فهذه الامور الأربعه أعنى ترك الرغبه بما فى أيديهم من متاع الحياه الدنيا و ترك الحزن عليهم إذا كفروا و استهزءوا،و خفض الجناح للمؤمنين و إظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذى يليق بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و لو أسقط منها واحد لاختل الأمر.

قوله تعالى: كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، اَلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ قال فى المجمع:عضين جمع عضه و أصله عضوه فنقصت الواو و لذلك جمعت عضين بالنون كما قيل:عزوه و عزون و الأصل عزوه،و التعضيه:التفريق مأخوذ من الأعضاء يقال:عضّيت الشىء أى فرّقته و بعّضته قال رؤبه:و ليس دين اللّه بالمعضّى،انتهى موضع الحاجه.

و قوله: كَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ لا يخلو السياق من دلاله على أنه متعلق بمقدّر يلوّح اليه قوله: «وَ قُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» أى بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين،و المراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» و هم على ما وردت به الروايه قوم من كفار قريش جزّءوا القرآن أجزاء فقالوا:سحر،و قالوا:

أساطير الأولين،و قالوا:مفترى،و تفرقوا فى مداخل طرق مكه أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم كما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء اللّه.

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوما نهضوا فى أوائل البعثه على إطفاء نور القرآن و بعّضوه أبعاضا ليصدوا عن سبيل اللّه فأنزل اللّه عليهم العذاب و أهلكهم،و هم الذين ذكروا فى الآيتين

ثم يذكر اللّه مآل أمرهم بقوله: «فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ قال فى المجمع:

الصدع و الفرق و الفصل نظائر،و صدع بالحق إذا تكلم به جهارا،انتهى.

و الآيه تفريع على ما تقدم،و من حقها أن تتفرع لأنها الغرض فى الحقيقه من السوره أى إذا كان الأمر على ما ذكر و أمرت بالصفح الجميل و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين

فأظهر كلمه الحق و أعلن الدعوه.

و بذلك يظهر أن قوله: «إِنّٰا كَفَيْنٰاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» فى مقام التعليل لقوله: «فَاصْدَعْ» الخ؛كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون المذكورون قبل،و معنى الآيه إذا كان الأمر كما ذكرناه و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلناه على المقتسمين «فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ» و أعلن الدعوه و أظهر الحق «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنّٰا» أى لأننا «كَفَيْنٰاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» بإنزال العذاب عليهم و هم «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ رجع ثانيا الى حزنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و ضيق صدره من استهزائهم لمزيد العنايه بتسليته و تطييب نفسه و تقويه روحه، و قد أكثر سبحانه فى كلامه و خاصه فى السور المكيه من ذلك لشده الأمر عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السّٰاجِدِينَ، وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ وصّاه سبحانه بالتسبيح و التحميد و السجده و العباده أو إدامه العبوديه مفرّعا ذلك على ضيق صدره بما يقولون ففى ذلك استعانه على الغمّ و المصيبه،و قد أمره فى الآيات السابقه بالصفح و الصبر،و يستفاد الأمر بالصبر أيضا من قوله: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» فإن ظاهره الأمر بالصبر على العبوديه حتى حين،و بذلك يصير الكلام قريب المضمون من قوله تعالى لدفع الشدائد و المقاومه على مرّ الحوادث: اِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ (البقره۱۵۳/).

و بذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون و أنه أمر بالصلاه و قد سميت سجودا تسميه لها باسم أفضل أجزائها و يكون المراد بالتسبيح و التحميد اللفظى منهما كقول سبحان اللّه و الحمد للّه أو ما فى معناهما نعم لو كان المراد بالصلاه فى آيه البقره التوجه الى اللّه سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح و التحميد-أو بهما و بالسجود-المعنى اللغوى و هو تنزيه تعالى عما يقولون و الثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم و التذلل له تذلل العبوديه.

و أما قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ فإن کان المراد به الأمر بالعباده کان کالمفسر للآیه السابقه و إن کان المراد الأخذ بالعبودیه-کما هو ظاهر السیاق،و خاصه سیاق الآیات السابقه الآمره بالصفح و الإعراض و لازمهما الصبر کان بقرینه تقییده بقوله:

«حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ» أمرا بانتهاج منهج التسلیم و الطاعه و القیام بلوازم العبودیّه.

و علی هذا فالمراد بإتیان الیقین حلول الأجل و نزول الموت الذی یتبدّل به الغیب من الشهاده و یعود به الخبر عیانا،و یؤید ذلک تفریع ما تقدم من قوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِیلَ» علی قوله: «وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السّٰاعَهَ لَآتِیَهٌ» فإنه بالحقیقه أمر بالعفو و الصبر علی ما یقولون لأن لهم یوما ینتقم اللّه منهم و یجازیهم بأعمالهم فیکون معنی الآیه دم علی العبودیّه و اصبر علی الطاعه و عن المعصیه و علی مرّ ما یقولون حتی یدرکک الموت و ینزل علیک عالم الیقین فتشاهد ما یفعل اللّه بهم ربک.

و فی التعبیر بمثل قوله: حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ إشعار أیضا بذلک فإن العنایه فیه بأن الیقین طالب له و سیدرکه فلیعبد ربه حتی یدرکه و یصل الیه،و هذا هو عالم الآخره الذی هو عالم الیقین العام بما وراء الحجاب دون الاعتقاد الیقینی الذی ربما یحصل بالنظر أو بالعباده (۱).

۱- ۱) .الحجر ۸۵-۹۹:بحث فلسفی فی کیفیه وجود التکلیف و دوامه.

سوره النحل مکیه و هی مائه و ثمان و عشرون آیه

اشاره

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۱ الی ۲۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِlt;br/gt;أَتیٰ أَمْرُ اَللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۱) یُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ
عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ (۲) خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۳) خَلَقَ
اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۴) وَ اَلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَکُمْ فِیهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ (۵) وَ لَکُمْ فِیهٰا جَمٰالٌ حِینَ
تُرِیحُونَ وَ حِینَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَکُمْ إِلیٰ بَلَدٍ لَمْ تَکُونُوا بٰالِغِیهِ إِلاّٰ بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۷) وَ اَلْخَیْلَ وَ
اَلْبِغٰالَ وَ اَلْحَمِیرَ لِتَرْکَبُوهٰا وَ زِینَهً وَ یَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۸) وَ عَلَی اَللّٰهِ قَصْدُ اَلسَّبِیلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاکُمْ أَجْمَعِینَ (۹) هُوَ
اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً لَکُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ (۱۰) یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ اَلزَّرْعَ وَ اَلزَّیْتُونَ وَ اَلنَّخِیلَ وَ اَلْأَعْنٰابَ وَ مِنْ
کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَکُمُ اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهٰارَ وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ وَ اَلنُّجُومُ مُسَخَّرٰاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی
ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۱۲) وَ مٰا ذَرَأَ لَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ (۱۳) وَ هُوَ اَلَّذِی سَخَّرَ
اَلْبَحْرَ لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَهً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَی اَلْفُلْکَ مَوٰاخِرَ فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۴) وَ
أَلْقیٰ فِی اَلْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ یَخْلُقُ
کَمَنْ لاٰ یَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا إِنَّ اَللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۸) وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ
(۱۹) وَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لاٰ یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْوٰاتٌ غَیْرُ أَحْیٰاءٍ وَ مٰا یَشْعُرُونَ أَیّٰانَ یُبْعَثُونَ (۲۱)

بیان:

الغالب علی الظنّ-إذا تدبّرنا السوره-أن صدر السوره مما نزلت فی أواخر عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بمکه قبیل الهجره،و هی أربعون آیه یذکر اللّه سبحانه فی شطر منهما أنواع نعمه السماویه و الأرضیه مما تقوم به حیاه الإنسان و ینتفع به فی معاشه نظاما متقنا و تدبیرا متصلا یدلّ علی وحدانیته تعالی فی ربوبیته.

و یحتجّ فی شطر آخر علی بطلان مزاعم المشرکین و خیبه مساعیهم و أنه سیجازیهم کما جازی أمثالهم من الامم الماضیه و سیفصل القضاء بینهم یوم القیامه.

و

قد افتتح سبحانه هذه الآیات بقوله: «أَتیٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ» مفرّعا آیات الاحتجاج علی ما فیه من التنزیه و التسبیح و من ذلک یعلم أن عمده الغرض فی صدر السوره الإنباء بإشراف الأمر الإلهی و دنوّه منهم و قرب نزوله علیهم،و فیه إبعاد للمشرکین فقد کانوا یستعجلون النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم-استهزاء به-لما کانوا یسمعون کلام اللّه سبحانه یذکر کثیرا نزول أمره تعالی و ینذرهم به و فیه مثل قوله للمؤمنین: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ و لیس إلاّ أمره تعالی بظهور الحق علی الباطل و التوحید علی الشرک و الإیمان علی الکفر،هذا ما یعطیه التدبر فی صدر السوره.

و أما ذیلها و هی ثمان و ثمانون آیه من قوله: وَ الَّذِینَ هٰاجَرُوا فِی اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا الی آخر السوره علی ما بینها من الاتصال و الارتباط فسیاق الآیات فیه یشبه أن تکون مما نزلت فی أوائل عهد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالمدینه بعید الهجره-فصدر السوره و ذیلها متقاربا

ص:۵۲۹

النزول و ذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلاّ على بعض الحوادث الواقعه بعيد الهجره كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اللّٰهِ الآيه،و قوله: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ الآيه النازله على قول فى سلمان الفارسى و قد آمن بالمدينه،و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُكْرِهَ الآيه النازله فى عمار-كما سيأتى-و كذا الآيات النازله فى اليهود و الآيات النازله فى الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنيه.

و مع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا الخ(الآيه ۴۱)، و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ (الآيه ۱۰۱)الى تمام آيتين أو خمس آيات،و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ (الآيه ۱۰۶)و عده آيات تتلوها.

و الإنصاف-بعد ذلك كله-أن قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا (الآيه ۴۱)الى تمام آيتين؛و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ (الآيه ۱۰۶)و بضع آيات بعدها،و قوله:

وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا (الآيه ۱۲۶)و آيتان بعدها مدنيه لشهاده سياقها بذلك،و الباقى أشبه بالمكيه منها بالمدنيه.و هذا و إن لم يوافق شيئا من المأثور لكن السياق يشهد به و هو أولى بالاتّباع.و قد مرّ فى تفسير آيه ۱۱۸ من سوره الأنعام احتمال أن تكون نازله بعد سوره النحل و هى مكيه.و الغرض الذى هو كالجامع لآيات ذيل السوره أن فيها أمرا بالصبر و وعدا حسنا على الصبر فى ذات اللّه.

و غرض السوره الإخبار بإشراف أمر اللّه و هو ظهور الدين الحق عليهم،و يوضح تعالى ذلك ببيان أن اللّه هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به،كما أن الخلقه قائمه به و لانتهاء جميع النعم اليه،و انتفاء ذلك عن غيره،فالواجب أن يعبد اللّه و لا يعبد غيره،و بيان أن الدين الحق للّه فيجب أن يؤخذ به و لا يشرّع دونه دين و رد ما أبداه المشركون من الشبهه على النبوه و التشريع و بيان أمور من الدين الإلهى.

هذا هو الذى يرومه معظم آيات السوره و تنعطف الى بيانه مره بعد مره و فى ضمنها آيات

تتعرض لأمر الهجره و ما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

قوله تعالى: أَتىٰ أَمْرُ اللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التاليه مسوقه احتجاجا عليهم،الى قوله فى الآيه الثانيه و العشرين: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ و وجه الكلام فيها الى المشركين،و هى جميعا كالمتفرعه على قوله فى ذيل هذه الآيه: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» و مقتضاه أن يكون الأمر الذى أخبر بإتيانه أمرا يطهّر ساحه الربوبيه من شركهم بحسم مادته،و لم تقع فى كلامه حكايه استعجال من المؤمنين فى أمر،بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر فى كلامه تعالى من أمر الساعه و أمر الفتح و أمر نزول العذاب،كما يشير اليه قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ -الى قوله- وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (يونس٥٣/)الى غير ذلك من الآيات.

و على هذا فالمراد بالأمر ما وعد اللّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الذين آمنوا و أوعد المشركين مره بعد مره فى كلامه أنه سينصر المؤمنين و يخزى الكافرين و يعذبهم و يظهر دينه بأمر من عنده كما قال: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ (البقره١٠٩/).و اليه يعود أيضا ضمير «فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ» على ما يفيده السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق و قربه من الظهور،و هذا شائع فى الكلام قال لمن ينتظر ورود الأمير:هذا الأمير جاء و قد دنا مجيئه و لم يجيء بعد.

و على هذا أيضا يكون قوله: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» من قبيل الالتفات من الخطاب الى الغيبه إشاره الى أنهم ينبغى أن يعرض عن مخاطبتهم و مشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم و لم يستعجلوا نزول الأمر إلاّ لشركهم استهزاء و سخريه.

قوله تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ الى آخر الآيه؛الناس على اختلافهم الشديد قديما و حديثا فى حقيقه الروح لا يختلفون فى

أنهم یفهمون منه معنی واحدا و هو ما به الحیاه التی هی ملاک الشعور و الاراده فهذا المعنی هو المراد فی الآیه الکریمه.

و أما حقیقته إجمالا فالذی یفیده مثل قوله تعالی: یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا (النبأ/۳۸)،و قوله: تَعْرُجُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ (المعارج/۴)و غیرهما أنه موجود مستقل ذو حیاه و علم و قدره و لیس من قبیل الصفات و الأحوال القائمه بالأشیاء کما ربما یتوهم،و قد أفاد بقوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» أنه من سنخ أمره،و عرف أیضا أمره بمثل قوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ (یس/۸۳)،فدل علی أنه کلمه الإیجاد التی یوجد سبحانه بها الأشیاء أی الوجود الذی یفیضه علیها لکن لا من کل جهه بل من جهه استناد الیه تعالی بلا ماده و لا زمان و لا مکان کما یفیده قوله: وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَهٌ کَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر/۵۰)فإن هذا التعبیر إنما یورد فیما لا تدریج فیه أی لا ماده و لا حرکه له،و لیکن هذا الإجمال عندک حتی یرد علیک تفصیله فیما سیأتی إن شاء اللّه فی تفسیر سوره الإسراء.

فتحصّل أن الروح کلمه الحیاه التی یلقیها اللّه سبحانه الی الأشیاء فیحییها بمشیئته،و لذلک سمّاه وحیا و عدّ إلقاءه و إنزاله علی نبیّه إیحاء فی قوله: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا (الشوری/۵۲)،فإن الوحی هو الکلام الخفی و التفهیم بطریق الإشاره و الإیماء فیکون إلقاء کلمته تعالی-کلمه الحیاه-الی قلب النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم وحیا للروح الیه،فافهم ذلک.

فقوله تعالی: «یُنَزِّلُ الْمَلاٰئِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» الباء للمصاحبه او للسببیه و لا کثیر تفاوت بینهما فی المآل کما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزیل الملائکه بمصاحبه الروح إنما هو لإلقائه فی روع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لیفیض علیه المعارف الإلهیه و کذا تنزیلهم بسبب الروح لأن کلمته تعالی أعنی کلمه الحیاه تحکم فی الملائکه و تحییهم کما تحکم فی الإنسان و تحییه،و ضمیر «یُنَزِّلُ» له تعالی و الجمله استئناف تفید تعلیل قوله فی الآیه السابقه: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا

يُشْرِكُونَ».

و المعنى:أن اللّه منزّه و متعال عن شركهم او عن الشريك الذى يدعونه له و لتنزّهه و تعاليه عن الشريك ينزّل سبحانه الملائكه بمصاحبه الروح الذى هو من سنخ أمره و كلمته فى الإيجاد -او بسببه-على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون.

و قوله: عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أى إن بعث الرسل و تنزل الملائكه بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشيه الإلهيه من غير أن يقهره تعالى فى ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل او يمنعه من الفعل كما فى سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و قوله: أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ بيان لقوله: «يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَهَ بِالرُّوحِ» لكونه فى معنى الوحى أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحى،و الإنذار هو إخبار فيه تخويف،كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب او إعلام بالمحذور كما ذكره غيره،و التقدير على الأول أخبروهم مخوّفين بوحدانيتى فى الالوهيه و وجوب تقواى،و على الثانى أعلموهم ذلك،على أن يكون «أَنَّهُ» مفعولا ثانيا لا منصوبا بنزع الخافض.

و قد علم بذلك أن قوله: «فَاتَّقُونِ» متفرع على قوله: «لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا» و الجملتان جميعا مفعول ثان او فى موضعه لقوله: «أَنْذِرُوا» و يوضح ذلك أن لا إله و هو الذى يبتدئ منه و ينتهى اليه كل شىء او المعبود بالحق من لوازم صفه ألوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقّف كل خير و سعاده اليه،فلو فرض أنه واحد لا شريك له فى ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى و هو إصلاح مقام العمل فرع لما فى مقام الاعتقاد و النظر،فعباده الآلهه الكثيرين و الخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بإله واحد لا شريك له الذى هو القيوم على كل شىء و بيده زمام كل أمر،و لذا لم يؤمر نبى أن يدعو الى توحيد من غير عمل او الى عمل من غير توحيد،

قال تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبیاء٢۵/).

فالـذی أمر الرسل بالإنـذار به فی الآیه هو مجموع قوله: «أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ» و هو تمام الـدین لاندراج الاعتقادات الحقه فی التوحید و الأحکام العملیه جمیعا فی التقوی،و لا یعبأ بما ذکره بعضـهم ان قوله: «فَاتَّقُونِ» للمستعجلین من الکفار المذکورین فی الآیه الاولی او لخصوص کفار قریش من غیر أن یکون داخلا فیما أمر به الرسل من الإنذار.

قوله تعالی: خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ تقدم معنی خلق السـماوات و الأرض بالحق،و لازم خلقها بالحق أن لا یکون للباطل فیها أثر، و لـذلک عقّبه بتنزیهه عن الشـرکاء الـذین یـدعونهم لیشـفعوا لهم عنـد اللّه و یهـدوهم الی الخیر و یقوهم الشر فإنهم من الباطل الذی لا أثر له.

و فی الآیه و الآیات التالیه لها احتجاج علی وحـدانیته تعالی فی الالوهیه و الربوبیه من جهتی الخلق و التـدبیر جمیعا فإن الخلق و الإیجاد آیه الالوهیه و کون الخلق بعضـها نعمه بالنسـبه الی بعض آیه الربوبیه لأن الشـیء لا یکون نعمه بالنسـبه الی آخر إلاّ عن ارتباط بینهما و اتصال من أحـدهما بالآخر یؤدی الی نظام جامع بینهما و تـدبیر واحد یجمعهما،و وحده التدبیر آیه وحده المدبر فکون ما فی السماوات و الأرض من مخلوق نعما للإنسان یدلّ علی أن اللّه سبحانه وحده ربه و رب کل شیء.

قوله تعالی: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ المراد به الخلق الجاری فی النوع الإنسانی و هو جعل نسـله من النطفه فلا یشمل آدم و عیسی علیهما السّلام.

و الخصـیم صـفه مشبهه من الخصومه و هی الجدال،و الآیه و إن أمکن أن تحمل علی الامتنان حیث إن من عظیم المنّ أن یبدّل اللّه سـبحانه بقـدرته التـامه قطره من ماء مهین إنسانا کامل الخلقه منطقیا متکلما ینبئ عن کل ما جلّ و دقّ ببیانه البلیغ لکن کثره الآیات التی توبّخ

الإنسان و تقرّعه علی وقاحته فی خصامه فی ربه کقوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَرَ اَلْإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ، وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ اَلْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (یس۷۸/)ترجّح أن یکون المراد بذیل الآیه بیان وقاحه الإنسان.

و یؤید ذلک أیضا بعض التأید ما فی ذیل الآیه السابقه من تنزیهه تعالی من شرکهم.

قوله تعالی: وَ اَلْأَنْعامَ خَلَقَها لَکُمْ فِیها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ الأنعام جمع نعم و هی الإبل و البقر و الغنم سمّیت بذلک لنعمه مسّها بخلاف الحافر الذی یصلب کذا فی المجمع،و فی المفردات:الدفء خلاف البرد.انتهی.و کأن المراد بالدفء ما یحصل من جلودها و أوصافها و أوبارها من الحراره للاتّقاء من البرد،او المراد بالدفء ما یدفأ به.

و المراد بالمنافع سائر ما یستفاد منها لغیر الدفء من أصوافها و أوبارها و جلودها و ألبانها و شحومها و غیر ذلک،و قوله: «لَکُمْ» یمکن أن یکون متعلقا بقوله: «خَلَقَها» و یکون قوله:

«فِیها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ» حالا من ضمیر «خَلَقَها» و یمکن أن یکون «لَکُمْ» ظرفا مستقرا متعلقا بالجمله الثانیه أی فی الأنعام دفء کائنا لکم.

قوله تعالی: وَ لَکُمْ فِیها جَمالٌ حِینَ تُرِیحُونَ وَ حِینَ تَسْرَحُونَ الجمال الزینه و حسن المنظر،قال فی المجمع:الإراحه ردّ الماشیه بالعشیّ من مراعیها الی منازلها و المکان الذی تراح فیه مراح،و السروح خروج الماشیه الی المرعی بالغداه،یقال:سرحت الماشیه سرحا و سروحا و سرحها أهلها.انتهی.

یقول تعالی:و لکم فی الأنعام منظر حسن حین تردّونها بالعشیّ الی منازلها و حین تخرجونها بالغداه الی مراعیها.

قوله تعالی: وَ تَحْمِلُ أَثْقالَکُمْ إِلی بَلَدٍ لَمْ تَکُونُوا بالِغِیهِ إِلاّ بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ الأثقال جمع ثقل و هو المتاع الذی یثقل حمله،و المراد بقوله:

«بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ» مشقه تتحمّلها الأنفس فی قطع المسافات البعیده و المسالک الصعبه.

ص:۵۳۵

و المراد أن الأنعام كالإبل و بعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيله الى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلّا بمشقه تتحمّلها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها و تسخيرها لكم إن ربكم رؤف رحيم.

قوله تعالى: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ معطوف على الأنعام فيما مرّ أى و الخيل و البغال و الحمير خلقها لكم لتركبوها، و زينه أى إن فى خلقها ارتباطا بمنافعكم و ذلك أنكم تركبونها و تتخذونها زينه و جمالا، و قوله: «وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ» أى يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان و غيره،و سخّرها لكم لتنتفعوا بها،و الدليل على ما قدّرناه هو السياق.

قوله تعالى: وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ القصد-على ما ذكره الراغب و غيره-استقامه الطريق و هو كونه قيّما على سالكيه يوصلهم الى الغايه،و الظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل و الإضافه من إضافه الصفه الى موصوفها و المراد السبيل القاصد بدليل مقابلته بقوله: «وَ مِنْها جائِرٌ» أى و من السبيل ما هو جائر أى مائل عن الغايه يورد سالكيه غيرها و يضلهم عنها.

و المراد بكون قصد السبيل على اللّه وجوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعاده و الفلاح و إذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذى أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقا هذا نعته ثم يهديهم اليه أما الجعل فهو ما جهز اللّه كل موجود و منها الإنسان من القوى و الأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدّته الى سعادته و كماله المطلوب قال تعالى:

اَلَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (طه۵۰/)،و قال فى الإنسان خاصه: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (الروم۳۰/) (۱).

ص: ۵۳۶

۱- ۱) .النحل ۱-۲۱:بحث فى السبيل القاصد،تشاجر الاشاعره و المعتزله فى الآيه «وَ عَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً لَکَمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ شروع فی نوع آخر من النعم و هی النعم النباتیه التی یقتات بها الإنسان و غیره و ما سخّر له لتدبیر أمرها کاللیل و النهار و الشمس و القمر و ما یحذو حذوها،و لذلک غیّر السیاق فقال: هُوَ الَّذِی الخ؛و لم یقل:و أنزل من السماء.

و قوله: تُسِیمُونَ من الإسامه و هی رعی المواشی و منه السائمه للماشیه الراعیه و «مِنَ» الاولی تبعیضیه و الثانیه نشویه و الشجر من النبات ما له ساق و ورق و ربما توسع فاطلق علی ذی الساق و غیره جمیعا،و منه الشجر المذکور فی الآیه لمکان قوله: «فِیهِ تُسِیمُونَ» و الباقی واضح.

قوله تعالی: یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّیْتُونَ وَ النَّخِیلَ وَ الْأَعْنٰابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ الخ؛الزیتون شجر معروف و یطلق علی ثمره أیضا یقال:إنه اسم جنس جمعی واحده زیتونه،و کذا النخیل،و یطلق علی الواحد و الجمع،و الأعناب جمع عنبه و هی ثمره شجره الکرم و یطلق علی نفس الشجره کما فی الآیه،و السیاق یفید أن قوله: «وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ» تقدیره و من کل الثمرات أنبت أشجارها.و لعل التصریح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها و عطف الباقی علیها لکونها مما یقتات بها غالبا.

و لما کان فی هذا التدبیر العام الوسیع الذی یجمع شمل الإنسان و الحیوان فی الارتزاق به حجه علی وحدانیته تعالی فی الربوبیه ختم الآیه بقوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ» .

قوله تعالی: وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهٰارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ الی آخر الآیه قد تکرّر الکلام فی معنی تسخیر اللیل و النهار و الشمس و القمر و النجوم،و لکون کل من المذکورات و کذا مجموع اللیل و النهار و مجموع الشمس و القمر و النجوم ذا خواصّ و آثار فی نفسه من شأنه أن یستقل بإثبات وحدانیته فی ربوبیته تعالی ختم الآیه بقوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» فجمع الآيات فى هذه الآيه بخلاف الآيتين السابقه و اللاحقه.

قوله تعالى: وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ الـذرء الخلق،و اختلاف ألوان ما ذرأه فى الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن و سائر المركّبات العنصريه التى ينتفع بها الانسان فى معاشه و لا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كنايه عن الاختلاف النوعى بينها فتقرب الآيه مضمونا من قوله تعالى:

وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (الرعد/۴)،و قد تقدم تقريب الاستدلال به.

و اختلاف الألوان فيما ذرأ فى الأرض كإنبات الشجر و الثمر أمر واحد يستدلّ به على وحدانيته فى الربوبيه و لذا قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» و لم قل:لآيات.

و هذه حجج ثلاث نسب الاولى الى الذين يتفكّرون،و الثانيه الى الذين يعقلون،و الثالثه الى الذين يتذكرون،و ذلك أن الحجه الاولى مؤلفه من مقدمات ساذجه يكفى فى إنتاجها مطلق التفكر،و الثانيه مؤلفه من مقدمات علميه لا يتيسر فهمها إلّا لمن غار فى أوضاع الأجرام العلويه و السفليه و عقل آثار حركاتها و انتقالاتها،و الثالثه مؤلفه من مقدمات كليه فلسفيه إنما ينالها الإنسان يتذكّر ما للوجود من الأحكام العامه الكليه كاحتياج هذه النشأه المتغيره الى الماده و كون الماده العامه واحده متشابهه الأمر،و وجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقيه الى أمر آخر وراء الماده الواحده المتشابهه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا الخ؛و هذا فصل آخر من النعم الإلهيه و هو نعم البحر و الجبال و الأنهار و السبل و العلامات و كأن ما تقدمه من الفصل مشتملا على نعم البرّ و السهل من الأشجار و الأثمار و نحوها،و لذلك قال: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ و لم يقل:و سخّر،الخ.

و الطری فعیل من الطراوه و هو الغضّ الجدید من الشیء علی ما ذکره فی المفردات،و المخر شقّ الماء عن یمین و شمال،یقال:مخرت السفینه تمخر مخرا فهی ماخره و مخر الأرض أیضا شقها للزراعه،علی ما فی المجمع و المراد بأکل اللحم الطری من البحر هو أکل لحوم الحیتان المصطاده منه،و باستخراج حلیه تلبسونها ما یستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ و المرجان التی تتحلی و تتزیّن بها النساء.

و قوله: وَ تَرَی الْفُلْکَ مَوٰاخِرَ فِیهِ أی تشاهد السفائن تشق ماءه عن الیمین و الشمال،و لعل قوله: «وَ تَرَی» من الخطابات العامه التی لا یقصد بها مخاطب خاص و کثیرا ما یستعمل کذلک و معناه یراه کل راء و یشاهده کل من له أن یشاهد فلیس من قبیل الالتفات من خطاب الجمع السابق الی خطاب الواحد.

و قوله: وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی و لتطلبوا بعض رزقه فی رکوب البحر و إرسال السفائن فیه،و الجمله معطوفه علی محذوف و التقدیر و تری الفلک مواخر فیه لتنالوا بذلک کذا و کذا و لتبتغوا من فضله،و هو کثیر النظیر فی کلامه تعالی.

و قوله: وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی و من الغایات فی تسخیر البحر و إجراء الفلک فیه شکرکم له المرجوّ منکم إذ هو من زیادته تعالی فی النعمه فقد أغناکم بما أنعم علیکم فی البر عن أن تتصرفوا فی البحر بالغوص و إجراء السفن و غیر ذلک لکنه تعالی زادکم بتسخیر البحر لکم نعمه لعلکم تشکرونه علی هذا الزائد فإن الإنسان قلیلا ما یتنبّه فی الضروریات أنها نعمه موهوبه من لدنه سبحانه و لو شاء لقطعها و أما الزوائد النافعه فهی أقرب من هذا التنبه و الانتقال.

قوله تعالی: وَ أَلْقیٰ فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهٰاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ قال فی المجمع:المید المیل یمینا و شمالا و هو الاضطراب ماد یمید میدا.

انتهی.

ص :۵۳۹

و قوله: أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أى كراهه أن تميد بكم أو أن لا تميد بكم و المراد أنه طرح على الارض جبالا ثوابت لئلا تضطرب و تميل يمينا و شمالا فيختلّ بذلك نظام معاشكم.

و قوله: وَ أَنْهٰاراً أى و جعل فيها أنهارا تجرى بمائها و تسوقه الى مزارعكم و بساتينكم و تسقيكم و ما عندكم من الحيوان الأهلى.

و قوله: وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ معطوف على قوله: وَ أَنْهٰاراً أى و جعل سبلا لغايه الاهتداء المرجو منكم،و السبل منها ما هى طبيعيه و هى المسافات الواقعه بين بقعتين من الأرض الواصله إحداهما بالاخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب او مانع كالسهل بين الجبلين،و منها ما هى صناعيه و هى التى تتكون بعبور المارّه و آثار الأقدام او يعملها الإنسان.

و الظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين،و لا ضير فى نسبه ما جعله الإنسان الى جعله تعالى كما نسب الأنهار و العلامات الى جعله تعالى و أكثرها من صنع الإنسان و كما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام و غيرها الى خلقه تعالى فى قوله: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ (الصافات۹۶/).

و ذلك أنها كائنه ما كانت من آثار مجعولاته تعالى و جعل الشىء ذى الأثر جعل لأثره بوجه و إن لم يكن جعلا مستقيما من غير واسطه.

قوله تعالى: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ العلامات جمع علامه و هى ما يعلم به الشىء،و هو معطوف على قوله: «أَنْهٰاراً» أى و جعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبه عن الحس و هى كل آيه و أماره طبيعيه أو وضعيه تدل على مدلولها و منها الشواخص و النصب و اللغات و الإشارات و الخطوط و غيرها.

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ و لعلّ الالتفات فيه من الخطاب الى الغيبه للتحرّز عن تكرار «تَهْتَدُونَ» بصيغه الخطاب فى آخر الآيتين.

و الآيه السابقه «وَ عَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ» المتضمنه لمسأله الهدايه المعنويه التى هى كالمعترضه بين الآيات العادّه للنعم الصوريه و إن كان الأنسب ظاهرا أن يوضع بعد هذه الآيه أعنى قوله: «وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» المتعرضه هى و ما قبلها للهدايه الصوريّه غير أن ذلك لم يكن خاليا من اللبس و إيهام التناقض بخلاف موقعها الذى هى واقعه فيه و إن كانت كالمعترضه كما هو ظاهر.

قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ -الى قوله- إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ الآيات تقرير إجمالى للحجه المذكوره تفصيلا فى ضمن الآيات الستّ عشره الماضيه و استنتاج للتوحيد و هى حجه واحده أقيمت لتوحيد الربوبيّه،و ملخصها أن اللّٰه سبحانه خالق كل شىء فهو الذى أنعم بهذه النعم التى لا يحيط بها الإحصاء التى ينتظم بها نظام الكون،و هو تعالى عالم بسرّها و علنها فهو الذى يملك الكل و يدبر الأمر فهو ربها،و ليس شىء مما يدعونه على شىء من هذه الصفات فليست أربابا فالإله واحد لا غير و هو اللّٰه عز اسمه.

و إنما سيقت آيات الخلقه لتثبيت أمر النعمه إذ من البين أنه إذا كان اللّٰه سبحانه خالقا لكل شىء موجودا له كانت آثار وجودات الأشياء و هى النعم التى يتنعم بها له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكا طلقا لا يقبل بطلانا و لا نقلا و لا تبديلا فهو سبحانه المنعم بها حقيقه لا غيره من شىء حتى الذى نفس النعمه من آثار وجوده فإنه و ما له من أثر هو للّٰه وحده.

و لذلك ضمّ الى حديث الخلق و الإنعام قوله تعالى: «وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ» لأن مجرد استناد الخلق و الإنعام الى شىء لا يستلزم ربوبيته و لا يستوجب عبادته لو لا انضمام العلم اليهما ليتم بذلك أنه مدبر يهدى كل شىء الى كماله المطلوب له و سعادته المكتوبه فى صحيفه عمله،و من المعلوم أنّ العباده إنما تستقيم عباده إذا كان المعبود موسوما بسمه العلم عالما بعباده من يعبده شاهدا لخضوعه.

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق و النعمه و العلم مقدمات لحجه واحده أقيمت على توحيد الربوبيه الذى ينكره الوثنيه كما عرفت.

فقوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ قياس ما له سبحانه من النعت الى ما لغيره منه و نفى للمساواه،و الاستفهام للإنكار،و المراد بمن لا يخلق آلهتهم الذين يدعونهم من دون اللّه.

و بيانه-كما ظهر مما تقدم-أن اللّه سبحانه يخلق الأشياء و يستمر فى خلقها فلا يستوى هو و من لا يخلق شيئا فإنه تعالى لخلقه الأشياء يملك وجوداتها و آثار وجوداتها التى هى الأنظمه الخاصه بها و النظام العام الجارى عليها.

و قوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا الخ؛إشاره الى كثره النعم الإلهيه كثره خارجه عن حيطه الإحصاء،و بالحقيقه ما من شىء إلاّ و هو نعمه إذا قيس الى النظام الكلى و إن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمه إذا قيس الى بعض آخر.

و قد علل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ اللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و هو من ألطف التعليل و أود فأفاد سبحانه أن خروج النعمه عن حد الاحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتى المغفره و الرحمه فإنه بمغفرته-و المغفره هى الستر-يستر ما فى الأشياء من وبال النقص و شوهه القصور،و برحمته-و الرحمه إتمام النقص و رفع الحاجه-يظهر فيها الخير و الكمال و يحلّيها بالجمال فببسط المغفره و الرحمه على الأشياء يكون كل شىء نافعا فى غيره خيرا مطلوبا عنده فيصير نعمه بالنسبه اليه فالأشياء بعضها نعمه لبعض فللنعمه الإلهيه من السعه و العرض ما لمغفرته و رحمته من ذلك:فإن تعدّوا نعمه اللّه لا تحصوها،فافهم ذلك.

و الآيه من الموارد التى استعملت فيها المغفره فى غير الذنب و المعصيه للأمر المولوى كما هو المعروف عند المتشرعه.

ص:۵۴۲

و قوله: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ إشاره الى الركن الثالث من أركان الربوبيه و هو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العباده و اللاعباده بالنسبه اليه فكانت عبادته لغوا لا أثر لها.

و قوله: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ إشاره الى فقدان الركن الأول من أركان الربوبيه فى آلهتهم الذين يدعون من دون اللّه و يتفرع عليه الركن الثانى و هو إيتاء النعمه،فليس الذين يدعونهم آلهه و أربابا و اللّه الرب.

و قوله: أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ إشاره الى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبيه فى أصنامهم و هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون و قد بالغ فى نفى ذلك فنفى أصل الحياه المستلزم لنفى مطلق العلم فضلا عن نوعه الكامل الذى هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون فقال: «أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰاءٍ» فأثبت الموت أولا و هو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفى الحياه ثانيا.

و خصّ من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبّادهم من الناس فقال: «وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ» أى ما يدرى الأصنام أيّان يبعث عبّادهم فإن العباده هى التى يجزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب فى الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزى عبّاده فيه عن عبادتهم،و هؤلاء لا يدرون شيئا من ذلك.

و قوله: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ بيان لنتيجه الحجه التى أقيمت فى الآيات السابقه أى إذا كان اللّه سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الالوهيه و هى المعبوديه بالحق،و غيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشىء مما تتوقف عليه و هو الخلق و الإنعام و العلم فإلهكم الذى يحق له أن يعبد واحد و لازم معناه أنه اللّه عزّ اسمه (۱).

ص :۵۴۳

۱- ۱) .النحل ۱-۲۱:بحث روائى فى:أمر اللّه.

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۲۲ الی ۴۰]

اشاره

إِلٰهُکُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ قُلُوبُهُمْ مُنْکِرَهٌ وَ هُمْ مُسْتَکْبِرُونَ (۲۲) لاٰ جَرَمَ أَنَّ اَللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاٰ
یُحِبُّ اَلْمُسْتَکْبِرِینَ (۲۳) وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۲۴) لِیَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ کٰامِلَهً یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ
اَلَّذِینَ یُضِلُّونَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَکَرَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَی اَللّٰهُ بُنْیٰانَهُمْ مِنَ اَلْقَوٰاعِدِ فَخَرَّ عَلَیْهِمُ اَلسَّقْفُ مِنْ
فَوْقِهِمْ وَ أَتٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ یُخْزِیهِمْ وَ یَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تُشٰاقُّونَ فِیهِمْ قٰالَ
اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ إِنَّ اَلْخِزْیَ اَلْیَوْمَ وَ اَلسُّوءَ عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۲۷) اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا اَلسَّلَمَ مٰا کُنّٰا نَعْمَلُ
مِنْ سُوءٍ بَلیٰ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَی اَلْمُتَکَبِّرِینَ (۲۹) وَ قِیلَ لِلَّذِینَ
اِتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا خَیْراً لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهٌ وَ لَدٰارُ اَلْآخِرَهِ خَیْرٌ وَ لَنِعْمَ دٰارُ اَلْمُتَّقِینَ (۳۰) جَنّٰاتُ عَدْنٍ
یَدْخُلُونَهٰا تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ کَذٰلِکَ یَجْزِی اَللّٰهُ اَلْمُتَّقِینَ (۳۱) اَلَّذِینَ تَتَوَفّٰاهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ طَیِّبِینَ یَقُولُونَ
سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ اُدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲) هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِیَهُمُ اَلْمَلاٰئِکَهُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ کَذٰلِکَ فَعَلَ اَلَّذِینَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰکِنْ کٰانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصٰابَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قٰالَ
اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ کَذٰلِکَ فَعَلَ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَهَلْ عَلَی اَلرُّسُلِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِینُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِجْتَنِبُوا اَلطّٰاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اَللّٰهُ وَ
مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ اَلضَّلاٰلَهُ فَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلیٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ
یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۳۷) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اَللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ بَلیٰ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ
اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۸) لِیُبَیِّنَ لَهُمُ اَلَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کٰانُوا کٰاذِبِینَ (۳۹) إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَیْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ
نَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۰)

بیان:

قوله تعالی: إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ قد تقدم الکلام فی قوله: «إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» و أنه نتیجه الحجّه التی أقیمت فی الآیات السابقه.

و قوله: فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الخ؛تفریع علیه،و افتتاح لفصل جدید من الکلام حول أعمال الکفّار من أقوالهم و أعمالهم الناشئه عن عدم إیمانهم باللّه سبحانه و إنما ذکر عدم إیمانهم بالآخره و لم یذکر عدم إیمانهم باللّه وحده لأن الذی أقیمت علیه الحجه هو التوحید الکامل و هو وجوب الاعتقاد بإله علیم قدیر خلق کل شیء و أتمّ النعمه لا لغوا باطلا بل لحق لیرجعوا الیه فیحاسبهم علی ما عملوا و یجازیهم بما اکتسبوا مما عهده الیهم من الأمر و النهی بواسطه الرسل.

فالتوحید المندوب الیه فی الآیات الماضیه هو القول بوحدانیّته تعالی و الإیمان بما أتی به رسل اللّه و الإیمان بیوم الحساب و الجزاء،و لذلک وصفهم الکفار بعدم الإیمان بالآخره لأن الإیمان بها یستلزم الإیمان بالوحدانیّه و الرساله.

و قوله: قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ أی للحق و قوله: «وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» أی عن الحق، و الاستکبار-علی ما ذکروه-طلب الترفع بترک الإذعان للحق.

و المعنی:إلهکم واحد علی ما تدل علیه الآیات الواضحه فی دلالتها،و إذا کان الأمر علی هذا الوضوح و الجلاء لا یستتر بستر و لا یرتاب فیه فهم فالذین لا یؤمنون بالآخره قلوبهم منکره للحق جاحده له عنادا و هم مستکبرون عن الانقیاد للحق من غیر حجه و لا برهان.

قوله تعالی: لاٰ جَرَمَ أَنَّ اللّٰهَ یَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُسْتَکْبِرِینَ «لاٰ جَرَمَ» کلمه مرکبه باقیه علی حاله واحده یفید معنی التحقیق علی ما ذکره الخلیل و سیبویه و الیه یرجع ما ذکره غیرهما و إن اختلفوا فی أصل ترکبه قال الخلیل:

و هو کلمه تحقیق و لا یکون إلاّ جوابا یقال:فعلوا کذا فیقول السامع:لا جرم یندمون.

و المعنی من المحقق-أو حق-أن اللّه یعلم ما یسرّون و ما یعلنون،و هو کنایه و تهدید بالجزاء السیئ أی إنّه یعلم ما یخفونه من أعمالهم و ما یظهرونه فسیجزیهم بما عملوا و یؤاخذهم علی ما أنکروا و استکبروا إنه لا یحب المستکبرین.

قوله تعالی: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ قال الراغب فی المفردات:السطر و السطر-بفتح السکون أو بفتحتین-السطر من الکتابه و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف-الی أن قال-و جمع السطر أسطر و سطور و أسطار.

قال:و أما قوله: أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ فقد قال المبرّد:هی جمع اسطوره نحو أرجوحه و أثفیه و أثافی و أحدوثه و أحادیث،و قوله تعالی: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ قٰالُوا أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ أی شیء کتبوه کذبا و مینا فیما زعموا نحو قوله تعالی: «أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَهٰا فَهِیَ تُمْلیٰ عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلاً» انتهی و قال غیره:أساطیر جمع أسطار و أسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

و قوله: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمْ مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ یمکن أن یکون القائل بعض المؤمنین و إنما قاله اختبارا لحالهم و استفهاما لما یرونه فی الدعوه النبویه،و یمکن أن یکون من المشرکین و إنما قاله لهم لیقلدهم فیما یرونه،و عبر عن القرآن بمثل قوله: مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ لنوع من

التهكم و الاستهزاء،و يمكن أن يكون شاكا متحيرا باحثا،و الآيه التاليه و كذا قوله فيما سيأتى:

«وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

و قوله: قٰالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى الـذى يسأل عنه أكاذيب خرافيه كتبها الأولون و أثبتوها و تركوها لمن خلفهم،و لازم هـذا القول دعوى أنه ليس نازلا من عند اللّه سبحانه.

قـوله تعـالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَهِ الى آخر الآـيه؛قـال فى المفردات:الوزر-بفتحـتين-الملجأ الـذى يلتجأ اليه من الجبل،قال تعالى: «كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر-بالكسر فالسكون-الثقل تشبيها بوزر الجبل،و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل،قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً» الآيه؛كقوله:

«وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ» .

قـال:و حمل وزر الغير بالحقيقه هو على نحو ما أشار اليه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بقوله:«من سنّ سـنه حسـنه كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شـىء،و من سنّ سـنّه سيئه كان له وزرها و وزر من عمل بها»أى مثل وزر من عمل بها،و قوله: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ أى لا تحمل وزره من حيث يتعرّى المحمول عنه،انتهى.

و الـذى ذكره من الحـديث النبوى مروى من طرق الخاصه و العامه جميعا و يصدّقه من الكتاب العزيز مثل قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مٰا أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور۲۱/)،و قوله: وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (يس۱۲/)و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و أما قوله فى تفسير قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«كان له وزرها و وزر من عمل بها»أى مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهرى لاـ بـأس بـأن يوجه به الآـيه و الروايه لرفع التنـاقض بينهمـا و بين مثـل قوله تعالى: لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ (الأنعام۱۶۴/)،و قوله: لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ

أَعْمٰالَهُمْ (هود١١١/)،إذ لو حمل الآمر وزر السيئه و عذّب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآيه الاولى،و لو قسّم بينهما و حمل كل منهما بعض الوزر و عذّب ببعض العذاب ناقض الآيه الثانيه،و أما لو حمل السانّ و الآمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئا.

و فى تقييد قوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ بقوله: كٰامِلَةً دفع لتوهم التقسيم و التبعيض بأن يحملوا بعضا من أوزار أنفسهم و بعضا من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزارا كامله بل يحملون أوزار أنفسهم كامله ثم من أوزار الذين يضلونهم.

و قوله: وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ من تبعيضيه لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التى ترتبت على إضلالهم خاصه بشهاده السياق فالتبعيض إنما هو لتمييز الأوزار المترتبه على الإضلال من غيرها لا للدلاله على تبعيض كل وزر من أوزار الإضلال و حمل بعضه على هذا و بعضه على ذاك و لا تقسيم مجموع أوزار الإضلال و حمل قسم منه على هذا و قسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال٨/)تنافى ذلك فافهم.

و تقييده سبحانه قوله: يُضِلُّونَهُمْ بقوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ للدلاله على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا:أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليدا و بغير علم فالقائلون أئمه الضلال و هؤلاء الضلاّل أتباعهم و مقلّدوهم ثم ختم سبحانه الآيه بذمهم و تقبيح أمرهم جميعا فقال: «أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَزِرُونَ» .

قوله تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّٰهُ بُنْيٰانَهُمْ مِنَ الْقَوٰاعِدِ الخ؛إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضرا،و هذا شائع فى الكلام و خرور السقف سقوطه على الأرض و انهدامه.

و الظاهر-كما يشعر به السياق-أن قوله: فَأَتَى اللّٰهُ بُنْيٰانَهُمْ مِنَ الْقَوٰاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ كنايه عن إبطال كيدهم و إفساد مكرهم من حيث لا

يتوقعون كمن يتقى أمامه و يراقبه فيأتيه العدو من خلفه فاللّه سبحانه يأتى بنيان مكرهم من ناحيه قواعده و هم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

و على هذا فقوله: وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ عطف تفسيرى يفسّر قوله: «فَأَتَى اللّهُ بُنْيانَهُمْ» الخ؛و المراد بالعذاب العذاب الدنيوى.

و فى الآيه تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون باللّه و رسوله بتذكيرهم ما فعل اللّه بالماكرين من قبلهم من مستكبرى الامم الماضيه حيث ردّ مكرهم الى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

قوله تعالى: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ الإخزاء من الخزى و هو على ما ذكره الراغب الذل الذى يستحيى منه، و المشاقّه من الشقّ و هو قطع بعض الشىء و فصله منه فهى المخاصمه و المعاداه و الاختلاف ممن من شأنه أن يأتلف و يتفق فمشاقه المشركين فى شركائهم هو اختلافهم مع أهل التوحيد و هم أمه واحده فطهرهم اللّه جميعا على التوحيد و دين الحق و مخاصمتهم لهم و انفصالهم عنهم.

و المعنى:أن اللّه سبحانه سيخزيهم يوم القيامه و يضرب عليهم الذله و الهوان بقوله:أين شركائى الذين كنتم تشاقون أهل الحق فيهم و تخاصمونهم و توجدون الاختلاف فى دين اللّه.

قوله تعالى: قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ الخزى ذله الموقف و السوء العذاب على ما يفيده السياق.

و هؤلاء الذين وصفهم اللّه بأنهم اوتوا العلم و أخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم باللّه و انكشفت لهم حقيقه التوحيد فإن ذلك هو الذى يعطيه السياق من جهه المقابله بينهم مع وصفهم بالعلم و بين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلاّ

أسماء سموها و سرابا توهموه.

على أن اللّه سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ و يقولون كذا و قد قال فى وصف اليوم:

لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (النبأ/٣٨)و القول لا يكون صوابا بحق المعنى إلاّ مع كون قائله مصونا من خطأه و لغوه و باطله،و لا يكون مصونا فى قوله إلاّ إذا كان مصونا فى فعله و فى علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلاّ الحق و لا يفعلون إلاّ الحق و لا ينطقون إلاّ بالحق.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ الى آخر الآيه؛الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع فى آخر الآيه السابقه كما أن قوله الآتى:

اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ طَيِّبِينَ الخ؛تفسير للمتقين الواقع فى آخر الآيه التى قبله،و لا يستلزم كونه بيانا للكافرين كونه من تمام قول الذين اوتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم:

«إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ» الخ؛ثم بيانهم بقولهم: اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ الخ؛دون أن يقولوا:الذين توفاهم الملائكه كما لا يخفى.

و قوله: فَأَلْقَوُا السَّلَمَ أى الاستسلام و هو الخضوع و الانقياد،و ضمير الجمع للكافرين و المعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكه و يقبضون أرواحهم و الحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم باللّه فألقوا السلم و قدموا الخضوع و الانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء،فيرد عليهم قولهم و يكذبون و يقال لهم:بلى قد فعلتم و عملتم إن اللّه عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد و هو الموت.

قوله تعالى: فَادْخُلُوا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ الخطاب للمجموع كما كان قوله: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكٰافِرِينَ» و كذا قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ» الخ؛ناظرا الى جماعه الكافرين دون كلّ واحد واحد منهم.

ص :551

و على هذا يعود معناه الى مثل قولنا:ليدخل كل واحد منكم بابا من جهنم يناسب عمله و موقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب او أكثر من واحد منها،و قد تقدم الكلام فى معنى أبواب جهنم فى تفسير قوله تعالى: لَهٰا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (الحجر۴۴/).

و المتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق و إن كانت العنايه اللفظيه مختلفه فيهما كالمسلم و المستسلم فالمستكبر هو الذى يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوه الى الفعل و إظهاره لغيره،و المتكبر هو الذى يقبله لنفسه و يأخذه صفه.

قوله تعالى: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مٰا ذٰا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قٰالُوا خَيْراً الى آخر الآيه؛ أخذ المسئول عنهم هم الذين اتقوا أى الذين شأنهم فى الدنيا أنهم تلبّسوا بالتقوى و هم المتصفون به المستمرون بدليل إعاده ذكرهم بعد لفظ المتقين مرتين فيكون المسئول عنهم من هذه الطائفه خيارهم الكاملين فى الإيمان كما كان المسئول عنهم فى الطائفه الاخرى شرارهم الكاملين فى الكفر و هم المستكبرون.

و قوله: قٰالُوا خَيْراً أى أنزل خيرا لأنه أنزل قرآنا يتضمن معارف و شرائع فى أخذها و العمل بها خير الدنيا و الآخره و فى قولهم: «خَيْراً» اعتراف بكون القرآن نازلا من عنده تعالى مضافا الى وصفهم له بالخيريه و فى ذلك إظهار منهم المخالفه للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم:أساطير الأولين أى هو أساطير و لو قال المتقون:خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون:أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول.كذا قيل.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا حَسَنَةٌ وَ لَدٰارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ظاهر السياق أنه بيان لقولهم: «خَيْراً» و هل هو تتمه قولهم أو بيان منه تعالى؟ظاهر قوله: «وَ لَنِعْمَ دٰارُ الْمُتَّقِينَ جَنّٰاتُ عَدْنٍ» الى آخر الآيه؛أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيريه فيما أنزله اليهم

فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب و خاصه المتقين الذين لا يجترءون على أمثال هذه الاقتراحات.

و المراد بالحسنه المثوبه الحسنه و ذلک لأنهم بالإحسان الذى هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعا صالحا يحكم فيه العدل و الإحسان و عيشه طيبه مبنيه على الرشد و السعاده ينالون ذلک جزاء دنيويا لإحسانهم لقوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيا» و لدار الحياه الآخره خير جزاء لأن فيها بقاء بلا فناء و نعمه من غير نقمه و سعاده ليس معها شقاء.

و معنى الآيه:و قيل للمتقين من المؤمنين ما ذا أنزل ربكم من الكتاب و ما شأنه؟قالوا أنزل خيرا،و كونه خيرا هو أن للذين أحسنوا-أى عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ و العمل بما فى الكتاب إيماء الى أن الذى يأمر به الكتاب أعمال حسنه- فى هذه الدنيا مثوبه حسنه و لدار الآخره خير لهم جزاء.

ثم مدح دارهم ليكون تأكيدا للقول فقال: «وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ» ثم بيّن دار المتقين بقوله:

«جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بيان للمتقين كما كان قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ» الخ؛بيانا للمستكبرين.

و الطيب تعرّى الشىء مما يختلط به فيكدّره و يذهب بخلوصه و محوضته يقال:طاب لى العيش أى خلص و تعرّى مما يكدّره و ينغصه و القول الطيب ما كان عاريا من اللغو و الشتم و الخشونه و سائر ما يوجب فيه غضاضه،و الفرق بين الطيب و الطهاره أن الطهاره كون الشىء على طبعه الأصلى بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه و الطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره و يفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا و لذلک قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على

الخبث الزائد،قال تعالى: اَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَ الطَّيِّبٰاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبٰاتِ (النور۲۶/)،و قال: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاّٰ نَكِداً (الأعراف۵۸/).

و على هذا فالمراد بكون المتقين طيبين فی حال توفيهم خلوصهم من خبث الظلم فی مقابل المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفی فی قوله السابق: «الَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظٰالِمِی أَنْفُسِهِمْ» و يكون معنى الآيه أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكه متعرّين عن خبث الظلم-الشرک و المعاصی-يقولون لهم سلام عليكم-و هو تأمين قولی لهم-ادخلوا الجنه بما كنتم تعملون-و هو هدايه لهم إليها-.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الخ؛رجوع الى حديث المستكبرين من المشركين و ذكر بعض أحوالهم و أقوالهم و قياسهم ممن سبقهم من طغاه الامم الماضين و ما آل اليه أمرهم.

و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّكَ سياق الآيه و خاصه ما فی الآيه التاليه من حديث العذاب ظاهر فی أنها مسوقه للتهديد فالمراد بإتيان الملائكه نزولهم لعذاب الاستئصال و ينطبق على مثل قوله: مٰا نُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (الحجر۸/)،و المراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعه و فصل القضاء و الانتقام الإلهی منهم.

و أما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم فی أول السوره من قوله: «أَتىٰ أَمْرُ اللّٰهِ» و قد قرّبنا هناک أن المراد به مجیء النصر و ظهور الاسلام على الشرک فلا يلائم اللحن الشديد الذی فی الآيه تلک الملائمه،و أيضا سيأتی فی ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث و إصرارهم على نفيه و الرد عليهم،و هو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعه.

و قد أضاف الرب الى النبی صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقال: أَمْرُ رَبِّكَ و لم يقل:أمر اللّه أو أمر ربهم ليدل

به على أن فيه انتصارا له صلّى اللّه عليه و آله و سلم و قضاء له عليهم.

و قوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ تأكيد للتهديد و تأييد بالنظير أى فعل الذين من قبلهم مثل فعلهم من الجحود و الاستهزاء مما فيه بحسب الطبع انتظار عذاب اللّه «فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا» الخ.

و قوله: وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ معترضه يبيّن بها أن الذى نزل بهم من العذاب لهم يستوجبه إلاّ الظلم،غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلما منه تعالى و تقدّس،و لم يعذبهم اللّه سبحانه عن ظلم وقع منهم مره أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا فى ظلمهم و أصروا عليه-كما يدل عليه قوله: كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ - فعند ذلك أنزل عليهم العذاب،ففى قوله: «وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ» الخ؛إثبات الاستمرار على الظلم عليهم و نفى أصل الظلم عن اللّه سبحانه.

قوله تعالى: فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ حاق بهم أى حلّ بهم،و قيل:معناه نزل بهم و أصابهم،و الذى كانوا به يستهزءون هو العذاب الذى كانت رسلهم ينذرونهم به و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛الذى تورده الآيه شبهه على النبوه من الوثنيين المنكرين لها،و لذلك عرّفهم بنعتهم الصريح حيث قال: «وَ قٰالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و لم يكتف بالضمير و لم يقل:و قالوا كما فى الآيات السابقه ليعلم أن الشبهه لهم بعينهم.

و قوله: لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا جمله شرطيه حذف فيها مفعول «شٰاءَ» لدلاله الجزاء عليه،و التقدير لو شاء اللّه أن لا نعبد من دونه شيئا ما عبدنا،الخ.

و قوله: مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ لفظه من الاولى بيانيه و الثانيه زائده

لتأكيد الاستغراق فى النفى،و المعنى ما عبدنا شيئا دونه،و نظير ذلک قوله: «وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

و قوله: نَحْنُ وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا بيان لضمير التكلم فى «عَبَدْنٰا» للدلاله على أنهم يتكلمون عنهم و عن آبائهم جميعا لأنهم كانوا يقتدون فى عباده الأصنام بآبائهم،و قد تكرّر فى القرآن حكايه مثل قولهم: إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (الزخرف۲۳/).

و قوله: وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ عطف على قوله: «عَبَدْنٰا» الخ؛أى و لو شاء اللّه أن لا نحرّم من دونه من شىء أو نحلّ ما حرّمناه ما حرّمنا،الخ؛و المراد البحيره و السائبه و غيرهما مما حرّموه.

ثم إن قولهم: لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ظاهر من جهه تعليق نفى العباده على نفس مشيته تعالى فى أنهم أرادوا بالمشيه إرادته التكوينيه التى لا تتخلف عن المراد البته و لو أرادوا غيرها لقالوا:لو شاء اللّه كذا لأطعناه و استجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

فكأنهم يقولون:لو كانت الرساله حقه و كان ما جاء به الرسل من النهى عن عباده الأصنام و الأوثان و النهى عن تحريم البحيره و السائبه و الوصيله و غيرها نواهى للّه سبحانه كان اللّه سبحانه شاء أن لا نعبد شيئا غيره و أن لا نحرم من دونه شيئا،و لو شاء اللّه سبحانه أن لا نعبد غيره و لا نحرم شيئا لم نعبد و لم نحرم لاستحاله تخلف مراده عن إرادته لكنا نعبد غيره و نحرم أشياء فليس يشاء شيئا من ذلک فلا نهى و لا أمر منه تعالى و لا شريعه و لا رساله من قبله.

قوله تعالى: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ ،خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم بأمره أن يبلغ رسالته بلاغا مبينا و لا يعتنى بما لفّقوه من

الحجه فإنها داحضه و الحجه تامه عليهم بالبلاغ و فيه إشاره إجماليه الى دحض حجتهم.

فقوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى على هذا الطريق الذى سلكه هؤلاء سلك الذين من قبلهم فعبدوا غير اللّه و حرّموا ما لم يحرّمه اللّه ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهونهم عن ذلك قالوا:لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شىء نحن و لا آباؤنا و لا حرّمنا من دونه من شىء فالجمله كقوله تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ (الأنفال/۵۲).

و قوله: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ اى بلّغهم الرساله بلاغا مبينا تتم به الحجه عليهم فإنما وظيفه الرسل البلاغ المبين و ليس من وظيفتهم أن يلجئوا الناس الى ما يدعونهم اليه و ينهونهم عنه و لا أن يحملوا معهم إراده اللّه الموجبه التى لا تتخلف عن المراد و لا أمره الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون حتى يحوّلوا بذلك الكفر الى الإيمان و يضطرّوا العاصى على الإطاعه.

فإنما الرسول بشر مثلهم و الرساله التى بعث بها إنذار و تبشير و هى مجموعه قوانين اجتماعيه أوحاها اليه اللّه فيها صلاح الناس فى دنياهم و آخرتهم صورتها صوره الأوامر و النواهى المولويه و حقيقتها الإنذار و التبشير،قال تعالى: قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ (الأنعام/۵۰)،فهذا ما أمر به نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يبلّغهم و قد أمر به نوحا و من بعده من الرسل عليهم السّلام أن يبلّغوه أممهم كما فى سوره هود و غيرها.

و قال أيضا مخاطبا نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم: قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَمَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صٰالِحاً وَ لاٰ يُشْرِكْ بِعِبٰادَهِ رَبِّهِ أَحَداً (الكهف/ ۱۱۰).

فهذا هو الذى يشير اليه على سبيل الإجمال بقوله: كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ فإن ظاهره كما أشرنا اليه سابقا أن هذه حجه

دائره بینهم قدیما و حدیثا،و علی هذا لیس من شأن الرسول إجبار الناس و إلجاؤهم علی الإیمان و الطاعه بل البلاغ المبین بالإنذار و التبشیر و حجتهم لا- تدفع ذلک فبلّغ ما أرسلت به بلاغا مبینا و لا تطمع فی هدایه من ضلّ منهم،و ستفصّل الآیتان التالیتان ما أجملته هذه الآیه و توضحانها.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اللّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ الضَّلالَهُ الخ؛الطاغوت فی الأصل مصدر کالطغیان و هو تجاوز الحدّ بغیر حق،و اسم المصدر منه الطغوی،قال الراغب:الطاغوت عباره عن کل متعدّ و کل معبود من دون اللّه،و یستعمل فی الواحد و الجمع، قال تعالی: فَمَنْ یَکْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَوْلِیاؤُهُمُ الطّاغُوتُ .انتهی.

و قوله: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِی کُلِّ أُمَّهٍ رَسُولاً إشاره الی أن بعث الرسول أمر لا یختص به امه دون امه بل هو سنّه إلهیه جاریه فی جمیع الناس بما أنهم فی حاجه الیه و هو یدرکهم أینما کانوا کما أشار الی عمومه فی الآیه السابقه إجمالا بقوله: «کَذٰلِکَ فَعَلَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ» .

و قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ بیان لبعث الرسول علی ما یعطیه السیاق أن ما کانت حقیقه بعث الرسول إلاّ- أن یدعوهم الی عباده اللّه و اجتناب الطاغوت لأن الأمر و کذا النهی من البشر و خاصه إذا کان رسولا لیس إلاّ دعوه عادیه لا إلجاء و اضطرارا تکوینیا،و لا أن للرسول أن یدّعی ذلک حتی یرد علیه أنه لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شیء و إذ لم یشأ فلا معنی للرساله.

و قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اللّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ الضَّلالَهُ أی کانت کل من هذه الامم مثل هذه الامه منقسمه الی طائفتین فبعضهم هو من هداه اللّه الی ما دعاهم الیه الرسول من عباده اللّه و اجتناب الطاغوت.

و ذلک أن الهدایه من اللّه سبحانه لا یشارکه فیها غیره و لا تنسب الی أحد دونه إلاّ بالتبع کما قال: إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ (القصص۵۶/)و سنشیر الیه فی الآیه التالیه: إِنْ تَحْرِصْ عَلیٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ و الآیات فی حصر الهدایه فیه تعالی کثیره،و لا یستلزم ذلک کونها أمرا اضطراریا لا صنع فیه للعبد أصلا فإنها اختیاریه بالمقدمه کما یشیر الیه قوله: وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ (العنکبوت۶۹/)یفید أن للهدایه الإلهیه طریقا میسّرا للانسان و هو الإحسان فی العمل و أن اللّه لمع المحسنین لا یدعهم یضلّون.

و بعض هذه الامم-الطائفه الثانیه منهم-هو من حقّت علیه الضلاله أی ثبتت و لزمت، و هذه الضلاله هی التی من قبل العبد بسوء اختیاره و لیست بالتی تتبعها مجازاه من اللّه فإن اللّه یصفها بقوله:حقت ثم یضیفها فی الآیه التالیه الی نفسه إذ یقول: فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ فقد کانت هناک ضلاله ثم حقت و ثبتت بإثبات اللّه مجازاه فصارت هی التی من قبل اللّه سبحانه مجازاه،فتبصّر.

و لم ینسب اللّه سبحانه فی کلامه الی نفسه إضلالا إلاّ ما کان مسبوقا لظلم من العبد أو فسق أو کفر و تکذیب أو نظائرها کقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ (الجمعه۵/)و عدم الهدایه هو الإضلال،و قوله: وَ یُضِلُّ اللّٰهُ الظّٰالِمِینَ وَ یَفْعَلُ اللّٰهُ مٰا یَشٰاءُ (إبراهیم۲۷/)، و قوله: وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ (البقره۲۶/)،و قوله: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللّٰهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً إِلاّٰ طَرِیقَ جَهَنَّمَ (النساء۱۶۸/)،و قوله: فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ (الصف۵/)،الی غیر ذلک من الآیات.

و لم یقل سبحانه:فمنهم من هدی اللّه و منهم من أضلّه مع کون ضلالهم ضلال مجازاه لا مانع من إضافته الیه تعالی دفعا لإیهام نسبه أصل الضلال الیه بل ذکر أولا من هداه ثم قابله بمن کان من حقه أن یضل-و هو الذی اختار الضلاله علی الهدی أی اختار أن لا یهتدی-فلم

ص :۵۵۹

يهده اللّه و حقّ له ذلک.

و قوله: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين «لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» و الالتفات الى خطابهم لكونه أشد تأثيرا فلى تثبيت القول و إتمام الحجه.

و الكلام متفرع على ما بيّن جوابا لحجتهم إجمالا و تفصيلا و محصّل المعنى أن الرساله و الدعوه النبويه ليست من الإراده التكوينيه الملجئه الى ترک عباده الأصنام و تحريم ما لم يحرّمه اللّه حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرساله و كذب مدّعيها بل هى دعوه عاديه بعث اللّه سبحانه بها رسلا يدعونكم الى عباده اللّه و اجتناب الطاغوت و حقيقته الإنذار و التبشير،و من الدليل على ذلک آثار الامم الماضيه الظالمه التى تحكى عن نزول العذاب عليهم فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوه النبويه التى هى إنذار حق و أن الرساله ليست كما تزعمون.

قوله تعالى: إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ لما بيّن أن الامم الماضين انقسموا طائفتين و كانت إحدى الطائفتين هم الذين حقّت عليهم الضلاله و كانت هؤلاء الذين أشركوا و قالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بيّن فى هذه الآيه أن ثبوت الضلاله فى حقهم إنما هو ثبوت لا زوال معه و تحتم لا يقبل التغيير فإنه لا هادى بالحقيقه إلاّ اللّه فإن جاز هداهم كان اللّه هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم و لا يجتمع الهدى و الضلال معا،و ليس هناک ناصر ينصرهم على اللّه فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ففى الآيه تعزيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و إرشاد له أن لا يحرص فى هداهم،و إعلام له أن القضاء قد مضى فى حقهم و ما يبدّل القول لديه و ما هو بظلام للعبيد.

فقوله: إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ الخ؛فى تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم

حرصک شیئا فلیسوا ممن یمکن له الاهتداء فإن اللّه هو الذی یهدی من اهتدی،و هو لا یهدیهم فإنه یضلهم و لا یناقض تعالی فعل نفسه،و لیس لهم ناصرون ینصرونهم علیه.

و فی هذه الآیات الثلاث مشاجرات طویله بین المجبّره و المفوّضه و کل یفسرها بما یقتضیه مذهبه حتی قال الامام الرازی:إن المشرکین أرادوا بقولهم:لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شیء،الخ؛أنه لما کان الکل من التوحید و الشرک و الهدی و الضلال من اللّه کانت بعثه الأنبیاء عبثا فنقول:هذا اعتراض علی اللّه و جار مجری طلب العله فی أحکامه و أفعاله تعالی و ذلک باطل فلا یقال له:لم فعلت هذا و لم لم تفعل ذلک؟

قال:فثبت أن اللّه تعالی إنما ذمّ هؤلاء القائلین لأنهم اعتقدوا أن کون الأمر کذلک یمنع عن جواز بعثه الرسل لا لأنهم کذبوا فی قولهم ذلک.انتهی ملخصا.

و فی قوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ دلاله علی أن لغیرهم ناصرین کثیرین و ذلک أن السیاق یدل علی أنه لیس لهم ناصر أصلا لا واحد و لا کثیر فنفی الناصرین بصیغه الجمع یکشف عن عنایه زائده بذلک أی أن هناک ناصرین لکنهم لیسوا لهم بل لغیرهم و لیس إلاّ من یهتدی بهدی اللّه،و نظیر الآیه ما حکاه اللّه سبحانه عن المجرمین یوم القیامه: فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ (الشعراء/۱۰۰).

و هؤلاء الناصرون هم الملائکه الکرام و سائر أسباب التوفیق و الهدایه و اللّه سبحانه من ورائهم محیط،قال تعالی: إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهٰادُ (المؤمن/۵۱).

قوله تعالی: وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ بَلیٰ الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:الجهد و الجهد-بفتح الجیم و ضمها-الطاقه،و المشقه أبلغ من الجهد بالفتح،قال:و قال تعالی: «وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ» أی حلفوا و اجتهدوا فی الحلف أن یأتوا به علی أبلغ ما فی وسعهم.انتهی.

و قال فی المجمع فی معنی قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أی بلغوا فی القسم کل مبلغ.انتهی.

و قولهم: لا يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوتُ إنکار للحشر،و الجمله کنایه عن أن الموت فناء فلا یتعلق به بعده خلق جدید،و هذا لا ینافی قول کلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنسانی أو غیر إنسانی و عیشها فی الدنیا،و هو قولهم بالتولد بعد التولد.

و قوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا أی لیس الأمر کما یقولون بل یبعث اللّه من یموت وعده وعدا ثابتا علیه حقا أی إن اللّه سبحانه أوجبه علی نفسه بالوعد الذی وعد عباده، و أثبته إثباتا فلا یتخلف و لا یتغیر.

و قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ أی لا یعلمون أنه من الوعد الذی لا یخلف و القضاء الذی لا یتغیر لإعراضهم عن الآیات الداله علیه الکاشفه عن وعده و هی خلق السماوات و الأرض و اختلاف الناس بالظلم و الطغیان و العدل و الإحسان و التکلیف النازل فی الشرائع الإلهیه.

قوله تعالی: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ اللام للغایه و الغرض أی یبعث اللّه من یموت لیبین لهم،الخ؛و الغایتان فی الحقیقه غایه واحده فإن الثانیه من متفرعات الاولی و لوازمها فإن الکافرین إنما یعلمون أنهم کانوا کاذبین فی نفی المعاد من جهه تبین الاختلاف الذی ظهر بینهم و بین الرسل بسبب إثبات المعاد و نفیه و ظهور المعاد لهم عیانا.

و تبین ما اختلف فیه الناس من شئون یوم القیامه،و قد تکرر فی کلامه هذا التعبیر و ما فی معناه تکرارا صحّ معه جعل تبیین الاختلاف معرّفا لهذا الیوم الذی ثقل فی السماوات و الأرض،و علی ذلک یتفرع ما قصه اللّه سبحانه فی کلامه من تفاصیل ما یجری فیه من المرور

ص:۵۶۲

على الصراط و تطاير الكتب و وزن الأعمال و السؤال و الحساب و فصل القضاء.

قوله تعالى: إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ هو نظير قوله فى موضع آخر: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/۸۲)،و منه يعلم أنه تعالى يسمّى أمره قولا-كما يسمى أمره و قوله من حيث قوته و إحكامه و خروجه عن الإبهام و كونه مرادا حكما و قضاء،قال تعالى: وَ مٰا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ (يوسف/۶۷)،و قال: وَ قَضَيْنٰا إِلَيْهِ ذٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دٰابِرَ هٰؤُلاٰءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (الحجر/۶۶)،و قال: وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره/۱۱۷)،و كما يسمى قوله الخاص كلمه،قال تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات/۱۷۲)،و قال: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران/۵۹)،ثم قال فى عيسى عليه السّلام: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء/۱۷۱).

[سوره النحل (۱۶): الآيات ۴۱ الى ۶۴]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ اَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۴۲) وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ اَلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَيِّنٰاتِ وَ اَلزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ اَلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۴۴) أَ فَأَمِنَ اَلَّذِينَ مَكَرُوا اَلسَّيِّئٰاتِ أَنْ يَخْسِفَ اَللّٰهُ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ (۴۵) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۴۶) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۴۷) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ اَلْيَمِينِ وَ اَلشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ (۴۸) وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ (۴۹) يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ (۵۰) وَ قٰالَ اَللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اِثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰايَ فَارْهَبُونِ (۵۱) وَ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلدِّينُ وٰاصِباً أَ فَغَيْرَ اَللّٰهِ تَتَّقُونَ (۵۲) وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ اَلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵) وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ اَلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوٰارىٰ مِنَ اَلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي اَلتُّرٰابِ أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ اَلسَّوْءِ وَ لِلّٰهِ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلىٰ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۶۰) وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (۶۱) وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ اَلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ اَلْحُسْنىٰ لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ اَلنّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶۲) تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اَلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ اَلَّذِي اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴)

بیان:

قوله تعالی: وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَهً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَهِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ وعد جمیل للمهاجرین،و قد کانت من المؤمنین هجرتان عن مکه:إحداهما الی حبشه عدّه من المؤمنین بالنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بإذن من اللّه و رسوله إلیها و لبثوا فیها حینا فی أمن و راحه من أذی مشرکی مکه و عذابهم

ص: ۵۶۵

و فتنتهم.

و الثانيه هجرتهم من مكه الى المدينه بعد مهاجره النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و الظاهر أن المراد بالهجره فى الآيه هى الهجره الثانيه فسياق الآيتين أكثر ملاءمه لها من الاولى و هو ظاهر.

و قوله: فِي اللّٰهِ متعلق بهاجروا،و المراد بكون المهاجره فى اللّه أن يكون طلب مرضاته محيطا بهم فى مهاجرتهم لا يخرجون منه الى غرض آخر كما يقال:سافر فى طلب العلم و خرج فى طلب المعيشه أى لا غايه له إلاّ طلب العلم و لا بغيه له إلاّ طلب المعيشه،و السياق يعطى أن قوله: «مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا» أيضا مقيّد بذلك معنى،و التقدير:و الذين هاجروا فى اللّه من بعد ما ظلموا فيه،و إنما حذف اختصارا و إنما اكتفى به قيدا للمهاجره لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

و قوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً قيل:أى بلده حسنه بدلا مما تركوه من وطنهم كمكه و حواليها بدليل قوله: «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» فإنه من بوّأت له مكانا أى سوّيت و أقررته فيه.

و قيل:أى حاله حسنه من الفتح و الظفر و نحو ذلك فيكون قوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ الخ؛من الاستعاره بالكنايه.

و الوجهان متحدان مآلا فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعا إسلاميا طيبا لا يعبد فيه إلاّ اللّه،و لا يحكم فيه إلاّ العدل و الإحسان أو ليدخلوا فى مجتمع هذا شأنه فلو رجوا فى مهاجرهم غايه حسنه أو وعدوا بغايه حسنه كان ذلك هذا المجتمع الصالح،و لو حمدوا البلده التى يهاجرون إليها لكان حمدهم للمجتمع الاسلامى المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغايه الحسنه التى يعدهم اللّه فى الدنيا هى هذا المجتمع سواء اريد بالحسنه البلده أو الغايه.

و قوله: وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ تتميم للوعد و إشاره الى أن أجر الآخره أفضل من هذا الأجر الدنيوى لو كانوا يعلمون ما أعدّ اللّه لهم فيها من النعم فإن

فيها سعاده من غير شقاء و خلودا من غير فناء و لذّه غير مشوبه بألم و جوار رب العالمين.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جمله العنايه فيهما الى وعد المهاجرين فى اللّه وعدا حسنا فى الدنيا و الآخره من غير نظر الى الإخبار بتحقق المهاجره قبل حال الخطاب فيكون الكلام فى معنى الاشتراط:من يهاجر فى اللّه فله كذا و كذا،و تكون العنايه فى قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ؛بتوصيف المهاجرين بالصبر و التوكل من غير نظر الى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم فى أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم و فتنتهم.

و العنايه بالتوصيف إنما هى لكون كلتا الصفتين دخيلتين فى الغايه الحسنه التى وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مرّ الجهاد و أظهروا الجزع عند هجوم العظائم و لم يتأيدوا بالتوكل على اللّه و اعتمدوا على أنفسهم الضعيفه أحيط بهم و لم يتهيأ لهم المستقر و فرّقهم العدو المصر على عداوته بددا و تلاشى المجتمع الصالح الذى أقاموه فى مهاجرهم هذا فى الدنيا،و أما أمر الآخره ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

و لو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجره قبل نزول الآيه تطيبا لنفوسهم و تسليه لهم عما أخرجوا من ديارهم و أموالهم و قاسوا الفتن و المحن كان قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» مدحا لهم بما ظهر منهم ايام إقامتهم بمكه و غيرها من الصبر فى اللّه على أذى المشركين و التوكل على اللّه فيما عزموا عليه من الاسلام للّه.

قوله تعالى: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ رجوع ثان الى بيان كيفيه إرسال الرسل و إنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوه الدينيه إلاّ دعوه عاديه من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون الى ما فيه صلاح الناس فى دنياهم و عقباهم.

و أنه لم يدّع أحد من الرسل و لا ادّعى فى كتاب من كتب الشرائع أن الدعوه الدينيه ظهور

للقدره الغيبيه القاهره لكل شیء و الاراده التكوينيه لهدم النظام الجارى و نقض سنّه الاختيار و إبطالها حتى يقول القائل منهم «لَوْ شاءَ اللّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» الخ.

و على هذا فقوله سبحانه: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مسوق لحصر الرساله على البشر العادى من رجال يوحى اليهم قبال ما ادعاه المشركون أنها لو كانت لكانت نقضا لنظام الطبيعه و إبطالا للاختيار و الاستطاعه.

و الحق أن الآيه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً إنما هى فى مقام بيان أن الرسل كانوا رجالا من البشر العادى من غير عنايه بكونهم أول ما بعثوا للرساله أفرادا بالغين مبلغ الرجال فالغرض أن نوحا و إبراهيم و موسى و عيسى و يحيى عليهم السّلام-و هم رسل-كانوا رجالا يوحى اليهم و لم يكونوا أشخاصا مجهزين بقدره قاهره غيبيه و إراده إلهيه تكوينيه.

و يقرب من الآيه قوله تعالى فى موضع آخر: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (الأنبياء۸/).

و قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ الظاهر أنه خطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لقومه،و قد كان الخطاب فى سابق الكلام للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم خاصه و المعنى موجّه الى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر و اسألهم و من كان يعلم ذلك كالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و المؤمنين به كان فى غنى عن الرجوع و السؤال.

و الذكر حفظ معنى الشىء أو استحضاره،و يقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب فى المفردات:الذكر تاره يقال و يراد به هيئه للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفه و هو كالحفظ إلاّ أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره، و تاره يقال لحضور الشيء فى القلب أو القول و لذلك قيل:الذكر ذكران:ذكر بالقلب،و ذكر

باللسان،و كل واحد منهما ضربان:ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ، انتهى موضع الحاجه.

و الظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب و إنما يسمى اللفظ ذكرا اعتبارا بإفادته المعنى و إلقائه إياه فى الذهن،و على هذا المعنى جرى استعماله فى القرآن غير أن مورده فيه ذكر اللّه تعالى فالذكر إذا أطلق فيه و لم يتقيد بشىء هو ذكره.

و بهذه العنايه أيضا سمّى القرآن وحى النبوه و الكتب المنزله على الأنبياء ذكرا،و الآيات فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها فى هذا الموضع.و قد سمى اللّه سبحانه فى الآيه التاليه القرآن ذكرا.

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح و صحف إبراهيم و توراه موسى و زبور داود و إنجيل عيسى عليهم السّلام-و هى الكتب السماويه المذكوره فى القرآن-كلها ذكر،و أهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر.

و لما كان أهل الشىء و خاصته أعرف بحاله و أبصر بأخباره كان على من يريد التبصر فى أمره أن يرجع الى أهله،و أهل الكتب السماويه القائمون على دراستها و تعلمها و العمل بشرائعها هم أهل الخبره بها و العالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شىء من أمرهم أن يراجعهم و يسألهم.

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ لما كانوا لا يسلمون للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم النبوه و لا يصدقونه فى دعواه و يستهزءون بالقرآن ذى الذكر كما يذكره تعالى فى قوله: وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر/۶)،لم ينطبق قوله:

«فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بحسب المورد إلاّ على أهل التوراه،و خاصه من حيث كونهم أعداء للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم رادين لنبوته و كانت نفوس المشركين طيبه بهم لذلك،و قد قالوا فى المشركين:

هٰؤُلاٰءِ أَهْدىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (النساء/۵۱).

قوله تعالى: بِالْبَيِّنٰاتِ وَ الزُّبُرِ متعلق بمقدّر يدلّ عليه ما فى الآيه السابقه من قوله:

«وَ مٰا أَرْسَلْنٰا» أى أرسلناهم بالبيّنات و الزبر و هى الآيات الواضحه الدالّه على رسالتهم و الكتب المنزّله عليهم.

و ذلك أن العنايه فى الآيه السابقه إنما هى ببيان كون الرسل بشرا على العاده فحسب فكأنه لما ذكر ذلك اختلج فى ذهن السامع أنهم بما ذا أرسلوا؟فاجيب عنه فقيل:بالبينات و الزبر أما البينات فلإثبات رسالتهم و أما الزبر فلحفظ تعليماتهم.

و قيل:و هو متعلق بقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا أى و ما أرسلنا بالبينات و الزبر إلاّ رجالا نوحى اليهم.و فيه أنه لا بأس به فى نفسه لكنه مفوّت لما تقدّم من النكته.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّٰاسِ مٰا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس و إنزال الذكر على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم واحد بمعنى أن تنزيله على الناس هو إنزاله اليه ليأخذوا به و يوردوه مورد العمل كما قال تعالى: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (النساء/١٧۴)،و قال: لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (الأنبياء/١٠).

فيكون محصّل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر الى عامه البشر و أنك و الناس فى ذلك سواء،و إنما اخترناك لتوجيه الخطاب و إلقاء القول لا لنحمّلك قدره غيبيه و إراده تكوينيه إلهيه فنجعلك مسيطرا عليهم و على كل شىء بل لأمرين:

أحدهما:أن تبين للناس ما نزّل تدريجا اليهم لأن المعارف الإلهيه لا ينالها الناس بلا واسطه فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين و التعليم،و هذا هو غرض الرساله ينزل اليه الوحى فيحمله ثم يؤمر بتبليغه و تعليمه و تبيينه.

و الثانى:رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصّروا أن ما جئت به حق من عند اللّه فإن الأوضاع المحيطه بك و الحوادث و الأحوال الوارده عليك فى مدى حياتك من اليتم و خمود الذكر

و الحرمان من التعلم و الكتابه و فقدان مربّ صالح و الفقر و الاحتباس بين قوم جهله أخسّاء صفر الأيدى من مزايا المدنيه و فضائل الإنسانيه كانت جميعا أسبابا قاطعه أن لا تذوق من عين الكمال قطره،و لا تقبض من عرى السعاده على مسكه،لكن اللّه سبحانه أنزل اليك ذكرا تتحدّى به على الجن و الإنس مهيمنا على سائر الكتب السماويه تبيانا لكل شىء و هدى و رحمه و برهانا و نورا مبينا.

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادى الى أن ليس لك فيما جئت به صنع و لا لك من الأمر شىء و أن اللّه أنزله بعلمه و أيّدك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العاديه شىء.

هذا ما تفيده الآيه الكريمه نظرا الى سياقها و سياق ما قبلها و محصّله أن قوله: «لِتُبَيِّنَ» الخ؛ غايه للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم،و أن متعلق «يَتَفَكَّرُونَ» المحذوف هو نحو قولنا:فيك لا قولنا:فى الذكر.

و فى الآيه دلاله على حجيّه قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى بيان الآيات القرآنيه،و أمّا ما ذكره بعضهم أن ذلك فى غير النص و الظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع الى أسرار كلام اللّه و ما فيه من التأويل فمما لا ينبغى أن يصغى اليه.

هذا فى نفس بيانه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر و غيره و أما سائر الامه من الصحابه أو التابعين أو العلماء فلا حجيه لبيانهم لعدم شمول الآيه و عدم نص معتمد عليه يعطى حجيه بيانهم على الإطلاق.

و أما قوله تعالى: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ» فقد تقدم أنه إرشاد الى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل الى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفه دون طائفه.

هذا كله فى نفس بيانهم المتلقى بالمشافهه،و أما الخبر الحاكى له فما كان منه بيانا متواترا أو محفوفا بقرينه قطعيه و ما يلحق به فهو حجه لكونه بيانهم،و أما ما كان مخالفا للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر و لا محفوفا بالقرينه فلا حجيّه فيه لعدم كونه بيانا فى الأول و عدم

إحراز البيانيه فی الثانی و للتفصیل محل آخر.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنَ الَّذِینَ مَکَرُوا السَّیِّئاتِ أَنْ یَخْسِفَ اللّٰهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ یَأْتِیَهُمُ الْعَذٰابُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَشْعُرُونَ هذه الآیه و الآیتان بعدها إنذار و تهدید للمشرکین و هم الذین یعبدون غیر اللّه سبحانه و یشرعون لأنفسهم سننا یستنون بها فی الحیاه فما یعملون من الأعمال مستقلین فیها بأنفسهم معرضین عن شرائع اللّه النازله من طریق النبوه استنادا الی حجج داحضه اخلقوها لأنفسهم کلها سیئات و ما یتقلبون فیها مدی حیاتهم من حرکه أو سکون و أخذ أو رد و فعل أو ترک و هم علی ما هم علیه من استکبار و غرور،کلها ذنوب یقترفونها مکرا باللّه ربهم و برسله الداعین الی الأخذ بدین اللّه و لزوم سبیله.

فقوله: اَلسَّیِّئٰاتِ مفعول مَکَرُوا بتضمینه بمعنی عملوا أی عملوا السیئات ماکرین؛و ما احتمله بعضهم من کون السیئات وصفا سادّا مسدّ المفعول المطلق و التقدیر:

یمکرون المکرات السیئات بعید من السیاق.

و بالجمله الکلام لتهدید المشرکین و إنذارهم بالعذاب الإلهی و یدخل فیهم مشرکوا مکه، و الکلام متفرع علی ما تقدم کما یدل علیه قوله: «أَ فَأَمِنَ» بفاء التفریع.

و المعنی-و اللّه أعلم-فإذا دلّت الآیات البینات علی أن اللّه هو ربهم لا شریک له فی ربوبیته و أن الرساله لیست بأمر محال بل هی دعوه الی ما فیه صلاح معاشهم و معادهم و خیر دنیاهم و أخراهم من رجال هم أمثالهم یبعثهم اللّه و یوحی الیهم بما تشتمل علیه الدعوه، فهؤلاء الذین یعرضون عن ذلک و یمکرون باللّه و رسله بالتشبّث بهذه الحجج الواهیه لتسویه الطریق الی ترک دین اللّه و تشریع ما یوافق أهواءهم و یعملون السیئات هل أمنوا أن یخسف اللّه بهم الأرض أو یأتیهم العذاب و هم لا یشعرون،أی یفاجئهم من غیر أن یتنبهوا بتوجیه الیهم قبل نزوله.

قوله تعالی: أَوْ یَأْخُذَهُمْ فِی تَقَلُّبِهِمْ فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِینَ الفاعل هو اللّه سبحانه و قد کثرت فی القرآن نسبه الأخذ الیه،و قیل:الضمیر للعذاب،و التقلّب هو التحول من حال الی حال و المراد به تحوّل المشرکین فی مقاصدهم و أعمالهم السیئه و انتقالهم من نعمه الی نعمه اخری من نعم الحیاه الدنیا،قال تعالی: لاٰ یَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی الْبِلاٰدِ مَتٰاعٌ قَلِیلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ (آل عمران١٩٧/).

فالمراد بأخذهم فی تقلبهم أن یأخذهم فی عین ما یتقلبون فیه من السیئات مکرا باللّه و رسله بالعذاب أو المعنی یعذبهم بنفس ما یتقلبون فیه فیعود النعمه نقمه،و هذا أنسب بالنظر الی قوله: «فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِینَ» .

و قوله: فَمٰا هُمْ بِمُعْجِزِینَ فی مقام التعلیل لأخذهم فی تقلبهم و مکرهم السیئات أی لأنهم لیسوا بمعجزین للّه فیما أراد بالتغلب علیه أو بالفرار من حکمه،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: أَوْ یَأْخُذَهُمْ عَلیٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ التخوف تمکن الخوف من النفس و استقراره فیها فالأخذ علی تخوف هو العذاب مبنیا علی المخافه بأن یشعروا بالعذاب فیتقوه و یحذروه بما استطاعوا من توبه و ندامه و نحوهما فیکون الأخذ علی تخوف مقابلا لإتیان العذاب من حیث لا یشعرون.

و قوله: فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ فی مقام التعلیل أی یأخذهم علی تخوف و یتنزّل فی عذابهم الی هذا النوع من العذاب الذی هو أهون الأنواع المعدوده لأنه رؤف رحیم،و فی التعبیر بقوله: «رَبَّکُمْ» إشاره الی ذلک،و کونه فی مقام التعلیل بالنسبه الی الوجهین الأولین ظاهر،و أما بالنسبه الی الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا یخلو من مهله و فرصه یتنبه فیها من تنبه فیأخذ بالحذر بتوبه أو غیرها.

و الکلام فی تعداد أنواع العذاب المذکوره لیس مسوقا للحصر کما نبّه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

ص:٥٧٣

قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَ هُمْ دٰاخِرُونَ المراد بالرؤيه الرؤيه البصريه و النظر الحسى الى الأشياء الجسمانيه لأن المطلوب إلفات النظر الى الأجسام فوات الأظلال.

و التفيؤ من الفيء و هو الظل راجعا،و لذا قيل:إن الظل هو ما فى أول النهار الى زوال الشمس و الفيء هو ما يكون بعد زوال الشمس الى آخر النهار،و الظاهر أن الظل أعمّ من الفيء كما تقدم و تؤيده الآيه.فالتفيّؤ رجوع الظل بعد زواله.

و الشمائل جمع شمأل و هو خلاف اليمين،و جمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض خلف الشيء و عن يساره جهه شمال على حده فهى شمائل تقابل اليمين كما أن عدّ كل شيء ذا أظلال بهذه العنايه أخذا للظل بالنسبه الى كل جهه من اليمين و الشمائل ظلا-غيره بالنسبه الى جهه اخرى لا-لأن الشيء المذكور جمع بحسب المعنى و إن كان مفردا بحسب اللفظ.و الدخور هو الخضوع و الصغار.

فمعنى الآيه-و اللّه أعلم-«أَ وَ لَمْ يَرَوْا» هؤلاء المشركون المنكرون لتوحيد الربوبيه و لدعوه النبوه أو لم ينظروا «إِلىٰ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ» من هذه الأجسام القائمه على بسيط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أى جسم منتصب «يَتَفَيَّؤُا» و يرجع و يدور ظِلاٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ واقعه على الأرض تذللا و تعبّدا له سبحانه «وَ هُمْ دٰاخِرُونَ» خاضعون صاغرون.

و قد تقدم الكلام فى معنى سجده الظلال ذيل قوله تعالى: وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ (الرعد/١۵)،فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ وَ الْمَلاٰئِكَةُ الى آخر الآيتين؛ذكرت الآيه السابقه سجود الظلال و هو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود للّه،و تذكر هذه الآيه سجود ما فى السماوات و الأرض من دابه-و الدابه ما

يدبّ و يتحرك بالانتقال من مكان الى مكان-بحقيقه السجود التى هى نهايه التذلل و التواضع قبال العظمه و الكبرياء فإن صوره السجده التى هى خرور الإنسان و وقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عباده إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقه السجده هى التذلل المذكور.

و يدخل فى عموم الدابه الإنسان و كذا الجن لأنه سبحانه يصفهم فى كلامه بما يفيد أن لهم دبيبا كما لسائر الدواب من الإنسان و الحيوان،و لم يدخل سبحانه الملائكه فى عموم الدابه و أفردهم بالذكر،و فى ذلك من التلويح الى ما نسب اليهم فى كلامه تعالى من النزول و الصعود و الذهاب و المجىء مما ظاهره النقله و الحركه المكانيه ليس من نوع ما للدواب من الدبيب و الانتقال المكانى ما لا يخفى.

فقوله تعالى: وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ أى له يخضع و ينقاد خضوعا و انقيادا ذاتيا هى حقيقه السجود فمن حقه تعالى أن يعبد و يسجد له.

و فى الآيه دلاله على أن فى غير الأرض من السماوات شيئا من الدواب يسكنها و يعيش فيها.

و قوله: وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ الاستكبار و التكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيرا و يضعه موضع الكبر و ليس به و لذلك يعدّ فى الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما للّه سبحانه من الكبرياء بالحق و هو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر و ليس يقال:مستكبر و لعل ذلك كذلك اعتبارا باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر و لازمه أن لا يكون ذلك حاصلا للطالب من نفسه و إنما يطلب الكبر و العلوّ على غيره دعوى فكان مذموما،و أما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له فى نفسه كما للّه سبحانه و هو التكبر الحق أو لم يكن له إلاّ دعوى و غرورا كما فى غيره.

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائما أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

ص :۵۷۵

و الحاجه قد استوعبهما جميعا و شیء منهما لا یملک لنفسه نفعا و لا ضرا و لا لغیره فاستکبار أحدهما علی الآخر خروج منه عن حدّه و تجاوز عن طوره و ظلم و طغیان.

و أما قوله: وَ یَفْعَلُونَ مٰا یُؤْمَرُونَ فإشاره الی عدم استکبارهم فی مقام الفعل و قد تقدم أنه إذا لم یستکبر علیه تعالی فی ذات لم یستکبر علیه فی فعل فهم لا یعصون اللّه سبحانه فی أمر بل یفعلون ما یؤمرون،و فی إتیان قوله: «یُؤْمَرُونَ» مبنیا للمجهول من التعظیم و التفخیم لمقامه سبحانه ما لا یخفی.

فتبین أن الملائکه نوع من خلق اللّه تعالی لا تأخذهم غفله عن مقام ربهم و لا یطرأ علیهم ذهول و لا سهو و لا نسیان عن ذلک و لا یشغلهم عنه شاغل،و هم لا یریدون إلاّ ما یریده اللّه سبحانه.

و إنما خص سبحانه الملائکه من بین الساجدین المذکورین فی الآیه بذکر شأنهم و تعریف أوصافهم و تفصیل عبودیتهم لأن أکثر آلهه الوثنیین من الملائکه کإله السماء و إله الأرض و إله الرزق و إله الجمال و غیرهم،و للدلاله علی أنهم-بالرغم من زعم الوثنیین-أمعن خلق اللّه تعالی فی عبودیته و عبادته.

قوله تعالی: وَ قٰالَ اللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَیْنِ اثْنَیْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِیّٰایَ فَارْهَبُونِ الرهبه الخوف و تقابل الرغبه کما ان الخوف یقابل به الرجاء.

و الکلام معطوف علی قوله: وَ لِلّٰهِ یَسْجُدُ و قیل:معطوف علی قوله: «وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الذِّکْرَ» و قیل:علی قوله: «مٰا خَلَقَ اللّٰهُ» علی طریقه قوله:(علفتها تبنا و ماء باردا)ای سقیتها ماء باردا،و التقدیر فی الآیه أو لم یروا الی ما خلق اللّه من شیء و أ لم یسمعوا الی ما قال اللّه: «لاٰ تَتَّخِذُوا» الخ؟و الأول هو الوجه.

و قوله: لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَیْنِ اثْنَیْنِ ارید به-و اللّه اعلم-النهی عن التعدّی عن الإله الواحد باتخاذ غیره معه فیشمل الاثنین و ما فوقه من العدد،و یؤیده تأکیده بقوله: إِنَّمٰا

هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ و اِثْنَيْنِ و إِلٰهَيْنِ كما أن وٰاحِدٌ صفه إِلٰهٌ جىء بهما للإيضاح و التبيين.

و الظاهر أن الأمر بالرهبه كنايه عن الأمر بالعباده و إنما اختصت الرهبه بالذكر ليوافق ما تقدم فى حديث سجده الكل التى هى الأصل فى تشريع العباده من خوف الملائكه،و على هذا فالظاهر أن المراد بالرهبه ما هى رهبه إجلال و مهابه لا ما هى رهبه مؤاخذه و عذاب،فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وٰاصِباً أَ فَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ قال فى المفردات:الوصب السقم اللازم و قد وصب فلان فهو وصب و أوصبه كذا فهو يتوصب نحو يتوجع،قال تعالى: «وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ» «وَ لَهُ الدِّينُ وٰاصِباً» فتوعّد لمن اتخذ إلهين و تنبيه أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد.

و يكون الدين هاهنا الطاعه،و معنى الواصب الدائم أى حق الإنسان أن يطيعه دائما فى جميع أحواله كما وصف به الملائكه حيث قال: «لاٰ يَعْصُونَ اللّٰهَ مٰا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ» و يقال:وصب و صوبا دام،و وصب الدين وجب،و مفازه واصبه بعيده لا غايه لها.انتهى.

و الآيه و ما بعدها تحتج على وحدانيته تعالى فى الالوهيه بمعنى المعبوديه بالحق و أن الدين له وحده ليس لأحد أن يشرّع من ذلك شيئا و لا أن يطاع فيما شرّع فالآيه و ما بعدها فى مقام التعليل لقوله: «وَ قٰالَ اللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ» الى آخر الآيه؛و احتجاج على مضمونها و عود بعد عود الى ما تقدم بيانه من التوحيد و النبوه الذين ينكرهما المشركون.

فقوله: وَ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ احتجاج على توحده تعالى فى الربوبيه فإن ما فى السماوات و الأرض من شىء فهو مملوك له بحقيقه معنى الملك إذ ما فى العالم المشهود من شىء فهو بما له من الصفات و الأفعال،قائم به تعالى موجود بإيجاده و ظاهر بإظهاره لا يسعه أن ينقطع منه و لا لحظه فالأشياء قائمه به قيام الملك بمالكه مملوكه له ملكا

حقیقیا لا یقبل تغییرا و لا انتقالا کما هو خاصه الملک الحقیقی کملک الإنسان لسمعه و بصره مثلا.

و إذا کان کـذلک کان هو تعالی المدبر لأمر العالم إذ لا معنی لکون العالم مملوکا له بهذا الملک ثم یسـتقل غیره بتدبیر أمره و التصـرف فیه و ینعزل هو تعـالی عما خلقه و ملکه،و إذا کان هو المـدبر لأمره کان هو الرب له إذ الرب هو المالک المـدبر،و إذا کان هو الرب کان هو الذی یجب أن یتقی و یخضع له بالعباده.

و قوله: وَ لَهُ الـدِّینُ وٰاصِـباً أی دائمـا لازمـا،و ذلـک أنه لما کان تعالی هو الرب الـذی یملک الأشـیاء و یـدبر أمرها و من واجب التـدبیر أن یسـتن العالم الإنسانی بسـنّه یبلغ به الجری علیها غایته و یهـدیه الی سـعادته-و هـذه السـنّه و الطریقه هی التی یسـمیها القرآن دینا-کان من الواجب أن یکون تعالی هو القائم علی وضع هذه السنّه و تشریع هذه الطریقه فهو تعالی المالک للدین کما قال: «وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً» و علیه أن یشرّع ما یصلح به التدبیر کما قال فیما مرّ:

«وَ عَلَی اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِیلِ» الآیه.

و قوله: أَ فَغَیْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ اسـتفهام إنکـاری-متفرع علی الجملتین جمیعا-علی الظاهر،و المعنی:و إذا کان کـذلک فهل غیره تعالی تتقون و تعبدون؟و لیس یملک شیئا و لا یدبر أمرا حتی یعبد،و لیس من حقه أن یشرّع دینا فیطاع فیما وضعه و شرّعه.

قوله تعالی: وَ مٰا بِکُمْ مِنْ نِعْمَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ بیان آخر لوحدانیته تعالی فی الربوبیه یفرّع سـبحانه علیه ذمّهم و توبیخهم علی شـرکهم بـاللّه و علی تشـریعهم امورا من عنـد أنفسـهم من غیر إذن منه و رضـی و یجری الکلاـم فی هـذا المجری الی تمام بعض آیات.

و المراد بالضـر سوء الحال من جهه فقدان النعمه التی تصـلح بها الحال،و الجؤار بضم الجیم صوت الوحوش استعیر لرفع الصوت بالدعاء و التضرع و الاستغاثه تشبیها له به.

ص :۵۷۸

و قوله: وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ الكلام مسوق للعموم و ليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بيّن ذلك فى الآيات السابقه.على أن السامعين يسلّمون ذلك و يقولون به و يدلّ عليه جؤارهم و استغاثتهم اليه عند مسيس الضر بفقدان نعمه من النعم.

فالمعنى:أن جميع النعم التى عندكم من إنعامه تعالى عليكم و أنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلّ بكم شىء من الضر و سوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع و جأرتم اليه لا الى غيره و لو كان لغيره صنيعه عندكم لتوجّهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمه و كاشف الضر فما بالكم لا تخصّونه بالعباده و لا تطيعونه.

قوله تعالى: ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ شروع فى ذمّهم و توبيخهم و ينتهى الى إيعادهم و حق لهم ذلك لأن الذى يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم و رجوعهم الفطرى الى ربهم أن يوحدوه بالربوبيه بعد ما انكشفت لهم الحقيقه باندفاع البليّه و نزول الرحمه لكن فريقا منهم تفاجئهم الشقوه فيعودون الى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيثير لهم الأهواء و يشركون بربهم غيره،و منه الأسباب التى يتعلقون بها،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ اللام للغايه أى إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمه بكشف الضر عنهم و لا يشكروه.

و جعل الكفر بالنعمه غايه للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غايه لهم فى مسير حياتهم إلاّ الكفر بنعمه اللّه و عدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس و الماده أورثهم فى قلوبهم ملكه التعلق بالأسباب الظاهره و إسناد النعم الإلهيه إليها و ضربهم إياها حجابا ثخينا على عرفان الفطره فأنساهم ذلك توحيد ربهم فى ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمه أسبابها الظاهره دون اللّه،و يتعلقون بها و يخشون انقطاعها و يخضعون لها دون اللّه فكأنهم بل إنهم لا غايه لهم إلاّ كفر نعمه اللّه و عدم شكرها.

فالكفر باللّه سبحانه هو غايتهم العامه فى كل شأن أبدوه و كل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضرّ بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمه.

و لما كان كفرانهم هذا-و هو كفر دائم يصرّون عليه و استكبار على اللّه،و قد قال تعالى:

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم٧/)أثار ذكر ذلك الغضب الإلهى فعدل عن خطاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هم على نعت الغيبه الى خطابهم و إيعادهم من غير توسيط فقال: «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» .

و لم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه و لا ينفعهم شىء منه،و لم يذكر ما يعلمونه-و هو لا محاله أمر يسوؤهم-ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأه و يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون و فيه تشديد للإيعاد.

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ذكروا أنه معطوف على سائر جناياتهم التى دلّت عليها الآيات السابقه و التقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناياتهم و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا، و الظاهر أن«ما»فى «لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ» موصوله و المراد به آلهتهم و ضمير الجمع يعود الى المشركين و مفعول «لاٰ يَعْلَمُونَ» محذوف و المعنى و يجعل المشركون لآلهتهم التى لا يعلمون من حالها أنها تضر و تنفع نصيبا مما رزقناهم.

و المراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه فى سوره الأنعام بقوله: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعٰامِ نَصِيباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى اللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (الأنعام١٣۶/)،هذا ما ذكروه و لا يخلو عن تكلف.

و يمكن أن يكون معطوفا على ما مرّ من قوله: «يُشْرِكُونَ» و التقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم،و المراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهره

التی ینسبون إلیها الآثار علی سبیل الاستقلال و هم جاهلون بحقیقه حالها و لا علم لهم جازما أنها تضر و تنفع مع ما یرون من تخلفها عن التأثیر أحیانا.

و إنما نسب الیهم أنهم یجعلون لها نصیبا من رزقهم مع أنهم یسندون الرزق إلیها بالاستقلال من غیر أن یذکروا اللّه معها و مقتضاه نفی التأثیر عنه تعالی رأسا لا إشراکه معها لأن لهم علما فطریا بأن اللّه سبحانه له تأثیر فی الأمر و قد ذکر عنهم آنفا أنهم یجأرون الیه عند مس الضر و إذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثیر الی الأسباب أنتج ذلک أن الأسباب عندهم شرکاء للّه فی الرزق و لها نصیب فیه ثم أوعدهم بقوله: «تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا کُنْتُمْ تَفْتَرُونَ» .

قوله تعالی: وَ یَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا یَشْتَهُونَ عتاب آخر لهم فی حکم حکموا به جهلا من غیر علم فاحترموا لأنفسهم و أساءوا الأدب مجترئین علی اللّه سبحانه حیث اختاروا لأنفسهم البنین و کرهوا البنات لکنهم نسبوها الی اللّه سبحانه.

فقوله: وَ یَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ هو أخذهم الآلهه دون اللّه أو بعض الآلهه إناثا،و قولهم:إنهن بنات اللّه،و قد قیل:إن خزاعه و کنانه کانوا یقولون:إن الملائکه بنات اللّه.

و کانت الوثنیه البرهمیه و البوذیه و الصابئه یثبتون آلهه کثیره من الملائکه و الجن إناثا و هنّ بنات اللّه،و فی القرآن الکریم: وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً (الزخرف/۱۹)،و قال تعالی: وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً (الصافات/۱۵۸).

و قوله: وَ لَهُمْ مٰا یَشْتَهُونَ ظاهر السیاق أنه معطوف علی «لِلّٰهِ الْبَنٰاتِ» و التقدیر و یجعلون لهم ما یشتهون،أی یثبتون للّه سبحانه البنات باعتقاد أن الملائکه بناته و یثبتون لأنفسهم ما یشتهون و هم البنون بقتل البنات و وأدها و المحصّل أنهم یرضون للّه بما لا یرضون به لأنفسهم.

ص :۵۸۱

قوله تعالی: وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ اسوداد الوجه كنايه عن الغضب،و الكظيم هو الذی يتجرع الغيظ،و الجمله حاليه أی ينسبون الی ربهم البنات و الحال أنهم إذا بشّر أحدهم بالانثی فقيل:ولدت لک بنت اسود وجهه من الغيظ و هو يتجرع غيظه.

قوله تعالی: يَتَوٰارىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مٰا بُشِّرَ بِهِ الی آخر الآيه؛التواری الاستخفاء و التخفی و هو مأخوذ من الوراء،و الهون الذله و الخزی،و الدس الإخفاء.

و المعنی:يستخفی هذا المبشر بالبنت من القوم من سوء ما بشر به علی عقيدته و يتفكر فی أمره:أ يمسک ما بشر به و هی البنت علی ذله من إمساكه و حفظه أم يخفيه فی التراب كما كان ذلک عادتهم فی المواليد من البنات كما قيل:إن أحدهم كان يحفر حفيره صغيره فإذا كان المولود انثی جعلها فی الحفيره و حثا عليها التراب حتی تموت تحته،و كانوا يفعلون ذلک مخافه الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

و أول ما بدا لهم ذلک أن بنی تميم غزوا كسری فهزمهم و سبی نساءهم و ذراريهم فأدخلهن دار الملک و اتخذ البنات جواری و سرايا ثم اصطلحوا بعد برهه و استردّوا السبايا فخيّرن فی الرجوع الی أهلهن فامتنعت عدّه من البنات فأغضب ذلک رجال بنی تميم فعزموا لا تولد لهم أنثی إلاّ و أدوها و دفنوها حيّه ثم تبعهم فی ذلک بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

و قوله: أَلاٰ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ هو حكمهم أن له البنات و لهم البنون لا لهوان البنات و كرامه البنين فی نفس الأمر بل معنی هذا الحكم عندهم أن يكون للّه ما يكرهون و لهم ما يحبون،و قيل:المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات و كون إمساكهن هونا،و أول الوجهين أوفق و أنسب للآيه التاليه.

قوله تعالی: لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ المثل هو الصفه و منه سمّی المثل السائر مثلا لأنه صفه تسير فی

الألسن و تجرى فى كل موضع تناسبه و تشابهه.

و السوء-بالفتح و السكون-مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه و إضافه المثل الى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهه حسنها و إما من جهه سوئها و قبحها فالمثل مثلان:مثل الحسن و مثل السوء.

و الحسن و القبح ربما كانا من جهه الخلقه لا صنع للإنسان و لا مدخل لاختياره فيهما كحسن الوجه و دمامه الخلقه،و رما لحقا من جهه الأعمال الاختياريه كحسن العدل و قبح الظلم،و إنما يحمد و يذمّ العقل ما كان من القسم الثانى دون القسم الأول فيدور الحمد و الذم بحسب الحقيقه مدار العمل بما تستحسنه و تأمر به الفطره الإنسانيه من الأعمال التى توصله الى ما فيه سعاده حياته و ترک العمل بها و هو الذى يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطره.

و من المعلوم أن الطبع الإنسانى لا- رادع له عن اقتراف العمل السيئ إلاّ- أليم المؤاخذه و شديد العقاب و إذعانه بإيقاعه و إنجازه،و أما الذم فإنه يتبدل مدحا إذا شاع الفعل و خرج بذلک عن كونه منكرا غير معروف.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مسوق لإفاده الحصر و تعليل ما تقدمه أى و هو الذى له كل العزه فلا تعتريه ذله أصلا لأن كل ذله فهو فقد عزه ما و ليس يفقد عزه ما،و له كل الحكمه فلا يعرضه جهاله لأنها فقد حكمه ما ليس يفقد شيئا من الحكمه.

و إذ لا سبيل لذله و لا جهاله اليه فلا يتصف بشىء من صفات النقص،و لا ينعت بشىء من نعت الذمّ و أمثال السوء،لكن الكافر ذليل فى ذاته جهول فى نفسه فتلحقه و تلازمه صفات النقص و يتصف بصفات الذم و أمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخره مثل السوء.

و المؤمن و إن كان ذليلا- فى ذاته جهولا- فى نفسه كالكافر إلاّ- أنه لدخوله فى ولايه اللّه أعزه ربه بعزته و أظهره على الجهاله بتأييده بروح منه،قال تعالى: وَ اللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران/۶۸)،و قال: وَ لِلّهِ الْعِزَّهُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون/۸)،و قال:

أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمٰانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله/۲۲).

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دَابَّةٍ الى آخر الآيه؛ضمير «عَلَيْهٰا» عائد الى الأرض لدلاله «النّٰاسَ» عليها.

و لا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابه الإنسان فقط من جهه كونه يدب و يتحرك،و المعنى و لو أخذ اللّه الناس بظلمهم مستمرا على المؤاخذه ما ترك على الأرض من إنسان يدب و يتحرك،أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم و أما الأشذ الأندر و هم الأنبياء و الأئمه المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون الهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل.

و القوم أخذوا الدابه فى الآيه بإطلاق معناها و هو كل ما يدب على الأرض من إنسان و حيوان فعاد معنى الآيه الى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر و كل حيوان على الأرض فتوجه اليه:أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك و لا ظلم له أن يهلك بظلم من الإنسان؟

و أوجه ما أجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا:إن اللّه تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصيه لهلك عامه الناس بظلمهم إلاّ المعصومين منهم و أما المعصومون على شذوذهم و قله عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل،و إذا هلك الناس و بطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقه لمنافع العباد و مصالحهم كما يشعر به قوله تعالى:

خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره/۲۹).

و قوله: وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ استدراك عن مقدر يدل عليه الجمله الشرطيه فى صدر الآيه و التقدير:فلا يعاجل فى مؤاخذتهم و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى و الأجل المسمى بالنسبه الى الفرد من الإنسان موته المحتوم،و بالنسبه الى الامه يوم انقراضها و بالنسبه الى عامه البشر نفخ الصور و قيام الساعه،و لكل منها ذكر فى كلامه تعالى قال: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّٰى مِنْ قَبْلُ

وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى (المؤمن/۶۷)،و قال: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف/۳۴)،و قال: وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى/۱۴).

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ الى آخر الآيه؛عود الى نسبه المشركين اليه تعالى البنات و اختيارهم لأنفسهم البنين و هم يكرهون البنات و يحبون البنين و يستحسنونهم.

فقوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ يعنى البنات و قوله: «وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ» أى تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب و هو «أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنىٰ» أى العاقبه الحسنى من الحياه و هى أن يخلفهم البنون،و قيل:المراد بالحسنى الجنه على تقدير صحه البعث و صدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم فى قوله: وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ (حم السجده/ ۵۰)،و هذا الوجه لا بأس به لو لا ذيل الآيه بما سيجىء من معناه.

و قوله: لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أى المقدمون الى عذاب النار يقال فرط و أفرط أى تقدم و الإفراط و الإسراف فى التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، و الفرط بفتحتين هو الذى يسبق السيّاره لتهيئه المسكن و الماء،و يقال:أفرطه أى قدّمه.

و لما كان قولهم كذبا و افتراء إن للّه ما يكرهون و لهم الحسنى فى معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم الى الحسنى و تركوا له ما يكرهون أو عدهم بحقيقه هذا الزعم جزاء لكذبهم و هو أن لهم النار و أنهم مقدمون إليها حقا و ذلك قوله: «لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّٰارَ» الخ.

قوله تعالى: تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآيه و المراد بكون الشيطان وليا لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال فى زمان الوحى و المراد

بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامه كما هو ظاهر غالب الآيات التى توعد بالعذاب.

و المعنى:تاللّه لقد أرسلنا رسلنا الى امم من قبلك كاليهود و النصارى و المجوس ممن لم ينقرضوا كعاد و ثمود فزين لهم الشيطان أعمالهم فاتبعوه و أعرضوا عن رسلنا فهو وليهم اليوم و هو متفقون على الضلال و لهم يوم القيامه عذاب أليم.

قوله تعالى: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ الخ؛ضمير لهم للمشركين و المراد بالذى اختلفوا فيه هو الحق من اعتقاد و عمل فيكون المراد بالتبين الإيضاح و الكشف لإتمام الحجه،و الدليل على هذا الذى ذكرنا تفريق أمر المؤمنين منهم و إفرادهم بالذكر فى قوله: «وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

و المعنى:هذا حال الناس فى الاختلاف فى المعارف الحقه و الأحكام الإلهيه و ما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتكشف لهؤلاء المختلفين الحق الذى اختلف فيه فيتم لهم الحجه،و ليكون هدى و رحمه لقوم يؤمنون يهديهم اللّه به الى الحق و يرحمهم بالإيمان به و العمل.

[سوره النحل (۱۶): الآيات ۶۵ الى ۷۷]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِى اَلْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خٰالِصاً سٰائِغاً لِلشّٰارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ اَلنَّخِيلِ وَ اَلْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷) وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى اَلنَّحْلِ أَنِ اِتَّخِذِى مِنَ اَلْجِبٰالِ بُيُوتاً وَ مِنَ اَلشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ فِيهِ شِفٰاءٌ لِلنّٰاسِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹) وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۷۰) وَ اَللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِى اَلرِّزْقِ فَمَا اَلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرٰادِّى رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ أَ فَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اَللّٰهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (۷۲) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ شَيْئاً وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ (۷۳) فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ اَلْأَمْثٰالَ إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۷۴) ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنٰاهُ مِنّٰا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلاٰهُ أَيْنَمٰا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۶) وَ لِلّٰهِ غَيْبُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ اَلسّٰاعَةِ إِلاّٰ كَلَمْحِ اَلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۷۷)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا الخ؛يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذى او المطر فتأخذ أصول النباتات و بذورها فى النمو بعد سكونها،و هى حياه من سنخ الحياه الحيوانيه و إن كانت أضعف منها،و قد اتضح بالأبحاث الحديثه أن للنبات من جراثيم الحياه ما للحيوان و إن اختلفتا صوره و أثرا.

و قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى و استمع اليه ليعيه و يحفظه،قال تعالى: اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ (الزمر۱۸/).

فإذا ذكّر من فيه قريحه قبول الحق حديث إنزال اللّه المطر و إحيائه الأرض بعد موتها كان له فى ذلك آيه للبعث و أن الذى أحياها لمحى الموتى.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً الخ؛الفرث هو الثفل الذى ينزل الى الكرش و الإمعاء فإذا دفع فهو سرجين و ليس فرثا،و السائغ اسم فاعل من السوغ يقال:

ساغ الطعام و الشراب إذا جرى فى الحلق بسهوله.

و قوله: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً أى لكم فى الإبل و البقر و الغنم لأمرا أمكنكم أن تعتبروا به و تتّعظوا ثم بيّن ذلك الأمر بقوله: «نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِي بُطُونِهِ» الخ؛أى بطون

ما ذکر من الأنعام أخذ الکثیر شیئا واحدا.

و قوله: مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ الفرث فی الکرش و ألبان الأنعام مکانها مؤخر البطن بین الرجلین،و الدم مجراها الشرایین و الأورده و هی محیطه بهما جمیعا فأخذ اللبن شیئا هو بین الفرث و الدم کأنه باعتبار مجاورته لکل منهما و اجتماع الجمیع فی داخل الحیوان و هذا کما یقال:

اخترت زیدا من بین القوم و دعوته و أخرجته من بینهم إذا اجتمع معهم فی مکان واحد و جاورهم فیه و إن کان جالسا فی حاشیه القوم لا وسطهم،و المراد بذلک أنی میّزته من بینهم و قد کان غیر متمیز.

و المعنی:نسقیکم مما فی بطونه لبنا خارجا من بین فرث و دم خالصا غیر مختلط و لا مشوب بهما و لا مستصحب لشیء من طعمهما و رائحتهما سائغا للشاربین فذلک عبره لمن اعتبر و ذریعه الی العلم بکمال القدره و نفوذ الإراده،و أن الذی خلّص اللبن من بین فرث و دم لقادر علی أن یبعث الإنسان و یحییه بعد ما صار عظاما رمیما و ضلّت فی الأرض أجزاؤه.

قوله تعالی: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:السکر-بضم السین- حاله تعرض بین المرء و عقله-الی أن قال-و السکر-بفتحتین-ما یکون منه السکر،قال تعالی: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» انتهی.

و قال فی المجمع:السکر فی اللغه علی أربعه أوجه:الأول ما أسکر من الشراب،و الثانی ما طعم من الطعام،قال الشاعر:«جعلت عیب الأکرمین سکرا»أی جعلت ذمّهم طعما لک، و الثالث السکون و منه لیله ساکره أی ساکنه،قال الشاعر:«و لیست بطلق و لا ساکره» و یقال:سکرت الریح سکنت،قال:«و جعلت عین الحرور تسکر»،و الرابع المصدر من قولک:سکر سکرا و منه التسکیر التحییر فی قوله: «سُکِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا» انتهی.و الظاهر أن الأصل فی معناه هو زوال العقل باستعمال ما یوجب ذلک،و سائر ما ذکره من المعانی مأخوذه

منه بنوع من الاستعاره و التوسّع.

و قوله: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنٰابِ إما جمله اسميّه معطوفه على قوله:

«وَ اللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً» كقوله فى الآيه السابقه: «وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً» ،و التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب-أو (۱)شيء-تتخذون منه،الخ؛قالوا:و العرب ربما يضمر ما الموصوله كثيرا،و منه قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (الدهر/ ۲۰)،و التقدير رأيت ما ثمّ،أو التقدير و من ثمرات النخيل و الأعناب شيء تتخذونه منه،بناء على عدم جواز حذف الموصول و إبقاء الصله على ما ذهب اليه البصريون من النحاه.

و إمّا جمله فعليه معطوفه على قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ» كما فى الآيه التاليه «وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ» و التقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل و الأعناب،و قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ» الخ؛بدل منه أو استئناف كأن قائلا يقول:ما ذا نستفيد منه فقيل:تتخذون منه سكرا و رزقا حسنا، و إفراد ضمير «مِنْهُ» بتأويل المذكور كقوله: «مِمّٰا فِي بُطُونِهِ» فى الآيه السابقه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً أى تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل و الأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها و رزقا حسنا كالتمر و الزبيب و الدبس و غير ذلك مما يقتات به.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ حثا على التعقل و الإمعان فى أمر النبات و ثمراته.

قوله تعالى: وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً الى آخر الآيتين،الوحى-كما قال الراغب-الإشاره السريعه و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرّد عن التركيب أو بإشاره و نحوها،و المحصّل من موارد استعماله أنه إلقاء

۱- ۱) .الترديد مبنى على المذهبين فى حذف الموصوف كما سيأتى.

المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى فى فهم الحيوان من طريق الغريزه من الوحى و كذا ورود المعنى فى النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسه أو بالإشاره كل ذلک من الوحى،و قد استعمل فى كلامه تعالى فى كل من هذه المعانى كقوله:

«وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ» الآيه،و قوله: وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّ مُوسىٰ (القصص/٧)، و قوله: إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ (الأنعام/١٢١)،و قوله: فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (مريم/١١)،و من الوحى التكليم الإلهى لأنبيائه و رسله،قال تعالى:

وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً (الشورى/٥١)،و قد قرّر الأدب الدينى فى الإسلام أن لا يطلق الوحى على غير ما عند الأنبياء و الرسل من التكليم الإلهى.

قال فى المجمع:و الذلل جمع الذلول،يقال:دابه ذلول بيّن الذل و رجل ذلول بيّن الذل و الذله.انتهى.

و قوله: وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ أى ألهمه من طريق غريزته التى أودعها فى بنيته،و أمر النحل و هو زنبور العسل فى حياته الاجتماعيه و سيرته و صنعته لعجيب،و لعل بداعه أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم الى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم إذ قال: «وَ أَوْحىٰ رَبُّکَ» .

و قوله: أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبٰالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ هذا من مضمون الوحى الذى أوحى اليه،و الظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

و قوله: ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالبا على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن فى بطون الأزهار و لما تكبر و تنضج.

و قوله: فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً تفريعه على الأمر بالأكل يؤيّد أن المراد به رجوعها الى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات و إضافه السبل الى الرب للدلاله على أن الجميع بإلهام إلهى.

و قوله: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ الـخ؛استئنـاف بعـد ذكر جمله مـا أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهـدتها فى امتثال أمر اللّه سبحانه ذللا و هو أنه يخرج من بطونها أى بطون النحل «شَرٰابٌ» و هو العسل «مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ» بالبياض و الصفره و الحمره الناصعه و ما يميل الى السواد فِيهِ شِفٰاءٌ لِلنّٰاسِ من غالب الأمراض.

و تفصيل القول فى حياه النحله هذه الحشره الفطنه التى بنت حياتها على مدنيه عجيبه فاضـله لا تكاد تحصـى غرائبها و لا يحاط بـدقائقها ثم الـذى تهيئه ببـالغ مجاهـدتها و مـا يشـتمل عليه من الخواص خـارج عن وسع هـذا الكتـاب فليراجع فى ذلـك مظان تحقيقه.

ثم ختم الآيه بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و قد اختلف التعبير بذلك فى هذه الآيات فخصّ الآيه فى إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون،و فى ثمرات النخيل و الأعناب بقوم يعقلون،و فى أمر النحل بقوم يتفكرون.

قوله تعـالى: وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً الـخ؛الأرذل اسم تفضـيل من الرذاله و هى الرداءه،و الرذل الدون و الردىء،و المراد بأرذل العمر بقرينه قوله: لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ الخ؛سن الشيخوخه و الهرم التى فيها انحطاط قوى الشعور و الإدراك،و هى تختلف باختلاف الأمزجه و تبتدئ على الأغلب من الخمس و السبعين.

و المعنى:و اللّه خلقكم معشر النـاس ثم يتوفـاكم فى متوسط و منكم من يردّ الى سن الهرم فينتهى الى أن لا يعلم بعـد علم شـيئا لضـعف القوى،و هـذه آيه أن حياتكم و موتكم و كذا شعوركم و علمكم ليست بأيديكم و إلاّ اخترتم البقاء على الوفاه و العلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته الى علمه و قدرته تعالى،و لهذا علمه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» .

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ الى آخر الآيه؛

فضّل بعض الناس على بعض فى ارزق و هو ما تبقى به الحياه ربما كان من جهه الكميه كالغنى المفضل بالمال الكثير على الفقير،و ربما كان من جهه الكيفيه كأن يستقل بالتصرف فيه بعضهم و يتولى أمر الآخرين مثل ما يستقل المولى الحر بملك ما فى يده و التصرف فيه بخلاف عبده الذى ليس له أن يتصرف فى شىء إلاّ بإذنه و كذا الأولاد الصغار بالنسبه الى وليهم و الأنعام و المواشى بالنسبه الى مالكها.

و قوله: فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ قرينه على أن المراد هو القسم الثانى من التفضيل و هو أن بعضهم فضّل بالحريه و الاستقلال بملك ما رزق و ليس يختار أن يردّ ما رزق باستقلاله و حريته الى ما يملكه و يملك رزقه،و لا أن يبذل له ما أوتيه من نعمه حتى يتساويا و يتشاركا فيبطل ملكه و يذهب سودده.

فهذه نعمه ليسوا بمغمضين عنها و لا برادّين لها على غيرهم،و ليست إلاّ من اللّه سبحانه فإن أمر المولويه و الرقّيه و إن كان من الشئون الاجتماعيه التى ظهرت عن آراء الناس و السنن الاجتماعيه الجاريه فى مجتمعاتهم لكن له اصول طبيعيه تكوينيه هى التى بعثت آراءهم على اعتباره كسائر الامور الاجتماعيه العامه.

و المعنى-و اللّه أعلم-و اللّه فرّق بينكم بأن فضّل بعضكم على بعض فى الرزق فبعضكم حرّ مستقل فى التصرف فيه،و بعضكم عبد تبع له لا يتصرف إلاّ عن إذن فليس الذين فضّلوا برادّى رزقهم الذى رزقوه على سبيل الحريه و الاستقلال على ما ملكت أيمانهم حتى يكون هؤلاء المفضلون و المفضل عليهم فى الرزق سواء فليسوا سواء بل هى نعمه تختص بالمفضلين أ فبنعمه اللّه يجحدون؟

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً الى آخر الآيه؛قال فى المفردات:قال اللّه تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً جمع حافد و هو المتحرك المسرع بالخدمه أقارب

کانوا أو أجانب.قال المفسرون:هم الأسباط و نحوهم و ذلک أن خدمتهم أصدق-الی أن قال-قال الأصمعی:أصل الحفد مدارکه الخطو.انتهی.

و فی المجمع:و أصل الحفد الإسراع فی العمل-الی أن قال-و منه قیل للأعوان حفده لإسراعهم فی الطاعه.انتهی.و المراد بالحفده فی الآیه الأعوان الخدم من البنین لمکان قوله:

«وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ» و لذا فسر بعضهم قوله: «بَنِینَ وَ حَفَدَهً» بصغار الأولاد و کبارهم،و بعضهم بالبنین و الأسباط و هم بنو البنین.

و المعنی:و اللّه جعل لکم من أنفسکم أزواجا تألفونها و تأنسون بها،و جعل لکم من أزواجکم بالإیلاد بنین و حفده و أعوانا تستعینون بخدمتهم علی حوائجکم و تدفعون بهم عن أنفسکم المکاره و رزقکم من الطیبات و هی ما تستطیبونه من أمتعه الحیاه و تنالونه بلا علاج و عمل کالماء و الثمرات أو بعلاج و عمل کالأطعمه و الملابس و نحوها،و «مِنْ» فی «مِنَ الطَّیِّبٰاتِ» للتبعیض و هو ظاهر.

ثم وبخهم بقوله: أَ فَبِالْبٰاطِلِ و هی الأصنام و الأوثان و من ذلک القول بالبنات للّه، و الأحکام التی یشرعها لهم أئمتهم أئمه الضلال «یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ هُمْ یَکْفُرُونَ» و النعمه هی جعل الازواج من أنفسهم و جعل البنین و الحفده من أزواجهم فإن ذلک من أعظم النعم و أجلاها لکونه أساسا تکوینیا یبتنی علیه المجتمع البشری،و یظهر به فیهم حکم التعاون و التعاضد بین الأفراد،و ینتظم به لهم أمر تشریک الأعمال و المساعی فیتیسر لهم الظفر بسعادتهم فی الدنیا و الآخره.

و لو أن الإنسان قطع هذا الرابط التکوینی الذی أنعم اللّه به علیه و هجر هذا السبب الجمیل،و إن توسّل بأی وسیله غیره لتلاشی جمعه و تشتت شمله و فی ذلک هلاک الإنسانیه.

قوله تعالی: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً وَ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ عطف علی موضع الجمله السابقه و المعنی یکفرون

بنعمه اللّه و يعبدون من دون اللّه ما لا يملك،الخ.

و قد ذكروا أن رِزْقاً مصدر و شَيْئاً مفعوله و المعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئا، و قيل:الرزق بمعنى المرزوق و شَيْئاً بدل منه،و قيل:إن شَيْئاً مفعول مطلق و التقدير:لا يملك شيئا من الملك.و خير الوجوه أوسطها.

و فى الآيه رجوع الى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم و هو التوحيد و إثبات النبوه بمعنى التشريع و المعاد يجرى ذلك الى تمام أربع آيات ينهى فى اولاها عن ضربهم الأمثال للّه سبحانه،و يضرب فى الثانيه مثل تبين به وحدانيته تعالى فى ربوبيّته،و فى الثالثه مثل يتبين به أمر النبوّه و التشريع،و يتعرض فى الرابعه لأمر المعاد.

قوله تعالى: فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثٰالَ إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ الظاهر السابق الى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعاره التمثيليه و هى إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم:إن له بنات كالإنسان، و إن الملائكه بناته،و إن بينه و بين الجنه نسبا و صهرا،و إنه كيف يحيى العظام و هى رميم الى غير ذلك،و هذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمه فى كلامه تعالى،و قد تقدم فى خلال الآيات السابقه قوله: «لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ» .

فالمعنى:إذا كان الأمر على ما ذكر فلا تصفوه سبحانه بما تشبّهونه بغيره و تقيسونه الى خلقه لأن اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون حقائق الامور و كنهه تعالى.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ الى آخر الآيه؛ما فى الآيه من المثل المضروب يفرض عبدا مملوكا لا يقدر على شىء،و آخر رزق من اللّه رزقا حسنا ينفق منه سرا و جهرا ثم يسأل هل يستويان؟و اعتبار التقابل بين المفروضين يعطى أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما فى الآخر من الوصف مع تبيين الأوصاف بعضها لبعض.

ص:۵۹۵

فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه و لا لشيء من متاع الحياه و هو غير قادر على التصرف فى شيء من المال،و الذى فرض قباله حر يملك نفسه و قد رزقه اللّه رزقا حسنا و هو ينفق منه سرا و جهرا و على قدره منه على التصرف بجميع أقسامه.

و قوله: هَلْ يَسْتَوُونَ سؤال عن تساويهما،و من البديهى أن الجواب هو نفى التساوى و يثبت به أن اللّه سبحانه و هو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوى شيئا من خلقه و هم لا يملكون لا أنفسهم و لا غيرهم و لا يقدرون على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم:إن مع اللّه آلهه غيره و هم من خلقه.

و التعبير بقوله: يَسْتَوُونَ دون أن يقال:يستويان للدلاله على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى و عبد معينين كما قيل.

و قوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ أى له عزّ اسمه جنس الحمد و حقيقته و هو الثناء على الجميل الاختيارى لأن جميل النعمه من عنده و لا يحمد إلاّ الجميل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك.

و قوله: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ أى أكثر المشركين لا يعلمون أن النعمه كلها للّه لا يملك غيره شيئا و لا يقدر على شيء بل يثبتون لأوليائهم شيئا من الملك و القدره على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعا و خوفا،هذا حال أكثرهم و أما أقلهم من الخواص فانهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغيا و عنادا.

قوله تعالى: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ الى آخر الآيه؛قال فى المجمع:الأبكم الذى يولد أخرس لا يفهم و لا يفهّم،و قيل:الأبكم الذى لا يقدر أن يتكلم و الكلّ الثقل يقال:كلّ عن الأمر يكلّ كلا إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه.

و كلّت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها،و كلّ لسانه إذا لم ينبعث فى القول لغلظه و ذهاب حدّه فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ،و التوجيه:الإرسال فى وجه من الطريق،يقال:

وجّهته الى موضع كذا فتوجّه اليه.انتهى.

فقوله: وَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ مقايسه أخرى بين رجلين مفروضين متقابلين فى أوصافهما المذكوره.

و قوله: أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ أى محروم من أن يفهم الكلام و يفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع و لا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات و المزايا التى يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذى هو أوسع الحواس نطاقا،به يتمكن الإنسان من العلم بأخبار من مضى و ما غاب عن البصر من الحوادث و ما فى ضمائر الناس و يعلّم العلوم و الصناعات، و به يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعانى الجليله و الدقيقه الى غيره،و لا يقوى الأبكم على درك شىء منها إلاّ النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانه من الإشاره.

فقوله: لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ مخصص عمومه بالأبكم أى لا يقدر على شىء مما يقدر عليه غير الأبكم و هو جمله ما يحرمه الأبكم من تلقّى المعلومات و إلقائها.

و قوله: وَ هُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلاٰهُ أى ثقل و عيال على من يلى و يدبر أمره فهو لا يستطيع أن يدبر أمر نفسه،و قوله: «أَيْنَمٰا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ» أى الى أى جهه أرسله مولاه لحاجه من حوائج نفسه أو حوائج مولاه لم يقدر على رفعها فهو لا يستطيع أن ينفع غيره كما لا ينفعه نفسه،فهذا أعنى قوله: «أَحَدُهُمٰا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ» الخ؛مثل أحد الرجلين،و لم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» الخ؛ و فيه إيجاز لطيف.

و قوله: هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ فيه إشاره الى وصف الرجل المفروض و سؤال عن استوائهما إذا قويس بينهما و عدمه.

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير و الكمال الذى يحلى نفسه و يعدو الى غيره و هو العدل الذى هو التزام الحد الوسط فى الأعمال و اجتناب

ص :۵۹۷

الإفراط و التفريط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال فى الامور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل و هو-كما عرفت-مطلق التجنب عن الإفراط و التفريط أى العمل الصالح أعم من العدل فى الرعيه.

ثم وصفه بقوله: وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو السبيل الواضح الذى يهدى سالكيه الى غايتهم من غير عوج،و الانسان الذى هو فى مسير حياته على صراط مستقيم يجرى فى أعماله على الفطره الانسانيه من غير أن يناقض بعض أعماله بعضا أو يتخلف عن شيء مما يراه حقا،و بالجمله لا تخلف و لا اختلاف فى أعماله.

قوله تعالى: وَ لِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الغيب يقابل الشهاده فى إطلاقات القرآن الكريم و قد تكرر فيه «عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ» و قد تقدم مرارا أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب و غائب بالنسبه الى شيء و شهاده و مشهود بالنسبه الى آخر.

و إذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره و يخفى ببعض أعنى أنه متضمن غيبا و شهاده كانت إضافه الغيب و الشهاده الى الشيء تاره بمعنى اللام فيكون مثلا غيب السماوات و الأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما،و يلحق بهذا الباب الإضافه لنوع من الاختصاص،كما فى قوله: فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (الجن۲۶/).

و تاره بمعنى«من»أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات و الأرض الغيب الذى يشتملان عليه نوعا من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهاده و بعباره اخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

و الساعه هى من غيب السماوات و الأرض بهذا المعنى الثانى.

فقوله: وَ مٰا أَمْرُ السّٰاعَهِ إِلاّٰ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى بالنسبه اليه و إلاّ

فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير و وصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها،قال تعالى: ثَقُلَتْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف/١٨٧).

و تشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهه أن اللمحه و هی مدّ البصر و إرساله للرؤيه أخف الأعمال عند الإنسان و أقصرها زمانا فهو تشبيه بحسب فهم السامع و لذلک عقّبه بقوله:

«أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول:إن أمرها فی خفه المؤنه و الهوان و السهوله بالنسبه الينا يشبه لمح أحدكم ببصره،و إنما أشبّهه به رعايه لحالكم و تقريبا الی فهمكم و إلّا فالأمر أقرب من ذلک،كما قال فيها: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (الأنعام/ ٧٣)،فأمر الساعه بالنسبه الی قدرته و مشيّته تعالی كأمر أيسر الخلق و أهونه.

و علّل تعالی ذلک بقوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ فقدرته على كل شیء توجب أن تكون الأشياء بالنسبه اليه سواء.

و إياک أن تتوهم أن عموم القدره لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبه،فقله الاسباب المتوسطه بين الفاعل و فعله و الشرائط و الموانع و كثرتها لهما تأثير فی ذلک لا محاله،فالإنسان مثلا قادر على التنفس و حمل ما يطيقه من الاثقال و ليسا سواء بالنسبه اليه و على هذا القياس.

[سوره النحل (١۶): الآيات ٧٨ الی ٨٩]

اشاره

وَ اَللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى اَلطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِی جَوِّ اَلسَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اَللّٰهُ إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ اَلْأَنْعٰامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ (٨٠) وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْجِبٰالِ أَكْنٰاناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ اَلْحَرَّ وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اَللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ (٨٣) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨۴) وَ إِذٰا رَأَى اَلَّذِينَ ظَلَمُوا اَلْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨۵) وَ إِذٰا رَأَى اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰاءَهُمْ قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا اَلَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ اَلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰاذِبُونَ (٨۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اَللّٰهِ يَوْمَئِذٍ اَلسَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً فَوْقَ اَلْعَذٰابِ بِمٰا كٰانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِی كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ تِبْيٰاناً لِكُلِّ شَیْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

بیان:

قوله تعالی: وَ اللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً الی آخر الآیه.الامهات جمع أم و الهاء زائده نظیر إهراق و أصله أراق و قد تأتی أمّات،و قیل:الامهات فی الانسان و الامات فی غیره من الحیوان،و الأفئده جمع قله للفؤاد و هو القلب و اللب،و لم یبن له جمع کثره.

و قوله: أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ إشاره الی التولّد و «لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» حال من ضمیر الخطاب أی أخرجکم من أرحامهن بالتولد و الحال أن نفوسکم خالیه من هذه المعلومات التی أحرزتموها من طریق الحس و الخیال و العقل بعد ذلک.

و الآیه تؤید ما ذهب الیه علماء النفس أن لوح النفس خالیه عن المعلومات أول تکوّنها ثم تنتقش فیها شیئا فشیئا-کما قیل-و هذا فی غیر علم النفس بذاتها فلا یطلق علیه عرفا«یعلم شیئا»و الدلیل علیه قوله تعالی فی خلال الآیات السابقه فیمن یردّ الی أرذل العمر: «لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً» فإن من الضروری أنه فی تلک الحال عالم بنفسه.

و احتج بعضهم بعموم الآیه علی أن العلم الحضوری یعنی به علم الإنسان بنفسه کسائر العلوم الحصولیه مفقود فی بادئ الحال حادث بعد ذلک ثم ناقش فی أدله کون علم النفس بذاتها حضوریا مناقشات عجیبه.

و فیه أن العموم منصرف الی العلم الحصولی و یشهد بذلک الآیه المتقدمه.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إشاره الی مبادی العلم الذی أنعم بها علی الإنسان فمبدأ التصوّر هو الحس،و العمده فیه السمع و البصر و إن کان هناک غیرهما من اللمس و الذوق و الشم،و مبدأ الفکر هو الفؤاد.

ص :۶۰۱

قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِي جَوِّ السَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّٰهُ الخ؛قال فى المجمع:الجو الهواء البعيد من الأرض.انتهى.يقول:أ لم ينظروا الى الطير حال كونها مسخرات للّه سبحانه فى جو السماء و الهواء البعيد من الأرض،ثم استأنف فقال مشيرا الى ما هو نتيجه هذا النظر: «مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّٰهُ» .

و إثبات الإمساك للّه سبحانه و نفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعيه هناك مؤثره فى ذلك و كلامه تعالى يصدّق ناموس العلّيه و المعلوليه إنما هو من جهه أن توقف الطير فى الجو من دون أن تسقط كيفما كان و إلى أى سبب استند هو و سببه و الرابطه التى بينهما جميعا مستنده الى صنعه تعالى فهو الذى يفيض الوجود عليه و على سببه و على الرابطه التى بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقه و إن كان سببه الطبيعى القريب معه يتوقف هو عليه.

و معنى توقفه فى وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف فى أخذه الوجود منه تعالى الى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك،و قد تقدم بعض الكلام فى توضيح ذلك من قريب.

و هذا معنى توحيد القرآن،و الدليل عليه من جهه لفظه أمثال قوله: أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف/۵۴)،و قوله: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (البقره/۱۶۵)،و قوله: اَللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر/۶۲)،و قوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل/۷۷).

و الدليل على ما قدمناه فى معنى النفى و الإثبات فى الآيه قوله تعالى: «مُسَخَّرٰاتٍ» فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر فى فعله على ما يريده السبب القاهر ففى لفظه دلاله على أن للمقهور نوعا من السببيه.

و ليس طيران الطائر فى جو السماء بالحقيقه بأعجب من سكون الإنسان فى الأرض فالجميع ينتهى الى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفه الإنسان لبعض الامور و كثره عهده به توجب خمود قريحه البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه و كثر عهده به كالمستثنى من

الكليه انتبه لـذلك و انتزعت القريحه للبحث عنه و الإنسان يرى الأجسام الأرضـيه الثقيله معتمـده على الأرض مجـذوبه إليها فإذا وجـد الطير مثلاـ تنقض كليه هـذا الحكم بطيرانهـا تعجب منه و انبسـط للبحث عنه و الحصول على علته،و للحق نصـيب من هـذا البحث و هذا هو أحد الأسباب فى أخذ هذا النوع من الامور فى القرآن مواد للاحتجاج.

و قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى كونها مسـخرات فى جو السـماء فإن للطير و هو فى الجو دفيفا و صـفيفا و بسـطا لأجنحتها و قبضا و سكونا و انتقالا و صعودا و نزولا و هى جميعا آيات لقوم يؤمنون كما ذكره اللّه.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً الى آخر الآيه؛فى المفردات:

البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال:بات أقام بالليل كما يقال:ظل بالنهار.ثم قد يقال:

للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه،و جمعه أبيات و بيوت لكن البيوت بالمسكن أخص و الأبيات بالشعر،قال:و يقع ذلك على المتخذ من حجر و مدر و صوف و وبر.انتهى موضع الحاجه.

و السـكن ما يسـكن اليه،و الظعن الارتحال و هو خلاف الإقامه،و الصوف للضأن و الوبر للإبل كالشعر للانسان و يسمى ما للمعز شعرا كالإنسـان،و الأثـاث متـاع البيت الكثير و لاـ يقـال للواحـد منه أثـاث،قـال فى المجمع:و لاـ واحـد للأثـاث كما أنه لا واحد للمتاع.انتهى.

و المتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به و لا يختص بما فى البيت.

و قوله: وَ اللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَـكَناً أى جعل لكم بعض بيوتكم سكنا تسكنون اليه،و من البيوت ما لا يسكن اليه كالمتخذ لادخـار الأـموال و اختزان الأـمتعه و غير ذلك و قوله: «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعٰامِ بُيُوتاً» الـخ؛أى من جلودها بعـد الـدبغ و هى الأنطـاع و الأـدم «بُيُوتاً» و هى القباب و الخيام «تَسْـتَخِفُّونَهٰا» أى تعـدونها خفيفه من جهه الحمل «يَوْمَ ظَعْنِكُمْ» و ارتحالكم «وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ» من غير سفر و ظعن.

و قوله: وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها الخ؛معطوف على موضع «مِنْ جُلُودِ» أى و جعل لكم «مِنْ أَصْوافِها» و هى للضأن و «أَوْبارِها» و هى للابل «وَ أَشْعارِها» و هى للمعز «أَثاثاً» تستعملونه فى بيوتكم «وَ مَتاعاً» تتمتعون به «إِلى حِينٍ» محدود،قيل:

و فيه إشاره الى أنها فانيه داثره فلا ينبغى للعاقل أن يختارها على نعيم الآخره.

قوله تعالى: وَ اللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّا خَلَقَ ظِلالاً الى آخر الآيه؛الظرفان أعنى قوله: «لَكُمْ» و «مِمّا خَلَقَ» متعلقان بجعل و تعليق الظلال بما خلق لكونها أمرا عدميا محققا بتبع غيره و هى مع ذلك من النعم العظيمه التى أنعم اللّه بها على الإنسان و سائر الحيوان و النبات فما الانتفاع بالظل للانسان و غيره بأقل من الانتفاع بالنور و لو لا الظل و هو ظل الليل و ظل الأبنيه و الأشجار و الكهوف و غيرها لما عاش على وجه الأرض عائش.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً الكن ما يستتر به الشىء حتى أن القميص كن للابسه،و أكنان الجبال هى الكهوف و الثقب الموجوده فيها.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ أى قميصا يحفظكم من الحر،قال فى المجمع:و لم يقل:و تقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد،و إنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر فى بلادهم فحاجتهم الى ما يقى الحر أكثر،عن عطاء.

قال:على أن العرب يكتفى بذكر أحد الشيئين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

و ما أدرى إذا يممت أرضا

أريد الخير أيهما يلينى

فكنى عن الشر و لم يذكره لأنه مدلول عليه،ذكره الفراء انتهى.

و لعل بعض الوجه فى ذكره الحر و الاكتفاء به أن البشر الأولى يسكنون المناطق الحاره من الأرض فكان شده الحر أمسّ بهم من شده البرد و تنبههم لاتخاذ السراويل إنما هو للاتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم و هو الحر و اللّه أعلم.

ص :۶۰۴

و قوله: وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ الظاهر أن المراد به درع الحديد و نحوه.

و قوله: كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ امتنان عليهم بإتمام النعم التى ذكرها،و كانت الغايه المرجوه من ذلك إسلامهم للّه عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم و إتمامها عليه أن يسلم لإراده منعمه و لا يقابله بالاستكبار لأن منعما هذا شأنه لا يريد به سوء.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ قال فى المجمع:البلاغ الاسم و التبليغ المصدر مثل الكلام و التكليم،انتهى.

لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم و الاحتجاج بها ختمها بما مدلوها العتاب و اللوم و الوعيد على الكفر و يتضمن ذكر وحدانيته تعالى فى الربوبيه و المعاد و النبوه،و بدأ ذلك ببيان وظيفه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى رسالته و هو البلاغ فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى يتفرع على هذا البيان الذى ليس فيه إلا دعوتهم الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا و أعرضوا عن الإصغاء اليه و الاهتداء به «فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ» و التبليغ الواضح الذى لا إبهام فيه و لا ستر عليه لأنك رسول و ما على الرسول إلا ذلك.

و فى الآيه تسليه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و بيان وظيفه له.

قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ المعرفه و الإنكار متقابلان كالعلم و الجهل و هذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار و هو عدم المعرفه لازم معناه و هو الإنكار فى مقام العمل و هو عدم الإيمان باللّه و رسوله و اليوم الآخر أو الجحود لسانا مع معرفتها قلبا،لكن قوله: «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ» يخص الجحود بأكثرهم كما سيجىء فيبقى للإنكار المعنى الأول.

و قوله: وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ دخول اللام على «الْكٰافِرُونَ» يدل على الكمال أى إنهم كافرون بالنعم الإلهيه أو بما تدل عليه من التوحيد و غيره جميعا لكن أكثرهم كاملون فى

كفرهم و ذلك بالجحود عنادا و الإصرار عليه و الصدّ عن سبيل اللّه.

و المعنى:يعرفون نعمه اللّه بعنوان أنها نعمه منه و مقتضاه أن يؤمنوا به و برسوله و اليوم الآخر و يسلموا فى العمل إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفه، و أكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملى بل يزيدون عليه بكمال الكفر و العناد مع الحق و الجحود و الإصرار عليه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ قال فى المجمع:قال الزجاج:و العتب الموجده يقال:عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاوضه ما عتب عليه قالوا:عاتبه،و إذا رجع الى مسرّته قيل:أعتب،و الاسم العتبى و هو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العتاب،و استعتبه طلب منه أن يعتب.انتهى.

و قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم القيامه،و بهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمه،شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أمتهم فى الدنيا و هم يستشهد بهم و يشهدون عليهم يوم القيامه،و قد تقدم بعض الكلام فى معنى هذه الشهاده فى تفسير قوله: لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقره/۱۴۳)فى الجزء الأول من الكتاب.

و لا دلاله فى لفظ الآيه على أن المراد بشهيد الامه نبيّها،و لا أن المراد بالامه أمه الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبى من أمته كالإمام شهيدا كما يدلّ عليه آيه البقره السابقه و قوله تعالى: وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدٰاءِ (الزمر/۶۹)،و على هذا فالمراد بكل أمه أمه الشهيد المبعوث و أهل زمانه.

و قوله: ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ذكر بعث شهداء الامم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا فى الدنيا،و قرينه على أن المراد من نفى الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم فى الكلام و هو الاعتذار لا محاله،و نفى الإذن فى الكلام إنما هو تمهيد

لأداء الشهود شهادتهم كما تلوّح اليه آيات أخر كقوله: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس۶۵/)،و قوله: هٰذا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات۳۶/).

على أن سياق قوله: «ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ» الخ؛يفيد أن المراد بهذا الذى ذكر نفى ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل و بيان أنه لا سبيل الى تدارك ما فات منهم و إصلاح ما فسد من أعمالهم فى الدنيا يومئذ و هو أحد أمرين:الاعتذار أو استئناف العمل،أما الثانى فيتكفله قوله: «وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» و لا يبقى للأول و هو الاعتذار بالكلام إلا قوله: «ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .

قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ كانت الآيه السابقه بالحقيقه مسوقه لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذى هو يوم القيامه و بين سائر ظروف الجزاء فى الدنيا بأن جزاء يوم القيامه لا يرتفع و لا يتغير باعتذار و لا باستعتاب،و هذه الآيه بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيويه التى تتعلق بالظالمين فى الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما و عذاب يوم القيامه لا يقبل تخفيفا و لا إنظارا.

فقوله: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ ذكر الظلم فى الصله دون الكفر و نحوه للدلاله على سبب الحكم و ملاكه،و المراد برؤيه العذاب إشرافه عليهم و إشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيده السياق،و المراد بالعذاب عذاب يوم القيامه و هو عذاب النار.

و المعنى-و اللّه أعلم-و إذا قضى الأمر بعذابهم و أشرفوا على العذاب بمشاهده النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار و إمهال.

قوله تعالى: وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰاءَهُمْ الى آخر الآيه؛مضىّ فى حديث يوم البعث،و قوله: «وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و هم فى عرف القرآن عبده الأصنام

و الأوثان قرينه على أن المراد بقوله: «شُرَكَاءَهُمْ» الذين أشركوهم باللّه زعما منهم أنهم شركاء للّه و افتراء و يدل أيضا عليه ذيل الآيه و الآيه التاليه.

فتسميتهم شركاءهم و هم يسمونهم شركاء اللّه للدلاله بها على أن ليس لهم من الشركه إلا الشركه بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقه إلا أنها لا حقيقه لها.

و قوله: قَالُوا رَبَّنَا هٰؤُلاٰءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ معناه ظاهر و هو تعريف منهم إياهم لربهم،و لا حاجه الى البحث عن غرض المشركين فى تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء و العذاب من كل جانب،و الانسان فى مثل ذلك يلوى الى كل ما يخطر بباله من طرق السعى فى خلاص نفسه و تنفيس كربه.

و قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكٰاذِبُونَ قال فى المجمع:تقول:ألقيت الشىء إذا طرحته،و اللقى الشىء الملقى،و ألقيت اليه مقاله إذا قلتها له،و تلقّاها إذا قبلها، انتهى.

و المعنى:أن شركاءهم ردّوا اليهم و كذّبوهم،و قد عبّر سبحانه فى موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (فاطر۱۴/)و قوله حكايه عن مخاطبه الشيطان لهم يوم القيامه: إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم۲۲/).

قوله تعالى: وَ أَلْقَوْا إِلَى اللّٰهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ السلم الإسلام و الاستسلام،و كأن فى التعبير بإلقاء السلم إشاره الى انضمام شىء من الخضوع و المقهوريه بالقهر الإلهى الى سلمهم.

و ضمير «أَلْقَوْا» عائد الى الذين أشركوا بقرينه قوله بعد: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ» فالمراد أن المشركين يسلّمون يوم القيامه للّه و قد كانوا يدعون الى الاسلام فى الدنيا و هم يستكبرون.

ص :۶۰۸

و الآيه المبحوث عنها أعنى قوله: وَ أَلْقَوْا إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ صدرها يشير الى إسلامهم و ذيلها الى كون ذاك الإسلام اضطراريا لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون للّه ألوهيه و لشركائهم ألوهيه فاختاروا تسليم شركائهم و عبادتهم على التسليم للّه ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامه و كذبهم شركائهم بطل ما زعموه و ضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا اللّه سبحانه فسلموا له مضطرين و انقادوا له كارهين.

قوله تعالى: اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً فَوْقَ الْعَذٰابِ بِمٰا كٰانُوا يُفْسِدُونَ استئناف متعرض لحال أئمه الكفر بالخصوص بعد ما أشار الى حال عامه الظالمين و المشركين فى الآيات السابقه.

و السامع إذا سمع ما شرحه اللّه من حالهم يوم القيامه فى هذه الآيات و أنهم معذبون جميعا من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه،و قد سمع منه أن منهم طائفه هم أشد كفرا و أشقى من غيرهم إذ يقول «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكٰافِرُونَ» خطر بباله طبعا أنهم هل يساوون غيرهم فى العذاب الموعود و هم يزيدون عليهم فى السبب و هو الكفر.

فاستؤنف الكلام جوابا عن ذلك فقيل «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ» بالعناد و اللجاج فاكتملوا فى الكفر و اقتدى بهم غيرهم «زِدْنٰاهُمْ عَذٰاباً» و هو الذى للصد و هم يختصون به «فَوْقَ الْعَذٰابِ» و هو الذى بإزاء مطلق الظلم و الكفر و يشاركون فيه عامه إخوانهم،و كأن اللام فى العذاب للعهد الذكرى يشار بها الى ما ذكر فى قوله: «وَ إِذٰا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذٰابَ» الخ؛ «بِمٰا كٰانُوا يُفْسِدُونَ» تعليل لزياده العذاب.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِكَ شَهِيداً عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ الخ؛صدر الآيه تكرار ما تقدم قبل بضع آيات من قوله: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» غير أنه كان هناك توطئه و تمهيدا لحديث عدم الإذن لهم فى الكلام يومئذ،و هو هاهنا توطئه و تمهيد لذكر شهادته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهؤلاء يومئذ و هو فى الموضعين مقصود

لغيره لا لنفسه.

و كيف كـان فقوله: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» يـدل على بعث واحـد فى كل أمه للشـهاده على أعمال غيره و هو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث،و إنما جعل من أنفسـهم ليكون أتم للحجه و أقطع للمعذره كما يفيـده السـياق و ذكره المفسـرون حتى أنهم ذكروا شـهاده لوط على قومه و لم يكن منهم نسبا و وجهوه بـأنه كان تأهل فيهم و سكن معهم فهو معدود منهم.

و قوله: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هٰؤُلاءِ يفيـد أنه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم شـهيد على هؤلاء، و اسـتظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته،و أيضـا إنهم قـاطبه من بعث اليه من لـدن عصـره الى يوم القيامه ممن حضـره و من غاب و من عاصـره و من جاء بعـده من الناس.

و آيات الشهاده من معضلات آيات القيامه على ما فى جميع آيات القيامه من الإعضال و صعوبه المنال،و قد تقدم فى ذيل قوله: لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقره۱۴۳/)فى الجزء الأول من الكتاب نبذه من الكلام فى معنى هذه الشهاده (۱).

و قوله: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصـفته العامه أنه تبيان لكل شـيء و التبيان و البيان واحـد-كما قيل-و إذ كان كتاب هدايه لعامه الناس و ذلك شأنه كان الظـاهر أن المراد بكـل شـيء كـل مـا يرجع الى أمر الهـدايه ممـا يحتـاج اليه النـاس فى اهتـدائهم من المعارف الحقيقيه المتعلقه بالمبدإ و المعاد و الأخلاق الفاضله و الشرائع الإلهيه و القصص و المواعظ فهو تبيان لذلك كله.

۱- ۱) .النحل ۷۸-۸۹:بحث فى الحج التى تقام يوم القيامه على الانسان؛الشهاده القائمه يوم القيامه.

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۹۰ الی ۱۰۵]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ اَلْإِحْسٰانِ وَ إِيتٰاءِ ذِي اَلْقُرْبىٰ وَ يَنْهىٰ عَنِ اَلْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْكَرِ وَ اَلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰) وَ أَوْفُوا
بِعَهْدِ اَللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا اَلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اَللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لاٰ تَكُونُوا
كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ اَللّٰهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ
لَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ مٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ
عَمّٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَيْمٰانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا اَلسُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لَكُمْ
عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۹۴) وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمٰا عِنْدَ اَللّٰهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ
بٰاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً
وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷) فَإِذٰا قَرَأْتَ اَلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ اَلشَّيْطٰانِ اَلرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ
عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى اَلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ اَلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰) وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ
آيَةٍ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ اَلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ اَلَّذِينَ
آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسٰانُ اَلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ
عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ لاٰ يَهْدِيهِمُ اَللّٰهُ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّمٰا يَفْتَرِي اَلْكَذِبَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ
بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْكٰاذِبُونَ (۱۰۵)

ص: ۶۱۱

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِى الْقُرْبىٰ ابتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثه التى هى بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنسانى لما أن

ص :۶۱۲

صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الاسلام فی تعاليمه المصلحه فإن أهم الأشياء عند الانسان فی نظر الطبيعه و إن كان هو نفسه الفرديه،لكن سعاده الشخص مبنيه على صلاح الظرف الاجتماعی الذی يعيش هو فيه،و ما أصعب أن يفلح فرد فی مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

و لذلک اهتم فی إصلاح المجتمع اهتماما لا يعادله فيه غيره و بذل الجهد البالغ فی جعل الدساتير و التعاليم الدينيه حتى العبادات من الصلاه و الحج و الصوم اجتماعيه ما أمكن فيها ذلک،كل ذلک ليستصلح الإنسان فی نفسه و من جهه ظرف حياته.

فقوله: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أمر بالعدل و يقابله الظلم،قال فی المفردات:العداله و المعادله لفظ يقتضی معنى المساواه،و يستعمل باعتبار المضايقه،و العدل-بفتح العين- و العدل-بكسرها-يتقاربان لكن العدل-بفتح العين-يستعمل فيما يدرک بالبصيره كالأحكام،و على ذلک قوله تعالى: «أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً» و العدل-بكسر العين-و العديل فيما يدرک بالحاسه كالموزونات و المعدودات و المكيلات،فالعدل هو التقسيط على سواء.

قال:و العدل ضربان:مطلق يقتضی العقل حسنه،و لا يكون فی شیء من الأزمنه منسوخا و لا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان الى من أحسن اليک و كفّ الأذى عمن كفّ أذاه عنک،و عدل يعرف كونه عدلا بالشرع و يمكن أن يكون منسوخا فی بعض الأزمنه كالقصاص و اروش الجنايات و أصل مال المرتدّ،و لذلک قال: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» ،و قال: «وَ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا» فسمّى اعتداء و سيّئه.

و هذا النحو هو المعنى بقوله: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسٰانِ فإن العدل هو المساواه فی المكافاه إن خيرا فخير و إن شرا فشر،و الإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه و الشر بأقل منه،انتهى موضع الحاجه.

و قوله: وَ الْإِحْسٰانِ الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به

الإحسان الی الغیر دون الإحسان بمعنی إتیان الفعل حسنا،و هو إیصال خیر أو نفع الی غیر لا علی سبیل المجازاه و المقابله کأن یقابل الخیر بأکثر منه و یقابل الشر بأقل منه-کما تقدم- و یوصل الخیر الی غیر متبرعا به ابتداء.

و الإحسان علی ما فیه من إصلاح حال من أذلته المسکنه و الفاقه أو اضطرته النوازل،و ما فیه من نشر الرحمه و إیجاد المحبه یعود محمود أثره الی نفس المحسن بدوران الثروه فی المجتمع و جلب الأمن و السلامه بالتحبیب.

و قوله: «وَ إِیتٰاءِ ذِی الْقُرْبیٰ» أی إعطاء المال لذوی القرابه و هو من أفراد الإحسان خص بالذکر لیدل علی مزید العنایه بإصلاح هذا المجتمع الصغیر الذی هو السبب بالحقیقه لانعقاد المجتمع المدنی الکبیر کما أن مجتمع الازدواج الذی هو أصغر بالنسبه الی مجتمع القرابه سبب مقدم مکون له فالمجتمعات المدنیه العظیمه إنما ابتدأت من مجتمع بیتی عقده الازدواج ثم بسطه التوالد و التناسل و وسعه حتی صار قبیله و عشیره و لم یزل یتزاید و یتکاثر حتی عادت امه عظیمه فالمراد بذی القربی الجنس دون الفرد و هو عام لکل قرابه کما ذکروه.

و فی التفسیر المأثور عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام أن المراد بذی القربی الإمام من قربه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم،و المراد بالإیتاء إعطاء الخمس الذی فرضه اللّه سبحانه فی قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینِ الآیه(الأنفال/ ۴۱)و قد تقدم تفسیرها.

و لعل التعبیر بالإفراد حیث قیل ذِی الْقُرْبیٰ و لم یقل:ذوی القربی أو اولی القربی کما فی قوله: وَ إِذٰا حَضَرَ الْقِسْمَهَ أُولُوا الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینُ (النساء/۸)،و قوله:

وَ آتَی الْمٰالَ عَلیٰ حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبیٰ وَ الْیَتٰامیٰ وَ الْمَسٰاکِینَ (البقره/۱۷۷)یؤید ذلک.

و احتمال إراده الجنس من ذی القربی یبعده ما وقع فی سیاق آیه الخمس من ذکر الیتامی و المساکین معه بصیغه الجمع مع عدم ظهور نکته یختص بها ذوی القربی أو الیتامی و المساکین

تقضى الفرق.

على أن الآيه لا قرينه واضحه فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان.و اللّه أعلم.

قوله تعالى: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ قال فى المفردات:الفحش و الفحشاء و الفاحشه ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.انتهى و لعل الأصل فى معناه الخروج عن الحد فيما لا ينبغى يقال:غبن فاحش أى خارج عن حد التحمل و الصبر و السكوت.

و المنكر ما لا يعرفه الناس فى مجتمعهم من الأعمال التى تكون متروكه عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعه أو كشف العوره فى مشهد من الناس فى المجتمعات الإسلاميه.

و البغى الأصل فى معناه الطلب و كثر استعماله فى طلب حق التغير بالتعدى عليه فيفيد معنى الاستعلاء و الاستكبار على الغير ظلما و عتوا،و ربما كان بمعنى الزنا و المراد به فى الآيه هو التعدى على الغير ظلما.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها الخ؛قال فى المفردات:العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا بعد حال،و سمى الموثق الذى يلزم مراعاته عهدا.قال:و عهد فلان الى فلان يعهد أى ألقى اليه العهد و أوصاه بحفظه، انتهى.

و ظاهر إضافه العهد الى اللّه تعالى فى قوله: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ» أن المراد به هو العهد الذى يعاهد فيه اللّه على كذا دون مطلق العهد و يأتى نظير الكلام فى نقض اليمين.

و قوله: «وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها» نقض اليمين نكثه و مخالفه مقتضاه و المراد باليمين هو اليمين بالحلف باللّه سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين و الدليل عليه قوله بعد: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً» .

و المراد بتوكيـدها إحكامهـا بالقصـد و العزم و كونهـا لأـمر راجـح بخلاـف قـولهم:لاـ و اللّه و بلى و اللّه و غيره مـن لغو الأيمان،فالتوكيـد فى هـذه الآيه يفيـد ما يفيـده التعقيـد فى قوله تعالى: لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ (المائده۸۹/).

و نقض اليمين بحسب الاعتبـار أشـنع من نقض العهـد و إن كان منهيا عنهما جميعا على أن العنايه بالحلف فى الشـرع الاسـلامى أكثر كما فى باب القضاء.

و بهـذا يظهر معنى قوله تعالى: وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً فإن الحالف إذا قال:و اللّه لأفعلن كـذا أو لأتركن كـذا فقـد علّق ما حلف عليه نوعا من التعليق على اللّه سبحانه و جعله كفيلا عنه فى الوفاء بما عقـد عليه اليمين،فإن نكث و لم يف كان لكفيله أن يؤديه الى الجزاء و العقوبه،ففى نكث اليمين إهـانه و إرزاء بسـاحه العزه و الكرامه مضافا الى ما فى نقض اليمين و العهـد معا من الانقطاع و الانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتصال.

فقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ» الخ؛حال من ضـمير الجمع فى قوله: «وَ لاٰ تَنْقُضُوا» و قوله: «وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ» فى معنى تأكيد النهى بأن العمل مبغوض و هو به عليم.

قوله تعـالى: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثاً الى آخر الآيه؛النقض و يقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالفتل فنقض الشـىء المبرم كحل الشـىء المعقود،و النكث النقض،قال فى المجمع:و كل شىء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاـ كان أو غزلا،و الـدخل بفتحتين فى الاصل كل ما دخل الشـىء و ليس منه،و يكنى به عن الـدغل و الخـدعه و الخيانه،كما قيل:و أربى أفعل من الربا و هو الزياده.

و قوله: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثـاً فى معنى التفسـير لقوله فى الآـيه السابقه: «وَ لاٰ تَنْقُضُوا الْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا» و هو تمثيل بمرأه تغزل الغزل بقوه ثم تعود فتنقض ما أتبعت نفسـها فيه و غزلته من بعد قوه و تجعله أنكاثا لا فتل فيه و لا إبرام.

و نقل عن الكلبیّ أنها امرأه حمقاء من قریش كانت تغزل مع جواریها الی انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ینقضن ما غزلن و لا یزال ذلک دابها،و اسمها ریطه بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تمیم بن مره،و كانت تسمی خرقاء مكه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ أی تتخذون أیمانكم وسیله للغدر و الخدعه و الخیانه تطیّبون بها نفوس الناس ثم تخونون و تخدعونهم بنقضها،و إنما یفعلون ذلک لتكون امه-و هم الحالفون-أربی و أزید سهما من زخارف الدنیا من أمه-و هم المحلوف لهم-.

فالمراد بالدخل وسیلته من تسمیه السبب باسم المسبب و «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ» مفعول له بتقدیر اللام،و الكلام نوع بیان لنقض الیمین أو لكونهم كالتی نقضت غزلها من بعد قوه أنكاثا، و محصّل المعنی أنكم كمثلها إذ تتخذون أیمانكم دخلا بینكم فتؤكدونها و تعقدونها ثم تخونون و تخدعون بنقضها و نكثها و اللّه ینهاكم عنه.

و ذكر بعضهم أن قوله: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ» الخ؛جمله استفهامیه محذوفه الأداه و الاستفهام للإنكار.

و قوله: إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّٰهُ بِهِ الخ؛أی إن ذلک امتحان إلهی یمتحنكم به و أقسم لیبیّنن لكم یوم القیامه ما كنتم فیه تختلفون فتعلمون عند ذلک ما حقیقه ما أنتم علیه الیوم من التكالب علی الدنیا و سلوک سبیل الباطل لإماطه الحق و دحضه و یتبین لكم یومئذ من هو الضالّ و من هو المهتدی.

قوله تعالی: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ الخ؛لما انجرّ الكلام الی ذكر اختلافهم عقّب ذلک ببیان أن اختلافهم لیس بناقض للغرض الإلهی فی خلقهم و لا أنهم معجزون له سبحانه و لو شاء لجعلهم أمه واحده لا اختلاف بینهم و لكن اللّه سبحانه جعلهم مختلفین بالهدایه و الإضلال فهدی قوما

و أضلّ آخرين.

و ذلک أنه تعالی وضع سعاده الانسان و شقاءه علی أساس الاختیار و عرّفهم الطاعه المفضیه الی غایه السعاده و المعصیه المؤدّیه الی غایه الشقاء فمن سلک مسلک المعصیه و اجتاز للضلال جازاه اللّه ذلک،و من رکب سبیل الطاعه و اختار الهدی جازاه اللّه ذلک و سیسألهم جمیعا عما عملوا و اختاروا.

و أن قوله: وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لدفع ما یسبق الی الوهم أن استناد الضلال و الهدی الیه سبحانه یبطل تأثیر اختیارهم فی ذلک و تبطل بذلک الرساله و تلغو الدعوه فاجیب بأن السؤال باق علی حاله لما أن اختیارکم لا یبطل بذلک بل اللّه سبحانه یمدّ لکم من الضلال و الهدی ما أنتم تختارونه بالرکون الی معصیته أو بالإقبال الی طاعته.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَتَّخِذُوا أَیْمٰانَکُمْ دَخَلاً بَیْنَکُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:الصدود و الصدّ قد یکون انصرافا عن الشیء و امتناعا نحو «یَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً» و قد یکون صرفا و منعا نحو «وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ» .انتهی.

و الآیه نهی عن اتخاذ الأیمان دخلا بعد النهی عن أصل نقض الأیمان لأن لخصوص اتخاذها دخلا مفسده مستقله هی ملاک النهی غیر المفسده التی لأصل نقض الأیمان و قد أشار الی مفسده أصل النقض بقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ عَلَیْکُمْ کَفِیلاً» الخ؛و یشیر فی هذه الآیه الی مفسده اتخاذها دخلا بقوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لَکُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ».

و قوله: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ وَ لَکُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ معطوف علی قوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ» الخ،و بیان نتیجته کما أنه بیان نتیجه و عاقبه لقوله: «تَتَّخِذُوا أَیْمٰانَکُمْ دَخَلاً» و بذلک یظهر أن قوله: «بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ» بمنزله التفسیر لقوله:

«فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها».

و المراد بالصدود عن سبيل اللّه الإعراض و الامتناع عن السنه الفطريه التى فطر اللّه الناس عليها و دعت الدعوه النبويه إليها من التزام الصدق و الاستقامه و رعايه العهود و المواثيق و الأيمان و التجنب عن الدغل و الخدعه و الخيانه و الكذب و الزور و الغرور.

و المراد بذوق السوء العذاب،و قوله: «وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» حال عن فاعل «تَذُوقُوا» و يمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلاله السيئه فى الدنيا،و قوله: «وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» إخبارا عما يحل بهم فى الآخره،هذا ما يستفاد من ظاهر الآيه الكريمه.

فالمعنى:و لا تتخذوا أيمانكم وسيله دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك الى الزوال عما ثبتم عليه و نقض ما أبرمتموه،و فيه إعراض عن سبيل اللّه الذى هو التزام الفطره و التحرز عن الغدر و الخدعه و الخيانه و الدغل و بالجمله الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها،و يؤديكم ذلك الى أن تذوقوا السوء و الشقاء فى حياتكم الدنيا و لكم عذاب عظيم فى الاخرى.

قوله تعالى: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قال فى المفردات:كل ما يحصل عوضا عن شيء فهو ثمنه،انتهى.

و الظاهر أن الآيه نهى عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك فى نقض الأيمان،و الآيه مطلقه،و المراد بعهد اللّه العهد الذى عوهد به اللّه مطلقا، و المراد بالاشتراء به ثمنا قليلا بقرينه ذيل الآيه أن يبدّل العهد من شيء من حطام الدنيا فينقض لنيله فسمى المبدل منه ثمنا لأنه عوض كما تقدم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللّهِ باقٍ فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه:«ما عند الله هو خير لكم»و قد وجّهه بأن الذى عندكم أى فى الحياه الدنيا التى هى حياه ماديه قائمه على أساس التبدل و التحول منعوته بنعت الحركه و التغير زائل نافد،و ما عند اللّه سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول و لا يفنى و الباقى خير من النافد بصريح

حكم العقل.

و اعلم أن قوله: مٰا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ بٰاقٍ على ما فى لفظه من الإطلاق قاعده كليه غير منقوضه باستثناء،تحتها جزئيات كثيره من المعارف الحقيقيه.

قوله تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ لما كان الوفاء بالعهد مستلزما للصبر على مرّ مخالفه هوى النفس فى نقضه و الاسترسال فيما تشتهيه،صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد الى ذكر أجر مطلق الصابرين فى جنب اللّه.

فقوله: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبرا على الطاعه أو على المعصيه أو عند المصيبه غير أنه يجب أن يكون صبرا فى جنب اللّه و لوجه اللّه فإن السياق لا يساعد على غيره.

و قوله: بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ الباء للمقابله كما فى قولنا:بعت هذا بهذا، و ليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم فى مقابل الحسن منها بأن يميز اللّه سبحانه بين أعمالهم الحسنه فيقسّمها الى حسن و أحسن ثم يجزيهم بأحسنها و يلغى الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيّده،و آيات الجزاء تنفيه و الرحمه الواسعه الإلهيه تأباه.

و ليس المراد به الواجبات و المستحبّات من أعمالهم قبال المباحات التى أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

فإن الكلام ظاهر فى أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتى بها فى ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطا،و واضح أن المباحات التى يأتى بها الصابر فى اللّه لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

على أنه لا مطمع لعبد فى أن يثيبه اللّه على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب فى مقابل ما أتى به من الواجبات و المستحبات التى هى أحسن مما أتى به من المباحات فيكون

ذكر الحسن مستدركا زائدا.

و من هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملا من المصلحه الموجبه للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعيه بحيث لا يرتاب فيه.

بل المراد بذلك أن العمل الذى يأتون به و له فى نوعه ما هو حسن و ما هو أحسن فاللّه سبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاه التى يصلّيها الصابر فى اللّه يجزيه اللّه سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاه و إن كانت ما صلاّها غير أحسن و بالحقيقه يستدعى الصبر أن لا يناقش فى العمل و لا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضيه لخسّته و رداءته كما يفيده قوله تعالى: إِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ .

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً الى آخر الآيه؛وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحا و بشرى للإناث أن اللّه لا يفرّق بينهن و بين الذكور فى قبول إيمانهن و لا أثر عملهن الصالح الذى هو الإحياء بحياه طيبه و الأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنيه و أهل الكتاب من اليهود و النصارى من حرمان المرأه من كل مزيّه دينيه أو جلّها و حطّ مرتبتها من مرتبه الرجل و وضعها وضعا لا يقبل الرفع البته.

فقوله: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ حكم كلى من قبيل ضرب القاعده لمن عمل صالحا أى من كان و قد قيّده بكونه مؤمنا و هو فى معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمنا حابط لا يترتب عليه أثر،كما قال تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ (المائده۵/)،و قال: وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِيهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (هود۱۶/).

و قوله: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰاةً طَيِّبَةً الإحياء إلقاء الحياه فى الشىء و إفاضتها عليه فالجمله بلفظها داله على أن اللّه سبحانه يكرم المؤمن الذى يعمل صالحا بحياه جديده غير ما يشاركه سائر الناس من الحياه العامه،و ليس المراد به تغيير صفه الحياه فيه و تبديل الخبيثه من الطيبه مع بقاء أصل الحياه على ما كانت عليه،و لو كان كذلك لقيل:فلنطيّبنّ حياته.

فالآيه نظيره قوله: أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ (الأنعام/١٢٢)،و تفيد ما يفيده من تكوين حياه ابتدائيه جديده.

قوله تعالى: فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ الاستعاذه طلب المعاذ،و المعنى:إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرؤه أن يعيذك من الشيطان الرجيم أن يغويك،فالاستعاذه المأمور بها حال نفس القارئ ما دام يقرأ و قد أمر أن يوجدها لنفسه ما دام يقرأ،و أما قول القارئ:أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذه فى النفس و ليس بنفسها إلا بنوع من المجاز، و قد قال سبحانه:استعذ باللّه،و لم يقل:قل أعوذ باللّه.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فى مقام التعليل للأمر الوارد فى الآيه السابقه أى استعذ باللّه حين القراءه ليعيذك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن باللّه و توكل عليه.

قوله تعالى: إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ضمائر الإفراد الثلاثه للشيطان أى ينحصر سلطان الشيطان فى الذين يتخذونه وليّا لهم يدبّر امورهم كما يريد،و هم يطيعونه،و فى الذين يشركون به إذا يتخذونه وليا من دون اللّه و ربّما مطاعا غيره فإن الطاعه عباده كما يشير اليه قوله: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي (يس/٦١).

قوله تعالى: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ إشاره الى النسخ و حكمته،و جواب عما اتهموه صلّى اللّه عليه و آله و سلم به من الافتراء على اللّه،و الظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون و إن كانت اليهود هم المتصلبين فى نفى النسخ و من المحتمل أن تكون الكلمه مما تلقّفه المشركون من اليهود فكثيرا ما كانوا يراجعونهم فى أمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و قوله: وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ قال فى المفردات:الإبدال و التبديل و التبدّل و الاستبدال جعل شىء مكان آخر،و هو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثانى بإعطاء الأول،و التبديل قد يقال للتغير مطلقا و إن لم يأت ببدله قال تعالى: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ -الى أن قال-و قال تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مٰا سَمِعَهُ و إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ و بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَكٰانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ انتهى موضوع الحاجه.

فالتبديل بمعنى التغيير يخالف التبديل بمعناه المعروف فى أن مفعوله الأول هو المأخوذ و المطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله: «وَ إِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ» معناه وضعنا الآيه الثانيه مكان الاولى بالتغيير فكانت الثانيه المبدله هى الباقيه المطلوبه.

و قوله: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ كنايه عن أن الحق لم يتعد مورده و أن الذى أنزله هو الحقيق بأن ينزل فإن اللّه أعلم به منهم،و الجمله حاليه.

و قوله: قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ القول للمشركين يخاطبون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و يتهمونه بأنه يفترى على اللّه الكذب فإن تبديل قول مكان قول،و الثبات على رأى ثم العدول عنه مما يتنزه عنه ساحه رب العزه.

و قد بالغوا فى قولهم إذ لم يقولوا:افتريت فى هذا التبديل و النسخ بل قالوا: «إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فقصروه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى الافتراء،و أتوا بالجمله الاسميه و سموه مفتريا،و قد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من سنخ واحد و هو يسند الجميع الى ربه و يقول:إنما أنا نذير فإذا كان مفتريا فى

واحد کان مفتریا فی الجمیع فلیس إلا مفتریا.

و قوله: «بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ» أی أکثر هؤلاء المشرکین الـذین یتهمونک بقوله: «إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ» لا یعلمون حقیقه هذا التبدیل و الحکمه المؤدیه الیه علی ما سینکشف فی الجواب أن الأحکام الإلهیه تابعه لمصالح العباد و من المصالح ما یتغیر بتغیر الأوضاع و الأحوال و الأزمنه فمن الواجب أن یتغیر الحکم بتغیر مصلحته فینسخ الحکم الذی ارتفعت مصلحته الموجبه له بحکم آخر حدثت مصلحته.

فأکثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر و أما الأقل منهم فهم واقفون علی حقیقه الأمر و لو إجمالا غیر أنهم مستکبرون علی الحق معاندون له و إنما یلقون القول إلقاء من غیر رعایه جانب الحق.

قوله تعالی: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِیُثَبِّتَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هُدیً وَ بُشْریٰ لِلْمُسْلِمِینَ قد تقدمت فی أول السوره إشاره الی معنی الروح، و القدس الطهاره و النزاهه و الظاهر أن الإضافه للاختصاص أی روح طاهره عن قذارات الماده نزیهه عن الخطأ و الغلط و الضلال،و هو المسمی فی موضع آخر من کلامه تعالی بالروح الأمین،و فی موضع آخر بجبریل من الملائکه قال تعالی: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ عَلیٰ قَلْبِکَ (الشعراء۱۹۴/)،و قال: مَنْ کٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلیٰ قَلْبِکَ (البقره۹۷/).

فقوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ أمر بالجواب و الأسبق الی الذهن أن یکون الضمیر راجعا الی القرآن من جهه کونه ناسخا أی الآیه الناسخه،و یمکن أن یکون راجعا الی مطلق القرآن،و فی التعبیر بالتنزیل دون الإنزال إشاره الی التدریج.

و کان من طبع الکلام أن یقال:من ربی لکن عدل عنه الی قوله: «مِنْ رَبِّکَ» للدلاله علی کمال العنایه و الرحمه فی حقه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کأنه لا یرضی بانقطاع خطابه فیغتنم الفرصه لتکلیمه أینما

أمكن،و ليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم.

و قوله: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا التثبيت تحكيم الثبات و تأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم باللّه و رسوله و اليوم الآخر ثبتوا على الحق و بتجدد الحكم حسب تجدد المصلحه يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضى على أعمال لا تطابق مصلحه الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحه غايه فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادى فقطع قطعه منه على حسب ما يأمره به رعايه لمصلحه الغايه بسرعه أو بطء أو فى ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحه فلو لم يغير الآمر الهادى نحو السلوك و استمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك و انسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحه و يضمن السعاده زاد إيمانه ثباتا على ثبات.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ افتراء آخر منهم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و هو كما يلوّح اليه سياق اعتراضهم و ما ورد فى الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمى غير فصيح فى منطقه عنده شىء من معارف الأديان و أحاديث النبوه ربما لاقاه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم فاتهموه بأنه يأخذ ما يدّعيه وحيا منه و الرجل هو الذى يعلمه و هو الذى حكاه اللّه تعالى من قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و فى القول إيجاز،و تقديره:إنما يعلمه بشر و ينسب ما تعلمه منه الى اللّه افتراء عليه،و هو ظاهر.

و من المعلوم أن الجواب عنه بمجرّد أن لسان الرجل أعجمى و القرآن عربى مبين لا يحسم ماده الشبهه من أصلها لجواز أن يلقى اليه المطالب بلسانه الأعجمى ثم يسبكها هو صلّى اللّه عليه و آله و سلم ببلاغه منطقه فى قالب العربيه الفصيحه بل هذا هو الأسبق الى الذهن من قولهم: «إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» حيث عبّروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين و الإملاء،و التعليم أقرب الى المعانى منه الى

الألفاظ.

و بـذلك يظهر أن قوله: «لِسَانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَيْهِ -الى قوله- مُبِینٌ» ليس وحـده جوابـا عن شـبهتهم بل ما يتلوه من الكلام الى تمام آيتين من تمام الجواب.

و ملخص الجـواب مـأخوذ من جميع الآيـات الثلاثـث أن مـا اتهمتموه به أن بشـرا يعلمه ثم هو ينسبه الى اللّه افـتراء إن أردتـم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه و أن القرآن كلامه لا كلام اللّه فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمى و هذا القرآن عربى مبين.

و إن أردتم أن الرجـل يعلمه معـانى القرآن-و اللفـظ لا محاله للنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم-و هو ينسـبه الى اللّه افتراء عليه فالجواب عنه أن الذى يتضـمنه القرآن معارف حقّه لا يرتاب ذو لبّ فيها و تضـطرّ العقول الى قبولها قد هدى اللّه النبى إليها فهو مؤمن بآيات اللّه إذ لو لم يكن مؤمنا لم يهـده اللّه و اللّه لا يهدى من لا يؤمن بآياته و إذ كان مؤمنا بآيات اللّه فهو لا يفترى على اللّه الكـذب فـإنه لاـ يفترى عليه إلا من لا يؤمن بآياته،فليس هـذا القرآن بمفترى،و لا مأخوذا من بشـر و منسوبا الى اللّه سـبحانه كذبا.

فقـوله: «لِسَانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هٰذَا لِسَانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ» جواب عن أول شـقّى الشـبهه و هو أن يكون القرآن بلفظه مـأخوذا من بشـر على نحـو التلقين،و المعنى:أن لسـان الرجـل الـذى يلحـدون أى يميلون اليه و ينوونه بقولهم: «إِنَّمَا یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» أعجمى أى غير فصـيح بيّن و هـذا القرآن المتلو عليكم لسان عربى مبين و كيف يتصوّر صدور بيان عربى بليغ من رجل أعجمى اللسان؟

و قوله: إِنَّ الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ الى آخر الآيتين؛جواب عن ثانى شقّى الشبهه و هو أن يتعلم منه المعانى ثم ينسبها الى اللّه افتراء.

و المعنى:أن الـذين لا يؤمنون بآيات اللّه و يكفرون بها لا يهـديهم اللّه اليه و الى معارفه الحقه الظاهره و لهم عـذاب أليم،و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم مؤمن بآيات اللّه لأنه مهدى بهدايه اللّه،و إنما يفترى

الکـذب و ینسبه الی اللّه الـذین لا یؤمنون بآیات اللّه و أولئک هم الکاذبون المسـتمرون علی الکذب،و أما مثل النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم المؤمن بآیات اللّه فإنه لا یفتری الکذب و لا یکذب فالآیتان کنایتان عن أن النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلم مهدی بهدایه اللّه مؤمن بآیاته و مثله لا یفتری و لا یکذب (۱).

[سوره النحل (۱۶): الآیات ۱۰۶ الی ۱۱۱]

اشاره

مَنْ کَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِیمانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اَللّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (۱۰۶) ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اِسْتَحَبُّوا اَلْحَیاهَ اَلدُّنْیا عَلَی اَلْآخِرَهِ وَ أَنَّ اَللّهَ لا یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکافِرِینَ (۱۰۷) أُولئِکَ اَلَّذِینَ طَبَعَ اَللّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ اَلْغافِلُونَ (۱۰۸) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۰) یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفّی کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۱۱)

ص: ۶۲۷

۱- ۱) .النحل ۹۰-۱۰۵:بحث روائی حول الآیه «إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ» ؛الحیاه الطیبه.

بيان:

قوله تعالی: مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ الاطمئنان السكون و الاستقرار،و الشرح البسط،قال فی المفردات:أصل الشرح بسط اللحم و نحوه،يقال:

شرحت اللحم و شرّحته،و منه شرح الصدر أی بسطه بنور إلهی و سكينه من جهه اللّه و روح منه،قال تعالی: رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَ فَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ و شرح المشكل من الكلام بسطه و إظهار ما يخفی من معانيه.انتهی.

و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ شرط جوابه قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ» و عطف عليه قوله: «وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» و ضمير الجمع فی الجزاء عائد الی اسم الشرط «مَنْ» لكونه بحسب المعنی كليا ذا أفراد.

و قوله: إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ استثناء من عموم الشرط و المراد بالإكراه الإجبار علی كلمه الكفر و التظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه و المراد أستثنی من أكره علی الكفر بعد الإيمان فكفر فی الظاهر و قلبه مطمئن بالإيمان.

و قوله: «وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً» أی بسط صدره للكفر فقبله قبول رضی و وعاه، و الجمله استدراك من الاستثناء فيعود الی معنی المستثنی منه فإن المعنی ما أريد بقولی «مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ» من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان و لكن أريد به من شرح بالكفر صدرا، و فی مجموع الاستثناء و الاستدراك بيان كامل للشرط،و هذه هی النكته لاعتراض الاستثناء بين الشرط و الجزاء و عدم تأخيره الی أن تتم الشرطيّه.

قوله تعالی: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياهَ الدُّنْيا عَلَی الْآخِرَهِ وَ أَنَّ اللّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِينَ بيان لسبب حلول غضب اللّه بهم و ثبوت العذاب العظيم عليهم

و هو أنهم اختاروا الحياه الدنيا و هی الحياه الماديه التی لا غايه لها إلا التمتع الحيوانی و الاشتغال بمشتهيات النفس علی الآخره التی هی حياه دائمه مؤبده فی جوار رب العالمين و هی غايه الحياه الإنسانيه.

و بعباره اخری هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا و انقطعوا عن الآخره و كفروا بها و اللّه لا يهدی القوم الكافرين و إذ لم يهدهم اللّه ضلوا عن طريق السعاده و الجنه و الرضوان فوقعوا فی غضب من اللّه و عذاب عظيم.

قوله تعالی: أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ إشاره الی أن اختيار الحياه الدنيا علی الآخره و الحرمان من هدايه اللّه سبحانه هو الوصف الذی يوصف به الذين طبع اللّه علی قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و الذين يسمّون غافلين.

فإنهم باختيارهم الحياه الدنيا غايه لأنفسهم و حرمانهم من الاهتداء الی الاخری انقطعوا عن الآخره و تعلقوا بالدنيا و جعلوها غايه لأنفسهم فوقف حسهم و عقلهم فيها دون أن يتعدياها الی ما وراءها و هو الآخره فليسوا يبصرون ما يعتبرون به و لا يسمعون عظه يتعظون بها و لا يعقلون حجه يهتدون بها الی الآخره.

قوله تعالی: لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ لأنهم ضيعوا رأس مالهم فی الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به فی اخراهم،و قد وقع فی نظير المقام من سوره هود:

لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (هود/۲۲)،و لعل وجه التشديد هناک أنه تعالی أضاف الی صفاتهم هناک أنهم صدوا عن سبيل اللّه فراجع.

قوله تعالی: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الفتنه فی الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فی مطلق البلاء و التعذيب،و قد كانت قريش و مشركوا مكه يفتنون

المؤمنين ليردوهم عن دينهم و يعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عمارا و أباه و أمه فقتل أبواه و ارتد عمار ظاهرا فتفصى منهم بالتقيه،و فى ذلك نزلت الآيات السابقه كما سيأتى إن شاء اللّه فى البحث الروائى.

فقوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا وعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا بالمغفره و الرحمه يوم القيامه قبال ما أوعد غيرهم بالخسران التام يومئذ و قد قيّد ذلك بالجهاد و الصبر بعد المهاجره.

و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» بمنزله تلخيص صدر الكلام-لطوله-ليلحق به ذيله،و يفيد فائده التأكيد كقولنا:زيد فى الدار زيد فى الدار كذا و كذا،و يفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلا فى الحكم فاللّه سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا و لا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها و يصبروا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ إتيان النفس يوم القيامه كنايه عن حضورها عند الملك الديّان،كما قال: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (الصافات/۱۲۷)،و الضمير فى قوله: «عَنْ نَفْسِهٰا» للنفس و لا ضير فى إضافه النفس الى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنسانى كقوله: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ (المائده/۲۲)،و ربما يراد بها التأكيد و يتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنسانا أو غيره،كما يقال:الإنسان نفسه و الفرس نفسه و الحجر نفسه و السواد نفسه،و يقال:نفس الإنسان و نفس الفرس و نفس الحجر و نفس السواد، و قوله: «عَنْ نَفْسِهٰا» المراد فيه بالمضاف المعنى الثانى و بالمضاف اليه المعنى الأول،و قد دفع التعبير بالضمير بشاعه تكرار اللفظ بالإضافه،و فى هذا المقدار كفايه عن الأبحاث الطويله التى أوردها المفسرون.

و قوله: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا الظرف متعلق بقوله فى الآيه

السابقه: «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» و مجادله النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها و قد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه فى الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها و ليس ذلك إلا لظهور حقيقه الأمر عليها و هى أن الإنسان لا سبيل له الى ما وراء نفسه، و ليس له فى الحقيقه إلا أن يشتغل بنفسه.

فاليوم تأتى النفس و تحضر للحساب و هى تجادل و تصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعذار.

و قوله: وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ التوفيه إعطاء الحق تاما من غير تنقيص،و قد علّق التوفيه على نفس العمل إذ قيل «مٰا عَمِلَتْ» فافيد أن الذى أعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض،و فيه كمال العدل حيث لم يضف الى ما استحقته شيء و لا نقص منه و لذلك عقّبه بقوله: «وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ» (۱).

[سوره النحل (۱۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۲۸]

اشاره

وَ ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلاً قَرْيَةً كٰانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهٰا رِزْقُهٰا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اَللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا اَللّٰهُ لِبٰاسَ اَلْجُوعِ وَ اَلْخَوْفِ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اُشْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴) إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةَ وَ اَلدَّمَ وَ لَحْمَ اَلْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ اَلْكَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ إِنَّ اَلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتٰاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹) إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شٰاكِراً لِأَنْعُمِهِ اِجْتَبٰاهُ وَ هَدٰاهُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْنٰاهُ فِي اَلدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي اَلْآخِرَةِ لَمِنَ اَلصّٰالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ أَنِ اِتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّمٰا جُعِلَ اَلسَّبْتُ عَلَى اَلَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴) اُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ اَلْمَوْعِظَةِ اَلْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّٰابِرِينَ (۱۲۶) وَ اِصْبِرْ وَ مٰا صَبْرُكَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلَّذِينَ اِتَّقَوْا وَ اَلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

۱ – ۱) .النحل ۱۰۶-۱۱۱:بحث روائى فى امر رسول اللّه المسلمين بالهجره؛التقيه؛ايذاء المشركين بلالا؛اخذ المشركين عمار بن ياسر؛تقيه عمار بن ياسر.

بيان:

وَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَهً كانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً الى آخر الآيه؛الرغد من العيش هو الواسع الطيّب.

هـذا مثل ضـربه اللّه تعالى فوصف فيه قريه آتاها ما تحتاج اليه من نعم الحياه،و أتمّ ذلك كله بنبى بعثه اليهم يدعوهم الى ما فيه صلاح دنياهم و أخراهم فكفروا بـأنعمه و كـذّبوا رسوله فبـدّل اللّه نعمته نقمه و عـذّبهم بما ظلموا بتكـذيب رسوله،و فى المثل تحذير عن كفران نعمه اللّه بعد إذ بذلت و الكفر بآياته بعد إذ أنزل.

و فيه توطئه و تمهيـد لمـا سيذكره من محللات الأكـل و محرّمـاته و ينهى عن تشـريع الحلال و الحرام بغير إذن اللّه كل ذلك بالاستفاده من سياق الآيات فإن كل سابقه منها تسوق النظر الى اللاحقه.

و قوله: فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذاقَهَا اللّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ التعبير بأنعم اللّه و هو جمع قله للإشاره بها الى الأصناف المذكوره و هى ثلاثه:الأمن و الاطمئنان و إتيان الرزق،و الإذاقه استعاره للايصال اليسير فإذاقه الجوع و الخوف مشعر بأن الذى

ص :۶۳۳

یوصلهما قادر علی تضعیف ذلک و تکثیره بما لا یقدر بقدر کیف لا؟و هو اللّه الذی له القدره کلها.

ثم إضافه اللباس الی الجوع و الخوف و فیها دلاله علی الشمول و الإحاطه کما یشمل اللباس البدن،و یحیط به،تشعر بأن هذا المقدار الیسیر من الجوع و الخوف الذی أذاقهم شملهم کما یشمل اللباس بدن الإنسان و هو سبحانه قادر علی أن یزید علی ذلک فهو المتناهی فی قهره و غلبته و هم المتناهون فی ذلتهم و هوانهم.

ثم ختم الآیه بقوله: «بِمٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ» للدلاله علی أنه سنه المجازاه فی الشکر و الکفر قائمه علی ساق.

و المعنی:ضرب اللّه مثلا مثل قریه کان أهلها آمنین من کل شر و سوء یهددهم فی نفوسهم و أعراضهم و أموالهم ساکنین غیر مضطرین یأتیهم رزقهم طیبا واسعا من کل مکان من غیر أن یضطروا الی السفر و الاغتراب فکفر أهلها بهذه النعم الإلهیه و لم یشکروه سبحانه فأنالهم اللّه شیئا یسیرا من نقمته-بسلب هذه النعم-و هو الجوع و الخوف اللذان عماهم و شملاهم قبال ما استمروا علیه بکفران الأنعم جزاء لکفرانهم.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ و هذا هو النعمه المعنویه التی أضافها الی نعمه المادیه المذکوره،و کان فیها صلاح معاشهم و معادهم و تحذیر لهم من الکفران بأنعم اللّه و شرح ما فیه من الشؤم و الشقاء لکنهم کذبوا رسولهم الذی هو منهم یعرفونه و یدرون أنه إنما یدعوهم لأمر إلهی و یهدیهم الی سبیل الرشاد و سعاده الجد فظلموا ذلک فأخذهم العذاب بظلمهم.

و بهذا التقریر یظهر ما فی القیود المأخوذه فی الآیه من النکات.

قوله تعالی: فَکُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً الی آخر الآیه،تفریع علی ما تحصل من المثل نتیجه،و التقدیر إذا کان الحال هذا الحال و کان فی کفران هذا الرزق الرغد

عذاب و فی تکذیب الدعوه عذاب فکلوا مما رزقکم اللّه حال کونه حلالا طیبا أی لستم بممنوعین منه و أنتم تستطیبونه فکلوا منه و اشکروا نعمه اللّه إن کنتم إیاه تعبدون.

قوله تعالی: إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ تقدم الکلام فی معنی الآیه فی تفسیر سوره البقره الآیه ۱۷۳ و سوره المائده الآیه ۳ و سوره الأنعام الآیه ۱۴۵.

و الآیه بمعناها علی اختلاف ما فی لفظها واقعه فی أربعه مواضع من القرآن:فی سورتی الأنعام و النحل و هما مکیتان من أوائل ما نزلت بمکه و أواخرها،و فی سورتی البقره و المائده و هما من أوائل ما نزلت بالمدینه و أواخرها،و هی تدلّ علی حصر محرّمات الأکل فی الأربع المذکوره:المیته و الدم و لحم الخنزیر و ما أهلّ لغیر اللّه به کما نبّه علیه بعضهم.

لکن بالرجوع الی السنّه یظهر أن هذه هی المحرّمات الأصلیه التی عنی بها فی الکتاب و ما سوی هذه الأربع من المحرّمات مما حرّمه النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بأمر من ربه و قد قال تعالی: مٰا آتٰاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/۷)،و قد تقدم بعض الروایات الدالّه علی هذا المعنی.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُکُمُ الْکَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَی اللّٰهِ الْکَذِبَ الخ؛«ما»فی قوله: «لِمٰا تَصِفُ» مصدریه و الکذب مفعول «تَصِفُ» أی لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام بسبب وصف ألسنتکم لغایه افتراء الکذب علی اللّه.

ثم قال سبحانه فی مقام تعلیل النهی: «إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّٰهِ الْکَذِبَ لاٰ یُفْلِحُونَ» ثم بیّن حرمانهم من الفلاح بقوله: «مَتٰاعٌ قَلِیلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ» .

قوله تعالی: وَ عَلَی الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ الخ؛

ص :۶۳۵

المراد بقوله: «مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ» -كما قيل-ما قصّه تعالى على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فى سوره الأنعام-و قد نزلت قبل سوره النحل بلا إشكال-بقوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ الى آخر الآيه؛(الأنعام/۱۴۶).

و الآيه فى مقام دفع الدخل و فيها عطف على مسأله النسخ المذكوره سابقا كأن قائلا يقول:

فإذا كانت محرّمات الأكل منحصره فى الأربع المذكوره:الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به،و كان ما وراءها حلالا فما هذه الأشياء المحرّمه على بنى إسرائيل من قبل؟هل هذا إلاّ ظلم بهم؟

فأجاب عنه بأنا حرّمنا عليهم ذلك و ما ظلمناهم فى تحريمه و لكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أى إنه كان محللا لهم مأذونا فيه لكنهم ظلموا أنفسهم و عصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبه كما قال سبحانه فى موضع آخر: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الآيه؛و لو أنهم بعد ذلك كله رجعوا الى ربهم و تابوا عن معاصيهم تاب اللّه عليهم و رفع الحظر عنهم و أذن لهم فيما منعم عنه إنه لغفور رحيم.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَهٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الجهاله و الجهل واحد و هو فى الأصل ما يقابل العلم لكن الجهاله كثيرا ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع و إن لم يخل المحلّ عن علم ما مصحح للتكليف كحال ما يقترف المحرمات و هو يعلم بحرمتها لكن الأهواء النفسانيه تغلبه و تحمله على المعصيه و لا تدعه يتفكر فى حقيقه هذه المخالفه و المعصيه فله علم بما ارتكب و لذلك يؤاخذ و يعاقب على ما فعل و هو مع ذلك جاهل بحقيقه الأمر و لو تبصّر تمام التبصر لم يرتكب.

و المراد بالجهاله فى الآيه هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول و كان ما ذكر من عمل السوء مجهولا من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصيه حتى يحتاج الى التوبه

فالمغفره و الرحمه.

و قوله فی ذیل الآیه: «إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا» تلخیص لتفصیل قوله فی صدرها: «إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ» الخ؛و فائدته حفظ فهم السامع عن التشوش و الضلال و إبراز العنایه ببعدیه المغفره و الرحمه بالنسبه الی التوبه نظیر ما مرّ من قوله: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ» .

قوله تعالی: إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ الآیه؛و ما یتلوها علی اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأکل فی الأربع و تحلیل ما وراءها، و هذه الآیه الی تمام أربع آیات بمنزله التفصیل لما تقدمها کأنه قیل:هذا حال مله موسی التی حرّمنا فیها علی بنی إسرائیل بعض ما أحلّ لهم من الطیبات،و أما هذه المله التی أنزلناها الیک فإنما هی المله التی تحقق بها إبراهیم فاجتباه اللّٰه و هداه الی صراط مستقیم و أصلح بها دنیاه و آخرته،و هی مله معتدله جاریه علی الفطره تحلل الطیبات و تحرّم الخبائث یجلب العمل بها من الخیر ما جلبه لإبراهیم علیه السّلام منه.

فقوله: إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قال فی المفردات:و قوله: «إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ کٰانَ أُمَّةً قٰانِتاً لِلّٰهِ» أی قائما مقام جماعه فی عباده اللّٰه نحو قولهم:فلان فی نفسه قبیله،انتهی؟و هو قریب مما نقل عن ابن عباس،و قیل:معناه الإمام المقتدی به،و قیل:إنه کان أمه منحصره فی واحد مده من الزمان لم یکن علی الأرض موحّد یوحّد اللّٰه غیره.

و قوله: قٰانِتاً لِلّٰهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ القنوت:الإطاعه و العباده أو دوامها،و الحنف:المیل من الطرفین الی حاقّ الوسط و هو الاعتدال.

قوله تعالی: شٰاکِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبٰاهُ وَ هَدٰاهُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ الاجتباء من الجبایه و هو الجمع و اجتباء اللّٰه الإنسان هو إخلاصه لنفسه و جمعه من التفرّق فی المذاهب المختلفه.و فی تعقیب قوله: «شٰاکِراً لِأَنْعُمِهِ» بقوله: «اجْتَبٰاهُ» الخ؛مفصولا إشعار بالعلّیه

و ذلک یؤید ما تقدم فی سوره الأعراف فی تفسیر قوله: وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ (الأعراف/۱۷)،أن حقیقه الشکر هو الإخلاص فی العبودیه.

قوله تعالی: وَ آتَیْنٰاهُ فِی الدُّنْیٰا حَسَنَهً وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ الحسنه هی المعیشه الحسنه فقد کان علیه السّلام ذا مال کثیر و مروّه عظیمه.

و قد بسطنا الکلام فی معنی الاجتباء فی تفسیر سوره یوسف عند الآیه ۶،و فی معنی الهدایه و الصراط المستقیم فی تفسیر الفاتحه عند قوله: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ (الآیه ۶)،و فی معنی قوله: وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ (البقره/۱۳۰)،فراجع.

و فی توصیفه تعالی إبراهیم علیه السّلام بما وصفه من الصفات إشاره الی أنها من مواهب هذا الدین الحنیف،فإن انتحل به الإنسان ساقه الی ما ساق الیه إبراهیم علیه السّلام.

قوله تعالی: ثُمَّ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ تکرار اتّصافه بالحنف و نفی الشرک لمزید العنایه به.

قوله تعالی: إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ الی آخر الآیه؛قال فی المفردات:أصل السبت القطع و منه سبت السیر قطعه و سبت شعره حلقه،و أنفه اصطلمه، و قیل:سمّی یوم السبت لأن اللّه تعالی ابتدأ بخلق السماوات و الأرض یوم الأحد فخلقها فی سته أیام کما ذکره فقطع عمله یوم السبت فسمّی بذلک.

و سبت فلان صار فی السبت،و قوله: «یَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً» قیل:یوم قطعهم للعمل «وَ یَوْمَ لاٰ یَسْبِتُونَ» قیل:معناه لا یقطعون العمل و قیل:یوم لا یکونون فی السبت و کلاهما إشاره الی حاله واحده،و قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» أی ترک العمل فیه «وَ جَعَلْنٰا نَوْمَکُمْ سُبٰاتاً» أی قطعا للعمل و ذلک إشاره الی ما قال فی صفه اللیل: «لِتَسْکُنُوا فِیهِ» انتهی.

فالمراد بالسبت علی ما ذکره نفس الیوم لکن معنی جعله جعل ترک العمل فیه و تشریعه، و یمکن أن یکون المراد به المعنی المصدری دون الیوم المجعول فیه ذلک کما هو ظاهر قوله:

تَأْتِيهِمْ حِيتٰانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لاٰ يَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِيهِمْ (الأعراف١۶٣/).

و كيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال:إنما جعل السبت للذين،حتى يفيد نوعا من الاختصاص و الملك و أن اللّه شرّع لهم فى كل أسبوع أن يقطعوا العمل يوما يفرغون فيه لعباده ربهم و هو يوم السبت كما جعل للمسلمين فى كل اسبوع يوما يجتمعون فيه للعباده و الصلاه و هو يوم الجمعه.

فقوله: إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ بتعديه جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم:لى عليك دين و هذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف و التشديد و الابتلاء أى إنما جعل للتشديد عليهم و ابتلائهم و امتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما انجر أمرهم فيه الى لعن طائفه منهم و مسخ آخرين و قد أشير الى ذلك فى سوره البقره الآيه ۶۵ و سوره النساء الآيه ۴٧.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: «اخْتَلَفُوا فِيهِ» أى فى السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقا ممن قبله و ممن رده و ممن احتال للعمل فيه على ما اشير الى قصصهم فى سور البقره و النساء و الأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا فى كل اسبوع يوما للعباده ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعه فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع فى بعض الروايات.

و المعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعباده يوما فى كل اسبوع تشديدا و ابتلاء و فتنه و كلفه على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله و من ردّه و من احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامه فيما كانوا فيه يختلفون.

و بالبناء على هذا يكون وزان الآيه وزان قوله السابق: «وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا» الخ؛ فى أنها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفا على ما مر من حديث النسخ،و التقدير و أما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم ليبتليهم اللّه و يفتنهم به و يشدد عليهم كما قد

تکرر نظائره فیهم لکونهم عاتین معتدین مستکبرین و بالجمله الآیه ناظره الی الاعتراض بتشریع بعض الأحکام غیر الفطریه علی الیهود و نسخه فی هذه الشریعه.

و إنما لم یضم الی قوله سابقا: «وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا» الخ؛لکون مسأله السبت مغایره لسنخ مسأله تحلیل الطیبات و استثناء محرمات الأکل،و قد عرفت أن الکلام علی اتصاله من قوله: «وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا» الی قوله: «وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» سبع آیات تامه ثم اتصلت بها هذه الآیه و هی ثامنتها الملحقه بها.

و من هنا یظهر الجواب عما اعترض به أن توسیط جعل السبت بین حکایه أمر النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم باتباع مله إبراهیم علیه السّلام و بین أمره علیه السّلام بالدعوه إلیها و بعباره اخری وقوع قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» الخ؛بین قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ» الخ؛و قوله: «ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ» الخ؛کالفصل بین الشجر و لحائه.

و محصل الجواب أن قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ» الآیه؛من تمام السیاق السابق،و قوله: «إِنَّمٰا جُعِلَ السَّبْتُ» الآیه،متصل بما تقدمه کما عرفت،و أما قوله: «ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ» الآیه؛فهو استئناف و أمر بالدعوه الی سبیل اللّه بفنون الخطاب لا الی مله إبراهیم حتی یتصل بالآیه السابقه نوع اتصال و إن کان سبیل اللّه هو مله إبراهیم بعینها لکن للفظ حکم و للمعنی بحسب المآل حکم آخر،فافهم.

قوله تعالی: أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الی آخر الآیه لا شک فی أنه یستفاد من الآیه أن هذه الثلاثه:الحکمه و الموعظه و المجادله من طرق التکلیم و المفاوضه فقد أمر بالدعوه بأحد هذه الامور فهی من أنحاء الدعوه و طرقها و إن کان الجدال لا یعد دعوه بمعناها الأخص.

و قد فسرت الحکمه-کما فی المفردات-بإصابه الحق بالعلم و العقل،و الموعظه-کما عن الخلیل-بأنه التذکیر بالخیر فیما یرق له القلب،و الجدال-کما فی المفردات-بالمفاوضه علی

سبيل المنازعه و المغالبه.

و التأمل فی هذه المعانی يعطی أن المراد بالحكمه-و اللّه أعلم-الحجه التی تنتج الحق الذی لا مريه فيه و لا وهن و لا إبهام و الموعظه هو البيان الذی تلين به النفس و يرق له القلب،لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر و العبر و جميل الثناء و محمود الأثر و نحو ذلک.

و الجدال هو الحجه التی تستعمل لفتل الخصم عما يصرّ عليه و ينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذه عليه من طريق ما يتسلمه هو و الناس أو يتسلمه هو وحده فی قوله أو حجته.

فينطبق ما ذكره تعالی من الحكمه و الموعظه و الجدال بالترتيب علی ما اصطلحوا عليه فی فن الميزان بالبرهان و الخطابه و الجدل.

غير أنه سبحانه قيّد الموعظه بالحسنه و الجدال بالتی هی أحسن،ففيه دلاله علی أن من الموعظه ما ليست بحسنه و من الجدال ما هو أحسن و ما ليس بأحسن و لا حسن،و اللّه تعالی يأمر من الموعظه بالموعظه الحسنه و من الجدال بأحسنه.

ثم إن فی قوله: «بِالْحِكْمَهِ وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» أخذا بالترتيب من حيث الأفراد فالحكمه مأذون فيها بجميع أفرادها،و الموعظه منقسمه الی حسنه و غير حسنه و المأذون فيها منهما هی الموعظه الحسنه،و المجادله منقسمه الی حسنه و غير حسنه ثم الحسنه الی التی هی أحسن و غيرها و المأذون فيها منها التی هی أحسن،و الآيه ساكته عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعوّين بالدعوه فالملاک فی استعمالها من حيث المورد حسن الأثر و حصول المطلوب و هو ظهور الحق.

قوله تعالی: وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ قال فی المفردات:العقوبه و العقاب و المعاقبه تختص بالعذاب،انتهی.و الأصل فی معناه العقب و هو مؤخر الرّجل و عقيب الشیء و عاقبه الأمر ما يليه من ورائه أو آخره،

و التعقیب الإتیان بشیء عقیب شیء و معاقبتک غیرک أن تأتی بما یسوؤه عقیب إتیانه بما یسوؤک فینطبق علی المجازاه و المکافأه بالعذاب.

فقوله: وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ الخطاب فیه للمسلمین-علی ما یفیده السیاق-و لازمه أن یکون المراد بالمعاقبه مجازاه المشرکین و الکفار،و بقوله:

«عُوقِبْتُمْ بِهِ» عقاب الکفار إیاهم و مجازاتهم لهم بما آمنوا باللّه و رفضوا آلهتهم.

و المعنی:و إن أردتم مجازاه الکفار و عذابهم فجازوهم علی ما فعلوا بکم بمثل ما عذبوکم به مجازاه لکم علی إیمانکم و جهادکم فی اللّه.

و قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّٰابِرِينَ أی صبرتم علی مرّ ما عوقبتم به و لم تعاقبوا و لم تکافئوا لهو خیر لکم بما أنکم صابرون لما فیه من إیثار رضی اللّه و ثوابه فیما أصابکم من المحنه و المصیبه علی رضی أنفسکم بالتشفی بالانتقام فیکون العمل خالصا لوجهه الکریم، و لما فی الصبح و العفو من إعمال الفتوّه و لها آثارها الجمیله.

قوله تعالی: وَ اصْبِرْ وَ مٰا صَبْرُكَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ الی آخر الآیه أمر للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بالصبر و بشری له أن اللّه قوّاه علی الصبر علی مرّ ما یلقاه فی سبیله فإنه تعالی یذکر أن صبره إنما هو بحول و قوه من ربه ثم یأمره بالصبر و لازم الأمر قدره المأمور علی المأمور به ففی قوله: «وَ مٰا صَبْرُكَ إِلاّٰ بِاللّٰهِ» إشاره الی أن اللّه قوّاک علی ما أمرک به.

و قوله: وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أی علی الکافرین لکفرهم،و قد تقدم تفسیر هذا المعنی سابقا فی السوره و غیرها.

و قوله: «وَ لاٰ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ» الظاهر أن المراد النهی عن التحرج من مکرهم فی الحال أو علی سبیل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

قوله تعالی: إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ أی إن التقوی و الإحسان کل منهما سبب مستقل فی موهبه النصره الالهیه و إبطال مکر أعداء الدین و دفع

کیدهم فالآیه تعلیل لقوله: «وَ لاٰ تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ» و وعد بالنصر.

و هذه الآیات الثلاث أشبه مضمونا بالآیات المدنیه منها بالمکیه و قد وردت روایات من طرق الفریقین أنها نزلت فی منصرف النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم عن أحد و سیأتی فی البحث الروائی و إن کان من الممکن توجیه اتصالها بما قبلها بوجه کما تصدی له بعضهم.

و مما یجب أن یتنبه له أن الآیه التی قبل الثلاثه أجمع لغرض السوره من هذه الثلاث،و أن لآیات السوره مع الإغماض عن قوله: «وَ الَّذِینَ هٰاجَرُوا» الآیه،و قوله: «مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ» الی تمام بضع آیات،و قوله: «وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ» الی آخر السوره،سیاقا واحدا متصلا.

ص :۶۴۳

سوره الإسراء مكيه و هى مائه و إحدى عشره آيه

اشاره

[سوره الإسراء (١٧): آيه ١]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِlt;br/gt;سُبْحٰانَ اَلَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ إِلَى اَلْمَسْجِدِ اَلْأَقْصَى اَلَّذِى بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰا إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (١)

بيان:

اشاره

السوره تتعرض لأمر توحيده تعالى عن الشريك مطلقا و مع ذلك يغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد كما بدئت به فقيل «سُبْحٰانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ» الآيه؛و كرر ذلك فيها مره بعد مره كقوله: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يَقُولُونَ» الآيه ۴٣ و قوله: «قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّى» الآيه ٩٣،و قوله: «وَ يَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰا» الآيه ١٠٨ حتى ان الآيه الخاتمه للسوره:

«وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً» تحمد اللّٰه على تنزهه عن الشريك و الولى و اتخاذ الولد.

ص: ۶۴۴

و السوره مکیه لشهاده مضامین آیاتها بذلک،و عن بعضهم کما فی روح المعانی استثناء آیتین منها و هما «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه؛و قوله: «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ» الآیه؛و عن بعضهم إلاّ اربع آیات و هی الآیتان المذکورتان و قوله: «وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ» الآیه،و قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآیه.

و عن الحسن أنها مکیه إلاّ خمس آیات منها و هی قوله: «وَ لاٰ تَقْتُلُوا النَّفْسَ» الآیه؛ «أُولٰئِکَ الَّذِینَ یَدْعُونَ» «أَقِمِ الصَّلاٰهَ» «وَ آتِ ذَا الْقُرْبیٰ» الآیه.

و عن مقاتل:مکیه إلاّ خمس «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ» الآیه؛ «وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ» الآیه؛ «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی» الآیه؛ «إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» الآیه.

و عن قتاده و المعدل عن ابن عباس مکیه إلاّ ثمانی آیات و هی قوله: «وَ إِنْ کٰادُوا لَیَفْتِنُونَکَ» الآیه؛الی قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآیه.

و لا دلاله فی مضامین الآیات علی کونها مدنیه،و لا الأحکام المذکوره فیها مما یختص نزولا بالمدینه و قد نزلت نظائرها فی السور المکیه کالأنعام و الأعراف.

و قد افتتحت السوره فیما ترومه من التسبیح بالإشاره الی معراج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فذکر إسراؤه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من المسجد الحرام الی المسجد الأقصی و هو بیت المقدس و الهیکل الذی بناه داود و سلیمان علیهما السّلام و قدسه اللّه لبنی إسرائیل.

ثم سبق الکلام بالمناسبه الی ما قدره اللّه لمجتمع بنی إسرائیل من الرقی و الانحطاط و العزه و الذله فکلما أطاعوا رفعهم اللّه و کلما عصوا خفضهم اللّه،و قد أنزل علیهم الکتاب و أمرهم بالتوحید و نفی الشریک.

ثم عطف فیها الکلام علی حال هذه الأمه و ما أنزل علیهم من الکتاب بما یشاکل حال بنی إسرائیل و أنهم إن أطاعوا أثیبوا و إن عصوا عوقبوا فإنما هی الأعمال یعامل الإنسان بما عمل منها،و علی ذلک جرت السنه الإلهیه فی الامم الماضین.

ص :۶۴۵

ثم ذکرت فیها حقائق جمه من المعارف الراجعه الی المبدأ و المعاد و الشرائع العامه من الأوامر و النواهی و غیر ذلک.

و من غرر الآیات فیها قوله تعالی: «قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَیًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ» الآیه ۱۱۰ من السوره،و قوله: «کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً» الآیه ۲۰ منها،و قوله: «وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ نَحْنُ مُهْلِکُوهٰا» الآیه ۵۸ منها و غیر ذلک.

قوله تعالی: سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً الی آخر الآیه؛سبحان اسم مصدر للتسبیح بمعنی التنزیه و یستعمل مضافا و هو مفعول مطلق قائم مقام فعله فتقدیر «سبحان الله»سبحت اللّه تسبیحا أی نزهته عن کل ما لا یلیق بساحه قدسه و کثیرا ما یستعمل للتعجب لکن سیاق الآیات إنما یلائم التنزیه لکونه الغرض من البیان و إن أصر بعضهم علی کونه للتعجب.

و الإسراء و السری السیر باللیل یقال:سری و أسری أی سار لیلا و سری و أسری به أی سار به لیلا،و السیر یختص بالنهار أو یعمه و اللیل.

و قوله: «لَیْلاً» مفعول فیه و یفید من الفائده أن هذا الإسراء تم له باللیل فکان الرواح و المجیء فی لیله واحده قبل أن یطلع فجرها.

و قوله: إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی هو بیت المقدس بقرینه قوله: اَلَّذِی بٰارَکْنٰا حَوْلَهُ .و القصی البعد و قد سمی المسجد الاقصی لکونه أبعد مسجد بالنسبه الی مکان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و من معه من المخاطبین و هو مکه التی فیها المسجد الحرام.

و قوله: لِنُرِیَهُ مِنْ آیٰاتِنٰا بیان غایه الإسراء و هی إراءه بعض الآیات الإلهیه -لمکان من-و فی السیاق دلاله علی عظمه هذه الآیات التی أراها اللّه سبحانه کما صرح به فی موضع آخر من کلامه یذکر فیه حدیث المعراج بقوله: لَقَدْ رَأیٰ مِنْ آیٰاتِ رَبِّهِ الْکُبْریٰ

(النجم١٨/).

و قوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تعليل لإسرائه به لإراءه آياته أى إنه سميع لاقوال عباده بصير بأفعالهم و قد سمع من مقال عبده و رأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسرى به ليلا و يريه من آياته الكبرى.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فى قوله: «بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» ثم رجوع الى الغيبه السابقه و الوجه فيه الإشاره الى أن الإسراء و ما ترتب عليه من إراءه الآيات إنما صدر عن ساحه العظمه و الكبرياء و موطن العزه و الجبروت فعملت فيه السلطنه العظمى و تجلى اللّه له بآياته الكبرى،و لو قيل:ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكته.

و المعنى:لينزه تنزيها من أسرى بعظمته و كبريائه و بالغ قدرته و سلطانه بعبده محمد فى جوف ليله واحده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى و هو بيت المقدس الذى بارك حوله ليريه بعظمته و كبريائه آياته الكبرى،و إنما فعل به ذلك لانه سميع بصير علم بما سمع من مقاله و رأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمه.

بحث روائی:

فى تفسير القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال:

جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فأخذ واحد باللجام و واحد بالركاب و سوى الآخر عليه ثيابه فتضعضعت البراق فلطمها جبرائيل ثم قال لها:اسكنى يا براق فما ركبك نبى قبله و لا يركبك بعده مثله.

قال:فرفّت به و رفعته ارتفاعا ليس بالكثير و معه جبرئيل يريه الآيات من السماء و الأرض.قال:فبينا أنا فى مسيرى إذ نادى مناد عن يمينى:يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم نادى مناد عن يسارى:يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم استقبلتنى امرأه كاشفه عن

ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت:يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها ثم سرت فسمعت صوتا أفزعنى فجاوزت فنزل بى جبرئيل فقال:صل فصليت فقال:تدرى أين صلت؟قلت:لا،فقال:صليت بطور سيناء حيث كلم اللّه موسى تكليما ثم ركبت فمضينا ما شاء اللّه ثم قال لى:انزل فصل فنزلت و صليت فقال لى:تدرى أين صليت؟فقلت:لا، قال:صليت فى بيت لحم،و بيت لحم بناحيه بيت المقدس المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقه التى كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد و معى جبرئيل الى جنبى فوجدنا ابراهيم و موسى و عيسى فيمن شاء اللّه من أنبياء اللّه عليهم السّلام فقد جمعوا إلى و أقيمت الصلاه و لا أشك إلّا و جبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى و أممتهم و لا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاثه أوانى إناء فيه لبن و إناء فيه ماء و إناء فيه خمر،و سمعت قائلا يقول:

إن أخذ الماء غرق و غرقت امته،و إن أخذ الخمر غوى و غويت امته و إن أخذ اللبن هدى و هديت امته قال:فأخذت اللبن و شربت منه فقال لى جبرئيل:هديت و هديت امتک.

ثم قال لى:ما ذا رأيت فى مسيرك؟فقلت:نادانى مناد عن يمينى فقال:أو أجبته فقلت:لا و لم ألتفت اليه فقال:داعى اليهود لو أجبته لتهودت امتک من بعدک ثم قال ما ذا رأيت؟فقلت نادانى مناد عن يسارى فقال لى:أو أجبته؟فقلت:لا و لم التفت اليه فقال:ذاک داعى النصارى و لو أجبته لتنصرت امتک من بعدک.ثم قال:ما ذا استقبلک؟فقلت:لقيت امرأه كاشفه عن ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت:يا محمد انظرنى حتى أكلمک.فقال:

أو كلمتها؟فقلت:لم اكلمها و لم التفت إليها فقال:تلک الدنيا و لو كلمتها لاختارت امتک الدنيا على الآخره.

ثم سمعت صوتا أفزعنى،فقال لى جبرئيل:أ تسمع يا محمد؟قلت:نعم قال:هذه صخره

قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاما فهذا حين استقرت قالوا:فما ضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتى قبض.

قال:فصعد جبرئيل و صعدت معه الى السماء الدنيا و عليها ملك يقال له:اسماعيل و هو صاحب الخطفه التى قال اللّه عزّ و جل: «إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ» و تحته سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك.

فقال:يا جبرئيل!من هذا الذى معك؟فقال:محمد رسول اللّه قال:و قد بعث؟قال:نعم ففتح الباب فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى و قال:مرحبا بالأخ الصالح و النبى الصالح،و تلقتنى الملائكه حتى دخلت السماء الدنيا فما لقينى ملك إلاّ ضاحكا مستبشرا حتى لقينى ملك من الملائكه لم أر أعظم خلقا منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقال لى مثل ما قالوا من الدعاء إلاّ أنه لم يضحك و لم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكه فقلت:

من هذا يا جبرئيل فإنى قد فزعت منه؟فقال:يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط،و لم يزل منذ أن ولاه اللّه جهنم يزداد كل يوم غضبا و غيظا على أعداء اللّه و أهل معصيته فينتقم اللّه به منهم،و لو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك اليك فسلمت عليه فرد السلام على و بشرنى بالجنه.

فقلت لجبرئيل و جبرئيل بالمكان الذى وصفه اللّه «مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :أ لا تأمره أن يرينى النار؟فقال له جبرئيل:يا مالك أر محمدا النار فكشف عنها غطاءها و فتح بابا منها فخرج منها لهب ساطع فى السماء و فارت و ارتفعت حتى ظننت ليتناولنى مما رأيت فقلت:يا جبرئيل!قل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها:ارجعى فرجعت الى مكانها الذى خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول:روح طيبه و ريح طيبه من جسد طيب ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

ص:۶۴۹

سوره المطففين على رأس سبع عشره آيه «كَلّا إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ لَفِی عِلِّيِّينَ وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا عِلِّيُّونَ كِتٰابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» الى آخرها؛قال:فسلمت على أبى آدم و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و قال:مرحبا بالابن الصالح و النبى الصالح البعوث فى الزمن الصالح.

قال:ثم مررت بملك من الملائكه جالس على مجلس و اذا جميع الدنيا بين ركبتيه و إذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يتلفت يمينا و لا شمالا،مقبلا عليه كهيئه الحزين فقلت:من هذا يا جبرئيل؟قال:هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح فقلت:يا جبرئيل أدننى منه حتى اكلمه فأدنانى منه فسلمت عليه،و قال له جبرئيل:هذا محمد نبى الرحمه الذى أرسله اللّه الى العباد فرحب بى و حيانى بالسلام و قال:أبشر يا محمد فإنى أرى الخير كله فى امتك فقلت:الحمد للّه المنان ذى النعم على عباده ذلك من فضل ربى و رحمته على فقال جبرئيل:هو أشد الملائكه عملا فقلت:أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟فقال:نعم.قلت:و تراهم حيث كانوا و تشهدهم بنفسك؟فقال:نعم.فقال ملك الموت:ما الدنيا كلها عندى فيما سخره اللّه لى و مكننى عليها إلاّ كالدرهم فى كف الرجل يقلبه كيف يشاء،و ما من دار إلاّ و أنا أتصفحه كل يوم خمس مرات،و أقول اذا بكى أهل الميت على ميتهم:لا تبكوا عليه فإن لى فيكم عوده و عوده حتى لا يبقى منكم أحد فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:كفى بالموت طامه يا جبرئيل فقال جبرئيل:إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت.

قال:ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب و لحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث و يدعون الطيب فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:هؤلاء الذين يأكلون الحرام و يدعون الحلال و هم من امتك يا محمد.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:ثم رأيت ملكا من الملائكه جعل اللّه أمره عجيبا نصف جسده

الناس و النصف الآخر ثلج فلا النار تـذيب الثلـج و لا الثلـج تطفئ النار و هو ينادى بصوت رفيع و يقول:سبحان الـذى كف حر هـذه النار فلا تـذيب الثلـج و كف برد هـذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج و النار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت:من هـذا يـا جبرئيـل؟فقال:هـذا ملك وكله اللّه بأكناف السـماء و اطراف الأرضـين و هو انصـح ملائكه اللّه لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق.

و رأيت ملكين يناديان فى السماء احدهما يقول:اللهم اعط كل منفق خلفا و الآخر يقول:

اللهم اعط كل ممسک تلفا.

ثـم مضـيت فـإذا أنـا بـأقوام لهـم مشـافر كمشـافر الإبـل يقرض اللحـم مـن جنـوبهم و يلقى فى افـواههم فقلـت:مـن هؤلاـء يا جبرئيل؟فقال:هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم مضيت فإذا انا بأقوام ترضخ رءوسهم بالصخر فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:

هؤلاء الذين ينامون عن صلاه العشاء.

ثم مضـيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار فى أفواههم و تخرج من ادبارهم فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟قال:هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا.

ثم مضـيت فاذا انا باقوام يريـد احدهم ان يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟قال:هؤلاء الذين ياكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذى يتخبطه الشـيطان من المس.و إذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على الناس غدوا و عشـيا يقولون ربنا متى تقوم الساعه؟.

قال:ثم مضيت فاذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:

هؤلاـء اللـواتى يـورثن أموال أزواجهن أولاـد غيرهم.ثم قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلم:اشـتد غضب اللّه على امرأه أدخلت على قوم فى نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم و أكل خزائنهم.

ثم قال:مررنا بملائكه من ملائكه اللّه عزّ و جل خلقهم اللّه كيف شاء و وضع وجوههم كيف شاء،ليس شیء من أطباق أجسادهم إلاّ و هو يسبح اللّه و يحمده من كل ناحيه باصوات مختلفه اصوات مرتفعه بالتحميد و البكاء من خشيه اللّه فسألت جبرئيل عنهم فقال:كما ترى خلقوا إن الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمهم كلمه قط و لا رفعوا رءوسهم الى ما فوقها و لا خفضوها الى ما تحتها خوفا من اللّه و خشوعا فسلمت عليهم فردوا على ايماء برءوسهم لا ينظرون إلى من الخشوع فقال لهم جبرئيل:هذا محمد نبى الرحمه أرسله اللّه الى العباد رسولا و نبيا.و هو خاتم النبيين و سيدهم أ فلا تكلمون؟قال:فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا على بالسلام و أكرمونى و بشرونى بالخير لى و لامتى.

قال:ثم صعدنا الى السماء الثانيه فاذا فيها رجلان متشابهان فقلت:من هذان يا جبرئيل؟ فقال لى:ابنا الخاله يحيى و عيسى عليهما السّلام فسلمت عليهما و سلما على و استغفرت لهما و استغفرا لى و قالا:مرحبا بالأخ الصالح و النبى الصالح و إذا فيها من الملائكه و عليهم الخشوع قد وضع اللّه وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك الا يسبح اللّه بحمده بأصوات مختلفه.

ثم صعدنا الى السماء الثالثه فاذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليله البدر على سائر النجوم فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أخوك يوسف فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و قال:مرحبا بالنبى الصالح و الأخ الصالح و المبعوث فى الزمن الصالح،و إذا فيها ملائكه عليهم من الخشوع مثل ما وصفت فى السماء الاولى و الثانيه، و قال لهم جبرئيل فى أمرى ما قال للآخرين و صنعوا فى مثل ما صنع الآخرون.

ثم صعدنا الى السماء الرابعه و إذا فيها رجل فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا إدريس رفعه اللّه مكانا عليا فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات التى عبرناها فبشرونى بالخير لى و لامتى،ثم رأيت ملكا جالسا على سرير تحت يديه سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك فوقع فى نفس رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم أنه هو فصاح به جبرئيل فقال:قم فهو قائم الى يوم القيامه.

ثم صعدنا الى السماء الخامسه فاذا فيها رجل كهل عظيم العين لم أر كهلا أعظم منه حوله ثله من امته فأعجبنى كثرتهم فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السماوات.

ثم صعدنا الى السماء السادسه و إذا فيها رجل آدم طويل كأنه من شنوه و لو أن له قميصين لنفذ شعره فيهما و سمعته يقول:يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم ولد آدم على اللّه و هذا رجل أكرم على اللّه منى فقلت:من هذا يا جبرئيل؟فقال:هذا أخوك موسى بن عمران فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السماوات.

قال:ثم صعدنا الى السماء السابعه فما مررت بملك من الملائكه إلاّ قالوا:يا محمد احتجم و امر امتك بالحجامه،و إذا فيها رجل أشمط الرأس و اللحيه جالس على كرسى فقلت:يا جبرئيل من هذا الذى فى السماء السابعه على باب البيت المعمور فى جوار اللّه؟فقال:هذا يا محمد أبوك إبراهيم و هذا محلك و محل من اتقى من امتك ثم قرء رسول اللّه: «إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فسلمت عليه و سلم على و قال:مرحبا بالنبى الصالح و الابن الصالح و المبعوث فى الزمن الصالح و اذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات فبشرونى بالخير لى و لامتى.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:و رأيت فى السماء السابعه بحارا من نور تتلألأ تلألؤها يخطف بالأبصار،و فيها بحار من ظلمه و بحار من ثلج ترعد فكلما فزعت و رأيت هولا سألت جبرئيل فقال:ابشر يا محمد و اشكر كرامه ربك و اشكر اللّه بما صنع اليك قال:فثبتنى اللّه بقوته و عونه حتى كثر قولى لجبرئيل و تعجبى.

فقال جبرئيل:يا محمد تعظم ما ترى؟إنما هذا خلق من خلق ربك فكيف بالخالق الذى

خلق مـا ترى و مـا لا ترى أعظم من هـذا من خلق ربک إن بين اللّه و بين خلقه سـبعين ألف حجاب و أقرب الخلق الى اللّه أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعه حجب حجاب من نور و حجاب من الظلمه و حجاب من الغمامه و حجاب من الماء.

قـال:و رأيت من العجـائب التى خلق اللّه و سـخر على ما أراده ديكا رجلاه فى تخوم الأرضـين السابعه و رأسه عنـد العرش و هو ملک من ملائکه اللّه تعالى خلقه اللّه کما أراد رجلاه فى تخوم الأرضين السابعه ثم أقبل مصعدا حتى خرج فى الهواء الى السماء السـابعه و انتهى فيها مصـعدا حتى انتهى قرنه الى قرب العرش و هو يقول:سـبحان ربى حيثما کنت لا تـدرى أين ربک من عظم شأنه،و له جناحان فى منکبه إذا نشـرهما جاوزا المشـرق و المغرب فاذا کان فى السحر نشر جناحيه و خفق بهما و صرخ بالتسبيح يقول:سـبحان اللّه الملـک القـدوس،سـبحان اللّه الکبير المتعال لا إله إلاّ اللّه الحى القيوم و إذا قال ذلک سـبحت ديوک الأرض کلها و خفقت باجنحتها و أخـذت بالصـراخ فاذا سـکت ذلک الديک فى السـماء سـکت ديوک الأرض کلها، و لذلک الديک زغب أخضر و ريش أبيض کاشد بياض ما رأيته قط،و له زغب أخضر أيضا تحت ريشه الابيض کأشد خضره ما رايتها قط.

قـال:ثم مضـيت مع جبرئيـل فـدخلت البيت المعمور فصـليت فيه رکعتين و معى انـاس من اصـحابى عليهم ثياب جـدد و آخرين عليهم خلقان فدخل أصحاب الجدد و جلس أصحاب الخلقان.

ثم خرجت فانقاد لى نهران نهر يسـمى الکوثر و نهر يسـمى الرحمه فشـربت من الکوثر و اغتسلت من الرحمه ثم انقادا لى جميعا حتى دخلت الجنه و إذا على حافتيهـا بيوتى و بيوت أهلى و إذا ترابهـا کالمسـک،و اذا جـاريه تنغمس فى أنهار الجنه فقلت:لمن أنت يا جاريه؟ فقالت:لزيد بن حارثه فبشرته بها حين أصبحت،و اذا بطيرها کالبخت،و اذا رمانها مثل الدلى العظام،و اذا شجره لو ارسل طائر فى اصلها ما دارها سبعمائه سنه،و ليس فى الجنه منزل

ص :۶۵۴

الا و فیه غصن منها فقلت:ما هذه یا جبرئیل؟فقال:هذه شجره طوبی قال اللّه: «طُوبیٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ» .

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:فلما دخلت الجنه رجعت الی نفسی فسألت جبرئیل عن تلک البحار و هولها و أعاجیبها فقال:هی سرادقات الحجب التی احتجب اللّه تبارک و تعالی بها و لو لا تلک الحجب لهتک نور العرش کل شیء فیه.

و انتهیت الی سدره المنتهی فاذا الورقه منها تظل امه من الامم فکنت منها کما قال اللّه تعالی: «قٰابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنیٰ» فنادانی «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ» فقلت أنا مجیبا عنی و عن امتی: «وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لاٰ نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا غُفْرٰانَکَ رَبَّنٰا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ» فقال اللّه: «لاٰ یُکَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا،لَهٰا مٰا کَسَبَتْ وَ عَلَیْهٰا مَا اکْتَسَبَتْ» فقلت: «رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِینٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا» فقال اللّه:لا اؤاخذک،فقلت «رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَیْنٰا إِصْراً کَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِنٰا» فقال اللّه:احملک فقلت: «رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ وَ اعْفُ عَنّٰا وَ اغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا أَنْتَ مَوْلاٰنٰا فَانْصُرْنٰا عَلَی الْقَوْمِ الْکٰافِرِینَ» فقال اللّه تبارک و تعالی:قد اعطیتک ذلک لک و لامتک،فقال الصادق علیه السّلام:ما وفد الی اللّه تعالی احد اکرم من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم حین سأل لامته هذه الخصال.

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا رب أعطیت أنبیاءک فضائل فاعطنی فقال اللّه:قد أعطیتک فیما اعطیتک کلمتین من تحت عرشی:لا حول و لا قوه الا باللّه،و لا منجی منک الا الیک.

قال:و علمتنی الملائکه قولا اقوله اذا اصبحت و أمسیت:اللهم ان ظلمی اصبح مستجیرا بعفوک،و ذنبی اصبح مستجیرا بمغفرتک و ذلی اصبح مستجیرا بعزتک،و فقری اصبح مستجیرا بغناک و وجهی الفانی اصبح مستجیرا بوجهک الباقی الذی لا یفنی،و اقول ذلک اذا امسیت.

ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير فی السماء قبل تلك الليله فقال:اللّه أكبر اللّه أكبر فقال اللّه:صدق عبدی أنا أكبر من كل شیء فقال:«أشهد أن لا إله إلاّ اللّه أشهد أن لا إله إلاّ اللّه» فقال اللّه:صدق عبدی أنا اللّه لا إله إلاّ أنا و لا إله غيری فقال:«أشهد أن محمدا رسول اللّه أشهد أن محمدا رسول اللّه»فقال اللّه:صدق عبدی إن محمدا عبدی و رسولی انا بعثته و انتجبته فقال:«حی علی الصلاه حی علی الصلاه»فقال:صدق عبدی دعا الی فريضتی فمن مشی إليها راغبا فيها محتسبا كانت له كفاره لما مضی من ذنوبه فقال:«حی علی الفلاح حی علی الفلاح»فقال اللّه:هی الصلاح و النجاح و الفلاح.ثم أممت الملائكه فی السماء كما أممت الأنبياء فی بيت المقدس.

قال:ثم غشيتنی ضبابه فخررت ساجدا فنادانی ربی أنی قد فرضت علی كل نبی كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و علی امتك فقم بها انت فی امتك قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم:

فانحدرت حتی مررت علی ابراهيم فلم يسألنی عن شیء حتی انتهيت الی موسی فقال:ما صنعت يا محمد؟فقلت:قال ربی:فرضت علی كل نبی كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و علی امتك.فقال موسی:يا محمد ان امتك آخر الأمم و أضعفها و إن ربك لا يزيده شیء و إن امتك لا تستطيع أن تقوم بها فارجع الی ربك فاسأله التخفيف لامتك.

فرجعت الی ربی حتی انتهيت الی سدره المنتهی فخررت ساجدا ثم قلت:فرضت علی و علی امتی خمسين صلاه و لا أطيق ذلك و لا امتی فخفف عنی فوضع عنی عشرا فرجعت الی موسی فأخبرته فقال:ارجع لا تطيق فرجعت الی ربی فوضع عنی عشرا فرجعت الی موسی فأخبرته فقال:ارجع و فی كل رجعه أرجع اليه أخر ساجدا حتی رجع الی عشر صلوات فرجعت الی موسی و اخبرته فقال:لا تطيق فرجعت الی ربی فوضع عنی خمسا فرجعت الی موسی و اخبرته فقال:لا تطيق فقلت:قد استحيت من ربی و لكن اصبر عليها فنادانی مناد:

كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كل صلاه بعشر،و من هم من امتك بحسنه يعملها

ص :۶۵۶

فعملها كتبت له عشرا و إن لم يعمل كتبت له واحده،و من هم من امتک بسيئه فعملها كتبت عليه واحده و إن لم يعملها لم أكتب عليه.

فقال الصادق عليه السّلام:جزى اللّه موسى عن هذه الامه خيرا فهذا تفسير قول اللّه: «سُبْحانَ الَّذِی أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِی بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

اقول:و قد ورد ما يقرب مما قصته هذه الروايه فی روايات كثيره جدا من طرق الشيعه و أهل السنه،و قوله فی الروايه:«رجلا آدما»يقال:رجل آدم أی أسمر اللون،و الطامه هی الأمر الشديد الذی يغلب ما سواه،و لذلک سميت القيامه بالطامه،و الأكتاف جمع كتف و المراد الأطراف و النواحی،و قوله:«فوقع فی نفس رسول اللّه أنه هو»أی أنه الملک الذی يدبر أمر العالم و ينتهی اليه كل أمر.

و قوله:شنوه بالشين و النون و الواو و ربما يهمز قبيله كانوا معروفين بطول القامه،و قوله:

«أشمط الرأس و اللحيه»الشمط بياض الشعر يخالطه سواد،و الزغب أول ما يبدو من الشعر و الريض و صغارهما،و البخت الإبل الخراسانی و الدلی بضم الدال و كسر اللام و تشديد الياء جمع دلو على فعول،و الصبابه بفتح الصاد لمهمله و الباء الموحده الشوق و الهوى الرقيق و بالمعجمه مضمومه الغيم الرقيق.

و فی أمالی الصدوق عن أبيه عن علی عن أبيه عن ابن أبی عمير عن أبان بن عثمان عن أبی عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال:لمّا أسری برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم الی بيت المقدس حمله جبرئيل على البراق فأتيا بيت المقدس و عرض عليه محاريب الأنبياء و صلّى بها و ردّه فمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فی رجوعه بعير لقريش و اذا لهم ماء فی آنيه و قد أضلّوا بعيرا لهم و كانوا يطلبونه فشرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من ذلک الماء و أهرق باقيه.

فلمّا أصبح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال لقريش:إنّ اللّه جلّ جلاله قد اسرى بی الى بيت المقدس

و أرانى آثار الأنبياء و منازلهم،و إنى مررت بعير لقريش فى موضع كذا و كذا و قد أضلّوا بعيرا لهم فشربت من مائهم و أهرقت باقى ذلك فقال أبو جهل:قد أمكنتكم الفرصه منه فاسألوه كم الأساطين فيها و القناديل؟فقال:يا محمّد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه و قناديله و محاريبه؟فجاء جبرئيل فعلق صوره بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم،قالوا:حتى يجيء العير و نسألهم عما قلت،فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم:تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق.

فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون الى العقبه و يقولون هذه الشمس تطلع الساعه فبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فاخبروهم عما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقالوا:لقد كان هذا:ضل جمل لنا فى موضع كذا و كذا،و وضعنا ماء فأصبحنا و قد أهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلاّ عتوّا.

أقول:و فى معناها روايات اخرى من طريق الفريقين.

و فيه بإسناده عن عبد اللّه بن عباس قال:إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لما أسرى به الى السماء انتهى به جبرئيل الى نهر يقال له النور و هو قوله عزّ و جل: «جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ» فلما انتهى به الى ذلك قال له جبرئيل:يا محمد اعبر على بركه اللّه فقد نوّر اللّه لك بصرك و مر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب و لا نبى مرسل غير أن لى فى يوم اغتماسه فيه ثم أخرج منه فأنفض أجنحتى فليس من قطره تقطر من أجنحتى إلا خلق اللّه تبارك و تعالى منها ملكا مقربا له عشرون ألف وجه و أربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغه لا يفقهها اللسان الآخر.

فعبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم حتى انتهى الى الحجب و الحجب خمس مائه حجاب من الحجاب الى الحجاب مسيره خمسمائه عام ثم قال:تقدم يا محمد فقال له:يا جبرئيل و لم لا تكون معنى؟ قال:ليس لى أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم ما شاء اللّه أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك و تعالى:أنا المحمود و أنت محمد شققت اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته و من

قطعک بتکته انزل الی عبادی فأخبرهم بکرامتی إیاک و أنی لم أبعث نبیا إلا جعلت له وزیرا و إنک رسولی و إن علیا وزیرک.

و فی المناقب عن ابن عباس فی خبر:و سمع یعنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صوتا«آمنا برب العالمین»قال یعنی جبرئیل:هؤلاء سحره فرعون،و سمع لبیک اللهم لبیک قال:هؤلاء الحجاج،و سمع التکبیر قال:هؤلاء الغزاه،و سمع التسبیح قال:هؤلاء الأنبیاء.

فلما بلغ الی سدره المنتهی و انتهی الی الحجب،قال جبرئیل:تقدم یا رسول اللّه لیس لی أن أجوز هذا المکان و لو دنوت أنمله لاحترقت.

و فی الاحتجاج عن ابن عباس قال:قال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیما احتج علی الیهود:حملت علی جناح جبرئیل حتی انتهیت الی السماء السابعه فجاوزت سدره المنتهی عندها جنه المأوی حتی تعلقت بساق العرش فنودیت من ساق العرش:إنی أنا اللّه لا إله إلاّ أنا السلام للمؤمن المهیمن العزیز الجبار المتکبر الرءوف الرحیم فرأیته بقلبی و ما رأیته بعینی.الخبر.

و فی الکافی بإسناده عن أبی الربیع قال:حججنا مع أبی جعفر علیه السّلام فی السنه التی کان حج فیها هشام بن عبد الملک و کان معه نافع مولی عمر بن الخطاب فنظر نافع الی أبی جعفر علیه السّلام فی رکن البیت و قد اجتمع الیه الناس فقال نافع:یا أمیر المؤمنین من هذا الذی قد تداک علیه الناس؟فقال:هذا نبی أهل الکوفه هذا محمد بن علی فقال:اشهد لآتینه فلأسألنه من مسائل لا یجیبنی فیها إلاّ نبی أو وصی أو ابن نبی.قال:فاذهب الیه و اسأله لعلک تخجله.

فجاء نافع حتی اتّکأ علی الناس ثم أشرف علی أبی جعفر علیه السّلام و قال:یا محمد ابن علی إنی قرأت التوراه و الإنجیل و الزبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها،و قد جئت أسألک عن مسائل لا یجیب فیها إلاّ نبی أو وصی نبی أو ابن نبی.قال:فرفع أبو جعفر علیه السّلام رأسه و قال:سل عما بدا لک.

فقال:أخبرنی کم بین عیسی و بین محمد من سنه؟قال:أخبرک بقولی أو بقولک قال:

أخبرنی بالقولین جمیعا قال:أما فی قولی فخمسمائه سنه،و أما فی قولک فستمائه سنه،قال:

فأخبرنی عن قول اللّه عزّ و جل: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَهً یُعْبَدُونَ من الذی سأله محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم و کان بینه و بین عیسی علیه السّلام خمسمائه سنه؟.

قال:فتلا أبو جعفر علیه السّلام هذه الآیه: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا فکان من الآیات التی أراها اللّه تبارک و تعالی محمدا صلّی اللّه علیه و آله و سلم حیث أسری به الی البیت المقدس أن حشر اللّه الأولین و الآخرین من النبیین و المرسلین ثم أمر جبرئیل فأذّن شفعا و أقام شفعا،و قام فی أذانه حی علی خیر العمل ثم تقدم محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم فصلی بالقوم.

فلما انصرف قال لهم:علی ما تشهدون؟ما کنتم تعبدون؟قالوا:نشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شریک له و أنک رسول اللّه اخذ علی ذلک عهودنا و مواثیقنا.فقال:نافع:صدقت یا أبا جعفر.

و فی العلل باسناده عن ثابت بن دینار قال:سألت زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام عن اللّه جل جلاله هل یوصف بمکان؟فقال:تعالی اللّه عن ذلک.قلت:فلم أسری بنبیه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء؟قال:لیریه ملکوت السماوات و ما فیها من عجائب صنعه و بدائع خلقه.

قلت:فقول اللّه عزّ و جل: ثُمَّ دَنا فَتَدَلّی فَکانَ قابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنی قال:ذاک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم دنا من حجب النور فرأی ملکوت السماوات ثم تدلی فنظر من تحت الی ملکوت الأرض حتی ظن أنه فی القرب من الأرض کقاب قوسین أو أدنی.

و فی تفسیر القمی باسناده عن إسماعیل الجعفی قال:کنت فی المسجد الحرام قاعدا و أبو جعفر علیه السّلام فی ناحیه فرفع رأسه فنظر الی السماء مره و الی الکعبه مره ثم قال: «سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی» و کرر ذلک ثلاث مرات ثم

التفت إلی فقال:أی شیء یقولون أهل العراق فی هذه الآیه یا عراقی؟قلت:یقولون اسری به من المسجد الحرام الی البیت المقدس.فقال:لیس هو کما یقولون و لکنه اسری به من هذه الی هذه و أشار بیده الی السماء و قال:ما بینهما حرم.

قال:فلما انتهی به الی سدره المنتهی تخلف عنه جبرئیل فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا جبرئیل أ فی مثل هذا الموضع تخذلنی؟فقال:تقدم أمامک فو اللّه لقد بلغت مبلغا لم یبلغه خلق من خلق اللّه قبلک فرأیت ربی و حال بینی و بینه السبحه قلت:و ما السبحه جعلت فداک؟فأومأ بوجهه الی الأرض و أومأ بیده الی السماء و هو یقول:جلال ربی جلال ربی،ثلاث مرات.قال:یا محمد قلت:لبیک یا رب قال:فیم اختصم الملأ الأعلی؟قلت سبحانک لا علم لی إلا ما علمتنی.

قال:فوضع یده بین ثدیی فوجدت بردها بین کتفی.قال:فلم یسألنی عما مضی و لا عما بقی الا علمته فقال:یا محمد فیم اختصم الملأ الأعلی؟قال:قلت:فی الدرجات و الکفارات و الحسنات فقال:یا محمد انه قد انقضت نبوتک و انقطع أکلک فمن وصیک؟فقلت:یا رب انی قد بلوت خلقک فلم أر فیهم من خلقک أحد أطوع لی من علی فقال:و لی یا محمد فقلت:

یا رب انی قد بلوت خلقک فلم أر من خلقک أحدا أشد حبا لی من علی بن أبی طالب قال:و لی یا محمد فبشره بأنه آیه الهدی و امام أولیائی و نور لمن أطاعنی و الکلمه الباقیه التی ألزمتها المتقین من أحبه أحبنی و من أبغضه أبغضنی معما أنی أخصه بما لم أخص به أحدا فقلت:یا رب أخی و صاحبی و وزیری و وارثی فقال:انه أمر قد سبق انه مبتلی به معما أنی قد نحلته و نحلته و نحلته و نحلته أربعه أشیاء عقدها بیده و لا یفصح بما عقدها.

أقول:قوله علیه السّلام:«و لکنه أسری به من هذه الی هذه»أی من الکعبه الی البیت المعمور،و لیس المراد به نفی الإسراء الی بیت المقدس و لا تفسیر المسجد الأقصی فی الآیه بالبیت المعمور بل المراد نفی أن ینتهی الإسراء الی بیت المقدس و لا یتجاوزه فقد استفاضت الروایات

بتفسير المسجد الأقصى ببيت المقدس.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم:«فرأيت ربى»أى شاهدته بعين قلبى كما تقدم فى بعض الروايات السابقه و يؤيده تفسير الرؤيه بذلك فى روايات أخر.

و قوله:«و حالت بينى و بينه السبحه»أى بلغت من القرب و الزلفى مبلغا لم يبق بينى و بينه إلا جلاله،و قوله:فوضع يده بين ثديي،الخ؛كنايه عن الرحمه الإلهيه،و محصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب و شك.

و فى الدر المنثور أخرج ابن أبى شيبه و مسلم و ابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:أتيت بالبراق و هو دابه أبيض طويل فوق الحمار و دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين.

ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل:

اخترت الفطره،ثم عرج بنا الى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثانيه فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخاله عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا فرحبا بى و دعوا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثالثه فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟قال:جبريل قيل:و من معك؟قال:محمد،قيل:و قد بعث اليه؟قال:قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف و إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الرابعه فاستفتح جبريل.قيل:من هذا؟قال:جبريل قيل:و من

معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه،قال:قد بعث الیه ففتح لنا فاذا أنا بإدریس فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء الخامسه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء السادسه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بموسی فرحب بی و دعا لی بخیر.

ثم عرج بنا الی السماء السابعه فاستفتح جبریل.قیل:من هذا؟قال:جبریل قیل:و من معک؟قال:محمد،قیل:و قد بعث الیه؟قال:قد بعث الیه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهیم مسند ظهره الی البیت المعمور و إذا یدخله کل یوم سبعون ألف ملک لا یعودون الیه.

ثم ذهب بی الی سدره المنتهی فإذا ورقها فیها کآذان الفیله و اذا ثمرها کالقلال فلما غشیها من أمر اللّه ما غشی تغیرت فما أحد من خلق اللّه یستطیع أن ینعتها من حسنها فأوحی إلیّ ما أوحی و فرض علیّ خمسین صلاه فی کل یوم و لیله فنزلت حتی انتهیت الی موسی فقال:ما فرض ربّک علی امتک؟قلت:خمسین صلاه قال:ارجع الی ربّک فأسأله التخفیف فإن امتک لا تطیق ذلک فانی قد بلوت بنی اسرائیل و خبرتهم.

فرجعت الی ربی فقلت:یا رب خفف عن امتی فحط عنی خمسا فرجعت الی موسی فقلت:

حط عنی خمسا فقال:إن امتک لا یطیقون ذلک فارجع الی ربک فأسأله التخفیف قال:فلم أزل أرجع بین ربی و موسی حتی قال:یا محمد إنهن خمس صلوات لکل یوم و لیله لکل صلاه عشر فتلک خمسون صلاه،و من هم بحسنه فلم یعملها کتبت له حسنه فإن عملها کتبت له عشرا، و من هم بسیئه فلم یعملها لم یکتب شیئا فإن عملها کتبت سیئه واحده فنزلت حتی انتهیت الی

موسی فأخبرته فقال:ارجع الی ربک فاسأله التخفیف فقلت:قد رجعت الی ربی حتی استحیت منه.

أقول:و قد روی الخبر عن أنس بطرق مختلفه منها ما عن البخاری و مسلم و ابن جریر و ابن مردویه من طریق شریک بن عبد اللّه بن أبی نمر عن أنس قال:لیله أسری برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم من مسجد الکعبه جاءه ثلاثه نفر قبل أن یوحی الیه و هو نائم فی المسجد الحرام فقال أولهم:أیهم هو؟فقال أوسطهم:هو خیرهم فقال أحدهم خذوا خیرهم فکانت تلک اللیله فلم یرهم حتی أتوه لیله اخری فیما یری قلبه و تنام عیناه و لا ینام قلبه و کذلک الأنبیاء تنام أعینهم و لا ینام قلوبهم فلم یکلموه حتی احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبریل فشق جبریل ما بین نحره الی لبته حتی فرغ من صدره و جوفه فغسله من ماء زمزم بیده حتی أنقی جوفه ثم أتی بطست من ذهب محشوا إیمانا و حکمه فحشا به صدره و لغادیده یعنی عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الی سماء الدنیا ثم ساق الحدیث نحوا مما تقدم.

و الذی وقع فیه من شق بطن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و غسله و إنقائه ثم حشوه إیمانا و حکمه حال مثالیه شاهدها و لیس بالأمر المادی کما ربما یزعم،و یشهد به حشوه إیمانا و حکمه و أخبار المعراج مملوءه من المشاهدات المثالثه و التمثلات الروحیه،و قد ورد هذا المعنی فی عده من أخبار المعراج المرویه من طرق القوم و لا ضیر فیه کما لا یخفی.

و ظاهر الروایه أن معراجه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان قبل البعثه و أنه کان فی المنام أما کونه قبل البعثه فیدفعه معظم الروایات الوارده فی الإسراء و هی أکثر من أن تحصی و قد اتفق علی ذلک علماء هذا الشأن.

علی أن الحدیث نفسه یدفع کون الإسراء قبل البعثه و قد اشتمل علی فرض الصلوات و کونها أولا خمسین ثم سؤال التخفیف بإشاره من موسی علیه السّلام و لا معنی للفرض قبل النبوه فمن الحری أن یحمل صدر الحدیث علی أن الملائکه أتوه أولا قبل أن یوحی الیه ثم ترکوه ثم جاءوه

ليله اخرى بعد بعثته و قد ورد فى بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه فى المسجد ليله أسرى به هم حمزه بن عبد المطلب و جعفر و على ابنا أبى طالب.

و أما ما وقع فيه من كون ذلك فى المنام فيمكن-على بعد-أن يكون ناظرا الى ما ذكر فيه من حديث الشق و الغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته فى المنام كما يدل عليه ما يأتى من الروايات.

و فى الدر المنثور أيضا أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن معاويه بن أبى سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم قال:كانت رؤيا من اللّه صادقه.

اقول:و ظاهر الآيه الكريمه: سُبْحٰانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ -الى قوله- لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰا يرده،و كذا آيات صدر سوره النجم و فيها مثل قوله: مٰا زٰاغَ الْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ لَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكُبْرىٰ على أن الآيات فى سياق الامتنان و فيها ثناء على اللّه سبحانه بذكر بديع رحمته و عجيب قدرته،و من الضرورى أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الرؤيا يراها الصالح و الطالح و ربما يرى الفاسق الفاجر ما هو ابدع مما يراه المؤمن المتقى و الرؤيا لا تعد عند عامه الناس إلاّ نوعا من التخيل لا يستدل به على شيء من القدره و السلطنه بل غايه ما فيها أن يتفاءل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيتخاف شرها.

و فيه أخرج ابن اسحاق و ابن جرير عن عائشه قالت:ما فقدت جسد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لكن اللّه أسرى بروحه.

اقول:و يرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفى فى سقوط الروايه اتفاق كلمه الرواه و أرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجره بزمان و أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلم بنى بعائشه فى المدينه بعد الهجره بزمان لم يختلف فى ذلك اثنان و الآيه أيضا صريحه فى إسرائه صلّى اللّه عليه و آله و سلم من المسجد الحرام.

و فيه أخرج الترمذى و حسّنه و الطبرانىّ و ابن مردويه عن ابن مسعود:قال:قال رسول

اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لقیت ابراهیم لیله اسری بی فقال:یا محمد اقرأ امتک منی السلام و أخبرهم أن الجنه طیبه التربه عذبه الماء و أنها قیعان و أن غراسها سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أکبر لا حول و لا قوه إلاّ باللّه.

و فیه أخرج الطبرانیّ عن عائشه قالت:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لمّا اسری بی الی السماء ادخلت الجنه فوقعت علی شجره من أشجار الجنه لم أر فی الجنه أحسن منها و لا أبیض ورقا و لا أطیب ثمره فتناولت ثمره من ثمرها فأکلتها فصارت نطفه فی صلبی فلما هبطت الی الأرض واقعت خدیجه فحملت بفاطمه فإذا أنا اشتقت الی ریح الجنه شممت ریح فاطمه.

و فی تفسیر القمیّ عن أبیه عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبی عبیده عن الصادق علیه السّلام قال:کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یکثر تقبیل فاطمه فأنکرت ذلک عائشه فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:یا عائشه إنی لمّا اسری بی الی السماء دخلت الجنه فأدنانی جبرئیل من شجره طوبی و ناولنی من ثمارها فأکلته فحول اللّه ذلک ماء فی ظهری فلما هبطت الی الأرض واقعت خدیجه فحملت بفاطمه فما قبلتها قط إلاّ وجدت رائحه شجره طوبی منها.

و فی الدر المنثور أخرج الطبرانی فی الأوسط عن ابن عمر أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم لما اسری به الی السماء اوحی الیه بالأذان فنزل به فعلمه جبریل.

و فیه أخرج ابن مردویه عن علی أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم علم الأذان لیله اسری به و فرضت علیه الصلاه.

و فی العلل بإسناده عن إسحاق بن عمار قال:سألت أبا الحسن موسی بن جعفر علیه السّلام کیف صارت الصلاه رکعه و سجدتین؟و کیف إذا صارت سجدتین لم تکن رکعتین؟فقال:إذا سألت عن شیء ففرغ قلبک لتفهم.إن أول صلاه صلاها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم إنما صلاها فی السماء بین یدی اللّه تبارک و تعالی قدام عرشه جل جلاله.

و ذلک أنه لما اسری به و صار عند عرشه تبارک و تعالی قال:یا محمد ادن من صاد

فاغتسل مساجدک و طهرها و صل لربک فدنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی حیث أمره اللّه تبارک و تعالی فتوضأ فأسبغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارک و تعالی قائما فأمره بافتتاح الصلاه ففعل.

فقال:یا محمد اقرأبسم اللّه الرحمن الرحیم الحمد للّه رب العالمین الی آخرها ففعل ذلک ثم أمره أن یقرأ نسبه ربه تبارک و تعالی بسم اللّه الرحمن الرحیم قل هو اللّه أحد اللّه الصمد ثم أمسک عنه القول فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:قل هو اللّه أحد اللّه الصمد فقال:قل:لم یلد و لم یولد و لم یکن له کفوا أحد فأمسک عنه القول فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:کذلک اللّه ربی کذلک اللّه ربی.

فلما قال ذلک قال:ارکع یا محمد لربک فرکع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقال له و هو راکع:قل سبحان ربی العظیم و بحمده ففعل ذلک ثلاثا،ثم قال:ارفع رأسک یا محمد ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فقام منتصبا بین یدی اللّه فقال:اسجد یا محمد لربک فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا فقال:قل سبحان ربی الأعلی و بحمده ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثلاثا فقال:استو جالسا یا محمد ففعل فلما استوی جالسا ذکر جلال ربه جل جلاله فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أیضا ثلاثا فقال:انتصب قائما ففعل فلم یری ما کان رأی من عظمه ربه جل جلاله.

فقال له:اقرأ یا محمد و افعل کما فعلت فی الرکعه الاولی ففعل ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم سجد سجده واحده فلما رفع رأسه ذکر جلال ربه تبارک و تعالی فخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أیضا ثم قال له:ارفع رأسک ثبتک اللّه و اشهد أن لا إله إلاّ و أن محمدا رسول اللّه و أن الساعه آتیه لا ریب فیها و أن اللّه یبعث من فی القبور اللهم صل علی محمد و آل محمد کما صلیت و بارکت و ترحمت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنک حمید مجید اللهم تقبل شفاعته فی امته و ارفع درجته ففعل.

فقال:یا محمد و استقبل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم ربه تبارک و تعالی وجهه مطرقا فقال:السلام

علیک فأجابه الجبار جل جلاله فقال:و علیک السّلام یا محمد بنعمتی قویتک علی طاعتی و بعصمتی اتخذتک نبیا و حبیبا.

ثم قال أبو الحسن علیه السّلام:و إنما کانت الصلاه التی امر بها رکعتین و سجدتین و هو صلّی اللّه علیه و آله و سلم إنما سجد سجدتین فی کل رکعه کما أخبرتک من تذکره لعظمه ربه تبارک و تعالی فجعله اللّه عزّ و جل فرضا.

قلت:جعلت فداک و اما صاد الذی امر أن یغتسل منه؟فقال:عین تنفجر من رکن من أرکان العرش یقال له:ماء الحیاه و هو ما قال اللّه عزّ و جل: ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ إنما أمره أن یتوضأ و یقرأ و یصلی.

أقول:و فی معناها روایات أخر.

و فی الکافی بإسناده عن علی بن أبی حمزه قال:سأل أبو بصیر أبا عبد اللّه علیه السّلام و أنا حاضر فقال:جعلت فداک کم عرج برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم؟فقال:مرتین فأوقفه جبرئیل موقفا فقال له:

مکانک یا محمد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملک قط و لا نبی إن ربک یصلی فقال:یا جبرئیل و کیف یصلی؟فقال:یقول:سبوح قدوس أنا رب الملائکه و الروح سبقت رحمتی غضبی فقال:اللهم عفوک عفوک.

قال:و کان کما قال اللّه:قاب قوسین أو أدنی فقال له أبو بصیر:جعلت فداک و ما قاب قوسین أو أدنی؟قال:ما بین سیتها الی رأسها فقال:بینهما حجاب یتلألأ-و لا-أعلمه إلاّ-و قد قال:من زبرجد فنظر فی مثل سم الإبره الی ما شاء اللّه من نور العظمه.الحدیث.

أقول:و آیات صدر سوره النجم تؤید ما فی الروایه من وقوع المعراج مرتین ثم الاعتبار یساعد علی ما فی الروایه من صلاته تعالی فإن الأصل فی معنی الصلاه المیل و الانعطاف،و هو من اللّه سبحانه الرحمه و من العبد الدعاء کما قیل،و اشتمال ما أخبر به جبرئیل من صلاته تعالی علی قوله:«سبقت رحمتی غضبی»یؤید ما ذکرناه و لذلک أیضا أوقفه جبرئیل فی الموقف

الذی أوقفه و ذکر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله و ذلک أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن یکون الموقف هو الحد الفاصل بین الخلق و الخالق و آخر ما ینتهی الیه الانسان من الکمال فهو الحد الذی یظهر فیه الرحمه الإلهیه و تفاض علی ما دونه و لهذا اوقف صلّی اللّه علیه و آله و سلم لمشاهدته.

و فی المجمع-و هو ملخص من الروایات-أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال:أتانی جبرائیل و أنا بمکه فقال:قم یا محمد فقمت معه و خرجت الی الباب فإذا جبرئیل و معه میکائیل و إسرافیل فأتی جبرائیل بالبراق و کان فوق الحمال و دون البغل خده کخد الإنسان و ذنبه کذب البقر و عرفه کعرف الفرس و قوائمه کقوائم الإبل علیه رحل من الجنه و له جناحان من فخذیه خطوه منتهی طرفه فقال:ارکب فرکبت و مضیت حتی انتهیت الی بیت المقدس.

ثم ساق الحدیث الی أن قال:فلما انتهیت الی بیت المقدس إذا ملائکه نزلت من السماء بالبشاره و الکرامه من عند رب العزه و صلیت فی بیت المقدس،و فی بعضها-بشر لی إبراهیم- فی رهط من الأنبیاء ثم وصف موسی و عیسی ثم أخذ جبرائیل بیدی إلی الصخره فأقعدنی علیها فإذا معراج الی السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا.

فصعدت الی السماء الدنیا و رأیت عجائبها و ملکوتها و ملائکتها یسلمون علی ثم صعد بی جبرائیل الی السماء الثانیه فرأیت فیها عیسی بن مریم و یحیی بن زکریا.ثم صعد بی الی السماء الثالثه فرأیت فیها یوسف.ثم صعد بی الی السماء الرابعه فرأیت فیها ادریس.ثم صعد بی الی السماء الخامسه فرأیت فیها هارون ثم صعد بی الی السماء السادسه فإذا فیها خلق کثیر یموج بعضهم فی بعض و فیها الکروبیون ثم صعد بی الی السماء السابعه فأبصرت فیها خلقا و ملائکه -و فی حدیث أبی هریره رأیت فی المساء السادسه موسی،و رأیت فی السماء السبعه ابراهیم.

قال:ثم جاوزناها متصاعدین الی أعلی علیین-و وصف ذلک الی أن قال-ثم کلمنی ربی و کلمته،و رأیت الجنه و النار،و رأیت العرش و سدره المنتهی ثم رجعت الی مکه فلما أصبحت حدثت به الناس فکذبنی أبو جهل و المشرکون و قال مطعم بن عدی:أ تزعم أنک سرت

مسیره شهرین فی ساعه؟أشهد أنک کاذب.

قالوا:ثم قالت قریش:أخبرنا عما رأیت فقال:مررت بعیر بنی فلان و قد أضلوا بعیرا لهم و هم فی طلبه و فی رحلهم قعب (۱)مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطیته فاسألوهم هل وجدوا الماء فی القدح؟قالوا:هذه آیه واحده.

قال:و مررت بعیر بنی فلان فنفرت بکره فلان فانکسرت یدها فاسألوهم عن ذلک فقالوا:هذه آیه اخری قالوا:فأخبرنا عن عیرنا قال:مررت بها بالتنعیم و بین لهم أحمالها و هیآتها و قال:یقدمها جمل أورق علیه فزارتان محیطتان و تطلع علیکم عند طلوع الشمس قالوا:هذه آیه اخری.

ثم خرجوا یشتدون نحو التیه و هم یقولون:لقد قضی محمد بیننا و بینه قضاء بینا،و جلسوا ینتظرون متی تطلع الشمس فیکذبوه؟فقال قائل:و اللّه إن الشمس قد طلعت،و قال آخر:

و اللّه هذه الإبل قد طلعت یقدمها بعیر أورق فبهتوا و لم یؤمنوا.

و فی تفسیر العیاشی عن هشام بن الحکم عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صلی العشاء الآخره و صلی الفجر فی اللیله التی اسری به بمکه.

أقول:و فی بعض الأخبار أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم صلی المغرب بالمسجد الحرام ثم اسری به و لا منافاه بین الروایتین و کذا لا منافاه بین کونه صلی المغرب او العشاء الآخره و الفجر بمکه و بین کون الصلوات الخمس فرضت علیه فی السماء لیله الإسراء فإن فرض أصل الصلاه کان قبل ذلک، و أما أنها کم رکعه کانت فغیر معلوم غیر أن الآثار تدل علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یقیم الصلاه منذ بعثه اللّه نبیا و فی سوره العلق: أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهیٰ عَبْداً إِذٰا صَلّٰی و قد روی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان یصلی بعلی و خدیجه علیهما السّلام بالمسجد الحرام قبل أن یعلن دعوته بمده.

۱- ۱) .القعب:القدح الضخم الغلیظ.

و فی الکافی عن العامری عن أبی جعفر علیه السّلام قال:لما عرج برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم نزل بالصلاه عشر رکعات رکعتین رکعتین فلما ولد الحسن و الحسین علیهما السّلام زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم سبع رکعات شکرا للّه فأجاز اللّه له ذلک و ترک الفجر لم یزد فیها لأنه یحضرها ملائکه اللیل و ملائکه النهار فلما أمره اللّه بالتقصیر فی السفر وضع عن امته ست رکعات و ترک المغرب لم ینقص منه شیئا، و إنما یجب السهو فیما زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فمن شک فی أصل الفرض فی الرکعتین الأولیین استقبل صلاته.

و روی الصدوق فی الفقیه باسناده عن سعید بن المسیب أنه سأل علی بن الحسین علیه السّلام فقال:متی فرضت الصلاه علی المسلمین علی ما هی الیوم علیه؟فقال:بالمدینه حین ظهرت الدعوه و قوی الإسلام و کتب اللّه علی المسلمین الجهاد زاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الصلاه سبع رکعات فی الظهر رکعتین و فی العصر رکعتین و فی المغرب رکعه و فی العشاء الآخره رکعتین، و أقر الفجر علی ما فرضت بمکه.الحدیث.

و فی الدر المنثور أخرج أحمد و النسائی و البزار و الطبرانی و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل بسند صحیح عن ابن عباس قال:قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:لما اسری بی مرت بی رائحه طیبه فقلت:یا جبریل ما هذه الرائحه الطیبه؟قال:ماشطه بیت فرعون و أولادها کانت تمشطها فسقط المشط من یدها فقالت:بسم اللّه فقالت ابنه فرعون:أبی؟قال:بلی ربی و ربک و رب أبیک قالت:أو لک رب غیر أبی؟قال:نعم قالت:فأخبر بذلک أبی؟قال:نعم.

فأخبرته فدعاها فقال:أ لک رب غیری؟قالت:نعم ربی و ربک اللّه الذی فی السماء فأمر ببقره من نحاس فأحمیت ثم أمر بها لتلقی فیها و أولادها.قالت:إن لی الیک حاجه قال:و ما هی؟قال:تجمع عظامی و عظام ولدی فتدفنه جمیعا.قال:ذلک لک لما لک علینا من حق فألقوا واحدا واحدا حتی بلغ رضیعا فیهم قال:نعی یا أمه و لا تقاعسی فإنک علی الحق فألقیت هی و ولدها.

قال ابن عباس:و تکلم أربعه و هم صغار:هذا و شاهد یوسف و صاحب جریح و عیسی بن مریم.

اقول:و روی من وجه آخر عن ابن عباس عن ابی بن کعب عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و فیه أخبر ابن مردویه عن أنس أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم قال:لیله اسری بی مررت بناس یقرض شفاههم بمقاریض من نار کلما قرضت عادت کما کانت فقلت:من هؤلاء یا جبریل؟ قال:هؤلاء خطباء امتک الذین یقولون ما لا یفعلون.

اقول:و هذا النوع من التمثلات البرزخیه التی تصور الأعمال بنتائجها و العذابات المعده لها کثیره الورود فی أخبار الإسراء و قد تقدم شطر منها فی ضمن الروایات.

و اعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذه یسیره منها و هی کثیره بالغه حد التواتر رواها جم غفیر من الصحابه کأنس بن مالک و شداد بن الأوس و علی بن أبی طالب علیه السّلام و أبو سعید الخدری و أبو هریره و عبد اللّه بن مسعود و عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن عمر و عبد اللّه بن عباس و ابی بن کعب و سمره بن جندب و بریده و صهیب ابن سنان و حذیفه بن الیمان و سهل بن سعد و أبو أیوب الأنصاری و جابر بن عبد اللّه و أبو الحمراء و أبو الدرداء و عروه و ام هانی و ام سلمه و عائشه و أسماء بنت أبی بکر کلهم عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم و روتها جماعه کثیره من رواه الشیعه عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

و قد اتفقت أقوال من یعتنی بقوله من علماء الإسلام علی أن الإسراء کان بمکه قبل الهجره کما یستفاد من قوله تعالی: سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ الآیه؛ و یدل علیه ما اشتملت علیه کثیر من الروایات من إخباره صلّی اللّه علیه و آله و سلم قریشا بذلک صبیحه لیلته و انکارهم ذلک علیه و اخباره ایاهم بأساطین المسجد الاقصی و ما لقیه فی الطریق من العیر و غیر ذلک.

ثم اختلفوا فی السنه التی اسری به صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیها فقیل:فی السنه الثانیه من البعثه کما عن ابن

عباس،و قیل فی السنه الثالثه منها کما فی الخرائج عن علی علیه السّلام.و قیل فی السنه الخامسه او السادسه،و قیل بعد البعثه بعشر سنین و ثلاثه أشهر،و قیل:فی السنه الثانیه عشره منها، و قیل:قبل الهجره بسنه و خمسه أشهر،و قیل:قبلها بسنه و ثلاثه اشهر،و قیل:قبلها بسته أشهر.

و لا یهمنا الغور فی البحث عن ذلک و لا عن الشهر و الیوم الذی وقع فیه الإسراء و لا مستند یصح التعویل علیه لکن ینبغی أن یتنبه أن من الروایات المأثوره عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام ما یصرح بوقوع الإسراء مرتین،و هو المستفاد من آیات سوره النجم حیث یقول سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَهً أُخْریٰ الآیات؛علی ما سیوافیک ان شاء اللّه من تفسیره.

و علی هذا فمن الجائز أن یکون ما وصفه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بعض الروایات من عجیب ما شاهده راجعا الی ما شاهده فی الاسراء الأول و بعض ما وصفه فی بعض آخر راجعا الی الإسراء الثانی،و بعضه مما شاهده فی الإسراءین معا.

ثم اختلفوا فی المکان الذی اسری به صلّی اللّه علیه و آله و سلم منه فقیل:اسری به من شعب أبی طالب و قیل:اسری به من بیت ام هانی و فی بعض الروایات دلاله علی ذلک و قد اولو قوله تعالی:

أَسْریٰ بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ الی أن المراد بالمسجد الحرام الحرم کله مجازا فیشمل مکه،و قیل:اسری به من نفس المسجد الحرام لظهور الآیه الکریمه فیه و لا دلیل علی التأویل.

و من الجائز بالنظر الی ما نبهنا به من کون الإسراء مرتین أن یکون أحد الاسراءین من المسجد الحرام و الآخر من بیت ام هانی،و أما کونه من الشعب فما ذکر فیما ذکر فیه من الروایات أن أبا طالب کان یطلبه طول لیلته و انه اجتمع هو و بنو هاشم فی المسجد الحرام ثم سل سیفه و هدد قریشا إن لم یحصل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم ثم نزوله من السماء و مجیئه الیهم و إخباره قریشا بما رأی کل دلک لا یلائم ما کان هو صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بنو هاشم جمیعا علیه من الشده و البلیه أیام کانوا فی

الشعب.

و على أى حال فالاسراء الذى تعطيه الآيه: سُبْحانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى و هو الاسراء الذى كان الى بيت المقدس كان مبدؤه المسجد الحرام لكمال ظهور الآيه و لا موجب للتأويل.

ثم اختلفوا فى كيفيه الإسراء فقيل:كان اسراؤه عليه السّلام بروحه و جسده من المسجد الحرام الى بيت المقدس ثم منه الى السماوات و عليه الاكثر و قيل:كان بروحه و جسده من مكه الى بيت المقدس ثم بروحه من بيت المقدس الى السماوات و عليه جمع،و قيل:كان بروحه عليه السّلام و هو رؤيا صادقه أراها اللّه نبيه و نسب الى بعضهم.

قال فى المناقب:اختلف الناس فى المعراج فالخوارج ينكرونه،و قال الجهميه:عرج بروحه دون جسمه على طريق الرؤيا،و قالت الإماميه و الزيديه و المعتزله:بل عرج بروحه و بجسمه الى بيت المقدس لقوله تعالى: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى و قال آخرون:بل عرج بروحه و بجسمه الى السماوات روى ذلك عن ابن عباس و ابن مسعود و جابر و حذيفه و انس و عائشه ام هانى.

و نحن لا ننكر ذلك إذا قامت الدلاله،و قد جعل اللّه معراج موسى الى الطور: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ و لإبراهيم الى السماء الدنيا: وَ كَذٰلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ و لعيسى الى الرابعه:

بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ و لإدريس الى الجنه: وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰاناً عَلِيًّا و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم: فَكٰانَ قٰابَ قَوْسَيْنِ و ذلك لعلو همته.انتهى.

و الذى ينبغى أن يقال ان اصل الاسراء مما لا سبيل الى انكاره فقد نص عليه القرآن و تواترت عليه الاخبار عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الأئمه من اهل بيته عليهم السّلام.

و اما كيفيه الإسراء فظاهر الآيه و الروايات بما يحتف بها من القرائن ظهورا لا يقبل الدفع أنه اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بروحه و جسده جميعا،و اما العروج الى

السماوات فظاهر آيات سوره النجم كما سيأتی ان شاء اللّه فی تفسيرها و صريح الروايه علی كثرها البالغه وقوعه،و لا سبيل الی إنكاره من اصله غير انه من الجائز ان يقال بكونه بروحه لكن لا علی النحو الذی يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام و من نوع ما يراه النائم من الرؤی،و لو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من اظهار المقدره و الكرامه معنی،و لا لذاك الإنكار الشديد الذی اظهرته قريش عند ما قص عليه السّلام لهم القصه وجه،و لا لما اخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك-إن كان-بعروجه صلّی اللّه عليه و آله و سلم بروحه الشريفه الی ما وراء هذا العالم المادی مما يسكنه الملائكه المكرمون و ينتهی اليه الأعمال و يصدر منه الأقدار و رأی عند ذلك من آيات ربه الكبری و تمثلت له حقائق الأشياء و نتائج الأعمال و شاهد ارواح الأنبياء العظام و فاوضهم و لقی الملائكه الكرام و سامرهم،و رأی من الآيات الإلهيه ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش و الحجب و السرادقات.

و القوم لذهابهم الی أصاله الوجود المادی و قصر الوجود غير المادی فيه تعالی لما وجدوا الكتاب و السنه يصفان امورا غير محسوسه بتمثيلها فی خواص الأجسام المحسوسه كالملائكه الكرام و العرش و الكرسی و اللوح و القلم و الحجب و السرادقات حملوا ذلك علی كونها أجساما ماديه لا يتعلق بها الحس و لا يجری فيها احكام الماده،و حملوا ايضا ما ورد من التمثيلات فی مقامات الصالحين و معارج القرب و بواطن صور المعاصی و نتائج الأعمال و ما يناظر ذلك الی نوع من التشبيه و الاستعاره فوقعوا فی ورطه السفسطه بتغليط الحس و اثبات الروابط الجزافيه بين الأعمال و نتائجها و غير ذلك من المحاذير.

و لذلك ايضا لما نفی النافون منهم كون عروجه صلّی اللّه عليه و آله و سلم الی السماوات بجسمه المادی اضطروا الی القول بكونه فی المنام و هو عندهم خاصه ماديه للروح المادی و اضطروا لذلك الی تأويل الآيات و الروايات بما لا تلائمه و لا واحده منها.

بحث آخر:

قال فی مجمع البیان:فأما الموضع الذی أسری الیه این کان؟فان الاسراء الی بیت المقدس،و قد نص به القرآن و لا یدفعه مسلم،و ما قاله بعضهم:ان ذلک کان فی النوم فظاهر البطلان اذ لا معجز یکون فیه و لا برهان.

و قد وردت روایات کثیره فی قصه المعراج فی عروج نبینا صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء و رواها کثیر من الصحابه مثل ابن عباس و ابن مسعود و انس و جابر بن عبد اللّه و حذیفه و عائشه و ام هانی و غیرهم عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و زاد بعضهم و نقص بعض و تنقسم جملتها الی اربعه اوجه.

أحدهما:ما یقطع علی صحتها لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته.

و ثانیها:ما ورد فی ذلک مما یجوزه العقول و لا یأباه الاصول فنحن نجوزه ثم نقطع علی أن ذلک کان فی یقظته دون منامه.

و ثالثها:ما یکون ظاهره مخالفا لبعض الاصول إلاّ انه یمکن تأویلها علی وجه یوافق المعقول فالأولی تأویله علی وجه یوافق الحق و الدلیل.

و رابعها:ما لا یصح ظاهره و لا یمکن تأویله إلاّ علی التعسف البعید فالأولی أن لا نقبله.

فأما الأول المقطوع به فهو انه أسری به علی الجمله،و أما الثانی فمنه ما روی انه طاف فی السماوات و رأی الانبیاء و العرش و سدره المنتهی و الجنه و النار و نحو ذلک.و أما الثالث فنحو ما روی انه رأی قوما فی الجنه یتنعمون فیها و قوما فی النار یعذبون فیها فیحمل علی انه رأی صفتهم او أسمائهم،و ما الرابع فنحو ما روی انه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کلم اللّه جهره و رآه و قعد معه علی سریره و نحو ذلک مما یوجب ظاهره التشبیه،و اللّه سبحانه متقدس عن ذلک،و کذلک ما روی انه شق بطنه و غسله لأنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم کان طاهرا مطهرا من کل سوء و عیب و کیف یطهر القلب و ما فیه من الاعتقاد بالماء.انتهی.

و ما ذکره من التقسیم فی محله غیر ان غالب ما اورده من الامثله للأقسام منظور فیه فما

ذکره من الطواف و رؤیه الانبیاء و نحو ذلک تمثلات برزخیه او روحیه و کذا ما ذکره من حدیث شق البطن و الغسل تمثل برزخی لا ضیر فیه و أحادیث الأسراء مملوءه من ذکر هذا النوع من التمثل کتمثل الدنیا فی هیئه مرأه علیها من کل زینه الدنیا،و تمثل دعوه الیهودیه و النصرانیه و ما شاهده من انواع النعیم و العذاب لأهل الجنه و النار و غیر ذلک.

و مما یؤید هذا الذی ذکرناه ما فی ألسنه هذه الاخبار من الاختلاف فی بیان حقیقه واحده کما فی بعضها من صعوده صلّی اللّه علیه و آله و سلم الی السماء بالبراق و فی آخر علی جناح جبریل و فی آخر بمعراج منصوب علی صخره بیت المقدس الی السماء الی غیر ذلک مما یعثر علیه الباحث المتدبر فی خلال هذه الروایات.

فهذه و أمثالها ترشد الی ان هذه البیانات موضوعه علی التمثیل او التمثل الروحی،و وقوع هذه التمثیلات فی ظواهر الکتاب و السنه مما لا سبیل الی انکاره البته.

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۲ الی ۸]

اشاره

وَ آتَیْنٰا مُوسَی اَلْکِتٰابَ وَ جَعَلْنٰاهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ أَلاّٰ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِی وَکِیلاً (۲) ذُرِّیَّهَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ کٰانَ عَبْداً شَکُوراً (۳) وَ قَضَیْنٰا إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ فِی اَلْکِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِی اَلْأَرْضِ مَرَّتَیْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا کَبِیراً (۴) فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا بَعَثْنٰا عَلَیْکُمْ عِبٰاداً لَنٰا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ فَجٰاسُوا خِلاٰلَ اَلدِّیٰارِ وَ کٰانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنٰا لَکُمُ اَلْکَرَّهَ عَلَیْهِمْ وَ أَمْدَدْنٰاکُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِینَ وَ جَعَلْنٰاکُمْ أَکْثَرَ نَفِیراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ اَلْآخِرَهِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ وَ لِیَدْخُلُوا اَلْمَسْجِدَ کَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ لِیُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِیراً (۷) عَسیٰ رَبُّکُمْ أَنْ یَرْحَمَکُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا وَ جَعَلْنٰا جَهَنَّمَ لِلْکٰافِرِینَ حَصِیراً (۸)

ص: ۶۷۷

بيان:

قوله تعالى: وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً الكتاب كثيرا ما يطلق فى كلامه تعالى على مجموع الشرائع المكتوبه على الناس القاضيه بينهم فيما اختلفوا فيه من الاعتقاد و العمل ففيه دلاله على اشتماله على الوظائف الاعتقاديه و العمليه التى عليهم ان يأخذوها و يتلبسوا بها،و لعله لذلك قيل: «وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ» و لم يقل التوراه ليدل به على اشتماله على شرائع مفترضه عليهم.

و بذلك يظهر ان قوله: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ» بمنزله التفسير لإيتائه الكتاب.

و كونه هدى اى هاديا لهم هو بيانه لهم شرائع ربهم التى لو أخذوها و عملوا بها لاهتدوا الى الحق و نالوا سعاده الدارين.

و قوله: أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ان:فيه للتفسير و مدخولها محصل ما يشتمل عليه الكتاب الذى جعل هدى لهم فيئول المعنى الى أن محصل ما كان الكتاب يبينه لهم و يهديهم اليه هو نهيه إياهم ان يشركوا باللّه شيئا و يتخذوا من دونه وكيلا فقوله: «أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً» تفسيرا لقوله: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ» إن كان ضمير «أَلاّ تَتَّخِذُوا»

ص: ۶۷۸

عائدا اليهم كما هو الظاهر،و تفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه الى موسى و بنى إسرائيل جميعا.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كٰانَ عَبْداً شَكُوراً تطلق الذريه على الأولاد بعنايه كونهم صغارا ملحقين بآبائهم،و هى-على ما يهدى اليه السياق-منصوبه على الاختصاص و يفيد الاختصاص عنايه خاصه من المتكلم به فى حكمه فهو بمنزله التعليل كقوله تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (الأحزاب/٣٣)أى ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوه.

فقوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ يفيد فائده التعليل بالنسبه الى ما تقدمه كما أن قوله: «إِنَّهُ كٰانَ عَبْداً شَكُوراً» يفيد فائده التعليل بالنسبه اليه.

فيتلخص معنى الآيتين فى مثل قولنا:انا جزينا نوحا بما كان عبدا شكورا لنا أنا ابقينا دعوته و اجرينا سنته و طريقته فى ذريه من حملناهم معهم فى السفينه و من ذلك انا انزلنا على موسى الكتاب و جعلناه هدى لبنى اسرائيل.

و يظهر من قوله فى الآيه: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ» و من قوله: «وَ جَعَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِينَ» ان الناس ذريه نوح عليه السّلام من جهه الابن و البنت معا،و لو كانت الذريه منتهيه الى ابنائه فقط و كان المراد بقوله: «مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ» ابناؤه فقط كان الأحسن بل المتعين ان يقال:ذريه نوح و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ قَضَيْنٰا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ فِي الْكِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً» قال الراغب فى المفردات:القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا،و كل واحد منهما على وجهين:الهى و بشرى فمن القول الإلهى قوله: وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ اى امر بذلك،و قال: وَ قَضَيْنٰا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ فِي الْكِتٰابِ فهذا قضاء بالاعلام و الفصل فى الحكم اى اعلمناهم و اوحينا اليهم وحيا جزما و على هذا: وَ قَضَيْنٰا إِلَيْهِ

ذٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دٰابِرَ هٰؤُلاٰءِ مَقْطُوعٌ .

و من الفعل الإلهى قوله: وَ اللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ و قوله: فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ اشاره الى ايجاده الابداعى و الفراغ منه نحو:

بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

قال:و من القول البشرى نحو قضى الحاكم بكذا فان حكم الحاكم يكون بالقول،و من الفعل البشرى: فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ انتهى موضع الحاجه.

و العلو هو الارتفاع و هو فى الآيه كنايه عن الطغيان بالظلم و التعدى و يشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير،و فى هذا المعنى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً .

و معنى الآيه و أخبرنا و أعلمنا بنى اسرائيل إخبارا قاطعا فى الكتاب و هو التوراه:اقسم و احق هذا القول انكم شعب اسرائيل ستفسدون فى الارض و هى ارض فلسطين و ما يتبعها مرتين مره بعد مره و تعلون علوا كبيرا و تطغون طغيانا عظيما.

قوله تعالى: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا بَعَثْنٰا عَلَيْكُمْ عِبٰاداً لَنٰا الخ؛قال الراغب:

البؤس و البأس و البأساء الشده و المكروه الا ان البؤس فى الفقر و الحرب اكثر و البأس و البأساء فى النكايه نحو و اللّه اشد بأسا و اشد تنكيلا.انتهى موضع الحاجه.

و فى المجمع:الجوس التخلل فى الديار يقال:تركت فلان يجوس بنى فلان و يجوسهم و يدوسهم اى يطؤهم،قال ابو عبيد:كل موضع خالطته و وطأته فقد حسته و جسته قال:

و قيل:الجوس طلب الشىء باستقصاء.انتهى.

و قوله: فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ أُولاٰهُمٰا تفريع على قوله: «لَتُفْسِدُنَّ» الخ؛و ضمير التثنيه راجع الى المرتين و هما الإفسادتان فالمراد بها الإفساده الاولى،و المراد بوعد اولاهما ما

وعدهم اللّه من النكال و النقمه على افسادهم فالوعد بمعنى الموعود،و مجيء الوعد كنايه عن وقت انجازه،و يدل ذلك على انه وعدهم على افسادهم مرتين وعدين و لم يذكر انجازا فكأنه قيل:لتفسدن فى الأرض مرتين و نحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المره الاولى، الخ؛كل ذلك معونه السياق.

و قوله: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ اى انهضناهم و ارسلناهم اليكم ليذلوكم و ينتقموا منكم،و الدليل على كون البعث الانتقام و الإذلال قوله: أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ الخ.

و قوله: وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً تأكيد لكون القضاء حتما لازما و المعنى فإذا جاء وقت الوعد الذى وعدناه على المره الاولى من افسادكم مرتين بعثنا و انهضنا عليكم من الناس عبادا لنا اولى بأس و شده شديده فدخلوا بالقهر و الغلبه ارضكم و توسطوا فى دياركم فأذلوكم و أذهبوا استقلالكم و علوكم و سؤددكم و كان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً قال فى المجمع:الكره معناه الرجعه و الدوله،و النفير العدد من الرجال قال الزجاج:و يجوز أن يكون جمع نفر كما قيل:العبيد و الضئين و المعيز و الكليب، و نفر الانسان و نفره و نفيره و نافرته رهطه الذين ينصرونه و ينفرون معه انتهى.

و معنى الآيه ظاهر،و ظاهرها أن بنى اسرائيل ستعود الدوله لهم على أعدائهم بعد وعد المره الأولى فيغلبونهم و يقهرونهم و يتخلصون من استعبادهم و استرقاقهم و أن هذه الدوله سترجع اليهم تدريجا فى برهه معتد بها من الزمان كما هو لازم امدادهم بأموال و بنين و جعلهم اكثر نفيرا.

و فى قوله فى الآيه التاليه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها اشعار بل دلاله بمعونه السياق ان هذه الواقعه و هى رد الكره لبنى اسرائيل على اعدائهم انما

كانت لرجوعهم الى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال اساءتهم قبل ذلك كما ان إنجاز وعد الآخره انما كان لرجوعهم ثانيا الى الإساءه بعد رجوعهم هذا الى الإحسان.

قوله تعالى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا اللام فى «لِأَنْفُسِكُمْ» و «فَلَهَا» للاختصاص اى ان كلا من احسانكم و إساءتكم يختص بأنفسكم دون ان يلحق غيركم،و هى سنه اللّه الجاريه ان العمل يعود اثره و تبعته الى صاحبه ان خيرا و ان شرا فهو كقوله: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (البقره١۴١/).

فالمقام مقام بيان ان اثر العمل لصاحبه خيرا كان او شرا،و ليس مقام بيان ان الإحسان ينفع صاحبه و الإساءه تضر حتى يقال:و إن اسأتم فعليها كما قيل: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره٢٨۶/).

قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً التتبير الإهلاك من التبار بمعنى الهلاك و الدمار.

و قوله: لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ من المساءه يقال:ساء زيد فلانا اذا احزنه و هو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز،و اللام للغايه و التقدير بعثناهم ليسوؤا وجوهكم بظهور الحزن و الكأبه فيها و بدو آثار الذله و المسكنه و صغار الاستعبار عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع و السبى و النهب.

و قوله: وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى-بيت المقدس-و لا يعبأ بما ذكره بعضهم ان المراد به جميع الأرض المقدسه مجازا،و فى الكلام دلاله أولا انهم فى وعد المره الاولى ايضا دخلوا المسجد عنوه و إنما لم يذكر قبلا للإيجاز،و ثانيا ان دخولهم المسجد انما كان للهتك و التخريب،و ثالثا يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاه بنى اسرائيل و الانتقام منهم هم الذين بعثوا

علیهم اولا.

و قوله: وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً ای لیهلکوا الذی غلبوا علیه إهلاکا فیقتلوا النفوس و یحرقوا الاموال و یهدموا الابنیه و یخربوا البلاد،و احتمل ان یکون ما مصدریه بحذف مضاف و تقدیر الکلام:و لیتبروا مده علوهم تتبیرا،و المعنی الاول اقرب الی الفهم و أوفق بالسیاق.

و المقایسه بین الوعدین اعنی قوله: «بَعَثْنٰا عَلَيْكُمْ عِبٰاداً لَنٰا» الخ؛و قوله: «لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ» الخ؛یعطی ان الثانی کان اشد علی بنی اسرائیل و امر و قد کادوا ان یفنوا و یبیدوا فیه عن آخرهم و کفی فی ذلک قوله تعالی: «وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيراً» .

و المعنی فإذا جاء وعد المره الآخره و هی الثانیه من الإفسادتین بعثناهم لیسوؤا وجوهکم بظهور الحزن و الکأبه و بدو الذله و المسکنه و لیدخلوا المسجد الاقصی کما دخلوه اول مره و لیهلکوا الذی غلبوا علیه و یفنوا الذی مروا علیه اهلاکا و افناء.

قوله تعالی: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا وَ جَعَلْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ حَصِيراً الحصیر من الحصر و هو-علی ما ذکروه- التضییق و الحبس قال تعالی: وَ احْصُرُوهُمْ (التوبه/۵)ای ضیقوا علیهم.

و قوله: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ای بعد البعث الثانی علی ما یفیده السیاق و هو ترج للرحمه علی تقدیر ان یتوبوا و یرجعوا الی الطاعه و الإحسان بدلیل قوله: وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ای و ان تعودوا الی الافساد و العلو،بعد ما رجعتم عنه و رحمکم ربکم نعد الی العقوبه و النکال،و جعلنا جهنم للکافرین حصیرا و مکانا حابسا لا یستطیعون منه خروجا.

و فی قوله: عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ التفات من التکلم مع الغیر الی الغیبه و کأن الوجه فیه الاشاره الی ان الأصل الذی یقتضیه ربوبیته تعالی ان یرحم عباده ان جروا علی

ما يقتضيه خلقتهم و يرشد اليه فطرتهم الا ان ينحرفوا عن خط الخلقه و يخرجوا عن صراط الفطره،و الايماء الى هذه النكته يوجب ذكر وصف الرب فاحتاج السياق ان يتغير عن التكلم مع الغير الى الغيبه ثم لما استوفيت النكته بقوله: «عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ» عاد الكلام الى ما كان عليه (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۹ الى ۲۲]

اشاره

إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلصّٰالِحٰاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ اَلْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ اَلْإِنْسٰانُ عَجُولاً (۱۱) وَ جَعَلْنَا اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اَللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ اَلنَّهٰارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَ اَلْحِسٰابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنٰاهُ تَفْصِيلاً (۱۲) وَ كُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ كِتٰاباً يَلْقٰاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اِقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ اَلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (۱۴) مَنِ اِهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً (۱۵) وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا فَحَقَّ عَلَيْهَا اَلْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِيراً (۱۶) وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ اَلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۱۷) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْعٰاجِلَةَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرٰادَ اَلْآخِرَةَ وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (۱۹) كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (۲۰) اُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً (۲۱) لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲)

۱- ۱) .الإسراء ۲-۸:بحث روائى فى سيره نوح عليه السّلام؛فساد بنى اسرائيل و علوهم.

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ أى للمله التى هى أقوم كما قال تعالى: قُلْ إِنَّنِى هَدٰانِى رَبِّى إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً (الأنعام/ ١۶١).

و الأقوم أفعل تفضيل و الاصل فى الباب القيام ضد القعود الذى أو أحد أحوال الانسان و اوضاعه،و هو أعدل حالاته يتسلط به على ما يريده من العمل بخلاف القعود و الاستلقاء

ص: ۶٨۵

و الانبطاح و نحوها ثم کنی به عن حسن تصدیه للامور إذا قوی علیها من غیر عجز و عی و أحسن ادارتها للغایه یقال:قام بأمر کذا اذا تولاه و قام علی امر کذا ای راقبه و حفظه و راعی حاله بما یناسبه.

و قد وصف اللّه سبحانه هذه المله الحنیفیه بالقیام کما قال: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ (الروم۳۰/)،و قال:

فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ (الروم۴۳/).

و ذلک لکون هذا الدین مهیمنا علی ما فیه خیر دنیاهم و آخرتهم قیما علی اصلاح حالهم فی معاشهم و معادهم،و لیس الا لکونه موافقا لما تقتضیه الفطره الإنسانیه و الخلقه التی سواه اللّه سبحانه علیها و جهزه بحسبها بما یهدیه الی غایته التی اریدت له،و سعادته التی هیئت لأجله.

قوله تعالی: وَ یُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً الصالحات صفه محذوف موصوفها اختصارا و التقدیر و عملوا الأعمال الصالحات.

و فی الآیه جعل حق للمؤمنین الذین آمنوا و عملوا الصالحات علی اللّه سبحانه کما یؤیده تسمیه ذلک أجرا و یؤیده أیضا قوله فی موضع آخر: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (حم السجده۸/)و لا محذور فی ان یکون لهم علی اللّه حق اذا کان سبحانه هو الجاعل له،و نظیره قوله: ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ (یونس۱۰۳/).

و العنایه فی الآیه ببیان الوعد المنجز کما ان الآیه التالیه تعنی ببیان الوعید المنجز و هو العذاب لمن یکفر بالآخره،و أما من آمن و لم یعمل الصالحات فلیس ممن له علی اللّه أجر منجز و حق ثابت بل أمره مراعی بتوبه أو شفاعه حتی یلحق بذلک معشر الصالحین من المؤمنین قال تعالی: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللّهُ أَنْ یَتُوبَ

عَلَيْهِمْ (التوبه١٠٢/)و قال: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ (التوبه١٠۶/).

نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس٢/)و قال: يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّٰابِتِ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ (إبراهيم٢٧/).

قوله تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً الإعتاد الإعداد و التهيئه من العتاد بالفتح و هو على ما ذكره الراغب ادّخار الشيء قبل الحاجه اليه كالإعداد.

و ظاهر السياق أنه عطف على قوله فى الآيه السابقه: «أَنَّ لَهُمْ» الخ؛فيكون التقدير و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن الذين لا يؤمنون،الخ؛و كون ذلك بشاره للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهى من أعدائهم فى الدين.

و إنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم ايمانهم بالآخره مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد و النبوه لأن الكلام مسوق لبيان الأثر الذى يعقبه الدين القيم،و لا موقع للدين و لا فائده له مع انكار المعاد و ان اعترف بوحدانيه الرب تعالى و غيرها من المعارف،و لذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلا لكل ضلال فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ (ص٢۶/).

قوله تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ عَجُولاً المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء كان بلفظ الدعاء كقوله:اللهم ارزقنى مالا-و ولدا و غير ذلك أو من غير دعاء لفظى بل بطلب و سعى فإن ذلك كله دعاء و سؤال من اللّه سواء اعتقد به الانسان و تنبه له أم لا-إذ لا-معطى و لا-مانع فى الحقيقه إلا اللّه سبحانه،قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن٢٩/)و قال: وَ آتٰاكُمْ

مِنْ كُلِّ مٰا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم/۳۴)فالدعاء مطلق الطلب و الباء فی قوله: «بِالشَّرِّ» و «بِالْخَيْرِ» للصله و المراد أن الانسان يدعو الشر و يسأله دعاء كدعائه الخير و سؤاله و طلبه.

و على هذا فالمراد بكون الإنسان عجولا أنه لا يأخذ بالأناه إذا أراد شيئا حتى يتروى و يتفكر فی جهات صلاحه و فاسده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه و يسعى اليه بل يستعجل فی طلبه بمجرد ما ذكره و تعلق به هواه فربما كان شرا فتضرر به و ربما كان خيرا فانتفع به.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنٰا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً الى آخر الآيه؛قال فی المجمع:مبصره أی مضيئه منيره نيره قال أبو عمرو:

أراد يبصر بها كما يقال:ليل نائم و سر كاتم،و قال الكسائی:العرب تقول:أبصر النهار إذا أضاء.انتهى موضع الحاجه.

الليل و النهار هما النور و الظلمه المتعاقبان على الأرض من جهه مواجهه الشمس بالطلوع و زوالها بالغروب و هما كسائر ما فی الكون من أعيان الأشياء و أحوالها آيتان للّه سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبيه.

و قوله: لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ متفرع على قوله: «وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً» أی جعلناها مضيئه لتطلبوا فيه رزقا من ربكم فإن الرزق فضله و عطاؤه تعالى.

و قوله: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسٰابَ أی لتعلموا بمحو الليل و إبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحدا يعقد عليه،و تعلموا بذلک حساب الأوقات و الآجال،و ظاهر السياق أن علم السنين و الحساب متفرع على جعل النهار مبصرا نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلک و ذلک أنا إنما نتنبه للاعدام و الفقدانات من ناحيه الوجودات لا بالعكس و الظلمه فقدان النور و لو لا النور لم ننتقل لا الى نور و لا الى ظلمه،

و نحن و إن كنا نستمد فى الحساب بالليل و النهار معا و نميز كلا منهما بالآخر ظهرا لكن ما هو الوجودى منهما أعنى النهار هو الذى يتعلق به إحساسنا أولا ثم نتنبه لما هو العدمى منها أعنى الليل بنوع من القياس،و كذلك الحال فى كل وجودى و عدمى مقيس اليه.

قوله تعالى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ قال فى المجمع:الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذى يسنح و يتبرك به و الطائر الذى يبرح فيتشاءم به،و السانح الذى يجعل ميامنه الى مياسرک،و البارح الذى يجعل مياسره الى ميامنک،و الأصل فى هذا أنه إذ كان سانحا أمكن الرامى و إذا كان بارحا لم يمكنه قال أبو زيد:كل ما يجرى من طائر أو ظبى أو غيره فهو عندهم طائر.انتهى.

و فى الكشاف:أنهم كانوا يتفألون بالطير و يسمونه زجرا فإذا سافروا و مر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحا بأن مر من جهه اليسار الى اليمين تيمنوا و إن مر بارحا بأن مر من جهه اليمين الى الشمال تشأموا و لذا سمى تطيرا.انتهى.

و قال فى المفردات:تطير فلان و أطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل فى كل ما يتفاءل به و يتشاءم «قالُوا إِنّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ» و لذلک قيل:لا طير إلّا طيرک و قال: «إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا» أى يتشاءموا به «أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ» أى شؤمهم ما قد أعد اللّه لهم بسوء أعماله،و على ذلک قوله: «قالُوا اطَّيَّرْنا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ» «قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ» «قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» «وَ كُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ» أى عمله الذى طار عنه من خير و شر و يقال:

تطايروا إذا أسرعوا و يقال إذا تفرقوا.انتهى.

و بالجمله سياق ما قبل الآيه و ما بعدها و خاصه قوله: «مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِی لِنَفْسِهِ» الخ؛يعطى أن المراد بالطائر ما يستدل به على الميمنه و المشأمه و يكشف عن حسن العاقبه و سوئها فلكل إنسان شىء يرتبط بعاقبه حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

و إلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه،و إنما جعل الإلزام فى العنق لأنه العضو الذى لا

یمکن أن یفارقه الإنسان أو یفارقه هو الإنسان بخلاف الأطراف کالید و الرجل،و هو العضو الذی یوصل الرأس بالصدر فیشاهد ما یعلق علیه من قلاده أو طوق أو غل أول ما یواجه الإنسان.

فالمراد بقوله: «وَ کُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِی عُنُقِهِ» أن الذی یستعقب لکل إنسان سعادته أو شقاءه هو معه لا یفارقه بقضاء من اللّه سبحانه فهو الذی ألزمه إیاه،و هذا هو العمل الذی یعمله الإنسان لقوله تعالی: وَ أَنْ لَیسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی (النجم۴۱/).

فالطائر الذی ألزمه اللّه الإنسان فی عنقه هو عمله،و معنی إلزامه إیاه أن اللّه قضی أن یقوم کل عمل بعامله و یعود الیه خیره و شره و نفعه و ضره من غیر أن یفارقه الی غیره،و قد استفید من قوله تعالی: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ... إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ الآیات (الحجر۴۵/)أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبه للایمان و التقوی و سوء العاقبه للکفر و المعصیه.

و لازم ذلک أن یکون مع کل إنسان من عمله ما یعین له حاله فی عاقبه أمره معیه لازمه لا یترکه و تعیینا قطعیا لا یخطئ و لا یغلط لما قضی به أن کل عمل فهو لصاحبه لیس له إلاّ هو و أن مصیر الطاعه الی الجنه و مصیر المعصیه الی النار.

و بما تقدم یظهر أن الآیه إنما تثبت لزوم السعاده و الشقاء للانسان من جهه أعماله الحسنه و السیئه المکتسبه من طریق الاختیار من دون أن یبطل تأثیر العمل فی السعاده و الشقاء بإثبات قضاء أزلی یحتم للانسان سعاده أو شقاء سواء عمل أم لم یعمل و سواء أطاع أم عصی کما توهمه بعضهم.

قوله تعالی: وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَهِ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً یوضح حال هذا الکتاب قوله بعده: «اقْرَأْ کِتابَکَ کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً» حیث یدل أولا علی أن

الكتاب الذی یخرج له هو کتابه نفسه لا یتعلق بغیره،و ثانیا أن الکتاب متضمن لحقائق أعماله التی عملها فی الدنیا من غیر أن یفقد منها شیئا کما فی قوله: یَقُولُونَ یٰا وَیْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا الْکِتٰابِ لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَةً وَ لاٰ کَبِیرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا (الکهف۴۹/)،و ثالثا أن الأعمال التی أحصاها بادیه فیها بحقائقها من سعاده أو شقاء ظاهره بنتائجها من خیر أو شر ظهورا لا یستتر بستر و لا یقطع بعذر،قال تعالی: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (ق۲۲/).

و بالجمله فی قوله: وَ نُخْرِجُ لَهُ إشاره الی أن کتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراک الإنسان محجوب وراء حجاب الغفله و إنما یخرجه اللّه سبحانه للانسان یوم القیامه فیطلعه علی تفاصیله،و هو المعنی بقوله: «یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً».

قوله تعالی: اِقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً أی یقال له:اقرأ کتابک،الخ.

و قوله: کَفیٰ بِنَفْسِکَ الباء فیه زائده للتأکید و أصله کفت نفسک و إنما لم یؤنث الفعل لأن الفاعل مؤنث مجازی یجوز معه التذکیر و التأنیث،و ربما قیل:إنه اسم فعل بمعنی اکتف و الباء غیر زائده،و ربما وجه بغیر ذلک.

و فی الآیه دلاله علی أن حجه للکتاب قاطعه بحیث لا یرتاب فیها قارئه و لو کان هو المجرم نفسه و کیف لا؟و فیه معاینه نفس العمل و به الجزاء،قال تعالی: لاٰ تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّمٰا تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم۷/).

و الحال أن العمل سواء کان خیرا أو شرا لازم لصاحبه لا یفارقه و هو أیضا محفوظ علیه فی کتاب سیخرج له یوم القیامه و ینشر بین یدیه و یحاسب علیه،و إذا کان کذلک کان من الواجب علی الإنسان أن لا یبادر الی اقتحام کل ما یهواه و یشتهیه و لا یستعجل ارتکابه بل یتوقف فی الامور و یتروی حتی یمیز بینها و یفرق خیرها من شرها فیأخذ بالخیر و یتحرز الشر.

ص :۶۹۱

قوله تعالی: مَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّمٰا یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ قال فی المفردات:الوزر الثقل تشبیها بوزر الجبل،و یعبر بذلک عن الإثم کما یعبر عنه بالثقل قال تعالی: لِیَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ کٰامِلَةً الآیه؛کقوله:

وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ قال:و قوله: وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ أی لا تحمل وزره من حیث یتعری المحمول عنه.انتهی.

و الآیه فی موضع النتیجه لقوله: «وَ کُلَّ إِنسٰانٍ أَلْزَمْنٰاهُ طٰائِرَهُ» الخ؛و الجمله الثالثه «وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْریٰ» تأکید للجمله الثانیه «وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا».

و المعنی إذا کان العمل خیرا کان أو شرا یلزم صاحبه و لا یفارقه و هو محفوظ علی صاحبه سیشاهده عند الحساب فمن اهتدی فإنما یهتدی لنفسه و ینتفع به نفسه من غیر أن یتبع غیره.

و من ضل عن السبیل فإنما یضل علی نفسه و یتضرر به نفسه من دون أن یفارقه فیلحق غیره، و لا تتحمل نفس حامله حمل نفسه اخری لا کما ربما یخیل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم علی أئمتهم الذین أضلوهم و کما یتوهم المقلدون لآبائهم و أسلافهم أن آثامهم و أوزارهم لآبائهم و أسلافهم لا لهم.

نعم لأئمه الضلال مثل أوزار متبعیهم،و لمن سن سنه سیئه أوزار من عمل بها و لمن قال:

اتبعونا لنحمل خطایاکم آثام خطایاهم لکن ذلک کله وزر الإمامه و جعل السنه و تحمل الخطایا لا عین ما للعامل من الوزر بحیث یفارق عامله و یلحق المتبوع بل إن کان عینه فمعناه أن یعذب بعمل واحد اثنان.

قوله تعالی: وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ حَتّٰی نَبْعَثَ رَسُولاً ظاهر السیاق الجاری فی الآیه و ما یتلوها من الآیات بل هی و الآیات السابقه أن یکون المراد بالتعذیب التعذیب الدنیوی بعقوبه الاستئصال،و یؤیده خصوص سیاق النفی «وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ» حیث لم یقل:

و لسنا معذبین و لا نعذب و لن نعذب بل قال: «وَ مٰا کُنّٰا مُعَذِّبِینَ» الدال علی استمرار النفی فی

الماضی الظاهر فی انه کانت السنه الإلهیه فی الامم الخالیه الهالکه جاریه علی أن لا یعذبهم إلا بعد أن یبعث الیهم رسولا ینذرهم بعذاب اللّه.

قوله تعالی: وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنا مُتْرَفِیها فَفَسَقُوا فِیها فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِیراً قال الراغب:الترفه التوسع فی النعمه یقال:أترف فلان فهو مترف-الی أن قال فی قوله:أمرنا مترفیها-هم الموصوفون بقوله سبحانه: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَکْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ انتهی.و قال فی المجمع:الترفه النعمه،قال ابن عرفه:المترف المتروک یصنع ما یشاء و لا یمنع منه،و قال:التدمیر الإهلاک و الدمار الهلاک.

انتهی.

و قوله: وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أی إذا دنا وقت هلاکهم من قبیل قولهم:إذا أراد العلیل أن یموت کان کذا،و إذا أرادت السماء أنی مطر کان کذا،أی إذا دنا وقت موته و إذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا یرید الموت بحقیقه معنی الإراده و أنها لا ترید الإمطار کذلک،و فی القرآن: فَوَجَدا فِیها جِداراً یُرِیدُ أَنْ یَنْقَضَّ الآیه.

و یمکن أن یراد به الإراده الفعلیه و حقیقتها توافق الأسباب المقتضیه للشیء و تعاضدها علی وقوعه،و هو قریب من المعنی الأول و حقیقته تحقق ما لهلاکهم من الأسباب و هو کفران النعمه و الطغیان بالمعصیه کما قال سبحانه: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ (إبراهیم/٧)،و قال: اَلَّذِینَ طَغَوْا فِی الْبِلادِ فَأَکْثَرُوا فِیهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَیْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذابٍ إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ (الفجر/١۴).

قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِیها فَفَسَقُوا فِیها من المعلوم من کلامه تعالی أنه لا یأمر بالمعصیه أمرا تشریعیا فهو القائل: قُلْ إِنَّ اللّهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ (الأعراف/٢٨)و أما الأمر التکوینی فعدم تعلقه بالمعصیه من حیث إنها معصیه أوضح لجعله الفعل ضروریا یبطل معه تعلقه باختیار الإنسان و لا معصیه مع عدم الاختیار قال تعالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً

ص:۶٩٣

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس۸۲/).

فمتعلق الأمر فی قوله: «أَمَرْنٰا» إن كان هو الطاعه كان الأمر بحقيقه معناه و هو الأمر التشريعی و كان هو الأمر الذی توجه اليهم بلسان الرسول الذی يبلغهم أمر ربهم و ينذرهم بعذابه لو خالفوا و هو الشأن الذی يختص بالرسول كما تقدمت الاشاره اليه فإذا خالفوا و فسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول و هو أنهم معذبون إن خالفوا فاهلكوا و دمروا تدميرا.

و إن كان متعلق الأمر هو الفسق و المعصيه كان الأمر مرادا به الاكثار من إفاضه النعم عليهم و توفيرها على سبيل الاملاء و الاستدراج و تقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول و ينزل عليهم العذاب.

و هذان وجهان فی معنى قوله: «أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا» يجوز توجيهه بكل منها لكن يبعد أول الوجهين أولا أن قولنا:أمرته ففعل و أمرته ففسق ظاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه،و ثانيا عدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القريه و إلا لم يهلكوا.

و قرئ«آمرنا»بالمد و نسب الى على عليه السّلام و الى عاصم و ابن كثير و نافع و غيرهم و هو من الإيمان بمعنى إكثار المال و النسل أو بمعنى تكليف إنشاء فعل،و قرئ أيضا«أمرنا»بتشديد الميم من التأمير بمعنى توليه الإماره و نسب ذلك الى على و الحسن و الباقر عليهم السّلام و الى ابن عباس و زيد بن على و غيرهم.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً بَصِيراً قال فی المفردات:القرن القوم المقترنون فی زمن واحد و جمعه قرون قال: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ الْقُرُونِ انتهى و معنى الآيه ظاهر،و فيها تثبيت ما ذكر فی الآيه السابقه من سنه اللّه الجاريه فی إهلاك القرى بالاشاره الى القرون الماضيه الهالكه.

و الآیه لا تخلو من إشعار بأن سنه الاهلاک إنما شرعت فی القرون الانسانیه بعد نوح علیه السّلام و هو کذلک،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ (البقره۲۱۳/)فی الجزء الثانی من الکتاب أن المجتمع الانسانی قبل زمن نوح علیه السّلام کانوا علی سذاجه الفطره ثم اختلفوا بعد ذلک.

قوله تعالی: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً العاجله صفه محذوفه الموصوف و لعل موصوفها الحیاه بقرینه مقابلتها الآخره فی الآیه التالیه و هی الحیاه الآخره،و قیل:المراد النعم العاجله و قیل:الأعراج الدنیویه العاجله.

و فی المفردات:أصل الصلی لا یقاد النار.قال:و قال الخلیل:صلی الکافر النار قاسی حرها یَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمَصِیرُ و قیل:صلی النار دخل فیها،و أصلاها غیره قال: فَسَوْفَ نُصْلِیهِ نٰاراً انتهی.و فی المجمع:الدحر الابعاد و المدحور المبعد المطرود یقال:اللهم ادحر عنا الشیطان أی أبعده انتهی.

لما ذکر سبحانه سنته فی التعذیب الدنیوی إثر دعوه الرساله و أنه یهدی الامم الانسانیه الی الایمان و العمل الصالح حتی إذا فسدوا و أفسدوا بعث الیهم رسولا فإذا طغوا و فسقوا عذبهم عذاب الاستئصال،عاد الی بیان سنته فی التعذیب الأخروی و الإثابه فیها فی هذه الآیه و الآیتین بعدها یذکر فی آیه ملاک عذاب الآخره،و فی آیه ملاک ثوابها،و فی آیه محصل القول و الأصل الکلی فی ذلک.

فقوله: مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ أی الذی یرید الحیاه العاجله و هی الحیاه الدنیا، و إراده الحیاه الدنیا إنما هی طلب ما فیها من المتاع الذی تلتذ به النفس و تعلق به القلب، و التعلق بالعاجله و طلبها إنما یعد طلبا لها إذا کان مقصوده بالاستقلال لا لأجل التوسل بها الی سعاده الاخری و إلا کانت إراده للآخره فإن الآخره لا یسلک إلیها إلا من طریق الدنیا فلا

یکون الانسان مریدا للدنیا إلا إذا أعرض عن الآخره و نسیها فتمحضت إرادته فی الدنیا، و یدل علیه أیضا خصوص التعبیر فی الآیه «مَنْ کٰانَ یُرِیدُ» حیث یدل علی استمرار الاراده.

و هذا هو الذی لا یری لنفسه إلاّ هذه الحیاه المادیه الدنیویه و ینکر الحیاه الآخره،و یلغو بذلک القول بالنبوه و التوحید إذا لا أثر للایمان باللّه و رسله و التدین لو لا الاعتقاد بالمعاد،قال تعالی: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰی عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا ذٰلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ (النجم/۳۰).

و قوله: عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ أی أسرعنا فی إعطائه ما یریده فی الدنیا لکن لا بإعطائه ما یریده بل بإعطائه ما نریده بالأمر الینا لا الیه و الأثر لارادتنا لا لإرادته،و لا بإعطاء ما نعطیه لکل من یرید بل لمن نرید فلیس یحکم فینا إراده الأشخاص بل إرادتنا هی التی تحکم فیهم.

و إرادته سبحانه الفعلیه لشیء هو اجتماع الأسباب علی کینونته و تحقّق العله التامه لظهوره فالآیه تدل علی أن الانسان و هو یرید الدنیا یرزق منها علی حسب ما یسمح له الأسباب و العوامل التی أجراها اللّه فی الکون و قدر لها من الآثار فهو ینال شیئا مما یریده و یسأله بلسان تکوینه لکن لیس له إلا ما یهدی الیه الأسباب و اللّه من ورائهم محیط.

قوله تعالی: وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَهَ وَ سَعیٰ لَهٰا سَعْیَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً قال الراغب:السعی المشی السریع و هو دون العدو،و یستعمل للجد فی الأمر خیرا کان أو شرا،انتهی موضع الحاجه.

و قوله: وَ مَنْ أَرٰادَ الْآخِرَهَ أی الحیاه الآخره نظیر ما تقدم من قوله: «مَنْ کٰانَ یُرِیدُ الْعٰاجِلَهَ» و الکلام فی قول من قال:یعنی من أراد بعمله الآخره نظیر الکلام فی مثله فی الآیه السابقه.

و قوله: وَ سَعیٰ لَهٰا سَعْیَهٰا اللام للاختصاص و کذا إضافه السعی الی ضمیر

الآخره،و المعنی و سعی وجد للآخره السعی الذی یختص بها،و یستفاد منه أن سعیه لها یجب أن یکون سعیا یلیق بها و یحق لها کأن یکون یبذل کمال الجهد فی حسن العمل و أخذه من عقل قطعی أو حجه شرعیه.

و قوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أی مؤمن باللّه و یستلزم ذلک توحیده و الإذعان بالنبوه و المعاد فإن من لا یعترف بإحدی الخصال الثلاث لا یعده اللّه سبحانه فی کلامه مؤمنا به و قد تکاثرت الآیات فیه.

علی أن نفس التقیید بقوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ یکفی فی التقیید المذکور فان من أراد الآخره و سعی لها سعیها فهو مؤمن باللّه و بنشأه وراء هذه النشأه الدنیویه قطعا فلولا أن التقیید بالإیمان لإفاده وجوب کون الإیمان صحیحا و من صحته أن یصاحب التوحید و الإذعان بالنبوه لم یکن للتقیید وجه فمجرد التقیید بالإیمان یکفی مئونه الاستعانه بآیات أخر.

و قوله: فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً أی یشکره اللّه بحسن قبوله و الثناء علی ساعیه،و شکره تعالی علی عمل العبد تفضل منه علی تفضل فإن أصل إثابته العبد علی عمل عمله تفضل لأن من وظیفه العبد أن یعبد مولاه من غیر وجوب الجزاء علیه فالإثابه تفضل، و الثناء علیه بعد الإثابه تفضل علی تفضل و اللّه ذو الفضل العظیم.

و فی الآیتین دلاله علی ان الأسباب الاخرویه و هی الأعمال لا تتخلف عن غایاتها بخلاف الأسباب الدنیویه فإنه سبحانه یقول فیمن عمل للآخره فَأُولٰئِکَ کٰانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً و یقول فیمن عمل للدنیا عَجَّلْنٰا لَهُ فِیهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِیدُ .

قوله تعالی: کُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هَؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّکَ وَ مٰا کٰانَ عَطٰاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً قال فی المفردات:أصل المد الجر و منه المده للوقت الممتد و مده الجرح و مد النهر و مده نهر آخر و مددت عینی الی کذا قال تعالی: وَ لاٰ تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ الآیه؛و مددته فی غیه...

و أمـددت الجيش بمـدد الإنسان بطعام قال:و أكثر ما جاء الإمـداد فى المحبوب و المـد فى المكروه نحو: وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا و نمدهم فى طغيانهم وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ انتهى بتلخيص منا.

فإمـداد الشـيء و مـده أن يضاف اليه من نوعه مثلا ما يمتد به بقاؤه و يدوم به وجوده و لو لا ذلك لانقطع كالعين من الماء التى تستمد من المنبع و يضاف إليها منه الماء حينا بعد حين و يمتد بذلك جريانها.

و قوله: هَؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ أى هؤلاء المعجل لهم و هؤلاء المشـكور سـعيهم بما أن لكل منهما نعته الخاص به،و يئول المعنى الى أن كلا من الفريقين تحت التربيه الإلـهيه يفيض عليهم من عطائه من غير فرق غير أن أحـدهما يسـتعمل النعمه الإلهيه لابتغاء الآخره فيشكر اللّه سعيه، و الآخر يستعملها لابتغاء العاجله و ينسى الآخره فلا يبقى له فيها إلا الشقاء و الخيبه.

و قوله: مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ فـإن جميع مـا يسـتفيدون منه فى أعمـالهم كما تقـدم لا صـنع لهم و لا لغيرهم من المخلوقين فيه بل اللّه سبحانه هو الموجد لها و مالكها فهى من عطائه.

و قوله: وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً أى ممنوعا-و الحظر المنع-فأهل الـدنيا و أهل الآخره مسـتمدون من عطائه منعمون بنعمته ممنونون بمنته.

و فى الآيه دلاله على أن العطاء الإلهى مطلق غير محدد بحد لمكان إطلاق العطاء و نفى الحظر فى الآيه فما يوجد من التحديد و التقدير و المنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحيه المسـتفيض و خصوص اسـتعداده للاستفاضه أو فقدانه من رأس لا من ناحيه المفيض.

قوله تعـالى: أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا اشـاره الى تفـاوت الـدرجات بتفاوت المسـاعى حتى لا يتوهم أن قليل العمل و كثيره على حـد سواء و يسـير السـعى و السـعى البالغ لا فرق بينهما فإن تسويه القليل و الكثير و الجيد و الردى فى الشكر و القبول رد فى الحقيقه لما يزيد به الأفضل على غيره.

و قوله: أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ أى بعض الناس على بعض فى الدنيا،و القرينه على هذا التقييد قوله بعد: «وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ» و التفضيل فى الدنيا هو ما يزيد به بعض أهلها على بعض من أعراضها و أمتعتها كالمال و الجاه و الولد و القوه و الصيت و الرئاسه و السؤدد و القبول عند الناس.

و قوله: وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً أى هى أكبر من الدنيا فى الدرجات و التفضيل فلا يتوهمن متوهم أن أهل الآخره فى عيشه سواء و لا أن التفاوت بين معايشهم كتفاوت أهل الدنيا فى دنياهم بل الدار أوسع من الدنيا بما لا يقاس و ذلك أن سبب التفضيل فى الدنيا هى اختلاف الأسباب الكونيه و هى محدوده و الدار دار التزاحم و سبب التفضيل و اختلاف الدرجات فى الآخره هو اختلاف النفوس فى الإيمان و الإخلاص و هى من أحوال القلوب،و اختلاف أحوالها أوسع من اختلاف أحوال الأجسام بما لا يقال قال تعالى:

إِنْ تُبْدُوا مٰا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحٰاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ (البقره۲۸۴/) يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء۸۹/).

ففى الآيه أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن ينظر الى ما بين أهل الدنيا من التفاضل و الاعتبار ليجعل ذلك ذريعه الى فهم ما بين أهل الآخره من تفاوت الدرجات و التفاضل فى المقامات فإن اختلاف الأحوال فى الدنيا يؤدى الى اختلاف الادراكات الباطنه و النيات و الأعمال التى يتيسر للانسان أن يأتى بها و اختلاف ذلك يؤدى الى اختلاف الدرجات فى الآخره.

قوله تعالى: لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً قال فى المفردات:الخذلان ترك من يظن به أن ينصر نصرته انتهى.

و الآيه بمنزله النتيجه للآيات السابقه التى ذكرت سنه اللّه فى عباده و ختمت فى أن من أراد منهم العاجله انتهى به ذلك الى أن يصلى جهنم مذموما مدحورا،و من أراد منهم الآخره شكر اللّه سعيه الجميل،و المعنى لا تشرك باللّه سبحانه حتى يؤديك ذلك الى ان تقعد و تحتبس عن

السیر الی درجات القرب و انت مذموم لا ینصرک اللّه و لا ناصر دونه و قیل:القعود کنایه عن المذله و العجز (۱)(۲).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۲۳ الی ۳۹]

اشاره

وَ قَضی رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِیّاهُ وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً إِمّا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ اَلْکِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ کِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ
قُلْ لَهُما قَوْلاً کَرِیماً (۲۳) وَ اِخْفِضْ لَهُما جَناحَ اَلذُّلِّ مِنَ اَلرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ اِرْحَمْهُما کَما رَبَّیانِی صَغِیراً (۲۴) رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِما فِی
نُفُوسِکُمْ إِنْ تَکُونُوا صالِحِینَ فَإِنَّهُ کانَ لِلْأَوّابِینَ غَفُوراً (۲۵) وَ آتِ ذَا اَلْقُرْبی حَقَّهُ وَ اَلْمِسْکِینَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (۲۶)
إِنَّ اَلْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ اَلشَّیاطِینِ وَ کانَ اَلشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً (۲۷) وَ إِمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ اِبْتِغاءَ رَحْمَهٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ
قَوْلاً مَیْسُوراً (۲۸) وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَهً إِلی عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ اَلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ
لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۳۰) وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَکُمْ خَشْیَهَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیّاکُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً
کَبِیراً (۳۱) وَ لا تَقْرَبُوا اَلزِّنی إِنَّهُ کانَ فاحِشَهً وَ ساءَ سَبِیلاً (۳۲) وَ لا تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِی حَرَّمَ اَللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ
جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً فَلا یُسْرِفْ فِی اَلْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً (۳۳) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ اَلْیَتِیمِ إِلاّ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ اَلْعَهْدَ کانَ مَسْؤُلاً (۳۴) وَ أَوْفُوا اَلْکَیْلَ إِذا کِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ اَلْمُسْتَقِیمِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً (۳۵) وَ لا تَقْفُ
ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ اَلسَّمْعَ وَ اَلْبَصَرَ وَ اَلْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (۳۶) وَ لا تَمْشِ فِی اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ
اَلْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ اَلْجِبالَ طُولاً (۳۷) کُلُّ ذلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً (۳۸) ذلِکَ مِمّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ اَلْحِکْمَهِ وَ لا
تَجْعَلْ مَعَ اَللّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقی فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (۳۹)

ص: ۷۰۰

۱- ۱) .الاسراء ۹-۲۲:بحث روائی فی القرآن.

۲- ۲) .الاسراء ۹-۲۲:کلام فی القضاء فی فصول(فی تحصیل معناه و تحدیده؛نظره فلسفیه فی معنی القضاء)بحث فلسفی فی وجود الواجب تعالی.

بیان:

قوله تعالی: وَ قَضی رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِیّاهُ «أَلاّ تَعْبُدُوا» الخ؛نفی و استثناء و«أن»مصدریه و یجوز ان یکون نهیا استثناء و أن مصدریه أو مفسره،و علی أی حال ینحل مجموع المستثنی و المستثنی منه الی جملتین کقولنا:تعبدونه و لا تعبدون غیره و ترجع الجملتان بوجه آخر الی حکم واحد و هو الحکم بعبادته عن اخلاص.

و القول سواء کان منحلا الی جملتین أو عائدا الی جمله واحده متعلق القضاء و هو القضاء التشریعی المتعلق بالاحکام و القضایا التشریعیه،و یفید معنی الفصل و الحکم القاطع المولوی،و هو کما یتعلق بالأمر یتعلق بالنهی و کما یبرم الأحکام المثبته یبرم الأحکام المنفیه، و لو کان بلفظ الأمر فقیل:و أمر ربک ان لا تعبدوا الا ایاه،لم یصح الا بنوع من التأویل و التجوز.

و الأمر باخلاص العباده للّه سبحانه أعظم الأوامر الدینیه و الاخلاص بالعباده أوجب الواجبات کما أن معصیته و هو الشرک باللّه سبحانه أکبر الکبائر الموبقه،قال تعالی: إِنَّ اللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ (النساء۴۸/).

و الیه یعود جمیع المعاصی بحسب التحلیل اذ لو لا طاعه غیر اللّه من شیاطین الجن و الإنس و هوی النفس و الجهل لم یقدم الانسان علی معصیه ربه فیما أمره به أو نهاه عنه و الطاعه عباده قال تعالی: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّیْطانَ (یس ۶۰/)،و قال:

أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ (الجاثیه۲۳/)،حتی أن الکافر المنکر للصانع مشرک بالقائه زمام تدبیر العالم الی الماده او الطبیعه او الدهر او غیر ذلک و هو مقر بسذاجه فطرته بالصانع

ص:۷۰۲

تعالی.

و لعظم أمر هـذا الحكم قـدمه علی سائر ما عـد من الأحكام الخطيره شأنا كعقوق الوالـدين و منع الحقوق الماليه و التبذير و قتل الأولاـد و الزنـا و قتـل النفس المحترمه و أكل مال اليتيم و نقض العهـد و التطفيف فی الوزن و اتباع غير العلم و الكبير ثم ختمها بالنهی ثانيا عن الشرک.

قوله تعالی: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً عطف علی سابقه أی و قضـی ربک بأن تحسـنوا بالوالدين إحسانا او ان أحسنوا بالوالدين احسانا و الإحسان فی الفعل يقابل الإساءه و هـذا بعد التوحيد للّه من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشـرک باللّه،و لذلک ذكره بعد حكم التوحيد و قدمه علی سائر الأحكام المذكوره المعدوده و كذلک فعل فی عده مواضع من كلامه.

قوله تعـالی: إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً «إِمّا» مركب من«إن»الشـرطيه و«ما»الزائده و هی المصـححه لدخول نون التأكيد علی فعل الشـرط،و الكبر هو الكبر فی السن و أف كلمه تفيد الضجر و الانزجار،و النهر هو الزجر بالصياح و رفع الصوت و الاغلاظ فی القول.

فالآـيه تـدل علی وجوب إكرامهمـا و رعـايه الأدب التام فی معاشـرتهما و محاورتهما فی جميع الأوقات و خاصه فی وقت يشـتد حاجتهما الی ذلک و هو وقت بلوغ الكبر من احدهما او كليهما عند الولد و معنی الآيه ظاهر.

قوله تعـالی: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الـذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِی صَغِيراً خفض الجناح كنايه عن المبالغه فی التواضع و الخضوع قولاـ و فعلاـ مـأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليسـتعطف أمه لتغـذيته،و لـذا قيـده بالـذل فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغـذاء من امهاتهـا،فـالمعنی واجههمـا فی معاشـرتک و محاورتک مواجهه يلوح منها تواضـعک و خضوعک لهما و تذللک قبالهما رحمه بهما.

ص:۷۰۳

هذا ان كان الذل بمعنى المسكنه و ان كان بمعنى المطاوعه فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمه بها و حفظا لها.

و قوله: وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمٰا كَمٰا رَبَّيٰانِي صَغِيراً، أى اذكر تربيتهما لك صغيرا فادع اللّه سبحانه أن يرحمهما كما رحماك و ربياك صغيرا.

قال فى المجمع:و فى هذا دلاله على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع و إلا لم يكن للامر به معنى.انتهى.و الذى يدل عليه كون هذا الدعاء فى مظنه الإجابه و هو أدب دينى ينتفع به الولد و ان فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابه الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر و الآيه مطلقه.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُوراً السياق يعطى أن تكون الآيه متعلقه بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين و تحريم عقوقهما،و على هذا فهى متعرضه لما إذا بدرت من الولد بادره فى حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به،و إنما لم يصرح به للإشاره الى أن ذلك مما لا ينبغى أن يذكر كما لا ينبغى أن يقع.

فقوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ أى أعلم منكم به،و هو تمهيد لما يتلوه من قوله: إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أى إن تكونوا صالحين و علم اللّه من نفوسكم ذلك فإنه كان،الخ؛و قوله: فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُوراً أى للراجعين اليه عند كل معصيه و هو من وضع البيان العام موضع الخاص.

و المعنى:إن تكونوا صالحين و علم اللّه من نفوسكم و رجعتم و تبتم اليه فى بادره ظهرت منكم على والديكم غفر اللّه لكم ذلك إنه كان للأوابين غفورا.

قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ تقدم الكلام فيه فى نظائره،و بالآيه أن إيتاء ذى القربى و المسكين و ابن السبيل مما شرع قبل الهجره لأنها آيه

مکیه من سوره مکیه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِیراً إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّیٰاطِینِ وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً قال فی المجمع:التبذیر التفریق بالإسراف،و أصله أن یفرق کما یفرق البذر إلا أنه یختص بما یکون علی سبیل الإفساد،و ما کان علی وجه الإصلاح لا یسمی تبذیرا و إن کثر.انتهی.

و قوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کٰانُوا إِخْوٰانَ الشَّیٰاطِینِ تعلیل للنهی عن التبذیر، و المعنی لا تبذر إنک إن تبذر کنت من المبذرین و المبذرون إخوان الشیاطین،و کأن وجه المواخاه بینهم أن الواحد منهم یصیر ملازما لشیطانه و بالعکس کالأخوین الذین هما شقیقان متلازمان فی أصلهما الواحد کما یشیر الیه قوله تعالی: وَ قَیَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ (حم السجده/ ۲۵)،و قوله: اُحْشُرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ (الصافات۲۲/)أی قرناءهم:و قوله:

وَ إِخْوٰانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ ثُمَّ لاٰ یُقْصِرُونَ (الأعراف۲۰۲/).

و من هنا یظهر أن تفسیر من فسر الآیه بأنهم قرناء الشیاطین أحسن من قول من قال:

المعنی أنهم أتباع الشیاطین سالکون سبیلهم.

و أما قوله: «وَ کٰانَ الشَّیْطٰانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً» فالمراد بالشیطان فیه هو ابلیس الذی أو أبو الشیاطین و هم ذریته و قبیله و اللام حینئذ للعهد الذهنی و یمکن أن یکون السلام للجنس و المراد به جنس الشیطان و علی أی حال کونه کفورا لربه من جهه کفرانه بنعم اللّه حیث أنه یصرف ما آتاه من قوه و قدره و استطاعه فی سبیل إغواء الناس و حملهم علی المعصیه و دعوتهم الی الخطیئه و کفران النعمه.

و قد ظهرت مما تقدم النکته فی جمع الشیطان أولا و إفراده ثانیا فإن الاعتبار أولا بأن کل مبذر أخو شیطانه الخاص فالجمیع إخوان للشیاطین و الاعتبار ثانیا بإبلیس الذی هو أبو الشیاطین أو بجنس الشیطان.

قوله تعالى: وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغٰاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهٰا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً أصله إن تعرض عنهم و«ما»زائده للتأكيد و النون للتأكيد.

و السياق يشهد بأن الكلام فى إنفاق الأموال فالمراد بقوله: «وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ» الإعراض عمن سأله شيئا من المال ينفقه له و يسد به خلته؛و ليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عند ما ليس عنده شىء من المال يبذله له و ليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: اِبْتِغٰاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهٰا أى كنت تعرض عنهم لا لكونك مليئا بالمال شحيحا به؛و لا لأنك فاقد له آيس من حصوله بل لأنك فاقد له مبتغ و طالب لرحمه من ربك ترجوها يعنى الرزق.

و قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً أى سهلا لينا أى لا تغلظ فى القول و لا تجف فى الرد كما قال تعالى: وَ أَمَّا السّٰائِلَ فَلاٰ تَنْهَرْ (الضحى/١٠)بل رده بقول سهل لين.

قال فى الكشاف:و قوله: «ابْتِغٰاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ» إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدما عليه أى فقل لهم قولا سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا رحمه لهم و تطييبا لقلوبهم ابتغاء رحمه من ربك اى ابتغ رحمه اللّه التى ترجوها برحمتك عليهم،و إما أن يتعلق بالشرط أى و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك-فسمى الرزق رحمه-فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء و الابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب.انتهى.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً جعل اليد مغلوله الى العنق كنايه عن الإمساك كمن لا يعطى و لا يهب شيئا لبخله و شح نفسه،و بسط اليد كل البسط كنايه عن إنفاق الإنسان كل ما فى وجده بحيث لا يبقى شيئا كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا يستقر عليها شىء ففى الكلام نهى بالغ عن التفريط و الإفراط فى الإنفاق.

و قوله: فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً متفرع على قوله: «وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا» الخ،و الحسر هو الانقطاع أو العرى أى و لا تبسط يدک كل البسط حتى يتعقب ذلک أن تقعد ملوما لنفسک و غيرک منقطعا عن واجبات المعاش أو عريانا لا تقدر على أن تظهر للناس و تعاشرهم و تراودهم.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبٰادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل لما تقدم فى الآيه السابقه من النهى عن الإفراط و التفريط فى إنفاق المال و بذله.

و المعنى:أن هذا دأب ربک و سنته الجاريه يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط و لا يمسک عنه كل الإمساک رعايه لمصلحه العباد إنه كان بعباده خبيرا بصيرا و ينبغى لک أن تتخلق بخلق اللّه و تتخذ طريق الاعتدال و تتجنب الافراط و التفريط.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً الاملاق الفاقه و الفقر،و قال فى المفردات:الخطأ العدول عن الجهه و ذلک أضرب:أحدها أن تريد غير ما تحسن ارادته و فعله،و هذا هو الخطأ التام المأخوذ به الانسان يقال:خطئ يخطأ و خطأه،قال تعالى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً و قال: وَ إِنْ كُنّٰا لَخٰاطِئِينَ و الثانى أن يريد ما يحسن فعله و لكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال:أخطأ اخطاء فهو مخطئ و هذا قد أصاب فى الاراده و أخطأ فى الفعل،و هذا المعنى بقوله: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، و الثالث أن يريد ما لا يحسن فعله و يتفق منه خلافه فهذا مخطئ فى الإراده مصيب فى الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

و جمله الأمر أن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال:أخطأ،و ان وقع منه كما أراده يقال:

أصاب،و قد يقال لمن فعل فعلا لا يحسن أو أراد اراده لا يجمل:انه أخطأ،و لذا يقال:أصاب الخطأ و أخطأ الصواب و أصاب الصواب و أخطأ الخطأ و هذه اللفظه مشتركه كما ترى متردده

بین معان یجب لمن یتحری الحقائق أو یتأملها.انتهی بتلخیص.

و فی الآیه نهی شدید عن قتل الأولاد خوفا من الفقر و الحاجه و قوله: «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیّاکُمْ» تعلیل للنهی و تمهید لقوله بعد: «إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً کَبِیراً» .

و المعنی و لا تقتلوا أولادکم خوفا من أن تبتلوا بالفقر و الحاجه فیؤدیهم ذلک الی ذل السؤال أو ازدواج بناتکم من غیر الأکفاء أو غیر ذلک مما یذهب بکرامتکم فإنکم لستم ترزقونهم حتی تفقدوا الرزق عند فقرکم و اعسارکم بل نحن نرزقهم و ایاکم ان قتلهم کان خطأ کبیرا.

و أما الآیه التی نحن فیها و أترابها فإنها تنهی عن قتل الأولاد خشیه إملاق،و لا موجب لحمل الأولاد علی البنات مع کونه أعم،و لا حمل الهون علی خوف الفقر مع کونهما متغایرین فالحق أن الآیه تکشف عن سنه سیئه اخری غیر وأد البنات دفعا للهون و هی قتل الأولاد من ذکر و انثی خوفا من الفقر و الفاقه و الآیات تنهی عنه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنیٰ إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً وَ سٰاءَ سَبِیلاً نهی عن الزنا و قد بالغ فی تحریمه حیث نهاهم عن أن یقربوه،و علله بقوله: «إِنَّهُ کٰانَ فٰاحِشَهً» فأفاد أن الفحش صفه لازمه له لا یفارقه،و قوله: «وَ سٰاءَ سَبِیلاً» فأفاد أنه سبیل سیئ یؤدی الی فساد المجتمع فی جمیع شئونه حتی ینحل عقده و یختل نظامه و فیه هلاک الإنسانیه و قد بالغ سبحانه فی وعید من أتی به حیث قال فی صفات المؤمنین: وَ لاٰ یَزْنُونَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ یَلْقَ أَثٰاماً یُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهٰاناً إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً (الفرقان۷۰/) (۱).

قوله تعالی: وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ الْیَتِیمِ إِلاّٰ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتّٰی یَبْلُغَ

ص :۷۰۸

۱- ۱) .الاسراء ۲۳-۳۹:کلام فی حرمه الزنا و هو بحث قرآنی اجتماعی.

أَشُدَّهُ نهى عن أكل مال اليتيم و هو من الكبائر التى أوعد اللّه عليها النار قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (النساء/ ١٠).

و فى النهى عن الاقتراب مبالغه لإفاده اشتداد الحرمه.

و قوله: بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى بالطريقه التى هى أحسن و فيه مصلحه إنماء ماله، و قوله: «حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» هو أوان البلوغ و الرشد و عند ذلك يرتفع عنه اليتيم فالتحديد بهذه الجمله لكون النهى عن القرب فى معنى الأمر بالصيانه و الحفظ كأنه قيل:احتفظوا على ماله حتى يبلغ أشده فتردوه اليه،و بعباره أخرى الكلام فى معنى قولنا:لا تقربوا مال اليتيم ما دام يتيما،و قد تقدم بعض ما يناسب المقام فى سوره الأنعام آيه ١٥٢.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً أى مسئول عنه و هو من الحذف و الإيصال السائغ فى الكلام،و قيل:المراد السؤال عن نفس العهد فان من الجائز أن تتمثل الأعمال يوم القيامه فتشهد للانسان أو عليه و تشفع له أو تخاصمه.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً القسطاس بكسر القاف و ضمها هو الميزان قيل:رومى معرب و قيل:

عربى،و قيل مركب فى الأصل من القسط و هو العدل و طاس و هو كفه الميزان و القسطاس المستقيم هو الميزان العادل لا يخسر فى وزنه.

و قوله: ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً الخير هو الذى يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه و بين غيره،و التأويل هو الحقيقه التى ينتهى إليها الأمر،و كون إيفاء الكيل و الوزن بالقسطاس المستقيم خيرا لما فيه من الاتقاء من استراق أموال الناس و اختلاسها من حيث لا يشعرون و جلب وثوقهم.

و كونهما أحسن تأويلا لما فيهما من رعايه الرشد و الاستقامه فى تقدير الناس معيشتهم فان

معایشـهم تقوم فی التمتع بأمتعه الحیاه علی أصـلین اکتساب الأمتعه الصالحه للتمتع و المبادله علی الزائـد علی قـدر حاجتهم فهم یقـدرون معیشـتهم علی قـدر مـا یسـعهم أن یبـذلوه من المـال عینـا أو قیمه،و علی قـدر ما یحتاجون الیه من الأمتعه المشتراه فإذا خسروا بالتطفیف و نقص الکیل و الوزن فقد اختلت علیهم الحیاه من الجهتین جمیعا،و ارتفع الأمن العام من بینهم.

و أما إذا أقیم الوزن بالقسط فقـد أطل علیم الرشـد و اسـتقامت أوضاعهم الاقتصادیه بإصابه الصواب فیما قدروا علیه معیشـتهم و اجتلب وثوقهم الی أهل السوق و استقر بینهم الأمن العام.

قوله تعـالی: وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَیسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤٰادَ کُلُّ أُولٰئِکَ کٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً القراءه المشـهوره «لاٰ تَقْفُ» بسکون القاف و ضم الفاء من قفا یقفو قفوا اذا اتبعه و منه قافیه الشعر لکونها فی آخر المصراع تابعه لما تقدمها،و قرئ «لاٰ تَقُفْ» بضم القاف و سـکون الفاء من قاف بمعنی قفا،و لـذلک نقل عن بعض أهل اللغه أن قاف مقلوب قفا مثل جبـذ مقلوب جذب،و منه القیافه بمعنی اتباع أثر الأقدام.

و الآیه تنهی عن اتباع ما لا علم به،و هی لاطلاقها تشـمل الاتباع اعتقادا و عملا، و تتحصل فی مثل قولنا:لا تعتقـد ما لا علم لک به و لا تقل ما لا علم لک به و لا تفعل ما لا علم لک به لأن فی ذلک کله اتباعا.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً المرح شده الفرح بالباطل-کما قیل-و لعل التقییـد بالباطـل للـدلاله علی خروجه عن حـد الاعتـدال فإن الفرح الحق هو ما یکون ابتهاجا بنعمه من نعم اللّه شـکرا له و هو لا یتعـدی حـد الاعتدال،و اما اذا فرح و اشـتد منه ذلک حتی خف عقله و ظهر آثاره فی افعاله و اقواله و قیامه و قعوده و خاصه فی مشیه فهو من الباطل.

و قوله: وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً نهی عن استعظام الانسان نفسه بأکثر

مما هو علیه لمثل البطر و الأشر و الکبر و الخیلاء،و انما ذکر المشی فی الأرض مرحا لظهور ذلک فیه.

و قوله: إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبٰالَ طُولاً کنایه عن ان فعالک هـذا و انت ترید به اظهار القدره و القوه و العظمه انما هو و هم تتوهمه فـإن هنـاک مـا هو أقوی منـک لاـ یخترق بقـدمیک و هی الأـرض و مـا هو أطول منک و هی الجبال فاعترف بذلک أنک وضیع مهین فلا شیء مما یبتغیه الإنسان و یتنافس فیه فی هذه النشأه من ملک و عزه و سلطنه و قدره و سؤدد و مال و غیرهـا إلاـ امور وهمیه لاـ حقیقه لهـا وراء الإدراک الإنسانی سـخر اللّه النفوس للتصـدیق بها و الاعتماد فی العمل علیها لتعمیر النشأه و تمام الکلمه،و لو لا هـذه الأوهام لم یعش الإنسان فی الدنیا و لا تمت کلمته تعالی: وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْـتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلیٰ حِینٍ (البقره۳۶/).

قوله تعالی: کُلُّ ذٰلِکَ کٰانَ سَـیِّئُهُ عِنْـدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً الإشاره بذلک الی ما تقدم من الواجبات و المحرمات-کما قیل-و الضـمیر فی «سَـیِّئُهُ» یرجع الی ذلـک،و المعنی کل ما تقـدم کان سـیئه-و هو ما نهی عنه و کان معصـیه من بین المـذکورات-عنـد ربک مکروها لا یریده اللّه تعالی.

و فی غیر القراءه المعروفه«سیئه»بفتح الهمزه و التاء فی آخرها و هی علی هذه القراءه خبر کان و المعنی واضح.

قوله تعالی: ذٰلِکَ مِمّٰا أَوْحیٰ إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَهِ ذلک إشاره الی ما تقـدم من تفصـیل التکالیف و فی الآیه إطلاق الحکمه علی الأحکام الفرعیه و یمکن أن یکون لما تشتمل علیه من المصالح المستفاده إجمالا من سابق الکلام.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقیٰ فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً کرر سـبحانه النهی عن الشـرک و قد نهی عنه سابقا اعتناء بشأن التوحید و تفخیما

لأمره،و هو كالوصله يتصل به لاحق الكلام بسابقه،و معنى الآيه ظاهر (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآيات ۴۰ الى ۵۵]

اشاره

أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اِتَّخَذَ مِنَ اَلْمَلاٰئِكَهِ إِنٰاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (۴۰) وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِي هٰذَا اَلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً (۴۱) قُلْ لَوْ كٰانَ مَعَهُ آلِهَهٌ كَمٰا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلىٰ ذِي اَلْعَرْشِ سَبِيلاً (۴۲) سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (۴۳) تُسَبِّحُ لَهُ اَلسَّمٰاوٰاتُ اَلسَّبْعُ وَ اَلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۴) وَ إِذٰا قَرَأْتَ اَلْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ حِجٰاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّهً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي اَلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ إِذْ يَقُولُ اَلظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً (۴۷) اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ اَلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (۴۸) وَ قٰالُوا أَ إِذٰا كُنّٰا عِظٰاماً وَ رُفٰاتاً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۴۹) قُلْ كُونُوا حِجٰارَهً أَوْ حَدِيداً (۵۰) أَوْ خَلْقاً مِمّٰا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنٰا قُلِ اَلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هُوَ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً (۵۲) وَ قُلْ لِعِبٰادِي يَقُولُوا اَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ كٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوًّا مُبِيناً (۵۳) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ اَلنَّبِيِّينَ عَلىٰ بَعْضٍ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً (۵۵)

۱- ۱) .الاسراء ۲۳-۳۹:بحث روائی فی مشیئه اللّه و ارادته؛الاحسان بالوالدین؛الاوابین؛الانفاق،حرمه الزنا؛ القصاص.

بیان:

قوله تعالی: أَ فَأَصْفاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِکَهِ إِناثاً إِنَّکُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِیماً الإصفاء الإخلاص قال فی المجمع:تقول:أصفیت فلانا بالشیء آثرته به.انتهی.

خطاب لمن یقول منهم:ان الملائکه بنات اللّه أو بعضهم بنات اللّه و الاستفهام للانکار، و لعله بدل البنات من الاناث لکونهم یعدون الانوثه من صفات الخسه.

ص: ۷۱۳

و المعنی اذا کان سبحانه ربکم لا رب غیره و هو الذی یتولی أمر کل شیء فهل تقولون انه آثرکم بکرامه لم یتکرم به هو نفسه و هو انه خصکم بالبنین و لم یتخذ لنفسه من الود الا الاناث و هم الملائکه الکرام الذین تزعمون انهم اناث انکم لتقولون قولا عظیما من حیث استتباعه التبعه السیئه.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هٰذَا الْقُرْآنِ لِیَذَّکَّرُوا وَ مٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً قال فی المفردات:الصرف رد الشیء من حاله الی حاله او ابداله بغیره.قال:و التصریف کالصرف الا فی التکثیر،و اکثر ما یقال فی صرف الشیء من حاله الی حاله و من امر الی امر، و تصریف الریاح هو صرفها من حال الی حال قال تعالی: وَ صَرَّفْنَا الْآیٰاتِ وَ صَرَّفْنا فِیهِ مِنَ الْوَعِیدِ و منه تصریف الکلام و تصریف الدراهم.انتهی.

و قال:النفر الانزعاج من الشیء و الی الشیء کالفزع الی الشیء و عن الشیء یقال:نفر عن الشیء نفورا قال تعالی: مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً وَ مٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً انتهی.

فقوله: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هٰذَا الْقُرْآنِ لِیَذَّکَّرُوا معناه بشهاده السیاق:و اقسم لقد رددنا الکلام معهم فی امر التوحید و نفی الشریک من وجه الی وجه و حولناه من لحن الی لحن فی هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات و بیناه بأقسام البیانات لیتذکروا و یتبین لهم الحق.

و قوله: وَ مٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً ای ما یزیدهم التصریف الا انزعاجا کلما استؤنف جیء ببیان جدید ورثهم نفره جدیده.

قوله تعالی: قُلْ لَوْ کٰانَ مَعَهُ آلِهَهٌ کَمٰا یَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلیٰ ذِی الْعَرْشِ سَبِیلاً أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب الی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم بأمره أن یکلمهم فی أمر التوحید و نفی الشریک.و الذی یقولون به أن هناک آلهه دون اللّه یتولون جهات التدبیر فی العالم علی اختلاف مراتبهم و الواحد منهم رب لما یدبره کإله السماء و إله الأرض و إله الحرب و إله

قریش.

و إذ کانوا شرکاء من جهه التدبیر لکل واحد منهم الملک علی حسب ربوبیته و الملک من توابع الخلق الذی یختص به سبحانه حتی علی معتقدهم (۱)کان الملک مما یقبل فی نفسه أن یقوم به غیره تعالی و حب الملک و السلطنه ضروری لکل موجود کانوا بالضروره طالبین أن ینازعوه فی ملکه و ینتزعوه من یده حتی ینفرد الواحد منهم بالملک و السلطنه،و یتعین بالعزه و الهیمنه تعالی اللّه عن ذلک.

فملخص الحجه أنه لو کان معه آلهه کما یقولون و کان یمکن أن ینال غیره تعالی شیئا من ملکه الذی هو من لزوم ذاته الفیاضه لکل شیء و حب الملک و السلطنه مغروز فی کل موجود بالضروره لطلب اولئک الآلهه أن ینالوا ملکه فیعزلوه عن عرشه و یزدادوا ملکا علی ملک لحبهم ذلک ضروره لکن لا سبیل لأحد الیه تعالی عن ذلک.

فقوله: «إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلیٰ ذِی الْعَرْشِ سَبِیلاً» أی طلبوا سبیلا الیه لیغلبوه علی ماله من الملک،و التعبیر عنه تعالی بذی العرش و هو من الصفات الخاصه بالملک للدلاله علی أن ابتغاءهم السبیل الیه انما هو لکونه ذا العرش و هو ابتغاء سبیل الی عرشه لیستقروا علیه.

و من هنا یظهر أن قول بعضهم ان الحجه فی الآیه هی فی معنی الحجه التی فی قوله تعالی:

لَوْ کٰانَ فِیهِمٰا آلِهَهٌ إِلاَّ اللّٰهُ لَفَسَدَتٰا الآیه(الأنبیاء/۲۲)فی غیر محله.

قوله تعالی: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یَقُولُونَ عُلُوًّا کَبِیراً التعالی هو العلو البالغ و لهذا وصف المفعول المطلق أعنی «عُلُوًّا» بقوله: «کَبِیراً» فالکلام فی معنی تعالی تعالیا:

و الآیه تنزیه له تعالی عما یقولونه من ثبوت الآلهه و کون ملکه و ربوبیته مما یمکن أن یناله

۱ – ۱) .کما نقل انهم کانوا یقولون فی التلبیه:لبیک لا شریک لک الا شریکا هو لک تملکه و ما ملک و الکتب المقدسه البرهمنیه و البوذیه مملوءه ان الملک کله للّه سبحانه.

غيره.

قوله تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ الخ؛الآيه و ما قبلها و ان كانت واقعه موقع التعظيم كقوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ لكنها تفيد بوجه فى الحجه المتقدمه فإنها بمنزله المقدمه المتممه لقوله: «لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ» الخ؛فإن الحجه بالحقيقه قياس استثنائى و الذى بمنزله الاستثناء هو ما فى الآيه من تسبيح الأشياء له سبحانه كأنه قيل:لو كان معه آلهه لكان ملكه فى معرض المنازعه و المهاجمه لكن الملك من السماوات و الأرض و من فيهن ينزهه عن ذلک و يشهد أن لا شريک له فى الملک فإنها لم تبتدأ الا منه و لا تنتهى الا اليه و لا تقوم الا به و لا تخضع سجدا الا له فلا يتلبس بالملک و لا يصلح له الا هو فلا رب غيره.

و التسبيح تنزيه قولى كلامى و حقيقه الكلام الكشف عما فى الضمير بنوع من الإشاره اليه و الدلاله عليه غير أن الإنسان لما لم يجد الى اراده كل ما يريد الإشاره اليه من طريق التكوين طريقا التجأ الى استعمال الألفاظ و هى الأصوات الموضوعه للمعانى،و دل بها على ما فى ضميره،و جرت على ذلک سنه التفهيم و التفهم،و ربما استعان على بعض مقاصده بالإشاره بيده أو رأسه أو غيرهما،و ربما استعان على ذلک بكتابه أو نصب علامه.

و بالجمله فالذى يكشف به عن معنى مقصود قول و كلام و قيام الشىء بهذا الكشف قول منه و تكليم و ان لم يكن بصوت مقروع و لفظ موضوع،و من الدليل عليه ما ينسبه القرآن اليه تعالى من الكلام و القول و الأمر و نحو ذلک مما فيه معنى الكشف عن المقاصد و ليس من قبيل القول و الكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات و قد سماه اللّه سبحانه قولا و كلاما.

و عند هذه الموجودات المشهوده من السماء و الأرض و من فيهما ما يكشف كشفا صريحا عن وحدانيه ربها فى ربوبيته و ينزهه تعالى عن كل نقص و شين فهى تسبح اللّه سبحانه.

ص :٧١۶

و ذلک أنها لیست لها فی أنفسها إلّا محض الحاجه و صرف الفاقه الیه فی ذاتها و صفاتها و أحوالها.و الحاجه أقوی کاشف عما الیه الحاجه لا یستقل المحتاج دونه و لا ینفک عنه فکل من هذه الموجودات یکشف بحاجته فی وجوده و نقصه فی ذاته عن موجده الغنی فی وجوده التام الکامل فی ذاته و بارتباطه بسائر الموجودات التی یستعین بها علی تکمیل وجوده و رفع نقائصه فی ذاته أن موجده هو ربه المتصرف فی کل شیء المدبر لأمره.

ثم النظام العام الجاری فی الأشیاء الجامع لشتاتها الرابط بینها یکشف عن وحده موجدها، و أنه الذی الیه بوحدته یرجع الأشیاء و به بوحدته ترتفع الحوائج و النقائص فلا یخلو من دونه من الحاجه،و لا یتعری ما سواه من النقیصه و هو الرب لا رب غیره و الغنی الذی لا فقر عنده و الکمال الذی لا نقص فیه.

فکل واحد من هذه الموجدات یکشف بحاجته و نقصه عن تنزه ربه عن الحاجه و براءته من النقص حتی أن الجاهل المثبت لربه شرکاء من دونه أو الناسب الیه شیئا من النقص و الشین تعالی و تقدس یثبت بذلک تنزهه من الشریک و ینسب بذلک الیه البراءه من النقص فإن المعنی تصور فی ضمیر هذا الإنسان و اللفظ الذی یلفظه لسانه و جمیع ما استخدمه فی تأدیه هذا المقصود کل ذلک مور موجوده تکشف بحاجتها الوجودیه عن رب واحد لا شریک له و لا نقص فیه.

فمثل هذا الإنسان الجاحد فی کون جحوده اعترافا مثل ما لو ادعی إنسان أن لا إنسان متکلما فی الدنیا و شهد علی ذلک قولا فإن شهادته أقوی حجه علی خلاف ما ادعاه و شهد علیه و کلما تکررت الشهاده علی هذا النمط و کثر الشهود تأکدت الحجه من طریق الشهاده علی خلافها.

فإن قلت:مجرد الکشف عن التنزه لا یسمی تسبیحا حتی یقارن القصد و القصد مما یتوقف علی الحیاه و أغلب هذه الموجودات عادمه للحیاه کالأرض و السماء و أنواع الجمادات فلا

مخلص من حمل التسبيح على المجاز فتسبيحها دلالتها بحسب وجودها على تنزه ربها.

قلت:كلامه تعالى مشعر بأن العلم سار فى الموجودات مع سريان الخلقه فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود،و ليس لازم ذلک أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه و نوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان من ذلک أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالى حكايه عن أعضاء الإنسان: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِی أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده۲۱/)و قال: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده۱۱/)و الآيات فى هذا المعنى كثيره،و سيوافيک كلام مستقل فى ذلک إن شاء اللّه تعالى.

و إذا كان كذلک فما من موجود مخلوق إلا و هو يشعر بنفسه بعض الشعور و هو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجه الناقصه التى يحيط بها غنى ربه و كماله لا رب غيره فهو يسبح ربه و ينزهه عن الشريک و عن كل نقص ينسب اليه.

و بذلک يظهر أن لا وجه لحمل التسبيح فى الآيه على مطلق الدلاله مجازا فالمجاز لا يصار اليه إلا مع امتناع الحمل على الحقيقه،و نظيره قول بعضهم:إن تسبيح بعض هذه الموجودات قالى حقيقى كتسبيح الملائكه و المؤمنين من الإنسان و تسبيح بعضها حالى مجازى كدلاله الجمادات بوجودها عليه تعالى و لفظ التسبيح مستعمل فى الآيه على سبيل عموم المجاز،و قد عرفت ضعفه آنفا.

و الحق أن التسبيح فى الجميع حقيقى قالى غير أن كونه قاليا لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعه و أصوات مقروعه كما تقدمت الإشاره اليه و قد تقدم فى آخر الجزء الثانى من الكتاب كلام فى الكلام نافع فى المقام.

فقوله تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ يثبت لها تسبيحا حقيقيا و هو تكلمها بوجودها و ما له من الارتباط بسائر الموجودات الكائنه و بيانها

تنزه ربها عما ينسب اليه المشركون من الشركاء و جهات النقص.

و قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ تعميم التسبيح لكل شيء و قد كانت الجمله السابقه عدت السماوات و الأرض و من فيهن،و تزيد عليها بذكر الحمد مع التسبيح فتفيد أن كل شيء كما يسبحه تعالى كذلك يحمده بالثناء عليه بجميل صفاته و أفعاله.

و ذلك أنه كما أن عند كل من هذه الأشياء شيئا من الحاجه و النقص عائدا الى نفسه كذلك عنده من جميل صنعه و نعمته تعالى شيء راجع اليه تعالى موهوب من لدنه،و كما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها فى الوجود إظهار لحاجتها و نقصها كشف عن تنزه ربها عن الحاجه و النقص،و هو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبراز لما عندها من جميل فعل ربها الذى وراءها جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلاّ الثناء على الجميل الاختيارى فهى تحمد ربها كما تسبحه و هو قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

و بلفظ آخر اذا لوحظ الأشياء من جهه كشفها عما عند ربها بإبرازها ما عندها من الحاجه و النقص مع ما لها من الشعور بذلك كان ذلك تسبيحا منها،و إذا لوحظت من جهه كشفها ما لربها باظهارها ما عندها من نعمه الوجود و سائر جهات الكمال فهو حمد منها لربها و اذا لوحظ كشفها ما عند اللّه سبحانه من صفه جمال أو جلال مع قطع النظر عن علمها و شعورها بما تكشف عنه كان ذلك دلاله منها عليه تعالى و هى آياته.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالتسبيح فى الآيه ليس مجرد دلالتها عليه تعالى بنفى الشريك و جهات النقص فإن الخطاب فى قوله: وَ لٰكِنْ لاٰ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إما للمشركين و إما للناس أعم من المؤمن و المشرك و هم على أى حال يفقهون دلاله الأشياء على صانعها مع أن الآيه تنفى عنهم الفقه.

و لا يصغى الى قول من قال:إن الخطاب للمشركين و هم لعدم تدبرهم فيها و قله انتفاعهم بها كان فهمهم بمنزله العدم،و لا الى دعوى من يدعى أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من

التسبيح جعلوا ممن لا يفقه الجميع تغليبا.

و ذلك لأن تنزيل الفهم منزله العدم او جعل البعض كالجميع لا يلائم مقام الاحتجاج و هو سبحانه يخاطبهم فی سابق الآیه بالحجه علی التنزيه علی أن هذا النوع من المسامحه بالتغليب و نحوه لا يحتمله كلامه تعالی.

و أما ما وقع فی قوله بعد هذه الآیه: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ الی آخر الآيات؛من نفی الفقه عن المشركين فليس يؤيد ما ذكروه فإن الآيات تنفی عنهم فقه القرآن و هو غير نفی فقه دلاله الأشياء علی تنزهه تعالی إذ بها تتم الحجه عليهم.

فالحق أن التسبيح الذی تثبته الآیه لكل شیء هو التسبيح بمعناه الحقيقی و قد تكرر فی كلامه تعالی إثباته للسماوات و الأرض و من فيهن و ما فيهن و فيها موارد لا تحتمل إلا الحقيقه كقوله تعالی: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الانبياء/٧٩)،و قوله: إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (ص/١٨)،و يقرب منه قوله: يا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبأ/١٠)،فلا معنی لحملها علی التسبيح بلسان الحال.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعه و أهل السنه أن للأشياء تسبيحا و منها روايات تسبيح الحصی فی كف رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلم و سيوافيك بعضها فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه تعالی.

و قوله: إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً أی يمهل فلا يعاجل بالعقوبه و يغفر من تاب و رجع اليه،و فی الوصفين دلاله علی تنزهه تعالی عن كل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت،و لازم المغفره أن لا يتضرر بالمغفره و لا بإفاضه الرحمه فملكه و ربوبيته لا يقبل نقصا و لا زوالا.

و قد قيل فی وجه هذا التذييل أنه إشاره الی أن الإنسان فی قصوره عن فهم هذا التسبيح الذی لا يزال كل شیء مشتغلا به حتی نفسه بجميع أركان وجوده بأبلغ بيان،مخطئ من حقه

أن يؤاخذ به لكن اللّه سبحانه بحلمه مغفرته لا يعاجله و يعفو عن ذلک إن شاء.

و هو وجه حسن و لازمه أن يكون الإنسان فی وسعه أن يفقه هذا التسبيح من نفسه و من غيره،و لعلنا نوفق لبيانه إن شاء اللّه فی موضع يليق به.

قوله تعالی: وَ إِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَکَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجٰاباً مَسْتُوراً ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس علی خلاف الحجابات المتداوله بين الناس المعموله لستر شیء عن شیء فهو حجاب معنوی مضروب بين النبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم بما أنه قار للقرآن حامل له و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخره يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقه ما عنده من معارف القرآن و يؤمنوا به و لا أن يذعنوا بأنه رسول من اللّه جاءهم بالحق،و لذلک تولوا عنه إذا ذكر اللّه وحده و بالغوا فی إنكاره المعاد و رموه بأنه رجل مسحور،و الآيات التاليه تؤيد هذا المعنی.

و إنما وصف المشركين بقوله: اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لأن إنكار الآخره يلغو معه الإيمان باللّه وحده و بالرساله فالكفر بالمعاد يستلزم الفر بجميع اصول الدين،و ليكون تمهيدا لما سيذكر من إنكارهم البعث.

و المعنی:إذا قرأت القرآن و تلوته عليهم جعلنا بينک و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخره-و فی توصيفهم بذلک ذم لهم- حجابا معنويا محجوبا عن فهمهم فلا يسعهم أن يسمعوا ذكره تعالی وحده،و لا أن يعرفوک بالرساله الحقه،و لا أن يؤمنوا بالمعاد و يفقهوا حقيقته.

قوله تعالی: وَ جَعَلْنٰا عَلیٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِی آذٰانِهِمْ وَقْراً وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ نُفُوراً الاكنه جمع كن بالكسر و هو علی ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشیء و يستر به عن غيره،و الوقر الثقل فی السمع،و فی المجمع:النفور جمع نافر،و هذا الجمع قياس فی كل فاعل اشتق من فعل مصدره علی فعول مثل

ركوع و سجود و شهود.انتهى.

و قوله: وَ جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً الخ؛كالبيان للحجاب المذكور سابقا أى أغشينا قلوبهم بأغشيه و حجب حذار أن يفقهوا القرآن و جعلنا فى آذانهم وقرا و ثقلا أن يسمعوه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول و لا يفقهونه فقه إيمان و تصديق كل ذلك مجازاه لهم بما كفروا و فسقوا.

و قوله: «وَ إِذٰا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ» أى على نعت التوحيد و نفى الشريك ولوا على أدبارهم نافرين و أعرضوا عنه مستدبرين.

قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ الى آخر الآيه؛ النجوى مصدر و لذا يوصف به الواحد و المثنى و المجموع و المذكر و المؤنث و هو لا يتغير فى لفظه.

و الآيه بمنزله الحجه على ما ذكر فى الآيه السابقه أنه جعل على قلوبهم أكنه أن يفقهوه و فى آذانهم وقرا فقوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَسْتَمِعُونَ بِهِ» الخ؛ناظر الى جعل الوقر و قوله: «وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ» الخ؛ناظر الى جعل الأكنه.

يقول تعالى:نحن أعلم بآذانهم التى يستمعون بها اليك و بقلوبهم التى ينظرون بها فى أمرك -و كيف لا؟و هو تعالى خالقها و مدبر أمرها فإخباره أنه جعل على قلوبهم أكنه و فى آذانهم وقرا أصدق و أحق بالقبول-فنحن أعلم بما يستمعون به و هو آذانهم فى وقت يستمعون اليک، و نحن أعلم أى بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجى بعضهم بعضا متحرزين عن الإجهار و رفع الصوت و هم يرون الرأى إذ يقول الظالمون أى يقول القائلون منهم و هم ظالمون فى قولهم:إن تتبعون إلا رجلا مسحورا،و هذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

و فى الآيه إشعار بل دلاله على أنهم كانوا لا يأتونه صلّى اللّه عليه و آله و سلم لاستماع القرآن علنا حذرا من اللائمه و إنما يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضا على هذا الحال تلاوموا

بالنجوی خوفا أن یحس النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنون بموقفهم فقال بعضهم لبعض:إن تتبعون إلاـ رجلا مسحورا،و بهذا یتأید ما ورد فی أسباب النزول بهذا المعنی،و سنورده إن شاء اللّه فی البحث الروائی الآتی.

قوله تعالی: أُنْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلاً المثل بمعنی الوصف،و ضرب الأمثال التوصیف بالصفات و معنی الآیه ظاهر،و هی تفید أنهم لاـ مطمع فی إیمانهم کما قال تعالی: وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاـ یُؤْمِنُونَ (یس/١٠).

قوله تعالی: وَ قالُوا أَ إِذا کُنّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً قال فی المجمع:الرفات ما تکسر و بلی من کل شیء،و یکثر بناء فعال فی کل ما یحطم و یرضض یقال:حطام و دقاق و تراب و قال المبرد:کل شیء مدقوق مبالغ فی دقه حتی انسحق فهو رفات.انتهی.

فی الآیه مضی فی بیان عدم فقههم بمعارف القرآن حیث استبعدوا البعث و هو من أهم ما یثبته القرآن و أوضح ما قامت علیه الحجج من طریق الوحی و العقل حتی وصفه اللّه فی مواضع من کلامه بأنه«لاـ ریب فیه»و لیس لهم حجه علی نفیه غیر أنهم استبعدوه استبعادا.

و من أعظم ما یزین فی قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للانسان و من المستبعد أن یتکون الشیء من عدم بحت کما قالوا:أ إذا کنا عظاما و رفاتا بفساد أبداننا عن الموت حتی إذا لم یبق منها إلا العظام ثم رمت العظام و صارت رفاتا أ إنا لفی خلق جدید نعود أناسی کما کنا؟ذلک رجع بعید و لذلک رده سبحانه الیهم بتذکیرهم القدره المطلقه و الخلق الأول کما سیأتی.

قوله تعالی: قُلْ کُونُوا حِجارَهً أَوْ حَدِیداً أَوْ خَلْقاً مِمّا یَکْبُرُ فِی صُدُورِکُمْ جواب عن استبعادهم،و قد عبروا فی کلامهم بقوله: «أَ إِذا کُنّا» فأمر سبحانه

نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یأمرهم أمر تسخیر أن یکونوا حجاره أو حدیدا،الخ؛مما تبدیله الی الإنسان أبعد و أصعب عندهم من تبدیل العظام لرفات الیه.

فیکون إشاره الی أن القدره المطلقه الإلهیه لا یشقها شیء ترید تجدید خلقه سواء أ کان عظاما و رفاتا أو حجاره أو حدیدا أو غیر ذلک.

و المعنی:قل لهم لیکونوا شیئا أشد من العظام و الرفات حجاره أو حدیدا أو مخلوقا آخر من الأشیاء التی تکبر فی صدورهم و یبالغون فی استبعاد أن یخلق منه الإنسان-فلیکونوا ما شاءوا فإن اللّه سیعید الیهم خلقهم الأول و یبعثهم.

قوله تعالی: فَسَیَقُولُونَ مَنْ یُعِیدُنٰا قُلِ الَّذِی فَطَرَکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ أی فإذا أجبت عن استبعادهم بأنهم مبعوثون أیاما کانوا و الی أی حال و صفه تحولوا سیسألونک و یقولون من یعیدنا الی ما کنا علیه من الخلقه الإنسانیه؟فاذکر لهم اللّه سبحانه و ذکرهم من وصفه بما لا یبقی معه لاستبعادهم محل و هو فطره إیاهم أول مره و لم یکونوا شیئا و قل:یعیدکم الذی خلقکم اول مره.

ففی تبدیل لفظ الجلاله من قوله:«الذی خلقکم أول مره»إثبات الإمکان و رفع الاستبعاد باراءه المثل.

قوله تعالی: فَسَیُنْغِضُونَ إِلَیْکَ رُؤُسَهُمْ وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هُوَ قُلْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَرِیباً قال الراغب:الإنغاض تحریک الرأس نحو الغیر کالمتعجب منه.انتهی.

و المعنی:إذا قرعتم بالحجه و ذکرتهم بقدره اللّه علی کل شیء و فطره إیاهم أول مره وجدتهم یحرکون الیک رءوسهم تحریک المستهزئ المستخف بک المستهین له و یقولون متی هو؟قل عسی أن یکون قریبا فإنه لا سبیل الی العلم به و هو من الغیب الذی لا یعلمه إلا اللّه لکن وصف الیوم معلوم باعلامه تعالی و لذا وصفه لهم واضعا الصفه مکان الوقت فقال:یوم یدعوکم فتستجیبون بحمده،الآیه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً «يَوْمَ» منصوب بفعل مضمر أى تبعثون يوم كذا و كذا و الدعوه هى أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء و استجابتهم هى قبولهم الدعوه الإلهيه،و قوله: «بِحَمْدِهِ» حال من فاعل تستجيبون و التقدير تستجيبون متلبسين بحمده أى حامدين له تعدون البعث و الإعاده منه فعلا جميلا يحمد فاعله و يثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أن من الواجب فى الحكمه الإلهيه أن يبعث الناس للجزاء و ان تكون بعد الاولى اخرى.

و قوله: وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً أى تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا فى القبور بعد الموت الا زمانا قليلا و ترون أن اليوم كان قريبا منكم جدا.

و قد صدقهم اللّه فى هذه المزعمه و ان خطأهم فيما ضربوا له من المده قال تعالى: قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون/١١۴)،و قال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ (الروم/۵۶)الى غير ذلك من الآيات.

و فى التعرض لقوله: «وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً» تعريض لهم فى استبطائهم اليوم و استهزائهم به،و تأييد لما مر من رجاء قربه فى قوله: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً أى و انكم ستعدونه قريبا،و كذا فى قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» تعريض لهم فى استهزائهم به و تعجبهم منه أى و انكم ستحمدونه يوم البعث و انتم اليوم تستبعدونه و تستهزءون بأمره.

قوله تعالى: وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ الخ؛يلوح من السياق أن المراد بعبادى هم المؤمنون فالإضافه للتشريف،و قوله:

«قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا» الخ؛أى مرهم أن يقولوا فهو أمر و جواب أمر مجزوم،و قوله: «الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى الكلمه التى هى أحسن،و هو اشتمالها على الأدب الجميل و تعريها عن الخشونه و الشتم و سوء الأمر.

قوله تعالی: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً قد تقدم أن الآیه و ما بعدها تتمه السیاق السابق،و علی ذلک فصدر الآیه من تمام کلام النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الذی أمر بإلقائه علی المؤمنین بقوله: «قُلْ لِعِبٰادِي يَقُولُوا» الخ؛و ذیل الآیه خطاب للنبی خاصه فلا التفات فی الکلام.

و یمکن أن یکون الخطاب فی صدر الآیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و المؤمنین جمیعا بتغلیب جانب خطابه علی غیبتهم،و هذا أنسب بسیاق الآیه السابقه و تلاحق الکلام،و الکلام للّه جمیعا.

و کیف کان فقوله: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» فی مقام تعلیل الأمر السابق ثانیا،و یفید أنه یجب علی المؤمنین أن یتحرزوا من اغلاظ القول علی غیرهم و القضاء بما اللّه أعلم به من سعاده أو شقاء کأن یقولوا:فلان سعید بمتابعه النبی و فلان شقی و فلان من أهل الجنه و فلان من أهل النار و علیهم أن یرجعوا الأمر و یفوضوه الی ربهم فربکم -و الخطاب للنبی و غیره-أعلم بکم و هو یقضی فیکم علی ما علم من استحقاق الرحمه أو العذاب إن یشأ یرحمکم و لا یشاء ذلک الا مع الایمان و العمل الصالح علی ما بینه فی کلامه أو ان یشأ یعذبکم و لا یشاء ذلک الا مع الکفر و الفسوق،و ما جعلناک أیها النبی علیهم وکیلا مفوضا الیه أمرهم حتی تختار لمن تشاء ما تشاء فتعطی هدا و تحرم ذاک.

و من ذلک یظهر أن التردید فی قوله: «إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» باعتبار المشیه المختلفه باختلاف الموارد بالإیمان و الکفر و العمل الصالح و الطالح و أن قوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً» لردع المؤمنین عن أن یعتمدوا فی نجاتهم علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و الانتساب الی قبول دینه نظیر قوله: لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ (النساء/ ۱۲۳)و قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ النَّصٰارىٰ وَ الصّٰابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (البقره/۶۲)و آیات اخری فی هذا المعنی.

ص: ۷۲۶

قوله تعالی: وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ النَّبِیِّینَ عَلیٰ بَعْضٍ وَ آتَیْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً صدر الآیه توسعه فی معنی التعلیل السابق کأنه قیل:و کیف لا یکون أعلم بکم و هو أعلم بکم و هو أعلم بمن فی السماوات و الأرض و أنتم منهم.

و قوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ النَّبِیِّینَ عَلیٰ بَعْضٍ کأنه تمهید لقوله: «وَ آتَیْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً» و الجمله تذکر فضل داود علیه السّلام بکتابه الذی هو زبور و فیه أحسن الکلمات فی تسبیحه و حمده تعالی،و فیه تحریض للمؤمنین أن یرغبوا فی احسن القول و یتأدبوا بالأدب الجمیل فی المحاوره و الکلام (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۵۶ الی ۶۵]

اشاره

قُلِ اُدْعُوا اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ یَمْلِکُونَ کَشْفَ اَلضُّرِّ عَنْکُمْ وَ لاٰ تَحْوِیلاً (۵۶) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ یَبْتَغُونَ إِلیٰ رَبِّهِمُ اَلْوَسِیلَهَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ وَ یَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ یَخٰافُونَ عَذٰابَهُ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّکَ کٰانَ مَحْذُوراً (۵۷) وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّٰ نَحْنُ مُهْلِکُوهٰا قَبْلَ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ أَوْ مُعَذِّبُوهٰا عَذٰاباً شَدِیداً کٰانَ ذٰلِکَ فِی اَلْکِتٰابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ مٰا مَنَعَنٰا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیٰاتِ إِلاّٰ أَنْ کَذَّبَ بِهَا اَلْأَوَّلُونَ وَ آتَیْنٰا ثَمُودَ اَلنّٰاقَهَ مُبْصِرَهً فَظَلَمُوا بِهٰا وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآیٰاتِ إِلاّٰ تَخْوِیفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ وَ مٰا جَعَلْنَا اَلرُّؤْیَا اَلَّتِی أَرَیْنٰاکَ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّجَرَهَ اَلْمَلْعُونَهَ فِی اَلْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ طُغْیٰاناً کَبِیراً (۶۰) وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ قٰالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً (۶۱) قٰالَ أَ رَأَیْتَکَ هٰذَا اَلَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاّٰ قَلِیلاً (۶۲) قٰالَ اِذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُکُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اِسْتَفْزِزْ مَنِ اِسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ وَ شٰارِکْهُمْ فِی اَلْأَمْوٰالِ وَ اَلْأَوْلاٰدِ وَ عِدْهُمْ وَ مٰا یَعِدُهُمُ اَلشَّیْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ کَفیٰ بِرَبِّکَ وَکِیلاً (۶۵)

۱- ۱) .الاسراء ۴۰-۵۵:بحث روائی فی تسبیح الاشیاء للّه تعالی؛ذکر اللّه.

بیان:

قوله تعالی: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاٰ تَحْوِيلاً الزعم بتثليث الزای مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله فی الاعتقاد الباطل،و لذا نقل عن ابن عباس أن ما كان فی القرآن من الزعم فهو كذب.

و الدعاء و النداء واحد غير أن النداء إنما هو فيما إذا كان معه صوت و الدعاء ربما يطلق على ما كان باشاره أو غيرها،و ذكر بعضهم فی الفرق بينهما أن النداء قد يقال إذا قيل:يا أو أيا أو

ص: ۷۲۸

نحوهما من غير أن يضم اليه الاسم،و الدعاء لا يكاد يقال إلاّ إذا كان معه الاسم نحو يا فلان.

انتهى.

و الآيه تحتج على نفى الوهيه آلهتهم من دون اللّه بأن الرب المستحق للعباده يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع و دفع الضر إذ هو لازم ربوبيه الرب على أن المشركين مسلمون لذلك و إنما اتخذوا الآلهه و عبدوهم طمعا فى نفعهم و خوفا من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون اللّه لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهه،و الشاهد على ذلك أن يدعوهم هؤلاء الذين يعبدونهم لكشف ضر مسهم أو تحويله عنهم الى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفا و لا تحويلا.

و كيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضر أو تحويله و يستقلون بقضاء حاجه و رفع فاقه و هم فى أنفسهم مخلوقون للّه يبتغون اليه الوسيله يرجون رحمته و يخافون عذاب باعتراف من المشركين.

قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ الى آخر الآيه؛ «أُولٰئِكَ» مبتدأ و «الَّذِينَ» صفه له و «يَدْعُونَ» صلته و ضميره عائد الى المشركين،و «يَبْتَغُونَ» خبر «أُولٰئِكَ» و ضمير و سائر ضمائر الجمع الى آخر الآيه راجعه الى «أُولٰئِكَ» و قوله: «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» بيان لابتغاء الوسيله لكون الابتغاء فحصا و سؤالا فى المعنى هذا ما يعطيه السياق.

و الوسيله على ما فسروه هى التوصل و التقرب،و ربما استعملت بمعنى ما به التوصل و التقرب و لعله هو الأنسب بالسياق بالنظر الى تعقيبه بقوله: «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» .

و المعنى-و اللّه أعلم-اولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكه و الجن و الإنس يطلبون ما يتقربون به الى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟حتى يسلكوا سبيله و يقتدوا بأعماله ليتقربوا اليه تعالى كتقربه و يرجون رحمته من كل ما يستمدون به فى وجودهم و يخافون

ص :۷۲۹

عذاب فیطیعونه و لا یعصونه ان عذاب ربک کان محذورا یجب التحرز منه.

قوله تعالی: وَ إِنْ مِنْ قَرْیَهٍ إِلاّ نَحْنُ مُهْلِکُوها قَبْلَ یَوْمِ الْقِیامَهِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِیداً کانَ ذٰلِکَ فِی الْکِتابِ مَسْطُوراً ذکروا أن المراد بالعذاب الشدید عذاب الاستئصال فیبقی للإهلاک المقابل له الإماته بحتف أنف فالمعنی ما من قریه إلا نحن نمیت أهلها قبل یوم القیامه أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل یوم القیامه إذ لا قریه بعد طی بساط الدنیا بقیام الساعه و قد قال تعالی: وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَیْها صَعِیداً جُرُزاً (الکهف۸/) و لذا قال بعضهم:إن الإهلاک للقری الصالحه و التعذیب للقری الطالحه.

و قوله: کانَ ذٰلِکَ فِی الْکِتابِ مَسْطُوراً أی اهلاک القری او تعذیبها عذابا شدیدا کان فی الکتاب مسطورا و قضاء محتوما،و بذلک یظهر أن المراد بالکتاب اللوح المحفوظ الذی یذکر القرآن أن اللّه کتب فیه کل شیء کقوله: وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ (یس۱۲/)،و قوله: وَ ما یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِکَ وَ لا أَکْبَرَ إِلاّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (یونس۶۱/).

فالحق ان الکتاب المبین هو متن (۱)الأعیان بما فیه من الحوادث من جهه ضروره ترتب المعلولات علی عللها،و هو القضاء الذی لا یرد و لا یبدل لا من جهه امکان الماده و قوتها، و التعبیر عنه بالکتاب و اللوح لتقریب الأفهام الی حقیقه المعنی بالتمثیل،و سنستوفی الکلام فی هذا البحث ان شاء اللّه فی موضع یناسبه.

قوله تعالی: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیاتِ إِلاّ أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ الی آخر الآیه؛قد تقدم وجه اتصال الآیه بما قبلها و محصله ان الآیه السابقه افادت ان الناس -و آخر و هم کأولیهم-مستحقون بما فیهم من غریزه الفساد و الفسق لحلول الهلاک و سائر

۱- ۱) .بما لها من الثبوت فی مرتبه عللها لا فی مرتبه انفسها«منه».

انواع العذاب الشديد،و قد قضى اللّه على القرى ان تهلك او تعذب عذابا شديدا و هذا هو الذى منعنا ان نرسل بالآيات التى يقترحونها فإن السابقين منهم اقترحوها فأرسلناها اليهم فكذبوا بها فأهلكناهم،و هؤلاء اللاحقون فى خلق سابقيهم فلو ارسلنا بالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محاله كما حل بسابقيهم،و ما يريد اللّه سبحانه ان يعاجلهم بالعقوبه.

و قوله: إِلاّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ التعبير عن الأمم الهالكه بالأولين المضايف للآخرين فيه ايماء الى ان هؤلاء آخر اولئك الأولين فهم فى الحقيقه امه واحده لآخرها من الخلق و الغريزه ما لأولها،و لذيلها من الحكم ما لصدرها و لذلك كانوا يقولون مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِي آبٰائِنَا الْأَوَّلِينَ (المؤمنون/٢۴)و يكررون ذكر هذه الكلمه.

و كيف كان فمعنى الآيه انا لم نرسل الآيات التى يقترحونها-و المقترحون هم قريش-لأنا لو ارسلناها لم يؤمنوا و كذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما انا ارسلناها الى الأولين بعد اقتراحهم اياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكنا قضينا على هذه الامه أن لا نعذبهم الا بعد مهله و نظره كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

و قوله: وَ آتَيْنٰا ثَمُودَ النّٰاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهٰا ثمود هم قوم صالح و لقد آتاهم الناقه آيه،و المبصره الظاهره البينه على حد ما فى قوله تعالى: وَ جَعَلْنٰا آيَةَ النَّهٰارِ مُبْصِرَةً (الإسراء/١٢)،و هى صفه الناقه او صفه لمحذوف و التقدير آيه مبصره و المعنى و آتينا قوم ثمود الناقه حالكونها ظاهره بينه او حالكونها آيه ظاهره بينه فظلموا أنفسهم بسببها او ظلموا مكذبين بها.

و قوله: وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآيٰاتِ إِلاّ تَخْوِيفاً اى ان الحكمه فى الإرسال بالآيات التخويف و الإنذار فإن كانت من الآيات التى تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك فى الدنيا و عذاب فى الآخره،و إن كانت من غيرها ففيها تخويف و إنذار بعقوبه العقبى.

و ليس من البعيد ان يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف و الوحشه بارسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما فى قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (النحل/۴۷)فيرجع محصل معنى الآيه انا لا نرسل بالآيات المقترحه لأنا لا نريد ان نعذبهم بعذاب الاستئصال و إنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفا ليحذروا بمشاهدتها عما هو اشد منها و افظع و نسب الوجه الى بعضهم.

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنٰا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ طُغْيٰاناً كَبِيراً فقرات الآيه و هى اربع واضحه المعانى لكنها بحسب ما بينها من الاتصال و ارتباط بعضها ببعض لا تخلد من إجمال و السبب الأصلى فى ذلك الفقرتين الوسطيين الثانيه و الثالثه.

فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التى أراها نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لم يقع فى سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا،و الذى ذكره من رؤياه فى مثل قوله: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنٰامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَرٰاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ (الأنفال/۴۳)و قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ (الفتح/۲۷)من الحوادث الواقعه بعد الهجره و هذه الآيه مكيه نازله قبل الهجره.

فالذى يهدى اليه الإمعان فى البحث أن المراد بالشجره الملعونه قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرفون بين المسلمين إما بالنسل و إما بالعقيده و المسلك هم فتنه للناس،و لا ينبغى أن يرتاب فى أن فى سياق الآيه تلويحا بالارتباط بين الفقرتين أعنى قوله:

«وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» و خاصه بعد الإمعان فى تقدم قوله: «وَ إِذْ قُلْنٰا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ» و تذييل الفقرات جميعا بقوله: «وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ طُغْيٰاناً كَبِيراً» فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر فى أن الآيه بصدد الإشاره

الی أمر واحد هو سبحانه محیط به و لا ینفع فیه عظه و تخویف إلا زیاده فی الطغیان.

و یستفاد من ذلک أن الشأن هو أن اللّه سبحانه أری نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی الرؤیا هذه الشجره الملعونه و بعض أعمالهم فی الإسلام ثم بین لرسوله أن ذلک فتنه.

فقوله: وَ إِذْ قُلْنٰا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ مقتضی السیاق أن المراد بالإحاطه الإحاطه العلمیه،و الظرف متعلق بمحذوف و التقدیر و اذکر اذ قلنا لک کذا و کذا و المعنی و اذکر للتثبت فیما ذکرنا لک فی هذه الآیات أن شیمه الناس الاستمرار فی الفساد و الفسوق و اقتداء أخلافهم بأسلافهم فی الإعراض عن ذکر اللّه و عدم الاعتناء بآیات اللّه، وقتا قلنا لک ان ربک أحاط بالناس علما و علم أن هذه السنه ستجری بینهم کما کانت تجری.

و قوله: وَ مٰا جَعَلْنَا الرُّؤْیَا الَّتِی أَرَیْنٰاکَ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلنّٰاسِ وَ الشَّجَرَهَ الْمَلْعُونَهَ فِی الْقُرْآنِ محصل معناه علی ما تقدم أنه لم نجعل الشجره الملعونه فی القرآن التی تعرفها بتعریفنا،و ما أریناک فی المنام من أمرهم الا فتنه للناس و امتحانا و بلاء نمتحنهم و نبلوهم به و قد أحطنا بهم.

و قوله: وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا یَزِیدُهُمْ إِلاّٰ طُغْیٰاناً کَبِیراً ضمیرا الجمع للناس ظاهرا و المراد بالتخویف اما التخویف بالموعظه و البیان أو بالآیات المخوفه التی هی دون الآیات المهلکه المبیده،و المعنی و نخوف الناس فما یزیدهم التخویف الا طغیانا و لا أی طغیان کان بل طغیانا کبیرا أی انهم لا یخافون من تخویفنا حتی ینتهوا عما هم علیه بل یجیبوننا بالطغیان الکبیر فهم یبالغون فی طغیانهم و یفرطون فی عنادهم مع الحق.

و سیاق الآیه سیاق التسلیه فاللّه سبحانه یعزی نبیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم فیها بأن الذی أراه من الأمر، و عرفه من الفتن،و قد جرت سنته تعالی علی امتحان عباده بالمحن و الفتن،و قد اعترف بذلک غیر واحد من المفسرین.

و یؤید جمیع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنه و اتفقت علیه أحادیث أئمه أهل

البیت علیهم السّلام أن المراد بالرؤیا فی الآیه هی رؤیا رآها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم فی بنی امیه و الشجره شجرتهم و سیوافیک الروایات فی البحث الروائی الآتی ان شاء اللّه تعالی (۱).

قوله تعالی: وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِیسَ قٰالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً قال فی المجمع:قال الزجاج:طینا منصوب علی الحال بمعنی أنک أنشأته فی حال کونه من طین،و یجوز أن یکون تقدیره من طین فحذف«من»فوصل الفعل،و مثله قوله: أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَکُمْ أی لأولادکم و قیل:إنه منصوب علی التمیز.

انتهی.

فالمعنی:و اذکر اذ قال ربک للملائکه اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابلیس،فکأنه قیل:فما ذا صنع؟او فما ذا قال؟اذ لم یسجد؟فقیل:انه انکر الأمر بالسجده و قال أ أسجد-و الاستفهام للانکار-لمن خلقته من طین و قد خلقتنی من نار و هی اشرف من الطین.

قوله تعالی: قٰالَ أَ رَأَیْتَکَ هٰذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلاّٰ قَلِیلاً الکاف فی «أَ رَأَیْتَکَ» زائده لا محل لها من الإعراب و انما تفید معنی الخطاب کما فی أسماء الإشاره،و المراد بقوله: «هٰذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ» آدم علیه السّلام و تکریمه علی ابلیس تفضیله علیه بأمره بالسجده و رجمه حیث أبی.

و من هنا یظهر أنه فهم التفضیل من أمر السجده کما أنه اجترأ علی اراده اغواء ذریته مما جری فی محاورته تعالی الملائکه من قولهم: أَ تَجْعَلُ فِیهٰا مَنْ یُفْسِدُ فِیهٰا وَ یَسْفِکُ الدِّمٰاءَ (البقره/۳۰)،و قد تقدم تفسیر الآیه ما ینفع هاهنا.

و الاحتناک-علی ما فی المجمع-الاقتطاع من الأصل،یقال:احتنک فلان ما عند فلان من مال أو علم اذا استقصاه فأخذه کله،و احتنک الجراد المزرع اذا أکله کله،و قیل:انه من قولهم:

۱- ۱) .الاسراء ۵۶-۶۵:بحث فی الرؤیا التی اراها اللّه نبیه.

حنـك الـدابه بحبلهـا اذا جعـل فى حنكهـا الأسـفل حبلاـ يقودهـا به،و الظاهر أن المعنى الأخير هو الأصل فى الباب،و الاحتناك الإلجام.

و المعنى:قال ابليس بعد ما عصـى و أخذه الغضب الإلهى رب أ رأيت هذا الذى فضـلته بأمرى بسـجدته و رجمى بمعصـيته اقسم لئن اخرتنى الى يوم القيامه و هو مده مكث بنى آدم فى الأرض لألجمن ذريته الا قليلا منهم و هم المخلصون.

قوله تعـالى: قٰالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰاؤُكُمْ جَزٰاءً مَوْفُوراً قيل:الأمر بالـذهاب ليس على حقيقته و إنما هو كنايه عن تخليته و نفسه كما تقول لمن يخالفك:افعل ما تريد،و قيل:الأمر على حقيقته و هو تعبير آخر لقوله فى موضع آخر:

فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ و الموفور المكمل فالجزاء الموفور الجزاء الذى يوفى كله و لا يدخر منه شىء،و معنى الآيه واضح.

قـوله تعـالى: وَ اسْـتَفْزِزْ مَـنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُـمْ بِصَوْتِـكَ وَ أَجْلِـبْ عَلَيْهِـمْ بِخَيْلِـكَ وَ رَجِلِـكَ الى آخر الآـيه؛الاسـتفزاز الازعـاج و الاسـتنهاض بخفه و إسـراع،و الإجلاـب كمـا فى المجمـع السوق بجلبه من السـائق و الجلبه شـده الصوت،و فى المفردات:أصـل الجلب سوق الشىء يقال:جلبت جلبا قال الشاعر:«و قد يجلب الشىء البعيد الجواب»و أجلبت عليه صحت عليه بقهر،قال اللّه عزّ و جل: «وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ» انتهى.

و الخيـل-على مـا قيـل-الأـفراس حقيقه و لاـ واحـد له من لفظه و يطلق على الفرسان مجازا، و الرجل بالفتـح فالكسـر هو الراجل كحـذر و حـاذر و كمـل و كامـل و هو خلاـف الراكب،و ظـاهر مقابلته بالخيل أن يكون المراد به الرجاله و هم غير الفرسان من الجيش.

فقوله: وَ اسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ أى اسـتنهض للمعصيه من استطعت أن تستنهضه من ذريه آدم-و هم الذين يتولونه منهم و يتبعونه كما ذكره فى سوره الحجر-بصوتك،و كأن الاستفزاز بالصوت كنايه عن استخفافهم بالوسوسه الباطله من غير

حقیقه،و تمثیل بما یساق الغنم و غیره بالنعیق و الزجر و هو صوت لا معنی له.

و قوله: وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ أی و صح علیهم لسوقهم الی معصیه اللّه بأعوانک و جیوشک فرسانهم و رجالتهم و کأنه اشاره الی أن قبیله و أعوانه منهم من یعمل ما یعمل بسرعه کما هو شأن الفرسان فی معرکه الحرب و منهم من یستعمل فی غیر موارد الحملات السریعه کالرجاله،فالخیل و الرجل کنایه عن المسرعین فی العمل و المبطئین فیه و فیه تمثیل نحو عملهم.

و قوله: «وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ» الشرکه إنما یتصور فی الملک و الاختصاص و لازمه کون الشریک سهیما لشریکه فی الانتفاع الذی هو الغرض من اتخاذ المال و الولد فإن المال عین خارجی منفصل من الإنسان و کذا الولد شخص إنسانی مستقل عن ولدیه،و لو لا غرض الانتفاع لم یعتبر الإنسان مالیه لمال و لا اختصاصا بولد.

و قوله: وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً أی ما یعدهم إلا وعدا غارا بإظهار الخطأ فی صوره الصواب و الباطل علی هیئه الحق فالغرور مصدر بمعنی اسم الفاعل للمبالغه.

قوله تعالی: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً المراد بعبادی أعم من المخلصین الذین استثناهم إبلیس بقوله: «إِلاّ قَلِيلاً» بل غیر الغاوین من أتباع إبلیس کما قال فی موضع آخر: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (الحجر/۴۲)و الإضافه للتشریف.

و قوله: وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً أی قائما علی نفوسهم و أعمالهم حافظا لمنافعهم متولیا لامورهم فإن الوکیل هو الکافل لأمور الغیر القائم مقامه فی تدبیرها و إداره رحاها،و ذلک یظهر أن المراد به وکالته الخاصه لغیر الغاوین من عباده کما هو فی سوره الحجر.

و قد تقدمت أبحاث مختلفه حول قصه سجده آدم نافعه فی هذا المقام فی مواضع متفرقه من

ص :۷۳۶

کلامه تعالی کسوره البقره و سوره الأعراف و سوره الحجر (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۶۶ الی ۷۲]

اشاره

رَبُّکُمُ اَلَّذِی یُزْجِی لَکُمُ اَلْفُلْکَ فِی اَلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ کانَ بِکُمْ رَحِیماً (۶۶) وَ إِذا مَسَّکُمُ اَلضُّرُّ فِی اَلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِیّاهُ فَلَمّا نَجّاکُمْ إِلَی اَلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ کانَ اَلْإِنْسانُ کَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جانِبَ اَلْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلاً (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ یُعِیدَکُمْ فِیهِ تارَةً أُخْری فَیُرْسِلَ عَلَیْکُمْ قاصِفاً مِنَ اَلرِّیحِ فَیُغْرِقَکُمْ بِما کَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ عَلَیْنا بِهِ تَبِیعاً (۶۹) وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ اَلطَّیِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلاً (۷۰) یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتابَهُمْ وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (۷۱) وَ مَنْ کانَ فِی هذِهِ أَعْمی فَهُوَ فِی اَلْآخِرَهِ أَعْمی وَ أَضَلُّ سَبِیلاً (۷۲)

۱- ۱) .الاسراء ۵۶-۶۵:بحث روائی فی:اهلاک القری؛الرؤیا التی اراها اللّه نبیه؛الشجره الملعونه فی القرآن؛شرک الشیطان.

بيان:

قوله تعالى: رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كٰانَ بِكُمْ رَحِيماً الازجاء على ما فى مجمع البيان سوق الشىء حالا بعد حال فالمراد به إجراء السفن فى البحر بإرسال الرياح و نحوه و جعل الماء رطبا مائعا يقبل الجرى و الخرق، و الفلك جمع الفلكه و هى السفينه.

و ابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما يجود غالبا بما زاد على مقدار حاجه نفسه و فضل الشىء ما زاد و بقى منه و من ابتدائيه،و ربما قيل:إنها للتبعيض،و ذيل الآيه تعليل للحكم بالرحمه،و المعنى ظاهر.و الآيه تمهيد لتاليها.

قوله تعالى: وَ إِذٰا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّٰ إِيّٰاهُ الى آخر الآيه؛الضر الشده،و مس الضر فى البحر هو خوف الغرق بالاشراف عليه بعصف الرياح و تقاذف الأمواج و نحو ذلك.

و قوله: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّٰ إِيّٰاهُ المراد بالضلال-على ما ذكروا-الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطريق و قيل:هو بمعنى الضياع من قولهم:ضل عن فلان كذا أى ضاع عنه و يعود على أى حال الى معنى النسيان.

و المراد بالدعاء دعاء المسأله دون دعاء العباده فيعم قوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الإله الحق و الآلهه الباطله التى يدعوها المشركون،و الاستثناء متصل،و المعنى و إذا اشتد عليكم الأمر فى البحر بالإشراف على الغرق نسيتم كل إله تدعونه و تسألونه حوائجكم إلا اللّه.

و الظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف و هو خلاف الهدى و الكلام مبنى على تمثيل لطيف كأن الإنسان إذا مسه الضر فى البحر و وقع فى قلبه أن يدعو لكشف ضره قصده آلهته الذين كان يدعوهم و يستمر فى دعائهم قبل ذلك و أخذوا يسعون نحوه و يتسابقون فى قطع

الطريق الی ذکره لیذکرهم و یدعوهم و یستغیث بهم لکنهم جمیعا یضلون الطریق و لا ینتهون الی ذکره فینساهم و اللّه سبحانه مشهود لقلبه حاضر فی ذکره یذکره الإنسان عند ذلک فیدعوه و قد کان معرضا عنه فیجیبه و ینجیه الی البر.

و بذلک یظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف،و بمن تدعون آلهتهم من دون اللّه فحسب و أن الاستثناء منقطع و الوجه فی جعل الاستثناء منقطعا أن الذی یبتنی علیه الکلام من معنی التشبیه لا یناسب ساحه قدسه تعالی لتنزهه من السعی و الوقوع فی الطریق و قطعه و نحو ذلک.

مضافا الی أن قوله: فَلَمّٰا نَجّٰاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ظاهر فی أن المراد بالدعوه دعاء المسأله و أنهم فی البر أی فی حالهم العادی غیر حال الضر معرضون عنه تعالی لا یدعونه فقوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الظاهر فی استمرار الدعوه المراد به آلهتهم الذین کانوا یدعونهم فاستثناؤه تعالی استثناء منقطع.

و قوله: «فَلَمّٰا نَجّٰاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ» أی فلما نجاکم من الغرق و کشف عنکم الضر رادا لکم الی البر اعرضتم عنه او عن دعائه و فیه دلاله علی أنه تعالی غیر مغفول عنه للإنسان فی حال و أن فطرته تهدیه الی دعائه فی الضراء و السراء و الشده و الرخاء جمیعا فإن الإعراض إنما یتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله:إن الإنسان یدعوه فی الضر و یعرض عنه بعد کشفه فی معنی أنه مهدی الیه بالفطره دائما.

و قوله: وَ کٰانَ الْإِنْسٰانُ کَفُوراً أی إن الکفران من دأب الإنسان من حیث ان له الطبیعه الإنسانیه فإنه یتعلق بالأسباب الظاهریه فینسی مسبب الأسباب فلا یشکره تعالی و هو یتقلب فی نعمه الظاهره و الباطنه.

قوله تعالی: أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جٰانِبَ الْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حٰاصِباً ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلاً خسوف القمر استتار قرصه بالظلمه و الظل و خسف اللّه به

الأرض ای ستره فیها،و الحاصب-کما فی المجمع-الریح التی ترمی بالحصباء و الحصا الصغار و قیل:الحاصل الریح المهلکه فی البر و القاصف الریح المهلکه فی البحر.

و الاستفهام للتوبیخ یوبخهم اللّه تعالی علی إعراضهم عن دعائه فی البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلکات الحوادث فی البر کما لا مؤمن لهم حال مس الضر فی البحر إذ لا علم لهم بما سیحدث لهم و علیهم فمن الجائز أن یخسف اللّه بهم جانب البر أو یرسل علیهم ریحا حاصبا فیهلکهم بذلک ثم لا یجدوا لأنفسهم وکیلا یدفع عنهم الشده و البلاء و یعید إلیهم الأمن و السلام.

قوله تعالی: أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ یُعِیدَکُمْ فِیهِ تٰارَهً أُخْریٰ الی آخر الآیه؛القصف الکسر بشده و قاصف الریح هی التی تکسر السفن و الأبنیه،و قیل:القاصف الریح المهلکه فی البحر و التبیع هو التابع یتبع الشیء،و ضمیر «فِیهِ» للبحر و ضمیر «بِهِ» للغرق أو للارسال أولهما معا باعتبار ما وقع و لکل قائل،و الآیه من تمام التوبیخ.

و المعنی أم هل أمنتم بنجاتکم الی البر أن یعیدکم اللّه فی البحر تاره اخری فیرسل علیکم ریحا کاسره للسفن أو مهلکه فیغرقکم بسبب کفرکم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحدا یتبع اللّه لکم علیه فیسأله لم فعل هذا بکم؟و یؤاخذه علی ما فعل.

و فی قوله: ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَکُمْ عَلَیْنٰا بِهِ تَبِیعاً التفات من الغیبه الی التکلم بالغیر و کأن النکته فیه الظهور علی الخصم بالعظمه و الکبریاء.و هو المناسب فی المقام،و لیکون مع ذلک توطئه لما فی الآیات التالیه من سیاق التکلم بالغیر.

قوله تعالی: وَ لَقَدْ کَرَّمْنٰا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلیٰ کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِیلاً الآیه مسوقه للامتنان مشوبا بالعتاب کأنه تعالی لما ذکر وفور نعمه و تواتر فضله و رحمته علی الانسان،و حمله فی البحر ابتغاء فضله و رزقه،و رفاه حاله فی البر ثم نسیانه لربه و اعراضه عن دعائه إذا نجاه

و كشف ضره كفرانا مع أنه متقلب دائما بين نعمه التى لا تحصى نبه على جمله تكريمه و تفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان و كفران الإنسان لنعمه على كثرتها و بلوغها.

و قوله: وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أى حملناهم على السفن و الدواب و غير ذلك يركبونها الى مقاصدهم و ابتغاء فضل ربهم و رزقه،و هذا أحد مظاهر تكريمهم.

و قوله: وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ أى من الأشياء التى يستطيبونها من أقسام النعم من الفواكه و الثمار و سائر ما يتنعمون به و يستلذونه مما يصدق عليه الرزق،و هذا أيضا أحد مظاهر التكريم فمثل الانسان فى هذا التكريم الإلهى مثل من يدعى الى الضيافه و هى تكريم ثم يرسل إليه مركوب يركبه للحضور لها و هو تكريم ثم يقدم عليه أنواع الأغذيه و الأطعمه اللذيذه و هو تكريم.

و بذلك يظهر أن عطف قوله: «وَ حَمَلْنٰاهُمْ» الخ؛و قوله: «وَ رَزَقْنٰاهُمْ» الخ؛على التكريم من قبيل عطف المصاديق المترتبه على العنوان الكلى المنتزع منها.

و قوله: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِيلاً لا يبعد أن يكون المراد بمن خلقناهم أنواع الحيوان ذوات الشعور و الجن الذى يثبته القرآن فإن اللّه سبحانه يعد أنواع الحيوان امما أرضيه كالامه الإنسانيه و يجريها مجرى اولى العقل كما قال: وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِي الْكِتٰابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

و هذا هو الأنسب بمعنى الآيه و قد عرفت أن الغرض منها بيان ما كرم اللّه به بنى آدم و فضلهم على سائر الموجودات الكونيه و هى-فيما نعلم-الحيوان و الجن و أما الملائكه فليسوا من الموجودات الكونيه الواقعه تحت تأثير النظام المادى الحاكم فى عالم الماده.

فالمعنى:و فضلنا بنى آدم على كثير مما خلقنا و هم الحيوان و الجن و أما غير الكثير و هم الملائكه فهم خارجون عن محل الكلام لأنهم موجودات نوريه غير كونيه و لا داخله فى مجرى

النظام الکونی،و الآیه إنما تتکلم فی الإنسان من جهه أنه أحد الموجودات الکونیه و قد انعم علیه بنعم نفسیه و إضافیه (۱).

قوله تعالی: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ الیوم یوم القیامه و الظرف متعلق بمقدر أی اذکر یوم کذا،و الإمام المقتدی و قد سمی اللّه سبحانه بهذا الاسم أفرادا من البشر یهدون الناس بأمر اللّه کما فی قوله: قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً (البقره/۱۲۴)و قوله:

وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا (الأنبیاء/۷۳)و أفرادا آخرین یقتدی بهم فی الضلال کما فی قوله: فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ (التوبه/۱۲).

و سمی به أیضا التوراه کما فی قوله: وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً (هود/۱۷)، و ربما استفید منه أن الکتب السماویه المشتمله علی الشریعه ککتاب نوح و إبراهیم و عیسی و محمد علیه السّلام جمیعا أئمه.

و سمی به أیضا اللوح المحفوظ کما هو ظاهر قوله تعالی: وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْنٰاهُ فِی إِمٰامٍ مُبِینٍ (یس/۶۲).

و لما کان ظاهر الآیه أن لکل طائفه من الناس إماما غیر ما لغیرها فإنه المستفاد من إضافه الإمام الی الضمیر الراجع الی کل اناس لم یصلح أن یکون المراد بالإمام فی الآیه اللوح لکونه واحدا لا اختصاص له باناس دون أناس.

و أیضا ظاهر الآیه أن هذه الدعوه تعم الناس جمیعا من الأولین و الآخرین و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی: کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ (البقره/۲۱۳)أن أول الکتب السماویه المشتمله علی الشریعه هو کتاب نوح علیه السّلام و لا کتاب قبله فی هذا الشأن،و بذلک یظهر عدم صلاحیه کون الإمام فی الآیه مرادا به الکتاب

۱- ۱) .الاسراء ۶۶-۷۲:بحث فی تکریم بنی آدم و تفضیله؛کلام فی الفضل بین الانسان و الملک.

و إلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوه فی الآیه.

فالمتعین أن یکون المراد بإمام کل اناس من یأتمون به فی سبیلی الحق و الباطل کما تقدم أن القرآن یسمیهما إمامین أو إمام الحق خاصه و هو الذی یجتبیه اللّه سبحانه فی کل زمان لهدایه أهله بأمره نبیا کان کابراهیم و محمد علیهما الصلاه و السلام أو غیر نبی،و قد تقدم تفصیل الکلام فیه فی تفسیر قوله: وَ إِذِ ابْتَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قٰالَ إِنِّی جٰاعِلُکَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً قٰالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قٰالَ لاٰ یَنٰالُ عَهْدِی الظّٰالِمِینَ (البقره۱۲۴/).

لکن المستفاد من مثل قوله فی فرعون و هو من أئمه الضلال: یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ (هود۹۸/)و قوله: لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ یَجْعَلَ الْخَبِیثَ بَعْضَهُ عَلیٰ بَعْضٍ فَیَرْکُمَهُ جَمِیعاً فَیَجْعَلَهُ فِی جَهَنَّمَ (الأنفال۳۷/)و غیرهما من الآیات و هی،کثیره أن أهل الضلال لا یفارقون أولیاءهم المتبوعین یوم القیامه،و لازم ذلک أن یصاحبوهم فی الدعوه و الإحضار.

علی أن قوله: «بِإِمٰامِهِمْ» مطلق لم یقید بالإمام الحق الذی جعله اللّه إماما هادیا بأمره، و قد سمی مقتدی الضلال إماما کما سمی مقتدی الهدی إماما و سیاق ذیل الآیه و الآیه الثانیه أیضا مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذی اتخذه الناس إماما و اقتدارا به فی الدنیا لا من اجتباه اللّه للإمامه و نصبه للهدایه بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أن المراد بإمام کل أناس فی الآیه من ائتموا به سواء کان إمام حق أو إمام باطل، و لیس کما یظن أنهم ینادون بأسماء أئمتهم فیقال:یا أمه إبراهیم و یا أمه محمد و یا آل فرعون و یا آل فلان فإنه لا یلائمه ما فی الآیه من التفریع أعنی قوله: فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ الخ؛إذ لا تفرع بین الدعوه بالإمام بهذا المعنی و بین إعطاء الکتاب بالیمین أو العمی.

بل المراد بالدعوه-علی ما یعطیه سیاق الذیل-هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم

یأخذ من اقتدی بامام حق کتابه بیمینه و یظهر عمی من عمی عن معرفه الإمام الحق فی الدنیا و اتباعه،هذا ما یعطیه التدبر فی الآیه.

قوله تعالی: فَمَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولٰئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتٰابَهُمْ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ فَتِیلاً الفتیل هو المفتول الذی فی شق النواه،و قیل:الفتیل هو الذی فی بطن النواه و النقیر فی ظهرها و القطمیر شق النواه.

و تفریع التفصیل علی دعوتهم بامامهم دلیل علی أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم الی قسمین و تفرقهم فریقین:من اوتی کتابه بیمینه و من کان أعمی و أضل سبیلا فالإمام إمامان:

امام هدی و إمام ضلال،و هذا هو الذی قدمناه أن تفریع التفصیل یشهد بکون المراد بالإمام أعم من إمام الهدی.

و یشهد به أیضا تبدیل إیتاء الکتاب بالشمال أو من وراء الظهر کما وقع فی غیر هذا الموضع من قوله: وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی الْآخِرَهِ أَعْمیٰ الخ.

و المعنی-باعانه من السیاق-فیتفرقون حینئذ فریقین فالذین أعطوا صحیفه أعمالهم بأیمانهم فاولئک یقرءون کتابهم فرحین مستبشرین مسرورین بالسعاده و لا یظلمون مقدار فتیل بل یوفون اجورهم تامه کامله.

قوله تعالی: وَ مَنْ کٰانَ فِی هٰذِهِ أَعْمیٰ فَهُوَ فِی الْآخِرَهِ أَعْمیٰ وَ أَضَلُّ سَبِیلاً المقابله بین قولیه: «فِی هٰذِهِ» و «فِی الْآخِرَهِ» دلیل علی أن الإشاره بهذه الی الدنیا کما أن کون الآیه مسوقه لبیان التطابق بین الحیاه الدنیا و الآخره دلیل علی أن المراد بعمی الآخره عمی البصیره کما أن المراد بعمی الدنیا ذلک قال تعالی: فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَی الْأَبْصٰارُ وَ لٰکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ و یؤید ذلک أیضا تعقیب عمی الآخره بقوله: «وَ أَضَلُّ سَبِیلاً» .

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الی ٨١]

اشاره

وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ اَلَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِیَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧۴) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ اَلْحَياةِ وَ ضِعْفَ اَلْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (٧۵) وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ اَلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً (٧۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧) أَقِمِ اَلصَّلاةَ لِدُلُوكِ اَلشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اَللَّيْلِ وَ قُرْآنَ اَلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ اَلْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَ مِنَ اَللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسی أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اِجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (٨٠) وَ قُلْ جاءَ اَلْحَقُّ وَ زَهَقَ اَلْباطِلُ إِنَّ اَلْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١)

ص: ٧۴۵

بیان:

قوله تعالی: وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا إن مخففه بدليل اللام فی «لَيَفْتِنُونَكَ» و الفتنه الازلال و الصرف،و الخیل من الخله بمعنی الصداقه و ربما قیل:هو من الخله بمعنی الحاجه و هو بعید.

و ظاهر السیاق أن المراد بالذی أوحینا إلیک القرآن بما یشتمل علیه من التوحید و نفی الشریک و السیره الصالحه و هذا یؤید ما ورد فی بعض أسباب النزول أن المشرکین سألوا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یکف عن ذکر آلهتهم بسوء و یبعد عن نفسه عبیدهم المؤمنین به و السقاط حتی یجالسوه و یسمعوا منه فنزلت الآیات.

و المعنی:و إن المشرکین اقتربوا أن یزلوک و یصرفوک عما أوحینا إلیک لتتخذ من السیره و العمل ما یخالفه فیکون فی ذلک افتراء علینا لانتسابه بعملک إلینا و إذا لاتخذوک صدیقا.

قوله تعالی: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا التثبیت-کما یفیده السیاق-هو العصمه الإلهیه و جعل جواب لو لاـ قوله: «لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ» دون نفس الرکون و الرکون هو المیل أو أدنی المیل کما قیل دلیل علی أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یرکن و لم یکد،و یؤکده إضافه الرکون إلیهم دون إجابتهم الی ما سألوه.

و المعنی:و لو لاـ أن ثبتناک بعصمتنا دنوت من أن تمیل إلیهم قلیلاـ لکنا ثبتناک فلم تدن من أدنی المیل إلیهم فضلا من أن تجیبهم الی ما سألوا فهو صلّی اللّه علیه و آله و سلم لم یجبهم الی ما سألوا و لا مال إلیهم شیئا قلیلا و لا کاد أن یمیل.

قوله تعالی: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً سیاق الآیه سیاق توعد فالمراد بضعف الحیاه و الممات المضاعف من عذاب الحیاه و الممات،و المعنی لو قارنت أن تمیل إلیهم بعض المیل لأذقناک الضعف من العذاب الذی

نعذب به المجرمين فی حیاتهم و الضعف مما نعذبهم به فی مماتهم أی ضعف عذاب الدنیا و الآخره.

و نقل فی المجمع عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه و المعنی لأذقناک عذاب الدنیا و عذاب الآخره،و أنشد قول الشاعر:

لمقتل مالک إذ بان منی

أبیت اللیل فی ضعف ألیم

أی فی عذاب ألیم.

و ما فی ذیل الآیه من قوله: «ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَکَ عَلَیْنٰا نَصِیراً» تشدید فی الإیعاد أی إن العذاب واقع حینئذ لا مخلص منه.

قوله تعالی: وَ إِنْ کٰادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ مِنَ الْأَرْضِ لِیُخْرِجُوکَ مِنْهٰا وَ إِذاً لاٰ یَلْبَثُونَ خِلاٰفَکَ إِلاّٰ قَلِیلاً الاستفزاز الإزعاج و التحریک بخفه و سهوله،و اللام فی «الْأَرْضِ» للعهد و المراد بها مکه،و الخلاف بمعنی بعد،و المراد بالقلیل الیسیر من الزمان.

و المعنی و إن المشرکین قاربوا أن یزعجوک من أرض مکه لإخراجک منها و لو کان منهم و خرجت منها لم یمکثوا بعدک فیها إلا قلیلا فهم هالکون لا محاله.

قوله تعالی: سُنَّهَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنٰا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنٰا وَ لاٰ تَجِدُ لِسُنَّتِنٰا تَحْوِیلاً التحویل نقل الشیء من حال الی حال،و قوله: «سُنَّهَ» أی کسنه من قد أرسلنا و هو متعلق بقوله: «لاٰ یَلْبَثُونَ» أی لا یلبثون بعدک إلا قلیلا کسنه من قد أرسلنا قبلک من رسلنا.

و هذه السنه و هی إهلاک المشرکین لذین أخرجوا رسولهم من بلادهم و طردوه من بینهم سنه للّه سبحانه،و إنما نسبها الی رسله لأنها مسنونه لأجلهم بدلیل قوله بعد:«و لن تجد لسنتنا تحویلا»و قد قال تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظّٰالِمِینَ (إبراهیم/۱۳).

و المعنی:و إذا نهلکهم لنستنا التی سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلک من رسلنا و أجریناها و لست تجد لسنتنا تحویلا و تبدیلا.

قوله تعالی: أَقِمِ الصَّلاٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلیٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كٰانَ مَشْهُوداً قال فی مجمع البیان:الدلوک الزوال،و قال المبرد:دلوک الشمس من لدن زوالها الی غروبها،و قیل:هو الغروب و أصله من الدلک فسمی الزوال دلوکا لأن الناظر إلیها یدلک عینیه لشده شعاعها،و سمی الغروب دلوکا لأن الناظر یدلک عینیه لیثبتها.انتهی.

و قال فیه:غسق اللیل ظهور ظلامه یقال:غسقت القرحه إذا انفجرت فظهر ما فیها.

انتهی،و فی المفردات:غسق اللیل شده ظلمته.انتهی.

و قد اختلف المفسرون فی تفسیر صدر الآیه و المروی عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام من طرق الشیعه تفسیر دلوک الشمس بزوالها و غسق اللیل بمنتصفه،و سیجیء الإشاره الی الروایات فی البحث الروائی الآتی إن شاء اللّه.

و علیه فالآیه تشمل من الوقت ما بین زوال الشمس و منتصف اللیل،و الواقع فی هذا المقدار من الوقت من الفرائض الیومیه أربع صلاه الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخره.

و بانضمام صلاه الصبح المدلول علیها بقوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ» الخ؛إلیها تتم الصلوات الخمس الیومیه.

و قوله: «وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ» معطوف علی الصلاه أی و أقم قرآن الفجر و المراد به صلاه الصبح لما تشتمل علیه من القراءه و قد اتفقت الروایات علی ان صلاه الصبح هی المراد بقرآن الفجر.

و کذا اتفقت الروایات من طرق الفریقین علی تفسیر قوله ذیلا: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كٰانَ مَشْهُوداً» بأنه یشهده ملائکه اللیل و ملائکه النهار،و سنشیر الی بعض هذه الروایات عن

ص:۷۴۸

قریب إن شاء اللّه.

قوله تعالی: وَ مِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَکَ عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً التهجد من الهجود و هو النوم فی الأصل و معنی التهجد التیقظ و السهر بعد النوم علی ما ذکره غیر واحد منهم،و الضمیر فی «بِهِ» للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: «وَ مِنَ اللَّیْلِ» و النافله من النفل و هو الزیاده،و ربما قیل:إن قوله: «وَ مِنَ اللَّیْلِ» من قبیل الاغراء نظیر قولنا:علیک باللیل،و الفاء فی قوله: «فَتَهَجَّدْ بِهِ» نظیر قوله: فَإِیّایَ فَارْهَبُونِ (النحل/۵۱).

و المعنی:و اسهر بعض اللیل بعد نومتک بالقرآن-و هو الصلاه-حالکونها صلاه زائده لک علی الفریضه.

و قوله: عَسیٰ أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً من الممکن أن یکون المقام مصدرا میمیا و هو البعث فیکون مفعولا مطلقا من غیر لفظه،و المعنی عسی أن یبعثک ربک بعثا محمودا،و من الممکن أن یکون اسم مکان و البعث بمعنی الاقامه أو مضمنا معنی الاعطاء و نحوه،و المعنی عسی أن یقیم ربک فی مقام محمود أو یبعثک معطیا لک مقاما محمودا أو یعطیک باعثا مقاما محمودا.

و قد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود و أطلق القول من غیر تقیید و هو یفید أنه مقام یحمده الکل و لا یثنی علیه الکل إلا إذا استحسنه الکل و انتفع به الجمیع و لذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذی یحمده علیه جمیع الخلائق و هو مقام الشفاعه الکبری له صلّی اللّه علیه و آله و سلم یوم القیامه و قد اتفقت علی هذا التفسیر الروایات من طرق الفریقین عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و أئمه أهل البیت علیهم السّلام.

قوله تعالی: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطاناً نَصِیراً المدخل بضم المیم و فتح الخاء مصدر میمی

بمعنى الادخال و نظيره المخرج بمعنى الاخراج،و العنايه فى إضافه الادخال و الاخراج الى الصدق أن يكون الدخول و الخروج فى كل أمر منعوتا بالصدق جاريا على الحقيقه من غير أن يخالف ظاهره باطنه أو يضاد بعض أجزائه بعضا كأن يدعو الانسان بلسانه الى اللّه و هو يريد بقلبه أن يسود الناس أو يخلص فى بعض دعوته للّه و يشرك فى بعضها غيره.

و بالجمله هو أن يرى الصدق فى كل مدخل منه و مخرج و يستوعب وجوده فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول و لا يقول و لا يفعل إلا ما يراه و يعتقد به،و هذا مقام الصديقين.و يرجع المعنى الى نحو قولنا:اللهم تول أمرى كما تتولى أمر الصديقين.

و قوله: «وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً» اى سلطنه بنصرتى على ما أهم به من الامور و أشتغل به من الأعمال فلا أغلب فى دعوتى بحجه باطله،و لا أفتتن بفتنه أو مكر يمكرنى به أعداؤك و لا أضل بنزغ شيطان و وسوسته.

و الآيه-كما ترى-مطلقه تأمر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يسأل ربه أن يتولى أمره فى كل مدخل و مخرج بالصدق و يجعل له سلطانا من عنده ينصره فلا يزيغ فى حق و لا يظهر بباطل فلا وجه لما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالدخول و الخروج دخول المدينه بالهجره و الخروج منها الى مكه للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت و الخروج منه بالبعث.

نعم لما كانت الآيه بعد قوله: «وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» و «وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ» و فى سياقهما،لوحت الى أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم أن يلتجئ الى ربه فى كل أمر يهم به أو يشتغل به من امور الدعوه،و فى الدخول و الخروج فى كل مكان يسكنه أو يدخله او يخرج منه و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً قال فى المجمع:الزهوق هو الهلاك و البطلان يقال:زهقت نفسه اذا خرجت فكأنها قد خرجت الى الهلاك.انتهى و المعنى ظاهر.

و فى الآيه أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلم بإعلام ظهور الحق و هو لوقوع الآيه فى سياق ما مر من قوله: «وَ إِنْ

كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» الی آخر الآیات؛أمر بإیئاس المشرکین من نفسه و تنبیههم أن یوقنوا أن لا مطمع لهم فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلم.

و فی الآیه دلاله علی أن الباطل لا دوام له کما قال تعالی فی موضع آخر: وَ مَثَلُ کَلِمَهٍ خَبِیثَهٍ کَشَجَرَهٍ خَبِیثَهٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (إبراهیم/۲۶) (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۸۲ الی ۱۰۰]

اشاره

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لا یَزِیدُ الظّالِمِینَ إِلاّ خَساراً (۸۲) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَی الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأی بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ کانَ یَؤُساً (۸۳) قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلی شاکِلَتِهِ فَرَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدی سَبِیلاً (۸۴) وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِیلاً (۸۵) وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنا وَکِیلاً (۸۶) إِلاّ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً (۸۷) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ فَأَبی أَکْثَرُ النّاسِ إِلاّ کُفُوراً (۸۹) وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِکَهِ قَبِیلاً (۹۲) أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً (۹۳) وَ ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدی إِلاّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً (۹۴) قُلْ لَوْ کانَ فِی الْأَرْضِ مَلائِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَکاً رَسُولاً (۹۵) قُلْ کَفی بِاللّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۹۶) وَ مَنْ یَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ یُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ عَلی وُجُوهِهِمْ عُمْیاً وَ بُکْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ کُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِیراً (۹۷) ذلِکَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیاتِنا وَ قالُوا أَ إِذا کُنّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً (۹۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَیْبَ فِیهِ فَأَبَی الظّالِمُونَ إِلاّ کُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِ رَبِّی إِذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَهَ الْإِنْفاقِ وَ کانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (۱۰۰)

۱- ۱) .الاسراء ۷۳-۸۱:بحث روائی فی:الخمس؛الشفاعه.

بیان:

قوله تعالی: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لاٰ یَزِیدُ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ خَسٰاراً من بیانیه تبین الموصول أعنی قوله: «مٰا هُوَ شِفٰاءٌ» الخ؛أی و ننزل ما هو شفاء و رحمه و هو القرآن.

وعد القرآن شفاء و الشفاء انما یکون عن مرض دلیل علی أن للقلوب أحوالا نسبه القرآن إلیها نسبه الدواء الشافی الی المرض،و هو المستفاد من کلامه سبحانه حیث ذکر أن الدین الحق فطری للانسان فکما أن للبنیه الانسانیه التی سویت علی الخلقه الأصلیه قبل أن یلحق بها أحوال منافیه و آثار مغایره للتسویه الأولیه استقامه طبیعیه تجری علیها فی أطوار الحیاه کذلک لها بحسب الخلقه الأصلیه عقائد حقه فی المبدإ و المعاد و ما یتفرع علیهما من اصول المعارف،و أخلاق فاضله زاکیه تلائمها و یترتب علیها من الأحوال و الأعمال ما یناسبها.

فللانسان صحه و استقامه روحیه معنویه کما أن له صحه و استقامه جسمیه صوریه،و له

ص :۷۵۳

أمراض و أدواء روحيه باختلال أمر الصحه الروحيه كما أن له أمراضا و أدواء جسميه باختلال أمر الصحه الجسميه و لكل داء دواء و لكل مرض شفاء.

و قد ذكر اللّه سبحانه فى اناس من المؤمنين أن فى قلوبهم مرضا و هو غير الكفر و النفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَهِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (الأحزاب/۶۰)و قوله: وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللّهُ بِهذا مَثَلاً (المدثر/۳۱).

و ليس هذا المسمى مرضا الا ما يختل به ثبات القلب و استقامه النفس من أنواع الشك و الريب الموجبه لاضطراب الباطن و تزلزل السر و الميل الى الباطل و اتباع الهوى مما يجامع ايمان عامه المؤمنين من أهل أدنى مراتب الايمان و مما هو معدود نقصا و شركا بالاضافه الى مراتب الايمان العاليه،و قد قال تعالى: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف/۱۰۶)و قال: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء/۶۵).

و القرآن الكريم يزيل بحججه القاطعه و براهينه الساطعه أنواع الشكوك و الشبهات المعترضه فى طريق العقائد الحقه و المعارف الحقيقيه و يدفع بمواعظه الشافيه و ما فيه من القصص و العبر و الأمثال و الوعد و الوعيد و الانذار و التبشير و الأحكام و الشرائع عاهات الأفئده و آفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

و اما كونه رحمه للمؤمنين-و الرحمه افاضه ما يتم به النقص و يرتفع به الحاجه-فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم و اليقين بعد ما يزيل عنها ظلمات الجهل و العمى و الشك و الريب،و يحليها بالملكات الفاضله و الحالات الشريفه الزاكيه بعد ما يغسل عنها أوساخ الهيئات الرديه و الصفات الخسيسه.

فهو بما انه شفاء يزيل عنها انواع الأمراض و الأدواء،و بما انه رحمه يعيد إليها ما افتقدته

من الصحه و الاستقامه الأصليه الفطريه فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضاده للسعاده و يهيئها لقبولها،و بكونه رحمه يلبسه لباس السعاده و ينعم عليه بنعمه الاستقامه.

فالقرآن شفاء و رحمه للقلوب المريضه كما انه هدى و رحمه للنفوس غير الآمنه من الضلال،و بذلك يظهر النكته فى ترتب الرحمه على الشفاء فى قوله: مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فهو كقوله: هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف۱۱۱/)و قوله: وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً (النساء۹۶/).

فمعنى قوله: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» و ننزل اليك امرا يشفى امراض القلوب و يزيلها و يعيد إليها حاله الصحه و الاستقامه فتتمتع من نعمه السعاده و الكرامه.

و قوله: وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً السياق دال على ان المراد به بيان ما للقرآن من الأثر فى غير المؤمنين قبال ما له من الاثر الجميل فى المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين و هم الكفار دون المشركين خاصه كما يظهر من بعض المفسرين و انما علق الحكم بالوصف اعنى الظلم ليشعر بالتعليل اى ان القرآن انما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

و الخسار هو النقص فى رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل و هو الدين الفطرى تلهم به نفوسهم الساذجه ثم إنهم بكفرهم باللّٰه و آياته خسروا فيه و نقصوا.ثم إن كفرهم بالقرآن و إعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسارا على خسار و نقصا على نقص إن كانت عندهم بقيه من موهبه الفطره،و الى هذه النكته يشير سياق النفى و الاستثناء حيث قيل: «وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً» و لم يقل:و يزد الظالم خسارا.

و به يظهر أن محصل معنى الآيه أن القرآن يزيد المؤمنين صحه و استقامه على صحتهم و استقامتهم بالإيمان و سعاده على سعادتهم و إن زاد الكافرين شيئا فإنما يزيدهم نقصا

و خسارا.

قوله تعالى: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً قال فى المفردات:العرض خلاف الطول و أصله أن يقال فى الأجسام ثم يستعمل فى غيرها-الى أن قال-و أعرض أظهر عرضه أى ناحيته فاذا قيل:أعرض لى كذا أى بدا عرضه فأمكن تناوله،و إذا قيل:أعرض عنى فمعناه و لى مبدئا عرضه.انتهى موضع الحاجه.

و النأى البعد و نأى بجانبه أى اتخذ لنفسه جهه بعيده منا،و مجموع قوله: «أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ» يمثل حال الإنسان فى تباعده و انقطاعه من ربه عند ما ينعم عليه.كمن يحول وجهه عن صاحبه و يتخذ لنفسه موقفا بعيدا منه،و ربما ذكر بعض المفسرين أن قوله: «نَأى بِجانِبِهِ» كنايه عن الاستكبار و الاستعلاء.

و قوله: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً أى و إذا أصابه الشر إصابه خفيفه كالمس كان آيسا منقطع الرجال عن الخير و هو النعمه،و لم ينسب الشر إليه تعالى كما نسب النعمه تنزيها له تعالى من أن يسند إليه الشر،و لأن وجود الشر أمر نسبى لا نفسى فما يتحقق من الشر فى العالم كالموت و المرض و الفقر و النقص و غير ذلك انما هو شر بالنسبه الى مورده،و أما بالنسبه الى غيره و خاصه النظام العام الجارى فى الكون فهو من الخير الذى لا مناص عنه فى التدبير الكلى فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العنايه الإلهيه و هو مراد بالذات،و ما كان من الشر فهو مما تعلقت به العنايه لغيره و هو مقضى بالعرض.

فالمعنى إنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع فى مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب و اخلد إليها فنسينا فلم يذكرنا و لم يشكرنا،و إذا ناله شىء يسير من الشر فسلب منه الخير و زالت عنه أسبابه و رأى ذلك كان شديد اليأس من الخير لكونه متعلقا بأسبابه

و هو یری بطلان أسبابه و لا یری لربه فی ذلک صنعا (۱).

قوله تعالی: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلىٰ شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدىٰ سَبِيلاً المشاکله-علی ما فی المفردات-من الشکل و هو تقیید الدابه،و یسمی ما یقید به شکالا بکسر الشین،و الشاکله هی السجیه سمی بها لتقییدها الإنسان أن یجری علی ما یناسبها و تقتضیه.

و فی المجمع:الشاکله الطریقه و المذهب یقال:هذا طریق ذو شواکل أی ینشعب منه طرق جماعه و انتهی.و کأن تسمیتها بها لما فیها من تقیید العابرین و المنتحلین بالتزامها و عدم التخلف عنها و قیل:الشاکله من الشکل بفتح الشیخ بمعنی المثل و قیل:إنها من الشکل بکسر الشین بمعنی الهیئه.

و کیف کان فالآیه الکریمه ترتب عمل الإنسان علی شاکلته بمعنی أن العمل یناسبها و یوافقها،فهی بالنسبه الی العمل کالروح الساریه فی البدن الذی یمثل بأعضائه و أعماله هیآت الروح المعنویه و قد تحقق بالتجارب و البحث العلمی أن بین الملکات و الأحوال النفسانیه و بین الأعمال رابطه خاصه فلیس یتساوی عمل الشجاع الباسل و الجبان إذا حضرا موقفا هائلا،و لا عمل الجواد الکریم و البخیل اللئیم فی مواد الانفاق و هکذا،و أن بین الصفات النفسانیه و نوع ترکیب البنیه الإنسانیه رابطه خاصه فمن الأمزجه ما یسرع الیه الغضب و حب الانتقام بالطبع و منها ما تغلی و تفور فیه شهوه الطعام أو النکاح أو غیر ذلک بحیث تتوق نفسه بأدنی سبب یدعوه و یحرکه،و منها غیر ذلک فیتخلف انعقاد الملکات بحسب ما یناسب المورد سرعه و بطءا (۲)(۳).

ص: ۷۵۷

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فلسفی فی الشرور.

۲- ۲) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی:شاکله الانسان؛الارتباط بین الاعمال و الملکات و بین الذوات.

۳- ۳) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فلسفی فی سنخیه وجودیه و رابطه ذاتیه بین الفعل و فاعله.

قوله تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِیلاً الروح علی ما یعرف فی اللغه هو مبدأ الحیاه الذی به یقوی الحیوان علی الإحساس و الحرکه الإرادیه و لفظه یذکر و یؤنث،و ربما یتجوز فیطلق علی الامور التی یظهر بها آثار حسنه مطلوبه کما یعد العلم حیاه للنفوس قال تعالی: أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ (الأنعام/۱۲۲)أی بالهدایه الی الإیمان و علی هذا المعنی حمل جماعه مثل قوله: یُنَزِّلُ الْمَلائِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل/۲)أی بالوحی و قوله: وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا (الشوری/۵۲)أی القرآن الذی هو وحی فذکروا أنه تعالی سمی الوحی أو القرآن روحا لأن به حیاه النفوس المیته کما أن الروح المعروف به حیاه الأجساد المیته (۱).

قوله تعالی: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنا وَکِیلاً الکلام متصل بما قبله فإن الآیه السابقه و إن کانت متعرضه لأمر مطلق الروح و هو ذو مراتب مختلفه إلا أن الذی ینطبق علیه منه بحسب سیاق الآیات السابقه المسوقه فی أمر القرآن هو الروح السماوی النازل علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم الملقی الیه القرآن.

فالمعنی-و اللّه أعلم-الروح النازل علیک الملقی بالقرآن الیک من أمرنا غیر خارج من قدرتنا،و أقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذی هو کلمتنا الملقاه إلیک ثم لا تجد أحدا یکون وکیلا به لک علینا یدافع عنک و یطالبنا به و یجبرنا علی رد ما أذهبنا به.

قوله تعالی: إِلاّ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً استثناء من محذوف یدل علیه السیاق،و التقدیر فما اختصصت بما اختصصت به و لا اعطیت ما اعطیت من نزول الروح و ملازمته إیاک إلا رحمه من ربک،ثم علله بقوله: «إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً» و هو وارد مورد الامتنان.

ص :۷۵۸

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی الروح.

قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً الظهر هو المعين مأخوذ من الظهر كالرئيس من الرأس،و قوله: «بِمِثْلِهِ» من وضع الظاهر موضع المضمر و ضميره عائد الى القرآن.

و فى الآيه تحد ظاهر،و هى ظاهره فى أن التحدى بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعه الى لفظه و معناه لا بفصاحته و بلاغته وحدها فإن انضمام غير أهل اللسان اليهم لا ينفع فى معارضه البلاغه شيئا و قد اعتنت الآيه باجتماع الثقلين و إعانه بعضهم لبعض.

على أن الآيه ظاهره فى دوام التحدى و قد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحه و البلاغه اليوم فلا أثر منهم،و القرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبىٰ أَكْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ كُفُوراً تصريف الأمثال ردها و تكرارها و تحويلها من بيان الى بيان و من اسلوب الى اسلوب،و المثل هو وصف المقصود بما يمثله و يقربه من ذهن السامع،و «مِنْ» فى قوله: «مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» لابتداء الغايه،و المراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق و يمهد لهم طريق الإيمان و الشكر بقرينه قوله: «فَأَبىٰ أَكْثَرُ النّٰاسِ إِلاّٰ كُفُوراً» و الكلام مسوق للتوبيخ و الملامه.

و فى قوله: «أَكْثَرُ النّٰاسِ» وضع الظاهر موضع المضمر و الأصل أكثرهم و لعل الوجه فيه الإشاره الى أن ذلك مقتضى كونهم ناسا كما مر فى قوله: وَ كٰانَ الْإِنْسٰانُ كَفُوراً (الإسراء/ ۶۷).

و المعنى:و اقسم لقد كررنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل يوضح لهم الحق و يدعوهم الى الإيمان بنا و الشكر لنعمنا فأبى اكثر الناس إلا ان يكفروا و لا يشكروا.

قوله تعالى: وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً -الى

قوله- كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ الفجر الفتح و الشق و كذلك التفجير إلا انه يفيد المبالغه و التكثير، و الينبوع العين التى لا ينضب ماؤها،و خلال الشيء وسطه و اثناؤه،و الكسف جمع كسفه كقطع جمع قطعه وزنا و معنى،و القبيل هو المقابله كالعشير و المعاشر،و الزخرف الذهب، و الرقى الصعود و الارتقاء.

و الآيات تحكى الآيات المعجزه التى اقترحتها قريش على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم و علقوا ايمانهم به عليها مستهينه بالقرآن الذى هو معجزه خالده.

و المعنى «وَ قٰالُوا» اى قالت قريش: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» يا محمد «حَتّٰى تَفْجُرَ» و تشق «لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ» ارض مكه لقله مائها «يَنْبُوعاً» عينا لا ينضب ماؤها «أَوْ تَكُونَ» بالإعجاز لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهٰارَ اى تشقها او تجريها «خِلاٰلَهٰا» اى وسط تلك الجنه و اثناءها «تَفْجِيراً» «أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ كَمٰا زَعَمْتَ» اى مماثلا لما زعمت يشيرون (1)به الى قوله تعالى: أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ (سبأ/٩) «عَلَيْنٰا كِسَفاً» و قطعا «أَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ قَبِيلاً» مقابلا نعاينهم و نشاهدهم «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ» و ذهب «أَوْ تَرْقىٰ» و تصعد «فِي السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» و صعودك «حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا» منها «كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ» و نتلوه.

قوله تعالى: قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّٰ بَشَراً رَسُولاً فيه امره صلّى اللّه عليه و آله و سلم ان يجيب عما اقترحوه عليه و ينبههم على جهلهم و مكابرتهم فيما لا يخفى على ذى نظر فإنهم سألوه امورا عظاما لا يقوى على اكثرها إلا القدره الغيبيه الإلهيه و فيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان باللّه و الملائكه قبيلا،و لم يرضوا بهذا المقدار و لم يقنعوا به دون ان جعلوه هو المسئول المتصدى لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا و كذا بل

١- ١) .فالآيه لا تخلو من دلاله على تقدم سوره سبأ على هذه السوره نزولا.

قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی تَفْجُرَ» الخ؛ «أَوْ تَکُونَ لَکَ» الخ؛ «أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ» الخ؛ «أَوْ تَأْتِیَ بِاللّٰهِ» الخ؛ «أَوْ یَکُونَ لَکَ» الخ؛ «أَوْ تَرْقیٰ فِی السَّمٰاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّٰی تُنَزِّلَ عَلَیْنٰا کِتٰاباً نَقْرَؤُهُ» .

قوله تعالی: وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدیٰ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً الاستفهام فی قوله: «أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً» للانکار،و جمله «قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ» الخ؛حکایه حالهم بحسب الاعتقاد و ان لم یتکلموا بهذه الکلمه بعینها.

و انکار النبوه و الرساله من اثبات الإله من عقائد الوثنیه،و هذه قرینه علی أن المراد بالناس الوثنیون،و المراد بالإیمان الذی منعوه هو الإیمان بالرسول.

فمعنی الآیه و ما منع الوثنیین-و کانت قریش و عامه العرب یومئذ منهم-أن یؤمنوا بالرساله-أو برسالتک-إلا إنکارهم لرساله البشر،و لذلک کانوا یردون علی رسلهم دعوتهم -کما حکاه اللّه-بمثل قولهم: لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَأَنْزَلَ مَلاٰئِکَهً فَإِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (حم السجده/۱۴).

قوله تعالی: قُلْ لَوْ کٰانَ فِی الْأَرْضِ مَلاٰئِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنٰا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ مَلَکاً رَسُولاً أمر سبحانه رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلم أن یرد علیهم قولهم و إنکارهم لرساله البشر و نزول الوحی بأن العنایه الإلهیه قد تعلقت بهدایه أهل الأرض و لا یکون ذلک إلا بوحی سماوی لا من عند أنفسهم فالبشر القاطنون فی الأرض لا غنی لهم عن وحی سماوی بنزول ملک رسول إلیهم و یختص بذلک نبیهم.

و هذه خاصه الحیاه الأرضیه و العیشه المادیه المفتقره الی هدایه إلهیه لا سبیل إلیها إلا بنزول الوحی من السماء حتی لو أن طائفه من الملائکه سکنوا الأرض و أخذوا یعیشون عیشه أرضیه مادیه لنزلنا علیهم من السماء ملکا رسولا کما ننزل علی البشر ملکا رسولا.

و العنایه فی الآیه الکریمه-کما تری-متعلقه بجهتین إحداهما کون الحیاه أرضیه مادیه،

و الاخری کون الهدایه الواجبه بالعنایه الإلهیه بوحی نازل من السماء برساله ملک من الملائکه.

و الأمر علی ذلک،فهاتان الجهتان أعنی کون حیاه النوع أرضیه مادیه و وجوب هدایتهم بواسطه سماویه و ملک علوی هما المقدمتان الأصلیتان فی البرهان علی وجود الرساله و لزومها (۱).

و الآیه بما تعطی من معنی الرساله یؤید ما ورد عن أئمه أهل البیت علیهم السّلام فی الفرق بین الرسول و النبی أن الرسول هو الذی یری الملک و یسمع منه،و النبی یری المنام و لا یعاین،و قد أوردنا بعض هذه الأخبار فی خلال أبحاث النبوه فی الجزء الثانی من الکتاب.

و من ألطف التعبیر فی الآیه و أوجزه تعبیره عن الحیاه الأرضیه بقوله: «فِي الْأَرْضِ مَلاٰئِکَهٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ» فإن الانتقال المکانی علی الأرض مع الوقوع تحت الجاذبه الأرضیه من أوضح خواص الحیاه المادیه الأرضیه.

قوله تعالی: قُلْ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ إِنَّهُ کٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِیراً بَصِیراً لما احتج علیهم بما احتج و بین لهم ما بین فی أمر معجزه رسالته و هی القرآن الذی تحدی به و هم علی عنادهم و جحودهم و عنتهم لا یعتنون به و یقترحون علیه بأمور جزافیه اخری و لا یحترمون لحق و لا ینقطعون عن باطل أمر أن یرجع الأمر الی شهاده اللّه فهو شهید بما وقع منه و منهم فقد بلغ ما ارسل به و دعا و احتج و أعذر و قد سمعوا و تمت علیهم الحجه و استکبروا و عتوا فالکلام فی معنی اعلام قطع المحاجه و ترک المخاصمه و رد الأمر الی مالک الامر فلیقض ما هو قاض.

۱- ۱) .الاسراء ۸۲-۱۰۰:بحث فی وجوب کون الرسول من جنس المرسل الیهم و من انفسهم کالانسان و الملک للملک.

و هـذه الآيه و الآيتان قبلها مسجعه بقوله: «رَسُولاً» و هو المورد الوحيد فی القرآن الذی اتفقت فيه ثلاث آيات متواليه فی سجع واحد علی ما نذكر.

قوله تعالی: وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ الخ؛هو-علی ما يشعر به السياق-من تتمه الخطاب الأخير للنبی صلّی اللّه عليه و آله و سلم بقوله:

«قُلْ كَفی بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ» فهو كنايه عن أنه تمت عليهم الحجه و حقت عليهم الضلاله فلا مطمع فی هدايتهم.

و محصل المعنی:خاطبهم باعلام قطع المحاجه فإن الهدايه للّه لا يشاركه فيها أحد فمن هداه فهو المهتدی لا غير و من أضله و لم يهده فلن تجد يا محمد له أولياء من دونه يهدونه و اللّه لا يهدی هؤلاء فانقطع عنهم و لا تكلف نفسك فی دعوتهم رجاء أن يؤمنوا.

قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ عَلی وُجُوهِهِمْ الی آخر الآيتين؛العمی و البكم و الصم جمع أعمی و أبكم و أصم،و خبوّ النار و خبوها سكون لهبها،و السعير لهب النار،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلی أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ الی آخر الآيه؛الكفور الجحود،احتجاج منه تعالی علی البعث بعد الموت فقد كان قولهم: أَ إِذا كُنّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً استبعادا مبنيا علی إحاله أن يعود هذا البدن الدنيوی بعد تلاشيه و صيرورته عظاما و رفاتا الی ما كان عليه بخلق جديد فاحتج عليهم بأن خلق البدن أولا يثبت القدره عليه و علی مثله الذی هو الخلق الجديد للبعث فحكم الأمثال واحد.

و قوله: وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ الظاهر أن المراد بالأجل هو زمان الموت فإن الأجل إما مجموع مده الحياه الدنيا و هی محدوده بالموت و إما آخر زمان الحياه و يقارنه الموت و كيف كان فالتذكير بالموت الذی لا ريب فيه ليعتبروا به و يكفوا عن الجرأه علی اللّه

و تکذیب آیاته فهو قادر علی بعثهم و الانتقام منهم بما صنعوا.

فقوله: «وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاٰ رَیْبَ فِیهِ» ناظر الی قوله فی صدر الآیه السابقه: ذٰلِکَ جَزٰاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیٰاتِنٰا فهو نظیر قوله: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ -الی أن قال- أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ -الی أن قال- وَ أَنْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ (الأعراف/۱۸۵).

قوله تعالی: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَهِ رَبِّی إِذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَهَ الْإِنْفٰاقِ وَ کٰانَ الْإِنْسٰانُ قَتُوراً فسر القتول بالبخیل المبالغ فی الامساک و قال فی المجمع:

القتر التضییق و القتور فعول منه للمبالغه،و یقال:قتر یقتر و تقتر و أقتر و قتّر إذا قدّر فی النفقه.انتهی.

و هذا توبیخ لهم علی منعهم رساله البشر المنقول عنهم سابقا بقوله: وَ مٰا مَنَعَ النّٰاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جٰاءَهُمُ الْهُدیٰ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَ بَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً و معنی الآیه ظاهر (۱).

[سوره الإسراء (۱۷): الآیات ۱۰۱ الی ۱۱۱]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَیْنٰا مُوسیٰ تِسْعَ آیٰاتٍ بَیِّنٰاتٍ فَسْئَلْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ إِذْ جٰاءَهُمْ فَقٰالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا مُوسیٰ مَسْحُوراً (۱۰۱) قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ بَصٰائِرَ وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرٰادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً (۱۰۳) وَ قُلْنٰا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اُسْکُنُوا اَلْأَرْضَ فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ اَلْآخِرَهِ جِئْنٰا بِکُمْ لَفِیفاً (۱۰۴) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً (۱۰۵) وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی اَلنّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاٰ تُؤْمِنُوا إِنَّ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذٰا یُتْلیٰ عَلَیْهِمْ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ یَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰا إِنْ کٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا لَمَفْعُولاً (۱۰۸) وَ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ یَبْکُونَ وَ یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹) قُلِ اُدْعُوا اَللّٰهَ أَوِ اُدْعُوا اَلرَّحْمٰنَ أَیًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنیٰ وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِکَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا وَ اِبْتَغِ بَیْنَ ذٰلِکَ سَبِیلاً (۱۱۰) وَ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی اَلْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ اَلذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِیراً (۱۱۱)

۱- ۱) .الإسراء ۸۲-۱۰۰:بحث روائی فی الروح.

بیان:

قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِی إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّی لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً الذی اوتی موسی علیه السّلام من الآیات علی ما یقصه القرآن أکثر من تسع غیر أن الآیات التی أتی بها لدعوه فرعون فیما یذکره القرآن تسع و هی:العصا و الید و الطوفان و الجراد و القمل و الضفدع و الدم و السنون و نقص من الثمرات فالظاهر أنها هی المراده بالآیات التسع المذکوره فی الآیه و خاصه مع ما فیها من محکی قول موسی لفرعون: لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ و أما غیر هذه الآیات کالبحر و الحجر و إحیاء المقتول بالبقره و إحیاء من أخذته

الصاعقه من قومه و نتق الجبل فوقهم و غير ذلك فهى خارجه عن هذه التسع المذكوره فى الآيه.

و لا ينافى ذلك كون الآيات إنما ظهرت تدريجا فإن هذه المحاوره مستخرج من مجموع ما تخاصم به موسى و فرعون طول دعوته.

و لعل مخالفه التوراه لظاهر القرآن فى الآيات التسع هى الموجبه لترك تفصيل الآيات التسع فى الآيه ليستقيم الأمر بالسؤال من اليهود لأنهم مع صريح المخالفه لم يكونوا ليصدقوا القرآن بل كانوا يبادرون الى التكذيب قبل التصديق.

قوله تعالى: إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا مُوسیٰ مَسْحُوراً أى سحرت فاختل عقلك و هذا فى معنى قوله المنقول فى موضع آخر: إِنَّ رَسُولَکُمُ الَّذِی أُرْسِلَ إِلَیْکُمْ لَمَجْنُونٌ (الشعراء ۲۷/)و قيل:المراد بالمسحور الساحر نظير الميمون و المشؤم بمعنى اليامن و الشائم و أصله استعمال وزن الفاعل فى النسبه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا أَنْزَلَ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ بَصٰائِرَ وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً المثبور الهالك و هو من الثبور بمعنى الهلاك، و المعنى قال موسى مخاطبا لفرعون:لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا رب السموات و الأرض أنزلها بصائر يتبصر بها ليتميز الحق من الباطل و إنى لأظنك يا فرعون هالكا بالأخره لعنادك و جحودك.

و إنما أخذ الظن دون اليقين لأن الحكم للّه و ليوافق ما فى كلام فرعون: «إِنِّی لَأَظُنُّکَ یٰا مُوسیٰ» الخ؛و من الظن ما يستعمل فى مورد اليقين.

قوله تعالى: فَأَرٰادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً الاستفزاز الازعاج و الإخراج بعنف،و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ قُلْنٰا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اسْکُنُوا الْأَرْضَ فَإِذٰا جٰاءَ وَعْدُ

الْآخِرَهِ جِئْنا بِكَمْ لَفِيفاً المراد بالأرض التى أمروا أن يسكنوها هى الأرض المقدسه التى كتبها اللّه لهم بشهاده قوله: أُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِى كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ (المائده۲۱/)، و غير ذلك كما أن المراد بالأرض فى الآيه السابقه مطلق الأرض أو أرض مصر بشهاده السياق.

و قوله: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ أى وعد الكره الآخره أو الحياه الآخره و المراد به على ما ذكره المفسرون يوم القيامه،و قوله: «جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً» أى مجموعا ملفوفا بعضكم ببعض.

و المعنى:و قلنا من بعد فرعون لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض المقدسه-و كان فرعون يريد أن يستفزهم من الأرض-فاذا كان يوم القيامه جئنا بكم ملتفين مجتمعين للحساب و فصل القضاء.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بوعد الآخره ما ذكره اللّه سبحانه فى أول السوره فيما قضى الى بنى إسرائيل بقوله: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً .

قوله تعالى: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً لما فرغ من التنظير رجع الى ما كان عليه من بيان حال القرآن و ذكر أوصافه فذكر أنه أنزله انزالا مصاحبا للحق و قد نزل هو من عنده نزولا مصاحبا للحق فهو مصون من الباطل من جهه من أنزله فليس من لغو القول و هذره و لا داخله شىء يمكن أن يفسده يوما و لا شاركه فيه أحد حتى ينسخه فى قوت من الأوقات و ليس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم الا رسولا منه تعالى يبشر به و ينذر و ليس له أن يتصرف فيه بزياده أو نقيصه أو يتركه كلا أو بعضا باقتراح من الناس أو هوى من نفسه أو يعرض عنه فيسأل اللّه آيه أخرى فيها هواه أو هوى الناس أو يداهنهم فيه أو يسامحهم فى شىء من معارف و أحكامه كل ذلك لأنه حق صادر عن مصدر

حق،و ما ذا بعد الحق الا الضلال.

فقوله: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ الخ؛متمم للکلام السابق،و محصله أن القرآن آیه حقه لیس لأحد أن یتصرف فیه شیئا من التصرف و النبی و غیر فی ذلک سواء.

قوله تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّٰاسِ عَلیٰ مُکْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِیلاً معطوف علی ما قبله أی أنزلناه بالحق و فرقناه قرآنا،قال فی المجمع:معنی فرقناه فصلناه و نزلناه آیه آیه و سوره سوره و یدل علیه قوله: «عَلیٰ مُکْثٍ» و المکث-بضم المیم-و المکث - بفتحها-لغتان.انتهی.

فاللفظ بحسب نفسه یعم نزول المعارف القرآنیه التی هی عند اللّٰه فی قالب الألفاظ و العبارات التی لا تتلقی الا بالتدریج و لا تتعاطی الا بالمکث و التؤده لیسهل علی الناس تعقله و حفظه علی حد قوله: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (الزخرف۴/).

قوله تعالی: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاٰ تُؤْمِنُوا الی آخر الآیات الثلاث،و المراد بالذین اوتوا العلم من قبله هم الذین تحققوا بالعلم باللّٰه و آیاته من قبل نزول القرآن سواء کانوا من الیهود او النصاری أو غیرهم فلا موجب للتخصیص اللهم الا ان یقال:ان السیاق یفید کون هؤلاء من اهل الحق و الدین غیر المنسوخ یومئذ هو دین المسیح علیه السّلام فهم أهل الحق من علماء النصرانیه الذین لم یزیغوا و لم یبدلوا.

و علی أی حال المراد من کونهم اوتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم کلمه الحق و قبولها لتجهزهم بالعلم بحقیقه معناه و ایراثه ایاهم وصف الخشوع فیزیدهم القرآن المتلو علیهم خشوعا.

و قوله: یَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّداً الأذقان جمع ذقن و هو مجمع اللحیین من الوجه، و الخرور للأذقان السوق علی الأرض علی أذقانهم للسجده کما یبینه قوله: «سُجَّداً» و انما

اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجده،و ربما قيل:المراد بالأذقان الوجوه اطلاقا للجزء على الكل مجازا.

و قوله: وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً اى ينزهونه تعالى عن كل نقص و عن خلف الوعد خاصه و يعطى سياق الآيات السابقه أن المراد بالوعد وعده سبحانه بالبعث و هذا فى قبال اصرار المشركين على نفى البعث و انكار المعاد كما تكرر فى الآيات السابقه.

و قوله: وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً تكرار الخرور للأذقان و اضافته الى البكاء لإفاده معنى الخضوع و هو التذلل الذى يكون بالبدن كما أن الجمله الثانيه لإفاده معنى الخشوع و هو التذلل الذى يكون بالقلب فمحصل الآيه أنهم يخضعون و يخشعون.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى لفظه أو للتسويه و الإباحه فالمراد بقوله: «اللّهَ» و «الرَّحْمنَ» الاسمان الدالان على المسمى دون المسمى،و المعنى ادعوا باسم اللّه أو باسم الرحمن فالدعاء دعاؤه.

و قوله: «أَيًّا ما تَدْعُوا» شرط و «ما» صله للتأكيد نظير قوله: فَبِما رَحْمَهٍ مِنَ اللّهِ (آل عمران/١٥٩).و قوله: عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (المؤمنون/٤٠)و «أَيًّا» شرطيه و هى مفعول «تَدْعُوا» .

و قوله: فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى جواب الشرط،و هو من وضع السبب موضع المسبب و المعنى أى اسم من الاسمين تدعوه فهو اسم أحسن له لأن الأسماء الحسنى كلها له فالاسماء الداله على المسميات منها حسنه تدل على ما فيه حسن و منها قبيحه بخلافها و لا سبيل للقبيح اليه تعالى،و الأسماء الحسنه منها ما هو أحسن لا شوب نقص و قبح فيه كالغنى الذى لا فقر معه و الحياه التى لا موت معها و العزه التى لا ذله دونها و منها ما هو حسن يغلب عليه الحسن من غير محوضه و للّه سبحانه الأسماء الحسنى،و هى كل اسم هو أحسن الاسماء فى

معناه كما يدل عليه قول أئمه الدين:ان اللّه تعالى غنى لا كالاغنياء،حى لا كالاحياء،عزيز لا كالأعزه،عليم لا كالعلماء و هكذا أى له من كل كمال صرفه و محضه الذى لا يشوبه خلافه.

و الضمير فى قوله: «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» عائد الى الذات المتعاليه من كل اسم و رسم،و ليس براجع الى شىء من الاسمين:اللّه و الرحمن لأن المراد بهما-كما تقدم-الاسمان دون الذات المتعاليه التى هى مسماه بهما و لا معنى لأن يقال:أيا من الاسمين تدعوا فان ذلک الاسم جميع الأسماء الحسنى أو باقى الاسماء الحسنى بل المعنى أيا من اسمائه تدعوا فلا مانع منه لانها جميعا أسماؤه لانها اسماء حسنى و له الأسماء الحسنى فهى طرق دعوته و دعوتها دعوته فإنها اسماؤه و الاسم مرآه المسمى و عنوانه فافهم ذلک.

قوله تعالى: وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِکَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِکَ سَبِيلاً الجهر و الإخفات وصفان متضائفان،يتصف بهما الأصوات،و ربما يعتبر بينهما خصله ثالثه هى بالنسبه الى الجهر إخفات و بالنسبه الى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغه فى رفع الصوت،و الإخفات هو المبالغه فى خفضه و ما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآيه لا تبالغ فى صلاتک فى الجهر و لا فى الإخفات بل اسلک فيما بينهما سبيلا و هو الاعتدال و تسميته سبيلا لأنه سنه يستن بها هو و من يقتدى به من امته المؤمنين به.

هذا لو كان المراد بالصلاه فى قوله: «بِصَلاٰتِکَ» للاستغراق و المراد به كل صلاه صلاه، و أما لو اريد المجموع و لعله الأظهر كان المعنى لا تجهر فى صلواتک كلها و لا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطا تجهر فى بعض و تخافت فى بعض،و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما ثبت فى السنه من الجهر فى بعض الفرائض اليوميه كالصبح و المغرب و العشاء و الإخفات فى غيرها.

و لعل هذا الوجه أوفق بالنظر الى اتصال ذيل الآيه بصدرها فالجهر بالصلاه يناسب كونه تعالى عليا متعاليا و الإخفات يناسب كونه قريبا أقرب من حبل الوريد فاتخاذ الخصلتين

جميعا فى الصلوات أداء لحق أسمائه جميعا.

قوله تعالى: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً معطوف على قوله فى الآيه السابقه: «قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ» و يرجع محصل الكلام الى أن قل إن ما تدعونها من الأسماء و تزعمون أنها آلهه معبودون غيره إنما هى أسماؤه و هى مملوكه له لا تملك أنفسها و لا شيئا لأنفسها فدعاؤها دعاؤه فهو المعبود على كل حال.

و ختم سبحانه الآيه بقوله: «وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً» و قد اطلق إطلاقا بعد التوصيف و التنزيه فهو تكبيره من كل وصف،و لذا فسر«الله أكبر»بأنه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق عليه السّلام،و لو كان المعنى أنه أكبر من كل شىء لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى فى معنى الكبر و هو أعز ساحه أن يشاركه شيء فى أمر.

و من لطيف الصنعه فى السوره افتتاح أول آيه منها بالتسبيح و اختتام آخر آيه منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد (۱)(۲).

ص: ۷۷۱

۱- ۱) .الاسراء ۱۰۱-۱۱۱:بحث روائى فى اسماء اللّه الحسنى.

۲- ۲) .الاسراء ۱۰۱-۱۱۱:بحث روائى و قرآنى حول قوله تعالى: «وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّٰاسِ عَلىٰ مُكْثٍ».

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَالَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الكمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ١۴٢۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الكمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونیة من الكتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلكترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراكز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفكرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والكتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الكترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:
طبع الكتب والملزمات والدوريات
إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب
إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية
افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...
الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms
إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين
إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها علی ٨ أنظمة؛
JAVA.١
ANDROID.٢
EPUB.٣
CHM.۴
PDF.۵
HTML.۶
CHM.٧
GHB.٨
إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب علی موقع القائمية ويمكن تحميلها علی الأنظمة التالية
ANDROID.١
IOS.٢
WINDOWS PHONE.٣
WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥
هاتف المكتب في طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١
قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.


مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩